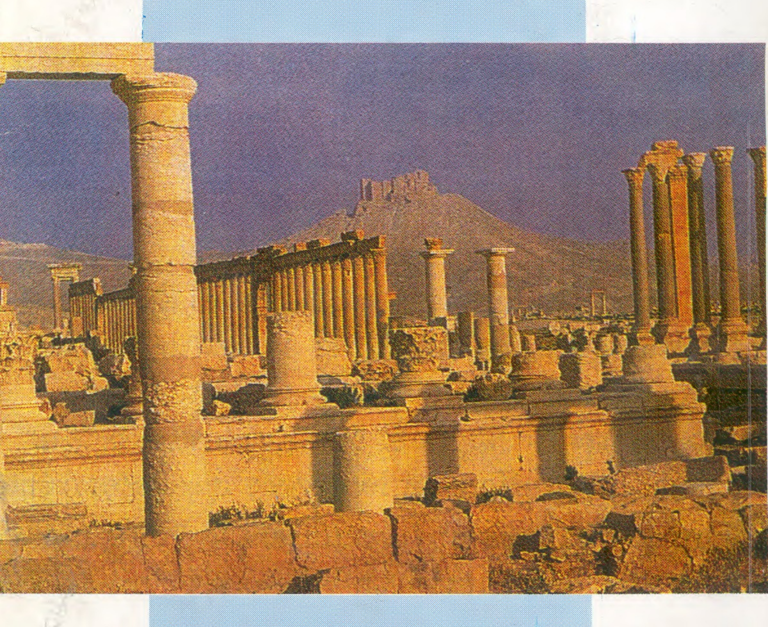
أحمد علي اسماعيل علي
ماجستير تاريخ

تاريخ
بلاد الشام القديم



المجلد الأول

إهــداء

سيدي الرئيس،،

لم أسمع أو أقرأ ولم يخطر ببالي ولا عند أحد كما أعتقد إهداءً يليق بســيادتكم أفضل مما سأذكره نقلاً عــن ابـن إيـاس في كتابـه بدائـع الزهـور، يذكـر أن قـبرة جاءت سليمان بن داؤود وأتته ببعض جرادة كانت في فيها فقيل في ذلك شعراً:

أتـت سـليمان يـوم العرض قبّرة   تهدى إليه جـراداً كـان فـي فيهـا
وأنشـدت بلسـان الحـال قائلــة   إن الهدايا علـى مقـدار مهديهـا
لو كان يهدى إلى الإنسان قيمتـه   لكـان قيمتـك الدنيـا ومـا فيهـا!

سيدي الرئيس،،

النفس والروح من القلب فـداك وأسـأل اللّــه أن يهديـك السـلامة والأمـن والأمان في كل مكان وزمان واللّـه على كل شيء قدير.

أحمد علي اسماعيل علي

ماجستير تاريخ

تاريخ بلاد الشام القديم

المجلد الأول

* تاريخ بلاد الشام القديم
* كمية الطبع ١٠٠٠ نسخة
* الطبعة الأولى ١٩٩٨
* مركز الشام للخدمات الطباعية - دمشق

المقدمة

من المعروف أن الأرض العربية هي المهد الأول الذي نشأت فيه أقدم الحضارات العالميـة، أي مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي، وبالحضارة العربية تأثرت الحضارة البشرية في جميـع أنحاء العالم، وأثبتت الدراسات والبحوث: أن الحضارات، التي قامت على هذه الأرض كـانت علـى اتصال وثيق بكافة المجالات الحضارية القديمة، وأن مصير شعب المنطقة قديماً وحديثاً كان واحداً.

ورغم اختلاف العلماء في تحديد عهد الشعب العربي فتبقى أكثر النظريات أهمية تلك، الـتي تتحدث عن شبه الجزيرة العربية، علمـاً أن أكـثر النظريـات تتفـق علـى: أن المهـد الأول كـان علـى الأرض العربية، سواء أكانت الجزيرة العربية، والتي أكدها علماء كثيرون أمثال:

(١ـ سبرنجر. ٢ـ موسكاتي. ٣ـ ماير. ٤ـ فيلي.) وغيرهم، وأن الموطن الأول للشعب العربي كان سورية، وهي عربية، والذي يؤكده الباحث الأمريكي (كلاي)، أو فيما يتعلق بأفريقية العربية، ومن أشهر المؤيدين لهذه النظرية الباحث (بارتون)، أم كـان الـرأي القـائل: إن بـلاد الرافديـن هـي المهـد الأول للشعب العربـي. فبـلاد الرافديـن عربيـة عـبر تاريخهـا وإلى الآن. ويؤيـد هـذا الـرأي البـاحث الإيطالي (اخباتسيوجويدي).

إذاً جميع النظريات أو الفرضيات تؤكد: أن الأرض العربية هي المهـد الأول للشـعب العربـي دون سواها، و لم ينشر من هذه الفرضيات إلا تلك، التي تدّعي: أن أرمينية هي المهد الأول للشعب العربي، والتي تبناها (بيتر)، علماً أن هذه النظرية اعتمدت في أساسها على التوراة وعلى رسو سفينة نوح بعد الطوفان بالقرب من منابع نهري دجلة والفـرات، ومـن هنـاك كـان الـنزوح العـام للنسـل البشري عن طريق أبناء نوح الثلاثة.

وأنا بدوري أعتقد: أن هذه النظرية محض افتراء قائمة علـى الوهـم والـتزييف، الـذي وضعـه علماء التوراة، وبقي سائداً لفترة طويلة من الزمن، حيث قلبت المكتشفات الأثرية في الوطـن العربـي

شرقاً وغرباً زيف التاريخ التوراتي، كما سيرد معنا. وأقول: إن الطوفان لم يكن عاماً شاملاً للأرض كلها، بل على العكس كان الطوفان موضعياً، شمل منطقة وجود نوح. وأنا أعتقد: أن منطقة هذا الطوفان كانت واقعة جنوب العراق، وهي منخفضة نسبياً، والطوفان لم يشمل إلا هذه المنطقة.

إن الغاية من الطوفان كان قوم نوح فقط، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم، عندما أمره الله: أن يصنع السفينة، وكيف كان قومه يسخرون منه. ومن يؤمن بالله، ويعرف العدل الإلهي يدرك: أن الأرض كانت مسكونة قبل نوح بشتى أنواع المخلوقات، فإذا افترضنا: أن الأرض خارج منطقة نوح لم يكن فيها سوى المخلوقات غير الناطقة، فما الغاية من إغراق الأرض كلها والقضاء على مثل هذه المخلوقات؟! علماً أن الأرض في أماكن أخرى قد تكون مسكونة بمخلوقات بشرية. إذاً العدالة الإلهية تقضي بالقضاء على قوم النبي، الذين خالفوه، طالما أن كل الكتب السماوية تذكره وقومه حصراً دون غيرهم، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ما الذي جعل الباحثين يؤكدون: على أن أرمينية هي المهد الأول للجنس العربي؟ لماذا لا نقول: إن سفينة نوح بدلاً من أن تتجه شرقاً اتجهت غرباً، وكان رسوها على أحد الجبال العربية في سورية أو الجزيرة العربية؟ علماً بأني أعتقد: أن رسو السفينة كان في شرقي سورية، وأن جبل الجودي ما هو إلا أحد جبال سورية الشرقية، وذكر ابن أياس: أن جبل الجودي يقع بالقرب من الموصل. وشيء آخر، لماذا التركيز على أن نوح أبو البشر؟ فنوح هو نبي، أرسله الله إلى قومه، ليقيم عبادة الله، والكتب المقدسة ذكرت قصة نوح على أنه نبي، بينما لم تذكر الكثير من الأنبياء، كما أكد القرآن الكريم ذلك. فمثلاً قد يكون كونفوشيوس الصيني وزرادشت وأفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم الكثير أنبياء من خارج المنطقة العربية.

ثم أن الأنبياء المذكورين في الكتب المقدسة مدفونون في الأرض العربية ابتداء من آدم إلى هابيل إلى نوح إلى سام إلى إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب إلى يونس إلى موسى إلى داوود إلى سليمان إلى عيسى إلى آخر الأنبياء محمد صلوات الله عليهم جميعاً. فمثلاً تذكر المصادر: أن سام بن نوح مدفون في مدينة نوى التابعة لدرعا، ونذكر: أن نوح دفن في قرية قرب الكرك. ولا ننسى أن هابيل قد دفن في سورية، ولا ننسى قوم أيضاً شداد بن عاد، الذي ذكر عنه: أنه هو، الذي بنى مدينة عدن في اليمن، وأيضاً ثمود قوم النبي صالح، الذين كان موقعهم كما يروى: بين أرض الحجاز والشام، وقوم مدين ونبيهم شعيب، وأصحاب الرس، الذين كانوا في أرض حضرموت. كل ذلك أكبر دليل على قدم العرب في أرضهم وإلى الأبد.

أليست الأرض العربية أكبر دليل على قدم العربية؟ تلك اللغة، التي تختلف عن كل لغات

العـالم بمـا تحويـه مـن ألغـاز أو معـان، تفتقدهـا بقيـة لغـات العـالم، إن الخـوض في أصـل نشأة اللغة فضول لا أصل له، إلا أن الكثير من الدلائل والمسلّمات تؤكـد على قـدم اللغـة العربيـة من ذلك الأحاديث النبوية التالية: الأول (خمسة أنبياء مـن العـرب اسماعيل وهـود وصـالح وشـعيب ومحمد « ص »)، الثاني (أحب العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، ولغة أهل الجنة عربيـة)، الثالث (العربية ليست بأب ولا بجد، وإنما هي لسان ناطق، فمن تكلـم العربية فهو عربي).

ومن الخصائص، التي تنفـرد بها العـربية عـن غيرها من اللغات: أن الكلمة العربيـة متعـددة الصيغ سواء أكانت من حرفين أم أكثر، فمثلاً كلمة حرب تؤلف صيغاً متعددة منها (حر ـ رب ـ رح ـ ب ح ـ حرب ـ بحر ـ ربح ـ رحب ـ برح ـ حبر). وحتى هذه الكلمات، لها صيـغ. يضـاف إلى ما ورد: أن كل حرف من الحروف العربية له خصائصه ومعانيه الفتوية، ثـم إن القـرآن الكريـم نزل بالعربية، وهو معجز بألفاظه ومعانيه وأسلوبه، وفيه المعجز العلمي والمعجـز العـددي. بالإضافـة إلى ذلك: أن العربي في الحاضر يمكنه العودة إلى تراث اللغة العربية العائد لما قبـل الإسـلام ومعرفتـه بيسر وسهولة. وخير دليل على ذلك الأدب المسمى: بالجاهلي.

ثم ألم يكن أجدادنا الفراعنة عرباً؟ ألم يكن الكلدانيـون عربـاً؟ ألم يكـن البـابليون عربـاً؟ ألم يكن الآشوريون عرباً؟ ألم يكن الآراميون عرباً؟ ألم يكن العموريون عرباً؟ ألم يكن الفينيقيون عربـاً؟ ألم تكـن اللغـة المسـمارية والهيروغليفيـة والآراميـة والكلدانيـة عربيـة؟ ألم تكـن لغـة إيبـلا ومـاري وأوغاريت عربية؟ ألم يكفي كـل مـا ورد لبطـلان كـل المزاعـم والأباطيل، الـتي تظهـر بـين الحـين والآخر.

وإذا كانت الدلائل تؤكد: أن الأرض العربية سواء أكانت الجزيرة العربية أم سـورية أم أرض الرافدين أم افريقية العربية كلها عربيـة، ولم تشـر إلى أسـطورة الكتـاب المقـدس، الـتي تبنّاهـا بعـض الباحثين في التاريخ الحديث في الوقت، الذي لم يكن التنقيب عن الآثار في الأرض العربية قـد وصـل إلى ما وصل إليه اليوم من الحقائق، التي ثبتت رسوخ وقدم الإنسان العربـي منـذ البـدء علـى الأرض العربية.

ثم إن التشتت، الذي لحق بالعرب، والذي حاول بعض البـاحثين تشـعيبه. كـان مـن خـلال قصص الأنبياء، فمثلاً الصهونية الحديثة معتمدة أساطير التوراة، تحاول أن توجـد لهـا تاريخـاً ممعنـاً في القدم، يعود إلى عهد إبراهيم الخليل. ويبدو أن: رواد التوراة نسوا أن إبراهيم الخليـل أصلـه كلدانـي

من أور، ونسوا أن الكلدانيين عرب، وأن ذكر النبي إبراهيم كان كما يذكره القرآن عربياً صرفاً، فهو حنيف مسلم. والحنيفية دين العرب من عهد إبراهيم الخليل إلى ظهور الإسلام. ثم إن التوراة تؤكد على عروبة إبراهيم الخليل وزوجته سارة، وكلاهما كلدانيان، كما ذكر، وقد حافظا على نسليهما، عندما رغب إبراهيم الخليل أن يزوج ابنه إسحق، بأن أرسل إلى أصله وزوّجه من رفقة، كما ورد في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح (٢٤)، [ورفقة هذه هي ابنة ناحور، أخ إبراهيم الخليل].

وكذلك النبي يعقوب وأبناؤه، هم أبناء يعقوب الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، وهم من أصول عربية، لا شك فيها (لأن النبي يعقوب لقب بالاسرائيلي)، أولئك هم، الذين يثني عليهم دون غيرهم. والنبي يوسف وقصته الكاملة في القرآن ودوره في بناء مصر وعمله الدؤوب الصادق لمصلحة الشعب العربي المصري بكل فئاته دون تمييز. وهكذا تتوالى القصص حتى كان مبعث النبي موسى نبياً، فأخذ يدعو الناس إلى ديانة التوحيد والإيمان برب العالمين، لا كما يدعي بعضهم: بأنه جاء لتكوين جنسية خاصة، أو ما شابهها وتمييزها عن غيرها. لأنه من المعلوم أن السحرة هم أول من آمن برسالته، والسحرة هم عرب مصريون، وكل الذين اتبعوه مصريون، وحتى موسى كان من أصول عربية. وتّتابع الأمور، ويبعث المسيح نبياً من أصول عربية، لغته السريانية المتطورة عن الآرامية هي لغة العرب، تلك اللغة التي كانت لغة التجارة العالمية. خلال هذه المرحلة تعرضت المنطقة لغزوات واستعمار اليونان، الذين سيطروا على المنطقة العربية قبل الميلاد لأكثر من ثلاثة قرون للميلاد، وكان قبلهم البابليون والآشوريون، ثم تلاهم اليونان الرومان، الذين استمروا، حتى كان الفتح العربي. وما يثير، وما يثار في المنطقة العربية هو: ولادة الصهيونية الحديثة المدعية أصولاً تاريخية في فلسطين العربية عبر تاريخها الطويل منذ البداية إلى اليوم معتمدة التاريخ التوراتي، الذي أثبتت المكتشفات الأثرية في الوطن العربي زيف هذا التاريخ وبطلانه، كما سيرد.

إن ظهور العرب وتحريرهم لأرضهم من الغزاة الرومان على سواحل البحر المتوسط والأحمر والخليج العربي والأطلسي وغيرها من بقاع العالم أحدث تبديلاً جوهرياً في ثقافة الشعب العربي من أقصاه إلى أدناه، وأدى إلى السيطرة على التجارة والأرباح الناتجة منها. ولأن بلاد الشام ومصر والمغرب العربي تقع واقعة على ساحل البحر المتوسط الشرقي والجنوبي وتسيطر على البحر الأحمر والخليج العربي وغير ذلك، وكل ما ورد قد ساعدهم على السيطرة على البحار ولا يمكن إنكار ذلك.

فمعاوية بعد أن تولى الشام، أدرك ضعف سلطانه على السواحل أمام القوة البحرية البيزنطية. لذلك كان أول من نظم أسطولاً بحرياً، وأول من أرسل حملة بحرية عربية للغزو في داخل المتوسط. وذلك بعد أن استولى على دور الصناعة البحرية في الاسكندرية وسورية.

كان معاوية قد جمع لهذه الحملة عدداً كبيراً من سفن المدن السورية الساحلية وفرقاً محاربة من مصر، وامتلك سفناً تجارية (كان يمتلكها السوريون والمصريون)، وتم جمع أسطول حربي، قوامه (١٧٠٠) سفينة، تمكن فيه من مهاجمة قبرص سنة (٦٤٨م)، حيث تمكن من الاستيلاء عليها بيسر وسهولة، واستولى على غنائم كثيرة، وفرض على أهلها جزية، بلغت (٧٢٠٠) قطعة من الذهب، تدفع إلى العاصمة دمشق سنوياً.

يضاف إلى ذلك أن هذا الانتصار السريع الخاطف، ساعد العرب على إيجاد قواعد متقدمة نسبياً، ساعدت على تقديم المساعدات، والإبلاغ عن أي استعدادات حربية، يقوم بها العدو البيزنطي آنذاك ضدهم. بعد ذلك سقطت جزيرة أرواد كآخر حصن للبيزنطيين على الساحل الشرقي للمتوسط.

ثم تطورت البحرية العربية ونفذ العرب المسلمون سلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم في مصر وسوريا. ففي سنة (٦٥٢م) قامت حملة من سورية مؤلفة من (٢٠٠) سفينة، وأغارت على جزيرة صقلية، وعادت بغنائم عظيمة. كما وجهت في السنة نفسها حملة أخرى ضد رودس، حيث حصلت الحملة على بعض الغنائم، منها أنقاض نحاسية لتمثال من البرونز لإله الشمس (هليوس) كان قائماً عند ميتارودس، حيث يعدّ أحد العجائب السبع في العالم القديم، والذي بني ما بين أعوام (٢٩٢ ـ ٢٨٠ ق.م)، وسقط بفعل زلزال عام (٢٢٤ ق.م). ثم إن البحرية العربية اضطرت ـ أمام عدم التزام قبرص بالشروط السابقة ـ إلى القيام بحملة ضدها، واحتلت القوات العربية هذه الجزيرة عام (٦٥٤م)، ونزل بها حوالي (١٢,٠٠٠)، وأقاموا فيها على الساحل الشمالي للجزيرة.

إن احتلال العرب لقبرص أثار بيزنطة، ودفعها للقيام بعمليات حربية. ففي عام (٦٥٥م) أعد الامبراطور قنسطانز الثاني خليفة هرقل أسطولاً، قوامه (٧٠٠ ــ ١٠٠٠) سفينة شراعية، وبالسنة نفسها التقى هذا الأسطول البيزنطي مع قوة بحرية عربية مكونة من (٢٠٠) سفينة، وجرت موقعة بحرية، عرفت بموقعة « ذات الصواري »، حيث انتهت هذه الموقعة البحرية بانتصار كبير للعرب

على عدوهم، بعد ذلك توقف العرب والبيزنطيون عن الحرب لأسباب تتعلق بكل منهما. فمن جانب العرب شغل معاوية ـ كما هو معلوم ـ بحربه ونزاعه مع الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي، وكانت النتيجة استلام معاوية زمام الدولة العربية. وأما بيزنطة فقد سادت الدولة اضطرابات في البلقان وباقي ممتلكات الدولة في الغرب. كل ذلك أدى إلى وقف الصراع مع العرب مؤقتاً.

لكن الامبراطور البيزنطي (قنسطانز الثاني)، عندما تمكن من القضاء على الاضطرابات الداخلية، وأحس بالأمن، قام عام (٦٦٦م) بمعاودة النزاع مع العرب، بأن أرسل إلى سورية جيشاً، وصل إلى لبنان، وعرف باسم: المردة، وكان وصولهم عن طريق البحر، كما يعتقد، كما أن إمداداتهم أيضاً كانت عن طريق البحر، وأطلقت بيزنطة عليهم اسم: حائط آسيا الصغرى النحاسي، ونظراً لدورهم الهدام في المنطقة، فقد رغب معاوية بن أبي سفيان بالسلام.

كان معاوية في عام (٦٣٣م) قد نقل أعداداً كبيرة من الفرس إلى المدن كصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا وبعض المدن الأخرى، وعمل على تحصين هذه المدن. وفي عام (٦٦٩م) أضاف أنواعاً أخرى من العراق، وأنزلهم أنطاكية وبعض المدن الأخرى. كما أعيد بناء أسوار مدينة الاسكندرية، التي كان عمرو بن العاص قد هدمها. وقد عاود العرب هجماتهم البحرية، إذ كان هدفهم السيطرة على شواطئ البحر المتوسط. بعد ذلك أغار العرب على صقلية عام (٦٦٩م)، وانتشروا في شمال أفريقية، وأقاموا قاعدة حصينة في القيروان جنوب شرق تونس، ومن هذه القاعدة أخذوا يقومون بأعمال حربية داخل الأقاليم.

ثم اتجهت جهود العرب الحقيقية نحو القسطنطينية، ففي عام (٦٦٩م) قام العرب بغارة على مدينة خلقدونية، وفي عام (٦٧٢م) هوجمت كريت، وتم الاستيلاء على رودس. رداً على ذلك قامت بيزنطة بغارة مضادة على دلتا النيل عام (٦٧٣م)، وفشلت. كما قامت القوات العربية بمحاصرة العاصمة البيزنطية، حيث تعرضت لخطر جسيم. استمر هذا الحصار سبع سنوات، ثم استخدم البيزنطيون النار الإغريقية ضد العرب (ويذكر أن الذي اكتشف النار الاغريقية هو رجل سوري: اسمه: كالينيكوس، كان مقيماً في القسطنطينية). حيث رفع الحصار عن العاصمة البيزنطية عام (٦٧٩م)، وعادت القوات العربية إلى قواعدها، بعد أن أصيبت بحريتها ببعض الخراب نتيجة استخدام النار الاغريقية المذكورة. بعد ذلك تمكن البيزنطيون سنة (٦٨٣م) من الاستيلاء على القيروان بعد انتصارهم على الجيش العربي، الذي كان يقوده عقبة بن نافع، وعاد شمالي افريقية إلى

السيطرة البيزنطية. علماً أن تجمع البربر بقيادة كسيله وانضمامهم إلى البيزنطيين ضد جيش العرب المسلمين، الذي يقوده عقبة كان السبب في هذه الخسارة.

بعد ذلك عقد الخليفة الأموي معاهدة صلح، ودفعت أتاوة وصلت إلى (٣٠٠٠ رطل) من الذهب وخمسين أسيراً وخمسين حصاناً، وذلك في عهد الخليفة يزيد بن معاوية، وتم سحب الحامية العربية من قبرص بعد ثلاثين سنة من السيطرة عليها، تلا ذلك مرحلة صراع في الدولة العربية على السلطة، انتهى باستلام عبد الملك سدة الخلافة.

في عهد عبد الملك بن مروان قطعت الأتاوة المتفق عليها عن القسطنطينية، وأرسل جيشاً يقوده زهير بن قيس من برقة إلى شمال أفريقية، فاستعاد القيروان وقتل كسبيله، وقد اضطر هذا القائد أمام قوة خصمه إلى الانسحاب، وفي الوقت نفسه ازداد نشاط المردة على الساحل السوري، مما دعا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى عقد صلح مع بيزنطة سنة (٦٨٩م). ونصت المعاهدة على: أن يدفع الخليفة المذكور أتاوة سنوية لبيزنطة، مقدارها خمسة آلاف رطل من الذهب و (١٣٦٥ أسيراً) و (٣٦٥ حصاناً)، ونصت المعاهدة على: أن يتعهد الامبراطور البيزنطي جوستنيان الثاني سحب (١٢,٠٠٠) من المردة القابعين في جبال لبنان للإقامة في آسيا الصغرى. كما نصت المعاهدة على: أن يكون دخل قبرص مناصفة بينهما، وأن تظل أرضاً محايدة بين الطرفين.

لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، حيث عادت الحرب، وعاد العداء بين الطرفين عام (٦٩٣م) حينما عرّب الخليفة الأموي الاقتصاد، وضرب الدينار الذهبي العربي لأول مرة، وعندما وصلت الأتاوة الواردة الذكر إلى بيزنطة، أعلن الامبراطور الحرب، إلا أنه فشل في كل مخططاته، وأصبح الاقتصاد عربياً صرفاً شكلاً ومضموناً.

أعقب ذلك صراع على السلطة داخل الدولة البيزنطية، وضعفت قدرتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، على العكس ما حدث عند العرب. ففي عام (٦٩٣م) وجه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حملة حربية قوية، قوامها (٤٠٠٠٠) مقاتل، يقودها حسان بن النعمان، حيث تمكنت هذه الحملة بمساعدة البحرية العربية من القضاء على المعاقل البيزنطية على الساحل، فقد سقطت قرطاجة عام (٦٩٥م)، وفي سنة (٧٠٠م) انتهى العهد البيزنطي في شمال أفريقية وإلى الأبد.

سببت هذه الانتصارات اهتمام الدولة الأموية بالقوة البحرية، فقد أمر الخليفة الأموي عبد

الملك بن مروان والي أفريقية موسى بن نصير بإقامة قاعدة بحرية قرب تونس الحالية، وزودها بألف مصري من بناة السفن مع عائلاتهم. بعد ذلك سيطر العرب على جزيرة قوصرة، كما سيطروا على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية.

بعد أن بنى القائد العربي موسى بن نصير هذه القاعدة، أمر بصناعة مائة سفينة، إضافة إلى القوة البحرية العاملة في البحر المتوسط، وبذلك أصبح للعرب ثلاثة مراكز بحرية (سورية ــ مصر ــ شمال أفريقية). بعد ذلك وفي عام (٧٠٣م) هاجم الأسطول البحري في مصر صقلية، إلا أنه لم يوفق. بعدها أرسل موسى بن نصير قواته البحرية لمهاجمة صقلية وسردينية. وفي عام (٧٠٨م) قاد موسى بن نصير قواته البحرية، وأغار على جزيرة مايورقة، وسيطر عليها، وأسر حاكمها، كما سيطر عام (٧١٠م) على جزيرة سردينية.

بعد سيطرة موسى بن نصير على شمال أفريقية قرر مهاجمة أسبانية عن طريق جبل طارق، وقرر إرسال قوات إلى سبتة، يقودها طارق بن زياد، وبعد نزول طارق على شواطئ أسبانيا اتخذها قاعدة له، ثم تابع زحفه وانتصاراته، بعد ذلك لحق به موسى بن نصير وأصبحت الحرب في اسبانيا حرباً برية بحتة، كما نعلم، حيث امتد نفوذ العرب، وأصبح كالهلال ابتداءً من الشاطئ الشرقي للمتوسط وامتداداً إلى شواطئ مصر وساحل أفريقية وامتداداً حتى اسبانيا، وكادت القوات العربية أن تطبق على الدولة البيزنطية، ثم حاصر العرب عاصمة الدولة البيزنطية القسطنطينية، كما هو معروف، واستمرت القوات العربية في فتوحاتها على المتوسط. بعد ذلك قلت قوة العرب البحرية عام (٧٥٢م)، وأصبح الصراع بين الطرفين مناوشات وغارات انتقامية، أو غارات مضادة لكلا الطرفين.

إذاً لقد أحدثت الدولة العربية الجديدة والأولى من نوعها في شمال الجزيرة العربية تغييرات جذرية في المنطقة، في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. فمن الناحية السياسية، اعتمدت الدولة الجديدة الوحدة السياسية، التي تحميها مؤسسات الدولة ذات القيادة الواحدة المعتمدة نظماً جديدة، يشملها القرآن الكريم، الذي جاء بدستور صالح للاستخدام في كل زمان ومكان، ويشرف على تطبيق الدستور النبي العربي محمد بن عبد الله، الذي كان لا ينطق إلا بالحق، الذي أمره الله به، وكان هدف سياسة الدولة بكل وسائلها السامية الإنسان والارتقاء به في جميع الميادين، واتصفت الدولة منذ البداية بالتسامح الديني، الذي شمل غير العرب المسلمين، حتى وجد مثل ذلك في البلاط الأموي.

أما التغييرات الاقتصادية، التي أحدثتها الدولة الإسلامية، فقد أحدثت في الدولة الجديدة انقلاباً جذرياً في هذا المجال، ففي مرحلة قصيرة اتحد اقتصاد العرب من مشرقه إلى مغربه، لا بل تعدّى ذلك إلى علاقات اقتصادية عربية مع الدول المجاورة، وتطورت التجارة الداخلية والخارجية نتيجة لتطور وسائط الاتصال والانتقال المتوفرة وتطويرها، كما شكلوا أسطولاً تجارياً، غايته التجارة الداخلية والخارجية لهذه الدولة المترامية الأطراف، التي بلغت أقصى اتساع لها في العصر الأموي، أي أن التجارة آنذاك شملت العالم بأسره.

والقوانين التي أحدثها العرب منذ بداية الدولة كانت متطورة، وبعد فترة قصيرة أوجدت أنظمة إدارية اقتصادية جديدة، كنظام الضرائب والعملة الذهبية وكل ما يتعلق بالصناعة والتجارة، وأصبحت الإدارة عربية في كل مجالاتها، واستمرت الصلة بين ماضي العرب وحاضرهم. إذاً بلغت حركة وحرية التجارة العربية أقصى تطور واتساع لها في عهد الدولة العربية، يؤكد ذلك الرخاء، الذي ساد أبناء الدولة ومؤسساتها، فمثلاً غدت بعض المدن العربية كدمشق والاسكندرية ملتقى تجارة العالم كله، كما عمّ الرخاء جميع المدن الأخرى.

وبقيت التجارة العربية تعمل بالاتجاه نفسه، الذي كانت سائرة عليه، وبقيت طرق التجارة الكبرى هي نفسها مع بعض التحسن، كما كانت موجودة في الماضي، وازدهرت الموانيء العربية كالاسكندرية وصور وصيدا وبيروت وأنطاكية واللاذقية وغيرها، ووجدت الأسواق، وانتشرت في الداخل والخارج، وانتقلت البضائع في كافة الاتجاهات، كما كانت المصالح التجارية مهمة في المفاوضات، التي تجري بين الخلفاء العرب وحكام الدول الأخرى، وكانت المبادلات التجارية بين رعايا الدولة والدول الأخرى تتم حسب قوانين ومراسيم رسمية، حتى أنه وجد في بعض المدن متدربون، مهمتهم الأساسية التجارة ومقوماتها.

أيضاً تطورت الزراعة، وتفاعلت، بعد أن توسعت الدولة، وأدخلت، وهجنت زراعات جديدة، وتطورت وسائل الزراعة بمرور الزمن، وازداد الإنتاج، وتحسنت الحالة الاجتماعية، وازداد الثراء. أضف إلى ما ورد ما قدمه التغيير السكاني في هذه الدولة. وقد ساعد على ذلك أن: تحرير العرب لأراضيهم كان سريعاً من جهة، ومسالماً من جهة أخرى. كل ذلك ساعد على الاستقرار الكامل. فالجيوش العربية انطلقت من الجزيرة العربية وحررت أرضها العربية واستقرت بها وكونت المدن والمعسكرات، أضف إلى ذلك ما فعله معاوية، عندما نقل أعداداً وفيرة من السكان إلى مدن الساحل السوري، وذلك الصراع، الذي ظل مستمراً بين الروم والدولة العربية. إذاً استمرت حركة

توزع السكان من سورية إلى مصر والعكس، ومن العراق إلى الشرق، ومن دمشق إلى أنحاء الدولة الرومانية. كل ذلك ساعد على تطور الدولة. ومن العوامل المساعدة أيضاً على التوزع السكاني تلك الحروب، سواء الداخلية منها أم الخارجية، التي استمرت خاصة على أطراف الدولة في كل الاتجاهات.

اتصف العرب خلال حكمهم بالأدب والحلم والتسامح نحو الناس، ودعتهم ووقارهم في جميع الأحوال، فأدى ذلك إلى الطمأنينة والسعادة، فالدين الجديد، الذي هو دستور الدولة، أهم سماته الإيمان بالله الواحد، وبمساواة جميع الناس أمامه، بالإضافة إلى الأركان الأساسية، التي اعتمدها كل مسلم، إذاً كان العدل والإحسان من العوامل المساعدة والفعالة على انتشاره في العالم في أقصر وقت، وتمكنت الحضارة العربية الإسلامية أن تسطع بنورها الوهاج في سماء العالم.

ومن المعلوم أن الدين الإسلامي وما جاء به هو أكثر الديانات السماوية إيماناً بالعلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس. فمثلاً أعطى الإسلام أهل الذمة حرية التفكير والاعتقاد، فأباح لهم إقامة شعائرهم وإعلان طقوسهم، كما أباح لهم الجهرية، وأقرهم على اتباع أحكام دينهم. ومن أهم الميزات، التي سادت الدولة هي: وحدة اللغة العربية، التي سادت أصقاع الدولة، فكانت أكبر لغات العالم انتشاراً. والمعروف أن القوة لم تكن السبب في انتشار العرب وتوسعهم إنما كان العدل والحرية، التي ساسوا بها العالم. كتركهم الشعوب المغلوبة أحراراً في أديانهم، وكثير من هذه الشعوب اتخذوا العربية لغة لهم.

إذاً كان انتشار الإسلام بالدعوة، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب، وأدت القوانين الجديدة في الدولة إلى وجود مصالح وآمال مشتركة. كل ذلك أدى إلى تجانس الدولة، ولا سيما العرب منهم. إذاً كانت المساواة عامة، والدين للجميع على السواء. لذلك أدرك العالم آنذاك أن تبدلات، تحدث عندما وجد العرب المسلمون، والعالم سيكون له سادة جدد.

من المعروف أن سنة (١٣٢ ـ ٧٥٢م) كانت نهاية عصر الدولة الأموية وابتداء عصر جديد هو: العصر العباسي. هذا التبدل أدى إلى تغيير مقر العاصمة من دمشق إلى العراق (بغداد)، إلا أن ذلك أدى أيضاً إلى إقامة دولة أموية مستقلة في إسبانية (١٣٦هـ ـ ٧٥٦م). في العصر العباسي ويمكن أن نقول: إن دور التوسع كان قد انتهى. وتغير العاصمة والحكام أدى إلى تغيير النظم، التي كانت سائدة، ففي عصر العباسيين تم ازدهار الحضارة، وتطورت الثقافة العربية،

وأبدع العرب آنذاك حضارة ساطعة، ازدهر فيها الأدب والعلم والفن، ونهضت الفنون والعلوم والاقتصاد.

ذكرنا: أن الأمويين أقاموا خلافة في قرطبة، وحدثت بعض الصراعات الداخلية عندهم. كل ذلك أدى إلى انقسامات داخل الدولة. إلا أن ذلك لم يؤثر على دوام الحضارة. وخلال حكم العباسيين كانت الحروب الصليبية، والعالم العربي - كما نعرف ــ مقسم. لكن ورغم ذلك كان نصيب هذه الحملات الفشل. وكان لظهور الفاطميين أثر كبير على وضع العالم العربي الإسلامي، ثم كان الأيوبيون، ثم المماليك، الذين كانت نهايتهم على يد العثمانيين. وبذلك تكون مرحلة جديدة، قد سادت الوطن العربي.

وخلال العهد العباسي استمرت التجارة العربية في تطورها، إلا أنها تعرضت لبعض العقبات منذ البداية. منها بعد العاصمة الجديدة عن سواحل المتوسط، زد على ذلك الصراعات الداخلية والخارجية ووجود دويلات مستقلة، إضافة إلى الحروب، التي انتشرت في كل مكان وخاصة في المرحلة الثانية من العصر العباسي حتى نهاية المماليك. إذاً تدهور الاقتصاد أواخر عهد الدولة العباسية، وفرضت الضرائب، إلا أن الوضع التجاري والاقتصادي بشكل عام تأثر بسيطرة بيزنطة على الملاحة البحرية والدولية، وأهملت نسبياً التجارة العربية البحرية. لكن تجارة الداخل تطورت، وازدادت أهمية، إلا أن ذلك لم يكن عاماً.

فالفاطميون حاولوا السيطرة على المشرق العربي، كما هو معروف، وغايتهم تشكيل قوة بحرية، تضاهي قوة بيزنطة. بالمقابل كانت قوة الأمويين في الأندلس آخذة بالانهيار والتدهور. وبذلك كانت القوة البحرية هناك ضعيفة، فأخفقت التجارة. أما القوة الفاطمية فقد تمكنت من التغلب على سوريا بكاملها، وحررت الموانئ السورية من بيزنطة، ووصلت القوة الفاطمية ــ وخاصة البحرية - إلى مرحلة تجاوزت فيها قوة بيزنطة البحرية. وخاصة في آخر القرن العاشر الميلادي.

لكن وجود الدولة الزنكية - بقيادة نور الدين زنكي - جعلها تتمكن في النهاية من استئصال الفاطميين. بعدها برزت الدولة الأيوبية، بقيادة صلاح الدين في مصر، ومن المعروف أن الحروب الأيوبية ضد الصليبيين كانت قد أخذت كل وقت صلاح الدين، وبعدها انقسمت البلاد، وتأثر الاقتصاد، وضعفت الدولة في أواخر أيامها، فساعد ذلك في الوصول المماليك إلى السلطة في مصر.

ثم امتد نفوذهم إلى الشرق العربي، فقضي على الصليبيين نهائياً، وقويت الدولـة سياسـياً واقتصاديـاً وعسكرياً لفترة. ثم أخذ الضعف يدب في جسمها، حتى كانت نهايتها على يد السـلطان العثمـاني سليم الأول.

ابتدأت مرحلة جديدة للدولة العربية بسيطرة العثمـانيين عليهـا، وأصبحـت أقـاليم وولايـات تابعة لها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وظلـت علـى حالـة مـن الضعـف والتخلـف إلى بدايـة القـرن الحالي، حيث كانت الحرب العالمية الأولى، وسيطر الاستعمار الأوربي على الوطن العربي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وما بعدها. ثم بـدأت عمليـة التحـرر الوطـني، وبـدأت مرحلـة استقلال هـذه الأقاليم بشكل متتابع، وبذلك يكون نجح الاسـتعمار في تشـتيت الوطـن العربـي اقتصاديـاً وسياسـياً وعسكرياً، ولتكريس ذلك زرع الصهيونية في قلب الوطن، لكـي يبقـي الأمـة العربيـة علـى الوضـع الراهن، لكن الصراع بدأ منذ ولادة الصهيونيـة، واسـتمر وسيسـتمر حتـى إعـادة الحـق إلى نصابـه. فحرية الشعوب وإرادتها لاتقهر.

أحمد علي

٧ / ٧ / ١٩٩٧

الباب الأول

الفصل الأول

حضارة بلاد الشام

حضارة بلاد الشام

ما قبل التاريخ:

أثبتت المكتشفات الأثرية في حوض النهر الكبير الشمالي (اللاذقية) قرب قرية (ست مرخو) أن وجود الإنسان واستقراره يعود إلى مليون سنة خلت، وتم اكتشاف أكمل تشكيلة أثرية وجيولوجية بدءاً من مليون سنة حتى خمسين ألف سنة، ووجدت أدوات حجرية صوانية، تمثل كل مراحل ما قبل التاريخ.

في هذا العصر كان الناس ما يزالون جامعي طعام، يؤمنون عيشهم بواسطة الصيد البري، والصيد البحري، وجمع الثمار الصالحة للأكل. وعن منشأ الزراعة، وتدجين الحيوانات في بلاد الشام، فقد كانت الأراضي المرتفعة، والوافرة المياه، والتي كانت تحيط بالصحراء السورية، هي البيئة الطبيعية لقطعان الأغنام والماعز والخنازير. هذا وقد تم الكشف عن نوعين من القمح والشعير البري في العصور القديمة الأولى، انتشر الأول في المنطقة الواقعة ما بين البلقان إلى غرب إيران. بينما كان موطن النوع الثاني في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين)، كما وجد في بلاد الرافدين، وشرق تركيا، وبلاد فارس، وقد عرفت بلاد الشام الغابات الكثيفة والمراعي الواسعة. هذا ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى الفترات التالية:

١ـ العصر الحجري الوسيط: ويمثل هذا العصر الطور الأخير في مرحلة الجمع الكثيف للغذاء، ويمتد من (١٠,٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ ق.م).

٢ـ العصر الحجري الحديث: يحمل هذا العصر الدلالات على ثورة العصر الحجري الحديث، المتمثل بانتقال الإنسان من جمع الطعام إلى إنتاجه بشكل جيد، والخروج من الكهوف لبناء

أوائل البيوت، وفي هذا العصر تم ترسيخ الزراعة، وإنتاج الغذاء وتدجين الحيوانات، ويمتد هذا العصر من (٧٠٠٠ - ٥٦٠٠ ق.م).

٣- العصر الحجري النحاسي: في هذا العصر بدأت الأسلحة والأدوات المعدنية تظهر، وتأخذ مكانتها تدريجياً، كما تم إنتاج الأسلحة، والأدوات التقليدية من الحجارة، وتم وضع الأساس لتطور العصر البرونزي. ويمتد هذا العصر من (٥٦٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م).

نشأت في لبنان وفلسطين حضارة، تدعى الحضارة الكبارية[1]، ومعها النبكية في المنحدرات الشرقية لجبال لبنان إلى الشمال من دمشق. وأعقب هذه الحضارة حضارة أخرى، سميت بالحضارة النطوفية، مع العلم أن أصل هذه الحضارة ما زال غامضاً حتى الآن. وفي البداية استوطن الإنسان في جبال فلسطين وفي كهوف الكرمل، أو على مصاطب أمام هذه الكهوف. فكهوف الكرمل ومغارة الواد، ومغارة الكبار[2]، كانت تطل على مستنقعات أو أراضي صيد خصبة، بينما كانت عين ملاحة (بوادي الأردن)، تطل على برك ومستنقعات بحيرة الحولة.

أما أريحا فتدين في موقعها إلى وجود نبع ماء غزير. بينما كانت البيضا (قرب البتراء) على مصطبة مطلة على أحد الوديان. هذا ويذكر: أن الحضارة كانت قد وصلت إلى هذه المنطقة بعد عام (١٠,٠٠٠ ق.م) بقليل، وخلال هذه المرحلة، كان الصيد (البري والبحري) المصدر الأساسي لطعام السكان. وفي قرية (عينان) النطوفية القديمة أظهرت بعض الأدلة وجود مجموعة من بعض الحيوانات، كالماعز والغزلان والخنازير والضباع والثعالب والأرانب والطيور المختلفة، كما دلت الآثار على وجود الدبب والنمور في جبال الكرمل. وتم الكشف عن مراكز استقرار في منطقة (عينان)، حيث تم الكشف عن ثلاث قرى دائمة، تنتمي إلى الحضارة النطوفية.

ضمت كل قرية ما يقارب الخمسين بيتاً دائرياً، أقطارها بحدود سبعة أمتار، نظمت حول منطقة مركزية، تحتوي على عدد من المخازن المدهونة بالجص، والبيوت مصنوعة من الحجارة، وأرضيات الغرف دون مستوى الأرض، أما المواقد المبنية من الحجارة، فكانت تقام في وسط الغرفة، أو في أحد جوانبها. كما كانت الجاروشة (الرحى) والهاون يوضعان في أرضية الغرف. وقد عثر على مدافن للأطفال تحت أرضية الغرف، ووجدت أضحيات وحلي مع الميت كالعقود والخرز وما

---

[1] سميت بالحضارة الكبارية نسبة إلى مغارة الكبارا في فلسطين.

[2] سلطان محيسن: عصور ما قبل التاريخ - طبع دمشق - ١٩٩١م - ص١٩٦.

شابه ذلك. وعثر أيضاً في (عينان) على ثلاثة أشكال للمدافن: المدافن الفردية، والمدافن الجماعيـة في حفر (غالباً ما تحتوي هذه المقبرة على ثلاثة أفراد، وقد كـبي إثنـان منهمـا وجهاً لوجـه، والمدافـن الجماعية الثانوية[1]. ومعظم هذه القبور تحتوي على المغره الحمراء.

اعتمدت صناعة النطوفيين الحجرية على موأد محلية، فاستعملوا الصوان والشـرت[2] في صنـع أدواتهم وأسلحتهم. وعثـر على معاول استخدمت في الزراعة، وأزاميل ومناقيـش لأعمال الخشب ونقش ونحت العظام. كما استعملوا البازلت المحلـي لصناعـة الجاروشـة والهـاون، وقـد كشـف عـن أكواب بازلتية في (عينان وكبارا ووادي فلاح). وكـان للنطوفيـين حـب عظيـم للفـن، وكـان هـذا الحب طبيعياً أحياناً، ومنظماً أحياناً أخرى. والتطور الحقيقي لهـذه الحضـارة تم في مواقـع الكهـوف. فمثلاً تطورت أريحا من قرية ذات أكواخ بسيطة إلى مدينة كبيرة، تمتد بحـدود عشـرة أفدنـة، وهـذا التطور يقتضي حدوث تقنية زراعية حديثة لزراعة القمـح والشعير، حيـث عـثر علـى غـرف لخـزن الحبوب.

تتألـف مدينة أريحا من بيـوت دائرية الشـكل، مبنية من قرميد طيني، شـكلها مقـوس. هـذه البيوت مبنية على أساس من الحجر. وأرضية الغرف دون مستوى الأرض، يتم النزول إليها عبر بضع درجات. وتتألف معظم البيوت من غرفة واحدة دائرية أو بيضوية، يتراوح قطرها مـا بـين أربعـة أو خمسة أمتار. وتغطي الغرفة قبة مصنوعة من القصب والجص الطبيعي. والجدران والأرضيات مغطـاة بالجص أيضاً. أما الأبنية الأكثر اتساعاً فتتكون من ثلاث غرف. في البدايـة لم تكـن المدينـة محصنـة، وبعد أن حدثت بعض التطورات، أصبحت أسـوار المدينـة ضروريـة للحمايـة، فـأوجدوا تحصينـات كانت عبارة عن خندق دفاعي محفور في الصخر، بعـرض ثمانيـة أمتـار ونصـف، وبعمـق يزيـد عـن مترين. وضمن الخندق بني سور من الحجارة بسماكة (١,٦٤م) وارتفاع (٣,٩٤م).

كما عثر في أريحا على برج دائري[3] مشيد من الحجر، ارتفاعه بحـدود (٨,١٥م). ولـه درج داخلي، عدد درجاته ثمان وعشرون درجة مصنوعة من الحجـر، عـرض كـل منهـا مـتر واحـد، وفي أسـفل هـذه الدرجـات ممـر بطـول (٣,٩٤م)، يـؤدي إلى بـاب، ارتفاعـه (١,٧٠م)، وتوجـد قنـاة تصريف المـاء من قمـة الـبرج إلى عـدد من الحظائر، أكثرهـا بنـي فـي الجـانب الشـمالي للـبرج،

---

(١) المدافن الثانوية: عبارة عن مدفن عام تجمع فيه الجثث بعد أن تتلف الأجزاء الطرية من الجسم.

(٢) الشرت: نوع من الصوان غير نقي.

(٣) جان كوفان: القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع ق.م طبع دمشق ١٩٩٥ ص ٧٨.

وكشف عن أخرى في الجهة الجنوبية، كانت معدة لخزن الحبوب. وقد استخدم هذا البرج لزمن طويل، وأعيد اكساؤه وترميمه عدة مرات، كانت إحداها بعد أن التهمته النيران. وذكر أن البرج كان قد بني بعد الألف الثامن قبل الميلاد.

وقد كان عدد سكان أريحا بحدود ألفي نسمة. أما التحصينات التي ذكرناها فكانت دفاعية، بنيت ضد هجمات الشعب، الذي سيطر على الموقع في نهاية الأمر، في مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. والإزدهار في أريحا لم يكن مصدره الزراعة، إنما كان التجارة، لأن مدينة أريحا كانت تتمتع بموقع مناسب لإقامة المشاريع التجارية. فأريحا كانت تسيطر على مصادر البحر الميت كالملح والقار والكبريت. كما كانت تسيطر على استيراد الزجاج البركاني الأسود، والحجر الأخضر من الأناضول، والفيروز من سيناء. ومن المواقع الأخرى التي اكتشفت فيها الحضارة النطوفية (وادي فلاح ـ جبل الكرمل)، حيث عثر هناك على منازل نطوفية حجرية مستديرة، مزودة بمواقد حجرية، أقطار هذه المنازل تتراوح ما بين (٢ إلى ٥م).

أما قرية البيضا (قرب البتراء)، فكانت تحتل مساحة تتراوح ما بين (١,٥ إلى ٢ فدان)، وهي مكونة من بيوت مبنية تحت الأرض، أشكالها شبه مستطيلة، وجدرانها مستقيمة، يتبع البيت مطابخ ومخازن، ويذكر أن هذه القرية كانت مشغولة ما بين عامي (٧٢٠٠ ـ ٧٠٠٠ ق.م)، وهناك ظاهرتان لهذه القرية، الأولى: استعمال الجص الملون بالبني والأحمر والكريم والأصفر والبرتقالي. والثانية: وجود الحبوب على الجص. ووجدت حضارة مماثلة في عين ملاحة، إلا أن الصناعة الحجرية فيها كانت مختلفة. ووجدت صناعات مشابهة أيضاً في (أبو صوان) قرب جرش.

وفي الألف السابع قبل الميلاد، انتشرت حضارة جديدة حلت على أنقاض غيرها أسبق منها، وقبل أن يستعمل الفخار في فلسطين. ويمكن التعرف عليها من خلال مدينة أريحا وما حولها، ووصلت في انتشارها حتى البيضا. وقد حدد زمن هذه الحضارة من خلال انقطاع التقاليد النطوفية. والحضارة هذه لم تحدث أي تغيير في مجال الاقتصاد، الذي بقي مبنياً على أساس الزراعة، وتدجين الحيوانات. أما في مجال الصناعة الحجرية، فإن رؤوس السهام، وبعضها كان له ساق، وكذلك نصال المناجل الطويلة فهي نماذج لهذه الصناعة. وكانت المثاقب شائعة، أما المكاشط فكانت نادرة. وكانت الصناعة الحجرية مختلفة إحداها تدعى الصناعة الطاحونية[1] ،

[1] جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى ـ طبع دمشق (١٩٩٠م) ص٤٩.

وكان الصوان المتوفر في المنطقــة هو المادة الرئيســية لهذه الصناعة، علماً أن الزجــاج البركاني كان موجوداً في فلسطين وفي أريحا أيضاً.

الظاهرة الجديدة في هذه الحضارة هي الجاروشة اليدوية البيضوية، المفتوحة بشكل ضيق من أحد جوانبها، يضاف إلى ذلك ظهور الأواني والأطباق المصنوعة من الكلس. واستعمال السلال التي عولجت بالكلس والقار، وكذلك الجلود، ووجود الحصر المستديرة. علماً أن صناعة الفخار لم تكن معروفة آنذاك.

أما فن العمارة في أريحا خلال هذه المرحلة فكان متطوراً. فالقرى أصبحت أكبر حجماً، وكانت محصنة بأسوار. وأساسات البيوت كانت حجرية، والجدران والأرضيات مكسوة بالجص، وكان الجص الكلسي المصقول مدهوناً باللون الأحمر، والقسم السفلي من الجدران كان مدهوناً على ارتفاع متر باللون الأحمر. أما القسم العلوي، فكان مدهوناً بلون الكريم، وأرضية الغرف باللون الوردي، أو ملونة بالكريم أو الأبيض. وبنتيجة التنقيب عثر على آثار لرسوم مثل شجرة، أو عظام سمكة على الأرض، وكشف عن مواقد على شكل أحواض مستطيلة، أما مداخل الغرف فكانت واسعة.

إضافة إلى التماثيل الصغيرة التي تمثل الآلهة الأم، والتي كانت تصور الحيوانات المرتبطة بعقيدة الخصب[1] في بلاد الشام. فقد عثر على بقايا آثار تمثال ضخم في أريحا، وعثر على تماثيل مجسمة مصنوعة من الفخار، ومدهونة باللون الأحمر. وكانت هذه التماثيل بالحجم الطبيعي. كما عثر على رأس من الجص، وتمثال نصفي بالحجم الطبيعي. من ذلك نستنتج أن شكل الإنسان في فلسطين آنذاك، كان أكثر تطوراً وجمالاً وتحضراً من النموذج النطوفي. أما (البيضا) قرب البتراء، فكانت نموذجاً للقرية في هذا العصر. فالمساكن كانت عبارة عن غرف مزودة بمواقد دائرية مرتفعة قليلاً عن الأرض، ووراء هذه المواقد مقعد واسع على الجدار الجنوبي. والجدران كانت كما هي عليه في أريحا ملونة باللون الأحمر والكريم. وكانت هذه القرية مسورة، وتحتوي على عدة مشاغل مرتبة حول غرف سكنية، وتفصل الباحات، والممرات بين الورشات والغرف، التي كان يتم الدخول إليها عبر ممرات ضيقة، أبعاد بعضها (٦ × ٩).

أما الورشات فكانت مستطيلة الشكل، يتم الدخول إليها من غرف أمامية، أو مدخل

---

[1] عبد الهادي عباس: المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها - طبع سورية ١٩٨٧ - ج١ - ص٢٢٥.

مسقوف، يؤدي إلى ممر، ينتهي إلى ثلاثة مهاجع للنوم، وتفصل هذه الغرف بعضها عن بعض دعائم عريضة. إحدى هذه الغرف كانت دكان لحام، وأخرى لصانع الأدوات العظيمة، وثالثة لصانع الخرز. ومن ذلك تعدَّ قرية البيضا[1] سوق المنطقة، لأنها كانت تسيطر على طرق التجارة بين الصحراء والشاطئ المتوسط عند غزة، وبين البحر الأحمر ووادي الأردن وأريحا. وهذا ما يؤكد وجود نشاط صناعي وتجاري كبير خلال هذه المرحلة التي دامت طوال الألف السابع، وفترة.. لا بأس بها من الألف السادس قبل الميلاد، ونهاية هذه الحضارة غامضة.

عرفت نماذج نطوفية في يبرود[2]. وتعدّ مغاور يبرود في القلمون على مقربة من النبع، من أهم مراكز الاستقرار في العصر الحجري القديم، وقد اكتشفت عام (١٩٣٠م)، كما عثر على آثار هامة لفعالية أقدم المجتمعات الإنسانية، حتى أضحت الثقافة اليبرودية نموذجاً للثقافة الإنسانية في العصر الحجري القديم الباكر. وقد عثر على نصال حجرية، وأدوات أخرى من العصور الحجرية المتعاقبة، مما يدل على الاستمرار في شغل المواقع[3].

وفي عدد آخر من المواقع السطحية المسماة بالطاحونية، امتدت من فلسطين إلى لبنان وحوض دمشق، وخاصة في أريحا في مرحلة ما قبل الخزف، ووصلت هذه الصناعة إلى الأوج في مرحلة ما قبل الفخار[4].

فالبيوت المستطيلة ذات الأرضيات المكسوة بالجص، والأواني الحجرية، هي ظاهرة شمالية معروفة قبل مرحلة الفخار في رأس شمرا، ومرحلة العصر الحجري الجديد الفخاري في جبيل. إذاً فالحضارة ما قبل الفخارية لم يعثر على أدلة، تؤكدها حتى الآن. إلا أن ذلك لا يعني عدم وجودها في هذه المنطقة. فالحفريات ما زالت قائمة، وقد تؤكد وجودها واكتشافها مع الزمن.

رأينا فيما سبق في الألف السابع قبل الميلاد، كيف أن التقاليد السورية المتميزة بالأبنية المستطيلة، والأرضيات الجصية، قد هيمنت على التقاليد النطوفية، وخاصة الفلسطينية ذات الأبنية المستديرة. ومنذ نهاية الألف السابع قبل الميلاد أو بداية الألف السادس أدخلت صناعة الفخار وتماثيل الغضار المشوي إلى المنطقة. وهذه التغيرات نتيجة لحركة السكان. فالأبنية التي تم الكشف

---

[1] كانت قرية البيضا متقدمة أكثر من البترا كونها كانت تسيطر على طرق تجارية.

[2] سلطان محيسن: عصور ما قبل التاريخ ـ طبع دمشق ١٩٩١ ص٢٠٦.

[3] جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى ـ ص٥٩.

[4] محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سورية القديم ـ طبع دمشق ١٩٨٣ ص٤٥.

عنها، كانت المخططات المستطيلة لها هي الأساس، باستثناء أريحا التي تميزت فيها الأبنية بالنموذج الدائري للأكواخ المبنية تحت الأرض، أي أن أبنية عصر أريحا الحجري الحديث الفخاري، تُعَدُّ دلائل واضحة عن كونها تنتمي إلى مرحلة أحدث.

أما في جبيل الواقعة على شاطئ البحر، ذلك المكان الذي أعطاها موقعاً دفاعياً ملائماً، فقد أنشئت فيها البيوت بشكل مبعثر على جانبي وادٍ، معظمها كان صغيراً ومستطيل الشكل، وله أساسات حجرية، ويبدو أنها كانت طابقين، أرضيتها مكسوة بالجص، وهي مختلفة عن بعضها بعضاً من حيث الحجم وعدد الغرف، فبعضها كان يتألف من أكثر من غرفة واحدة.

وكان الموتى يدفنون داخل القرية، والطريقة المتبعة كانت في وضعية منكمشة، وهبات القبر كانت الأسلحة والخرز والحلي البسيطة. أما اقتصاد جبيل، فكان يشير نتيجة المعلومات المتوفرة إلى إنتاج القمح والشعير، وإلى تربية الحيوانات المدجنة، بالإضافة إلى الصيد البري والبحري، وعملية حفظ اللحوم. كما تم الكشف عن المغازل التي تستخدم في الحياكة والنسيج. كما يدل على الصناعة الجلدية وجود المثقاب المصنوع من العظام. ومن أهم خصائص جبيل في العصر الحجري الحديث التماثيل الصغيرة الحجرية، التي تشبه الحصى.

ومن خصائص حضارة جبيل في أوائل العصر الحجري الحديث المناجل ذات النصال الصوانية، وذات الأطراف المسننة، كما وجدت الفؤوس المصغرة، المصنوعة من الحجر البازلتي الأخضر (التي يعتقد أنها جاءت من الشمال مع الزجاج البركاني)، كما كان لصناعة الفخار صفات محلية خاصة. أما في حضارة العمق (الألاخ)، فقد عثر على فخار، أدخلت عليه الزخارف المطبوعة باللون الفخاري الأحمر، وشاعت الأنواع الفخارية المشوية قليلاً. وفي رأس شمرا (أوغاريت) كان معظم الفخار المصقول أحمر اللون، كما لون القليل منه باللون البني أو الأسود.

خلال هذه المرحلة ظهر نوعان من الفخار، أحدهما: وجد في بيبلوس (جبيل) في العصر الحجري، كما وجد في البقاع خزف أحادي اللون. أما النوع الثاني: فيتميز باستعمال المواد الكلسية الممزوجة بالصخر الرملي والقش لصناعة الأواني الجصية، والأحواض ذات القواعد المجوفة. كما عثر على فخاريات في مناطق متفرقة في بلاد الشام. ففي لبنان كانت جبيل هي الموقع الرئيسي، في فلسطين عثر على الفخار في تل أبو زوريق وحاصور وتل كبرى وفي تل الشيخ وتل أبري وتل

الرماد قرب دمشق، كما وجد في وادي الأردن. وقد عثر في تل الرماد[1] على أدوات من الحجر الرخامي وتماثيل وجوه حيوانات، ومدافن للجماجم، التي تمثل الآباء والأجداد. كما عثر على حبوب متفحمة، تبين أقدم ظهور للزراعة في الألف السابع قبل الميلاد.

كذلك عرفت الحضارة اليرموكية أشكالاً من الفخار، كانت أكثر تطوراً. حيث ظهرت جرار ذات أعناق وقبضات وقواعد مستوية. وكانت مغطاة بطبقة من الدهان الأحمر، أي ما يشبه الفخار المكتشف في جبيل أخيراً. إذاً استطاعت الحضارة في بلاد الشام أن تحافظ على استمرارها، إلاّ أنّ أثر هذه الحضارة في بلاد الرافدين ومصر، كان أقل مما يجب أن يكون حسب المعلومات المتوفرة. وقد تأتي المكتشفات الحديثة بمعلومات، تغيّر هذا الواقع.

إن الفترة الواقعة ما بين الألف العاشر إلى الألف السادس قبل الميلاد، كانت فترة حاسمة، أظهرت في وقت أبكر من غيرها مجموعة من المتغيرات. وصفت هذه المتغيرات بأنها ثورة (الثورة النيوليتية). هذه التبدلات هي الكهوف والقرى ومستلزمات الحياة كالحجر المصقول والفخار والتدجين (للنبات والحيوان)، وشاع أن قرى مثل بيبلوس (جبيل)، وأريحا، كانت قد شهدت تجمعاً مشيداً متطوراً خلال هذه المرحلة، وقد تعود إلى مرحلة أسبق، تؤكدها المكتشفات والأبحاث الجارية.

والتبدلات المذكورة وعواملها وجدت في بلاد الشام، انطلاقاً من عملية التجمع المتمثلة في الخروج من الكهوف، وتكوين تجمعات على شكل قرى، تليها مرحلة التثبت المتمثلة بعملية الاستقرار داخل هذه القرى، إلى عملية الالتجاء إلى القرية، وتطويرها، إلى إنتاج العيش أو القوت، ومن ثم التطور إلى ابتكار أدوات وأعتده مساعدة على الاستمرار، وصولاً إلى التطور الايديولوجي (الاعتقاد) المتجلي في الفن، أو الطقوس المتعلقة بالحياة الأخرى (الموت وما بعد الموت).

من المعروف أن الحضارة النطوفية ظهرت في بلاد الشام نحو (١٠,٠٠٠ ق.م)، ودامت حتى حوالي (٨٣٠٠ ق.م). وفي هذا العصر تنطلق ظاهرة الخروج من الكهوف، والاكتشافات النطوفية الأولى تمت في كهوف وملاجئ في مناطق متفرقة في بلاد الشام. إنّ عملية الاستقرار الحضاري في القرى كانت على ضفاف مياه[2]، وكان هذا في حد ذاته عامل استقرار، لأن الصيد المائي كان

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الثالث والثلاثون ـ الجزء الأول ـ ١٩٨٣ ـ ص١٠.

[2] علي القيم: أضواء من الذاكرة القديمة ـ طبع دمشق ١٩٨٦ ـ ص٢٠.

يشكل مورداً دائماً.

ومن المعروف أيضاً أن النطوفيين كانوا صيادين، حيث أسفرت التنقيبات في (عين ملاحة) على بحيرة الحولة عن بقايا وافرة من الأسماك والقشريات والقواقع. وكشف عن مثل ذلك في موقع (المريبط) على الفرات. كما أن ضفاف المياه كانت تشكل حيزاً حيوياً خاصاً لبعض الطيور، ولبعض الحيوانات. مما يساعد على عملية القنص. والاستقرار الحضري في عصر القرى النطوفية الأولى، كان لا يخص سوى السكن والنشاطات المنزلية، أما استثمار المحيط فكان خاضعاً لحركية الموارد، وتناثرها الطبيعي، وأما المناطق ذات الموارد الأكثر وفرة وتنوعاً، فكان لابد من الاستقرار فيها لعدد أكبر من البشر، لأن الملاجىء لم تعد تكفيها، فكانت القرية تمثل ظاهرة اجتماعية حضارية.

تطور الحضارة النطوفية:

نتيجة الاكتشافات الأثرية في بلاد الشام ذكر: أنّ أول بيت، تم الكشف عنه في بلاد الشام، هو بيت (عين جويق)[1] في الكباري. وهذا البيت عبارة عن حفرة دائرية محفورة في إحدى المنحدرات، معززة بتصوينة نصف دائرية من الأحجار الجافة بارتفاع / ٤٠سم /. ومهمة الجدار الأولى كانت التدعيم فقط. أما القرى النطوفية في الأرض المكشوفة، فتكون مهمة النطوفيين الأولى فيها هي حفر الأرض من أجل إقامة البيوت. فمثلاً: بيوت (عين ملاحة) هي عبارة عن حفر دائرية، والبيوت الأكثر قدماً هي الأكثر وسعاً من (٧ ـ ٩م)، أما البيوت الأحدث فيتراوح قطرها بين (٣ ـ ٤م). والجدران كانت تدعم بالحجارة، أو بالخشب مسندة على حاجز ترابي، وبعض الأرضيات مبلطة، كما في عين ملاحة. أخيراً نذكر أن القرى النطوفية الأولى فيما قبل الزراعة كانت بيوتها من الخشب، وكانت متقاربة.

أما المرحلة التالية الممتدة من (٨٣٠٠ حتى ٧٦٠٠ ق.م) والمسماة النيوليتي ما قبل الفخار، فقد ظهرت نحوت معمارية واضحة في أريحا. وهذه الحقبة تندرج بين حضارتين قرويتين متضادتين: تضاد تجمعات الأكواخ المستديرة للصيادين القاطنين النطوفيين من جهة، وقرى المنتجين، وجميعها تقريباً ذات بيوت مستطيلة: من جهة ثانية. وقد أثبتت الاكتشافات الجديدة سواء في فلسطين أو في غوطة دمشق أو الفرات تأكيداً وفهماً لما ورد.

---

[1] جان كوفان: القرى الأولى في بلاد الشام ـ ص٤٨.

وفي قرية جلجال شمال أريحا بحدود عشرين كيلومتراً اكتشفت وثائق جديدة، تعود كما يذكر إلى العصر النيوليتي التمهيدي. كما اكتشفت هناك قرية، حدد فيها حوالي اثني عشر بيتاً مستديراً أو بيضوياً بجدران من الحجارة. نقّب في أحدها وعثر فيه على أثاث ثقيل، وعلى سهام عديدة ذات فريضات، وقاعدة مجزوعة.

أما في وادي الفلاح، فقد تم الكشف عن أربعة عشر بيتاً أيضاً، تعود للعصر النيوليتي السابق للفخار، والموقع المكتشف وصف بأنه كان ينحدر بقوة من الشمال إلى الجنوب، حيث شكلت أربع مصاطب مدرجة، وزعت المساكن بينها، وكانت أيضاً إما دائرية أو بيضوية، يتراوح طول قطرها بين ثلاثة وأربعة أمتار، وهذه البيوت متقاربة جداً، ولها جدران من الحجارة حتى ارتفاع متر، كانت تطفو في العراء في طبقاتها العليا، أي: أن البيت الواحد كان لابد أن يكون مدفوناً باتجاه الأعلى، ومفتوحاً على الهواء الطلق باتجاه الأسفل. وهذا بحد ذاته يعتبر أكثر نضوجاً وقدماً عن النطوفي. والبيوت المكتشفة كانت أرضيتها مطلية بالغضار، تحتوي على موقد وأثاث ثقيل، يقع الباب في الجنوب أو الجنوب الغربي أي نحو أسفل المنحدر.

وفي قرية (أبو سالم) الواقعة في النقب[1] الأوسط، التي يعود تاريخها إلى أواخر الألف التاسع، والمعاصرة كما يذكر لجلجال وللنيوليتي التمهيدي تاريخاً، من خلال التنقيب في هذا الموقع تم الكشف عن ثلاثة بيوت بيضوية، طول قطرها من ثلاثة إلى أربعة أمتار، كما كشف عن بيوت دائرية أخرى أصغر، يتراوح طول قطرها بين متر ومترين. ولهذه البيوت جدران من الحجارة، يتراوح سمكها من خمسة وعشرين إلى خمسين سنتيمتراً، ومحفوظة حتى ارتفاع نصف متر. وكانوا يستعملون أحجاراً صغيرة، أو بلوكات كبيرة، ويملؤون الفجوات بالطين. تحتوي هذه البيوت على نوافذ. وهذه الإكتشافات أكدت أن هذه الجدران كانت حقيقة، قد أثبتت تطور فن العمارة خلال هذه المرحلة.

وفي تل أسود قرب دمشق، والذي يعود إلى العصر النيوليتي السابق للفخار، كشف في القسم الشرقي من التل عن أحواض مستديرة مليئة بالرماد، والمواد النباتية أو الغضارية المحروقة، لا يزيد طول قطرها عن المترين. كما كشف عن حفر أسطوانية أضيق، وعثر على عدد كبير من قطع الآجر الغضاري المستوية والمحدبة الشكل مع آثار نباتية. وقد استنتج أنه كان هنالك تجمع من

---

[1] علي القيم: أضواء من الذاكرة القديمة ص٢٣.

أكواخ صغيرة مستديرة كثيفة ونصف مدفونة، يستخدم فيها الغضار من أجل تشكيل أرضيات أو سطوح مستوية. أما بناؤها الفوقي فمكون في قسمه الأكبر من مواد نباتية خفيفة قابلة للاشتعال. أي أن البنى الفوقية للسكن كانت خفيفة.

وفي قرية المريبط[1] الواقعة على الفرات، والغنية بالمواد المتنوعة الصالحة للبناء، لم يستمر استخدام مثل هذه المواد إلا في الألف الثامن قبل الميلاد. وقد تمت نتيجة البحث والتنقيب دراسةٌ لمرحلتين رئيسيتين لعملية التطور في هذه القرية، دعيت الأولى: المرحلة الثانية (المستوى الثاني ٨٢٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م)، وتتوافق مع أريحا في العصر النيوليتي التمهيدي، ومع جلجال، ومع تل أسود. وأسفرت التنقيبات عن عدة بيوت مستديرة صغيرة إلى حد ما، قطرها من ثلاثة أمتار إلى أربعة أمتار. أما المرحلة الثالثة (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م)، فامتازت بالبيوت المستطيلة، وخلال هذه المرحلة حدثت تبدلات كبيرة في العمارة على شاطئ الفرات، علماً أن البيوت المستديرة استخدمت حتى نهاية المرحلة مع وجود أبنية مستطيلة. وفي تل (الشيخ حسن) شمال المريبط بحدود عشرين كيلومتراً، أسفرت التنقيبات عن وجود أبنية مستطيلة أكبر حجماً، وأرضية غضارية، إلا أنها لم تكن صالحة للسكن لضيق حجم الخلايا المربعة، التي لا تزيد عن متر واحد فقط.

أخيراً يستنتج مما ورد نتائج هامة، الأولى: تقنية الإنشاءات من الناحية الجوهرية، فالبيوت تبقى مستديرة، والمهم أن السكان أضحوا يعرفون البناء بمواد غير الخشب كلحمة الجدران بواسطة الملاط عوضاً عن تكديس عناصر البناء فوق بعضها بعضاً، كما في العصر النطوفي. كما أن استعمال الخشب كان قد تطور من شكل أوتاد إلى خشب مشغول على شكل ألواح، أو عصى مدورة مكدسة أفقياً مثبتة بالطين. والنتيجة الثانية: التوسع في مساحة القرى، وهذه نتيجة حتمية لازدياد السكان. النتيجة الثالثة: وهي تظهر واضحة بالانتقال من البيت المستدير إلى البيت المستطيل القابل للزيادة، والتوسع على نقيض المستدير. وقد نضج هذا الفن وتطور على الفرات ما بين عامي (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م)، وقد توسعت القرى من (٢ ـ ٣ كم) في النطوفي، ووصلت هذه المساحة فيما بعد إلى عشرة كيلومترات.

ذكر: أنه في الألف الثامن وفي نصفه الأول، ظهرت الآثار الأولى لإنتاج القوت في بلاد الشام، وكانت محصورة في نشاطات زراعية. أما في المرحلة الثانية، وعندما تطور شكل البيت أو

---

[1] علي القيم: أضواء من الذاكرة القديمة ص٢٣.

توسع، فقد كانت الزراعة منتشرة في القرى، بالإضافة إلى تربية المواشي، وبعض الحيوانات الأخرى. وفي أواخر الألف السابع قبل الميلاد كانت الزراعة موجودة وقائمة (كالقمح ـ الشعير ـ الحمص ـ العدس ـ الفول ـ الكتان ـ الكرمة)، وبالإضافة للزراعة البعلية، فقد استخدمت المياه في الري.

أما أهم الأعتدة، التي تم صنعها فهي خلال مرحلة ما قبل التاريخ، فمثلاً في العصر النطوفي (١٠٠٠٠ ـ ٨٣٠٠ ق.م) صنعت تسليحات حجرية بصورة جماعية (مقابض)، ثم تطورت مواد الصناعة، فأصبحت من الصوان، بعد ذلك ظهر الحجر المصقول، وكشف أيضاً خلال هذه المرحلة عن تماثيل كلسية صغيرة (أم زويتينة)، ورؤوس غزلان من البازلت.

خلال المرحلة الواقعة (٨٣٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م)، ظهرت أداة جديدة في بلاد الشام هي: رأس السهم المصنوع من الصوان، والفأس الصغيرة (إزميل)، والطين المشوي، حيث صنعت منه أوان صغيرة، وتماثيل نسائية صغيرة. امتازت هذه المرحلة بازدهار التجارب الزراعية الأولى، وتماثيل الحيوانات، وبعضها إنسانية. وفي المرحلة الواقعة ما بين (٧٦٠٠ـ٦٦٠٠ ق.م) تعددت رؤوس الأسهم، وتطورت (رأس أريحا ـ رأس بيبلوس ـ رأس العمق). وتم اختراع الكلس المستخدم في البناء من أجل طلاء الأرض والجدران.

أما المرحلة الواقعة ما بين (٦٦٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق.م) فهي تندمج مع أعتدة المرحلة السابقة، لكنها أخيراً أخذت خلاصة عنها، وخاصة في الأسلوب، فمثلاً أدخلت المقابض المحنية، ووجدت رؤوس سهام بيضوية، كما وجد الصقل للحجر الصواني، وتنوع في المناجل والفؤوس. وفي هذا العصر اكتشفت تماثيل متعددة لحيوانات في كل قرى بلاد الشام.

التطور الديني من قبل التاريخ:

من المعروف والثابت أن تماثيل الحيوانات الوحشية، كانت قد هيمنت عند صيادي الألف التاسع قبل الميلاد. فمثلاً هيمنة الغزال[1] كانت واضحة الظهور، ومثل هذه الهيمنة تشير إلى تالية الحيوانات، واعتبارها إحدى مظاهر الديانة النطوفية والأكثر أهمية. أما التماثيل الإنسانية فهي نادرة أو مختزلة لدرجة، يصعب تفسيرها بشكل مفصل. لكن يلاحظ أن المواقع الأكثر تطوراً نتيجة الاستقرار مثل موقع (عين الملاحة) المشاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد، والمعروف: أن هذا الموقع

[1] جاك كوفان: ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص١٣٠.

كان قد كشف فيه نتيجة التنقيب عن تماثيل إنسانية، وأكد مثل هذا الاكتشاف على: أن تفوق الأشكال الإنسانية كتعبير عن الآلهة، لا يمكن أن يعكس إلا تحولاً فكرياً. إلا أن تماثيل صور الإنسان لم تحل في تلك المرحلة بشكل كامل مكان الشكل الحيواني، الذي بقي سائداً، ولكنه تابع للصورة الإنسانية.

إذاً عملية الاستقرار، والتجمع في بلاد الشام أدت إلى تحولات جوهرية، فأريحا التي اعتبرت المدينة الأولى في التاريخ، نجد أن اكتشاف البرج فيها، والمجهول الهوية من حيث الاستخدام، إذ اعتبره بعضهم دفاعياً، وبعضهم الآخر رآه بناءً عادياً، كان نتيجة عمل جماعي مشترك. وأنا أعتقد أن برج أريحا كان له صفة دينية وسياسية، أكثر منها دفاعية أو إدارية. هذا وتشير المكتشفات في أريحا ورأس شمرا منذ الألف السابع قبل الميلاد، بأنه كانت قد بدأت تظهر عقيدة الآلهة، التي مثلت بشكل مختزل.

من جهة أخرى فقد عبرت الديانة عن نفسها من خلال عبادة الأموات، التي يشهد عليها الدفن الشعائري، والذي يمثل بحد ذاته الاعتقاد باستمرار الحياة، وما لذلك من علاقة مع وضعية الميت في القبر. كما أن الاستخدام المتكرر للمغرة أو للتربة الحمراء كعنصر جنائزي يمكن أن يرمز إلى الدم، وانبعاث الحياة.... وإن رفض الموت فكرة مترسخة بشكل عميق في النفس البشرية منذ بدء الخلق. لذلك من الصعب أن نبحث عن تصور، له دلالته لفكرة ما بعد الموت. لأننا نجهل التصورات الحقيقية المتعلقة بهذه الفكرة. علماً أن هذه الفكرة ما زالت فكرة غامضة كحقيقة مطلقة، وهناك آراء متعددة ومتناقضة حول ذلك، إلا أن غايتها قد تكون واحدة.

ثم إن الشعائر الدينية كانت قد تغيرت، وتطورت عبر المراحل الأولى: تواجدت فيها القبور البسيطة إلى جانب الدفن الثنائي الجماعي، الذي ضم العديد من العظام وبخاصة الجماجم (النطوفيين). المرحلة الثانية: وفيها بقي استخدام القبور الثنائية، ولكن حفظت الجماجم في الهواء الطلق مقولبة وموضوعة على شكل تماثيل أحياناً. المرحلة الثالثة: تم الرجوع فيها إلى القبور البسيطة، دون أن تفصل الجماجم، و في الوقت نفسه زوّد الموتى بالأضاحي الغذائية. كما أنّ بعض التماثيل تدل على ميدان فكري آخر هو عبادة الأجداد، والتي تؤكدها الشعائر الجنائزية. وذكر أنّ قريتي أريحا، وتل الرماد من قرى بلاد الشام، كانتا تظهران قريتين من المجتمعات التي تمارس عقيدة عبادة الأرواح، والتي عدّها بعضهم الصيغة الأكثر بدائية للدين.

من جهة أخرى أعتقد: أن الديانات وجدت مع وجود الإنسان منذ البدء، لأن الإنسان كيفما كان، كان يملك العقل للتفكير، وخلال حياة الإنسان البدائي، كان لابد له من التفكير، ولابد لتفكيره من أن يقوده، ولو بمفرده إلى القوة سواء أكانت الطبيعية أم ما وراء الطبيعة. فالكتب السماوية تؤكد ذلك، فآدم خلقه الله القادر الوهاب، وأهبطه إلى الأرض، وجعله خليفته عليها، ثم كانت زوجته ثم أولاده مشكلين وحدة اجتماعية، أساسها الاستقرار. لكن فردية التفكير قادت أحد ابني آدم (قابيل) للخروج عن هذا الاستقرار في كافة مجالاته، وكان الانشقاق في الوحدة الفكرية، وخروج قابيل عن وحدة الاستقرار والتفكير، والاعتداد بالقوة والخروج عن المألوف ثم الهجرة، وتشكيل أسرة، ومجتمع جديد وهكذا.

ثم إنّ الإنسان منذ البدء لطالما يملك العقل، وهو العنصر الفعال في الطبيعة، فما الذي يمنعه خلال مسيرته من الإهتداء إلى القوة إلى القدرة إلى التفكير فيما حوله ؟ ولنا من تساؤلات النبي إبراهيم الخليل عليه الصلاة، والواردة في القرآن الكريم خير دليل على ذلك. ثم لنعد إلى فكرة وجود الإنسان، فإذا اعتبرنا أن آدم هو أول إنسان على الأرض، وهذا ما أعتقده، فآدم كما هو معروف هو خليفة الله على الأرض، وكل أصحاب الديانات السماوية يعتقدون أن الديانة وجدت مع وجود الإنسان، وهذا لا يحتاج إلى تفسير. أما إذا اعتمدنا الرأي القائل: أن الإنسان وجد نتيجة تطور القرد، وهذا الرأي لا أعتقده، لكن لا يمنعنا من مناقشته، بقولنا: إن هذا الإنسان المتطور، كان في تطوره قد اكتسب ميزات أو مواصفات ارتقى بها، وأهمها في شكله وعقله.

هذه المواصفات جعلته سيد الطبيعة، وخاصة في عقله، حيث أصبح مفكراً، يحس، ويشعر بما حوله، وأول ما فكّر فيه كان الاستقرار والتجمع، وخلال مسيرة حياته كان لابد لتفكيره من أن يقوده إلى فكرة القوة، التي يتطلع إليها، والتي عجز في البداية عن الإهتداء إليها، لأن مثل هذه القوة لابد وأن تكون معقدة. سواء أكانت هذه القوة نابعة من الحيوانات المفترسة أم من الإنسان، الذي اعتبر نفسه سيداً للطبيعة. وبعد تأمين الاستقرار، أخذ بالتفكير فيما حوله، وكان لابد لهذا التفكير من أن يقوده إلى عقيدة ما.

من جهة أخرى: هل كان الإنسان المتطور عن القرد نتيجة فردية أم جماعية ؟ أي هل كان الإنسان المتطور عن القرد فرداً أم جماعة أفراد ؟ أي أن مجموعة القردة المتطورة التي تطور عنها الإنسان، والتي هي من فصيلة واحدة، ونموذج واحد، كانت قد تحولت كلها إلى إنسان؟ أم أن أحدها كقرد كان النموذج الذي تطور عنه الإنسان؟ فإذا كانت الجماعة، فقد

حققت أحد عناصر الاستقرار مباشرة. وإذا كان تطور الإنسان نتيجة فردية، فمعنى هذا أن الإنسان قد احتاج إلى زمن، لكي يحقق عنصري الاستقرار والتجمع، وبقية العناصر الأخرى.

ومن ناحية أخرى: إذا أخذنا بما لدينا من وثائق عن النبي آدم، الذي هو خليفة الله على الأرض، نلاحظ أنها لم تتجاوز سبعة قرون حتى تاريخه. فمن أين لنا هذه الاكتشافات، التي تعود في بعضها، ومنها ما تم كشفه في سورية، وخاصة في (ست مرخو) على حوض النهر الكبير الشمالي، والتي تعود إلى مليون سنة ؟ وهذه الوثائق، حقيقة واقعة، لا يمكن طمسها، وهذا يدلنا على أن هناك قبل آدمنا هذا من كان يسكن الأرض ويعمرها، ممن حقق الجمع والاستقرار، وكوّن مجتمعات حضارية، لها مقومات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية.

طراز العمارة الفارسية:

كان طراز بناء العمارة في العهد الفارسي محدوداً. ومن أهم هذه الموقع في الأردن موقع تل السعدية (الطبقة الثالثة)، وتل المزار (الطبقة الثانية). عثر في تل السعدية[1] على مبنى مربع مكوّن من سبع غرف، مبنية حول فسحة مبلطة، طول محوره الشمالي الجنوبي (٢١,٩٥م)، والمحور الشرقي الغربي (٢٢,٠٥م). وقد استخدم الطوب في بناء الجزء العلوي منه باللونين الأخضر والبني، كما تم استخدام الأخشاب لتطويق الجدران الطوبية عند المدخل، والجهة الداخلية من عتبة الباب الغربية. أما وظيفة البناء فكانت دفاعية، لأن المدينة لم تكن محاطة بسور دفاعي.

تل المــزار:

يقع هذا التل في وسط وادي الأردن. وتبلغ مساحته (٣٠٠م٢)، وارتفاعه (٢٤م) عما حوله. بدأت المرحلة الاستيطانية في التل منذ العصر البرونزي المتأخر، واستمرت إلى الفترة الهلنستية (منذ منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد). واكتشف في هذا التل بناء مكوّن من ساحة مركزية مكشوفة، ومحاطة من الجهات الأربع بالغرف. والساحة المركزية يظهر أنها كانت مبلطة بالحجارة، ووظيفة البناء تبدو، وكأنها صناعية لحفظ الأواني والمخلفات المصنعة.

أما طراز العمارة الفارسية في فلسطين، فقد عثر على العديد من البقايا المعمارية الفارسية، إلا أنها لا تعطي صورة كافية عن تخطيط المدينة في هذه المرحلة. وأهم العناصر الفارسية المعمارية كان:

---

(1) مجلة دراسات تاريخية ـ السنة السادسة عشرة ـ العددان (٥٣ ـ ٥٤) كانون الأول ١٩٩٥ ـ ص٢٥.

التحصينات كالسور ـ البوابات ـ بيوت السكن ـ المعابد.

وعن طراز العمارة اليونانية في الأردن، فقد تمثلت مواقع هذه الفترة في موقع (عراق الأمير)، الذي يقع قرب عمان، على بعد عشرين كيلومتراً باتجاه نهر الأردن، حيث اكتشف هذا الموقع في القرن التاسع عشر، وكشف فيه عن مبنى عرف بقصر العبد. ويذكر أن: بناءه كان قد تم على يد (هرقانوس)، واستخدمت الحجارة البيضاء في بنائه، وزخرف بتماثيل الأسود.

تبلغ مساحة القصر (٣٧ × ١٨,٥م)، وقد بني وسط منخفض، كانت تحيط به بحيرة اصطناعية، ويضم طابقين بارتفاعات متساوية، يتم الصعود إلى الطابق الثاني عبر سلم، يبلغ ارتفاع المبنى أربعة عشر متراً. وللقصر بوابة، عرفت بالبوابة التذكارية، تبعد (١٥٠م) إلى الشمال من القصر. كما عثر على بناء مستطيل الشكل في تل السعدية، بنيت أجزاء منه فوق بناء عائد للفترة الفارسية، تبلغ أبعاده (١٣,٣ ـ ٢١,٢م) سمك جدرانه الخارجية (٩٠سم)، أما الجدران الداخلية (٦٠سم). تثبتت الجدران فوق أساسات من الحجارة، وبني الجزء العلوي من الطوب. والطوب هذا كان بحجمين، الأول: كبير بقياس (٤٠ × ٤٠ × ١٥سم) والثاني: صغير (٢٠ × ٤٠ × ١٥سم).

كما كشف عن أبنية يونانية في تل المزار، وفي البصيلة، حيث كشف عن مبنى، لم يكن يستخدم للسكن، إنما كان يستعمل كمقر إداري أو رسمي. استخدم هذا المبنى في العصر الروماني، وهو مستطيل الشكل، طوله (١٩م)، وعرضه (٩,٥م). يحتوي على خمس غرف، ثلاث منها كبيرة تقع في الغرب، وحجرتان في الجهة الشرقية. أما العمارة اليونانية في فلسطين، فأبرز المواقع كان (ماريسا)، الذي يبعد (٣٠كم) جنوبي شرقي عسقلان.

وعن المغاور اليبرودية:

يقول ألفريد روست[1]: ما نقش في الصخر من معاصر الزيت والعنب وغيرها، تذكر بوضعها الحضاري الغابر. ويؤيد هذا ما أثر من حديث متناقل رواه أحد سكان تدمر نقتبس منه الآتي: (أثناء سفري إلى يبرود قضيت يوماً كاملاً لم أصادف فيه الشمس)[2]، وقال: كانت يبرود ولفترة المقر الصيفي لملكة تدمر. وبنتيجة التنقيب في يبرود كشف عن وجود مستوطنات ما قبل التاريخ، وتم التنقيب في ثلاثة مواقع، تعود إلى هذه المرحلة، وهي عبارة عن ملاجئ أو كهوف.

---

[1] الفريد روست: مكتشفات مغاور يبرود ـ طبع سورية ١٩٨٧ ـ ص٣٦.

[2] هذا يؤكد أن المنطقة كانت معمورة وأن الأشجار كانت تغطي المنطقة.

الموقع الأول: (الملجأ الأول): تم اكتشاف خمس وعشرين طبقة، وقيل: إنه كان يتألف من ـ ٥٠ طبقة حضارية). في الطبقة الخامسة والعشرين المسماة يبرودية، أثبتت محتويات هذه لطبقة خلوها التام من المؤثرات ذات الأصل الآشولي (الآشولية ـ يبرودية). أما الطبقة الرابعة العشرون: فقد أثبتت المكتشفات: أنها حضارة مختلطة، أي ما نسميها (بالآشولية ـ يبرودية). وفي لطبقة الثالثة والعشرين: اتضح ضعف التمثيل الآشولي، لذلك يمكن تسمية هذه الحضارة بالحضارة لآشولية الوسطى المتأخرة.

في الطبقة الثانية والعشرين (اليبرودية) أثبتت محتوياتها: تبعيتها لمجموعة الحضارة اليبرودية. في الطبقة الحادية والعشرين (اليبرودية)، لا يمكن التحدث عن طبقة حضارية فيها، لأن الأدوات جدت متناثرة. وفي الطبقة العشرين (اليبرودية): كانت محتوياتها أقل من محتويات سابقتها. وفي الطبقة التاسعة عشرة (آشولية يبرودية) أمكن إلحاق محتوى هذه الطبقة بالحضارة المختلطة (الآشولية اليبرودية) أي حضارة الطبقة الرابعة والعشرين.

في الطبقة الثامنة عشرة (الحضارة الميكوكية)، ذكر أن محتوى هذه الطبقة غير متكامل الأدوات، وأنها موجودات ميكوكية. في الطبقة السابعة عشرة (الآشولية الحديثة)، اتخذ أصحاب الحضارة الآشولية الحديثة من هذا الملجأ مأوى لهم في وقت لاحق، ولفترة إقامة قصيرة. وتتميز حضارة هذه الطبقة بأنها كانت مشوهة بشكل أساسي من خلال الفؤوس اليدوية المثلثية الشكل.

في الطبقة السادسة عشرة (اليبرودية) أثبت محتوى هذه الطبقة على أنها صناعة يبرودية، ويلاحظ فيها تراجع إلى حد ما في حركة شكل الأدوات. وفي الطبقة الخامسة عشرة (ما قبل الآورينياسية) وهي الحضارة الأهم في هذا الملجأ، أثبت محتوى هذه الطبقة على أن صناعة النصال فيه ذات مظهر أورينياسي بدائي.

وفي الطبقة الرابعة عشرة (اليبرودية الأحدث)، أثبت محتوى هذه الطبقة: أنه يبرودي. ويبدو أن لهذا الفرع الحضاري مظهراً حديثاً. وتتأكد هذه الناحية من خلال التوضع الطبقي، والاختلاف الحضاري الجلي مقابل الموجودات اليبرودية الأقدم.

وفي الطبقة الثالثة عشرة (ما قبل الأورينياسية) يتناسب محتوى النماذج، ومظهر ما قبل الأورينياسية للطبقة (١٣)، ونظيرها في الطبقة (١٥). ويفسر العدد المحدد من الأشكال ضآلة عدد المكتشفات. وبذلك نستطيع القول بأن حضارة ما قبل الأورينياسية نقية، لم تدخل عليها مؤشرات

آشولية وميكوكية أو يبرودية. في الطبقة الثانية عشرة (الآشولية الأخيرة ما قبل الموستيرية) نجد أن حضاراتها آشولية أخيرة. وفي الطبقة الحادية عشرة (الآشولية ـ يبرودية) احتوت هذه الطبقة على حضارة رقائق، تغلب عليها التقاليد اليبرودية الحديثة المتأثرة بالآشولية.

في الطبقة العاشرة (الآشولية موستيرية الأقدم)، خلفت هذه الطبقة وراءها الأرضية، التي زامنت اليبرودية والآشولية، وتمّتْ مدخلاً للتطور الموستيري. وحدث انقلاب في هذا الملجأ، تجسد في السيطرة المطلقة للأدوات الموستيرية النموذجية القديمة. وفي الطبقة التاسعة (الموستيرية ـ ما قبل الأورينياسية)، أثبت محتوى هذه الطبقة الحضارية أنه يخص حضارة نصال، تتميز مرحلتها الزمنية بتوضعها بين سويتين موستيريتين قديمتين، تحتويان على الفؤوس اليدوية. وتعزى الصناعة في الغالب نمطياً إلى ما قبل الأورينياسية المتزامنة للآشولية، ولا يظهر التأثير الموستيري إلاّ بشكل ضئيل في الحضارة الموستيرية ـ ما قبل الأورينياسية عبر شكل الأدوات المروسة الضيقة فقط.

في الطبقة الثامنة (اليبرودية ـ موستيرية الأقدم)، عثر على حضارة موستيرية خالية من أي أثر يبرودي. وبما أنه لا توجد أي إشارة تثبت انتقال الموستيرية بفؤوسها اليدوية إلى هذه المنطقة، لذلك نعيد تلك الحضارة في تطورها إلى الآشولية السورية الأصل. وفي الطبقة السابعة (ما قبل الميكرو ـ موستيرية)، تتميز هذه الحضارة عن الموستيرية القديمة المألوفة من خلال ضآلة حجم الأدوات، وتعتبر حضارة مختلطة أخفت بين طياتها ـ على ما يبدو في جميع المراحل ـ اتجاهاً لتكوين الحضارة الميكروستيرية.

في الطبقة السادسة (اللفلوزاية ـ أو الآشوليو ـ الموسيرية)، احتوت هذه الطبقة بين طياتها صناعة موستيرية، تميزت جوهرياً عن حضارة الأدوات الدقيقة. وهذه الصناعة متميزة بالنماذج، وتأتي سمتها الخاصة جزئياً من خلال العرض الواسع اللفلوازي الصنف للأدوات. وفي الطبقة الخامسة (الميكروموستيرية)، تعتبر هذه الحضارة من أندر الحضارات في هذا المجال، وفي المشرق عامة، وتم التعرف من خلال محتوى هذه الطبقة على صناعة الأدوات الصغيرة، والتي من المحتمل أن تكون شكل انحطاط لحضارة مختلطة.

في الطبقة الرابعة (الآشولية ـ موستيرية الحديثة)، ومن خلال الصناعة في هذه الحضارة اكتسبنا مدخلاً لمعرفة النماذج في الموستيرية الحديثة الأقدم. ويتجسد الانقلاب الحضاري الحاصل من خلال كون الصناعة مع احتفاظها بالخصوصية التقليدية الآشولية، قد أصبحت أصغر من

الموستيرية القديمة. مما شكل دافعاً إلى تكوينات كثيرة في نماذج الأدوات.

في الطبقة الثالثة (الآشولية ـ موستيرية الحديثة)، يتضح بجلاء من خلال المظهر العام، أو محتوى النماذج في هذه الطبقة، التطابق الأساسي بالمضمون الحضاري للطبقة الرابعة؛ لذلك ألحقنا الصناعة الموستيرية الحديثة في الطبقة الثالثة بالإطار الحضاري (الأشولي ــ موستيري). وكان مظهر هذه الحضارة خشناً جداً، وهذا راجع لاستخدام الصوان السيء.

في الطبقة الثانية (اليبرودية ـ موستيرية الحديثة)، يتحدد طابع الصناعة العائدة لهذه الطبقة من خلال الأدوات الكبيرة جداً، ويزداد الاستغراب لانتفاء وجود ظواهر مماثلة لها في الرابطة الموستيرية انطلاقاً من الطبقة السابعة. فالأدوات الصوانية رقيقة جداً. وفي الطبقة الأولى (الموستيرية الحديثة) نتيجة الصبغة الحضارية لهذا الملجأ، ومن خلال الأدوات ذات الطراز الموستيري الحديث، ومن خلال الأدوات المكتشفة. لم يتم تقييم تاريخ التطور بالكامل لهذه الطبقة.

الموقع الثاني: يعرف بالملجأ الثاني: يقع هذا الملجأ في (اسكفتا) قرب يبرود، حيث يوجد هناك شبه حضارة، تكاد تكون دائرية، يحتمل أن هذا الملجأ لم يسكن، وإذا سكن تكون السكنى فيه مع بداية العصر الميزوليتي. كشف فيه عن عشر طبقات. الطبقة العاشرة (الموستيرية الحديثة)، لم تقدم لنا أدواتها أكثر من تصور عام حول مسألة الارتباطات الحضارية النمطية، لكننا نستطيع التأكد بأن تلك الأدوات تعود للموستيرية الحديثة. وفي الطبقة التاسعة (الموستيرية الحديثة)، اكتشف عدد قليل من الأدوات، إلا أن النماذج المكتشفة أسهمت في إتمام الصورة حول الموستيرية الأخيرة.

الطبقة الثامنة (الموستيرية الحديثة)، تشير القطع المكتشفة فيها إلى تبعية للموستيرية الأخيرة. وفي الطبقة السابعة وجدت الحضارة (الأورينياسية الأقدم). وفي الطبقة السادسة (الأورينياسية الأقدم)، وجد فيها حضارة أورينياسية، ذات طابع أنيق، يمكن اعتبارها مقدمة لحضارة أورينياسية وسطى جميلة الأشكال للحضارتين اللتين تلتاها (الطبقة الخامسة ـ الرابعة).

في الطبقة الخامسة (الأورينياسية الوسطى)، نجد أن الأدوات المكتشفة فيها اتبعت إلى الحضارة الأورينياسية الوسطى. وفي الطبقة الرابعة (الأورينياسية الوسطى) اكتشف فيها طبقة ذات محتوى حضاري هام جداً. وفي الطبقة الثالثة (الأورينياسية الحديثة) تختلف صناعة الصوان في هذه الطبقة من الناحية الشكلية، عما يقابلها في الطبقة الحضارية الرابعة. حيث عثر في هذه الطبقة على أدوات كانت من أصغر أدوات الصناعة الأورينياسية.

في الطبقة الثانية (الأورينياسية الحديثة ـ العتليتية)، كشف فيها صناعة صوانية تجاوزت كل الصناعات الأورينياسية الأخرى، من حيث العلاقة الحجمية، أي الحجوم الكبرى للأدوات. وفي الطبقة الأولى (الأورينياسية الأخيرة ـ الميكروأورينياسية)، تميزت هذه الحضارة بالتلوين الناجم عن الفحم. ويعتقد أن هذه المغارة كانت قد تحولت إلى مقبرة في فترة، كانت فيها يبرود المقر الصيفي للدوائر الحاكمة في تدمر.

الموقع الثالث: يعرف بالملجأ الثالث: كشف فيه عشر طبقات. في الطبقة العاشرة (الأورينياسية الحديثة) توضعت الأدوات مباشرة فوق الأرض الصخرية. وجميع القطع المكتشفة تقريباً مكونة من الصوان الأسود، أو الداكن القليل الكمخة. وأثبتت وجود أصحاب حضارة أورينياسية. وفي الطبقة التاسعة (الأورينياسية الحديثة) اكتشف وجود حضارة أورينياسية حديثة.

وفي الطبقة الثامنة (الإسكفتية ـ الميزوليتي المبكر)، كشف عن صناعة صوانية ذات مظهر ميزوليتي، وأطلق عليها تسمية: الإسكفتية، لأنها اكتشاف للمرة الأولى من نوعه، وأرخت في العصر الميزوليتي المبكر. وفي الطبقة السابعة (النبكية ـ الميزوليتي الأوسط)، تتصل مع هذه الحضارة التي أطلقنا عليها النبكية إلى العصر الميزوليتي تماماً تبعاً لهوية أشكال الصوان. وتؤرخ النبكية بالعصر الميزوليتي الأوسط.

في الطبقة السادسة (النبكية ـ الميزوليتي الأوسط)، يطابق مظهر هذه الطبقة مظهر الصناعة السابقة تماماً؛ إلا أن هناك بعض الاختلافات الشكلية الضئيلة ضمن الأدوات الميكرولينية. وفي الطبقة الخامسة (القفصية المتأخرة ـ الميزوليتي الأوسط) تكتسب صناعة هذه الطبقة سمة خاصة، فهي صناعة فريدة، تكتشف لأول مرة في الجسر البري السوري الفلسطيني.

في الطبقة الرابعة (النبكية الأحدث ـ الميزوليتي الأوسط)، اكتشف فيها حضارة نبكية بطابعها الأحدث. وفي الطبقة الثالثة (الفليطية ـ الميزوليتي الأوسط)، تمّ التعرف على صناعة، تشكل مفاجأة كبيرة من خلال مظهرها، وبنية نماذجها، مع الأخذ بعين الاعتبار عمرها الضئيل نسبياً، وأطلق عليها تسمية الفليطية، نسبة إلى الموقع القريب من يبرود (فليطة).

في الطبقة الثانية (النطوفية الأقدم ـ الميزوليتي المتاخر)، عثر في هذه الطبقة على بقايا حضارية من النطوفية المعروفة منذ وقت طويل، وخاصة في فلسطين. وفي الطبقة الأولى (النيوليتية)، ذكر أن ضآلة محتوى هذه الطبقة لا تسمح بتبعيتها الحضارية نظراً لعدم وجود أدوات نموذجية.

أخـيراً أثبتـت المكتشـفات الأثريـة في يـبرود إمكانيـة وجـود مكتشـفات في القـارة الأوربيـة والآسيوية والأفريقية مماثلة لها، ومعظم قريب منها. ومـن الناحيـة التقنيـة: فـإن اليبروديـة قريبـة مـن الكلاكتونية، إلا أنه لا توجد في أوربا صناعة تطابق اليبرودية في العصر الجليدي الانتقـالي المتـأخر لا زمنياً ولا نمطياً. ومن الناحية الشكلية يبدو أن الكلاكتونية الأقدم من (هاي لـوج)، يمكـن مقارنتهـا باليبرودية في بعض النقاط النمطية القليلة.

الفصل الثاني

الأموريون

- أصل الأموريين.
- علاقة الأموريين بجيرانهم.
- الممالك الأمورية في سورية.

١ً- مملكة حلب.

٢ً- مملكة قطنة.

٣ً- مملكة قادش.

٤ً- مملكة جرجميش.

٥ً- ماري.

٦ً- الممالك الآمورية في شرق الأردن.

الأموريون

أطلقت هذه التسمية قديماً على مواطن الأموريين في القسم الأعلى من سورية، وعاصمتها ماري. ثم وسع البابليون لاحقاً اسم (مورو)، فصار يشمل سورية[1] بكاملها، وأطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم (أمورو العظيم). و يجمع المؤرخون إجماعاً شبه تام على: أن الأموريين شعب سامي، هاجر من جزيرة العرب في الألف الثالث قبل الميلاد، وتغلغل في سورية ليقيم في القسم الشمالي منها جاعلاً من مدينة ماري عاصمة له. وذكر أن لفظة (أمور) ليست سامية بل سومرية، ومعناها (الغربي)[2]، أي الذي يقيم في الجهة الغربية.

إذاً يذكر الباحثون[3]: أن الأموريين هم الموجة الأولى، التي جاءت إلى سورية من شبه جزيرة العرب، وأطلق عليهم جيرانهم أسماء، فالسومريون أطلقوا عليهم تسمية (مارتو)، بينما سماهم الأكاديون باسم (أمورو)، أما البابليون فأطلقوا اسم (أمورو) على سورية كلها، وسموا البحر المتوسط باسم بحر أمورو العظيم، كما ذكرنا.

شملت هجرة الأموريين من الجزيرة العربية شعباً، اتجه نحو القسم الغربي من سورية، وأطلقوا على أنفسهم اسم الكنعانيين. كما أن قسماً آخر من الأموريين، اجتاح بلاد ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وشكّل فيها سلالات ملكية، حكمت المنطقة من (آشور شمالاً) إلى (لارسا) جنوباً، واشتهرت منها سلالة بابل الأمورية، وأبرز ملوكها حمورابي المشرّع.

وتبين محفوظات زمري ليم ملك ماري (١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق.م): أن مدناً كحلب، وجبيل، وقطنا، وحران. كانت تحت حكم سلالات أمورية، وأمراء أموريين. علماً أن المنطقة الممتدة من

---

[1] محمد مهران بيومي: بلاد الشام - طبع الاسكندرية - مصر ١٩٩٠ - ص٤٩.

[2] ألفريد هالدر: العموريون من هم وما هي مواطنهم - طبع دمشق ١٩٩٣ - ص١٨.

[3] أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم - سورية بلاد العرب - طبع مصر ١٩٩١ - ص٣٤.

جبال عيلام شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً كانت جميعها تحت حكم الأموريين حوالي عام (١٨٠٠ ق.م).

والأموريون من أوائل الهجرات العربية، التي قدمت إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية، وكانت الهجرة الكبيرة لهم حوالي عام (٣٠٠٠ ق.م)، حيث نجد أن الكنعانيين استقروا في الغرب، بينما استقر الأموريون بعد ذلك في الوسط والشرق، وبعض الأموريين نزلوا العراق، وأسسوا دولاً هناك. إذاً يمكن القول أن الأموريين في بادئ الأمر كانوا في شمال سورية، ثم أخذوا ينتشرون في مناطقها الوسطى، وعلى الشاطئ حتى فلسطين، ثم انتشروا في الشرق، وعندما اتصلوا بغيرهم تحضروا وأنشؤوا دولاً، منها دولة ماري.

إذاً: بعد أن اختفى السومريون من المسرح السياسي، ظهرت قبائل أمورية، سيطرت على البلاد، وأسست دويلات في كل من العراق والشام. ففي العراق ظهرت بابل في أواسط العراق، وآشور في شماله.

وفي بلاد الشام مملكة ماري، ومملكة كركميش، ويمحاض في منطقة حلب، وقطنا قرب حمص، وجبيل (بيبلوس) على الساحل، ودان في الأردن، وحاصور في سهل الحولة، ومجدو في شمال فلسطين. هذا ويذكر: أن هذه القبائل تنتمي إلى الأصل الذي انبعث منه الأكاديون، وتعني الكلمة الأكادية السومرية (أمورا) الغرب، أي أن الذين قدموا من البادية الشامية إلى بابل وسومر أموريون، أو أهل الغرب، ويعتقد: أن المقصود من هذه التسمية، هي الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، الممتدة من جبل بشري شرقاً، حتى منابع العاصي جنوباً، والبحر المتوسط غرباً، ثم اقتصرت بلاد الأموريين مع الزمن على المنطقة الممتدة بين تلكلخ شرقاً، والبحر المتوسط غرباً، وطرطوس شمالاً حتى البترون جنوباً، حيث قامت دولة (أمور) في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

أما الكنعانيون فأول ذكر لهم ـ كاسم جغرافي ـ كان في النصوص المكتشفة في إيبلا (تل مريديخ)، الذي يعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. أي أن منطقة كنعان كانت مجاورة لمملكة إيبلا، وبعد ألف عام لجأ ملك مملكة (الآلاخ) إلى بلاد كنعان. والشعبان الأموري والكنعاني من أصل عربي واحد. وأعتقد أن هذه التسمية جاءت من اسم المنطقتين اللتين سكنها كل منهما، هذه منخفضة، وهذه جبلية عالية نسبياً.

عثر في مواقع سورية على آثار، تعود إلى العصر الحجري القديم. من هذه المواقع عدلون

(بين صور وصيدا)، وأنطلياس في كهوف جبل الكرمل، وفي مغارة قطنا جنوب الناصرة، وفي مغارة الزطية قرب بحيرة طبريا، وفي أريحا، وفي جيرود، وفي رأس شمراء (أوغاريت). كشفت على أن الإنسان، الذي كان يسكن هذه المناطق، وخاصة في مغارة الزطية كان من نوع إنسان النياندرتال، مع بعض الميزات الخاصة بالإنسان العاقل. وعثر أيضاً على أدوات ظرانية، كما عثر أيضاً على بقايا حيوانات انقرضت، مثل وحيد القرن وفرس النهر. وفي العصر النيولبني (العصر الحجري الحديث) حوالي (٥٠٠٠ ق.م)، ظهرت بواكير الحضارة في العراق وإيران، كما وجدت من العصر نفسه أقدم الطبقات في بيبلوس، أوغاريت، حماه، وفي أريحا.

يقول الدكتور أحمد فخري[1]: عرف سكان سورية القدماء استخدام النحاس، وقيل إن باقي سكان غربي آسيا قد تعلموا منهم، وقال: ربما كان العكس هو الصحيح. كما عرفوا فن البناء، وكانت لهم منازل مستطيلة الشكل، أساسها من كتل الأحجار، جدرانها من الطوب (اللبن)، وسقوفها أعواد النباتات، ومن فوقها الطين، وفي تليلات (الغسول) شمال البحر الميت، كان السكان يدفنون الأطفال داخل أوانٍ فخارية تحت أرضية غرف المنزل، وانتشرت هذه العادة في أوغاريت، وفي تل الجزر جنوب شرق الرملة في فلسطين. كما عرفوا عادة حرق الجثث، واكتشفت أن لسكان بلاد الشام خلال هذه المرحلة ديانة، وأنهم كانوا يؤمنون بالبعث، وكانوا يقدمون القرابين.

كما أتم سكان بلاد الشام استئناس وتدجين الكثير من الحيوانات، كالثور والضأن والنباتات، مثل العنب والزيتون والقمح والشعير، وبعض الخضراوات مثل البصل والثوم والحمص والفول والخس وغيرها، ومثل هذه الأعمال الحضارية انتشرت في بلاد الشام، كأريحا، ومجدو، وعفولة وبيسان وأوغاريت وجبيل.

أما عن أصل سكان سورية، فقد ذكر الدكتور أحمد فخري أنهم كانوا من جنس سكان البحر المتوسط الذين يعتبر الساميون فرعاً منهم. وقد عاش في بلاد الشام بعض الساميين المنتمين في الأصل إلى شمال الجزيرة العربية، وكانوا أقلية، حتى كانت هجراتهم الكبيرة حوالي (٣٠٠٠ ق.م). أي أن سكان سورية قبل وصول الهجرات السامية، كانوا يعرفون التعدين وفن النحت، ويستخدمون الأختام. وكان لهم دور فني في الحلي. وعرفوا فن التماثيل، وبنوا البيوت وزخرفوها، وعرفوا التزجيج، وصنعوا التماثيل النحاسية.

---

[1] أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ـ مصر والعراق ـ سورية ـ اليمن ـ إيران مختارات من الوثائق التاريخية ـ طبع مصر ١٩٩٠ ـ ص٥٧.

وكان لسكان بلاد الشام علاقات مع مصر خلال هذه المرحلة، وكانت سيناء تعتبر طريقاً أو واسطة اتصال ما بين الشعبين. كما كان هناك طريق عبر البحر، حيث استخدمه المصريون للوصول إلى الشاطئ الشرقي للمتوسط، ويؤكد ذلك آثار الأسرة المصرية الأولى، وإحضار خشب الأرز من لبنان إلى مصر.

علاقة الأموريين بجيرانهم:

مع مصر:

قام الأموريون في أواخر عهد الفرعون امنحتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م)، وفي عهد امنحتب الرابع (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م)، بدور مهم في إضعاف السيادة المصرية على سورية الوسطى والشمالية. كما بدأ الحثيون يعبثون بالحدود السورية والميتانية[1]، وأخذوا يغرون ضعاف النفوس بالعمل لصالحهم.

كان بعض الأمراء المحليين في بلاد أمورو السورية يتطلعون إلى الاستقلال بالحكم، والانفصال عن الدولة الفرعونية، ومن أهم هؤلاء الحكام: عبدي شرتا وولده عزير، كانوا يخططون لجعل جزء كبير من شمال سورية دولة مستقلة[2]، مما دعا بعض الحكام كحكام جبيل (ربعدي) إلى طلب العون، والمساعدة من المصريين ضد عبدي شرتا حاكم أمورو، الذي تمكن من بسط سيطرته ونفوذه على جيرانه، فاحتل عرقة وقطنا وحماه، ومن ثم احتل أرواد، وهاجم سيميريا على الساحل.

في هذا الوقت استمر (ربعدي) حاكم جبيل في توسلاته إلى فرعون مصر، بطلب العون ضد حاكم أمورو عبدي شرتا وولده عزير، ولكن فرعون لم يحرك ساكناً في البداية، إلا أن كثرة الرسائل، (رسائل تل العمارنة) التي وردت إلى الفرعون من حاكم جبيل، وحاكم صور وحاكم قطنا، جعلته يوجّه رسالة إلى حاكم أمورو عبدي شرتا، يهدده بالموت هو وجميع أفراد أسرته، ويطلب منه الحضور إلى مصر. قام حاكم (أمورو) عزير بزيارة مصر، ثم عاد إلى بلاده، دون أن يصاب بأي أذى.

ثم ذكرت بلاد أمورو في نصوص معركة قادش في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، وذكر اسم البلاد في عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ ــ ١١٥١ ق.م) ثلاث مرات الأولى:

---

(١) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول ـ ص٢١٨.

(٢) محمد بيومي مهران: (اخناتون) ـ ص٢٤ وما بعدها.

قبيل غزو شعوب البحر لبلاد الشام، حيث قام رعمسيس الثالث بإخماد ثورة في بلاد أمورو، والثانية: كانت في السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث حوالي (١١٧٤ ق.م)، حيث جرت معركة بين الفرعون وشعوب البحر، كانت لصالحه، والثالثة: وردت بعد هزيمة شعوب البحر الهزيمة النهائية.

مع العـراق:

وصفت العلاقة الأمورية ببلاد الرافدين: بأنها قديمة، وهناك من يقول: إن الأكاديين إنما كانوا ينتمون إلى المارتو[1] الساميين، الذين هاجروا إلى العراق من الجزيرة العربية، وكشف عن نقش مشهور للملك الأكادي سرجون الأول (٢٣٧٠ ــ ٢٣١٥ ق.م)، يفهم منه أن سرجون وعشيرته كانوا قد نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة العربية. ومن المعروف أن الآموريين كانوا قد وجدوا في المنطقة نفسها، التي شغلها المارتو، وهددوا آكاد نفسها، مما اضطر الملك الأكادي شاركالي (شارلي) (٢٢٥٤ ـ ٢٢٣٠ ق.م) إلى مهاجمتهم، ثم تمكن فيما بعد من قهرهم في منطقة جبيل بشرى.

في عهد أخر ملوك سلالة أور الثالثة أبي سن (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق.م)، تعرض حكم هذه السلالة إلى هزتين من شعبين: كان الآموريون أحدهما، والثاني: الشعب العيلامي. خلال هذه الأحداث، انتهز (اشبي ارا) حاكم ماري التابع لحاكم أور المذكور الفرصة، وأخذ يعمل لصالحه، ونقل نشاطه إلى مدينة نيبور، ثم إلى مدينة (ايسين)، حيث استقل هناك بالحكم، وأسس أسرة أمورية، عاصمتها (ايسين)، حكمت هذه الأسرة (٢٢٥) سنة وستة أشهر، حكم فيها خمسة عشر ملكاً، وإلى هذه الأسرة ينتمي (لبت عشتار) صاحب التشريعات المعروفة.

ثم إن الأموريين عندما انتقلوا إلى بابل، مارسوا حياة الاستقرار، وكانوا قد اكتسبوا مظاهر الحضارة قبل ذلك، علماً أن بابل كانت قبل استقرار الأموريين فيها قرية عادية، عرفها السوريون باسم: كدنجيرا، فأحالها الأموريون فيما بعد إلى مدينة كبيرة، أطلقوا عليها اسم بابل، ومؤسس الأسرة البابلية الأمورية الجديدة (دولة بابل الأولى) هو (سمو ـ ابوم).

أما عن علاقة الأموريين بالحثيين، فتشير رسائل تل العمارنة إلى تعاون بينهما في عهد عبدي شرتا وولده عزير، والغاية منه الحد من النفوذ المصري، والقضاء عليه في سورية. أما في

---

[1] محمد بيومي مهران: بلاد الشام ـ ص٦٢.

العصر الآشوري، فتشير الوثائق الآشورية إلى: أن العنصر الأموري كان قد شارك في مجتمعات المراكز التجارية الآشورية القديمة في آسيا الصغرى، وكان الأموريون أقرب العناصر للآشوريين، وأكثرهم ارتباطاً بهم اجتماعياً ودينياً.

الممالك الأمورية في سورية:

مملكة حلب: تعتبر حلب إحدى أقدم المدن في العالم[1]، فالآثار المصرية تذكرها باسم (حلبوسوخالويو ـ وحلب كو ـ حيلبون ـ حرب). أما الآثار الحثية فتذكرها باسم (حلب ـ حلباس ـ حلبا ـ حالأب)، وفي الآثار الأكادية باسم (حلايكي ـ أرمان)، وفي الآثار الأشورية باسم (خلمان ـ حلوان)، والآرامية باسم حلب، والسومرية باسم (حلب حلابا)، وتسميها الصابئة (مايوغ)، وكانت تعرف بمدينة الأحبار، وحين جدد السلوقيون ملوك سورية بناء حلب سموها (بيروابيريه). في أوائل القرن الثاني الميلادي في عهد الامبراطور الروماني تراجان أمر بضرب الصكة في حلب.

وهناك آراء متعددة حول تسميتها، منها أن اسمها آرامي، ومعناه اللبن أو البياض، وسميت بذلك لبياض تربتها أو لغزارة لبنها، ومنها أيضاً: أنها خرب، أو خراب، أصابه الإبدال، وسميت بذلك لكثرة ما أصابها من خراب بسبب الغزو. ومنها ما يقوله الأب (انستاس الكرملي): أن أصل كلمة حلب هو (لب)، باعتبار أن الألفاظ الثلاثية السامية هي ثنائية التركيب في أصلها، وتوّجتْ بالحرف الحلقي (ح)، وبذلك يكون معنى حلب: المدينة الخصبة الأرض، المكتنزة التراب.

ويرى الأسدي أن لفظ حلب القديم هو حلب، وإن شئت فارسم (حل ـ لب)، أي كلمتان مزجتا معاً فكان معناهما حلب، ويرى أيضاً أن لفظ حلب اجتاز ثلاث مراحل: الأولى: (حل رب)، ثم اعتوره الإدغام فصار (حروب). الثانية: (حل لب). الثالثة: (حلب). ويقول الأسدي: أشتم رائحة الجمع لأمر خطير، لعله الحرب، نعم هو الحرب، وهذا الآن ظن، ثم يقول: عندي ظن قوي، يشارف تخوم اليقين، ذلك أن لب أصلها رب.

ويقول صبحي الصواف[2]: عرفت حلب في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد باسم

---

[1] عبد الفتاح رواس قلعة جي: حلب القديمة والحديثة ـ أسماؤها وحكامها وأبوابها وأسواقها وأحياؤها ـ طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٩ ـ ص١٤.

[2] صبحي الصواف: أقدم ما عرف عن حلب في الألف الثالثة حتى العهد السلوقي ـ طبع سورية ١٩٥٢ ـ ص٧.

(أرمان) و(حلبايا) أو (حلب) لدى الأكاديين. فحلب وحلابا لدى السومريين، وكان الحثيون والميتانيون يسمونها حلبا وحلباس، والمصريون (حرب)، والآشوريون (حلوان)، وكل هذه الأسماء سامية. ومهما يكن فاسمها عبر التاريخ حلب، بقي، ولم يتغير، ولم يتبدل رغم ما تعرضت له هذه المدينة من أزمات وحوادث وكوارث.

تقع حلب عاصمة مملكة يمحاض شمالي مملكة ماري، وغربي نهر الفرات، وقيل تقع بين كركميش (جرابلس)، وأوغاريت (رأس شمرا). وكانت حلب واقعة على مفترق الطرق، مؤدية شمالاً إلى الأناضول، وخاصة إلى مدينة كانس المشهورة آنذاك بتجارة الذهب والفضة، وشرقاً إلى كركميش، وبلاد ما بين النهرين، وغرباً إلى أوغاريت، ومنها إلى قبرص، وجنوباً إلى جميع المدن السورية. وقد امتدت رقعتها من الفرات شرقاً حتى المتوسط غرباً. حكمتها سلالة كنعانية منذ القرن التاسع عشر، وحتى عام (١٣٥٠ ق.م)، حيث خضعت للنفوذ الحثي.

حلب بالعصر الحجري: لقد سكنت حلب في عصور ما قبل التاريخ. والمساكن الأولية فيها كانت المغاور الكبيرة، ويقع معظمها جنوبي حلب الحالية، وفي شمالي غربي المدينة، وفي حلب الآن حي يسمى المغاور. وصفت هذه المغاور: بأنها كانت متسعة، وفي داخلها المقاعد المنحوتة في الصخر، وعلى جدرانها نقوش، وتصاوير تعود إلى ما قبل التاريخ.

حلب في العهد الأكادي: يذكر أن أقدم ذكر تاريخي لمدينة حلب كان في عهد الملك الأكادي (ريموش) [1] (٢٥٣٠ ـ ٢٥١٥ ق.م)، حيث يذكر: أن ريموش هذا كان قد احتل حلب مع مدن أخرى، وخرّبها، إلا أن حلب استعادت حريتها واستقلالها، ويؤكد ذلك محاولة (نارام سن) الأكادي [2] (٢٤٥٢ ــ ٢٤٠٧ ق.م) الاستيلاء عليها. وقد كشف عن ثلاثة رقم، تتحدث عن قيام تحالف بين مماليك عدة لمحاربة نارام سن الأكادي، الأول منها: عثر عليه في تل العمارنة بمصر، والثاني: في مدينة آشور (من عهد آشور بانيبال)، والرقمان المذكوران مكتوبان باللغة الأكادية، أما الثالث: فقد اكتشف في بوغازكوي (حاتوش)، وهو مكتوب باللغة المسمارية، وفيه ترى أسماء الملوك السبعة عشر المتحالفين ضد نارام سن، ومن ضمنهم ملك أرمان (حلب).

حلب في العهد السوري والبابلي: إن اكتشاف ماري ووثائقها قدّم معلومات تاريخية

---

[1] عبد الرحمن عبده: محافظة حلب ـ طبع سورية ١٩٩٢ ـ ص٩.

[2] الفرد هادار: العموريون من هم وما هي مواضعهم ص٢٥ وما بعدها.

عن تاريخ ماري، وعلاقاتها الداخلية والخارجية. كما ذكرت أسماء ملوك كثيرة، من ذلك ذكر ملكين لحلب، وذكرت هذه الوثائق كيف كان ملوك ماري يتبادلون الهبات مع ملوك حلب فمثلاً: إن ملك ماري (زمريليم)، كان قد أرسل أسطوانة ختم كبيرة من حجر اللازورد الأزرق إلى (باريمليم) ملك حلب، وكان أيضاً (حمورابي) ملك حلب قد أرسل ثياباً من حلب إلى ملك زمريليم. وهذا ما يؤكد أن صناعة المنسوجات الحلبية وتصنيعها كانت مشهورة، لدرجة أنها كانت تتهاداها الملوك. وتجاوزت علاقات مملكة ماري مع مملكة حلب الهبات والهدايا، لدرجة أنهما كانا يتوسطان في حل أمور شتى لصالحهما الخاص. ومنها خدمة لجيرانهما. مثلاً: ذكر أن ملك حلب (حمورابي) توسط بطلب من ملك أوغاريت في إرسال ابنه لمشاهدة قصر زمريليم الشهير في ماري.

كما تدخل ملك بابل حمورابي بين باريليم ملك يمحاض و (واموت ـــ بي ـــ ال) ملك قطنة، عندما حدث خلاف بينهما كاد يتطور إلى الصراع، ورغم فشله في مهمته هذه، فقد طلب من أحد سفراء زمريليم ملك ماري: أن يطلب من سيدة في ماري التوسط في حل النزاع، فتدخل زمريليم كحكم، وتمكّن من جمعهما في حلب، وعقد بينهما معاهدة. كما كان ملك ماري زمريليم، عندما يداهمه أي خطر، يطلب النجدة من أصدقائه المجاورين كملك كركميش وملك قطنا وملك حلب، وملك حران. وذكرت النصوص كيف أن حمورابي الملك البابلي كان يطلب المساعدات من حلب، ومن ماري أيضاً.

ومما يؤكد حسن العلاقة والجوار بين مملكة حلب ومملكة ماري، ما ذكر عن سيطرة الملك الآشوري (شمس حدد) على ماري، عندما وضع على عرشها (يشمخ حدد)، حيث هرب زمريليم بن يهد وينليم إلى مملكة يمحاض (حلب)، ثم تزوج زمريليم من ابنة ملك حلب، وعندما عاد زمريليم إلى ماري، ساعده ملك حلب في ذلك، وكان الملوك والحكام يقصدون حلب لكسب عطف آلهتها وملوكها.

حلب في العهد الحثي: ذكرت حلب عدة مرات في الوثائق الحثية المكتشفة في بوغازكوي المسمارية، حيث تمكن الحثيون في عهد ملكهم (حاتوسيل الأول) من توسيع حدودهم، حتى وصلوا إلى سورية الشمالية. إلا أنهم على ما يبدو لم يتمكنوا من الاستيلاء على مملكة حلب. وفي عهد الملك الحثي (مورسيل الأول)، توجهت القوات الحثية إلى حلب، فاستولت عليها سنة (١٨٠٦ ق.م)، ودمرتها ونهبت أموالها، وسبت أهلها، كما تمكن الحثيون من احتلال بابل، وأخذوا منها تمثالين كبيرين من الآلهة البابلية هما: الإله مردوك، ورفيقه ذربانيتوم، وبقيت حلب

تحت سيطرة الحثيين إلى نحو عام (١٦٥٠ ق.م). عندما انهارت قوة الحثيين.

حلب في عهد الميتانيين والمصريين: في القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، ظهرت قوة الميتانيين، واشتدت شوكتهم، فأخضعوا جميع أراضي بلاد ما بين النهرين، وبلاد آشور، وعبروا الفرات، واحتلوا سورية، ومن ضمنها حلب، وتركوا الحكام في المدن والممالك، التي كانوا على رأسها.

وفي عهد ملك حلب (ايليم ايلوما)، نشبت ثورة بحلب، قضت على حياة ملكها، وأرغمت ابنه على التخلي عن العرش، والهرب إلى خارج البلاد، ونشبت الثورة بالأصل ضد الحكام الميتانيين، الذين تمكنوا في النهاية من استمالة الشعب لصالحهم، وتمكنوا من قتل ملك حلب، وطرد ابنه خارج البلاد. قضى ابن ملك حلب المذكور (ادريمي) سبع سنوات في بلاد الكنعانيين، حشد خلالها جيشاً وأسطولاً، وتوجه إلى قرب انطاكية، وهناك التقى بوفد، على رأسه إخوته، فقدموا له الطاعة، وهناك أرسل الهدايا الكثيرة للميتانيين، ليستدر عطفهم، ورغم ذلك فقد رفضوا عودته إلى حلب.

بعد ذلك تمكن المصريون في عهد تحوتمس الأول من الانتصار على الميتانيين، وفي سنة (١٤٨٣ ق.م) استولى الفرعون تحوتمس الثالث على بلاد الكنعانيين، وانتصر على الميتانيين في معركة (مجدو)، وعاد إلى بلاده. وفي سنة (١٤٧٣ ق.م) أعاد الكرة، فوصل إلى كركميش، وفتح سورية الشمالية حتى حلب، ثم عاد إلى بلاده. وفي سنة (١٤٦٦ ق.م) نشبت الحرب بين المصريين والميتانيين. في هذه المرحلة ظهر الحثيون، فأدى ذلك إلى تقارب الميتانيين والمصريين، وجرى تحالف بينهما، وتوطد هذا التحالف في عهد فرعون مصر تحوتمس الرابع، وجرى تزاوج بين الدولتين، قوّى من عرا هذا التحالف بينهما.

حلب في العهد الحثي الثاني: أخذ الحثيون ـ بعد عودتهم للظهور في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ـ يسترجعون ما فقدوه. ففي عهد الملك الحثي (تود اليجا الثاني) زحف الحثيون على حلب، وسيطروا عليها. لكن حلب ثارت ضد الحثيين، وقطعت كل صلة لها بهم، ومالت للميتانيين.

في عهد الملك الحثي (حاتوسيل الثاني)، تمكن الحثيون من حلب وما جاورها، وترك ملكها منصبه، بعد أن أقسم يمين الولاء والطاعة، مثله كغيره من الحكام، الذين وقعوا تحت النفوذ

الحثي آنذاك. بعدها مرت الدولة الحثية بمرحلة ضعف وانهيار، أدى إلى عصيان وثورات، وتمرد في الممالك الخاضعة لها، ومن ضمنها حلب، حيث استعادت استقلالها، وتحالفت مع الميتانيين.

بعد ذلك استعاد الحثيون قوتهم على يد الملك الحثي (شوبيلوليوما)، فأعاد للدولة هيبتها، وتمكن من دحر الميتانيين، وأخذ عاصمتهم، ثم توجه إلى سورية، فدخل حلب. ثم توجه إلى قطنة، فأحرقها، وسبى أهلها، وأخذ قادش، وأسر ملكها، وفي آخر عهد هذا الملك الحثي نراه، يتوجه إلى حلب، ويخلع ملكها، ويعين عوضاً عنه ابنه تليبيتو (ابن الملك الحثي)، لكي يكون سداً منيعاً أمام المصريين، إذا هاجموا سورية.

وفي عهد الملك الحثي (مورسيل)، عيّن (ريميزرما) خلفاً (لتليبيتو) على حلب، بعد أن أخذ عليه عهد الولاء والطاعة. وفي عهد الملك الحثي (موتلي) حدث نزاع بين الحثيين والفراعنة في عهد الفرعون سيتي، الذي تمكن من رد الهجمات الحثية، وتمكن من الاستيلاء على قادش، فأقام نصبه في قادش بعد انتصاره على الحثيين، لكن الحثيين استعادوا قادش، وعادت المنافسات العدائية بين الشعبين.

وفي عهد رعمسيس الثاني جرت معارك بين المصريين والحثيين، حيث اشترك ملك حلب (ريميزرما) مع الحثيين في هذا القتال، وكان في طليعة القوات الحثية. لكن نتائج هذه المعركة (معركة قادش) كانت على ما يبدو لصالح المصريين، حيث تذكر المصادر هروب ملك حلب من المعركة، وسقوطه في بحيرة حمص وإنقاذه.

في هذه المرحلة ظهرت قوة الآشوريين كخطر محدق بالحثيين، فاضطر الحثيون إلى التقارب مع المصريين سنة (١٧٢٨ ق.م)، وجرى تحالف بينهم، بعدها تزوج الفرعون رعمسيس الثاني بإحدى بنات الملك الحثي حاتوسيل الثالث. وعندما تولى الملك الآشوري (تيكولتي ننيورتا) السلطة سنة (١٢٦٠ ق.م)، استولى على بلاد الميتانيين، وفي عام (١٢٠٠ ق.م) زحفت شعوب البحر على الحثيين، وقضوا عليهم.

حلب في العهد الآشوري: في العهد الآشوري بقيت بعض الممالك في سورية الشمالية، مثل مملكة كركميش، ومملكة حماه، ومملكة حلب. علماً أن هذه الممالك كانت في نزاع مستمر مع الآشوريين، وأول ملك آشوري تصدى لهم هو (تغلات بلاصر الأول)، وبعد هذا الملك الآشوري، بقيت آشور مدة قرنين لا تحرك ساكناً. وعندما وصل آشور بانيبال الثاني (٨٨٤ -

٨٦٠ ق.م) إلى السلطة الآشورية، عزم على توسيع بلاده. فاصطدم مع الآراميين، واحتل كركميش، وأخذ منهم الجزية. واستمر في زحفه حتى أوغاريت، فتجاوز حلب، دون أن يلقى مقاومة.

في عهد شلمنصر الثالث جرت معركة بينه وبين بعض الملوك السوريين (ملك كركميش ـ ملك بيت عديني)، فانتصر عليهم، وتمكن من إخضاعهم. وفي سنة (٨٥٣ ق.م) تمكن (شلمنصر الثالث) من إخضاع حلب دون مقاومة، ثم توجه لمحاربة حلف، ضم كلاً من ملك حماه وملك دمشق وغيرهم. وعند كركر (قرقر) حدثت معركة بين الطرفين دون نتيجة لكليهما. بعد ذلك بسبع سنوات كرر هجومه على المنطقة، فتصدى له ملك دمشق، وانتصر عليه، وأخضع دمشق، ثم زحف إلى كركميش، فأخضعها.

خلال هذه الأحداث ظهرت قوة جديدة، هي مملكة الأورارتو (في تركيا عند بحيرة وان)، وقد استطاع (ساردوري) الثالث سنة (٧٥٨ ق.م) من إخضاع ممالك حلب وكركميش. وفي سنة (٧٤٣ ق.م) تمكن تغلات بلاصر الثالث من الانتصار على هذه المملكة، واستعاد جميع البلاد الخاضعة لها. وبذلك بقيت حلب آشورية، حتى سقطت آشور في أيدي الميديين والبابليين سنة (٦١٢ ق.م).

وبعد ذلك تمكن الفرس بقيادة كورش من الاستيلاء على سورية ومصر. وبذلك فقدت أهميتها السابقة، وبقيت سورية تحت سلطة الفرس، إلى أن تمكن الاسكندر المقدوني من الانتصار على الفرس في معركة ايسوس سنة (٣٣٣ ق.م)، والاستيلاء على سورية بكاملها. حيث استعادت حلب مكانتها في عهد سلوقس الأول، مؤسس الدولة السلوقية. ثم دخلت تحت سيطرة الرومان اعتباراً من تاريخ (٦٤ ق.م)، حتى تمكن العرب المسلمون من تحريرها.

ملوكها:

١- **بارليم الأول**[1]: عرف عنه مساعدته، ومناصرته لابن أخته زمريلينم ملك ماري، حتى تمكن من استعادة عرشه في ماري. وصف أنه كان من أقوى ملوك عصره، وذكرعنه أنه كان قد خضع له عشرون ملكاً.

---

(1) علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة في سورية ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٣٢٣.

٢- حمورابي الأول[1]: روي عنه أنه كان ابن بارليم الأول وخليفته. ذكر أنه كـان قـد أقام علاقات جيدة مع ماري وبابل، حيث شكلت هـذه الـدول الـثلاث حلفاً، حـال دون التوسـع الآشوري في الجنوب والغرب.

٣- أبي بعل: هو خليفة حمورابي الأول.

٤- بارليم الثاني.

٥- نقم عفا.

في عهد هؤلاء الحكـام الثلاثـة وصلـت مملكـة يمحـاض إلى قمـة المجد، وأصبحـت (الآلاخ) العاصمة الثانية، ومقراً لنائب الملك.

٦- ايلي ميليما: في عهده سيطر الميتانيون على حلب، كما سنرى. فعندما بـدأ الصـراع على بلاد الشام في القرن السادس عشر قبل الميلاد بين القوى العظمـى آنـذاك، المتمثلـة في كـل مـن مصر والدولة الحورية والميتانية والدولة الحثية، عند نهاية القـرن السـادس عشـر تمكـن الميتـانيون مـن السيطرة على هذه الدولة. يقول الدكتور علي أبو عساف ولسبب نجهله: نشبت الثورة في يمحاض، وأودت بحياة الملك (ايلي ميليما)، وفرّت أسرته وولي عهده (ادريمي) إلى إيمـار، حيـث أخوالـه[2]. ومنذ ذلـك الوقت حكـم الميتـانيون حلـب، حتـى غـزاها الملـك الحثـي شـوبيلوليوما (١٣٨٠ ـ ١٣٤٦ ق.م)، فأخضعهـا، ووضـع نهايـة لهـذه الدولـة. أخيراً يذكـر صبحـي الصـواف[3] السـلالة اليمحاضية على الشكل التالي:

١ً) بارليم الأول.
٢ً) حمورابي الأول.
٣ً) بارليم الثاني.
٤ً) حمورابي الثاني.
٥ً) ايات.
٦ً) بارليم الثالث.
٧ً) تكمة ايبوه.
٨ً) ارفانيم.

---

[1] علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة في سورية ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٣٢٣.

[2] توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة ـ طبع دمشق ١٩٨٥م ـ ص٣٦٢.

[3] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد السابع ـ ١٩٥٧ ـ ص١٥٤.

قطنة (المشرفة): تقع على بعد (١٨ كم) شمال شرق حمص. اكتشف أطلالها العالم الأثري (رونزفال)، وقام بالتنقيب فيها بحثاً عن منشآتها الكونت (دومتيل دويويسن)، حيث تأكد مما وجد فيها من آثار: إن هذه المدينة كانت قد سكنت منذ العصر الموستيري من الزمن الحجري المقطوع، وتعرف من أنقاضها على أنها تعود إلى أول الألف الثاني قبل الميلاد [1].

كانت مدينة قطنة على شكل مربع، طول ضلعه كيلو متر مربع، تحيط بها أسوار، ترتفع من (١٣ ـ ١٥م)، يتخلل السور أبواب، أهمها الباب الغربي المبني من الأحجار الضخمة. وهذا الباب بني على شكل، ينظم له عدة مداخل الواحد بعد الآخر ضمن تحصينات قوية.

عاصمتها قطنة[2]. المعلومات عنها قليلة، وأخبارها نحصل عليها من وثائق الدول المجاورة، وخاصة مملكة ماري، التي كانت تربطها بها علاقة جيدة. وفي عهد ملكها (يسعي حدد)، وعهد خليفته (عموتفيل) [3]، الذي عاصر حمورابي البابلي. احتلت قطنة مكانة مرموقة بين ممالك بلاد الشام. ثم أخذت تفقد أهميتها اعتباراً من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وبحلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد أصبحت دولة صغيرة قليلة الأهمية. يعتقد: أنها دمرت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، قدر عدد سكانها القدماء بنحو (٣٠ ـ ٥٠) ألف نسمة، عملوا في الزراعة كزراعة الحبوب وغرس الكروم، وعملوا تجاراً، وبنوا علاقات مع بلاد الرافدين عن طريق بلاد الشام، وكانوا صلة الوصل ما بينهم وبين البحر المتوسط.

بنتيجة التنقيب في (تل الكنيسة) [4] الواقع في منتصف مدينة قطنة، عثر على عدد من الأبنية، منها معبد للربة (نين ايغال) [5] السومرية، التي كانت تعبد في مدينة أور الكلدانية، ولهذا المعبد بابان شرقي وشمالي. يتألف المعبد من باحة واسعة، تحيط به عدة قاعات، بينها قاعة (قدس الأقداس)، وقاعة الحجر الأسود (البيتيل)، وقاعة (البحيرة المقدسة). واكتشف في المعبد كؤوس برونزية، وبعض التماثيل الحجرية، ورقم فخارية مخطوطة باللغة الأكادية.

كما أظهرت التنقيبات الأثرية قصر ملوك قطنة، الذي يقع إلى الشمال الشرقي من المعبد.

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد العاشر ١٩٦٠ ـ ص٦.

[2] علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة في سورية ـ ص٣٢٥.

[3] علي أبو عساف: فنون الممالك القديمة ـ طبع دمشق ١٩٩٣ ـ ص٨٢.

[4] أقيمت كنيسة أورثوذكسية عليه فسمي التل باسم الكنيسة.

[5] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد العاشر ـ ١٩٦٠ ـ ص٧.

المذكور. ويحتوي هذا القصر على باحة كبرى، وقاعة للعرش، وبيت ملكي، وقاعات ضخمة للاستقبال، وغرفة للخزانة، ومستودعات للحبوب. واكتشف معبد صغير مخصص للملوك.

وذكر: أن الميتانيين[1] كانوا قد سكنوا قطنة منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ووجد أن هناك تشابهاً بين مخطط أسوارها، وبين مدينة (أفاريس) في الضفة المصرية، التي بناها الهكسوس. ثم إن المصريين عندما طردوا الهكسوس، كانوا قد تعقبوهم إلى سورية، واستولوا على قطنة عدة مرات[2]. وعقدوا أواصر الصداقة مع ملوكها، وقدموا لهم الهدايا، منها تمثال لأبي الهول. وجد في معبد الربة (نين ايغال). وبنتيجة ازدهارها الاقتصادي ونتيجة التوسع الحثي فقد سيطر عليها الحثيون بين سني (١٣٨٥ ـ ١٣٨٠ ق.م) من القرن الخامس عشر قبل الميلاد بقيادة ملكهم (شوبيلو ليوما)، وقضوا على آخر ملوكها (أكيزي)، وأحرقوا منشآتها، ودمروا معبدها وقصرها. لكن شعبها تمكن بعد ذلك من إعادة ازدهارها وتوسعتها، إلى أن جاء العصر البابلي الحديث، حيث بقيت قطنة إلى ما بعد زوال حكم بختنصر، ونهايتها شبه مجهولة، حيث يعتقد: أنها كانت في العصر الروماني.

اكتشف فيها مؤخراً سويتان[3]: (سوية عصر البرونز الوسيط الثاني، وسوية عصر الحديد الثاني)، حيث تم الكشف عن منازل سكنية مبنية من الحجارة والطين، وعثر داخلها على جرار ضخمة مختومة من الأعلى بالخط الآرامي، وتعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وعثر على بئر محفورة في الصخر، عمقها اثنا عشر متراً، وجدت فيها أوانٍ جنائزية فخارية، بالإضافة إلى حوالي عشرة هياكل عظمية، وختم أسطواني مصري، نقش عليه بالخط الهيروغليفي. مما يشير إلى قدم العلاقة بين قطنة ومصر. كما تم اكتشاف منشأة صناعية، تعود إلى عصر الحديد الثاني (٨٠٠ ق.م)، مؤلفة من عدة غرف مبلطة، وعثر داخلها على مجموعة من الجرار الضخمة، التي كانت معدة للخزن والتصدير.

يذكر هنري ـ س ـ عبودي في كتابه معجم الحضارات السامية[4]: بأنها مدينة سورية قديمة تقع على بعد (٢٠ كم) شمال شرق حمص، تعرف اليوم بالمشرفة، كانت هذه المدينة عاصمة للهكسوس، وأصبحت حليفة لمصر خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ثم فتحها الملك الحثي (شوبيلو

---

[1] دخل الميتانيون إلى مصر مع بعض الأقوام العربية السورية وأقاموا فيها عدة قرون في عهد الدولة المتوسطة.

[2] الأولى في عهد الفرعون تحوتمس الأول ـ الثانية في عهد تحوتمس الثالث ـ الثالثة في عهد امينوفيس الثاني والثالث.

[3] صحيفة تشرين العدد / ٦٦٨١ / تاريخ ١ / ١٢ / ١٩٩٦.

[4] هنري ـ س ـ عبودي: معجم الحضارات السامية ـ طبع لبنان ـ ١٩٩١.

ليوما) عام (١٣٧٥ ق.م). وقال: كان للإلهة السومرية (نين ايغال) معبد في قطنة، وعثر في أرجائه على قطع تمثال من البازلت مقدم من ابن أحد فراعنة السلالة الثانية عشرة (القرن التاسع عشر قبل الميلاد)، وعلى ألواح، تحتوي على جرده الكنز المعبود (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) مكتوبة باللغة الأكادية والحرف المسماري، ويذكر الدكتور محمد بيومي مهران[1]: أن ملك آمورو (عبدي شرتا) تمكّن من بسط نفوذه عنوة على جيرانه، فاحتل عرقة وقطنه وحماة في الداخل، ثم احتل أرواد، وهاجم سيميريا على الساحل.

قادش (تل النبي مند): تبعد قادش (١٥كم) إلى الجنوب الشرقي من مدينة حمص، وارتفاع تلها (٣٢م). أول من تعرف على أنقاض مدينة قادش هو الأمريكي (تومبسون). نقب فيها العالم الأثري (موريس بيزار) سنة (١٩٢١ ـ ١٩٢٢م)، إلا أنه لم يكتشف فيها إلا القليل من الآثار.

وشهرة قادش الأثرية كبيرة جداً، وسببها نتيجة ورود اسمها مراراً في النصوص القديمة، وأهمها المعركة، التي نشبت قربها سنة (١٢٧٢ ق.م) بين رعمسيس الثاني وقائد الجيش المصري وبين حاتوسيل قائد الجيش الحثي. حيث كانت نتيجة المعركة تقسيم البلاد بين الطرفين على طول خط اعتباري، يمر جنوبي المدينة.

بنيت المدينة من الطوب، يحيط بها سور من حجر، له عدة أبواب، والماء كان يحيط بها من كل جانب، وقد جر إليها من العاصي. اكتشف فيها لوح حجري منحوت، يمثل الفرعون (سيتي الأول)، وهو يتلقى حربة الظفر، وأمامه أربعة أرباب[2]. ويذكر هذا اللوح انتصار فرعون على سورية، كما وجدت تماثيل صغيرة برونزية، يرى فيها أرباب سورية القديمة، يرتدون فيها أثواباً طويلة، وعلى رؤوسهم قلنسوات مخروطية، يمسكون بأيديهم اليسرى الصولجانات، ويباركون بأيديهم اليمنى.

في العهد اليوناني والروماني يظهر: أن قادش قد تحولت إلى قلعة، حيث امتدت منشآتها جنوبي التل وغربه. واكتشف فيها آثار، تعود إلى هذه المرحلة، منها أوانٍ وكسر زجاجية وفخارية، كما تم الحصول من لصوص الآثار على عدد من التماثيل البرونزية والمرمرية والأواني الزجاجية الثمينة. وفي سنة (١٩٥٠م) أجريت تنقيبات في مقابر المدينة المنتشرة في شمالها، حيث كشف عن

---

[1] محمد بيومي مهران: بلاد الشام ـ ص٥٨.

[2] هي: ١ـ آمون ـ رع ٢ـ مانتوم ٣ـ خنصو ٤ـ ورشيف.

(٧١) قبراً، وجد فيها عدد من الجرار الفخارية والقوارير والخناجر الزجاجية، والأدوات البرونزية، وبعض الحلي والنقود. وكل ما ورد يعود للعصر الروماني. ومن المعلوم أن مدينة قادش وحضارتها درست في هذا العصر.

مملكة جرجميش: أخبار هذه المملكة قليلة، لم يصلنا من أخبارها، إلا ما ذكرته الوثائق التي اكتشفت في دار محفوظات ماري. تقع مدينة جرجميش في مخاضة الفرات في نقطة العبور من سورية إلى بلاد ما بين النهرين، وتعرف اليوم باسم (جرابلس). يذكر هنري - س - عبودي في كتابه معجم الحضارات السامية: بأنها كانت تابعة قديماً للميتانيين، وقد تكون أصبحت يوماً عاصمة للحواريين، الذين انطلقوا بغرض سيطرتهم على البلاد المجاورة.

ويذكرها الدكتور علي أبو عساف[1] في كتابه آثار المماليك القديمة في سورية بقوله: كانت عاصمتها كركميش أو جرجميش إلى الشمال من مدينة جرابلس، التي كان اسمها جريبيس، وهو تحريف للاسم القديم جرجميش، وقد سيطرت على حوض الفرات والسهول المجاورة من موقع يوسف باشا جنوباً حتى شمال جزابلس، وكانت علاقتها جيدة مع مملكة ماري.

انقطعت أخبار هذه المملكة، أو ندرت منذ (١٧٤٠ ق.م)، وحتى عام (١٣٥٠ ق.م)، حيث احتلها الحثيون، وأصبحت مركزاً لنائب ملكهم، الذي كلف بتنظيم علاقات الحثيين مع ممالك بلاد الشام الشمالية، ومن ضمنها أوغاريت. وقد احتفظت باستقلالها[2] إلى سنة (١٧١٧ ق.م) تحت حكم ملوكها الحثيين، وفي هذه السنة سقطت، وألحقت بالدولة الآشورية، يقول الدكتور علي أبو يوسف في كتابه دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة منذ أقدم العصور إلى عام (١١٩٠ ق.م): إن الملك الحثي (شوبيلوليوما) غزا مدينة كركميش، فدمرها، بينما أبقى على معابدها، دون أن يتعرض لها بسوء، بل على العكس قدم لها الطاعة والاحترام[3].

كما أن الملك الحثي نفسه، كان قد نصّب أحد أبنائه المدعو (بياشيلي) نائباً له على عرش كركميش، وأوكل إليه مهمة مراقبة مناطق بلاد الشام الخاضعة للسلطة الحثية، بالإضافة إلى ضمان سلامة القوات الحثية ضد أي خطر محدق بها في هذا الاتجاه. والمطّلع على الوثائق الحثية، التي

---

[1] علي أبو عساف.

[2] نسيب وهيبة الخازم: من الساميين إلى العرب - طبع بيروت ١٩٧٩ - ص١٣٣.

[3] توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة - ص٣٨٠.

اكتشفت في أوغاريت، يجد أن نواب الملك الحثي في كركميش، كانوا يتدخلون في الشؤون الداخلية للإمارات التابعة لهم في بلاد الشام. ونائب الملك الحثي في كركميش، كان من مهامه قمع كل تمرد أو ثورة مضادة، تظهر في المنطقة. كشفت التنقيبات فيها عن قلعة محاطة بسور مزدوج، وعن أبنية مزينة بنقوش بارزة، تدل على فن متطور، تمتزج فيه التأثيرات الآشورية والحثية. وعثر فيها على تمثال لإله جالس على العرش، وعلى رأسه تاج مزود بالقرون، يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. يعرف من ملوكها: ١ـ ايلافندا. ٢ـ بترامي. يذكر عنهما أنهما كانا قد تبادلا الرسائل مع يشمخ هدد وزمري ليم ملكي ماري.

ماري: تقع ماري على الفرات[1] الأوسط، اسم موقعها تل الحريري، وقيل: تقع ماري على الفرات الأوسط قرب مدينة البوكمال، وتعرف أطلالها الآن باسم تل الحريري، وقيل إن ماري هي العاصمة الأمورية الأساسية. وكان دمار ماري حوالي منتصف الألف الثالث تحت ضربات ملك أورك (لوغالزاغ غنيري). لكن هذا الدمار لم يدم طويلاً، حيث حل عهد الأكاديين بقيادة سرجون، فوجه اهتمامه نحو ماري لأهميتها الاستراتيجية.

وكان أول ذكر لأرض الأموريين في عهد سرجون الأكادي (٢٢٥٠ ق.م). عرفت مدينة ماري من خلال اللوائح الملكية لبلاد ما بين النهرين، كونها مقر السلالة الملكية العاشرة بعد الطوفان. كما عرفت من خلال النصوص السومرية والبابلية. هذا وتذكر الرقم المسمارية، التي خلفها سرجون الأكادي حوالي (٢٣٠٠ ق.م)، بأنه حكم الأراضي الممتدة بين ماري وعيلام حكماً مباشراً، حيث يتباهى بذلك.

أدت الحفريات الفرنسية في موقع ماري على الفرات الأوسط منذ عام (١٩٣٣م) إلى اكتشافات هامة وعديدة: وأشهرها الأرشيف الملكي المؤلف من خمسة وعشرين ألف رقيم، كتبت بالخط المسماري، واللغة الأكادية البابلية القديمة، ويشمل هذا الأرشيف وثائق اقتصادية وإدارية ورسائل وتقارير، ونصوصاً مختلفة، توضح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية في ماري والقصر الملكي، ومعبد إله عشتار إلهة الحب والحرية في بلاد الرافدين.

إذاً أدت الحفريات إلى الكشف عن حاضرة هامة من حواضر الشرق العربي القديم، وقد ساهم موقعها الجغرافي الممتاز في إحراز أهمية سياسية واقتصادية كبيرة. قدرت مساحة ماري

---

[1] أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ سورية بلاد العرب ـ ص٣٤.

(١٠٠٠ × ٨٠٠ م)، أي مساحة (٨٠٠ كم٢)، ترتفع في وسطها زقورة، تبلغ مساحتها (١٠٥٠م)، قامت في المدينة معابد عديدة لآلهة عديدة، منها (عشتار ـ نينجور ساج ـ شماش ـ الإله داجان)، الذي كان يعبد في ماري.

يقول الدكتور محمد بيومي مهران[١]، في كتابه بلاد الشام: لا ريب أن مدينة ماري ذات الموقع الهام من حوض الفرات الأوسط، كانت أهم مركز لتجمع العناصر السامية العربية في وادي الفرات، و لم تفقد هذه الأهمية، إلا بعد سقوطها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.... هذا وقد قامت مملكة ماري في حوالي (١٨٢٠ ق.م)، و لم تستمر أكثر من ستين سنة، سقطت على يد حمورابي البابلي حوالي (١٧٦٠ ق.م).

يقول هنري ـ س ـ عبودي[٢]: (العصور التاريخية جميعها في بلاد ما بين النهرين ممثلة في ماري، وذلك انطلاقاً من جمده نصر (الألف الرابع قبل الميلاد)، إلى العهد الساساني (القرن الثالث قبل الميلاد)، وأهم عهود ماري كانت دون شك العهد ما قبل السرجوني، حيث كان يحكم ماري في العهد المذكور السلالة العاشرة بعد الطوفان، وذلك وفق لوحات التاريخ المكتشفة في نيبوروكيش).

كشف في ماري عن معابد الآلهة عشتار المسترجلة ونيجورساج وداجان، وعثر في هذه المعابد على تماثيل عديدة مقدمة إلى المعبد، منها رسم للملك (لجي) ملك ماري، موجود في متحف حلب، كما كشف عن قصر لملوك ماري، يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، يشغل ما مساحته هكتاران ونصف الهكتار، وهو الذي دمره حمورابي البابلي زمن حكم زمري ليم. وكان هذا القصر يحتوي على ثلاثمائة غرفة وقاعة، ولا يزال قسم من جدرانه قائماً على علو خمسة أمتار، وفي وسطه مذبحان وقاعة كبيرة مزخرفة، تمثل مشاهد من الحياة اليومية المعاصرة، مثل تنصيب ملوك ماري، ويحتوي القصر إضافة إلى الأجنحة الملكية مخازن ومستودعات وقاعات إدارية وصالات للمحفوظات، عثر فيها على ما يزيد عن عشرين ألف لوحة مسمارية، تشكل المراسلات الدبلوماسية لملوك ماري الأواخر.

وفي المنزل الأحمر[٣] عثر على ثلاث لوحات اقتصادية، هي حسابات شعير، وتاريخ

---

[١] محمد بيومي مهران: بلاد الشام ـ ص٥٠.

[٢] هنري ـ س ـ عبودي: معجم الحضارات السامية.

[٣] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلدان الرابع والخامس ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ـ ص٩٨.

هـذه الوثـائق يعـود إلى عصـر مـا قبـل سـرجون (النصـف الأول مـن الألـف الثـالث قبـل الميـلاد)، وبذلك تكون أقدم الوثائق، الـتي عـثر عليهـا في مـاري حتـى تـاريخ اكتشـاف هـذا المنـزل في عـام (١٩٥٣م). كما كشف عن معابد في ماري، تعود أيضاً إلى عصر ما قبل (سرجون) الأكادي.

إذاً كانت مملكة ماري مقراً لمملكة زاهرة، لعبت الدور الأهم في تاريخ ممالك المدن، فكـانت محاطة بسور دفاعي منيع من ناحية الغرب، استند عليه من الداخـل بنـاء كبـير، شـيدت فوقـه مبـانٍ أخرى، مع مرور الزمن كانت معبداً للربة عشتار، تجاوره مساكن الكهنة[1].

يتألف المعبد من حرمين متجاورين، ليس بينهما باب، وفيهما مقاعد ومنـبر مثبـت بـالجدران واللبن، فوق أساسات من الحجارة الكلسية. إلى الشرق من الحرمين باحة ذات أرضية إسفلتية، فيها حوض الماء المقدس، ومصطبة للذبائح ومذبح، وفيها تقام الطقوس الدينية، وإلى الشرق منها مساكن الكهنة.

واكتشف في ماري معابد أخرى، منها معبد للرب (دجن)[2] بجانب أطلال الزقـورة المعروفـة بالكتلة الحمراء[3] (الزقورة القديمة)، التي كشـف عنهـا عـام (١٩٥١م)، والـتي تبـدو مضلعـة قائمـة الزوايا، وأطـول أوجهها يزيد في العلـو عن (٣٨م). لهـا جبهـة شماليـة غربية، تعلوها بعض العمـدان الصغيرة، وبدئ بإنشاء هذا الأثر في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. كما كشف عن بعـض الأحيـاء السكنية في وسط المدينة، وفي طرفها الغربي. وكانت البيوت السكنية ذات مخطط متشـابه. ويتـألف البيت من باحة، تنفتح عليها الغرف.

وفي وسط المدينة كشف عن معبد الربة عشتار سنة (١٩٣٤م)، والذي يشبه مخططـه مخطـط البيوت، تتجه زواياه نحو الجهات الجغرافية الأربع. حرمـه مسـتطيل، ينفتـح علـى باحـة، تحيـط بهـا الحجرات، وفيه مقاعد ومنبر مـن الجهـة الشـمالية الغربيـة. يجـاوره معبـد الربـة (نيـني زازا)، الـذي يتوسطه باحة، ينفتح عليها الحرم، تحيط بهـا الحجـرات، وقـد زودت واجهاتهـا المطلـة علـى البحـر بالمحاريب، نصب في وسط الباحة عمود بازلتي، ارتفاعه مـتر ونصـف، وفي معبـد عشـتار عـثر علـى تمثال الملك (ايكوشاما)، وتمثال المطربة أورننشي (أورنينا)، تلك المغنية الكبرى، الـتي أهـدت تمثـالين من تماثيلها إلى معبد الربة عشتار.

---

(1) علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة في سورية ـ ص٢٠٠.

(2) الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الأول ـ الجزء الثاني ـ ١٩٥١.

(3) أندريه بارو: ماري ـ ترجمة رباح نفاج ـ طبع دمشق ١٩٧٩ ـ ص٧٧.

وتم الكشف عن قصر زمري ليم، الذي كان مسكناً للملك وأسرته، ومقراً إدارياً يتألف من جناحين: شمالي وهو الأقدم، وجنوبي ملحق به، يحيط الجناح الشمالي سور قوي، ويفصل ممشى بسيط بين السور وحجرات القصر. وفن البناء في ماري يدل على التطور في فنون البناء والعمران[1]، علماً أن الحكام في ماري كانوا قد جعلوا من المعابد مراكز إدارية لهم، لكن بعد إشادة القصور أصبحت بيوت العبادة للعبادة فقط. وإلى جانبه قامت القصور كمقر للسلطة الإدارية.

كما تم الكشف عن أبنية عديدة في تنقيبات (١٩٥٣م)، عرف أحدها بالمنزل الأحمر، ويعود إلى عصر ما قبل السرجوني، وعرف بهذا الاسم لأن غرفه ما زالت تحمل علامة ملونة بدخان الحريق، الذي أودى قديماً بالمنزل. يحتوي على ستة محلات، وجدت في حالة حفظ جيدة، لأن جدرانه لا يزال ارتفاعها مترين، الغرفة الوسطى كانت غرفة استقبال مع حوانيتها، والغرفة الأولى جعلت مطبخاً. كان يقطن فيه شخص ذو منصب هام في المدينة.

أما في مجال النقش على اللوحات فقد كشف في ماري على كسر من لوحات نذرية من الحجر الكلسي في معبد عشتار، صُوِّر عليها مجلس شراب، ظهر عليه صورة امرأة جالسة، وبيدها اليمنى كأس، وباليسرى غصن نبات، وأمامها الخادم، وتحتها في الحقل الثاني رأسا خادمين.

كما كشف عن كسر من لوحات الفسيفساء، مركبة من قطع الصدف والعاج والحجر الكلسي الأحمر المشفف، كما كان أهل ماري فنانين بارعين في زخرفة الأواني الحجرية النذرية، كما عثر في ماري، وفي معابدها، على تماثيل، إلا أنها لم تكن على درجة واحدة من الإتقان، واعتنى الفنان في تمثيل الرجال والنساء، كما نحتت تماثيل زوجية، تمثل رجلاً وامرأة كزوجين أو عاشقين. وازدهرت أيضاً في ماري صناعة الفخار، وصدر بعضه إلى الخارج، وخاصة إلى مصر.

دمرت ماري في نهاية العهد ما قبل السرجوني، وفقدت استقلالها جزئياً في عهد ملوك أجادة، وأسكن (ترام سن) فيها اثنتين من بناته بصفة كاهنتين. في نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد حكم ماري ملك عموري، اسمه (يهدون ليم)، وقد وصل بفتوحاته إلى البحر الأبيض المتوسط. بعده استولى الملك الآشوري (شمش ادد) على ماري، ونصب ابنه يسمع ادد على عرشها.

أخيراً يجب ألا ننسى إسهام ماري في نشوء الفكر وتطوره، فمثلاً معابد ماري ذات الأهمية المعمارية، أفادتنا في معرفة آلهة ماري، التي أسهم بناؤها في نشوء الفكر الميتولوجي وتطوره

---

[1] مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٣٤) ـ ١٩٨٤ ـ ص٣٣.

وإغناء التراث الروحي، وتجارب الإنسان في اكتشاف أسرار الكون.

ومن أشهر آلهة ماري:

١- الرب مير (أو معير)، اسمه قد يعني العاصفة.

٢- الربة عشتار الكبرى، ربة الحب والحرية.

٣- الرب شمش، رب الشمس والنور والعدل والوضوح.

٤- الرب دجن[1]، هو الرب الوطني لقدماء الأموريين. يبدو أن هذا الإله في الأصل كان إلهاً أوغاريتياً.

٥- الربة نينهورياح، ربة الجبل، اكتشف معبدها سنة (١٩٣٨م).

٦- رب القمر.

٧- الربة نيني زازا.

كما حفظت لنا نصوص ماري إسهامها في نشوء الطب، وتكوين الأطباء[2] ووقاية المزروعات ومكافحة الحشرات (كالجراد) ومسح الأراضي، وأيضاً الاهتمام بآراء العرافين والفلكيين، والاهتمام بالموسيقى والرقص الديني، بالإضافة إلى الإسهام في نشوء الاقتصاد وتطوره (الزراعة، والصناعة، والتجارة)، ويبدو أيضاً أن ماري كانت قد طبقت نظام الخدمة العسكرية. وعن دور المرأة في ماري فقد أسهمت المرأة في الحياة الدينية والثقافية، وتؤكد ذلك النصوص المكتشفة.

استولى الملك البابلي حمورابي على ماري في عام ثلاثة وثلاثين من سنة حكمه، ثم عاد إليها نحو عام (١٧٥٧ ق.م)، ودمرها. أنشأ الآشوريون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد مركزاً دفاعياً متقدماً لهم في موقع ماري، ودام الاحتلال الآشوري لها حتى كان القرن السابع قبل الميلاد في العهد السلوقي، وقام في موقع ماري قرية صغيرة، وضاع مجدها.

الفن في ماري:

أظهرت المكتشفات الأثرية في مدينة ماري، مجموعة عديدة من الفخار المتنوع الأشكال

(1) د- ادزارد- م.هـ. بوب- ف- رولينغ- قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)- طبع سورية (حلب) ١٩٨٧- ص٢١٢.

(2) الحوليات الأثرية السورية- المجلد (٣٤) ١٩٨٤- ص٣٨.

والحجوم من الجرار والصحون والطاسات والقدور والكؤوس، وغير ذلك من الأواني. مما يؤكد تطور صناعة الفخار شكلاً ومضموناً. إذاً عثر في ماري على الكثير من القطع الفنية مثل الجرار ذات الألوان المتعددة (أحمر ـ أسود ـ أبيض ـ رمادي ـ أصفر)، وبعضها مغشى بطبقة رقيقة، تشبه الزجاج مع وجود الألوان. فمثلاً عثر في مدينة ماري على جرة فخارية، ارتفاعها (٥٩ سم)، وقطرها (٥٣ سم)، ومحيطها في أكبر نقطة (١٧٢ سم)، تتميز بفمها الواسع، وشفتها السميكة، يحيط بالرقبة إطار لصق عليه ثلاثة أسود، تزين مقدمتها خطوط غير منتظمة، تشير إلى لبدة الأسد، اثنان منها متقابلان، يقع كل واحد في ثلث محيط وجوده. الأسدان يحصران بينهما مشهد تقدمة دينية. أما الرب فمحفور بطريقة الحربة، له دقيقة صلبة. الرب يتربع فوق مقعد بدون مسند، يرتدي لباساً قصيراً، عاري الصدر، يده اليسرى على صدره، واليمنى يمدها إلى الأمام باتجاه مذبح، وضع فوقه حاجة ما، ويعلو رأس الرب قرنان، يؤلفان شكل هلال، وهما رمز الربوبية والتكريم. ويتقدم باتجاه الرب الجالس شخص، يرتدي لباساً نصفياً قصيراً، يده اليسرى على صدره احتراماً للرب، الذي يمثل أمامه، يجر في يده اليمنى حيواناً (عنزة)، يقودها نحو المذبح، لتكون قرباناً له أمام سيده. وفي أسفل المشهد المذكور يحيط بالجرة ثلاثة أحزمة على شكل حبل مفتول[1].

أما فن التمائم في ماري، فموضوعه الإنسان (الرجل والمرأة). حيث كشف عن تمائم تمثل الرجل بوضع الوقوف عارياً تماماً مع إظهار أعضائه التناسلية. كما كشف عن تمائم، مثلت المرأة عارية مع إظهار أعضائها التناسلية. كما كشف عن تمائم، تمثل الحيوانات المعروفة لديهم. وكشف عن مجسم بيت، صنع من الطين غير المشوي مطلي بالكلس، يضم ثماني غرف متقابلة منتظمة حول باحة مربعة، ويحيط بالبيت سور مستدير.

أما فن الهندسة المعمارية في ماري، فيلقي الإشارة إلى عصر ماري، ليظهر لنا مدى تطور هذا الفن، كما كشف في ماري عن مجموعات من الألواح الجدارية المرسومة، غالبيتها وجدت في القصر الملكي، مما يؤكد تطور فن الرسم في ماري، وأنها فاقت غيرها في عصرها. حيث يذكر أن ماري بقيت بفنها المعماري والنحتي والتصويري إحدى المدارس الهامة لإبراز تاريخ الشرق القديم. كما تميز فن النحت على الصدف والعاج بماري بثلاثة عناصر، الأولى: تشذيب الصفائح وصقلها. الثانية: رسم الموضوع. الثالثة: جمع أجزاء المشهد. ويكون الجمع على طريقة الأختام سواء منها المسطح أم الأسطواني. واشتهرت ماري بفن النحت على الحجر (التماثيل)، حيث تم الكشف فيها

---

[1] عدنان الجندي: الفن العموري ـ طبع سورية ١٩٧٢ ـ ص١٢.

عن تماثيل عديدة، نذكر منها على سبيل المثال تمثال الملك (لامجي - ماري)، تمثال الملك (ايكو شماغان)، تمثال ربة الينبوع[1].

التجارة:

كانت ماري ولفترة طويلة مركزاً من مراكز التجارة الدولية[2]، ومعبراً لانتقال الأشخاص في هجراتهم المشهورة من الغرب إلى وادي الرافدين. حتى أن بعض أمرائها كان له سلطة على بعض المدن في جنوب العراق في عهد فجر السلالات، وخاصة في عهد الملك (ابن انانم) حاكم لجش.

ملوك ماري:

السلالة الملكية العاشرة بعد الطوفان، كما يذكرها هنري ـ س ـ عبودي في كتابه معجم الحضارات السامية.

١ـ لامجي ماري[3]: أحد ملوك سلالة ماري العاشرة بعد الطوفان، حكم نحو (٢٥٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م)، كشف لهذا الملك عن تمثال في معبد عشتار في ماري عام (١٩٣٤م) كان ملقىً في إحدى الباحات.

٢ـ ايلول ايل[4]: أحد ملوك سلالة ماري العاشرة بعد الطوفان، حكم نحو (٢٤٠٠ ـ ٢٣٥٠ ق.م)، وهو من أواخر ملوك المرحلة ما قبل السرجونية. انتصر عليه ملك إيبلا الذي ذكر: أنه كان يحكم كذلك آشور. في عهده كانت ماري تابعة لإيبلا، يؤكد ذلك ما ورد في كتاب إيبلا (ص٣٤)، حيث يوجد نص، يتضمن رسالة موجهة من القائد (أنّا دجن) إلى ملكِهِ في إيبلا: أن هذا القائد احتل مدينة ماري. وسيطرت إيبلا مرة أخرى على ماري في عهد أبي زاكير آخر ملوك إيبلا في الألف الثالث قبل الميلاد، ذكر اسمه على ظهر المفتية الكبيرة.

٣ـ ايكو شمجان[5]: ملك ماري حوالي عام (٢٤٠٠ ق.م). اكتشف له تمثال في معبد (نيني زازا) عام (١٩٥٢م)، وكان تمثاله محطماً إلى (٤٥) قطعة.

---

(١) الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٣٣) ـ الجزء الأول ـ ١٩٨٣ ـ ص١٢.

(٢) حسن النجفي: معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم ـ طبع العراق ١٩٨٢ ـ ص١٣٣.

(٣) هنري ـ س ـ عبودي: ص٧٣٨.

(٤) نفس المصدر ـ ص٤٠.

(٥) أندريه بارو: ماري ـ ص٢٨ ـ هنري ـ س ـ عبودي ـ ص١٨١.

٤- **ايل كين**[1]: أمير ماري، حكم في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، كان تابعاً للملك (أورنمو) (٢١١٢ - ٢٠٩٥ ق.م) مؤسس سلالة أور الثالثة، حمل رتبة نائب ملك.

٥- **ادين ايلوم**[2]: أحد أمراء سلالة ماري المعاصرة لسلالة أور الثالثة، كان لقبه نائب ملك، معنى اسمه (ايل قد أعطى).

٦- **أشمادآجان**[3]: أحد أمراء سلالة ماري المعاصرة لسلالة أور الثالثة، كان لقبه نائب ملك، معنى اسمه (داجان قد استمع).

٧- **اشتب ايلوم**[4]: أحد أمراء سلالة ماري المعاصرة لسلالة أور الثالثة، كان لقبه نائب ملك، عثر له على تمثال في ماري، معنى اسمه (ايل قد أنقذ).

٨- **ايلوم اشار**: أحد أمراء سلالة ماري المعاصرة لسلالة أور الثالثة، كان لقبه نائب ملك، معنى اسمه (ايل عادل).

٩- **بوزور اشتار**: أحد ملوك ماري في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وجد له تمثال في بابل، قد يكون نقل إليها كغنيمة حرب بعد تدمير ماري حوالي عام (١٧٦٠ ق.م) على أيدي الملك حمورابي.

١٠- **توارمير**[5]: أحد ملوك سلالة ماري المعاصرة لسلالة أور الثالثة، شيد معبد (نينهور ساج) في ماري. اسمه (نور الاله مير).

١١- **يجت ليم**[6]: أحد ملوك ماري (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) بحوالي (١٨٣٠ ق.م)، معنى اسمه (الاله ليم قد تجلى)، وهو أول من حمل لقب ملك في ماري، ويقرأ اسم هذا الملك (ياغيد - ليم). يذكر أنه كان أول ملك معروف من سلالة ماري الأمورية، ويذكر عنه: أنه دخل في صراع مع حاكم آموري آخر هو (الاكيكابو) والد (شمش ادد)، الذي كان يحكم في

---

[1] هنري - س - عبودي: ص٤٠.

[2] هنري - س - عبودي: ص٥٥.

[3] المرجع نفسه - ص٨٦.

[4] المرجع نفسه - ص٨٥.

[5] المرجع نفسه - ص٨٦٥.

[6] المرجع نفسه - ص١٨٤.

ترقا (تل عشارة)، فطرده من هنـاك. بينمـا يذكـره الدكتـور توفيـق سـليمان في كتابـه دراسـات في حضارات غرب آسيا القديمة منذ أقدم العصور إلى عام (١١٩٠ ق.م) باسم (أي - اجيتليم) يقــول: هو أقدم حاكم في ماري معـروف لدينـا حتـى الآن، وكـان معـاصراً للملـك العيلامـي (كـودور - مابوك) حوالي عام (١٧٧٠ ق.م)، ثم خلفه على العرش ابنه (أي اخدونليم).

١٢- يهدون ليم[1]: أحـد ملوك مـاري (١٨٢٥ - ١٨١٠ ق.م)، كان فاتحاً وإدارياً. نظّم أمور مملكته، مات مقتولاً بتحريض من (شمش ادد) الأول ملك آشور (١٨١٤-١٧٨٢ ق.م)، الذي عين ابنه (يشمخ ادد) ملكاً على عرش ماري. تزودنا محفوظات ماري بأن (يهـدون ليـم) قـام بحملة إلى ساحل البحر الكبير من أجل جلب الأخشاب إلى معبـد شمسـي في مـاري[2]، حيـث سـار (يهدون ليم) وجنده بمحاذاة نهر الفرات، ثم ترك وادي النهر بالقرب من إيمار (مسكنة).

خلد أعماله التي قام بهـا في تقرير علـى شـكل وثيقـة تأسـيس، أودعهـا في أساسـات معبـد (شماش) إله الشمس، الذي بناه في ماري، حيث يمجد فيه نفسه بأنه أول ملك استطاع الوصـول إلى شواطئ البحر، وقطع أشجار الأرز والسرو والصندل. لم تكن لهذه الحملة نتائج سياسية وعسكرية، لكن كما هو واضح كان أهم دوافعها الحصول على الخشب. امتد نفوذه باتجاه الشمال حتى مدينة إيمار (مسكنة)، وانتهى حكمه بمؤامرة في القصر الملكي، قتل فيها الخـدم ملكهـم. حيـث يذكـر: أن الآشوريين كانوا وراء هذا الاغتيال، حيث احتلوا ماري. ونصّب يسمح ادد حاكماً على ماري.

١٣- يشمخ ادد[3]: (ابن شمش ادد) الأول، أمير آشوري نصبه أبوه ملكاً على مـاري عـام (١٨١٠ ق.م)، بعد أن اغتيل ملكها يهدون ليم. وصف بأنه كان لا يتمتع بأي جدارة.

١٤- زمري ليـم[4]: آخـر ملوك مـاري (١٧٨٢ - ١٧٥٩ ق.م) أو (١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق.م). معنى اسمه الإله ليم يحميني، ابن (يحـدون ليـم). لجـأ إلى حلـب بعـد مقتـل أبيـه، وبعـد طـرد المغتصب الآشوري، اضطر إلى مجابهة البدو، انهزم أخيراً أمام حمورابي البابلي. كان قصر زمري ليـم

---

(1) هنري - س - عبودي: ص٩٢٢.

(2) الحوليات الأثرية السورية - المجلد الأربعين - ١٩٩٠.

(3) محمد أبو المحاسن عصفور: تاريخ الشرق الأدنى القديم - طبع بيروت - بدون تاريخ - ص٣٧٥.
هنري - س - عبودي - ص٩١٠.

(4) هنري - س - عبودي ص٤٤٤. حسن النجفي - ص١٣٣.

يحتوي على ثلاثمائة غرفة، فيها ألواح جدارية جميلة، وكانت مساحة القصر أكثر من ستة أفدنة، وفيه تسهيلات الاستحمام، وتصريف المياه. عثر في هذا القصر على ألواح ماري، وعددها أكثر من عشرين ألف لوح مسماري.

استطاع زمري ليم أن يستقل عن النفوذ الآشوري. وتمكّن من طرد الحاكم، الذي عينه الملك الآشوري (شمش ادد) على مدينة ماري، وفي ذلك الوقت دخل زمري ليم في حلف مشترك مع (ريم سن) ملك لارسا في محاولة لصد هجمات الجيوش البابلية بقيادة حمورابي. إلا أن الملك البابلي المذكور تمكن في نهاية أمره من انتصاره على دويلات المدن، ووحد بلاد الرافدين في دولة واحدة.

أخيراً يذكر أندريه بارو[1] السلالات الملكية لمدينة ماري على الشكل التالي:

سلالة ماري (العاشرة بعد الطوفان) (الألف الثالث)

آنبو (أو انصير).........

لوغان ترزي، ابنه......

.... لوغال..........

.... بيم..........

.... بي.............

أنسوب (أو انسود): تربع على العرش ثلاثين سنة، وهو رئيس فرع، يتألف من ستة ملوك، حكموا (١٣٦ سنة).

ملوك ما قبل عهد سرجون (٢٧٠٠ - ٢٤٥٠ ق.م)

ايكو - شمش

لامحي - ماري

ايلول - ايل

ايكو - شاماغان

[1] أندريه بارو: ماري - ص١٩١ - ١٩٢.

الملوك المعاصرون للعهد الأكادي (٢٤٥٠ - ٢٢٨٥ ق.م)

ميجير - داغان

وملوك عهد القصر (٢٢٨٥ - ١٧٥٥ ق.م)

آبيل - كين

نيوار - مير

ايزي - داغان

لغاس - غان

تورا - داغان

بوزو - عشتار

عيدي - ايلوم

ايلوم - ايشار

ايشمي - داغان

ايشتوب - ايلوم

ياغيد - ليم

يحدون - ليم

سومو - ليم، أخ يحدون - ليم

ياماش - حدو

زمري - ليم

ابنيم - داغان

العهد الآشوري (القرن السادس عشر)

شمش - ريش - أوسور

حـــرّان: هي اليوم بلدة صغيرة جنوب شرق الرها بمسافة (٣٥ كم) عنها. كـانت مركـزاً هاماً للتجارة. ذكر عنها بأنها كانت مركز الإمارة الآمورية خلال القرن الثـامن عشـر قبـل الميـلاد، ومركزاً هاماً للحضارة الأمورية. احتلها الرومان، وسموها كارهـابي، وفيهـا انتصـر الفريتيـون علـى الرومان، وقتل القائد الروماني كريسور عام (٥٣ ق.م). وفيها ـ كمـا يـروى ـ اغتيـل الامـبراطور الروماني كركلا عام (٢١٧م). فتحها العرب عام (٢٣٩م). اشـتهرت حـرّان قديمـاً بعبـادة القمـر، هاجر إليها النبي إبراهيم من أور الكلدانية.

الممالك الأمورية في شرقي الأردن: يذكر محمد مهران في كتابه بلاد الشـام[1] أن الأموريين أقاموا مملكتين أموريتين في شرق الأردن، إحداهمـا مملكـة سيحون والثانيـة مملكـة عـوج ملك باشان.

١ـ مملكة سيحون: تقع بجانب نهر الأردن، وتمتد حدودها من أرنـون (نهـر في الأردن يدعى الآن وادي الموجب)، ويعرف أيضاً (وادي مؤاب) إلى يبوق (وادي الزرقاء) ومـن الأردن إلى الصحراء، وكانت حشبون عاصمة لها[2].

٢ـ مملكة عوج ملك باشان: تمتد من يبوق حتى جبل حرمون (جبل الشيخ).

---

(١) محمد بيومي مهران: بلاد الشام ـ ص٥٣.

(٢) تعرف الآن باسم حسبان وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل تقع على بعد سبعة أميال شمال مأدبا.

الفصل الثالث

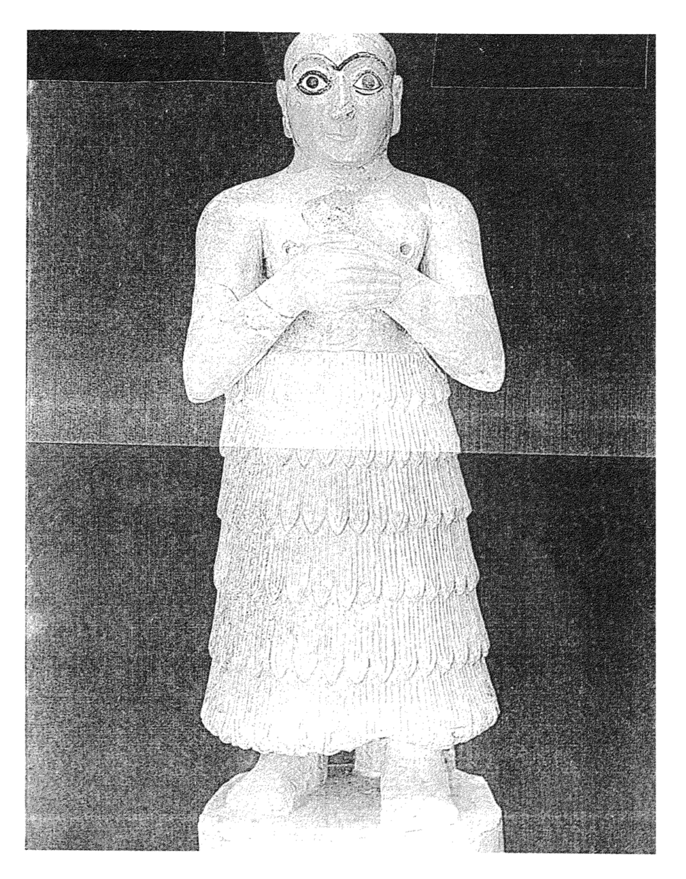
الأراميون

- أصل الآراميين.
- اللغة الآرامية.
- العمارة الآرامية.
- العبادات الآرامية.
- الممالك الآرامية:

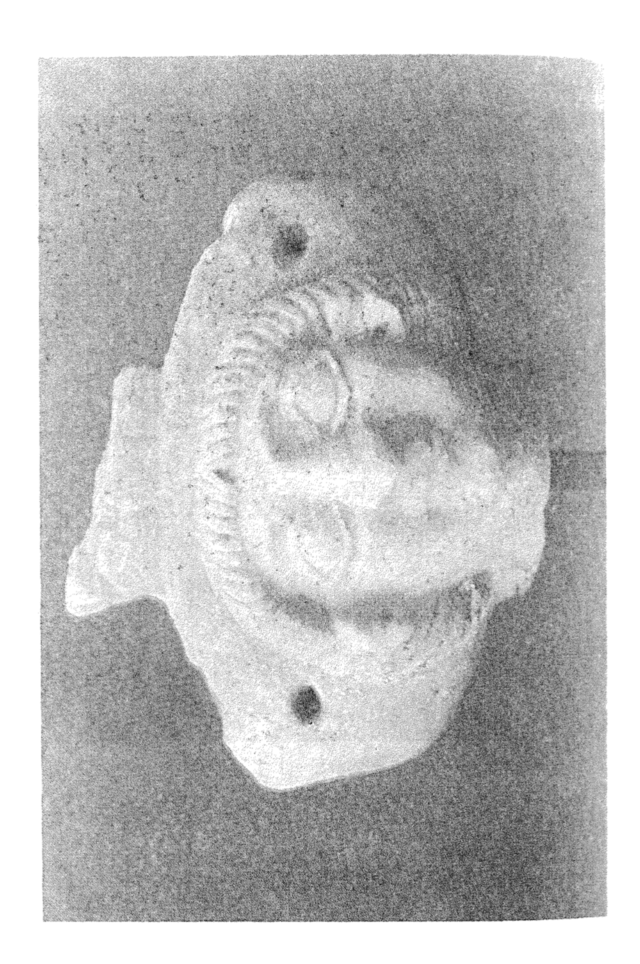
١ـ مملكة بيت زماني.
٢ـ مملكة بيت بحياني.
٣ـ مملكة بيت لاقي.
٤ـ مملكة بيت عديني.
٥ـ مملكة بيت أجوش.
٦ـ مملكة بادي (شمأل).
٧ـ مملكة حماه.
٨ـ مملكة دمشق.
٩ـ مملكة رحوب.
١٠ـ مملكة معكة.
١١ـ مملكة حشور.
١٢ـ مملكة كركم.
١٣ـ مملكة سوحي.
١٤ـ مملكة صوبا.

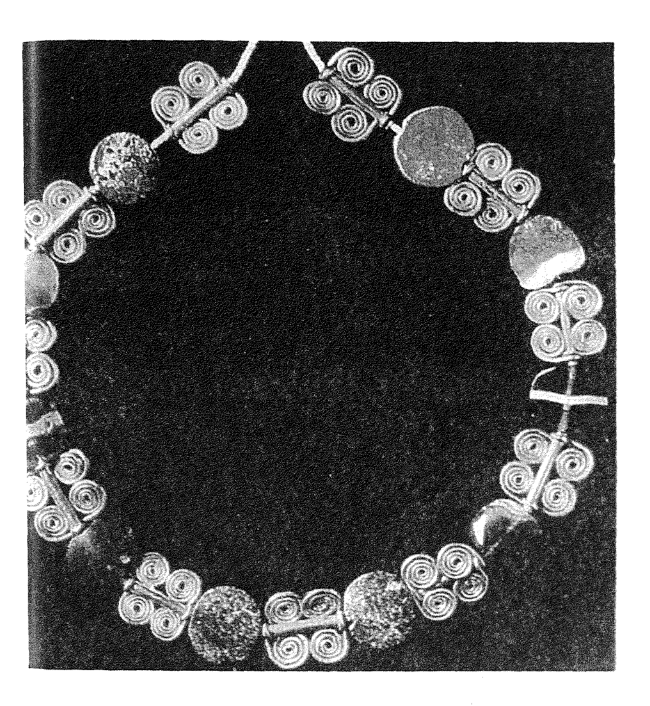


Une femme portan abaya dunartestede Mari (2600av.J.C.)



ماري





حلي من (ماري)

أصل الآراميين

اختلف الباحثون حول الموطن الأصلي للآراميين، فالباحث (ديون سومير) يشير إلى: أن الآراميّن، كانوا يتلقون المساعدات من بادية الشام، ولكننا لا نملك وثيقة، تحدد مكانهم الأساسي... فقد كان تجمعهم في البادية، حيث مدينة تدمر. وبعضهم الآخر يرجح موطنهم الأول إلى الخليج العربي[1]، وقيل: أصلهم من شمال بلاد الرافدين، وقيل: من الجزيرة العربية، وقيل: من بادية الشام، وقيل: إن المهد الأول للآراميين هو الجزء الأسفل من الفرات، وقيل: إن الآراميين هم أسبق بالهجرة من الخليج العربي إلى الساحل السوري. وعندما هاجر الكنعانيون اختلطوا بهم، وشكلوا بمجموعة جديدة، أطلق عليها اسم الفينيقيين، وقيل: إن موطن الآراميين الأمَّ، يقع في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية، وفي الجهة الجنوبية من بلاد الشام.

وقال الدكتور أحمد أمين سليم[2]: يمثل الآراميون الموجة الثالثة من الهجرات العربية في شبه الجزيرة العربية، وقال: إن الموطن الأصلي للآراميين، إنما كان في الصحراء العربية السورية أو منطقة الهلال الخصيب.... وقال: إن موطن الآراميين الأصلي إنما كان في شبه الجزيرة العربية.

وقال حسن النجفي[3] عن الآرامين: بأنهم قبائل عربية، نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة حران الواقعة في شمال شرق سورية، ضمن منابع رافدي الفرات (الخابور والبليخ)، وقد عاش الآراميون كالكنعانيين والعموريين والعمالقة مرتبطين بالجزيرة العربية، وطنهم الأم، وكانوا يتكلمون الآرامية، وهي لهجة متفرعة من السامية إلى العربية الأصل.

بينما يذكر محمد مهران[4] في كتابه بلاد الشام. إن الموطن الأصلي للآراميين، إنما كان في الصحراء العربية السورية، وبذلك اعتبرت منطقة الهلال الخصيب هي الموطن الأول للآراميين،

---

[1] عبد الهادي نصري: شمس آرام شمس العرب ـ طبع سورية ١٩٨٦ ـ ص١٥ ـ ١٦.

[2] أحمد أمين سليم: ص٥٩.

[3] حسن النجفي: ص٢١.

[4] محمد مهران: تاريخ بلاد الشام ـ ص٩٣.

وقيلَ: إن الموطن الأصلي لهم كان شبه الجزيرة العربية[1].

أما عن التسمية فيذكر البعض[2]: أنه اسم، أو لقب آلهه، أو اسم لشعب، وليس منطقة، وأنه يعني سكان البلاد المرتفعة، أو العالية. ويلاحظ أن بعضهم يطلقون التسمية على الشعوب التي تناثرت، وتتابعت في منطقة الهلال الخصيب[3].

تمتاز بلاد الشام بموقعها الجغرافي الاستراتيجي المتوسط بين دول العالم. ففي القديم كان السومريون والبابليون في الشرق، والمصريون في الغرب، مما جعلها صلة الوصل بين الشرق والغرب. يؤكد ذلك الطريق الدولي، الذي يبدأ من دلتا النيل إلى ساحل سيناء، ومن هناك يتفرع إلى فروع: أحدها يتجه إلى مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء، وفرع آخر إلى أراضي البخور في جنوب الجزيرة العربية، والثالث من سيناء، يتحول شمالاً من ساحل فلسطين إلى الكرمل، وهناك يتفرع إلى فرعين....

الأول: يستمر على الساحل، فيصل صور وصيدا وجبيل، وسائر الموانئ السورية. أما **الثاني:** فيجتاز سهل مجدو، ويعبر الأردن إلى دمشق، ومن دمشق يتفرع إلى فرعين، **الأول:** يعبر بادية الشام، بواسطة تدمر إلى بلاد الرافدين. أما **الثاني:** فيبدأ من دمشق إلى لبنان عن طريق الزبداني عبر سورية، متبعاً نهر العاصي، وقادش إلى شمال سورية، ومن قادش يتفرع فرع باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط، بواسطة وادي النهر الكبير، وبعد أن يتفرع في شمال سورية إلى البحر عن طريق الأبواب السورية في جبل الأمانوس، يتفرع أيضاً إلى الشمال الغربي، بطريق الأبواب الكيليكية ليصل إلى آسيا الصغرى، ثم يتحول إلى الشرق بطريق الجسر السوري نحو الفرات، ومن هناك إلى دجلة إلى الخليج العربي، فالدولة الفارسية.

المطّلع على التاريخ الآرامي يلاحظ عدة عوامل منها: أن الآراميين عبر تاريخهم لم يشكلوا دولة موحدة[4] ذات أثر سياسي كبير على الساحة، كالذي حدث للبابليين والآشوريين، على العكس كانت المدن المنتشرة في بلاد الشام تشكل كل منها مملكة، ولكن مع ذلك كانوا قوة رغم تشتتهم، وكانوا خصماً عنيداً للآشوريين ولفترة طويلة.

---

[1] كارل بروكلمان: العرب والأمبراطورية العربية ـ ص١٣.

[2] أحمد أمين سليم: ص٥٩.

[3] لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة ـ مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ طبع مصر ١٩٩٠ ـ ص٦٠.

[4] عبد الهادي نصري: ص١٤.

يقول فيليب حتي[1]: وفي خلال هذا التاريخ الطويل المتنوع، لم تكن سورية تشهد فترة واحدة، كانت فيها دولة مستقلة بمفردها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين وكانت وحدتها تفرض عليها بإرادة سلطة خارجية، وخلا ذلك، فإنها كانت عادة إما جزءاً من دولة أخرى، أو مجزأة بين دولة وطنية، أو أجنبية.

إن الباحث في التاريخ الآرامي يلقى صعوبة في كتابة تاريخهم، ويعود ذلك إلى عوامل عديدة، يأتي في مقدمتها: قلة المصادر الآرامية في الأصل، وحتى إن وجدت فلم تصلها بعد أيدي علماء الآثار، والذي عثر عليه لا يشكل في حد ذاته إلا القليل جداً عن سير بعض الحكام، وهي لا تفي بالغرض. يضاف إلى ذلك أن أكثر العواصم والمدن الآرامية، إذا لم نقل كلها، لم يتم بعد العثور عليها، ولا التنقيب عن آثارها، ويعود السبب في بعضها لصعوبة التنقيب فيها كدمشق مثلاً، كما أن تاريخ الآراميين، لم ينل بعد القسط الوافي من البحث والتحري، وذلك يعود لندرة مادته.

إذاً إن ما يكتب عن تاريخ الآراميين مستمد من النصوص الآشورية بالدرجة الأولى، ثم البابلية، يضاف لما ورد ما اكتشف من وثائق آرامية ضئيلة، والبعض الآخر يعتمد على العهد القديم، الذي كثيراً ما يتعارض مع النصوص المكتشفة سواءً كانت آشورية أم بابلية أم آرامية أم مصرية أم غير ذلك، وهذه الحقيقة أصبحت واقعاً ملموساً. وإن الكثير من الحوادث التي ترويها التوراة، ما هي إلا وجهات نظر، أتت في معظمها مغايرة للواقع، وللحقيقة التي تم الكشف عنها.

تشير الوثائق المكتشفة، والتي تعود إلى العصر الأكادي، وتحديداً إلى عهد الملك (نارام سن)[2] (٢٢٧٠ ـ ٢٢٣٣ ق.م)، والتي تؤكد أن هذا الملك كان قد خاض حرباً ضد (شيخ آرام) المدعو (خرشامنكي)، كما تشير وثائق أخرى إلى أن الملك نفسه الذي كان قد انتصر على مدينتي (سيموروم) و(آرامي).

وفي عصر سلالة أور الثالثة، وفي عهد ملكها شولجي (٢٠٩٣ ـ ٢٠٤٦ ق.م)، اكتشفت وثائق تجارية، تعود لعهد هذا الملك، دوّن عليها اسم (آرامي) لمدينة أو اقليم، وفي عهد (شوسن)

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ طبع بيروت ١٩٥٨ ـ جـ١ ـ ص٦١.

[2] عبد الهادي نصري: ص١٧.

خليفة شوبجي أحد ملوك هذه السلالة أيضاً، اكتشفت وثيقة، ذُكِر فيها رجل، اسمه آرامو، وقد استدل على مدينة (آرامي) الواقعة بالقرب من مدينة أشنونة على دجلة، أسسها الآراميون، الذين هاجروا إلى بلاد سومر وأكاد تباعاً، وهم أسلاف الآراميين، الذين ظهروا على ساحة السياسة بعد ذلك بنحو ألف عام[1].

وتتالت التنقيبات، ففي ماري اكتشفت وثائق ذات طابع اقتصادي، ذكر فيها اسم أفراد من (احلامو)، أو (آرام)، كانوا يفدون إلى ماري للمتاجرة، وهناك رسالة موجهة من حاكم دلمون (جزيرة البحرين) إلى والي نفر (جنوب بغداد)، يشتكي فيها من (الأحلامو) الذين نهبوا تمور بلاده. وتشير الوثائق إلى أن بابل نفسها كانت معرضة لخطر الأحلامو، وتدخلهم بشؤون البلاد، في الوقت الذي كانت فيه طرق المواصلات تربط مدن البابليين بعضها ببعض.

ولقد اضطر الآشوريون إلى محاربة الآراميين، ومنعهم من دخول بلادهم منذ البداية، كما شكا ملك الحثيين حاتوشيلي الثالث (١٢٨٢ - ١٢٥٠ ق.م) الآراميين إلى ملك بابل، لأنهم جعلوا الطرق بين الدولتين محفوفة بالمخاطر. في هذه المرحلة كان الآراميون قد انتشروا، واستقروا في بلاد الجزيرة الشامية، ونسبت بلاد بشري الحالية إلى الأحلامو، الذين توغلوا شمالاً، حتى وصلوا جرجميش (جرابلس)، إلا أن الآشوريين كانوا لهم دائماً بالمرصاد.

وأكدت الوثائق الآشورية: أن (تجلات بلاصر) الأول، الذي حكم ما بين (١١١٢ – ١٠٧٤ ق.م)، كان قد ضرب بلاد أحلامو آرام الممتدة من بلاد سوجي على أواسط الفرات، حتى حلجميش في أعاليه في يوم واحد، ثم اجتاز الفرات إلى البادية الشامية، ودمر ستاً من مدنهم على سفوح جبال بشري، واضطر هذا الملك إلى عبور الفرات (٢٨) مرة أخرى لمحاربة أحلامو آرام، وغيرهم من القبائل مثل السوتيين، الذين انتشروا في جبال بشرى إلى تدمر، وغيرها من أماكن تواجدهم.

وفي النصوص الآشورية إشارة إلى أحلامو آرام. يقول الدكتور علي أبو عساف: خلال وقت ما مثل الأحلامو أقوى القبائل البدوية المتنقلة في البادية الشامية، فتجولوا فيها، وطمعوا في المناطق المجاورة، ثم تبعهم الآراميون، فاختلطوا بهم، ثم تغلبوا عليهم، ومنذ مطلع القرن الثالث عشر

---

[1] علي أبو عساف: الآراميون - تاريخاً ولغةً وفناً - طبع سورية ١٩٨٢ - ص١٢.

قبل الميلاد، بدأت هجرات الآراميين إلى بلاد النهرين[1].

وتوكد المصادر المصرية أن البدو كانوا قد انتشروا في فلسطين، وبلاد مواب وأدوم وعمون، وغيرها كمنطقة قادش، أي أنهم انتشروا في المنطقة الواقعة ما بين العقبة إلى حلب، يضاف إليها بعض السهول الداخلية والبادية، إلا أن الآراميين لم يؤسسوا دولاً على سواحل بلاد الشام بل في داخلها.

إذاً استقر الآراميون في أعالي الجزيرة خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كما شكلوا قوى في مناطق تامانيتا (تيمانيا) في منطقة جبال طور عابدين، وفي ضواحي نصيبين.

وكان الآشوريون قد هاجموا الآراميين في هذه المنطقة، حيث تحالف ضدهم (نور هدد) ملك نصيبين، وماملو ملك خوميرينا (سلطان تبه) شمال حران، وموقور وملك جيدارة غرب ماردين، والتي سميت فيما بعد راداماتا، إلا أن ملك الآشوريين (هدد تيراري الثاني) هاجمهم، ودامت المعارك هناك ست سنوات، حتى تمكن من هذه المقاطعات، وأصبحت تحت سلطة الآشوريين.

أما في مجال الاقتصاد، فقد برع الآراميون في التجارة البرية، وكانوا سادتها، فقوافلهم كانت تجوب الشرق الأدنى بكامله، تحمل الأرجوان من فينيقية، والأبنوس والعاج من افريقية، واللؤلؤ من الخليج. كما تاجروا بالألبسة والنحاس، واستخدموا النقود في تجارتهم. وعثر في أطلال آشور على أوزان نحاسية آرامية.

إذاً: لقد قبض الآراميون على زمام تجارة آسيا الصغرى وآشور، وأصبحوا يتحكمون بحركة التجارة بين شاطئ المتوسط إلى بلاد ما بين النهرين وفارس والأناضول، وكانوا قد أرسوا المدنية والثقافة، فانتقلت معهم لغتهم الآرامية، وغدت لغة الثقافة والتجارة والسياسة.

أما في مجال الصناعة: فقد أجاد الآراميون صناعة التحف والحلي الذهبية والفضية والنحاسية، وصناعة الأسلحة والمركبات الحربية، وصناعة الأقمشة المزركشة ونسجها.

يقول عبد الهادي نصري[2]: يعتبر الآراميون الورثاء الحقيقيين للحضارات، التي ازدهرت في الشام والرافدين من سورية وأكادية وبابلية وآشورية. ولم يقف الأمر عند الاقتباس والإرث، بل تعدى ذلك إلى الإبداع الحضاري. واللغة الآرامية تبقى الشاهد على عظمة ذلك الشعب.

---

[1] علي أبو عساف الآراميون: ص١٥.

[2] عبد الهادي نصري: ص ٤٣.

اللغة الآرامية:

من المعروف: أن الكتابات الاخمينية التي عثر عليها في مدينة (برسي بوليس)[1]، هي التي ساعدت على حل الخط المسماري. وكتابات برسي بوليس تتألف من: ثلاثة أنواع من الخطوط المسمارية، **أحدها**: اللغة الاخمينية، تتألف من : (٤٢) علامة مسمارية، استخدم في كتابتها المسمار المائل، وحلت رموز هذه اللغة عام (١٨٣٥ م) من قبل هنري رولنصون، **النوع الثاني**: من اللغة المسمارية: تتألف من (١١١) علامة مسمارية، ويتضمن هذا النوع اللغة العيلامية، **النوع الثالث**: يتضمن اللغة البابلية أو الآشورية وعلاماتها كثيرة، حيث يذكر: أن رموز نص بابلي واحد كان يحتوي ما يقارب من (٥٠٠) علامة مسمارية.

وأقدم النصوص المسمارية، تم الكشف عنها في مدينة الوركاء، والتي يعود تاريخها إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وكان عدد العلامات المستخدمة في هذه النصوص بحدود (١٠٠٠) علامة. وذكر: أن عدد العلامات المسمارية كانت تقدر بـ (٢٠٠٠) علامة. لكن هذا العدد الضخم اختصر في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد إلى (٨٠٠) علامة، وبعد قرن ونصف اختصر عدد العلامات المسمارية إلى (٦٠٠) علامة. وفي بداية الألف الثانية قبل الميلاد، اختصر إلى (٥٠٠) علامة. علماً أن اللغة الأكادية التي اعتمدت الخط المسماري السومري، كانت قد اكتفت بعدد ضئيل من هذه العلامات.

وعلى يد الأكاديين (٢٥٠٠ ق.م)، انتشر الخط المسماري، فشمل العراق القديم وعيلام والحوريين. وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد، انتقل عن طريق مدينة ماري إلى شمال سوريا، وفي هذا الوقت اقتبس الحثيين (أواسط آسيا الصغرى) الخط المسماري، كما انتقل إلى كيدوكيا عن طريق التجار الآشوريين في المرحلة الواقعة ما بين عامي (١٨٨٠–١٧٨٠ ق.م). كما استخدم المصريون الخط المسماري في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، في مراسلاتهم مع حكام منطقة الشرق القديم. وفي بداية القرن التاسع قبل الميلاد، انتشر الخط الآشوري المسماري الحديث في منطقة اورارتو (أرمينيا)، وبعد سقوط نينوى عام (٦١٢ ق.م)، اختفى الخط المسماري إلا في بابل، حيث استمر إلى نهاية العصر السلوقي. وعند الفلكيين استمر إلى منتصف القرن الأول الميلادي.

---

[1] برسي بوليس: عاصمة الدولة الأخمينية (٥٣٨ ـ ٣٣٠ ق.م) شمال مدينة شيراز الايرانية.

الخطوط الآرامية منقولة من القلم الكنعاني بعضها قريب من الأصل وبعضها نحا نحواً جديداً إلى أن تغير تغيراً ظاهراً وإليك نموذجاً من الأقلام الآرامية القديمة:

Aramaeisch — Palmyrenisch — Syrisch — Nabataeisch

א ב ג ד ה ו ז ח ט י כ ל מ נ ס ע פ צ ק ר ש ת

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25

القلم السرياني

	سرتو								
	حروف مفردة	في نهاية الكلمة	في اول الكلمة	في وسط الكلمة	استرنجلو	نسطوري			اسماء الحروف
ا	ܐ	ܐ	—	—	ܐ	ܐ	ܐܠܦ	Alaf (Ōlaf)	ألف
ب	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒܝܬ	Bēth	بيت
ج	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓܡܠ	Gâmal (Gōmal)	جامل
د	ܕ	ܕ	—	—	ܕ	ܕ	ܕܠܬ od. ܕܠܕ	Dālath od. Dāladh (Dōlath od. Dōladh)	دالت
ه	ܗ	ܗ	—	—	ܗ	ܗ	ܗܐ	Hē	ها
و	ܘ	ܘ	—	—	ܘ	ܘ	ܘܘ, ܘܐܘ	Wau	واو
ز	ܙ	ܙ	—	—	ܙ	ܙ	ܙܝܢ, ܙܝ od. ܙܐܝ	Zain, Zēn od. Zai	زاين
ح	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚܝܬ	Ḥēth	حيت
ط	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛܝܬ	Ṭēth	طيت
ى	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝܘܕ	Jōdh (Jūdh)	يود
ك	ܟ	ܟ	ܟ	ܟ	ܟ ܟ	ܟ ܟ	ܟܦ	Kāf (Kōf)	كاف
ل	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠܡܕ	Lāmadh (Lōmadh)	لامد
م	ܡ	ܡ	ܡ	ܡ	ܡ ܡ	ܡ ܡ	ܡܝܡ	Mīm	ميم
ن	ܢ	ܢ	ܢ	ܢ	ܢ ܢ	ܢ ܢ	ܢܘܢ	Nūn, Nōn	نون
س	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣܡܟܬ	Semkath	سمكت
ع	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥܐ	ʿĒ	عا
ف (ڤ)	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦܐ	Pē	فا (ڤا)
ص	ܨ	ܨ	—	—	ܨ	ܨ	ܨܕܐ	Ṣādhē (Ṣōdhē)	صاده
ق	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩܘܦ	Qōf	قوف
ر	ܪ	ܪ	—	—	ܪ	ܪ	ܪܝܫ, ܪܫ	Rēsch (Rīsch)	ريش
ش	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫܝܢ	Schīn	شين
ت	ܬ	ܬ	—	—	ܬ	ܬ	ܬܘ, ܬܐܘ	Tau	تاو

في بـــلاد الشام قلَّ استعمال الخـط المسـماري، بسبب ابتكـار الخـط الهجـائي الأوغـاريتي، والخط الذي نشأ في بيبلوس، ثم الخط الفينيقـي الـذي نـافس الخـط المسـماري، إلى أن ابتكـر الخـط الآرامي المتطور عن الخط الفينيقي، وأصبح الخط الرائج والأكثر استعمالاً من جميع الخطوط القديمة.

أما الخط الهيروغليفي الحثي، فقد انتشر في آسيا الصغرى، ثم انتقل إلى بلاد الشـام والعـراق. وأقدم كتابة حثية عثر عليها كانت في مدينة (كول تبـة) حـوالي (١٨٠٠ ق.م). وفي سـنة (١٦٥٠ ق.م) عثر على كتابة حثية مدونة علـى ختـم الملـك الحثي (ISPUTAHSU). أمـا الخـط الهـيروغليفي المصري فكان أقل انتشاراً في الشرق.

اللغة الآرامية إحدى اللغات السامية. وأول من أطلق عليها السامية البـاحث الألمـاني شـلوتز عام (١٧٨١م)، نسبة إلى سام بن نوح[1]. وهذا العالم اعتمد في تسـميته هـذه علـى لـوح الأنسـاب المدون في سفر التكوين الإصحاح العاشر. إن شلوتز، كما أعتقد، عندما وضع هذه التسـمية، كـان متعمداً ذلك، فأبناء نوح ثلاثة (سام وحام ويافث). ونوح أبـو البشـر كمـا تـروي التـوراة، اعتمـد ذلك لأنه على اطلاع جلي بالتوراة، وقد يكون أحد أبنائها، هو أو أحد آبائـه كمـا أعتقـد. لذلـك يمكن القول: إنه اعتمدها نتيجة إيمانه بما جاء بالتوراة، وقد يكون وصفه لهذه التسمية سياسياً لتأكيد صحة ما جاء في التوراة من أحداث تاريخية، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ اليهودي. وأعتقـد أن هـذه هي الحقيقة، لأن (شولتيز) يعلم تاريخ الشرق القديـم. أي أن هـذه التسـمية لهـا مدلـولات سياسـية خاصة، وخاصة جداً، كل ما تعنيه تأكيد التاريخ اليهودي.

مـن المعلـوم أن سـام بـن نـوح هـو قبـل التـاريخ، وبعـد الطوفـــان مباشــرة. وإذا اعتمدنـــا الطوفان السـومري، نسـتخلص أن الطوفان حـدث في بلاد الرافـدين، ولم يشـمل العالم كما يـعتقد بعضهم، وحضارة بلاد الرافدين غنية عن التعريف، وتحديداً الحضارة العربية الأكادية. لذلك لو قلنا: اللغات الأكادية لكان أفضل من قولنا لغـات سـامية. ثـم إن اللغـة تنتمـي إلى شـعب وليـس لفـرد، فانتساب اللغة إلى الشعب الأكادي ذي الحضارة المميزة في العالم يكون أفضل من انتسـابها إلى فـرد مجهول في التاريخ إلا في التوراة. حتى أن المنطقة الجغرافيـة الـتي ينتمـي إليهـا نـوح وأبنـاؤه مـازالت مجهولة. ويلعب التخمين والتقدير في ذلك الدور الأول والأخير.

أما الأكاديـون فهم شـعب معـروف في كل ميـدان، وهـم أول شعب يســكن بلاد الرافدين

---

[1] علي أبو عساف: الآراميون ـ تاريخاً ولغةً وفناً ـ ص١٨٦.

مهاجراً إليها من الغرب، أي من الجزيرة العربية. لذلك نرى أن انتساب هذه اللغات إلى الأكاديين هو الأفضل، وحتى لو أن انتساب هذه اللغات إلى السومريين، أقدم شعب عرفه التاريخ، سكن بلاد الرافدين لكان أفضل، لأن تطور الشعب يكون بكل فئاته، وليس من خلال فرد.

ومن جهة أخرى إن سام بن نوح كان قبل التاريخ، أما السومريون فهم الذين أوجدوا التاريخ وبلغتهم السومرية، ومن بعدهم الشعب الأكادي الذي طور هذه اللغة، وهذه اللغة هي استمرار لتلك وتطور عنها. لذلك يمكن اعتبارها الأساس، والانتساب إليها أفضل وأكمل.

واللغة الآرامية أيضاً كانت واسعة الانتشار، ظهرت منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، وما زالت قائمة حتى الآن، وخاصة في بلاد الشام والعراق. وقد تأثرت بغيرها من اللغات وخاصة الفينيقية، واللغة الآرامية حلت محل اللغة البابلية تدريجياً. خاصة بعد أن أسسوا امبراطورية عالمية انتصرت فيها اللغة الآرامية، وأصبحت لغة عالمية. والآرامية تكتب بأبجدية مؤلفة من (٢٢) حرفاً، وبذلك سهلت كتابتها وتعلّمها، وكان ذلك من عوامل انتشارها وتوسعها، ومن المعلوم أن اللغة الآرامية كانت منتشرة في بلاد الشام قبل اليهود. وفي جميع المناطق التي يتفاعل معها الآراميون، وبعد سقوط دمشق تبنى الآشوريون الآرامية[1].

العمارة الآرامية:

استطاع علماء الآثار من خلال التنقيب في العواصم والمدن الآرامية، كشف بعض الأوابد كالمعابد والقصور. من ذلك معبد للرب (هدد) معبودهم الوحيد، الذي قدسوه، وارتبطت أسماء ملوكهم به، وخاصة ملوك دمشق، وبعض ملوك جوزان. والمعبد الآرامي من حيث الشكل نشأ عن امتزاج تقليد حضارتين عريقتين في بلاد الشام. أحدهما كنعاني آموري، والآخر بيت علاني آرامي. والمعبد، الذي نشأ عن هذين الأسلوبين، جاء بنمط جديد، تمثل في معبد (عين دارا)، يصفه الدكتور علي أبو عساف[2] في كتابه (الآراميون تاريخاً):

ومعبد (عين دارا)، هيكل مستطيل الشكل، طوله (٣٨م)، وعرضه (٣٣)، وله مدخل، يتجه نحو الجنوب الشرقي، تتقدمه باحة مبلطة بالأحجار الكلسية والبازلتية الصغيرة، بحيث يشكل لوحة جميلة. وفي الزاوية الشرقية منه بئر ماء عميقة، وبقربها حوض من الحجر الكلسي، ثم يأتي

---

[1] أسد الأشقر: تاريخ سورية - الجزء الأول - طبع بيروت ١٩٧٨ ص٢٤٧.

[2] علي أبو عساف: الآراميون - تاريخاً ولغةً وفناً - ص١٨٦.

المدخل المحرابي، حيث يربطه بالمدخل درج خارجي عريض، صنعت درجاته من الحجر البازلتي، نقشت عليها أشكال، تشبه الضفائر. ويصعد الدرج الأوسط إلى القبتين، بينما يصعد الجناحان الجانبيان إلى شرفتين، فيهما قاعدتان بازلتيتان كبيرتان، ارتكز عليهما. ويلي الدرج الأوسط عتبتان كبيرتان من الحجر الكلسي الجيري، عليهما صورة قدمين بشريتين.

والدرج يحرسه أسدان برأس امرأة وجناحا طير، وخلفهما من كل جانب أسدان متقابلان يلتفتان نحو اليمين، ونحو اليسار. وقد اصطف تحته نسقان من الأسود الجانبية، التي يبلغ ارتفاعها مترين، يقوم عليها الجدار اللبني المنهدم. وتحفل الواجهة بالمشاهد المختلفة المعبرة.

والمدخل محاط ببرجين شامخين، يصل إلى قاعة أمامية ذات عناصر زخرفية متنوعة. وهذه القاعة مستطيلة الشكل، يصل بينها وبين المصلى (الحرم) درج فاخر، ومن القاعة ندخل إلى البرج الأيمن، ومنه إلى بيت الدرج، الذي يلتقي بجدار القاعة الشمالي الشرقي، وإذا صعدنا الدرج نصل إلى عتبة كبيرة من الحجر الكلسي، يحيط بها أسدان، وبرجان، نقش عليهما رسم القدم اليمنى للإنسان.

والباب بين القاعة الأمامية والمصلى لا يغلق، ولا يقفل. أما المصلى فقد خصص ثلثه الأخير للسدة، التي يتقدمها المحراب، وتوضع فوقها التماثيل. أما القسم الباقي فمخصص للمصلين، وأحيط برواق، يرتفع مقدار (١٧٠سم)، غطي بعدد كبير من اللوحات البازلتية، المزينة بأشكال الأسود، وللرواق مدخلان: أحدهما عند الزاوية الجنوبية، والآخر عند الزاوية الشرقية للمعبد. أخيراً بلغت هندسة البناء الآرامي أوجها في هذا المعبد.

أما القصور الآرامية، فقد بينت وفق مخطط البناء المعروف بيت حيلاني (البيت العالي) من هذه القصور، قصر حوزن (تل حلف)، وقصور مدينة شمأل، وخاصة قصر كلاموه. يضم قصر كلاموه ثلاثة أجنحة (رسمي - داخلي سكن - جناح مؤونة). يتألف الجناح الرسمي من: قاعتين كبيرتين متتاليتين. أما الجناح الداخلي للسكن فيضم تسع غرف مخصصة للنوم والاستحمام. بينما ضم جناح المؤونة حجرتين كبيرتين. أما فن النحت الآرامي، فقد نشأ وترعرع في بلاد الشام، حيث كشفت التنقيبات الأثرية عن مجموعة من المنحوتات، كان معظمها في مكانه الأصلي.

العبادات الآرامية:

عبد الآراميون الآلهة العربية القديمة مثل ملقارت الفينيقي، وأيل الكنعاني، وكان على رأس

الآلهة الآرامية الإله حدد[1] (ادد) إله الزوابع والرعد والمطر.... وهو نفسه (بعل شمسين) سيد السموات. وكانت حلب ومنبج من أهم مراكز عبادته، بالإضافة إلى زوجته عشتار السورية. وقد انتقل تأثير الديانة الآرامية إلى المصريين، علماً أن الآراميين اعتقدوا بعودة الحياة للإنسان بعد الموت ومواصلتها. وكان انتهاك جثث الأموات، وسرقة الأثاث الجنائزي من أكبر الذنوب. ومن عاداتهم عند الموت وضع قطعة معدنية في فم الميت، لأنهم كانوا يعتقدون أن الأرواح الشريرة تدخل إلى جسم الميت من فمه.

يقول فيليب حتي[2] عن الآلهة الآرامية: ما تحدر إلينا من الآدب الآرامي لم يكن يختلف عن أدب جيرانهم الفينيقيين.... **وقال:** ومن القطع الدينية القليلة التي وصلتنا، نستنتج: أن إله العاصفة هدد كان على رأس الآلهة الآرامية، وكان كإله يرسل المطر ليخصب الأرض. وقال: إن عبادته في أجيال تالية اندمجت بعبادة الشمس، كما تدل على ذلك التماثيل التي تجعل أشعة الشمس تنبعث من هامة رأسه، كما هي في خرائب بعلبك، وفي عهد الرومان استحال إلى الإله المشترى، وكانوا يسمونه: المشترى الدمشقي.

أما زوجته فإلهة الخصب، التي كانوا يعبدونها باسم (اترجانيس) الإلهة السورية، وهو الاسم الذي عرفها به الإغريق والرومان، وبعد فتوحات الاسكندر انتشرت عبادتها في الغرب، وفي بلاد الإغريق والرومان، وإلى جانب هذين الإلهين الزوجين، كان في الهياكل الآرامية تماثيل لمجموعة من الآلهة الصغيرة، التي كان يناط بها بعض الأعمال والوظائف الثانوية.

الممالك الآرامية:

١ـ مملكة بيت زماني[3]: ومن الدويلات التي شكلها الآراميون (بيت زماني)، الواقعة شمال طور عابدين على ضفاف نهر دجلة، وقيل: قامت بيت زماني بين الفرات وينابيع الخابور، وعاصمتها اميدي[4] (ديار بكر الحالية)، حيث هاجمها الملك الآشوري (توكلتي نينورتا) الثاني (٨٩١ ـ ٨٨٤ ق.م)، واستبدل حاكمها بحاكم غيره هو (عمي بعلي).

---

[1] ماكس شابيرو: رودا هندريكس ـ معجم الأساطير ـ طبع دار الكندي ١٩٨٩ ـ ص١١١.

[2] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ طبع بيروت ١٩٨٢ ـ مجلد أول ـ ص١٣٨.

[3] عبد الهادي نصري: ص٢٦.

[4] علي أبو عساف: الآراميون ـ تاريخاً ولغةً وفناً ـ ص٢٤.

بعد وفاة الملك الآشوري الوارد ذكره، تمرد (عمي بعلي) على الآشوريين بالاتفاق مع حليفه (يوراماتو) أمير مدينة سباتو، فحارب الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) عام (٨٧٩ ق.م)، وقضى على التمرد، وصلب أميرها، وخلع عمي بعلي، ونصب مكانه أخاه (أيلانو). ووضعت حامية آشورية في مدينتين، هما: تيدو ومدينة سباتو، ورغم ذلك تمرد الآراميون في بيت زماني مرة أخرى، مما اضطر الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني لمهاجمتهم، والقضاء على هذه الإمارة نهائياً سنة (٨٨٠ ق.م).

٢- مملكة بيت بحياني: أما مملكة بحياني، فاستقرت إلى جوار منابع الخابور، وعاصمتها جوزان (تل حلف) قرب مدينة رأس العين، وتم اكتشاف موقع جوزان عام (١٨٩٩م) ومن ملوكها:

١- بحياني - خدياني، اهتما بتوطيد أركان سلطتهما السياسية.

٢- كبارة[1] وهو أشهر ملوكها، بنى في العاصمة جوزان قصراً ومعبداً. في عهده كان الاستقرار والأمن مستتباً. لذلك التفت إلى العمران، واكتشف في جوزان نص قصير منقوش على جذع من الحجر البازلتي الأسود، يعود إلى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد، ويعود هذا النص إلى عصر هذا الملك....

٣- أبي سلامو: كان يدفع الجزية للملك الآشوري (هدد نيراري) الثاني.

٤- شمس نوري: كان ملك جوزان.

٥- هدد يسعى[2]: استطاع علماء الآثار اكتشاف تمثال لهذا الملك مصنوع من الحجر البازلتي، طوله مع القاعدة (٢م)، نقش عليه نصان. الأول: على مقدمة الثوب مكتوب بالخط المسماري الآشوري. والنص الثاني نقش على الخلف، ويعود هذا التمثال إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد.

تمكن الآشوريون بقيادة هدد نيراري الثالث (٨١١ — ٧٨٢ ق.م)، من القضاء على هذه المملكة عام (٨٠٨ ق.م)، واستمرت تحت سلطة الآشوريين حتى[3] عام (٦١٢ ق.م)، حيث

---

(1) فراس سواح: آرام دمشق وإسرائيل - طبع دمشق ١٩٩٥ - ص١٨٩.

(2) الحوليات الأثرية السورية - المجلد (٣٢) - ص٣٥ - وما بعدها.

(3) علي أبو عساف: الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً - ص٣٧.

سقطت آشور بيد البابليين، ومنذ ذلك الوقت خضعت هذه المملكة مع عاصمتها جوزان للبابليين، وكشفت التنقيبات الأثرية في جوزان عن وثائق أثرية اقتصادية وتجارية، تعود إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد.

٣ـ بيت لاقي: تمتد بلاد لاقي[1] على ضفاف الخابور الأسفل من الشدادة حتى مصب الخابور بالفرات، وعلى ضفاف الفرات بين دير الزور والعشارة، وبلاد خنداتو على ضفاف الفرات بين العشارة، وبلدة العبيدي في العراق، وبلاد سوجي على ضفاف الفرات، ومقرها عانة الحالية.

ذكرنا أن: الملك الآشوري هدد تيراري الثاني، كان في زحفه على الجزيرة، وبعد أن أخضع بيت يحياني تقدم إلى مدينة قطني[2] جنوب الحسكة، ومنها إلى بلدة الشدادة (تقع أيضاً جنوبي الحسكة)، وكان يحكم الأخيرة الأمير (إيلوهدد)، حيث رحب الأخير بالملك الآشوري، ودفع له الجزية، ثم تحرك بقواته إلى بلاد لاقي، فأخضع مدنها.

وفي عهد الملك الآشوري ـ توكلنا نينوريتا ـ الثاني (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق.م)، شن الغارات على الآراميين منطلقاً من آشور بمحاذاة وادي الطرطارة مجتازاً دجلة، نحو ـ دوركوري كالصو ـ (عكركوف)، فدخلها ثم توجه إلى (سيبار)، فدخلها، ثم اتجه شمالاً نحو بلاد سوجي، فأخضعها. وفي عانة أكبر المدن هناك جمع الجزية، ثم زحف على بلاد خنداتو، فأخضع فيها مدينتين: هما ناحياته وعقربا. وهناك قدم عليه أمير ترقه (مودادلة)، فقدم له الجزية. ثم دخل مدينة سوبري، فأخذ الجزية من الأمير (حمايتا) اللاقي، بعدها فتح مدينة عربانا، وأخذ الجزية من الأمير حران اللاقي، ثم اجتاز الفرات عند مصب الخابور، وتوجه إلى (سورو) عاصمة بيت خالوفي، فدخلها، وأخذ الجزية، ثم فتح مدينة أوسالة ، دور كتليمو آخر مدينة شمالية في بلاد لاقية.

من الملاحظ أن سيطرة الآشوريين على بلاد لاقية كانت اسمية، أي لا تربطهم بالآشوريين أية معاهدات أو مواثيق، ولكنهم كانوا يدفعون الجزية، وعندما يجدون الفرصة المناسبة كانوا يثورون ضد الآشوريين، ويحاولون التحرر من تبعيتهم. فعندما تسلم السلطة آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ـ ق.م)، قامت ثورة في سورى عاصمة بيت خالوفة ضد أميرها الآرامي المعين من قبل الآشوريين، وتم إعدامه، وعين بدلاً عنه (أخي عبابا) من بيت عديني، فسار الملك الآشوري،

---

[1] علي أبو عساف: الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً ـ ص٣٢.

[2] قطني: عقدة المواصلات الهامة في الجزيرة، تقع قطني بين تل عجاجة الذي كان اسمه القديم شادو كاني ثم حولت إلى عربان بعد الفتح العربي ومنذ مطلع هذا القرن صار يعرف باسم تل عجاجة على بعد (٣٠ كم) جنوب الحسكة.

وقمع التمرد، وعين حاكماً اسمه عيزي إيلوم، ثم إن السوجيين تمردوا على الآشوريين، فتوجه الملك الآشوري ناصر بال الثاني من آشور عاصمته، وعبر دجلة، وقبل وصوله إلى سوجي، قدمت له الجزية كل من قطنا، شوفاية، دوركيتيلو، بيت خالوفة، ترقه، مويوري، عقرباني[1]، خنداتو، ثم أخضع سوجي، وعاد إلى بلاده.

ثم أتته الأخبار بنشوب ثورات في بلاد لاقية مرة أخرى، مما اضطره للتحرك إلى المنطقة، فاحتل المدن، ودمرها، ونهب خيراتها، وسبى سكانها. في هذا الوقت كان أمراء البلاد يستعدون لخوض المعركة الفاصلة عند مدينة خاريدي على ضفة الفرات، وهناك حدثت المعركة، وانتصر الآشوريون، وخضعت البلاد لسلطتهم.

٤ـ مملكة بيت عديني: أما بيت عديني، فقد شكلت مملكة، سيطرت على حوض الفرات الممتد من جرجميش وبلاد لاقي، وصلت حدودها الشرقية حتى نهر البليخ، والغربية حتى بلدتي الباب واخترين، وعاصمتها تل برسيب[2] (تل الأحمر). تقع مملكة بيت عديني بين البليخ شرقاً، وضفتي نهر الفرات الأوسط غرباً، وشملت منطقة منبج، وقسماً من الرقة ودير الزور، وكانت قائمة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

من المعلوم أن الآراميين كانوا قد وصلوا إلى هذه المنطقة في عهد تجلات بلاصر الأول، ونظموا أنفسهم اجتماعياً وسياسياً، وتمكنوا من احتلال وطرد الحاميات الآشورية من مدينة بيتر الواقعة عند مصب الساجور بالفرات إلى الجنوب من جرجميش، ومن مدينة موتكينو الواقعة على ضفة الفرات اليسرى، والتي كان الملك تجلات بلاصر الأول (١١١٢ـ١٠٧٤ ق.م) قد أقامها هناك.

بقيت هذه المملكة بعيدة عن السيطرة الآشورية، حتى كان عهد الملك شلمنصر الثالث، الذي تمكن من تدمير بلاد أخولي بن عديني خلال حملته الأولى (٨٥٨ ق.م)، وخلال حملته الثانية (٨٥٧ ق.م)، حاصر مدينة برسيب، ولم يدخلها، واكتفى بسلب المدن الأخرى ونهبها. وخلال حملته الثالثة عام (٨٥٦ ق.م)، عاود الهجوم على مدينة بريسيب، فهرب منها ملكها أخولي بن

---

[1] تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات بين العشارة وعانة.

[2] أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ ص٦١.
عبد الهادي نصري ص٢٥.

عديني من الملك الآشوري دون مقاومة، وعـاد إلى بـلاده. ثـم عـاود في سـنة (٨٥٥ ق.م) حيـث خرج من نينوى إلى المنطقة، وقبض على أحولي بن عديني، وبذلك قضى علـى مملكـة بيـت عديـني، وبدّل اسم عاصمتها بريسـيب إلى اسـم (كورشـلمانصر) أي حصـن شـلمنصر[1]. في عهـد تجـلات بلاصر الثالث، أصبحت هذه المنطقة تابعة لولاية حران. أما ملوك هذه المملكة فهم: بريسب عديـني ـ أحولي.

٥ـ بيت أجوش (تل رفعت): هي دولة آراميـة قديمـة، كـانت عاصمتهـا أربـاد[2]، تقـع شمالي حلب بحدود (٣٥ كم)، وصلـت حدودهـا مـن الشـرق إلى الفـرات إلى حـدود مقاطعـة تـل برسيب، وفي الجنوب جاورتها مملكة حماة ولعش، وفي الغرب مملكة أنقـي في سـهل العمـق. أمـا في الشمال فجاورتها مملكة شمأل وكوموخ وجرجميش وجبيل (جرابلـس)، ويعتقـد أن عفريـن وأعـزاز والباب والسفيرة وسمعان كانت تابعة لها. اكتشفت عدة آثار، تعود إلى هــذه المملكـة. منهـا نـص معاهـدة برجايا ملك كتك، ومتع ايل ملك أركاد، واكتشـف أيضاً شاهدتا قبرين في النيـرب، كما اكتشـف صك في السـفيرة، يعود إلى (٥٧١ ق.م) محفوظ بمتحف اللوفر بباريس.

حكمها عدد من الملوك، بقيت هذه المملكة في بداية عهدها خاضعة للحكم الآشوري، تدفع الجزية بانتظام. **من أهم مـلـوكهـا:**

١ـ بـاهـان: كان مسالماً يدفع الجزية بانتظام للآشـوريين، ويروى: أنـه حكـم قبـل عصـر آشور ناصر بال الثاني.

٢ـ جـوشـي: إليه نسبت هذه المملكة، وكان مسالماً يدفع الجزية للآشوريين.

٣ـ آرام: عاصر الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م). كان يدفـع الجزيـة للآشوريين.

٤ـ أدرامو: حكم مدة قصيرة.

٥ـ برجـوش:[3] في عهده كانت هذه المملكة أقوى الممالك الشـمالية، وكانت أرضـها

---

[1] علي أبو عساف: الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً.

[2] حسن نعمة: من ذاكرة التاريخ مدن الشرقية الأدنى القديم ـ طبع بيروت ١٩٩٤ نسي وهبة الخازن ص١٢١. فراس السواح ـ ص١٩٠. أحمد أمين سليم ـ ص٦١.

[3] فراس السواح: آرام دمشق واسرائيل ـ ص٢٣٢.

تمتد من شرق الفرات إلى سهل العمق غرباً. عثر علماء الآثار (١٩٠٣م) على نصب تذكاري للملك حماه، ذكر عليه نقوش، تعود إلى (٨١٠ ق.م)، اكتشفت في قرية أحسن قرب سراقب، تذكر هذه النقوش: أن تحالفاً قد ضم كلاً من ملك دمشق (برهدد)، وملك بيت أجوش (الملك برجوش) ضد ملك حماه ذاكر.

٦ـ عترسمل:[1] هو ابن ادرامو، في عهده غزا الملك الآشوري هدد تيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق.م) عاصمة أكاد، وأخضعها لسلطانه، وأصبحت تابعة مباشرة للآشوريين.

٧ـ متع ايل بن عترسمل: عقد معاهدة مع ملك برسيب (شمشي ايلو)، وأصبح الآراميون بفضل هذا التحالف قوة، لها أهميتها، لكن هذا التحالف انتهى بموت ملك برسيب المذكور، وبذلك ضعف الآراميون، فجهز الملك الآشوري أشور تيراري الخامس حملة قوية، هاجمت بيت أجوش، فاضطر ملكها (متع ايل) إلى عقد معاهدة مع الآشوريين، يتعهد فيها الامتناع عن محاربتهم أو الوقوف ضدهم.

بعد ذلك أخذ (متع ايل) يبحث عن حليف جديد، فتحالف مع ملك أوراتوسارتو الثاني (٧٦٥ ـ ٧٣٣ ق.م) ونقض عهده مع الآشوريين، وجمعوا في هذا التحالف آرامي الشمال، وممالك مليدو، وكوموخو وجريم وغيرها. أثار هذا التحالف الآشوريين، مما دفع ملكهم تجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) إلى تجهيز قواته عام (٧٤٣ ق.م)، فقادها نحو أرفاد، وفي منطقة الفرات هاجمه سادور الثالث، ووقعت المعركة، فانتصر الآشوريون، وتابعوا زحفهم نحو أرفاد، وحاصروها عام (٧٤٢ ـ ٧٤٠ ق م) حتى سقطت، وبذلك خضعت آرام الشمال للآشوريين. ومن آثار الملك (متع ايل) نص معاهدة بينه وبين برجاي ملك كتك، وقد عثر عليها مشوهة في قرية السفيرة إلى الجنوب الشرقي من حلب، ونقشت على ثلاثة أنصاب من الحجر البازلتي، نصبان منها محفوظان في متحف دمشق، والنصب الثالث في متحف بيروت.

٦ـ مملكة بادي (شمأل): عاصمتها شمأل، حالياً بلدة زنجرلي، وهي أكبر الممالك الآرامية الشمالية[2]، عاشت هذه المملكة من عام (١٠٠٠ ـ ٧٢٥ ق.م)، وكانت مزدهرة في أكثر مراحلها، زودت العاصمة في عهد هذه المملكة بسور دائري، يبلغ قطره (١٤٤٠م)، وتخترقه ثلاثة

---

[1] علي أبو عساف: الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً ـ ص٤١.

[2] عبد الهادي نصري: ص٢٦ ـ فراس سواح ـ ص١٩١.

بوابات، الرئيسية منها تقع في جنوبي المدينة، وهي مزودة ببرجين، تؤدي إلى ساحة داخلية وسط المدينة، عثر فيها على كتابات فينيقية، تعود إلى القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد، تدل على انتشار اللغة والثقافة الفينيقية فيها.

والعاصمة شمأل: مدينة قديمة تقع عند سفح جبل الأمانوس على الطريق المؤدي من سورية إلى الأناضول، احتلها الآراميون في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وأسسوا مملكة عرفت بمملكة بادئ. وفي عهد سرجون الثاني[1] وفي سنة (٧١٠ ق.م)، سقطت دولة بادى (شمأل) في يد الأشوريين.

ملوك هذه المملكة[2] هم:

١- **جبر:** يعتقد أنه مؤسس هذه المملكة وقيل جبار.

٢- **بمبه:** هو ابن جبر وقيل (اباماه).

٣- **خيه:** (خيانو أو خياني) ابن الملك بمبه، وقدم الجزية للملك الآشوري شلمنصر الثالث.

٤- **شال:** لم يعثر له على ذكر، إنما كان الأخ الأكبر لكلاموه.

٥- **كلاموه:** عندما تسلم السلطة، وجد الأمن والاستقرار، فالتفت إلى العمران، وقوى بلاده، واستعان بالآشوريين ضد مملكة الدانون أقوى خصومهم في الشمال، وصدهم، وأبعدهم عن بلاده. كانت سياسته الداخلية ناجحة، استطاع أن يؤلف بين طبقتي المجتمع داخل الدولة بنجاح، وهما طبقة العوام وطبقة المشايخ، والمتنفذين والأغنياء، وأقام العدل، وساوى بينهما. يقول هنري ـ س ـ عبودي: حوالي عام (٨٣٠ ق.م) قام الملك كلاموه بتشييد قصرين، وكان ينتصب بالقرب من أحدهما تمثال للملك المذكور، بعد أن تم تأليهه، ويحمل التمثال زوجاً من الأسود.

وقد ذكر هذا الملك إصلاحاته الاجتماعية بقوله: كان (الموشكاب) الفلاحون يطوفون كالكلاب، أما أنا فكنت أباً لهم وكذلك أخاً للجميع، ومن لم يكن عنده بقرة واحدة، جعلته يملك قطيعاً من الأبقار، والذي لم يرَ في حياته رأس خروف، جعلته يملك قطيعاً.... وذلك الذي لم يرَ

---

(١) حامد عبد القادر: ص١٠٦.

(٢) نسيب وهبة الخازن: ص١١٥.

حل رموز نقش كلمو بحروف عربية

١ ـ انخ كلمو برحى.

٢ ـ ملك حبر عل يادي وبل پعل.

٣ ـ كن بمه وبل پعل وكن (وخن) اب حيا وبل پعل وخن (وكن) اح.

٤ ـ شأل وبل پعل وانخ كلمو برتم ماش پعلت.

٥ ـ بل پعل هلفنيهم كن بت أبى بمتخت ملك اد.

٦ ـ رم وكل شلح يد لل (حـ) م وكت بيد ملكم كماش أكلت.

٧ ـ زقن و (كم) آش أكلت يد وأدر على ملك دنيم وشكر (وشخر).

٨ ـ انخ على ملكاشر علمت يتن بش وجبر بسوت.

٩ ـ انخ كلمو برحيا يشبت على كسا أبى لفن هم.

١٠ ـ لخم هلفنيم يتلخن مشكبم كم كلبم وانخ لمى كث اب ولمى كت أم.

١١ ـ ولمى كت اح ومى بل حرپن ش شتى عدر ومى بل حرپن ألف شتى بعل.

١٢ ـ بقر وبعل كسف وبعل حرص ومى بل حزكتن لمنعرى وبيمى كسى ب.

١٣ ـ ص وانخ تمخت مشكبم ليد وهمت شت نبش كم نبش يتم بام ومى بين.

١٤ ـ ى آش يشب تحتن ويزق بسفرز مشكبم اليكبد لبعررم وبعرر.

١٥ ـ م اليكبد لمشكبم ومى يشحت هسفرز يشحت راش بعل صمد آش لجبر.

١٦ ـ ويشحت راش بعلحمن آش لبمه وركبال بعل بت.

نقش كلمو

١ ـ أنا كلمو بن حيا.

٢ ـ جبر حكم على يادى وما فعل شيئاً.

٣ ـ ثم كان بمه وما فعل شيئاً ثم كان أبي حيا وما فعل شيئاً ثم كان أخي.

٤ ـ شئل وما فعل شيئاً وأما أنا كلمو بن تمة (نسبة إلى أمه؟) فقد فعلت.

٥ ـ ما لم يفعله القدماء كان بيت أبي في وسط ملوك أقوياء.

٦ ـ وكلهم مدوا أيديهم ليأكلوه وكنت في يد الملوك إذ أكلت.

٧ ـ لحيتى وأكلت يدي وتغلب على ملك دنيم وأغرى.

٨ ـ بي ملك أشور فكانت الفتاة تعطى بشاة والرجل (يعطى) بثوب.

٩ ـ أنا كلمو بن حيا جلست على كرسي آبائي أمام.

١٠ ـ الملوك القدماء كان أهل مشكب (؟) يمشون كالكلاب وأما أنا فأصبحت لهم أبا وصرت لهم أماً.

١١ ـ وصرت لهم أخاً ومن لم ير وجه شاة جعلته صاحب قطيع، ومن لم ير وجه بقرة جعلته صاحب صوار.

١٢ ـ وصاحب فضة وصاحب ذهب ومن لم ير كتاناً منذ نشأ ففي أيامي كسي (بملابس) بص[1].

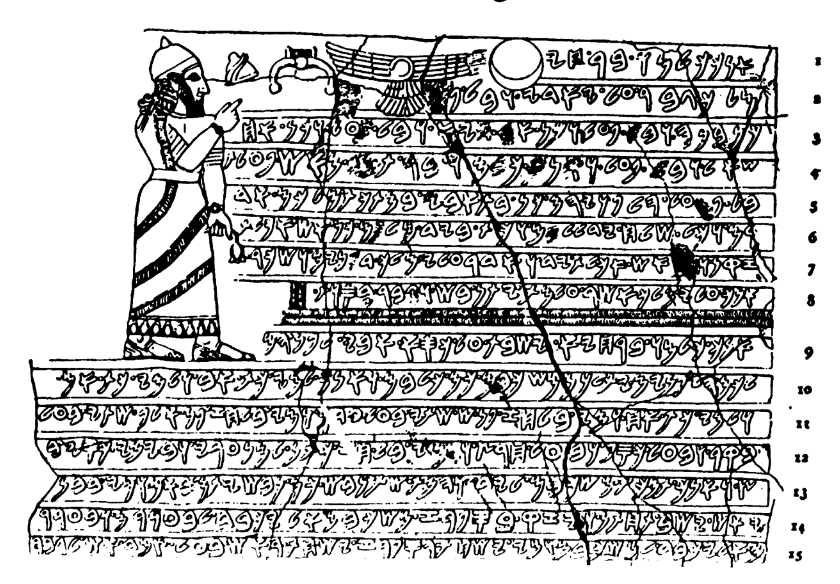
١٣ ـ وقد حميت (أهل) مشكب حتى سكنوا إلى سكون اليتيم إلى أمه. ومن من أبنائي.

١٤ ـ الذي يجلس بعدي (يخلفني على العرش) ويؤذي هذا النقش فالمشكابيون لا يحترمون أهل (؟) برر. (وقوم البرر).

١٥ ـ لا يحترمون (قوم؟) مشكب والذي يخرب هذا النقش ليخرب رأسه بعل صمد الذي بجبر.

١٦ ـ وليخرب رأسه بعل حمان الذي ببمه وركب إل بعل بيت...

نقش الملك كلمو



القميص منذ حداثة سنه، فقد ألبسته الخز (الحرير) في حياتي[1].

اكتشف علماء الآثار لوحاً مهشماً من البازلت، طوله (٥٤ر١م)، وعرضه (٣٠ر١م) فرمم، نقل إلى برلين، يعلوه صف من رموز وإشارات للإلهة، يشير إليها كلاموه بيده اليمنى، وهو واقف حيث الصور إلى يسار النص، وكان اللوح مثبتاً على إحدى المداخل المؤدية إلى القصر. كما عثر على نص مسطر بالآرامية، عليه غشاء صولجان كلاموه في إحدى ممرات قصره. وهو محفوظ في متحف برلين.

٦ـ قرل: لا نعلم عنه شيئاً إلا أنه خليفة كلاموه.

٧ـ بناموه الأول: هو ابن الملك قرل وخليفته، في أول عهده بنى تمثالاً للرب هدد بحدود (٧٥٠ ق.م) تعبيراً عن إيمانه بالأرباب الأخرى. حقق لشعبه الرفاه والرخاء، وأعاد بناء القرى والمعابد. عثر علماء الآثار على تمثال ضخم للرب هدد منحوت من الحجر البركاني، كتب بالآرامية، في قرية جرجين عام (١٨٨٠م)، وهو من أضخم تماثيل عصره، وقد حفظ في متحف برلين.

٨ـ بره (ابن الصخر): أوبرصو[2]: خلف بناموه بالسلطة، في عهده وقعت ثورة في مملكة بادئ، ذهب هذا الملك وسبعون من أهل بيته ضحيتها.

٩ـ برراكب: ويذكر هنري ـ س ـ عبودي بقوله: قام الملك برراكب ابن بناموه بإضافة جناح إلى أحد القصرين، وكان حينها تابعاً للملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث، وقد شيّد هذا الملك كذلك مجموعة أبنية واسعة في جنوبِ القصر المذكور.

١٠ـ بناموه الثاني[3]: استطاع إخماد ثورة، قامت في بلاده بدعم من الآشوريين، وقدّم له الآشوريون حامية، فاستتب الأمن، حكم من (٧٤٢ ــ ٧٣٢ ق.م)، توفي عام (٧٣٢ ق.م)، عثر على تمثال من الحجر البركاني، أقامه ابنه برراكب حوالي (٧٣٠ ق.م). بالقرب من نبع ماء على منتصف الطريق بين العاصمة شمال زنجرلي، وجرجين، وهو محفوظ بمتحف برلين.

---

[1] نور الدين حاطوم: نبيه عاقل ـ أحمد طربين ـ صلاح مدني ـ موجز تاريخ الحضارة ــ طبع سورية ١٩٦٥. ج١ ص٢٥٥ ــ عبد الهادي نصري ص٤٤.

[2] علي أبو عساف: الآراميون ـ تاريخاً ـ ص١٥.

[3] نسيب وهيبة خازن ـ ص١٢٤.

١١ـ برراكب الثاني: توصل إلى الحكم بعون الآشوريين، حكم من (٧٣٣ ــ ٧٢٥ ق.م)، وهو ابن بناموه الثاني، سار على نهج والده في التحالف مع الآشوريين، والتفت إلى العمران، فأعاد بناء قصر والده، وجعله أجمل مما كان، وهو الذي أدخل عبادة الرب بعل حران إلى العاصمة، ذكر أنه كان آخر ملك آرامي يحكم هذه المملكة.

كشف علماء الآثار في شمالي العاصمة عام (١٩٨١م)، لوحة من الحجر البركاني، يشاهد عليها اسم الملك برراكب واقفاً، وبيده اليسرى وردة، وهو يرتدي ثياباً بزي آشوري، يشاهد خلف الملك يدا خادم يحمل المروحة، وعند رأس الملك شعارات الآلهة: الخوذة ذات القرون للآلهة هدد ـ النير على العربة، شعار إله راكب بل، نجمة خماسية ذات دائرة مزدوجة، شعار الإله رشق ــ شمس محتجبة، شعار الإله شمس ـ هلال، شعار الإله سن متقمصاً شخصية الإله بل حران، وهذه اللوحة محفوظة في متحف استنبول، إلا أن الآشوريين استعملوا حكاماً آشوريين نذكر منهم: (نبواخو ـ ايرسو)، كان حاكماً سنة (٦٨١ ق.م)، عاصر الملك سنحاريب وأسرحدون.

٢ـ (بيلي ـ سينو): لا نعرف عنه شيئاً، سوى أنه كان حاكماً من قبل الآشوريين.

٧ـ مملكة حماة: عاصمتها مدينة حماه، كان يحدها من الشمال بيت أحوش، ومن الجنوب مملكة دمشق، ومن الغرب مملكة صفد، وصلت حدودها إلى سلسلة جبال سورية الساحلية، امتدت حدودها الشرقية عبر البادية. كانت أقوى الممالك الآرامية بعد مملكة دمشق.

تعتبر مواقع حماه ووادي العاص، من أقدم مواقع سكن الإنسان القديم في سورية. وهناك بعض المواقع والمكتشفة، تعود إلى سوية الفليفرانشي المتأخرة قبل العصور الحجرية، وأهم مواقع هذه السوية في وادي العاص مايلي[1]: الرستن ـ حماه ـ قلعة المضيق. ومن مواقع العصر الحجري القديم في حماه: (جرنية، مزرعة الشيخ عبد الله، وضمنها رنة، وشرية، وخطاب، وجنوب شرقي الزور الجديد[2]. ومن المواقع الأثرية المهمة القريبة من حماه (اللطامنة) الواقعة شمال حماه (٣٩ كم) جنوبي شرقي العشارنة. حيث تعتبر موقعاً سكنياً حتى الدور الآشوري الأوسط، وما عثر فيها من لقى، تعتبر من أقدم النماذج، التي عرفت في الشرق الأوسط.

كانت حماه إحدى المدن الكبرى، التي قامت في الشرق من أقدم العصور، على رقعة تعرف

---

[1] أحمد غسان سباتو: اكتشافات مثيرة تغير تاريخ دمشق القديم ـ آرام ذات العماد ـ طبع دمشق ـ ص٧٩.

[2] مجلة الحوليات السورية ـ المجلد (١٤) ـ ١٩٦٤ ـ ص٢٤٣.

حل رموز نقش برركب ملك شمأل

(١) انه ب (ر) ركب.
(٢) برپنمو ملك شم.
(٣) ال عبد تجلت پليسر مرا.
(٤) ربعى ارقا بصدق أبي وبصد.
(٥) قي هوشبني مراي ركبال.
(٦) ومراي تجلت پليسر عل.
(٧) كرسا أبي وبيت أبي ع.
(٨) مل من كل ورصت بجلجل.
(٩) مراي ملك أشور بمصع.
(١٠) ت ملكن ربربن بعلى ك.
(١١) سف وبعلى ذهب وأحذت.
(١٢) بيت أبي وهيطته.
(١٣) من بيت حد ملكم ربرب.
(١٤) ن وهتنأ بواحي ملكي.
(١٥) الكل مه طبت بيتي و.
(١٦) بي طب ليشه لأبهى م.
(١٧) لكي شمال هابيت كلم.
(١٨) ولهم پها شتوا ل.
(١٩) هم وها بيت كيصا و.
(٢٠) انه بنيت بيتاً زنه.

ترجمة نقش برركب

(١) أنا برركب
(٢) ابن پنمو ملك
(٣) شمأل عبد لتجلت پلئيسر سيد
(٤) نواحي المعمورة الأربعة من أجل صدق أبي
(٥) وصدقي أجلسني سيدي ركب إل
(٦) وسيدي تجلت بلئيسر على

(٧) عرش أبي وكان بيت أبي

(٨) يعمل (لرفع مجد الملك أكثر من) غيرنا وكنت أسير أمام عربة

(٩) سيدي ملك أشور بين

(١٠) ملوك عظماء أصحاب

(١١) فضة وأصحاب ذهب وأخذت (قبضت على ناصية الحكم)

(١٢) بيت أبي فأصلحته

(١٣) (إلى أن أصبح من أعظم) بيوت الملوك الأماجد

(١٤) وما رغب اخواني الأمراء

(١٥) طاب لهم في بيتي

(١٦) وبيت طيب لم يكن لآبائي

(١٧) ملوك شمأل لكن بيت كلامو

(١٨) كان لهم وهو بيت الشتاء

(١٩) وبيت القيظ

(٢٠) لذلك بنيت هذا البيت.

بسورية المجوفة، وتمتد من منبع العاصي في جوار بعلبك حتى مصبه قرب أنطاكية. نتيجة التنقيبات الأثرية تبين: أن حماه تعود إلى العصر الحجري القديم. يؤكد ذلك الطبقات السفلى من هذه الطبقات، كما كشف في موقع الجمالة الكائن على بعد (٤٣ كم) شمالي غربي مدينة حماه، حيث عثر على بقايا متحجرة لحيوانات ضخمة مع أدوات صيد مصنوعة من حجر الصوان.

لمع اسم حماه في العصر البرونزي القديم كموطن للآراميين[1]، باسم (حمات)، وقد ورد في التوراة، ويقال لها: (حمت) الكبرى. ازدادت شهرتها بعد أن سكنها شعب الروثانو المعاصرون للنبي ابراهيم الخليل. وفي العصر البرونزي الحديث كشف في قلعة حماه عن معالم قصر بمستودعاته، تعود إلى هذه العصر.

في العصر الحديدي: خضعت حماه للآشوريين، ثم البابليين، ومن بعدهم الفرس. في العهد اليوناني اتسعت رقعة حماه، وسميت ابيفانيا نسبة إلى الملك السلوقي (انطيوخيوس ابيفانوس)، وفي عام (٦٤ ق.م) دخلت حماه تحت نفوذ الرومان، فتبعت حماه إلى اباميا، واستمرت على ذلك حتى أحرقها كيخسرو ملك الفرس عام (٥٧٣ م). وفي عام (١٩٨٣م) اكتشفت كنيسة قديمة[2] ضمن قلعة حماه، لها طراز البازيليك، تعود إلى النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، تحيط بها مبانٍ وملحقات تابعة لها. رصفت أرضية الكنيسة والمباني جميعها بالفسيفساء.

أهم ملوكها[3]:

١- توغي: ذكر عنه أنه كان في حالة حرب مع هدد عزر ملك صوبا، وهو أول ملوك حماة المعروفين.

٢- يورام: كان يعاون أباه في الحكم. عندما مات أبوه خلفه بالحكم، وسار على سياسة والده في معاداته لملك دمشق.

٣- بارناس.

٤- ارخوليني: هو ابن بارناس وخليفته، بنى معبداً للربة (بخالاتي - بعلاتي). في عهده

---

[1] مويد الكيلاني: محافظة حماه - طبع دمشق ١٩٦٤ - ص٨.

[2] الحواليات السورية الأثرية - المجلد (٣٣) الجزء الثاني - ص٨.

[3] نسيب وهيب الخازن: ص١٠١. عبد الهادي نصري - ص٩٢.

تحالفت الممالك الآرامية الشامية بزعامة ملك دمشق، وقد ورد ذلك.

٥ـ اورتانيس: خلف أباه أرخوليني في الحكم، خلد ذكره بواسطة بعض نقوش هيروغليفية، وجدت بحماه، وفيها يفتخر ببناء سورها. في عهده ارتبطت حماه بالممالك المجاورة بعلاقات طيبة. وعاشت حياة استقرار.

٦ـ ذاكر: تسلم الحكم في حماه، ولا نعلم كيف تم له ذلك ؟ وإنما يعتقد: أنه اغتصب الحكم من أوراتانيس ملك حماه ولعش. في عهده وقفت حماه على الحياد من الصراع الآشوري الآرامي. كشف علماء الآثار نصباً لهذا الملك في قرية افس عام (١٩٠٣م)، وهو محفوظ في متحف اللوفر في باريس.

٧ـ يوبيدي: تسلم السلطة، وقد يكون اغتصبها. استطاع الآشوريون بقيادة سرجون الثاني القضاء على ممالك الشام في معركة قرقر، التي حدثت عام (٧٢٠ ق.م). وبعد ذلك تحولت حماه إلى ولاية آشورية.

يقول عبد الهادي نصري في كتابه شمس آرام[١]: سقطت مملكة حماه بيد الملك الآشوري صارغون الثاني (سرجون) عام (٧٢٠ ق.م)، الذي أسر ملكها يوبيدي، وسلخ جلده، وهو حي، بعد انتصاره بمعركة قرقر الثانية على نهر العاصي. وقد نقل سرجون قسماً كبيراً من سكان حماه إلى السامرة وحران، وأسكن فيها (٦٣٠٠) آشوري، وعين عليها حاكماً آشورياً.

٨ـ مملكة دمشق: وطد الآراميون سلطتهم بدمشق خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وأسسوا سلالتهم الملكية الأولى فيها في النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد، ففي هذه المرحلة انتعشت الزراعة، وتوسعت من جديد الزراعات المتوسطية التقليدية، وازداد إنتاج السلع التبادلية النقدية، ونشطت التجارة، وعادت الحياة إلى الطرق التجارية، وازدهرت المحطات التجارية، وساعد ذلك دمشق على بناء قوة عسكرية واقتصادية كبيرة.

يقول فراس سواح[٢] في كتابه آرام دمشق وإسرائيل: لقد تحكمت دمشق بطريقين تجاريين دوليين، لهما أهمية حيوية، الطريق الأول: هو الطريق الساحلي المعروف تاريخياً بطريق البحر،

---

[١] عبد الهادي نصري: ص٢٩.

[٢] فراس سواح ص٢٠٢ ـ نسيب وهيبة الخازن ص١٠٦ ـ عبد الهادي نصري ص٣٠ ـ أحمد أمين سليم ص٦٢.

والثاني: الطريق الصحراوي الصاعد من جزيرة العرب، والمعروف حالياً بطريق الملوك، وهناك طريق ثالث: أقل أهمية يصعد من النقب إلى حبرون فأورشليم إلى دمشق. ومن دمشق كان يصعد طريقان دوليان للتجارة. الأول: باتجاه وادي الرافدين عبر تدمر والبادية السورية، والثاني: باتجاه الأناضول عبر حماه فحلب.

عملت على بسط نفوذها على الدويلات والإمارات الصغيرة، التي تمر بها خطوط التجارة. لكنها لم تمارس سياسة الحكم المباشر خارج منطقتها التقليدية، بل اكتفت بعلاقات تعاون وحسن جوار، وأحلاف عسكرية مع الممالك المجاورة.

أما عن الحدود التقليدية لمملكة دمشق، فكان يحدها من الشمال مملكة حماه، التي كانت تربطها معها علاقات مميزة، ومن الجنوب الحدود السفلى للجولان، ومن الغرب يعتقد أنها كانت تشمل البقاع. كما كانت تبسط سيطرة غير مباشرة على مملكة عمون ومؤاب وأدوم في الأردن، وعلى قسم من فلسطين. كما كانت لها علاقة حسنة وولاء مع القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية والبادية السورية.

كانت مملكة دمشق تتبع مملكة صوبا الآرامية، يعتقد أن (روزن ايل يدع)، هو مؤسس مملكة دمشق الآرامية، ووريث مملكة صوبا. حيث تمكن هذا الملك من السيطرة على الأراضي الممتدة من منابع العاصي في الشمال حتى نهر الزرقاء في الجنوب، ومن حفرة الانهدام في الغرب حتى البادية في الشرق.

ودمشق مدينة عريقة القدم، تقع وسط غوطة، يسقيها نهر بردى، ملتقى الطرق التجارية والعسكرية القديمة. شكّل الآراميون دولة، احتلها الآشوريون سنة (٧٣٢ ق.م)، والبابليون عام (٦١٢ ق.م)، والفرس عام (٥٣٩ ق.م)، واليونان عام (٣٣٣ ق.م)، والأنباط (٨٥ ق.م)، والرومان (٦٤ ق.م)، واستولى عليها البيزنطيون، ثم الساسانيون عام (٦١٤ ق.م)، وفتحها العرب عام (٦٣٥ ق.م).

أهم ملوكها[1]:

١- روزون بن ايل يدع: حكم من (١٠٣٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وذكر عنه أنه هو

---

[1] هارني بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم - طبع القاهرة ١٩٩١ - ص٩٥.

مؤسس مملكة دمشق الآرامية، في عهده توسعت هذه المملكة، وازدهرت.

٢- طير بمون: ملك نحو سنة (٩٦٠ - ٩٥٠ ق.م): المعلومات عنه قليلة....

٣- خربون: المعلومات حول عهده قليلة جداً....

٤- برهدد الأول[1]: هو ابن طيربمون بن خربون، وكان يهوذا يستنجد به، ويقدم له الجزية، لكي يكون له عوناً ضد ملك إسرائيل. احتل هذا الملك مكانة مرموقة، وكان أول الملوك الآراميين، الذين جمعوا الآراميين حولهم، وأقام علاقات حسنة مع ممالك مدن الساحل السوري، وتمكن من السيطرة على حوض الأردن وجبال الجليل والكرمل.

تمكن هذا الملك من أن يجمع حوله ممالك بلاد الشام كلها، لكي يلاقي الملك الآشوري شلمنصر الثالث. وقد ورد ذلك. وحدثت المعركة في قرقر عام (٨٥٣ ق.م)، التي ادعى فيها شلمنصر النصر، والحقيقة أنه لم ينتصر. وبقيت أوضاع بلاد الشام على ما كانت عليه. وتذكر التوراة صراعه مع ملك اسرائيل أحاب، الذي انتصر حسب رواية التوراة على ملك دمشق برهدد هذا، ومعه (٢٢) ملكاً. وهنا نذكر أن الروايات التاريخية التوراتية لا يمكن اعتمادها كمصادر تاريخية، يمكن الأخذ بها، لأن الاكتشافات الأثرية أثبتت عدم مطابقتها للواقع.

يذكر نص آشوري[2] معروف باسم بنص السلة السوداء، الحملة الآشورية على بلاد الشام الآرامية، يقول النص بلسان الملك الآشوري شلمنصر الثالث: غادرت نينوى فعبرت نهر دجلة، وتقدمت إلى مدن غيامو على نهر البليخ، فتملكها الخوف من هيبتي ومن أسلحتي الفتاكة، فقتلوا سيدهم غيامو بأسلحتهم.... ثم يقول: من سحلالا توجهت إلى كار شلمنصر (برسيب)، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على طوافة من جلد الماعز، وفي المدينة التي يدعوها أهل حطيئة (بترو) عند نهر الساجور على الجهة الأخرى للفرات، تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات، من:

١- سنغارا ملك كركميش

٢- كونداشبي ملك كوماجين...

٣- آرام ملك آجوش...

---

[1] الحوليات الأثرية السورية - المجلدان الثامن والتاسع ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - ص٨١.

[2] فراس سواح: ص٢٠٨.

ثم غادرت الفرات نحو حلب التي خاف أهلها، وخروا عند قدمي، فتلقيت منهم جزية فضة وذهباً، وقدمت قرباناً إلى هدد إله حلب. من حلب توجهت إلى مدن أرخوليني ملك حماه. فتحت مدن (أدينو وبرغا) ومقره الملكي في (أرغانا)، وأضرمت النار في قصره، غادرت أرغانة وأتيت إلى قرقر، فدمرتها، وأحرقتها.

يتابع النص: هب إلى ساح المعركة (ملك دمشق)، ومعه (١٢٠٠ عربة) و(١٢٠٠ فارس) و (٢٠,٠٠٠ جندي). وأرخوليني ملك حماه، ومعه (٧٠٠ عربة)، و (٧٠٠ فارس)، و (١٠٠٠٠ جندي). وأخاب الاسرائيلي ومعه (٢٠٠٠ عربة)، و (١٠٠٠٠ جندي) من موصري جاء (١٠٠٠٠ جندي). من قوية جاء (٥٠٠ جندي). من عرقانا (١٠٠ عربة). و (١٠٠٠٠ جندي). ماتينوبعل من أرواد (٢٠٠ جندي). أمير شناتو (٢٠٠ جندي). أدنوبعل من سباتو (٣٠ عربة + ١٠٠٠ جندي). جند يبو العرب (١٠٠٠ جمل)، بعثها أمير رجوبي وعمون.

أخيراً يقول العاهل الآشوري: فكانوا اثني عشر ملكاً، هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة، فحاربتهم بما وهبني الإله آشور من قوة، وبما وهبني الإله ترجان من سلاح فتاك، وهزمتهم بين مدينة قرقر ومدينة جيلزو، وملأت نهر العاصي بجثثهم. إذاً كان هذا الحلف يتكون من اثنتي عشرة مملكة، تقودها مملكة دمشق، ويشكل هذا الحلف جيشاً منظماً، ضم في صفوفه: (٤٠٣٠) عربة. (١٩٠٠) فارس. (٦١٩٠٠) جندي. (١٠٠٠) جمل، عدا ما قدمه كل من أمير رجوبي وأمير عمون.

ويذكر أن الممالك الآرامية المدونة في هذا الحلف، كانت تتوضع على خط التجارة الدولية الصاعد من الجزيرة العربية عبر شرقي الأردن نحو الأناضول. في نفس الوقت الذي كانت بعض الممالك كـ (سباتو وعرقانا)، تتحكم بالتجارة البحرية المتوسطية، ومسالكها البرية نحو الداخل..

أما عن نتائج معركة قرقر، فيظهر: أن المعركة انتهت إلى تراجع الفريقين دون التوصل إلى حسم المعركة، ودليل ذلك أن الآشوريين عادوا إلى بلادهم وفي الوقت نفسه عاد جميع ملوك التحالف إلى عواصمهم.

وتذكر هذه الحملة عام (٨٤٩ ق.م) مع نفس التحالف دون أي انتصار لكلا الطرفين، وتتكرر حركات شلمنصر الثالث بعد ذلك في أعوام (٨٤٨ - ٨٤٦ - ٨٤٥ ق.م)، دون تحقيق أي نتيجة، حتى كانت وفاة ملك دمشق برهدد بين عامي (٨٤٥ ــ ٨٤٣ ق.م) في ظروف غامضة،

وقيل: بمرض عضال، وأعقب وفاته فترة من الفوضى والاضطراب، انتهت باستلام حزائيل السلطة.

٥- حزائيل[1] : يذكر عنه أنه حكم (٤٤)، أي من سنة (٨٤٤ – ٨٠٠ ق.م). في عهده انحل التحالف الآرامي السابق الذكر، إلا أن هذا الملك استطاع جمع كلمة الممالك السورية الآرامية دون أي تدخل آشوري. ورسم سياسة جديدة، تسمح له بالتدخل ضد أي دولة آرامية، تميل إلى مهاودة آشور. وتمكن حزائيل من فتح الأردن، واجتياح فلسطين، وهدد أورشليم[2].

أخذ حزائيل يضغط على ملك اسرائيل، في الوقت الذي كان فيه صراع على السلطة عند الإسرائيليين، لكن حزائيل ملك دمشق عندما سمع بعودة شلمنصر الثالث إلى المنطقة عام (٨٤١ ق.م)، عمل على تحصين عاصمته دمشق، وقادها لملاقاة الملك الآشوري عند أسفل جبل حرمون، وهناك تحصن بقواته لقطع الطريق أمام القوات الآشورية، التي كانت تنوي الوصول إلى المناطق الجنوبية والغربية وعزل منطقة دمشق. إذاً في منطقة جبل سنير (الحرمون) المقابل لجبل لبنان، كان حزائيل يتحصن بقواته، وهناك جرت معركة بينه وبين الملك الآشوري شلمنصر الثالث، حيث يدعي الأخير الانتصار بقوله: [قاتلته وهزمته وجندلت ستة عشر ألفاً من جنوده المدربين، وغنمت (١٢١ عربة)، و(٤٧٠ جواداً)، وكل معسكره. أما هو فهرب طالباً حياته، فتعقبته إلى دمشق مقره الملكي وحاصرته هناك، وقطعت أشجار بساتينه، ثم سرت إلى جبل حوران، فهدمت، وأحرقت عدداً، لا يحصى من المدن، وأخذت منها الجزية، ثم سرت إلى جبل (بعل راسي)، الذي يقع مقابل البحر (جبل الكرمل)، وأقمت هناك نصباً تذكارياً، عليه صورتي. في ذلك الوقت تلقيت الجزية من صور وصيدون ومن ياهو بن عمري].

من الواضح أن الملك الآشوري لم يحقق أهدافه من حملته هذه، فدمشق قاومت الحصار، مما دعا العاهل الآشوري للانتقام بقطع أشجار غوطة دمشق، وتهديم القرى والمدن في حوران، وتلقي الجزية من الممالك الفينيقية، ومن ثم عودته إلى بلاده.

بعد ذلك حدثت هدنة بين الآشوريين والآراميين، استمرت سنوات ثلاث، عاود بعدها شلمنصر حملاته على أراضي بلاد الشام، وخاصة مملكة دمشق. إلا أن حملاته هذه لم تحقق سوى

---

[1] الحوليات الأثرية السورية - المجلدان الثامن والتاسع - ١٩٥٨ - ١٩٥٩م - ص٩٨.

[2] فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل - ص٢٢٣- التوراة الملوك الرابع ١٢ (١٧ - ١٨).

إخضاع عدد من المدن وتحصيل الجزية، وفي عام (٨٣٧ ق.م) أقلع الآشوريون عن مهاجمة الآراميين في بلاد الشام. فبعد وفاة شلمنصر الثالث عام (٨٢٤ ق.م) نشب صراع داخلي بين ورثة العرش، وانشغل الآشوريون بحروب ضد المناطق الشرقية الخاضعة لحكمهم. في هذه المرحلة أعاد ملك دمشق ترتيب شؤون المنطقة، وأعد قواته لعقاب ملك اسرائيل بسبب موقفه المخزي، ودعمه للآشوريين ضد مملكة دمشق. توفي ملك دمشق حزائيل سنة (٨٠٠ ق.م) كما يروى، أي في السنة التي ارتقى فيها برهدد عرش دمشق.

٦ـ برهدد[1]: يذكر عنه أنه حكم ثلاثين سنة، أي من سنة (٨٠٠ ـ ٧٧٠ ق.م)، يذكر بعض الباحثين: أن برهدد هذا هو ابن حزائيل، خلف والده في حكم دمشق سنة (٨٠٠ ق.م)، وكان معاصراً للملك آشور هدد تيراري الثالث بن شلمنصر، الذي أخذ يستعد لمهاجمة بلاد الشام الآرامية. استطاع ملك دمشق هذا تشكيل تحالف، ضم كما تذكر الروايات، اثنين وثلاثين ملكاً، وجهز جيشاً قوياً، غايته القضاء على تحرك ملك إسرائيل، الذي كان يناصر الآشوريين، وتمكن من إخضاع الإسرائيليين، بعد ذلك فكر، ودبر، لإخضاع مملكة حماه، التي كانت أيضاً موالية للآشوريين، ولتحقيق ذلك شكل تحالفاً، ضم سبعة ملوك آراميين معروفين بعدائهم الشديد للآشوريين، منهم ملك بيت آجوش، وملك غوروم، وملك شمأل، وملك كيليكية، وملك العمق، وملك ميليز. وتحرك بقواته نحو ملك حماه زاكر وحاصره لمدة طويلة، إلا أنه فك عنه الحصار، وتراجع، ويعتقد: أن سبب هذا التراجع هو استنجاد ملك حماه المذكور بالآشوريين. تميز عهده بالنزاعات الداخلية في بلاد الشام الآرامية، مثلما حدث سابقاً بينه وبين ملك حماه، وبينه وبين ملك إسرائيل، كما ذكرنا.

في عهده هاجم الملك الآشوري هدد تيراري الثالث بلاد الشام الآرامية[2] حوالي عام (٧٩٨ ق.م)، فأخضع بلاد حاني، وكل أراضي آمورو وصور وصيدون وآدون، ثم هاجم مملكة دمشق، وحاصرها، حتى أخذ الجزية، ومقدارها، كما تروي النصوص الآشورية، (٢٣٠٠) وزنة من الفضة، و(٢٠) وزنة من الحديد.

٧ـ رحباتو وقيل رصين: عاصر الملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م)، حيث تمكن هذا الملك الآشوري من القضاء على الممالك الآرامية، عندما غزا دمشق

---

[1] نسيب وهبة الخازن: من الساميين إلى العرب ـ ص١٠٧.

[2] فراس السواح: آرام دمشق وإسرائيل ـ ص٢٣٣.

عام (٧٣٨ ق.م) ثم (٧٣٣ ق.م)، وتمكن من القضاء عليها، وضمها إلى مملكته، وهناك ممالك أخرى آرامية، المعلومات عنها قليلة، وننتظر علماء الآثار للبحث والتنقيب عنها، وإخراجها حقيقة تاريخية، من هذه الممالك:

١ـ مملكة رحوب[١]: نشأت هذه الدولة في أقصى شمال فلسطين إلى الجنوب من مملكة صوبا، قرب نهر الليطاني الأوسط، وقيل: قامت هذه الدولة في منطقة اليرموك[٢].

٢ـ مملكة معكة[٣]: تقع شمال فلسطين قرب جبل حرمون (جبل الشيخ)، في منطقة الجولان، وقيل: هي دويلة آرامية، تقع شرق نهر الأردن بالقرب من جبل حرمون، ومركزها معكة.

٣ـ مملكة جشور[٤]: تقع بين دمشق واليرموك إلى الشرق من مملكة معكة، وقيل: مركزها بين حرمون وباشان، إلى الشرق من معكة، على حدود هذه الدولة جسر على نهر الأردن بين طبريا والحولة، يعرف بجسر بنات يعقوب.

٤ـ مملكة كركم[٥]: قامت هذه المملكة في المنطقة الواقعة بين مملكة شمأل من الشمال، وبيت عديني من الجنوب، عاصمتها مدينة مركاسي (مرعش)، من أهم ملوكها: كلفارودا ـ نزحولارا. خضعت في فترات متباينة للآشوريين، ثم سقطت أخيراً بيد الملك الآشوري سرجون.

٥ـ مملكة سوحي[٦]: قامت هذه المملكة في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، في المنطقة الممتدة بين الخابور ومصب نهر البليخ، قضى عليها الملك الآشوري (آشور ناصر بال)، ودك حصونها ومدنها عام (٨٧٩ ق.م).

٦ـ مملكة صوبا: تعتبر هذه المملكة من أقدم الممالك الآرامية، عاصمتها صوبا (عنجر)،

---

[١] هنري س عبودي: ص١٥. عبد الهادي نصري ـ ص٢٧.

[٢] حامد عبد القادر: ص١٠٦.

[٣] أنيس فريحه: معجم المدن والقرى اللبنانية ـ طبع اللبنان ١٩٩٦م. عبد الهادي نصري ـ ص٢٧. فراس سواح ص١٩١.

[٤] قتيبة الشهابي: هنا بدأت الحضارة ـ تاريخاً وصوراً ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٢٦ ـ عبد الهادي نصري ـ ص٢٧.

[٥] عبد الهادي نصري ـ ص٢٨.

[٦] عبد الهادي نصري: ص٢٨.

وقيل: كانت جنوب زحلة[1] في سهل البقاع، وكانت دمشق تتبع لها. وقيل: هي دويلة آرامية كان مركزها في صوبا، ثم انتقلت منها إلى دمشق، فأصبح اسمها آرام دمشق. تحول اسمها في العهد الروماني إلى خالكيس (عنجر)، كانت تشمل بشكل تقريبي الأراضي الممتدة إلى الشمال الغربي من دمشق حتى البقاع غرباً وحتى البادية شرقاً.

[1] محمد أبو المحاسن: ص٢٨٢.

الفصل الرابع

مملكة الآلاخ

مملكة الآلاخ[1]:

تقع هذه المملكة في سهل العمق، الذي تبلغ مساحته حوالي (٢٥ ـ ٢٠ كم²) في شمال سورية، يحد هذا السهل من الغرب سلسلة جبال الأمانوس، ومن الشمال جبال طوروس، ومن الجنوب خليط غريب من الجبال. يمر فيه نهر العاصي ماراً بأنطاكية إلى مصبه في البحر المتوسط، ويلتقي في هذا السهل نهر عفرين الوافد من الشرق، ونهر قرة صوى الوافد من الشمال.

وصف هذا السهل: بأنه كان جذاباً، إذ كانت الغابات الكثيفة من أشجار الأرز والصنوبر، تملأ جبال طوروس، وكانت المياه ترويه، وكان مناخه معتدلاً. كما تميز هذا السهل بوجود المعادن فيه كالذهب والنحاس الخام.

كان هذا السهل عبارة عن شبكة طرق، تربطه إحداها من جهة مع حلب، ومنها إلى بابل، وأخرى إلى كركميش (جرابلس)، ومنها إلى نينوى، ثم إلى آشور إلى بابل، وثالثة: تصله مع بحيرة وان، ورابعة: مع حمص وحماه إلى دمشق إلى فلسطين، ومنها إلى مصر، وبالإضافة إلى هذه الطرق البرية قامت طرق بحرية، منها خط نهري صالح للملاحة عبر وادي العاصي، يقود إلى البحر المتوسط. أما في شمال هذا السهل، فكان هناك ممر ضيق، يقود إلى مرفأ واسع، تحيط به أراضي مدينة الاسكندرونة، بالإضافة إلى طريق آخر، يوازي البحر إلى كيليكيا شمالاً.

هذا وقد تم الكشف في هذا السهل على أكثر من مائتي تل، كانت بمثابة مدن وقرى، وبعضها الآخر قلاع، يعود تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ، وبعضها الآخر إلى العصر الحجري.

ومن أهم التلال: تل العطشانة (عاصمة مملكة الآلاخ)، والذي يقع على الطريق الذي يربط مدينة حلب بحوض البحر المتوسط، وتلتقي عنده الطرق المؤدية شمالاً إلى بلاد الحثيين، وجنوباً إلى داخل سورية، زد على ذلك قربه من مدخل وادي مدينة أنطاكية، وسيطرته على طريق البحر، الذي يقوم على ساحله مرفأ، وموقع هذا التل من الطريق المذكور يربط الشرق بالغرب، وقربه من سلسلة جبال الأمانوس، يجعله قادراً على مراقبة تجارة الأخشاب، التي كانت تصدر إلى كل من مصر، وبلاد الرافدين، عن طريق سهل العمق. أخيراً كان هذا السهل (سهل العمق) يشكل في الماضي مملكة واسعة، مركزها الرئيسي هو تل العطشانة.

---

[1] توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ـ ص٣٥٨.

تل الشيخ:

بدأ التنقيب في تل الشيخ عام (١٩٧٤م)، هذا التل يقع على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الغرب من تل العطشانة على الضفة الثانية من نهر العاصي. نتيجة التنقيب في تل الشيخ كشف عن وجود اثنتي عشرة طبقة بناء مختلفة، بعضها فوق بعض، مما يدل على وجود الإنسان في هذا التل منذ القدم، وتم الكشف في هذا التل عن تمثال صغير، منحوت على حجر مصقول، يمثل الربة الأم. ارتفاع هذا التمثال (٧٧ مم)، وأقصى طول له هو (٦٨ مم)، وعرضه (٥٣ مم)، نحت بآلة حادة، لها شكل سكين مسننة، تشبه المنشار، وهذا النمط يرقى بتاريخه إلى العصور الحجرية، علماً أنه من الصعب تحديد تاريخ دقيق لمثل هذا التمثال.

أما الأبنية في التل، فهي من عصر متأخر، يعود إلى نهاية العصر الحجري الحديث، عثر في التل المذكور على أدوات حجرية غير دقيقة، وعثر أيضاً على قطع من الفخار، صنعت باليد من فخار أسود متماسك غير مزخرف، وهو لا يختلف عن فخار العصر الحجري الحديث الخاص بسورية الشمالية.

ومن السوية الحادية عشرة: تأكد أن الفخار الأسود المصنوع محلياً، كان سائداً، ولكنه كان ممزوجاً بفخار آخر، هو فخار تل حلف المطلي، الذي سمي باسم هذا التل، وفخار تل حلف المكتشف في هذا التل هو من صنع شعب أرقى حضارياً، أي أنه كان فخاراً مستورداً. وبذلك أخذ فخار تل الشيخ يتطور، إذ تركت صناعة الفخار الأسود، وأنتجت أنواع من الفخار مماثلة لما هو مصنوع في تل حلف، وخاصة في السوية الحادية عشرة، أي أن وجود فخار مستورد في تل الشيخ، يؤكد قيام تجارة دولية واسعة بين بلاد الرافدين من جهة، وسهل العمق من جهة ثانية. كما كشف عن فخار العبيد، وكان منافساً لفخار تل حلف أيضاً، وبهذا الشكل أقلع صناع الفخار في تل الشيخ عن تقليد صناعة الفخار المستورد، واعتمدوا الأسلوبين معاً، أسلوب حلف، وتل العبيد، بالإضافة إلى خبرتهم، وأخذوا يطورون هذه الصناعة.

أما فخار السوية العاشرة المكتشف في تل الشيخ، فبدأ معظمه صناعة محلية، امتاز بالأصالة والجمال. إذن أظهر صناع الفخار في سهل العمق براعة، تتناسب وعبقريتهم في هذا المجال، في الوقت نفسه ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية، وعمت منتوجات سهل العمق، و لم يقف سكان *هذا التل عند صناعة الفخار، بل تعدوه إلى صناعة الأختام المنقوشة على الحجر، أو على العظم.*

«وأما عملية الختم بهذه الأختام، فكانت تتم بأخذ قطعة من الفخار اللين، ثم تمدد على غطاء آنية، أو تمدد على عقدة حبل، يغلق فوهة سلة بشكل محكم، ثم يختم الغطاء المذكور، أو العقدة المذكورة بخاتم الملك، الذي كان حريصاً عليه من الضياع، أو الوقوع بيد العابثين»[1] أما عملية فن النحت على الحجر فكانت مطبقة وموجودة، يؤكد ذلك اكتشاف حجر هش، نحت عليه رأسان صغيران لكبشين بطريقة فنية جذابة، حيث كانا يمثلان شعاراً دينياً.

تل طبارة الأكراد:

يقع هذا التل شرق (تل العطشانة)، اكتشف فيه كسر فخارية مشابهة لنماذج كثيرة، جمعت من مواقع أخرى في سهل العمق، إلا أنها لم تظهر في تل العطشانة، أو في تل الشيخ، يقول ليونارد دللي - ص٧٧: «وأما الفخار المعروف بفخار تل طبارة، فهو ما يسمى استناداً إلى المكان الذي اكتشف فيه لأول مرة في فلسطين، بفخار خربة الكرك، وهو فخار يصنع باليد، وغالباً ما يكون سميكاً وثقيلاً، ولونه أسود، إلا أنه أحياناً يكون أحمر، وكثيراً ما يكون هذان اللونان ممتزجين، وفي جميع الأحوال، سواءً أكان الفخار المذكور أحمر أم أسود، فإنه جيد أو مصقول، وإذا زين إناء الفخار بالزينة، فتكون زينته مؤلفة من أشكال هندسية بسيطة».

هذا وقد تم العثور على هذا النوع من الفخار بكثرة في فلسطين، وفي مواقع عدة، وصفت صناعته بالتطور. هذا ويقول بعضهم: إن هذا الفخار فخار أجنبي، حمله من الأناضول أولئك الغزاة، الذين انطلقوا من بلاد الأناضول نحو الجنوب. وفخار هؤلاء الغزاة في سهل العمق كان منتشراً في أكثر من خمسين تلة من تلال هذا السهل. ويذكر: أن هؤلاء الغزاة كانوا قد سكنوا سهل العمق لمدة طويلة، حيث أكدت التنقيبات في تل الطبارة ذلك في أربع سويات.

وكشفت التنقيبات الأثرية في تل الطبارة عن سبع سويات سكنية، عثر في أربع منها على فخار خربة الكرك. أما في أسفل السوية السابعة، فقد كشف عن بناء هام من الآجر المشوي، وعن فخار مشابه، لما عثر عليه في السويات العليا في تل الشيخ، وهذا يقودنا إلى التفكير: أن تل طبارة الأكراد كان قد أصبح في يوم ما حليفاً مباشراً لتل الشيخ، وعثر في سويته السادسة والخامسة على نماذج جديدة من الفخار، يعتقد أنها كانت على صلة وثيقة مع فخار أوروك في بلاد ما بين النهرين.

---

[1] ليونارد دوللي: الآلاخ مملكة منسية - طبع دمشق ١٩٩٢ - ص٣٥.

وعثر أيضاً في السوية العليا الخامسة بفخار خربة الكرك في تل طبارة الأكراد على كسر فخارية، شبيهة بتلك التي عثر عليها في أسفل السوية السابعة عشرة من تل عطشانة.

تل العطشانة:

أكدت التنقيبات الأثرية في تل العطشانة، أن هذا التل كان عاصمة مملكة قديمة، قامت في بداية عصر البرونز قبل عام (٣٠٠٠ ق.م)، هذا وقد نقب في سهل العمق خلال سبعة مواسم في أربعة مواقع، وثلاثة في الميناء (قرية الشيخ يوسف على البحر)، تم التنقيب في هذا التل، وكشف فيه عن سبع عشرة سوية، نوجزها كمايلي:

السوية السابعة عشرة: كان سكان الآلاخ القدامى يسكنون مزارع بدائية، ومع الزمن ابتداءً من عصر البرونز، فقد أرسوا أساس مدينة، أخذت مع الزمن اسم الآلاخ، وكان أول ما شيّد في هذه المدينة بناء المعبد الذي كرسوه لربة المدينة، وعاشت هذه المدينة بحدود ألفي عام، تم خلالها بناء المعبد خمس عشرة مرة، وبنماذج مختلفة، وتم نذره لأكثر من ربة. وكشف في المعبد مكعب، مساحته خمسة أمتار مربعة، وارتفاعه أربعة أمتار. أما المكان الواقع أمام واجهة هذا المكعب الشمالية الغربية، فقد تم العثور فيه على مستودع كبير من الرماد، والعظام الحيوانية، وكسر الفخار، التي هي، كما يذكر، بقايا القرابين المقدمة للمعبد، ويعتقد أن المكعب المذكور كان مكاناً مقدساً.

وكشفت التنقيبات الأثرية في تل العطشانة، أن سويات البناء الستة العليا كان قد كشف فيها عن نواتج البيوت. بعضها في حالة جيدة، وبعضها الآخر بحالة رديئة. وأكد أيضاً: أن كل فخار هذه السوية كان قد جرى تحضيره بطريقة الدولاب[1].

السوية السادسة عشرة[2]: شُيد معبد هذه السوية فوق أطلال المعبد الأصلي، وكان أكبر ما فيه أساساته، وقد كشف فيه عن الساحة الرئيسية، التي بلغ طولها (١٨م)، وعرضها (٦م)، وأرضها مرصوفة بمربعات من الفخار، تحيط بهذه الساحة جدران من الآجر المطلي بالطينة الملساء والكلس الأبيض، ويحيط بالساحة غرف مجهولة. وكشف عن بناء مستطيل من الآجر، سقف بالخشب، كما كشف في هذه الساحة عن بئر مخصصة للقرابين. عثر في هذه السوية على

---

(١) ليونارد دولي: الآلاخ مملكة منسية ـ ص٣٦.

(٢) المرجع نفسه ـ ٣٨.

قوالب حجرية لإذابة النحاس[1]، كما عرف شعب الآلاخ طريقة تشييد الأبنية القوية من الآجر المشوي، وعثر في بيت من هذه السوية، على لوح اردوازي طري، يستعمل للكحل، شبيه بتلك الألواح، التي عثر عليها في مصر، والتي تعود إلى منتصف فترة ما قبل السلالات، وهذا ما يؤكد قيام علاقة واتصال بين شعب سهل العمق ووادي النيل، علماً أن سهل العمق كان متقدماً حضارياً في هذه الحقبة، ومتطوراً أكثر من مصر.

ليس من الضروري أن يكون هذا الاتصال اتصالاً مباشراً، ولكن هذا لا يعني أن سهل العمق كان خاضعاً في هذه الفترة للنفوذ المصري، بل على العكس فقد كان السهل متقدماً حضارياً عن مصر، إذ دلت الأواني الفخارية المطلية، التي تم الكشف عنها، والتي صنعها سكان العمق الأولون، أنها متقنة الصنع، وأنهم كانوا ينتجون آنية فخارية جذابة. وطرحوا في الأسواق نموذجاً من هذه الأواني، بقي سائداً ألف عام بدءاً من عصر هؤلاء السكان، وبقيت أشكال هذا النموذج وزينته، هي الطابع المميز الدقيق للأواني الفخارية في تل العطشانة. أخيراً إن سوية البناء السادسة عشرة معاصرة للنصف الثاني من الفترة الزمنية بتل الوركاء، والذي اتصف بالازدهار، واتسم بالإبداع.

السوية الخامسة عشرة: معاصرة لبداية فترة (جمدة نصر)[2]، والفترة التي أعقبت عصر السوية السادسة عشرة كانت فترة ركود وانحطاط.

السوية الرابعة عشرة: معاصرة لفترة (جمدة نصر)، حيث تم الكشف فيها عن نماذج خاصة بالصحون الفخارية، والتي عثر على ما يماثلها في مواقع عديدة في بلاد ما بين النهرين، وخاصة في (جمدة نصر)، حيث يؤكد ذلك وجود علاقة قائمة بين سهل العمق والعراق القديم، وأن هذا الاتصال كان نتيجة علاقات تجارية، قامت، وترعرعت، وتوسعت، وأفادت الآلاخ من هذه الحضارة.

في هذه السوية عثر على المعبد[3]، وقد أعيد بناؤه كاملاً وفق أسلوب بناء المعبد السابق، حيث قام قوياً بسيطاً على مرتفع مكوّن من تجميع وتسوية أنقاض قديمة، ويتألف المعبد

[1] ليونارد دولي: الآلاخ مملكة منسية ـ ص٣٦.

[2] المرجع نفسه ـ ص٤٠.

[3] المرجع نفسه ـ ص٤١.

الجديد هذا من: باحة أمامية، يحيط بها سور مزين بأفاريز، وله من الأمام رواق واسع، أكثر مما هو عميق، وتقوم وراءه صالة كبيرة مربعة الشكل، هي بمثابة محراب للمعبد، وقيل إن معبد هذه الطبقة: كان قد دمره حريق هائل[1]. وتم الحفاظ على المكان المخصص الذي تقبل عنده القرابين، حيث وجد في رواق المعبد فرن كبير (موقد) أما الوجه الداخلي الخاص بجدار مقدمة بناء المعبد، فتقضي طقوس المعبد أن تصل الضحية أول الأمر مشوية، ثم توضع على منصة من الآجر قائمة في قلب المعبد، تجرى عليها طقوس معينة، يدشنها الرجال.

السوية الثالثة عشرة: عثر في إحدى غرف بيوت هذه السوية على ختم أسطواني[2]، مُثّل عليه مشهد الوليمة، وهو في موضوعه وصناعته يمثل تلك الأختام، التي كانت سائدة في النصف الأول من فترة السلالات الباكرة، التي أعقبت سلالة (جمدة نصر)، والبيوت في هذه السوية قامت على مستوى أعلى ووفق مخطط مختلف.

وقد أكدت المكتشفات الأثرية أن علاقة هامة كانت بين الآلاخ وكركميش. يقول ليونارد دوللي: يعتقد أن هناك بناءً هاماً في هذه السوية، اتخذه أحد المواطنين العاديين في الآلاخ بيتاً له، قام في موقع الأعمدة الطينية المذكورة (في السوية الثانية عشرة)، وأن هذا الموقع كان بدءاً من تاريخ السوية هذه، وحتى تاريخ السوية السابعة، مكان القصر الملكي.

ويقول: أما مدينة الآلاخ، فقد اغتنت من تجارتها مع الشرق منذ أمد بعيد، وعندما قامت انتفاضة وطنية في بلاد ما بين النهرين، ووضعت نهاية لنظام (جمدة نصر)، برزت فيها ممالك المدن غنية طموحة راقية، جعلت من عصر السلالة المبكرة فترة ازدهار، قد تكون أجمل ما عرف من تاريخ وادي الفرات. إذ أصبحت التجارة المذكورة من أربح الأعمال، وأصبح ملك الآلاخ أثناءها من الأغنياء بالنسبة إلى غيره، أو أن خليفته الملك الجديد اعتلى العرش بسلام، أو من المحتمل أن ثورة، قامت في العصر الملكي، قضت بإبدال السوية الثالثة عشرة بالسوية الثانية عشرة. ومعبد السوية الرابعة عشرة جرى استعماله من جديد في السوية الثالثة عشرة.

السوية الثانية عشرة: مع سوية البناء هذه. يبدأ فصل جديد من تاريخ الآلاخ[3]، حيث تم الكشف عن كتلة معمارية دائرية الشكل مبنية بالآجر المشوي. وإلى جانب هذه

---

(1) علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة في سورية ـ ص١٩٨.

(2) ليونارد دولي: الآلاخ ـ ص٤٤.

(3) المرجع نفسه ـ ص٤٥.

الكتلة عثر على كتلة ثانية وثالثة ورابعة، ممتدة على خط مستقيم، حيث كشف عن صف أعمدة كثيرة، بنيت بالقوالب الطينية. انتصبت أمام جدار سميك، قام وراءه سطح مرتفع مرصوف بالآجر، يعلو البيوت الصغيرة القائمة على مقربة من صف الأعمدة.

وعثر على ختمين أسطوانيين من نموذج السلالات الباكرة في بلاد ما بين النهرين، مما يؤكد أن تاريخ هذه السوية، كان معاصراً لتاريخ فترة السلالات الباكرة هذه، والتي كانت الآلاخ على صلة وثيقة بها، وأن الأعمدة الطينية الواردة الذكر في الآلاخ هي صورة طبق الأصل عن مثيلاتها في العراق القديم. في مرحلة هذه السوية قرر الملك في مملكة الآلاخ: أن يشيد قصره وفق الأصول المعمارية الطينية المستمدة من العراق الأكثر حضارة، وبنى معبداً جديداً.

دامت فترة هذه السوية زمناً طويلاً، أما البيوت الخاصة فدامت زمناً أقل، بلغ ثلاث فترات سكنية متميزة، يمكن اعتبارها عائدة إلى ثلاث سويات بناء مختلفة. هذا وقد جرى تعديل معبد هذه السوية مرتين. أخيراً إن مرحلة السويتين الثالثة عشرة والثانية عشرة، يجب أن تقابل كامل المرحلة الخاصة بالسلالات الباكرة في بلاد ما بين النهرين، أي الفترة المتقدمة من الألف الثالث قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. في هذه الفترة استولى سرجون الأكادي على سهل العمق، وأمر بتدمير السوية الثانية عشرة في الآلاخ.

السوية الحادية عشرة: في هذه السوية أعيد بناء المعبد والقصر[1]، حيث اتخذ المعبد شكلاً مؤلفاً من ثلاثة صفوف من الغرف، تحيط بباحة متوسطة، وجدرانه كانت سميكة. يعتقد: أن مملكة الآلاخ في هذه المرحلة كانت قد استعادت مكانتها، وعادت إلى ممارسة الأعمال التجارية الرابحة.

السوية العاشرة: في هذه السوية أطلال قصر جديد[2]، وأعيد بناء معبد جديد بغرف مقنطرة على نمط تقليد بلاد ما بين النهرين.

السوية التاسعة: كانت معاصرة لعصر سلالة أور الثالثة، عثر في بقايا قصر هذه السوية على ختم، نقشت عليه كتابة مسمارية[3] من النموذج المعروف (كول تبه) الواقعة في منطقة كباد

[1] ليونارد دولي: الآلاخ - ص٥٠.

[2] المرجع نفسه - ص٥١.

[3] المرجع نفسه - ص٥١.

وكسيا، وهذا ما يؤكد على وجود علاقة بين الطرفين.

السوية الثامنة: عثر فيها على معبد جديد[1] واسع، لم يبق منه سوى جدرانه، وتمثل هذه السوية السيطرة المصرية على سهل العمق في عهد الأسرة الثانية عشرة، والتي دامت حتى عام (٧٩٠ ق.م)، حيث استطاع حكام الآلاخ التحرر من السيطرة المصرية.

السوية السابعة[2] : في هذه السوية تم الكشف عن أبنية كاملة ورقم، كتبت بالخط المسماري، فالأبنية التي تم الكشف عنها كانت: القصر الملكي، والمعبد، وباب المدينة. كما عثر على رقم في القصر والمعبد، زودت هذه الرقم الباحثين بمعلومات هامة، تدور حول ثلاثة ملوك هم: (حمورابي ـ باريم ليم ـ نقمند). علماً أن تاريخ هذه الرقم يعود في مجمله إلى عهد الملك با ريم ليم في حلب، والمعاصر لحمورابي ملك بابل، وقد قدرت فترة حكم با ريم ليم بين أعوام (١٧٨٥ ـ ١٧٦٥ ق.م).

في هذه المرحلة كانت مملكة الآلاخ تابعة لمملكة حلب (يمحاض)، وكان باريم ليم يحكم سهل العمق في مدينة الآلاخ، في الوقت نفسه كان وكيلاً أو نائباً لأبيه، الذي كان يحكم مدينة حلب، وبعد وفاة والده تسلم الحكم في حلب. وفي عهده كانت قوتان في الشرق. قوة البابليين من جهة، يقودها حمورابي، وقوة لارسا، وبقي يحتفظ بمملكة حلب يتبعها كل المناطق الواقعة إلى الغرب حتى البحر المتوسط.

وفي الوقت نفسه أكدت هذه الرقم: أن أبنية هذه السوية تعود إلى عصر بارليم، الذي بدأ بتشييد القصر الملكي في الآلاخ، في الوقت الذي كان فيه وكيلاً للملك المقيم في حلب، وفي عهده بعد أن استقل بالسلطة بقي مقيماً بالآلاخ، ونقل إليها شؤون المملكة، فأقام فيها، وعزز دفاعها، وكان سبب قتله أطماع ممالك بلاد ما بين النهرين في مدينة حلب.

أشاد الملك باريم ليم في الآلاخ حصناً، كان مبنياً باللبن قائماً على مرتفع، يشرف على جميع المدينة، ويتحكم بمعابرها الشمالية والغربية، ويؤلف بجبهاته الأربعة خط الدفاع الرئيسي الداخل من مدينة الآلاخ. أما في أسفل سور الحصن، فقد امتدت تحصينات مائلة، بلغ عرضها من الأعلى (١٥م)، كما قام على طرف التحصينات المائلة سور خارجي ذو ارتفاع قليل شديد الانحدار، حيث

---

[1] المرجع نفسه ـ ص٥٢.

[2] توفيق سليمان: دراسات حضارات غرب آسية القديمة ـ ص٣٥٩.

يبلغ ميله (٤٥ درجة)، وارتفاعه ثمانية أمتار.

أما باب مدينة الآلاخ الواقع في الشمال الغربي، والذي يعتقد أنه الباب الرئيسي - لأنه يقود إلى الطريق الهام، الذي يربط حلب بأنطاكية - فكان يلامس الحصن الذي يتحكم به، وكان نوع الباب الرئيسي من الأبواب التي قررتها التجارب العسكرية، وكان مماثلاً لباب مدينة كركميش الرئيسي المعاصر، ومشابهاً في شكله العام لعدد من أبواب قديمة معروفة في الشرق الأوسط.

وإلى جانب ذلك كان هناك منحدر شديد الانحدار، يبدأ من أرض السهل لينتهي إلى البرج الضخم، الخاص بالباب الواقع خلف الحصن الخارجي وجدار المدينة، أما غرف البرج العليا، فكانت تشكل ممراً يربط بين منطقتي التحصينات، وأما الطريق المار من قلب البرج، فكانت تقطعه ثلاثة أبواب، وأما بناء البرج، فكان من الطين المدكوك مدعماً بجسور خشبية.

وأما القصر الملكي فكان قائماً في زاوية من المدينة، واثنان من جدرانه الخارجية كانا يؤلفان جزءاً من سور المدينة، وهما مبنيان من اللبن، وبسماكة بلغت (٢,٤٠م)، ويرتفعان من بداية التحصينات المائلة، وحتى أطرافها العليا في ميل شديد، بلغ ارتفاعه (٩م).

وكان القسم الجنوبي الشرقي من القصر الملكي مخصصاً لعامة الناس، وكان يشكل أرضاً، طولها (٩٦م)، وعرضها (١٥م). أما الباب الوحيد في القصر، فكان يقود إلى ساحة سماوية واسعة، تبدأ من بناء القصر، لتنتهي في سور المدينة. وفي وسط الساحة كشف عن موقد عال للنار. وكان القصر مؤلفاً من قسمين، تفصل بينهما الساحة المذكورة، وفي زاوية القصر الشمالية أقيم درج كبير، يقود إلى غرف القصر العلوية، حيث كان القصر مؤلفاً من طابقين، وقد يكون أكثر، والطابق الأرضي هو أهم أقسام القصر، حيث خصص هذا القسم لخدمات القصر.

وفي هذه السوية تبين، ولأول مرة،... وجود روابط بين البناء في الآلاخ، والبناء في جزيرة (كريت)، حيث تبين أن الأسلوب المعماري المتبع في قصر باريم ليم، هو نفسه المتبع في مدينة كنوسوس في جزيرة كريت.

أما المعبد، الذي بناه باريم ليم، فقد أقامه في المكان التقليدي المخصص لإقامة المعابد فوق أطلال معبد السوية الثامنة. حيث ضم باحة أمامية كبيرة محاطة بغرف مخصصة للخدمات، وفي قلب هذه الباحة يقوم معبد مؤلف من غرفة واحدة مربعة الشكل، حيث قامت على أطرافها مصاطب مرتفعة، ومذبح متدرج مبني من حجارة بازلتية أمام المصطبة، التي تواجه مدخل المعبد، الذي بدا

مرتفعاً من خلال جدرانه الآجرية السميكة، والتي بلغت سماكتها أربعة أمتار.

وفي قلب الجدار الأمامي للمعبد قام درج، كما أقيم في قلب الجدار السميك الواقع في لب المعبد بئر شاقولية لتصريف المياه. وكان المعبد مؤلفاً من طابقين، اتخذا شكل البرج العالي المشرف على مدينة الآلاخ. وقد عثر على قطعة أثرية محطمة، عرف أنها كانت المجمرة الفخارية، التي اتخذت شكل طبل صغير، ومزينة بأشكال دقيقة تمثل الآلهة، وإنساناً محارباً واقعاً على الأرض، وعثر على شعر مستعار محطم أيضاً، وأجزاء من لحية، نحتت على حجارة طرية،

كما كشف عن أوانٍ فخارية، إلا أن الخزف الزخرفي لم يكتشف، و لم يظهر له أثر في هذه السوية.

أخيراً إن الآلاخ في هذه المرحلة كانت تابعة لملوك يمحاض (حلب)، وكانت الآلاخ مقرهم الرئيسي، إلا أنهم كانوا غرباء عنها، ورغم ذلك جلبوا إليها الكثير من الفنون، والنماذج الفخارية الجديدة، وعلى الرغم من الثراء والحضارة، التي بلغتها الآلاخ في عهد الملك باريم ليم، فإن سلالته أثارت غضب السكان وكراهيتهم. في نهاية هذه المرحلة حدثت أمور من قوى خارجية شجعت، وأعانت سكان الآلاخ على الثورة للحصول على استقلالهم، وانفصالهم عن مملكة حلب. انتهت مرحلة السوية السابعة عام (١٧٣٠ ق.م).

السوية السادسة: نتيجة التنقيب تبين أن هناك انقطاعاً في التاريخ[1]* الواقع بين تدمير السوية السابعة، وبين تشييد أول بناء في السوية السادسة. والمعلومات عن هذه السوية قليلة جداً، إلا أن هذه السوية كانت قد ورثت عن الفترة السابقة نوعاً من الأواني الخزفية السوداء المصقولة قليلاً، ولها شكل أباريق، تنقصها الزخرفة، في هذه السوية كشفت التنقيبات عن نماذج رائعة من الكؤوس الزجاجية الفينيقية المتعددة الألوان، كما كشفت عن أوان زجاجية مصنوعة من عجينة اللازورد.

السوية الخامسة: عثر في هذه السوية على خزف قبرصي[2]، يعود تاريخه إلى ما قبل عام (١٦٥٠ ـ ١٥٥٠ ق.م)، وعثر أيضاً على قطعتين خزفيتين فلسطينيتين، تاريخ الأولى هو عام (١٦٥٠ ـ ١٥٥٠ ق.م)، والثانية هو عام (١٦٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م)، كما تم العثور في نهاية هذه السوية على النماذج الأولى من الخزف الملون، الذي تمت صناعته في الشرق. في هذه المرحلة حدث

---

[1] ليونارد دولي: الآلاخ ـ ص٧٧.

[2] المرجع نفسه ـ ص٧٦.

تبدل في الآلاخ تمثل في الزحف الحثي، وأصبحت الآلاخ تابعة لهم.

أقيم في هذه المرحلة قلعة، وتم الكشف عنها، وعن صومعة للحبوب، وقبور، حوت جثثاً للنساء والأطفال، وكانت عادة دفن الموتى تحت أرضية المساكن شائعة، وعثر أيضاً على آبار. وفي هذه المرحلة غزا تحوتمس الأول فرعون مصر بلاد الشام، ووصل إلى نهر الفرات، وأقام على ضفافه نصباً تذكارياً تخليداً لانتصاراته، وبذلك تكون الآلاخ قد أصبحت تابعة للمصريين. إلا أن السيطرة المصرية على سورية لم تدم طويلاً، حيث طرد الحوريون والميتانيون المصريين من سورية، وحلوا مكانهم. وكشف في هذه السوية عن معبد، أعيد بناؤه في هذه الفترة، يتألف من باحة سماوية، وغرف للخدمات، وصالة دخول، وصالة أخرى وباب، وغير ذلك، كما عثر على ثلاث دمى صغيرة من الحجارة، ودمية خاصة لرجل وامرأة.

السوية الرابعة: يبدأ تاريخ هذه السوية قبل عام (١٤٥٠ ق.م)، وانتهى حوالي (١٣٧٠ق.م)، كشف في هذه السوية عن رقم من القصر الملكي، وأوانٍ خزفية، وأشياء عاجية معدنية، وكشف أيضاً عن القصر الملكي كاملاً، وبقايا من المعبد، وباب المدينة، وبيوت كثيرة، وقبور حوت أواني فخارية، وكان القصر المكتشف يؤلف عنصراً معمارياً متميزاً.

كما كشف في هذه السورية عن بيوت خاصة عائدة لأفراد أغنياء، لأنها شغلت أجمل حي سكني في المدينة. قام بين هذه الأبنية شارع صغير متعرج، فصلها عن سور المدينة. كما قامت بين البيوت أزقة، وجميع هذه البيوت مؤلفة من طابقين، تنفتح غرفها على الجهات الثلاث، ولكل بيت باحة.

أما ما يتعلق بقواعد الدفن، وإلى أي جهة من الجهات الأربع يجب توجيه وجه الميت، فلم تكن هناك ثمة قاعدة. عرفت هناك عادة دفن الموتى في جرار[1]، أما عادة حرق الموتى، فلم تكن معروفة في الآلاخ. أما باب المدينة فقد قام على أسس جديدة في الدفاعات العسكرية، تختلف عما كانت عليه فيما سبق، إذ قام برج صغير، لم تتجاوز أبعاده في جميع الإتجاهات سبعة أمتار. في هذه المرحلة سيطر الحثيون على سورية.

السوية الثالثة: في هذه الفترة سيطر الحثيون على سورية الشمالية. كشف في هذه السوية عن قصر. كما كشف عن جدران ممتدة على طول الطريق الشرقي من القصر، تراوحت

[1] ليونارد دولي: الآلاخ - ص١٠٦.

سماكتها بين (٢,٤٠ ـ ٥م). كانت أساساتها السفلية مؤلفة من كتل حجرية ضخمة، ومن حجارة كلسيّة.

عثر في هذه السوية على أختام حثية[1] على شكل كرة مسطحة، وهذه الأختام هي شخصية، كما عثر على رقم، تشير إلى تبدل في الأصول العرقية الخاصة ببعض السكان، كما حدث تبدل في أسماء أشهر السنة، حيث حلت أسماء الأشهر البابلية أو الآشورية، وحلت أوزان وحدات قياس جديدة.

خلال هذه الفترة قام معبد جديد على أنقاض المعبد السابق مؤلف من طابق واحد، وفي هذه المرحلة بنى الحثيون الحصن الكبير في الآلاخ، وأعادوا استخدامه في عصر السوية الثانية. انتهت هذه المرحلة بثورة قام بها الآلاخ ضد الحثيين، فكان ذلك مرحلة انتقال إلى السوية الثانية.

السوية الثانية: في عهد هذه السوية، كانت الأمور في الآلاخ هادئة ومزدهرة. أما البيوت الخاصة، فقد كانت واسعة جيدة البناء، تتألف من طابقين، للعديد منها ساحة، تنفتح غرفها على ساحة وسطى أصغر. في هذا الوقت عزز الحثيون مراكزهم في سورية.

بالمقابل: اهتم رمسيس الثاني فرعون مصر ببعث مملكة الفراعنة، وقاد قواته، فدخل سورية، وجرت معركة قادش مع الحثيين، كما ثارت حلب، وبعض المدن السورية ضد الحثيين، إلا أن الحثيين قضوا على التمرد، وبقيت الآلاخ تحت سيطرة الحثيين[2]، انتهت هذه السوية بين عامي (١٢٨٥ ـ ١٢٨٣ ق.م).

سوية البناء الأولى: في عهد هذه السوية، ظهرت القوة الآشورية على الساحة الدولية، كما حدث في الوقت ذاته أن ثارت المدن السورية ضد الحثيين بتشجيع من الآشوريين، ساعدهم على ذلك ضعف الحثيين. في هذه السوية كانت البيوت كبيرة وواسعة، وكانت نهاية الآلاخ على يد شعوب البحر[3] عام (١٩٤ ق.م)، حيث دمرت مدينة الآلاخ تدميراً كاملاً.

---

(1) ليونارد دولي: الآلاخ ـ ص١٢٧.

(2) المرجع نفسه ـ ص١٤٢.

(3) المرجع نفسه ـ ص١٥٠.

مرفأ الآلاخ:

إن الدمار الذي أصاب مدينة الآلاخ أصاب أيضاً مرفأها في مدينة الميناء (يوزيدوم) الواقع غرباً على الساحل السوري، إلا أن مرساها الهام أعيد بناؤه، فاستعاد نشاطه، واستمر في العمل بحوالي سبعة قرون، واكتشف نتيجة التنقيب أن هذا الموقع مكوّن من عشر طبقات، تراكبت فوق بعضها بعضاً، وأقدم سوية بناء فيها، تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وأثبتت أن سويات البناء العشرة الواقعة بين القرن الثامن، وحتى القرن الرابع قبل الميلاد تكاد تكون واحدة متماثلة. إذ كانت جدران الأبنية مبنية باللبنات القائمة على أساسات حجرية، ترتفع أحياناً فوق السوية الأرضية، وكانت هذه الجدران واسعة قليلاً، ولها سماكة، قدرها (٦٠ سم)، والبناء الواحد كان أكثر من طابق. وكانت البيوت تؤلف جزراً سكنية صغيرة مستطيلة الشكل، وذات قياسات متقاربة، لها في وسطها ساقية لتصريف المياه مغطاة ببلاطات حجرية. وكل بناء يتألف من باب واسع، ينفتح على الشارع، ويقود إلى باحة، لها صف من المخازن في كل طرف من أطرافها، وصف كبير آخر في وسط الباحة، وصف في نهايتها، وفي خلفها قامت أربع غرف مربعة الشكل. أما بيوت الطبقة الفقيرة، فكانت عبارة عن براكة متواضعة من اللبنات، بارتفاع طابق واحد، بجدران مطلية بالطين ودون اهتمام.

كشف فيها عن محلات تجارية لتجار مرتبطين بتجارة الاستيراد والتصدير بين آسيا وبحر إيجة. كانت محلات التجار موزعة حسب أنواع العمل، فكان قسم منها لتجارة الخمر، وقسم لتجارة الزيت، وقسم لتجارة المراهم اليونانية المستوردة، وقسم لتجارة آنية الشراب، وقسم لصانعي المجوهرات. كما كشف عن مستودعات كبيرة تجمع فيها البضائع المعدة للتصدير، والبضائع الواردة، التي أفرغتها السفن، والتي تنتظر بيعها للتجار.

ونتيجة البحث والتنقيب عرف: أن أكثر التجار كانوا يقيمون في أمكنة أخرى بعيدة عن الميناء. وتم كشف قرية الصابونية على تل، حيث عثر فيها على أوانٍ فخارية، دلت على أن هذه التلة كانت مسكونة، كما كشف فيها عن طاسات للحليب، وخاتم أسطواني، وتمثل قمة هذه التلة (اكربول) المنطقة، وفي أسفلها قامت أبنية أخرى، تؤكد أنها كانت سكناً لبعض التجار، الذين كانوا يزاولون أعمالهم التجارية في الميناء.

ذكر: أن المقيمين في الميناء كانوا من الفقراء، الذين يؤلفون حراس المستودعات وعمال

الأحواض، والبحارة وصيادي السمك، وعمال النقل، في حين كان التجار يعيشون في جـو صحـي في بلدة الصابونية، وكانوا يذهبون كل صباح إلى مكاتبهم في الميناء لمزاولة أعمالهم. وعندمـا أسـس سلوقس عام (٣٠١ ق.م) على بعد ستة كيلومترات إلى الشمال من الميناء مرفأه الجديد، المسمى سلوقية[1] (السويدية)، لم يقدر الميناء المذكور على الصمود أمام المرفأ الجديد وبذلك تكون نهاية هذا الميناء.

---

[1] ليونارد دولي: الآلاخ ـ ص١٦٦.

الفصل الخامس

إيبلا

- موقعها وأهميتها الحضارية
- علاقات إيبلا الدولية.
- التنظيمات الإدارية.
- آثار إيبلا.
- آلهة إيبلا.
- الزراعة وتربية المواشي.
- التجارة.
- الصناعة.
- ملوك إيبلا.

إيـــبـلا

موقعها وأهميتها الحضارية

تقع إيبلا على بعد ٦٠ كم إلى الجنوب الغربي من حلب، تبلغ مساحتها (٥٦ هكتاراً)، تتوسطها قلعة مرتفعة مستديرة. يقول هنري - س - عبودي: دلت الحفريات على مرور إيبلا بستة أطوار تاريخية، يعود **الطور الأول:** إلى الألف الرابع قبل الميلاد، من آثاره كسارات فخارية.

الطور الثاني: يمتد بين الأعوام (٢٣٧٥ - ٢٢٥٠ ق.م)، من آثاره قصر مبني على السفح الجنوبي الغربي للقلعة، بناه ستة من الملوك، تواجدوا في عصر سابق لسرجون الأكادي، وجد في هذا القصر تماثيل خشبية، وآلاف الألواح المحتوية على كتابات بالحرف المسماري[1] والقلم السومري، إنما بلغة سامية غربية قريبة من الكنعانية، أطلق عليها اسم الإبلية، تحتوي على نصوص اقتصادية وإدارية ودبلوماسية وأدبية صادرة ولاشك عن ديوان امبراطورية كبيرة.

كان ملوك إيبلا على اتصال بملوك أكاد وآشور وجبيل والأناضول في الطور الثاني المذكور، الذي انتهى بتدمير الإمبراطورية على يد نارام سن عام (٢٢٥٠ ق.م). ومن المعروف أن اسم مملكة إيبلا قد ورد في ألواح نفر (نيبور)، وعلى تمثال غوديا، كما ورد في لوح، اكتشف في مدينة (آرو)، يحكي قصة استيلاء نارام سن على إيبلا وأرماتو.

الطور الثالث: يمتد من عام (٢٠٠٠ - ١٤٠٠ ق.م)، أعيد فيه بناء المدينة، التي خضعت لسلطة آرو، وعرفت إيبلا بعد سقوط (آرو) ازدهاراً كبيراً في حكم الملكين (ابيت ليم - وحريش جبا)، كما سنلاحظ عند حديثنا عن ملوك إيبلا، ثم تبع ذلك مرحلة انحطاط انتقلت خلالها السيطرة في سوريا إلى مملكة حلب، وفي هذا الطور شيدت المعابد.

---

[1] مجلة الدراسات التاريخية - السنة السابعة عشرة - العددان (٥٥ - ٥٦) ١٩٩٦م - ص٩ وما بعدها.

الطور الرابع: يمتد من (١٦٠٠-١٤٠٠ ق.م)، هذا الطور يشكل مرحلة غامضة في تاريخ إيبلا.

الطور الخامس: يمتد من (١٢٠٠ ـ ٥٣٥ ق.م)، شهد عودة السكن إلى إيبلا، بعد أن هجرت قرنين من الزمان، ويتميز هذا الطور بالطابع الآرامي.

الطور السادس: ساد فيه الفرس وبنوا قصراً، ثم انتقلت السيادة إلى الإغريق ثم الرومان، فالتحرير العربي. وقيل: يقع تل مريديخ في اتجاه الطريق الواصل بين دمشق وحلب على بعد خمسة كيلومترات قبل سراقب[1] (في محافظة حلب)، بالنسبة إلى القادم إليها من دمشق أو حمص أو حماة، وعلى بعد خمسة كيلومترات بعد سراقب بالنسبة للقادم إلى حلب، يمتد التل من الشمال إلى الجنوب (١٨٠٠م)، ومن الشرق إلى الغرب (٧٠٠م)، يحتل مساحة، قدرها (٥٦) هكتاراً، وكان هذا التل مسيطراً على الممر، الذي يؤدي إلى نهر العاصي عبر جسر الشغور، ومن ثم إلى الساحل السوري. يقول الدكتور علي أبو عساف: « إن العصر الذهبي الأول في إيبلا، بدأ حوالي (٢٤٠٠ ق.م)، واستمر حتى عام (٢٢٥٠ ق.م)، كما دلت على ذلك التنقيبات الأثرية ووثائق المحفوظات في القصر[2] ».

عثرت البعثة الإيطالية في إيبلا على ثلاثة أختام أسطوانية، يرقى أسلوبها إلى فجر التاريخ. يستنتج من ذلك: أن إيبلا كانت على صلة مع سهل العمق، كيليكيا من جهة، ومع شمال بلاد الرافدين من جهة أخرى، وقدمت هذه الأختام الدليل على أن أحوال التمدن في إيبلا ترقى إلى فترة أوروك (٣١٠٠ ـ ٢٩٠٠ ق.م) على الأقل. أضف إلى ذلك بأن إيبلا احتفظت بلقب (أن) للملك، هذا اللقب الذي كان شائعاً خلال بواكير حضارة أوروك.

عملت إيبلا على استخراج الخشب من جبل الزاوية، وجبل اللاذقية، وتصديره إلى جنوب بلاد الرافدين بواسطة المواصلات النهرية، ومن المرجح أن الحاجة إلى الأخشاب في سوريا الشمالية، كانت من دواعي تأسيس مدينة إيبلا، الذي ظل اسمها مرتبطاً لفترة طويلة مع توريد الخشب، كما كان لسيطرة إيبلا على منابع المواد الخام الأخرى مثل الذهب والفضة والنحاس أكبر العوامل على توسع إيبلا السياسي.

---

[1] وديع بشور: سورية وقصة الحضارة ـ ج١ عصور قديمة ـ طبع بيروت ١٩٨٩ ـ ص١٧٩.

[2] علي أبو عساف: آثار الممالك القديمة ـ ص٢٤٦.

إذن أكدت المكتشفات الأثرية في تل مريديخ عام (١٩٧٥م) بالدليل القاطع أن هذا التل هو فعلاً مدينة إيبلا القديمة، علماً أن بعضهم حاول التشكيك في ذلك ففشل، وأن ما اكتشف من رقم في القصر الملكي، كان مصنفاً على رفوف خشبية مثبتة بدعائم مرتبة حسب موضوعاتها وهي ذات أشكال وأحجام مختلفة (مستطيلة ـ مربعة ـ مستديرة)، تتضمن موضوعات اقتصادية ولوائح قاموسية، وأصبح واضحاً، كما يذكر محمد وجيه خياطة، أن اللغة المدونة بها، هي من اللغات السامية القريبة من الأوغاريتية[١] والفينيقية، وإن كانت أقدم منها بألف عام، وقد احتار اللغويون بادئ ذي بدء في اختيار الاسم المناسب لها، فمنهم من أطلق عليها اسم اللغة الكنعانية. بينما رأى آخرون: أنها تمثل مرحلة ماقبل الكنعانية، واكتفى بعضهم بوصفها لغة سامية شمالية غربية، وأخيراً استقر الرأي على نسبتها إلى المدينة، فأصبحت تعرف باللغة الإيبلائية مؤقتاً، ريثما تتضح معالمها أكثر في إيفائها حقها من الدراسات اللغوية اللازمة، وقال: وقد استعار سكان إيبلا الكتابة المسمارية من السومريين، وكثيراً من تعابيرهم وألفاظهم، حتى باتت لغة التدوين الرسمية تشكل ثمانين بالمئة من مفرداتها، في حين اقتصرت اللغة المحلية على عشرين بالمئة فقط.

أما عن نصوص إيبلا، فيقول الأستاذ روبرت بيغس: إن نصوص إيبلا الأدبية، تتضمن قصصاً وخرافات وأساطير وأناشيد وابتهالات وتعاويذ وأمثالها، مشابهة للنصوص السومرية الأدبية المعروفة في بلاد ما بين النهرين، كما أن الآلهة (أنكي وانليل واونو واانا) الوارد ذكرها في النصوص، هي آلهة سومرية بحتة[٢]. وذكر: أن المعلومات التاريخية الأسطورية في أسفار العهد القديم، مقتبسة عن الأصل الرافدي، هذا وقد أثيرت ضجة إعلامية بعد اكتشاف نصوص إيبلا. وقال: إن وراء هذا الضجيج الإعلامي أهدافاً سياسية غير خافية على أحد، تسعى إلى ترويج هذه الاكتشافات، على أنها إبداع شعب الله المختار، وطبعها بطابع سياسي خفي، وليست هذه المرة الأولى ولا الأخيرة في استغلال الاكتشافات في صالح التوراة[٣]، فقد حدث مثل هذا عند اكتشاف رواسب فيضان حلي في مدينة أور الواقعة جنوب بلاد مابين النهرين، حيث رأى فيها أصحاب الاجتهاد طوفان نوح، الذي تحدثت عنه التوراة، ثم ما لبث أن طرح الزمن هذا التفسير كغيره من الادعاءات المفترضة، التي ليس لها ما يدعمها علمياً بوسائل البحث العلمي.

---

[١] مجلة دراسات تاريخية ـ السنة السادسة عشر ـ العددان (٥٣ + ٥٤) ص١ وما بعدها.

[٢] مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الأربعون ـ ١٩٩٠ ـ ص٢٩.

[٣] علي القيم: امبراطورية إيبلا ـ طبع دمشق ١٩٨٩ ـ ص٣٤.

ويقول جورجيو بوتشلاتي (جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلس)، في مقال نشر في مجلة الحوليات الأثرية السورية المجلد الأربعين، بعنوان مجموعة كتابات إيبلا الالكترونية: تحضرني الآن المفارقات المضحكة ما بين الموقف السوري الكريم المتسامح، ووسائل الإعلام الأميركية، وهذه الأخيرة اختلقت قصصاً وأكاذيب ملفقة عن اضطهاد الحكومة السورية للباحثين الأجانب، وتضييق الخناق عليهم، وكان من بين تلك المزاعم، كما تدعيها بعض متاحف كاليفورنيا، بأن الحكومة السورية أمرت بإتلاف وثائق إيبلا، ورميها في النفايات. وانطلاقاً مما تقدم، أعلن هنا من على هذا المنبر في محافظة إدلب: بأن نشر الدراسات والرقم المسمارية الإيبلائية بطريقة الالكترون كان وما يزال يلقى الدعم عبر تلك السنوات، والمشروع يسير بخطاً متسارعة نحو هدفه دون أية عوائق أو حواجز من قبل الجانب السوري، ولا ريب بأن البعثة الأثرية الإيطالية العاملة في سوريا عانت الشيء الكثير من جراء تلك الافتراءات.

وتشير الوثائق المكتشفة في إيبلا إلى أن أسماء الأشخاص، الذين كانوا يتكلمون لغة سامية، قريبة الصلة بأولئك، الذين سكنوا إلى جانب السومريين إبان فترة السلالات الباكرة والفترة الأكادية. أي: أن اللغة السومرية الباكرة، التي ذكرتها النصوص المكتشفة، لا بد أن تكون اللغة السائدة في إيبلا وما حولها من قرى ومزارع.

في عام (١٩٦٤م) بدأت التحريات في إيبلا[1] (تل مريديخ)، وفي عام (١٩٦٨م) تأكد أن إيبلا هي تل مريديخ، وفي عام (١٩٧٥م) كان اكتشاف القصر الملكي، الذي تم العثور بين أنقاضه على اثنين وأربعين لوحاً طينياً منقوشاً على الحجر المسماري، وفي نفس العام عثر على المكتبة الملكية[2]، وقد صنفت حسب مواضيعها المعجمية (الأدبية والإدارية والقضائية). والقسم الأعظم منها كان مسك الدفاتر وتسجيل حسابات، تتعلق بشؤون المال والاقتصاد، إلى جانب قسم محدود نسبياً من النصوص الشرعية. أما النصوص التي تعالج مسائل سياسية، فهي نادرة للغاية[3]. يبلغ عدد هذه الرقم (١٦٥٠٠ رقيم)، منها (١٨٠٠ رقيم كامل، و٤٧٠٠ جزء رقيم)، وحوالي عشرة آلاف كسرة كبيرة أو صغيرة.

والألواح المكتشفة في إيبلا تحتوي على عدد واسع من المعاهدات الدولية مع الدول

---

[1] علي القيم: امبراطورية إيبلا ـ ص١٣.

[2] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٣٣) ـ ج١ ـ ١٩٨٣ ـ ص١٢.

[3] عفيف بهنسي: وثائق إيبلا ـ طبع دمشق ١٩٨٤ ـ ص١٢.

العظمى آنذاك، وعلى رأسها دولـة آكـاد. كمـا تضمنـت هـذه الألـواح مسـائل قضائيـة وسياسـية وتقارير عن قـواد عسكريين، وتقارير من مبعوثين عن الضرائب المدفوعة مـن قبـل الحكومـة التابعـة لدولة بابل، كما احتوت وثائق تجارية ونصوصاً أدبية ودينية. كشف ضمن هذه الوثـائق عـدد مـن المعاجم، اعتبرت أقدم ما عرف لترجمة مفردات من اللغة السامية إلى اللغـة السـومرية وبـالعكس. إذاً كانت إيبلا مركزاً للرخاء الاقتصادي، حيـث كـانت تصـدر إلى الـدول المجاورة: النسـيج والمعـادن المصنعة.

كانـت إيبـلا تحكم من قبـل حكـام (ملـوك)، وكـان ولي العهـد يدير القضايـا الداخليـة، بينمـا يديـر الأمـير الثـاني السياسـة الخارجيـة. وأشـارت الوثـائق المكتشـفة إلى أن الحكـام كـانوا قـد اتخـذوا عـدة زوجات، وأكـدت أن أحدهم قـد أنجب ثمانية وثلاثين ولداً، وكان يعطـي أولاده، عندما يكبرون ولاية المقاطعات أويعطيهم عند الزواج مدناً كمهـر لزواجهـم. أمـا العدالـة في إيبـلا فكانت تطبق من قبل كاهن.

وعن المرأة والزواج في إيبلا، تدل الألواح المكتشفة أن مدناً، قدمت بمثابة مهر لزواج أميرات (أبلويات)، كتلك التي تتضمن مرسوماً ملكياً، يشير إلى أن مدينة (إيجار) على الفـرات، كـانت قـد أهديت إلى إحدى أميرات إيبلا، واعتبرت مهراً لزواجها. كما أكد الباحثون: أن شعب إيبلا اعتمـد قانوناً يعالج الحالات المتصلة بالعلاقات الجنسية غير الشرعية، وكان الجزاء مختلفاً على حسب الجرم، فمثلاً كانت عقوبة من يضاجع امرأة غير متزوجة غرامة، مقدارها ثلاثة ثيران، تدفع لولي أمر الفتاة، أما إذا كانت الجريمة اغتصاباً لفتاة عذراء، فتكون العقوبة الرجم حتى الموت. وأكدت على أن المرأة كانت مساوية للرجل على صعيد السـلطة، وفي المنـاصب الدينيـة. علمـاً أن التمـايز بـين النسـاء في المجتمع الإبلوي كان موجوداً، فمنهن من كانت في سدة السلطة كالملكة (زوجة الملـك) والأمـيرات وسيدات البلاط، وبعضهن كنَّ من الطبقة المتوسطة، وبعضهن كنَّ من العامة، وبعضهن الآخـر مـن الرقيق.

إن إيبلا القوية، التي بلغ تعدادها (٢٦٠) ألف إنسان، كانت قد توسعت حتى حدود سـيناء في الجنوب مشتملة سورية وفلسطين ولبنان وقبرص، بالإضافة إلى بلاد الرافدين. أخيراً إن اكتشـاف إيبلا ذو أهمية لكل العرب، لأنها تكشف وبصدق عن عمق الجذور للحضارة العربية سواءً أكـانت أكادية أم فينيقية أم مصرية.

أما لغة الألواح فهي محلية أصلية، تمتاز عن جميع اللغات القديمة، وإن كانت قريبة من الأكادية، لذلك سميت باللغة الإيبلائية، وهي لغة سامية عريقة في القدم، وبذلك تعتبر أقدم لغة، وصلت إلينا مكتوبة حتى الآن. وقد أثبتت التنقيبات: أن هذه المكتبة، قد هدمت مع القصر، وأحرقت من قبل نارام سن الملك الأكادي عام (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م)، والمكتشفات في إيبلا أكدت على أن مملكة إيبلا كانت في العهد السوري القديم (٢٠٠٠-١٨٠٠ ق.م) مركزاً حضارياً هاماً في شمال سورية، كما كانت أعظم قوة سياسية في المنطقة، سبقت في ذلك كلاً من مملكة حلب خلال حكم الملك شمش حدد الأول في آشور، والملك حمورابي في بابل[1]*.

وأثبتت الوثائق المكتشفة مؤخراً في إيبلا أن هذه الدولة كانت قد لعبت دوراً أساسياً في مناطحة الدولة الأكادية في بلاد الرافدين، فقد ذكرت هذه النصوص أن إيبلا كانت قد حققت انتصارين على دولة ماري (تل الحريري)، وكان سبب النزاع بين هاتين الدولتين، هو السيطرة على طريق التجارة، الذي هو نهر الفرات والذي تقع على ضفافه مدينة ماري.

أما الدافع الأساسي للصراع بين مملكة إيبلا ومملكة أكاد، فكان يكمن في السيطرة على تجارة المعادن المستخرجة من الأناضول، وتجارة الخشب من غابات الساحل السوري. ومن المعروف أن المعادن والخشب كانتا المواد الأساسية، التي قامت عليها الحضارة في بلاد الرافدين، حتى أن أكاد في بعض مراحلها اضطرت إلى دفع الجزية إلى ملوك إيبلا، لذلك عندما حاولت إيبلا سد المنافذ على أكاد في عقر دارها، كان رد الفعل عند الملك الأكادي نارام سن قوياً وعنيفاً، لذلك جهز قواته، وهاجم إيبلا، فاحتلها، ودمرها، وأحرق قصرها.

إذن كانت إيبلا قوة سياسية، أثبتت وجودها وهيمنتها على بعض بلدان الدول المجاورة، إما مباشرة عن طريق تنصيب حكام مباشرين على الدول الهامة، كما حدث في حلب بتنصيب الولاة من الزعماء المحليين، وكما حدث في مدينة ماري، أو عن طريق عقد تحالفات سياسية، كما حدث مع الدولة الآشورية.

كانت إيبلا كما هو معروف، تستمد قوتها السياسية من قوة اقتصادها، وأكدت النصوص المكتشفة في إيبلا أسماء الكثير من المدن، التي كانت تتعامل معها تجارياً. إذن أكدت المكتشفات الأثرية أن إيبلا كانت إحدى الدولتين العظميين في الشرق الأوسط القديم، وكانت مزاحمة لأكاد

---

[1] عفيف بهنسي: وثائق إيبلا ـ ص١٦.

خلال الفترة الواقعة ما بين سني (٢٣٥٠ ـ ٢٢٥٠ ق.م).

"لقد أثارت مكتشفات إيبلا ضجة عالمية، فصحيفة التايم ذكرت في عددها الصادر يوم الجمعة في تشرين الأول عام (١٩٧٥م) خبراً بعنوان (محفوظات عن دولة مجهولة)، اكتشفت بسورية. وأوردت صحيفة الفيغارو الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ (٢) تشرين الثاني (١٩٧٥م) خبراً بعنوان (أقدم المحفوظات في العالم) اكتشفت في سورية، وذكرت صحيفة لوموند بتاريخ (١٩٧٥/١/٣١) خبراً بعنوان (ألواح فخارية مكتشفة في سورية)، تثير ثمة تساؤلاتَ. ثم عادت نفسها (لوموند)، ونشرت في (١٩٧٦/٣/٣١)، خبراً بعنوان (امبراطورية بعثت من أعماق النسيان).

وذكرت صحيفة الديلي أمريكان ساتاردي عدد نوفمبر (١٩٧٥م) خبراً بعنوان (الإيطاليون يعثرون على أقدم المحفوظات) في سورية، ونشرت صحيفة انترناشيونال هير الدربيون في (١٩٧٦/٤/١) نبأً بعنوان (الكتابة باللغة المسمارية تكشف الحجاب عن لغة) في موقع في سورية. كما تحدثت صحيفة واشنطون ستار (١٩٧٦/٦/٥) عن هذا الكشف القيّم.

أما الصحف العربية فقد تناولت الحدث بأهمية بالغة، فمن سورية تناولت صحيفة البعث بعنوان (إيبلا العاصمة المفقودة منذ أربعة آلاف عام)، وجريدة تشرين ذكرت في (١٩٧٧/٩/٢٠) عنواناً: مملكة إيبلا تثير جدلاً في المحافل العلمية والأثرية والدولية. ومقال في البعث (١٩٧٧/١١/١١) ـ بعنوان (حضارة إيبلا أعظم اكتشاف أثري في هذا القرن). وكتب مقال آخر في البعث العدد (٤٣٧١) تاريخ (١٩٧٧/٥/١٩) ـ بعنوان (لوحات تل مريديخ) الـ ١٥ ألفاً تضيء حضارة المنطقة وتاريخها قبل (٤٥٠٠) عام، ومقال في جريدة الثورة تاريخ (١٩٧٧/٨/١٩) بعنوان (مكتشفات أثرية وحضارية جديدة في سورية). وفي جريدة الأهرام تاريخ (١٩٧٥/١/٤) بعنوان (كشف هام لبعثة إيطالية يعيد كتابة التاريخ المبكر لمنطقة الشرق الأوسط). ومن الكويت مجلة العربي ذكرت هذا الاكتشاف في العدد (٢٢٦) إيلول (١٩٧٧م)، بعنوان (الحملة الصهيونية استغلال كشف مملكة إيبلا السورية). وفي عام (١٩٨٠م) أنتج فيلم أميركي عن وثائق إيبلا.

بعد اكتشاف ألواح إيبلا، ظهرت الصهيونية على الساحة الأثرية، وحاولت تغيير الحقيقة التاريخية المكتشفة لأسباب سياسية، وأن تؤكد على علاقة إيبلا بالتوراة من جهة، وعلى أن التوراة مصدر تاريخي، وبالتالي تأكيد تاريخ اليهود وربط المنطقة به، من جهة ثانية، لكن علماء الآثار

أكدوا بصراحة زيف الإدعاء الصهيوني، الذي يحاول بكل الوسائل مطابقة التاريخ القديم للتوراة، وعندما فشلت الصهيونية بمساعيها، لجأت إلى التخطيط لتنفيذ مؤامرة خطف رقم إيبلا، إلا أنها فشلت أيضاً.

الحقيقة التاريخية أنه من الواجب إعادة دراسة العهد القديم على ضوء مكتشفات إيبلا، لأن إيبلا تسبق كتابة العهد القديم أكثر من ألف عام، وإن التوراة كتبت بعد عهد موسى بوقت طويل، ومن المعلوم أن التوراة خطة رجل الكهنوت اليهودي خلال الفترة الواقعة ما بين (٥٨١ ـ ٥٣٩ ق.م)، أي بعد السبي البابلي في أرض المنفى قرب بابل، كتبت التوراة الأولى باللغة الآرامية وبقلم مربع آرامي، معتمدين في كتاباتهم على العقائد والآداب السائدة في بلاد الرافدين، وقد أظهرت المكتشفات الأثرية أن سفر التكوين شديد الشبه بالأفكار البابلية القديمة، التي وردت في أساطيرهم عن نشأة الكون.

والتوراة لم تتناول أحداث التاريخ القديم، إلا ضمن الحدود، التي تخدم التاريخ اليهودي أو الأساطير اليهودية، وإن هذا التاريخ المحدود لا ينطبق مع المكتشفات، لا من حيث الوقائع والأسماء، ولا من حيث التاريخ وتسلسله، لقد كان هَمُّ مدوني التوراة التأكيد على أن ما دوّن في التوراة من أحداث تاريخية هي أحداث الإنسان في بداية التاريخ، وربطوا وجودهم بهذا التاريخ، وجعلوا من ابراهيم الخليل أبا الأمم وبداية للوجود المتحضر.

أخيراً لكي ندحض الصهيونية بكل مزاعمها من جهة، ولنقد التوراة تاريخياً وبشكل سليم، لا بد من عوامل عديدة. أولها: الاستمرار في عملية التنقيب، وهذا ما يحدث. العامل الثاني: يجب أن يكون المشرفون والمنقبون على عملية التنقيب عرباً دون غيرهم تحديداً، الثالث: يجب أن يكون علماء الآثار العرب متقنين للغات القديمة، وهم وحدهم الذين يقومون بفك هذه الوثائق المكتشفة دون الاعتماد على غيرهم، يضاف إلى ذلك الحرص كل الحرص على المكتشفات الآثرية منذ فترة التنقيب حتى حفظها وصيانتها.

السؤال لماذا اعتبرت التوراة مصدراً للتاريخ القديم؟ قد يكون قديماً بعد وضعه مباشرة، نظراً لما أضفوا عليها من قدسية، فقد اعتبر خلال قرون طويلة المصدر الأساسي للتاريخ دون المس بمضمونه، رغم ما فيه من تناقض سواء أكان تاريخياً أم دينياً أم سياسياً أم اخلاقياً أم جغرافياً أم غير ذلك، كيف نعتبر التوراة كتاباً مقدساً وهو بسرده للأحداث يصور الأنبياء وقد تخلوا عن القيم التي

وجدوها أصلاً من أجل تثبيتها؟ فمثلاً النبي ابراهيم الخليل الذي اتخذ موقعاً صلباً وراسخاً أمام النمروذ، وثابتاً على موقفه غير هياب من بطشه، داعياً إلى التوحيد[1]، نراه يطلب من زوجته سارة، بعد أن ترك أرض فلسطين، لقحط حدث فيها، واتجه إلى مصر، ألا تعترف بأنها زوجته بل أخته خوفاً على نفسه من القتل وخوفاً عليها من السبي. هذا الموقف المناقض لقيم النبي ابراهيم الخليل يبعث على التساؤل، ما هو الغرض من هذا الوضع ؟ ومتى تحرك النبي ابراهيم إلى مصر؟ ولماذا إلى مصر بالذات؟ الحقيقة التاريخية أنه لم يتجاوز سيناء في حركته هذه، ولم يدخل مصر، وستثبت الحقائق التاريخية في المستقبل صحة ذلك.

من جهة أخرى تذكر التوراة المرأة والزنى والفساد الأخلاقي والعلاقات الجنسية الفاسدة حتى بين الأنبياء، أي عقل يقبل ذلك التدوين، ويعتبره مقدساً ؟ المطّلع على التوراة يلاحظ أنها وضعت لتكّون تاريخاً، بدلاً أن تكون كتاباً مقدساً منزلاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأحداث أخرى منها: أن ابراهيم الخليل لم يكن أبا الأمم، وإنما كان أبا الأنبياء، وجعله الله إماماً، يقيم حدود الله في خلقه، وابراهيم الخليل لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، إنما كان مسلماً حنيفاً أي أن ابراهيم كان نبياً، لم يبحث عن تشكيل شعوب وأقوام، وإنما كان يبحث عن تثبيت الدين الحنفي الصحيح ونشره وترسيخه. وتلك مهمته، وهكذا كانت مهمة أبنائه اسماعيل واسحاق ومن تلاهم من الأنبياء.

أما قصة يعقوب (اسرائيل)، الذي تنتسب إليه اليهود، والمخاطبة الواردة في التوراة كانت موجهة إلى أبناء يعقوب وحدهم، ولم يكن المقصود بها شعب اسرائيل لا في الماضي ولا في الحاضر، وما قصة يوسف إلا تأكيد على ذلك، يروي رؤياه لوالده يعقوب: (رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين)، فهو اختص بحديثه أبناء يعقوب فقط لا غير.

ثم إن تمرد أبناء يعقوب على أبيهم حسداً منهم ليوسف، ومحاولتهم قتله، أو رميه في الجب، والمؤامرة التي حاكوها كما تقول التوراة، وتوجه يوسف إلى مصر مع بعض المارة، بعد أن انتشلوه من الجب، وقصته مع امراة العزيز، ودخوله السجن وخروجه وتسلمه زمام الأمور في مصر، لدليل على ما سبق. تذكر الكتب السماوية عدله وصدقه وإيمانه وعدم تفريقه بين الناس بالمعاملة، وهذا يبرهن على أن انتماءه كان للبلد الذي عاش فيه، أما عدله في حكمه، فكان عاماً دون تحديد، كما

---

[1] ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم.

ورد، إلى أن كانت النتيجة اجتماعه بإخوته وأهله.

بعد يوسف وإخوته يطوي التاريخ هذه الأسرة دون المرور على ذكرها، حتى كان مبعث النبي موسى عليه الصلاة والسلام، فموسى بعث نبياً، ينشر ديناً، أمره الله بنشره، ولم يبعثه منقذاً لفئة، ادعتها الصهيونية هي شعب إسرائيل، كانت الغاية من بعثه إنقاذ البشرية جمعاء من الضلال والفساد الجاري فيها، وإعادة دين التوحيد لا إعادة شعب معين هو شعب اسرائيل، كما ادعت الصهيونية.... وقصته التي ترويها الكتب السماوية، تؤكد أنه كان ينفذ أوامر الله، التي تعود على البشرية جمعاء بالخير والرفاه، وليس لفئة معينة دون غيرها، ثم إن الذين اتبعوه في مصر لا يعني أنهم من نسل يعقوب فقط، فهل السحرة كلهم أحفاد يعقوب؟ هذا لا يمكن أن يكون. إنما اتبعته فئة عامة من شعب مصر، آمنت به نبياً مرسلاً من الله، وأكد بآيات أثبتت ذلك. وما تركه مصر ومطاردة الفرعون له إلا صراع ديني لا صراع سياسي، وهذه حقيقة تاريخية. من هذا يمكن اعتبار الذين اتبعوا موسى، وآمنوا معه وهاجروا معه فيما بعد، هم الذين تتحدث عنهم التوراة، وكل ما سبق هذا الحدث لا أساس له من الصحة. إنما هو وضع أحبار اليهود بعد السبي البابلي، وهو وضع مُلفق، ينم عن حقدهم على شعب المنطقة، لأنهم يحملون كتاباً، اعتبروه مقدساً، وهو من وضعهم، وأوهموا العالم بقدسيته. وفي ذلك استجداء للشعوب للعطف عليهم واعتماد قضيتهم، واعتمدوا منذ البدء كل الوسائل لتحقيق مأربهم القائم على الادعاء والتزوير والكذب.

ثم إن قصة الدولة التي يتحدثون عنها في عهد داوود وسليمان، لم تتجاوز القرن، وكان امتدادها لا يتجاوز المنطقة المحيطة بأورشليم، وما امتداد هذه الدولة، التي يتحدث عنها بعض الرواة، إلا امتداد لدين داوود وابنه، لا امتداد لسلطته التي تدعيها الصهيونية الحديثة. عندما قامت هذه الدولة الصغيرة، كان على الأرض العربية امبراطوريتان واسعتان وحضارتان راقيتان، هما: حضارة بلاد النيل، وحضارة بلاد الرافدين، وهما الحضارتان الوحيدتان اللتان سادتا العالم، وبعد هذه الدولة التي شكلها داوود وابنه، لم يقم لليهود دولة إلا دولة المدينة التي لا تتجاوز حدودها. وهذا الواقع عاشه السومريين قبل ذلك بآلاف السنين.

من المعروف أن نبوخذ نصر هو الذي سباهم، وأن عددهم أثناء السبي لم يتجاوز خمسة آلاف، استوطنوا بابل وضواحيها، خلال هذه المرحلة كتب رجال الدين اليهودي التوراة، ورسموها كما حلموا أن تكون معتمدين كتب رجال الآداب البابلية في سردهم للأحداث.

ومن المعروف أن يهود السبي البابلي، عملوا في كل المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية، يضاف إلى ذلك تركت لهم حرية المعتقدات، فقد كتبوا التوراة حسب طريقتهم وأسلوبهم بشكل يخدمهم، إن السبي حقيقة يؤكدها العلم، ثم إن الدولة الفارسية فيما بعد سمحت لهم بالعودة من السبي حسب رغبتهم، وقد استجاب بعضهم ورفض بعضهم الآخر.

والمكتشفات الأثرية تكشف يوماً بعد يوم: أن التوراة، التي وضعت في بابل، وطورت[1] فيما بعد حسب معتقداتهم، ما هي إلا وضع رجال الكهنوت، رسموا دولة، وأعطوها صفة القدسية، ونسبوا هذا الكتاب إلى النبي موسى، حتى يعطّوه صفة القدسية، كيلا يجرؤ أحد على نقده، أو نفي ما فيه.

علاقات إيبلا الدولية:

أكدت الوثائق المسمارية، التي خلفها سرجون الأكادي (٢٣٠٠ ق.م)، أن جيوشه وصلت مدينة إيبلا البعيدة في حملته الرابعة والثلاثين، أما وثائق نارام سن (٢١٥٠ ق.م)، فتؤكد أيضاً وصول القوات الأكادية إلى إيبلا، وعدم سبق أحد إلى فتحها، هنا يوجد تناقض بين وثائق سرجون من جهة، وكتابات نارام سن من جهة أخرى، علماً أن وثائق إيبلا لا تذكر اسم سرجون ولا اسم نارام سن، إنما تذكر اسم مدينة كيش، وأنها كانت على علاقة حسنة معها، وأعتقد: أن الامبراطورية الأكادية في عهد سرجون، كانت قد شملت إيبلا وما بعدها، كما أن نارام سن هو الذي قضى على إيبلا، ودمرها.

أما عن علاقات إيبلا مع مصر، فقد عثر في أنقاض القصر الملكي على عدد من الأواني الحجرية المصرية، من جملتها زبدية من حجر الديوريت، تحمل اسم الفرعون خفرع، وغطاء آنية من الأباتر، تحمل اسم الفرعون بيبي الأول (الأسرة السادسة) المميزة، ولم يعثر على مثل هذه الأواني خارج مصر إلا في جبيل على الساحل السوري.

ومعروف أن جبيل كميناء على الساحل، كانت على علاقة تجارية مع مصر[2]، وكانت جبيل تابعة للمصريين خلال هذه المرحلة، ولما كانت الوثائق، التي اكتشفت في إيبلا لا تذكر اسم الفراعنة المصريين الوارد ذكرهم، لذلك يمكن الافتراض أن تكون هذه الأواني قد قدمت، إما هدية

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٤٠) ـ ١٩٩٠ المجلد كله عن إيبلا.

[2] هشام الصفدي: تاريخ الشرق القديم ـ ج١(الوجيز في تاريخ حضارات آسية العربية) ـ طبع دمشق١٩٨٤ ـ ص١٩٧.

لملوك إيبلا، أو أنها كانت غنيمة حرب، أو أن النصوص المكتشفة في إيبلا لم تذكر مثل هذه العلاقة، أو أنها ذكرتها، و لم يعثر عليها بعد، لأن الكثير من الرقم كان مهشماً، وبعضها الآخر مكسراً إلى قطع، و لم يصل أحد بعد إلى حل لترجمة مثل هذه الرقم.

وأنا أعتقد: أنه كانت هناك روابط حسنة بين إيبلا ومصر، لأن إيبلا كانت في حرب مع الكلدانيين، مما يجعل علاقتها جيدة مع مصر. وقد تكون لجبيل والقوات المصرية المقيمة فيها دور بارز ومهم في هذه العلاقة.

التنظيمات الإدارية:

يعتقد: أن المنطقة التي خضعت لنفوذ إيبلا المباشر، كانت تمتد من حماه غرباً إلى ما وراء الفرات شرقاً، بما في ذلك مدينتي إيمار: وهي مسكنة (بالس)، وكركميش (جرابلس)، ويعتقد: أن منطقة البليخ (بين الرقة وتل الأبيض)، كانت تحت سيطرة إيبلا، تتألف المدينة من قسمين رئيسيين، يضم القسم الأول: القصر الملكي والمباني الإدارية، وهذا القسم يقع فوق رابية متوسطة، ويتألف هذا القسم من قصر الملك وقصر المدينة (السراي)، الإسطبلات، دار البلدية والخدمات. أما القسم الثاني: فيضم أحياء المدينة، التي تنتشر في السهل المحيط بالرابية المتوسطة، يحيط بالمدينة سور، ويخترق السور أربعة أبواب. ويتألف القسم الثاني من أربعة أحياء لكل منها نظار ومعاونون للنظار، ويشرف على نظار الأحياء الأربعة جهازان تفتيشيان. الأول: برئاسة مفتش، يشرف على الحي الرابع، يساعده عشرون محافظاً. **أخيراً**: تسلط نصوص إيبلا الأضواء بصورة رئيسية على الهيكل الإداري[1] والنظام المالي والتكامل التجاري، وتنظيم شؤون الأضاحي وشؤون المحاكم والقضاء، وهذا يكشف عن فن المخاطبة الرسمية والتدوين الحكومي.

آثار إيبلا:

كشفت البعثة الأثرية الإيطالية معالم معمارية، نذكر منها ثلاثة قصور. **الأول**: يرقى إلى النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد، وهو القصر، الذي ظهرت فيه السجلات المسمارية الملكية، **الثاني**: في الجزء الشمالي من التل الرئيسي، **الثالث**: في الجزء الغربي من التل، والثاني والثالث

---

[1] باولوماتييه ـ الفونسوآركي ـ جوفاني بيتيناتو ـ بيلوفرانزاورلي أدمونوسوليرجر ـ دينس ادنسارد ـ قاسم طوير ـ إيبلا ـ عبلاء ـ الصخرة البيضاء ـ طبع دمشق ١٩٨٤ ـ ص٤٤.

يعودان إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، كما كشف عن سور المدينة وبابين من أبوابها يرقى ذلك إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

فالقصر الأول: يقع على المنحدر الجنوبي الغربي للتل، وكشف عن أجزاء هامة منه، ويتقدم القصر (كما يذكر الأستاذ قاسم طوير) باحة شرف كبرى، تحف بها أروقة ظليلة، محمولة على أعمدة سميكة من الخشب، وتطل هذه الباحة على أرجاء المدينة الغربية والجنوبية الغربية. وفي الرواق الشمالي تقوم مصطبة، كان الملك يتربع فوقها أثناء المراسم الرسمية، ويتصل هذا الرواق في ضلعه الشرقي بمدخل، له درج، يقود إلى أجنحة القصر في الخلف، وفي ظهر الرواق الشرقي يوجد مدخل كبير، له درج مهيب، يربط بين باحة المراسم وأجنحة القصر الإدارية والسكنية، كانت السجلات المسمارية الملكية موجودة في حجرة، اقتطعت من أصل الرواق الشرقي.... نجد أن القصر كان مجمعاً إدارياً وسكنياً مغلقاً ومستقلاً، ويعتمد على الطريقة المغلقة في التخطيط، أي اللجوء إلى الانسجام المنهجي والاستعمال المتتالي لنماذج منسقة، تلتفت حول باحة مركزية.

أما عن القصر الغربي، إلى الغرب من التل الرئيسي، ومساحته (٧٣٠٠ م^{٢})، يصل طول ضلعه من الشمال إلى الجنوب (١٥م^{٢})، ويتراوح عرضه بين (٦٠ ــ ٧٠) من الشرق إلى الغرب، وقد تم بناؤه في المرحلة الواقعة ما بين (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م)، أي الحقبة الأولى من عصر البرونز الوسيط.

والقصر ككل يتألف من تجمع وحدات سكنية، ولكل وحدة سكنية باحة خاصة بها، فهي تتألف من وحدات سكنية أصغر مساحة، وترتصف حول باحة مركزية، ومن الخصائص الأخرى للقصر الغربي، نذكر أيضاً ترتيب الغرف، فهي تتعامد مع الجدار الخارجي للقصر.... وحركة الانتقال داخل القصر الغربي من النوع المتميز، فالمداخل المفتوحة في جانبي كل باحة من باحات الوحدات السكنية تخلق نوعاً من الدوران غير المنقطع في كافة أرجاء القصر، كما أن هناك ثلاثة أو أربعة مدارج تستند على الجدار الخارجي للقصر، مهمتها تأمين الوصول إلى الطابق الثاني الخاص بالسكن، أخيراً يعتقد أن هذا القصر كان قد مر بعدة مراحل من التدمير والتعديل، مثل سد بعض الأبواب، وترميم جوانب الممرات، وغير ذلك عبر التاريخ حتى ما قبل القرن الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

في عام (١٩٨٦م)، تم اكتشاف بناء ملكي جديد ذي أهمية بالغة في إيبلا، حيث وجدت آثاره واضحة في المراكز وفي المناطق الشمالية، في حين كان مدمراً تدميراً كاملاً، وخاصة في الغرب وفي الحدود الشرقية، وقد اصطلح على تسميته القصر أو القصر الشمالي[1]. ويعود هذا القصر بمعظمه في شكله الحالي إلى عصر البرونز الثاني، وقد أصابه الخراب والتدمير حوالي (١٦٠٠ ق.م)، وتبلغ مساحته الإجمالية (٣٥٠٠م٢).

يقتدي هذا القصر في مخططه بمخطط البيوت السكنية المكثفة في تل مرديخ (إيبلا) نفسها. إذ يتألف من باحة كبرى، تطل غرفتان على ضلعها الخلفي، وهما تتعامدان مع الباحة.

هذا وقد عثر على عدد كبير من المرصعات العاجية المحطمة إلى أجزاء دقيقة بتأثير حريق، ترك بصماته الواضحة عليها فوق أرضية أحد القصر، والتي تنتمي إلى العصر البرونزي الوسيط الثاني، وتتألف هذه اللقى من مجموعة تصاوير إنسانية وحيوانية، إلى جانب شعارات ورموز دينية، هذا وقد استخدم الفنان أداة عادية، ذات نهاية دقيقة في حفر تفاصيل الموضوعات..

بهذا جاءت مكتشفات مرصعات إيبلا، لتكون برهاناً أكيداً على وجود مثل هذه الصناعات الحرفية العاجية في سورية وفي عهود أقدم، هذا و لم يقتصر اكتشاف القطع العاجية على موقع بعينه، إنما تكرر اكتشافها في مواقع كثيرة، وإن هذه القطع ذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفنون في سورية، خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد.

واكتشف أيضاً: أن المرصعات العاجية هذه، كانت متأثرة بالأسلوب المصري، مما يؤكد وجود علاقات، كانت تربط بين دول الشرق العربي القديم ومصر القديمة خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. يقول غابير ماتينيه: هذه الظاهرة تدعونا إلى التفكير ملياً في إمكانية وجود علاقات متينة، تربط سوريا الشمالية بفلسطين ومصر وبلاد النوبة في وقت، أحكم فيه الهكسوس سلطتهم على الدلتا المصرية[2].

---

[1] علي القيم: امبراطورية إيبلا ـ ص٤٧.

[2] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٤٠) ـ ١٩٩٠ ـ ص١٢٨.

السور[1]:

تم بناء السور بين حوالي (٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق.م)، في أعقاب عودة الحياة إلى إيبلا، ويحيط السور بمنطقة، مساحتها خمسون هكتاراً، تبلغ سماكة السور من الأسفل حوالي (٤٠م). يقول الأستاذ قاسم طوير: «تغطي وجهيه من الأسفل ألواح حجرية، يتراوح ارتفاعها بين (٣ - ٤م)، ودعمت منحدراته الخارجية بملاط من الجص الأبيض، كانت الأبراج في الجانب الخارجي من السور، وهي ما تزال واضحة المعالم في الجزء الغربي».

توجد في قلب السور مخازن للسلاح، ويتألف المخزن من كتلة معمارية مستطيلة مشيدة بالحجارة، وتشمل على ست غرف، ودرج على طول الضلع القصير من المستطيل، و لم يكن في الجهة الغربية أي باب أو مدخل، ولعل الولوج إليها يتم هبوطاً من السطح بوساطة الدرج المذكور آنفاً.

البوابات:

كشف عن البوابة الجنوبية الغربية، وهي واحدة من أربع بوابات في سور المدينة. يقول السيد قاسم طوير: «تتألف من مدخل ضيق من الخارج، وترتبط بدهليز محصور بين زوجين من الدعامات، ويقود هذا الدهليز إلى رحبة على شكل شبه منحرف، يليها باب داخلي، يفضي إلى دهليزين محصورين بين ثلاثة أزواج من الدعامات.

يبلغ طول المدخل الأمامي (١٠,٥م) وطول الرحبة (١٦م)، أما الباب الداخلي والدهليزان، فيمتدان مسافة (٢١,٥م)، بحيث يصل الطول الإجمالي للبوابة إلى (٤٨م)، وتتمتع البوابة بحاجز جداري من الحجارة الكبيرة، يغطي الجانب الأيمن بأكمله، تقع غرفة الحرس في قمة البرج الملاصق للجانب الشرقي من البوابة. وقد بنيت الواجهة الشرقية في الداخل بالقطع الحجرية الكبيرة، والمعززة بألواح كبيرة من الحجارة الكلسية.

وللمدينة كما ذكرنا أربعة أبواب، كشفت التنقيبات الأثرية ثلاثة منها، والرابع واضح التضاريس، وسميت الأبواب الثلاثة كما ورد في النصوص المكتشفة بأسماء آلهة، الأول: باب رشف، والثاني: باب شمس، والثالث: باب دجن، أما الباب الرابع: فسمي باسم باب المدينة».

---

[1] علي القيم: امبراطورية إيبلا - ص٦١.

المدافن:

كشف في السهل المحيط بالتل المركزي عن عدد من الكهوف المحفورة في الأرض الصخرية. وتبين أنها كانت خزانات للمياه في فترة الازدهار الأولى من حياة إيبلا، وفي المرحلة الثانية فقدت هذه الكهوف وظيفتها الأساسية، فتحولت إلى مدافن للأموات، وكشف عن ثلاثة من تلك المدافن. و تقع تحت أرضية القصر الغربي. وهذه المدافن هي:

١ـ **قبر سيد الماعز**[1]: وهو أهمها. له مدخل أسطواني، يهبط شاقولياً، ويؤدي إلى حجرة الدفن، وهناك ممر آخر قصير، يؤدي إلى حجرة دفن أخرى، عثر في داخله على مجموعة نفيسة من الحلي الذهبية، والأسلحة البرونزية والأواني الحجرية والقطع العاجية والكاسات الفضية، وعلى بقايا صولجان مصنوع من البرونز والفضة والذهب والعاج والحجر الكلسي، يحمل اسم أحد فراعنة الأسرة الثالثة عشرة بمصر هو الفرعون (حتب ـ اب ـ رع)، ذكر أنه كان يخص ملكاً، توفي عام (١٧٥٠ ق.م) أو بعد ذلك بقليل.

٢ـ **مدفن الأميرات**: يتألف من ممر قصير، يهبط إلى باطن الصخر بواسطة درج، يقود هذا الممر إلى حجرة الدفن، ويعود هذا المدفن إلى حوالي (١٨٠٠ ق.م).

٣ـ **مدفن الخزانات**: يتألف من خزانين قديمين للمياه، كان لهما فتحتان في السقف، ثم أُغلقتا عندما حوّل إلى مدفن، حيث فتح في الجهة الشرقية منه مدخل أسطواني، يهبط شاقولياً، وحفر درج، يساعد على الهبوط. وآخر عملية دفن، كما يعتقد، كانت بحدود (١٧٠٠ ق.م). أخيراً ينتشر مثل هذا النوع من المدافن في بلاد الشام.

المعابد[2]:

كشف عن أربعة معابد، ترقى إلى الفترة الثانية من ازدهار إيبلا، أي بعد تدمير الأكاديين بقيادة ـ نارام سن ـ إيبلا، وتمتد ما بين (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م) أي قرنين من الزمن.

ـ **المعبد الأول**: ويرمز له (د)، يقع على الحافة الغربية للتل المركزي.

ـ **المعبد الثاني**: ويرمز له بحرف (ن)، يقع في الجزء الشمالي من السهل المحيط بالتل

---

[1] علي القيم: امبراطورية إيبلا ـ ص٥٩.

[2] المرجع نفسه ـ ص٦١.

المركزي.

ـ **المعبد الثالث:** ويرمز له بالحرف (ب ـ ١)، يقع في الجزء الغربي من السهل نفسه.

ـ **المعبد الرابع:** ويرمز له بالحرف (ب ـ ٢)، ويقع في الجنوب من المعبد الثالث.

في عام (١٩٨٨م) تم الكشف على خلفية جدار لبناء ديني جديد على امتداد الطرف الجنوبي، ويقول باولوماتييه[1]: من المحتمل جداً أن هذا البناء، قد تم تشييده في عصر البرونز الوسيط الأول، ودمر في نهاية عصر البرونز الوسيط الثاني حوالي (١٦٠٠ ق.م)، وصممت اتجاهاته من الشمال إلى الجنوب، بحيث يقع مدخله عبر الطرف الشمالي، وأطلقنا على هذا البناء الديني اسم: المعبد.

وقال: المعبد بناء ضخم، بامتداد المحور الجنوبي الشمالي بطول (٣٣,٣٠م) وعرض (٢٠م)، ويحيط به سور قوي تماماً، بلغت سماكته في الجدار الشمالي الخلفي حوالي (٧م)، بينما كانت تتراوح هذه السماكة في الأطراف الشرقية والغربية منه (٣,٩٠ و ٤م). أما واجهة السور الجنوبي، فتبلغ سماكتها (٣,٣٠م)، وتتألف قاعدة العبادة من غرفة مفردة واسعة طولياً، ومدخل محوري، يخترق واجهة الجدار القصيرة بقياس (٢٠,٥٠ × ١٢م).

وقال: إن معبد إيبلا يقدم لنا ظاهرة، تستحق الاهتمام، تتجسد هذه الظاهرة بالوحدة الحضارية، فيما يخص التصاميم المعمارية في كل من سورية وفلسطين، وذلك في الفترة الممتدة من (١٧٥٠ ـ ١٦٠٠ ق.م)، ولم تكن هذه الوحدة في هذا العصر إلا نتاج تراث أقدم، ساد في سورية الشمالية منذ عام (٣٠٠٠ ق.م)، واستمر مع بعض التباين حتى بعد عام (١٥٠٠ ق.م)، علماً أن هذا التواصل بقي في التراث عبر التاريخ حتى ما قبل القرن الأول منذ الألف الأول قبل الميلاد.

آلهة إيبلا[2]: يتألف مجمع الآلهة في إيبلا من: **الإله دجن:** يعتبر من أكبر الآلهة للبلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات أي منطقة بلاد الشام. **الإله حدد:** هو إله الطقس في بلاد الشام. **الإله كاميش:** هو من الآلهة السامية الغربية. **الإله كورا:** كانت عبادته واسعة في إيبلا، إلا أنه كان مجهولاً خارجها كما يبدو. **الإله ايداكولي:** يبدو أن عبادته اقتصرت على إيبلا. **الإله رشف:** هو إله الحرب والعالم السفلي.

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الأربعين ـ ١٩٩٠م ـ ص١٩.

[2] علي القيم: امبراطورية إيبلا ـ ص٨٢.

الأعيـــاد: أهم الأعياد هي: عيد الحصـاد، ويتـم في الشـهر الحـادي عشـر (في آب)، عيـد الأرض (البلاد) أو الموت أو الماء ـ عيد الطهارة ـ عيد المدائح.

الكـؤوس: تم الكشف عن الكؤوس السورية المزخرفة في فترة البرونز القديم. يقول السـيد ميشيل المقدسي[1]: ولقـد حـاول هـارا الـدانغولد وبنجـاح ربـط تطـور زخـارفهـا زمنيـاً، وتوصل لأول مرة إلى تمييز أربع مجموعـات كـؤوس، المجموعـة الأولى: منفـذة مـن الـتراب الرمـادي، وهـي مزخرفة في قسمها الأعلى بمجموعة متماسكة من الخطوط الحلزونية المحززة الشبيهة إلى حـد كبـير بتقنية التمشيط.

أما المجموعة الثانية: فقد عمد الصانع إلى خلق نوع من التضاد اللوني بين سـطح الآنيـة البـني الغامق أو المسود والألوان البيضاء المستعملة للزخرفة لخلق ما يسـمى بثنائيـة لـون كاذبـة، وتم تنفيـذ الزخـارف البيضـاء، بـالدهن المباشـر، وذلـك على شـكل خطـوط حلزونيـة حـول فوهـة الإنـاء بسماكات، تتراوح بين (٥ ـ ١٠ سم).

أما المجموعة الثالثة: فقد تتميز عما سبق، بأن خطوط الزخارف المستعملة عريضة وواضحـة، على الأخص بالقرب من الفوهة، وعن المجموعة الرابعة قال: إن مفهوم الزخارف قـد تطـور بشـكل كبير، لأن الصانع كان قد بدأ تنويع ألوانه بـين الأسـود والأحمر والأخضـر، إضافـة إلى ذلـك أخـذ الصانع بمزج عدد مـن التقنيـات، الـتي استعملت في المجموعـة السـابقة. هـذا وقـد تم الكشـف عـن الكؤوس السورية في المواقع التالية مثل حوض العاصي، وتحديداً في المنطقة الممتـدة بـين شمـالي مدينـة حمص وحتى سهل العمق، ومـن المنـاطق الأخـرى (موقـع المسـخين) في منطقـة القلمـون، وكـانت الكؤوس متنوعة مثل الكؤوس الممشطة والكؤوس الملونة والكؤوس الرشيقة. كما لعب سهل البقاع دوراً في انتشارها، وكما لعبت فجوة حمص وسهل عكار دوراً هاماً كمتنفس بحري لمنتجيها، حيث نجدها في كثير من التلال الساحلية مثل تل كزل، تل لحة ـ تل أبو علي وتل سوكاس.

الزراعة وتربية الماشية:

إن القرى التي كانت مرتبطة بمدينة إيبلا، كانت تدفع الضرائب على شكل قسم من الإنتـاج الزراعي والحيواني، فضلاً عن تقديم الأيدي العاملة، علماً أن الزراعة كانت أكثرها بعلية، والمـروي منها كان في منطقة محدودة، وبالإضافة إلى زراعة الحبوب في أراضي إيبـلا، عرفـت زراعـة الزيتـون

---

[1] مجلة الحوليات الأثرية ـ المجلد الأربعين ـ طبع ١٩٩٠ ـ ص٣١.

والكرمة[1]، والوثائق التي اكتشفت في إيبلا، تعتبر من أقدم الوثائق التي عالجت موضوع زراعة أشجار الزيتون، ومن المعلوم أن زراعة الحبوب، تحتل القسط الأوفر من الأرض، تليها زراعة أشجار الزيتون ثم زراعة الكرمة.

يقول الفونسواركي مؤكداً « دعنا نر ملكية الوزير ايبريوم في قرية واحدة (٣٤٠٠) غانا لزراعة الحبوب (٦٨٪)، (١٣٠٠) غانا مزروعة بأشجار الزيتون (٢٦٪) و(٣٠٠) غانا مزروعة بالكرمة (٦٪)، ويقال: إنه من الواضح أن القصر يملك قسماً من الأراضي في محيط كل قرية مع ملكية، تدار بشكل مباشر، لقد نجح القصر في تبسيط نظام التوزيع لصالح الارتباط به، وأغلب الظن أن هذه الحقول كانت تحرث من قبل أ- ـاء لجان القرى، الذين يتوجب عليهم إتمام العمل ».

إن الزراعة في إيبلا كانت مرهونة بدرجة الأمطار، وكان عليها أن تلبي الحاجة الداخلية، وإن الزراعة وتربية الحيوانات كانتا تشكلان اقتصاداً متمماً في إيبلا، في الوقت نفسه عدتا أساس تفتح إيبلا في الألف الثالث قبل الميلاد.

ولحفظ الإنتاج الزراعي والغذائي، صمم شعب إيبلا مخازن كبيرة وصغيرة لذلك، وكشف عن بعضها في آكير المباني، وخاصة القصور، لأن القصور كانت منشأة متعددة الوظائف. يقول ريتادولتشي: « إن الجمع والتوزيع ومعالجة الموارد كانت تجري في ممرات محدودة داخلية لحياة أفراد مجموعة القصر، كافية لحاجات العاملين والمقيمين وقال: إن ترتيب المستودعات وأماكن معالجة الموارد سواء أكان ذلك في الألف الثالث قبل الميلاد أم في الألف الثاني قبل الميلاد، دليل على ذلك، علماً أن عمليات الجمع وتوزيع الممتلكات الغذائية تجري في سويتين متميزتين نوعياً وكمياً، الأولى: محفوظة للنخبة الملكية والدينية أو الضيوف البارزين، كما تؤكد النصوص بشكل غير مباشر في الألف الثالث قبل الميلاد ».

وخصصت السوية الثانية: لاستهلاك قسم من القوة العاملة المجهولة أو المتخصصة، التي تضمن الفعاليات الاقتصادية »[2]. علماً أن الموارد المجتمعة في منشآت القصر لا يمكن أن تفي بحاجات كل المواطنين، لذلك يفترض وجود كيانات مستقلة لخزن ومعالجة الممتلكات الغذائية

---

[1] عبد مرعي: إيبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية ـ طبع دمشق ١٩٩٦ ـ ص٣١.

[2] الحوليات الأثرية السورية ـ مجلد أربعين ـ ١٩٩٠ ـ ص١٤٦.

متميزة مادياً ووظيفياً على الكيانات الداخلية للمباني.

إن النصوص المكتشفة في إيبلا توضّح مجموعة من الأمور، هي أن النصوص الاقتصادية الإدارية، التي تم الكشف عنها، تزودنا بأسماء مئات الأماكن، وغالبية تلك الأماكن هي قرى صغيرة، أو حتى مزارع، أي أن هذه النصوص تشير إلى استيطان كثيف، ساعد على ازدهار الإنتاج الزراعي في منطقة إيبلا وما حولها.

كما تشير النصوص الاقتصادية والإدارية المكتشفة على وجود تقدم اجتماعي مبني على القدرة الإنتاجية للمنطقة، كما تظهر تنظيم المجتمع اجتماعياً وسياسياً.

وكما أظهرت النصوص المكتشفة، أن إيبلا ظهرت كمركز اقتصادي وسياسي، لها حق الإشراف على أجزاء من سورية الشمالية، وكان لها علاقات تجارية، تجاوزت نهري العاصي والفرات، لأنها كانت تحتل مركزاً متوسطاً للعلاقات التجارية، فتلك العلاقات كانت تتحقق بواسطة أشخاص مسؤولين عن مستوطنات مختلفة، وكانوا يستقبلون كأشخاص لهم صفة سياسية أيضاً.

كما أظهرت النصوص المكتشفة، أن إيبلا كانت محطة على طريق اللازورد بين أفغانستان ومصر، يستطيع تجار المناطق المجاورة أن يبادلوا بضائعهم النفيسة بها، مما يؤكد أن إيبلا كانت مركزاً للتبادل التجاري، والبضائع التي تصل من بعيد تمر عبر سلسلة من المراكز الهامة، من بينها إيبلا وماري، وعلى الرغم من تقليص دور إيبلا سياسياً، وتراجع حدودها إلى منطقة صغيرة، إلا أنها لم تفقد أهميتها كمركز اقتصادي في شمال سوريا.

أما بالنسبة لتربية المواشي، فإن الهضاب الواقعة في الغرب والبادية الواقعة في الشرق، سمحت بمزاولة الرعي، هذا وقد قدمت وثائق إيبلا قوائم، تبين الأهمية القصوى لتربية الماشية، من ذلك وثيقة، ذكرت قائمة، دوّنت (٦٧٢,٠٠٠ ألف حيوان)، شملت (٢٢) قطيعاً لعدد من القرى، وذكرت النصوص: أن موظفي القصر كانوا قد حصلوا على ما مجموعه (٧٠ ـــ ٨٠) ألف رأس عائدة للقصر. وورد أيضاً في بعضها الآخر أن (٣٦) ألف رأس من الغنم، قيل: إنها يجب أن تبقى في الهضاب، مما ورد نستنتج أن القطعان خلال فصل الشتاء والربيع، كانت تسرح في البادية للرعي، وتعاد في بداية فصل الصيف إلى الهضاب.

التجارة في إيبلا:

تقع إيبلا كما هو معروف في منطقة سهلية واسعة، تعتمد في تكوين أساسها الاقتصادي على الاستثمار الزراعي القائم على زراعة الحبوب والزيتون والكرمة، وهذه الزراعة كما هو معلوم من سمات زراعة البحر المتوسط، كما اعتمد الاقتصاد على الاستثمار الحيواني المؤلف من الماشية والأبقار وحيوانات أخرى، هذا وقد لعب القصر الملكي دوراً مميزاً في تنظيم الاقتصاد.

أما التجارة والتبادل السلعي، فقد أكدا على نشوء حركة تجارية نشطة، قوامها التعامل مع سلع مثل الصوف والنسيج وقطع أثاث فخمة، وإن صلات وثيقة كانت تربط مراكز التمدن في شمال سورية، كما وجدت علاقات تجارية خارجية واسعة.

يقول الدكتور فرنسيس بينوك[1]: أما حدود إيبلا في الشرق، فتصل إلى حافة الأراضي الخصبة التي تغل محاصيل الحبوب، وتساعد على تربية الماشية من ضأن وماعز، وفي الغرب تشكلت منحدرات جبل الأعلى في نهاية الأراضي السهلية والمخصصة الأخيرة للاستثمار الزراعي، الذي كان مقتصراً في الأغلب على الأشجار المثمرة، وقال: كان توزيع المواد الأولية مثل الصوف والمهارات الحرفية، مثل النسيج والأدوات المعدنية والأثاث المنزلي من ناحية، ونقل المواد السائلة مثل الزيت والخمر من ناحية ثانية، يتم بواسطة طريقتين رئيسيتين، ذكرتا في الكتابات، فإذا كانت السلع المرغوبة كميات قليلة لا سيما من النسيج، تدفع القيمة إلى موظفي القصر أو إلى السعاة أو الرسل، أما السلع المعدة للتجارة الفعلية فقد كانت ترسل بكميات كبيرة إلى المناطق الوسطى مثل ماري على أواسط الفرات، وقد تصل بعيداً إلى جنوب الرافدين مثل مدينة كيش.

وقال: إذن الوضع التجاري يختلف نسبياً مع المدن البعيدة، فهي تستورد المواد الأولية مثل الخشب من جبال لبنان والفضة من جبال طوروس، وربما من منطقة ملاطية، وتعقد هناك صفقات تجارية شبه منتظمة، ومن المعلوم أن الاجتياح الأكادي، كانت غايته هي: التحكم بمصادر المواد الأولية مثل الخشب والفضة، والقضاء على طموح إيبلا في خلق شبكة تجارية متماسكة.

إن نقوش ملوك أكاد، ألقت بعض الأضواء على مصير إيبلا، دون أن تأتي على ذكر ملوكها، فمثلاً نجد في نقوش سرجون الأكادي إشارة إلى إيبلا كواحدة من المدن السورية التي منحها ربه له، كما يتباهى نارام سن الأكادي، بأنه هزم إيبلا في طريقه إلى غابة الأرز في

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد الأربعين ـ ١٩٩٠ ـ ص١٤١.

منطقة الأمانوس، كما تظهر إيبلا خلال القرنين الأخيرين من الألف الثالث قبل الميلاد عدة مرات في وثائق سلالة غوديا في لاغاش، ووثائق أور الثالثة، وجاءت تلك الإشارات في معرض العلاقات التجارية لمدن جنوب بلاد ما بين النهرين، والمدن الواقعة على طول الطريق التجاري، الذي يصعد محاذياً للفرات، وبعدها يعبر السهول في سورية الشمالية إلى البحر المتوسط.

وقد أشارت النصوص الآشورية القديمة المكتشفة في كانيش بالأناضول إلى تجار من إيبلا، كانوا على ما يظهر قد أسهموا في التجارة، التي كانت قائمة بين آشور وكانيش وأورشو، الواقعة على الطريق التجاري الجنوبي المؤدي إلى أواسط الأناضول، والتي كانت تقوم فيها مستعمرات آشورية، يضاف إلى ذلك الوثائق، التي تؤكد علاقاتها التجارية مع مملكة حلب (يمحاض) وماري.

الصناعات[1]:

إن عدد النصوص المكتشفة، والتي تتحدث عن الصناعات النسيجية، تعطي فكرة هامة عما كان لهذه الصناعة من أهمية، حيث يذكر: أن (٨٦٣) رقيماً مسمارياً من أصل (٩٧٦) رقيماً، تتعلق بالصوف وأنواع المنسوجات، قامت البعثة الأثرية الإيطالية بفك رموزها ونشرها. إذن كانت صناعة التسيج بشكل عام متطورة في بلاد إيبلا، وكذلك تصنيع الصوف والكتان، أخيراً إن إيبلا جنت أرباحاً طائلة من الصناعات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة.

كانت إيبلا تستخرج الخشب[2] من جبل الزاوية ومن جبال أوغاريت الساحلية، وتعمل على تصديره، وقد تم الكشف عن وثيقة، تعود إلى عهد الملك جوديا ملك لجش (٢١٥٠ ق.م)، تذكر: أن هذا الملك كان قد أحضر جميع المواد الأساسية لبناء معبد (نيجرسو) من الخارج، فشجر الأرز من الأمانوس، وأنواع الأخشاب الثمينة من بلاد أورشو، الواقعة في مرتفعات إيبلا، والذهب من بلاد خاخو وغير ذلك، وكانت السبائك الذهبية والفضية تتدفق بكميات هائلة إلى خزينة الدولة.

المعادن في إيبلا:

من أهم المعادن التي تم الكشف عنها في إيبلا:

---

[1] عبد مرعي: إيبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية

[2] المرجع نفسه ـ ص٣٨.

اللازورد: ومناجم هذا المعدن في أفغانستان، عثر في إيبلا تحديداً في قاعات القصر الأول (ج) على أكثر من (٢٢ كغ) [1]، يستنتج من وجود هذه الكمية: أن إيبلا كانت تستورد هذا المعدن من مصدره، أو أنها كانت تحصل عليه من الدول المجاورة بطريقة المقايضة، وقد كشف نص وثائقي، يشير إلى عملية مقايضة إيبلا لمادة الفضة بمادة اللازورد مع مدينة ماري، ونستنتج: أن القصر كان يحتكر تجارة هذه المادة.

الذهب والفضة: كشف الكثير من القطع الذهبية أيضاً في القصر، وكانت محفوظة في الجناح الإداري، وكان الذهب يستخدم بكثرة في إيبلا، وكانت تحصل عليه من الأناضول، كما عثر على كميات كبيرة من الفضة التي كانت تستورد كما يظهر من الأناضول أيضاً. هذا ويوجد نص وثائقي [2] بين النصوص المكتشفة في إيبلا، يشير إلى عملية مقايضة إيبلا لمادة الفضة بمادة اللازورد مع مدينة ماري على الفرات، وذلك بنسبة واحد إلى واحد، رغم القيمة العالية لمادة اللازورد.

الأوزان:

أما عن نظام الأوزان، فقد اكتشفت البعثة الأثرية الإيطالية في القصر الملكي في إيبلا غالبية الأوزان منها: الميتا تعادل ما يقارب (٤٧٠ غ)، والميناء (٦٠ مثقال)، وهذا يعني (٦٠ × ٧,٧٥ = ٤٧٠ غ)، المثقال يعادل (٧,٧٥ غ)، وهناك مثقال آخر بوزن أكبر يعادل (٩,٤٠).

ملوك إيبلا:

يذكر هنري ـ س ـ عبودي ملوك إيبلا، سبعة وهم:

١ـ اجريش حيبا: أول ملوك إيبلا، يذكر أنه حكم سنة (٢٤٠٠ ق.م)، هو والد (ابيت ليم) يذكر أن اسمه حوري وليس سامي، خلفه في الحكم ابنه ابيت ليم.

٢ـ ابيت ليم: هو ابن اجريش حيبا، حكم ما بين (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م)، اسم هذا الملك عموري بخلاف اسم والده، في عام (١٩٦٨م) تم اكتشاف تمثال تذكاري، كان مشفوعاً

---

[1] عبد مرعي: إيبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية ـ ص٤١.

[2] إيبلا ـ عبلاء الصخرة البيضاء ـ ص٢٣.

بكتابة مسمارية، تتضمن اسم هذا الملك، أما بقية الملوك فلا يذكر عنهم شيئاً. وهم:

٣ـ جريش حلم ٤ـ ارابنوم ٥ـ اركب دامو ٦ـ ابيربوم ٧ـ ابي زاكير ٨ـ دوبوحوعدا.

ويذكر الدكتور علي أبو عساف قائمة أخرى هي على النحو التالي:

جريش حلم: حكم حوالي (٢٤٠٠ ق.م)، وهو الذي أنشأ القصر الملكي، وفي ذلك وثائق موجودة.

ارابنوم: حكم بحدود (٢٣٤٠ ق.م)، في عهده أصبحت ماري تابعة لإيبلا، أو أصبحت أكاد مدينة تابعة لنفوذ إيبلا أثناء حملته، التي شنها على الفرات بقيادة أنا ـ داغا، الذي حمل لقب داغان. فمثلاً نفهم من وثيقة الحملة العسكرية، التي كتبها (أنا ـ دجن) [1]: أن ملك إيبلا (ارابنوم) فتح ماري، وأطاح بملكها (ايبلول ـ ايل)، ونصّب نفسه ملكاً على ماري.

اركب دامو: في عهده توسعت علاقات إيبلا الخارجية، ووصل نفوذه حتى شمال إيران، ويعتقد: أن إيبلا في عهده كان الدمار قد لحقها، ويذكر: أن ملك إيبلا (اركب ـ دامو) كان معاصراً للملك زيزي ملك حمازي، إذ كان يرسل له أثاثاً ثميناً، ويخاطبه بكلمة أخي [2].

ابيربوم: ملك معاصر للملك الأكادي الشهير سرجون، الذي ورد ذكره في بعض المحاضر التجارية الخاصة بالملك ابيربوم. في عهده شهدت إيبلا هزيمة عسكرية على يد سرجون بسبب المنافسة التجارية بين البلدين، وفي عهده انتصرت إيبلا على مملكة ماري بقيادة ابن الملك آشورادامو، وحمل هذا القائد لقب ملك ماري أيضاً.

أبي سيبش: في عهده عادت إيبلا للظهور كدولة قوية، أثناء حكمه خرب القصر واحترق عام (٢٢٥٠ ق.م) على يد نارام سن كما ورد. وفي عام (١٩٧٣م) عثر على رقيم ورد فيه اسم الملك أبي سيبش، ويرجع إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وتبين أن إيبلا في عهده كانت قد وصلت إلى ذروة مجدها وازدهارها وقوتها.

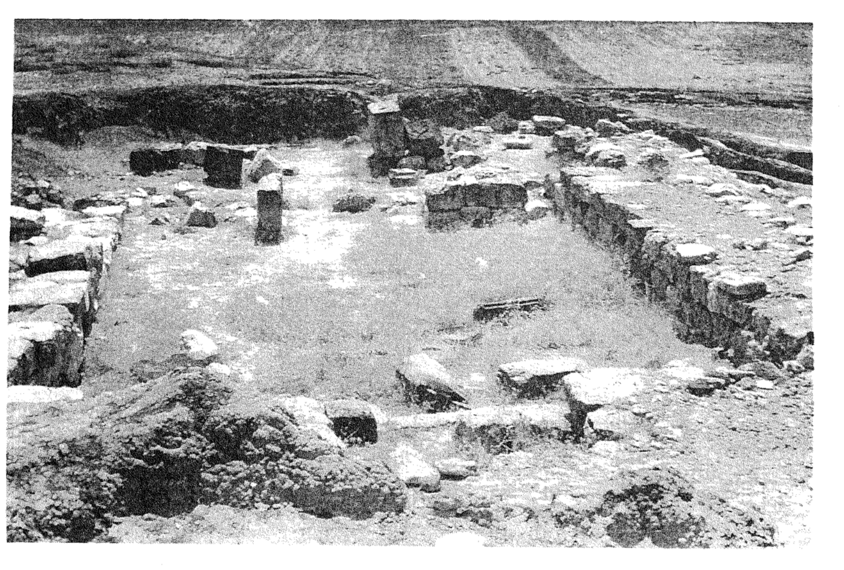
أبي زيكو: حكم حوالي (١٧٥٠ ق.م)، يذكر: أنه كان معاصراً لحمورابي.

دويوحو ـ عدا: يعتقد أن الدمار الذي شهدته إيبلا كان في عهده.

---

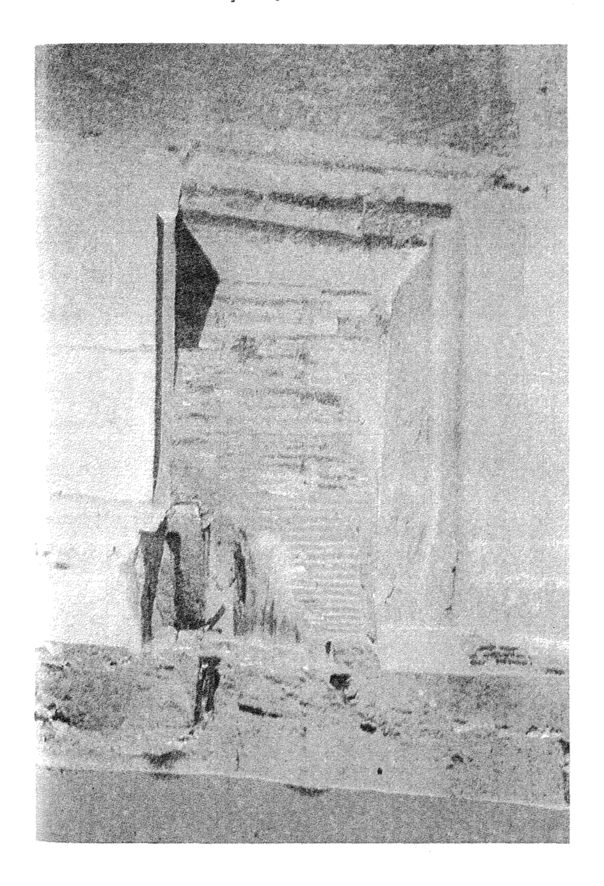
[1] هشام صفدي: تاريخ الشرق القديم ـ ج١ ـ ص٢٠٧

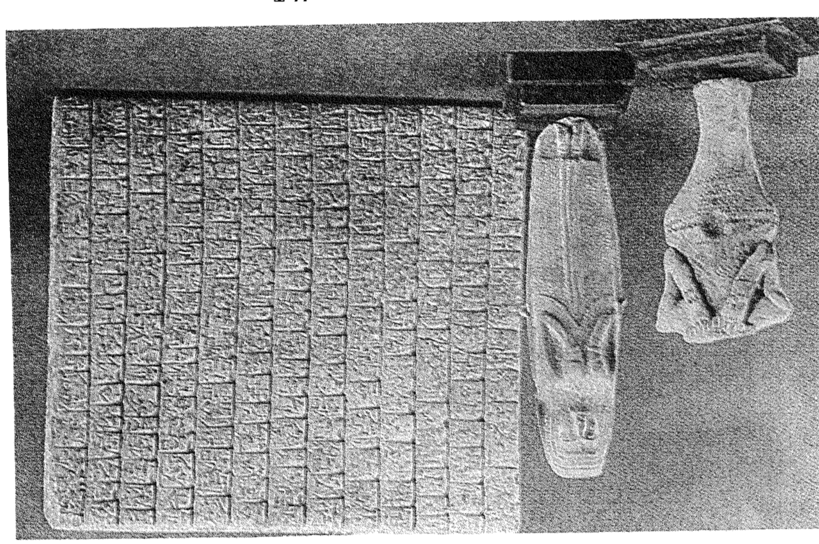
[2] ماولوماتييه: إيبلا ـ الصخرة البيضاء ـ ص٣٧.



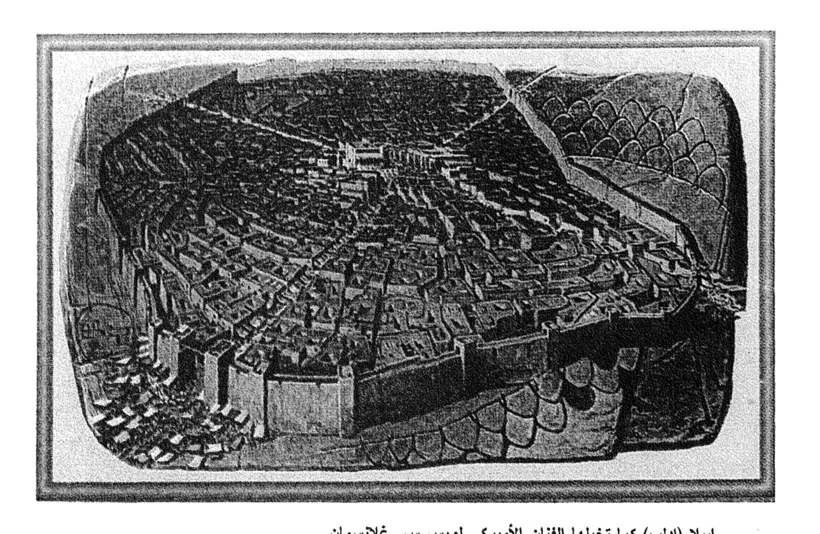
معبد عشتار - إيبلا

القصر الملكي - إيبلا





Tableaux et statuettes du royaume d'Ebla



إيبلا (إدلب) كما تخيلها الفنان الأميركي لويس س. غلانسمان

EBLAAS ILLUSTRATED BY THE AMERICAN PAINTER LOUISS. GLANSMAN

الباب الثاني

الفصل الأول : الفينيقيون

الفصل الثاني : المدن الفينيقية.

الفصل الثالث : تدمر.

الفصل الرابع : الأنباط.

الفصل الخامس : الصفويون.

الفصل السادس : الغساسنة.

الفصل السابع : القدس.

الفصل الأول

الفينيقيون

- أصلهم وتاريخهم.
- الأحوال العامة عند الفينيقيين.
- الديانة.
- الآلهة.
- الأبجدية.
- الفن.
- الزراعة.
- الصناعة.
- الفينيقيون والبحر المتوسط.

الفينيقيون

أصلهم وتاريخهم:

يعتبر القرن الثاني عشر قبل الميلاد (تاريخ غزو شعوب البحر، وبداية العصر الحديدي)، علامة بارزة على بداية تاريخ الفينيقين الحقيقي وحضارتهم. وقد كان الفينيقيون محصورين في شريط ضيق من اليابسة والبحر، تطوقهم دول قوية كالآشوريين والحثيين والمصريين والإغريق، فوجدوا أنفسهم مجبرين على التوجه إلى البحر منذ البداية، وامتد وجودهم على الشاطئ الشرقي للمتوسط، وهناك ساد الحكم الذاتي بدويلات المدن، كما سنرى.

أما الفينيقيون، فقد عرفوا بهذا الاسم، ولهذا الاسم صلة بكلمة أرجوان، أي صبغ الأقمشة باللون الأرجواني، وهي الصناعة، التي اشتهرت بها المدن الفينيقية، وقيل: إن كنعان هو الاصطلاح الأصلي، الذي عرفت به البلاد الفينيقية، و منه اشتقت كلمة أرجواني، وفي المصادر المحلية نجد اسم كنعان يطلق على الشعب والبلاد معاً في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ومهما يكن فالفينيقيون والكنعانيون شعب واحد.

وعن أصل الفينيقيين، فقد اختلف في ذلك، يذكر البعض: أنهم من جنوب فلسطين، وقيل: من شبه جزيرة سيناء، وقيل: الجزيرة العربية، التي يعتقد أنهم قدموا منها حوالي (٣٠٠٠ ق.م)[1] وقيل: هم عرق سامٍ، وقيل: هم هجرة سامية، قدمت من الجزيرة العربية، أو من خليج البصرة، وقيل: هم أصليون في موطنهم، وأنا أؤكد: أن الفينيقين وآلهتهم وثقافتهم (مصدرها بلادهم)، وهم عرب، ولنا الفخر أن يكونوا أجدادنا القدماء، أي أن الشعب الفينيقي قد يكون نتيجة تطور تاريخي في المنطقة السورية، لا عن هجرة، أتت من الخارج.

يقول الأستاذ **يوسف الحوراني**: يختلف المؤرخون في ذكر مصدر هجرة الفينيقين إلى

[1] قتيبة الشهابي: هنا بدأت الحضارة ـ سورية تاريخ وصور ـ ص٢٤.

لبنان، (فهيرودوت) يرى: أنهم في زمنه، كانوا يعتقدون بمجيئهم إلى الشواطئ اللبنانية من بلاد الخليج الفارسي، بينما يرى (جوستين): أنهم رحلوا عن وطنهم بسبب هزة أرضية، وأقاموا أولاً على ضفاف البحيرة السورية، ومن ثم رحلوا إلى شواطئ لبنان، وأسسوا مدينة صيدا، ويرى (سترابون): أن الفينيقين جاؤوا إلى لبنان من الخليج الفارسي[1]، وكان في زمنه جزيرتان، هناك تحملان اسمي صور و أرواد، وفيها معابد، تشبه المعابد الفينيقية في لبنان، كما كان يعتقد سكانها أن مدن لبنان هي مستعمرات، أسسها أسلافهم[2].

يبدأ تاريخ الفينيقيين من أرضهم على الساحل السوري، وقد رسمت حدود هذا الإقليم، كما يذكر (سباتينوموسكاتي) بقوله: (يمكننا رسم الحدود الشمالية لهذا الإقليم عند النقطة المحاذية لتل سوكا (تل سوكاس). أما الحدود الجنوبية، فترسم عند النقطة المحاذية لمدينة عكا. أما الحدود الشرقية والغربية فواضحة على البحر المتوسط من الغرب، وجبال لبنان من الشرق)[3].

كان للمدن الفينيقية طبوغرافيتها المميزة، أي أنها كما هو معروف كانت في العادة تشيد مرفأين[4]، أحدهما: في الشمال، والأخر: في الجنوب، يستخدمان تبعاً للرياح والفصول، والفينيقيون كانوا يفضلون الجزر، التي تقع بعيداً عن الشاطىء، لأنه كان من السهل عليهم تحصينها، والدفاع عنها.

وموقعهم الجغرافي هو الذي حتم عليهم أن يتجهوا نحو البحر المتوسط، ويتوسعوا عبره، ويؤسسوا سلسلة مراس، أو محطات، أو مراكز تجارية، والأرض الفينيقية تعتبر من أخصب الأراضي، وفيها كانت، وما زالت تزرع الحبوب والزيتون والكرمة، والأشجار المثمرة الأخرى كالتين والجميز والنخيل، بالإضافة إلى الغابات، التي كان يكثر فيها شجر الصنوبر والسرو، بالإضافة لشجرة الأرز، التي اشتهر بها الفينيقيون.

من المعروف أن ذكر المدن الفينيقية ورد في المصادر المصرية والرافدية، وأكثرها يتعلق بإخضاع هذه المدن. بعد غزو شعوب البحر للساحل السوري، ودمار أرواد وصيدا. نعمت هذه

---

[1] هارفي برونر: موسوعة مختصر التاريخ القديم ـ طبع مصر ـ ١٩٩١ ص٩٦.

[2] يوسف حوراني: لبنان في قيم تاريخه ـ العهد الفينيقي ـ طبع بيروت ١٩٩٢ ـ ص٤٦.

[3] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٤٦.

[4] المرجع نفسه: ص٢٣.

المدن بنوع من الاستقلال، لان الدول المجاورة كانت غير فاعلة في المنطقة، وخاصة المصرية والأشورية، وأهم المدن الفينيقية كانت: أرواد ـ جبيل ـ صيدا ـ صور ـ وعكا، إلا أن مدينة صيدا كانت الأهم والأقوى، والمسيطرة نسبياً على هذه المدن.

وتاريخ هذه المدن نستمده من المصادر الآشورية، والمصرية بالدرجة الأولى. حيث تدل مختلف الوقائع على انهيار الحكم المصري، الذي دامت سيطرته على المنطقة قروناً.

في هذه الحقبة قاد الآشوريون بقيادة ملكهم تجلات بلاصر الأول (١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق.م) حملة على سورية، وجبى الجزية من أرواد وجبيل وصيدا، وقد دون ذلك بقوله[1]: « إلى جبل لبنان ذهبت جذوع الأرز لمعبد (أنو، وحدد) الإلهين العظيمين ربي، و قطعت، ونقلت إلى عمورو عدة عمورو بكاملها، أخذت الجزية من جبيل وصيدا. أرواد استسلمت. عبرت بسفن أرواد من أراود إلى شاطىء البحر إلى حيث سيميرا. في بلاد (عمورو) قتلت (نهيرو)، الذي يسمونه فرس البحر في عباب اليمّ ». من هذا النص نستنتج أن الغاية من الحملة، التي قادها الملك الآشوري هي الحصول على خشب الأرز والجزية من المدن المذكورة.

من المعروف أن الآشوريين عاشوا مرحلة قوة وتوسع على حساب الفينيقيين واستغلالهم. علماً أن الحملات الآشورية كانت ذات أهداف مؤقتة، فمثلاً: الملك الآشوري آشور بانيبال الثاني[2] (٨٣٣ ـ ٨٥٩ ق.م) كان قد قاد حملة، وسار محاذياً جبل لبنان، ووصل البحر المتوسط، حيث لم تبدِ المدن الفينيقية أي مقاومة، وهناك غسل أسلحته، وقدّم القرابين للآلهة، وجبى الجزية من مدن الساحل السوري، مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد وغيرها، وأخذ الذهب والفضة والرصاص والنحاس، وآنية البرونز، وثياباً مصنوعة من صوف ملون، وثياباً من كتان، وحماراً كبيراً، وقرداً صغيراً، وخشب قبقب، وخشب بقس وعاجا، وغير ذلك، ولم يتركهم حتى عانقوا قدميه، وقدموا له آيات الولاء والجزية: فالمطّلع على هذه الحملة يلاحظ: أنها كانت تجارية أكثر منها عسكرية. لأنها لم تسجل أي اشتباك بين الطرفين.

أما الملك الآشوري شلمنصر الثالث[3] (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م)، فقد قاد حملات كثيرة تابع في إحداها (الحملة السادسة) زحفه إلى الساحل السوري، ففرض الجزية على المدن الفينيقية.

---

[1] سباتينوموسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ طبع دمشق ١٩٩٨ ـ ص٣٠.

[2]. المرجع نفسه: ٤٠

[3] المرجع نفسه: ص٤٢.

أثناء ذلك حدث تحالف بين المدن المجاورة لمقاومة الآشوريين، فكان قوام جيش الفينيقيين يتألف من (١٠) مركبات و (١٠,٠٠٠) جندي من الأركاتيين و (٢٠٠) جندي من أرواد، يقودهم ماتينوا بعيل و(٢٠٠) جندي من الأستاتيين و(٣٠) مركبة، وعدد من الشيانيين، يقودهم أدوتو بعيل. وحدثت معركة بين الطرفين عند قرقر، كان النصر فيها حليف الآشوريين. أما الحملة، التي حدثت في السنة الثامنة عشرة لحكمه سنة (٨٤٠ ق.م)، فقد ذكر بلوغه جبل حوران، وتقدمه إلى الساحل السوري، وإقامة تمثال ملكي لنفسه هنالك، وفرضه الجزية على أهالي صور وصيدا. وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه (٨٣٧ ق.م)، وصل إلى الساحل السوري أيضاً، وجبى الجزية من صور وصيدا وجبيل. بعد موت شلمنصر الثالث (٨٢٤ ق.م) نعمت المدن الفينيقية بهدوء نسبي.

في عهد الملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث[1] (٧٥٤ ــ ٧٣٧ ق.م)، بدأت سياسة ضم الأقاليم إلى مملكة آشور. ففي الساحل السوري أحرز الآشوريون نصراً مؤزراً على الأوراتيين في السنة الثالثة من حكمه سنة (٧٤٣ ق.م)، وشكلوا ولاية، ضمت المدن الفينيقية التالية: (أوسنو ــ سيانو ـ سيميرا ـ كاشبونا)، وقيل: (جبيل وعرقا ــ وأوسنو وسيانو)، بالإضافة إلى مدن أخرى، وهناك من يذكر: أن جبيل هذه لم تكن ضمن هذه الولاية، وإنما بقيت تنعم بالاستقلال مثلها مثل أرواد. أما مدينة صور فقد كانت تدفع الجزية.

في النهاية لم يكن الفينيقيون قادرين على الاحتفاظ بسيطرتهم على طرق التجارة، ووقعوا تحت حماية الدول الكبرى، ورغم ذلك بقيت بعض المدن الفينيقية ذات أهمية، فمثلاً حاولت ولاية سيميرا التمرد على الحكم الآشوري، في بداية حكم سرجون الثاني[2]، حين اشتركت في ثورة قادتها مدينة حماه، إلا أن هذه الثورة انتهت دون جدوى.

وفي عهد الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م)، عقدت المدن السورية ومن ضمنها المدن الفينيقية حلفاً ضد الدولة الآشورية، لكن الآشوريين بقيادة سنحاريب تمكنوا من القضاء على هذا الحلف، وقد ذكر سنحاريب ذلك بقوله:

« وفي حملتي الثالثة (إما ٧٠٠ أو ٧٠١ ق.م)، توجهت إلى بلاد الحثيين (سوريا) ولولي

---

[1] فرج بصمة جي: كنوز المتحف العراقي ـ طبع العراق ١٩٧٣ ـ ص٥٢.

[2] حسن النجفي: معجم المصطلحات والأعلام في العراق ـ ص١٨.

ملك صيدا استولى عليه الرعب من عظمة سلطاني، فـانطلق هارباً في عبـاب البحـر وهنـاك مـات. وصيدا الكبرى وصيدا الصغرى بيت زطـي، شـريفتا محليـا، أوسـو، عكـتريب، عكـا، مدنـه المنيعـة الحصون، حيث معالق ومحارب حاميته الخوف من أسلحة ربي آشور قهرها، وجعلها تركع خاضعة عند قدمي. أجلست توبعلو على العرش ملكاً عليها، وفرضت عليه تقديم الهدايا لجلالـتي، وفرضـت عليـه الجزيـة إلى الأبـد بـلا توقـف، منـاحم الشمسـيموروني، وتوبعلـو الصيدونـي، وعبـدي ربعـي الأروادي وأورو، ملكي الجيلاوي وميتيني الأشدوني، وبودو، ايلو البيتعموني وكموسنادبي الموابي، ومليك - رموالادومي - ملوك العموريين، كلها هدايا باذخة في ثقل جزيتهم، جـاؤوا بهـا إليَّ للمـرة الرابعة وقبلوا قدمي ».

قاومت مدينة صور الحصار الآشوري خمس سنوات، تمكنت خلالهـا مـن هزيمـة الأسـطول، الذي أرسل لغزوها، إلا أن الآشوريين بقيـادة سنحاريب تمكنـوا مـن المـدن الفينيقيـة، يؤكـد ذلـك قوله: إن البحارة الصوريون والصيدونيون، والقبارصة أسرى في يدي. وفي ظل الملك الآشوري أسر حدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق.م)، تحالف ملك صيدا (عبدي ملكوني) مع ملك كليكيا ضد الآشوريين، لكن الملك الآشوري (أسر حدون)، تمكن من القضاء عليه سنة (٦٧٧ ق.م)، وهدم صيدا، وسـوّى بها الأرض، ودمر أسوارها، ومحى آثارها، وأعدم ملكها، وفرض عليهم الجزيـة، وعيّـن موظفـاً مـن قبله يحكمها.

أما مدينة صور فقد قدمت يد العون للآشوريين في ظل ملكها (بعل بعلي)، فلـم يحـدث لهـا شيء، بعد ذلك نعمت المدن الفينيقية بالهدوء نسبياً. حيـث زوّدوا الملـك الآشـوري بـالمواد اللازمـة لبناء قصره في نينوى. وفي هذه الحقبة أيضاً أبرمت معاهدة بين الملك الآشوري أسـر حـدون، وبـين ملك صور (بعل)، وكانت هذه المعاهدة مرهقة لصور. ففي هذه المعاهدة نـص صريـح علـى مركـز الحاكم الآشوري في صور، وهو الحاكم المكلف بجميع الشؤون الآشورية.

في السنة العاشرة من حكم أسر حـدون (٦٧١ ق.م)، تحـالفت صـور مـع مصـر، وأعلنـت تمردها على آشور، لكن الآشوريين تمكنوا من السيطرة على صور، وغزوا مصر العليا وأثيوبيا، لكـن ملكهم (بعل) استمر بحكمها فيما بعد. أخيراً استمر حكم أسر حدون بمزيـد مـن انتقـاص استقلال بعض المدن الفينيقية، ولم تحتفظ باستقلالها إلا أرواد وجبيل وصور، بينما قسـم البـاقي إلى ولايـات، سيميرا في الشمال، وصيدا في الوسط، وصور (أوتو) في الجنوب.

في عهد الملك الآشوري بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م)، تمرّد ملك صور (بعل) مرة ثانية، لكن الملك الآشوري المذكور دمر حصونه، واستولى على ماله، وأخضعه لسلطانه، وقدّم ملك صور ابنه (ياحي - ملكي) وبنات إخوته كمحظيات فأشفق عليه، وأعاد إليه ابنه. كما تمكن الآشوريون من إخضاع أرواد، وبقيت فينيقية على ما هي عليه.

أما في العهد البابلي:

أعقب انهيار الامبراطورية الآشورية على يد الميديين فترة رخاء للفينيقيين. في هذه المرحلة أخذ المصريون في التوسع في سورية بين عامي (٦٠٩ - ٦٠٥ ق.م). لكن انتصار الملك البابلي نبوخذ نصر على المصريين في معركة كركميش (جرابلس) سنة (٦٠٥ ق.م)، أحدث أزمة جديدة للفينيقيين.

هاجم نبوخذ نصر المدن الفينيقية، وحاصر مدينة صور ثلاث عشرة سنة، ثم دخل المدينة وخلع ملكها (ايتوبعل الثاني) عن العرش، ونصب مكانه الملك (بعل)، فدان له بالولاء. بعد الملك (بعل) تنقطع سلسلة الملوك. وتعاقب على صور قضاة[1]، هم (اكتيبال، خلبيس، آبار، متين، جراستوانوس). خلال هذه المرحلة تولى ملك واحد هو (بالاتور)، دام حكمه سنة واحدة، ثم عادت صور إلى الظهور، وظهر فيها سلسلة جديدة من الملوك، أولهم الملك (مربال)، الذي حكم أربع سنوات، ثم خلفه أخوه حيرام. خلال هذه المرحلة كانت فينيقية تابعة للبابليين.

أما في العهد الفارسي:

فلم يظهر الفينيقيون أي تمرد، وإنما كانوا راضين عن ما حدث. ففي عهد الملك الفارسي (قمبيز)، وضعت المدن الفينيقية تحت تصرفه أسطولها في الحملة، التي سيرها إلى مصر، إلا أنهم لم يشتركوا في حملته على قرطاجة. وفي عهد داريوس الأول (٥١٥ - ٥١٤ ق.م)، طبّق تقسيماً إدارياً في الامبراطورية الفارسية (ولايات - مرزبانات)[2] يحكمها ويدير شؤونها ملوكها وأمراؤها المحليون، الذين كانوا ينعمون بشيء من الاستقلال. لكن تحت رقابة قادة، يضمنون دفع الجزية، والولاء العسكري للامبراطور الفارسي. في هذا التقسيم جعلت المدن الفينيقية في الولاية الخامسة. **يقول**

---

(1) سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية - ص٥٣.

(2) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - طبع بيروت ١٩٨٥ - ج١ - ص٢٤٠.

فيليب حتي[1] : كانت سورية وفلسطين بالإضافة إلى قبرص في الولاية الخامسة، التي سميت مرزبانة (عين نهرا)، وتدفع الجزية، مقدارها (٣٥٠وزنة)، وكان الفينيقيون يقدمون المساعدة للفرس في حربهم ضد الإغريق.

أخذت المدن الفينيقية تتوسع فعلاً، فمثلاً: سيطرت صور على الساحل من شرقنا حتى جبل الكرمل، إضافة إلى مرفأ يقع عند السفوح الجنوبية من جبل الكرمل وعسقلان. أما أرواد فقد امتدت سلطتها على الإقليم الساحلي، وضمت صيدا، ولها السيادة على سائر المدن الفينيقية، وضمت مدينة يافا ودورا إلى ممتلكاتها، ثم إن هذه المدن الثلاث اتفقت فيما بينها على تأسيس أو إعادة تأسيس المدينة المثلثة طرابلس، حيث يؤسس كل منها حياً خاصاً بها.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد حدثت مستجدات على الساحة الدولية. ففي عام (٣٩٢ ق.م)، احتل الإغريق جزيرة قبرص، وغزو فينيقية، وخضعت لهم مدينة صور، وغيرها من المدن خضوعاً مؤقتاً. وفي عام (٣٦٢ ق.م) أقام ملك صيدا استرابون علاقات طيبة مع الإغريق، ورحب بمقدم جيش مصري إلى بلاده، لكن الفرس قضوا على استقلال صيدا.

بعد ذلك اعتلى عرش صيدا الملك (تنيس)، وحكم من (٣٥٤ ـ ٣٤٤ ق.م)، وتمرد على الحكم الفارسي، لكن الفرس قضوا على التمرد بوحشية، وأراقوا الدماء، وأحرقوا المدينة. خلف الملك تنيس على عرش صيدا (استرابون)، في عهده تم استسلام المدينة للاسكندر الكبير، وبذلك كانت نهاية الحكم الفارسي للساحل السوري، وسيطر الإغريق.

فتحت المدن الفينيقية (أرواد ــ جبيل ــ صيدا) أبوابها أمام الفاتح الجديد (الاسكندر) بعد معركة أسوس، التي خسرها الفرس عام (٣٣٣ ق.م)، كان ملك صور (آزي ــ ملكوس) قد بقي على ولائه للفرس، إلا أن الاسكندر تمكن منها، وعفا عن ملكها، وأعيد بناؤها على هيئة قلعة، لما لها من أهمية استراتيجية كي تكون مقراً للإغريق، وبذلك تكون المدن الفينيقية خضعت للإغريق، إلى أن كانت سنة (١٢٠ ق.م)، حيث تمكنت صور من استعادة استقلالها، كما استعادت صيدا استقلالها سنة (١١١ ق.م)، وحتى بعد الغزو الروماني عام (٦٤ ق.م) ظلت صور وصيدا وطرابلس تنعم باستقلال نسبي حتى جاء التحرير الإسلامي.

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ طبع بيروت ١٩٨٥ ـ ج١: ص٢٤٢.

الأحوال العامة عند الفينيقين:

من المعروف أن الفينيقين لم يتوصلوا إلى الوحدة السياسية[1]، لأنهم اتبعوا نظام المدينة، الذي ساعد على وجود نزاعات داخلية بين هذه المدن، إلا أن ذلك لم يصل إلى مرحلة العنف لعاملين مهمين: هما قوة الدول المجاورة من جهة، وانفتاح الساحل الفينيقي على البحر المتوسط من جهة أخرى، فانشغلوا عن الحروب الداخلية بالملاحة البحرية، وبرعوا فيها. مهما يكن فقد لوحظ انقسام المدن الفينيقية إلى قسمين: من الناحية الشكلية، شمالي: يدور في فلك الحثيين، ومن تلاهم كالآشوريين، ومن بين هذه المدن (أوغاريت - أرواد - سوكاس) وحتى طرابلس، والقسم الثاني جنوبي: يدور في فلك السياسة والنفوذ المصري، ومن هذه المدن: جبيل، صيدا، وصور وعسقلان وغيرها.

ولكل مدينة فينيقية كيان مستقل، يشمل المنطقة المسكونة(المدينة)، والريف الذي يحيط بها، والمدينة تحكمها ملكية وراثية، والملوك يحملون ألقاباً، وصفات مثل العادل والصالح. كما كان يوجد صلات هامة بين الوظائف الملكية والكهنوتية، حتى أن بعضهم كان ينحدر من أصل كهنوتي.

وعملت المرأة كوصية، وحكمت البلاد باسم وصايتها. مثلاً حكمت (امياشتارت) بصفة وصية على العرش سنوات عديدة، لأنها الوصية الشرعية على ابنها اشمونصو، واستخدمت صيغة الجمع إشارة لنفسها، وإلى ابنها، عندما كانت تكتب عن الأحداث، التي كانت تجري إبان حكمها.

يساعد الملك في مهامه موظفون، بعضهم يشرف على إدارة القصر والمدينة، وبعضهم الآخر كان يعاون الملك في أداء مهامه، وكان لكل مدينة مجلس شيوخ[2] أعضاؤه من كبار التجار، أو من عليّة القوم. مثلاً مجلس الشيوخ في صور كان يتمتع بصلاحيات اتخاذ القرارات في غيبة الملك، وفي صيدا كان مجلس الشيوخ يتكون من مائة عضو، وكان باستطاعتهم اتخاذ إجراءات بحق الملك.

لكن الأمر لم يستمر بعد الغزو الآشوري. حيث أصبح يعين لكل مدينة حاكم آشوري يكون رقيباً على سياسة الملك. أي أن الحاكم الآشوري كان المفسر الوحيد لأوامر الملك الآشوري، والمشرف على النشاط السياسي، الذي تقوم به المدينة، وفي بعض المدن الفينيقية الأخرى كمدينة

---

[1] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية - ص٥٩.

[2] نور الدين حاطوم - نبيه عاقل - أحمد طربين - صلاح مدني: موجز تاريخ الحضارة - طبع دمشق ١٩٦٥- ص٢٤١.

سيميرا، كان الحاكم الآشوري يتولى الحكم في المدينة مباشرة لعدم وجود ملك فيها.

قسم المجتمع الفينيقي إلى ثلاث طبقات، الأولى: طبقة الحكام، وعلى رأسها الملك. علماً أن الشعب الفينيقي كان يعتقد أن الملوك من سلالة الآلهة، لذلك كان من الواجب الانصياع لهم، وتنفيذ أوامرهم. الثانية: طبقة الكهنة (رجال الدين)، وعلى رأسهم الإله (ملقارت) في مدينة صور، ثم الأثرياء، الثالثة: عامة الشعب. وكان ماء الشرب يجمع في المدن والجزر بصهاريج. وقد كشف علماء الآثار عن بقايا هذه الصهاريج، و لم يدخروا جهداً في الاستفادة من الينابيع، إذا وجدت، كما فعل شعب جزيرة أرواد عندما نقلوا مياه نبع، وجد عندهم إلى جزيرتهم.

وعن الأزياء الفينيقية، فقد كشف عن جذع رجل تزينه تنورة مثناة، يزينها من الأمام أفعيان كبيرتان، ويحتمل أن يرجع هذا الجذع إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، وكشف عن تنورة كانت ذات حواشٍ ثلاث، كما كشف عن جذوع رجالية مكسوة بجلود الأسود، وأثواب فصلت على قدها تماماً.

وكشف عن تمثال لأنثى، ترتدي قبعة مستديرة، وقلادة ضيقة، ورداءً طويلاً، لفّ عليه زنار، له ذؤابتان من الأمام. ولها ضفيرة طويلة مدلاة على الظهر، وضفيرتان صغيرتان جانبيتان. وعثر على تمثال في بعلبك، يكسوه رداء طويل، يرجع تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد. وارتدى الفينيقيون القلنسوة المخروطية الصغيرة، والقلنسوة التي تشبه التاج الأبيض الخاص بمصر العليا. على الجانب الأمامي من القلنسوة ثعبان، وشرابة مدلاة من الأعلى إلى الخلف، واستخدموا التاج الأسطواني الصغير.

الديانة:

من الصعب إعطاء فكرة كاملة عن الديانة السورية، بسبب قلة المعارف المتعلقة بهذا الموضوع من جهة، وقلة المصادر وندرتها، وتوزعها على مدار حقب تاريخية مختلفة من جهة أخرى. لهذا تبقى الديانة السورية بحاجة إلى دراسة موسعة في المكتشفات الأثرية، التي لم يزل بعضها غامضاً، يحتاج إلى دراسة وتحليل.

انتشرت الآلهة في المدن السورية، حيث كان لكل مدينة تقريباً إلهة خاصة بها[1]، فمثلاً جبيل وصور وصيدا وبعلبك وغيرها كانت آلهتها الرئيسية ثلاثة. أي أن ثالوث الآلهة كان شائعاً في المدن

---

[1] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ ص٦٨.

الفينيقية. يتألف هذا الثالوث من: إله يحرس المدينة، يأتي في قمة الهرم، يليه: الإله الذي يرمز إلى الخصوبة، ومن إله ثالث فتي، يعبر عن الحياة والموت. أما عبادة النجوم فكانت نادرة. وكانت العبادة تقام في الجبال قرب المياه والأشجار والصخور، التي تتصف بالقدسية. وكانت المعابد تتألف من باحات مكشوفة تحيط بالحرم، في وسطها مصلى أو بيت الآلهة، تذبح أمامه القرابين من الحيوان والنبات. أما القائمون على المعابد، فكانوا كهاناً وكاهنات، وكان الفينيقيون يؤمنون بالحياة بعد الموت.

بعد الاكتشافات الحديثة وخاصة أوغاريت، اتضح: أن الديانة الفينيقية كانت تنصب على عبادة قوى النمو والتوالد، التي يعتمد عليها كيان المجتمع الزراعي، والذي يهتم بتربية الماشية في أرضٍ، أمطارها قليلة. هذا وقد تأثرت مصر في عصر الدولة الحديثة بالديانة الكنعانية، وعبدت عدداً من آلهتها، وأدخلت عدداً آخر في أساطيرها، كما فعل اليونان والرومان الشيء نفسه.

وأهم صفات الديانة السورية، كما يذكر فيليب حتي: كان الحزن على موت إله النبات، وإجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه إله الموت والعالم الأسفل، حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لإنتاج موسم العام الجديد، والفرح عند عودة الإله إلى الحياة، وإن زواج الإله بعل بعد بعثه بإلهة الخصب عشتار، تنتج عنه تلك الخضرة التي تكسو الأرض في الربيع، وهذا الزواج المقدس، الذي يتخذ صفة روحية رقيقة يصبح فيما بعد اتحاداً بين الإله وشعبه. ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف، وعودته إلى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجدد للشمس المنتصرة، عندما تظهر بعد اختفائها في الشتاء، وقد كانت أسطورة تموز القديمة تتضمن ذلك، وسمى الكنعانيون هذا الإله أدون (سيد)، ثم اقتبسه اليونان وجعلوا منه أدونيس، أقيمت عبادته هناك في القرن الخامس قبل الميلاد. وجعل معادلاً لأوزيروس المصري. وكان أدونيس أشهر الآلهة السورية.

والديانة الفينيقية (الكنعانية) لم يكن لها منهج كهنوتي منظم تنظيماً صارماً. لذا خضعت لتطورات كثيرة. إذ اختفت الآلهة، وحلت محلها أخرى. كما تبنى الفينيقيون آلهة أجنبية، احتلت مكانة هامة بين الآلهة الفينيقية.

ثم إن الفينيقين حددوا تصوراتهم الدينية في مبدأين، الأول: الاعتقاد بأن الكون وخلقه كان من صنع الله الواحد القهار المبدع. الثاني: عملية الإنجاب والخصب، وما يرافقها من ظواهر طبيعية

أخرى مثل المطر والرعد والعواصف. كان إله السماء منذ البدء يتربع قمة الهرم الإلهي. فمثلاً كان الإله (إيل) يحتل مرتبة إله الكون الخالق مع زوجته (أثيرة) في الأساطير الأوغاريتية، وكان يوصف بأبي الآلهة وخالق الأرض.

وأقدم الهياكل الكنعانية المكتشفة تعود إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت في أريحا ومجدو. حيث كانت الفكرة الأساسية في بناء الهياكل هي تزويد الآلهة بمساكن خاصة. وبواسطة الهياكل كان يتم الاتصال بين الآلهة والبشر. وأهم صفات الهياكل كان المذبح الصخري، والنصب المقدس، والعمود المقدس، والغرف تحت الأرض.

وللفينيقيين أماكن مقدسة محلية، معظمها مزارات في الهواء الطلق على رؤوس التلال. أما عادة الدفن، فكان الأولاد يدفنون بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها، بحيث تدخل الرؤوس أولاً، وكانت الجرار توضع تحت أرضية المنزل، وكثيراً ما كانوا يدفنون مع الجثة مصباحاً وجرة وصحناً كبيراً، وغير ذلك من أواني الطعام والشراب، وكانوا يدفنون النساء، ومعهن حبات الخرز، وسائر نواحي زينتهن. كما كان الرجال يدفنون بكامل سلاحهم.

الآلهة الفينيقية:

١- إيل[1]: اسم عام لفكرة الألوهية، عرف في كل اللغات السامية عدا الأثيوبية، يتمتع بأهمية خاصة، ويقف على رأس هرم الآلهة.

٢- أدونيس[2]: إله من آلهة الخصب السورية، ورغم أنه سوري الأصل، لم تعرف عبادته في سورية إلا في عصور متأخرة. ومعناه الرب أو السيد، يوصف بأنه كان يموت، ويبعث للحياة بعد الموت، أي يعبر عن تعاقب الحياة والموت. إذاً الإله أدونيس هو أحد الآلهة الساحلية يوصف بالجميل، كانت نساء جبيل يندبنه على ضفة النهر المسمى باسمه. يقول فرانس التهايم[3]. لم يكن أدونيس الإله الوحيد، لقد نشأ في غزة كل من (بعل مارقود) إله الرقص، و(مارناس) إله المياه والأمطار، كذلك أقيمت الاحتفالات المياماسية الماجنة التي كانت النساء فيها يستحممن عاريات، فيقبل الشبّان على هذه الاحتفالات بملء قدراتهم العقلية، ويغادرونها وقد تبدلت حالهم. والحق أن

---

[1] د. ادزارد ـ م.هـ. بوب ـ ف ـ رولينغ: قاموس الآلهة والأساطير ـ ص١٧٥.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٦٨.

[3] فرانتس التهايم: إله الشمس الحمصي والديانات الحمصية في الامبراطورية الرومانية ـ طبع دمشق ١٩٩٠ـص٣٥.

كل هذه الطقوس اتصفت باللهو، والمجون الخاص بأعياد الخصب.

٣ـ **بعل**[1] : ومعناه أيضاً الرب أو السيد، لم تكن فعاليته قاصرة على صيدا وحدها، بل تشمل سائر المدن السورية، لأنه إله الطقس والعاصفة.

٤ـ **اشمون:** الإله الشاب الذي يموت ويبعث من بين التراب. ويذكر: أن موطنه الأصلي بيروت، ثم انتقل إلى صيدا.

٥ـ **ملقارت:** وهو إله رئيسي لمدينة صور، ومؤسس مدينة قرطاجة. انتشرت عبادته في أرجاء واسعة من العالم.

٦ـ **عشتار**[2] : ظهر اسم هذا الإله في النصوص الأوغاريتية، ويجسد في الكتابات العربية الجنوبية الولد البكر لإله القمر (سن)، انتشرت عبادته في مؤاب منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

٧ـ **بعل شميم**[3] : كانت عبادته منتشرة، ورد اسمه في جبيل، وكان من جملة الآلهة، التي كان يقسم بها في مدينة صور، ويعني الاسم سيد السماء.

وعن الآلهة التي نشأت في شمال سورية أو في السهول الداخلية، فلها صورة أخرى. يقول فرانتس: انتشرت عبادة (عترجانيس) في المناطق الوسطى والشمالية، وكان أشهر معابدها في (بامبيكه ـ هيرابوليس) منبج اليوم، وقال: كذلك عرف البغاء المقدس في بعلبك، حيث عبدوا (عترجانيس) تحت اسم (فينوس) إلى جانب (جوبيتر ـ حدد) ومركور شمس، مشكلين الثالوث الإلهي.

أما الإله جوبيتر الدمشقي[4] ، فقد تمتع بالإنعام القيصري في عهد الامبراطور سيفيروس (٢١١ ـ ١٩٣ ق.م) وأذينة ملك تدمر. وفي بعلبك وجدت عبادة الثالوث الإلهي (جوبيتر حدد ـ فينوس عتر جانيس ـ مركور شمس). وكان إله الشمس (شمش) أعلى الآلهة. لكن ذلك لم يكن ثابتاً. حيث يرتقي الإله حدد إلى المرتبة الأولى. كذلك في تدمر منزلة الاله هيلبوس (إله الشمس دون

[1] د. اذزارد ـ م.هـ. بوب ـ ف ـ رولينغ: قاموس الآلهة والأساطير ـ ص١٨٢.

[2] المرجع نفسه: ص٢٢٢.

[3] المرجع نفسه: ص٢٠٢.

[4] تحول هذا المعبد في صدر الاسلام إلى الجامع الأموي.

منزلة الإيل). أما في حمص فإله الشمس الحمصي لم يتخلَ عن المرتبة الأولى كما في بعلبك. ومن الآلهة الأخرى:

١ـ شدرفا: ورد ذكره لأول مرة في كتابات فينيقية من عمريت، تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، كما تذكره كتابات تدمر مراراً. ويشير اسم الإله (شدرفا) إلى وظيفته الطبية.

٢ـ بعل بقاع: باسم هذا الإله سميت مدينة البقاع، وكان يعرف بإله السهول الواقعة بين جبال لبنان الشرقية والغربية.

٣ـ دجن: عرف بهذا الاسم في العراق وسورية وبوقت واحد، والمعنى الأصلي لاسمه غير معروف بدقة. كشف علماء الآثار في أوغاريت معبدين متجاورين، أحدهما: للإله بعل، والثاني: لوالده دجن.

٤ـ كاموش: اسم الإله الرئيسي في دولة مؤاب، ويقترن اسمه أحياناً باسم الإله عشتار، ويسمى عشتار كاموش.

٥ـ الإله يم[1]: أثبتت النصوص الأوغاريتية وجوده. حيث تتحدث عن إله البحار والأنهار يدعى الإله يم، ويعتقد: أن كل المخلوقات البحرية المخيفة ما هي إلا تعداد ظواهر الإله يم، تصوره أقدم النقود الفينيقية بجذع إنسان وبجسم وذيل سمكة.

الأبجدية الفينيقية:

كانت سورية مهد الحضارات، حيث انصبت فيها كل المؤثرات والتأثيرات الخارجية وتفاعلت فيها، وقامت سورية بتصدير المنتوج الحضاري المتمازج إلى الغرب، إذاً إن الإنسانية بأكملها تعتبر مدينة للفينيقين، وخاصة بعد اكتشاف الأبجدية، التي أصبحت مع الزمن مصدراً أساسياً لكل الكتابات الأبجدية المعروفة حالياً.

والفينيقيون هم أول من وضع الحروف الهجائية في التاريخ، وهم الذين أعطوا هذه الحروف قيماً عددية حسب نظام عشري مجزأ وغير مكتمل[2]. وأول نعمة أعطيت للبشرية كانت الأبجدية،

---

[1] رينيه دوسّو: الديانات السورية القديمة ـ ديانات الحثيين والحوريين والفينيقيين والسومريين والآراميين ـ ترجمة موسى ديب الخوري ـ طبع دمشق ١٩٩٦م ـ ص٤٥.

[2] موريس شربل: الرياضيات في الحضارات الإسلامية ـ طبع بيروت ١٩٨٨ ـ ص٣١.

التي نقلها اليونان غالباً بين (٨٥٠ - ٧٥٠ ق.م). وأعظم منحة أنعمت بها الحضارة السورية على البشرية. وإلى العرب السوريين القدماء يعود الفضل في اكتشاف ديانة التوحيد. ولهم الفضل في اكتشاف المحيط الأطلسي[1]

ذكرنا أن اليونان كانوا قد نقلوا الأبجدية السورية، وحافظوا على الأسماء السامية للحروف، وعلى شكلها العام وترتيبها، وكانت تكتب في البداية من اليمين إلى الشمال كالفينيقية. وعن الفينيقين أخذ أبناء جنسهم الآراميون أبجديتهم، وبواسطتهم تم نقلها إلى شعوب الشرق.

والأبجدية الفينيقية مؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. من صفاتها الساطة، حيث يسهل استعمالها قراءة وكتابة. يقول فيليب حتي: إن الفينيقين كانوا أول من أوجد نظاماً أبجدياً راقياً في الكتابة، ونشروه في العالم، وأخذوا أساس أسلوبهم من مصادر مصرية هيروغليفية عن طريق سيناء.

يقول **فيليب حتي:** حوالي نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد، حين اتفق لأحد الأسرى الكنعانيين، أو لأحد العمال في مناجم الفيروز في سيناء (كما يظن)، أن يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من إتقان ما فيها من تعقيد، وأن يستعمل العلامات الساكنة.. وقد أعطيت العلامات الساكنة أسماء سامية، وقيم سامية... وقال: وعلى ذلك فإن العامل في سيناء استخدم فكرة الأبجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية، وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن أن تنتهي بها الكلمات....

وقد اكتشفت كتابات أثرية كنعانية عرفت بالأبجدية الخطية في (لاكيش، وبيت شمش)، ترجع إلى القرنين الرابع عشر، والثالث عشر قبل الميلاد. هذا وقد اخترع فينيقيو (أوغاريت) نظاماً أبجدياً آخر على أساس مختلف، فكتبوا أبجديتهم بقلم على ألواح الطين، ولذلك اتخذت شكل علامات مسمارية أو إسفينية.

والتراث الأدبي الكنعاني، اقتبسه العبرانيون، ودخل في كتاباتهم المقدسة، وطبّق بشكل خاص على القطع الغنائية، والحكم، التي استعارها سفر الأمثال، والمزامير، ونشيد الإنشاد، وعلى الأخبار الخرافية، التي دخلت في سفر التكوين، وفي قصص الأنبياء، و لم يكن هذا الأمر معروفاً إلى أن اكتشفت مدينة أوغاريت.

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ج١ - ص١١٧.

حروف الأبجدية الكنعانية

قلم قرت حدش   اقلام متأخرة   القلم القديم

א
ב
ג
ד
ה
ו
ז
ח
ט
י
כ
ל
מ
נ
ס
ע
פ
צ
ק
ר
ש
ת

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21

الفن الفينيقي:

الفن الفينيقي يندرج في نطاق الفن السوري، والمعروف أن الفن السوري له خصائص استقلالية، فالفينيقيون كانوا أعظم المنتجين للأشياء التزينية في الشرق القديم، وأهمها: الصفائح العاجية، والطاسات المعدنية والمجوهرات والأختام. ففي مجال العمارة اكتشفت البعثات الأثرية عن بقايا حرم في كل من تل سوكاس وصيدا وعمريت، وكشف في تل سوكاس عن أطلال لبناءين مقدسين، إلا أنه لم يتضح تصميمها بعد. ويحيط بالأطلال سياج، عرضه سبعة وخمسين متراً، وطوله سبعة وثلاثون، ويتكون من مصطبتين، تنحدران من أعلى التل إلى النهر، ويعود تاريخ هذا الحرم إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أو قبله بقليل.

وقيل عن المباني المقدسة، التي كشف عنها في عين الحياة: بأنها كانت مؤلفة في الأصل من بركة. على كل جانب منها نبات خفيض، ولها مصليان، بنيا على نفس طراز مصلى عمريت، يرجعان إلى زمن لاحق غير بعيد، أحد المصليين وجد بحالة جيدة يشبه شبهاً شديداً مصلى عمريت، وقد زين سطحه على الطراز المصري، وله رتل من اليودايوس (الأفاعي)، يعلوها قرص الشمس. والقبور المكتشفة بعضها كان حجرات واسعة تحفر في الصخر، يؤدي إليها دهليز أو سرداب.

أما قبر الملك حيرام الذي يوجد تابوته في مدينة جبيل، فقد كشف عن مدخل رأسي ودهليز وحجرة الجثمان. أما في العهد الفارسي فقد أصبحت القبور في صيدا تفتح على الجدران الشاقولية من الممر الرأسي، وكان القبر أحياناً مجرد فتحة، تفتح في الصخر، تغطى بحجر فوق مستوى الأرض، كما هو الحال في ضريح اشمونصو في صيدا.

أما العمارة المدنية فكانت تحاط بأسوار ذات أبراج وحصون، جاء وصفها في الرسومات الآشورية[1]، إلا أنها كانت ذات صفة عمومية. وكان هناك فرع من الفن المعماري شجعت عليه أحوال كنعان التاريخية. هو بناء الحصون للدفاع عن المدن ضد هجمات البدو المحيطين بها، ولكن لم تكن لهذه الأبينة قيمة فنية كبيرة. لكن الحفائر في أوغاريت وآلالاخ كشفت عن بعض القصور الملكية، التي كانت تبنى على نمط نظائرها في أرض الرافدين. والأبنية الدينية كانت تتكون في الغالب من أرض في العراء تحيط بها أسوار، تضم مذبحاً وحجراً أو أكثر من الحجارة المقدسة.

وأما حفر الصور البارزة فكان فناً مزدهراً نسبياً أيضاً، حيث وجدت آثار قليلة في غرف

---

[1] سباتينو موسكاتي: الحضارة السامية القديمة ـ طبع بيروت ١٩٨٦ ـ ص١٣٤ وما بعدها.

القبور الفينيقية، كانت جدرانها محلاة بألوان زاهية، يغلب عليها اللونان الأحمر والأخضر مع زخارف من أكاليل الزهور والطير والبشر والحيوانات. وانتشر استعمال الأختام، وحدث تقدم في صناعتها مثلها مثل الحلي، وأدوات الزينة.

عرف الفينيقيون فن النحت فصنعوا التماثيل، ونحتوها من الحجارة، كالحجارة الرملية. كما عرفوا الصناعات البرونزية، وكشفت التنقيبات الأثرية عن تماثيل أنثوية، عثر على بعضها في بعلبك، وعرفوا النحت الحجري النافر كالنصب المقدسة والمسلات، ويذكر: أن أقدم مسلة عَثر عليها هي مسلة عمريت، كما كشف عن مسلة أخرى من قبل بعثة إيطالية عام (١٩٦٤م) في أكزيق بفلسطين، وكشف أيضاً عن مسلة تعود إلى الحقبة الفارسية. كما عرفوا النحت على النواويس، وكان ناووس احيرام أقدمها، ويرجع هذا الناووس إلى القرن الثالث عشر أو القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

عرفوا أيضاً صناعة العاج المنحوت بالنافر، حيث عثر عليه في صيدا، وترجع نشأة عاجيات المنطقة الفينيقية إلى بضعة قرون قبل العهد الفينيقي، وعرفوا النوافير العاجية، التي تعود إلى العصر البرونزي المتأخر، والتي كشف عنها في أوغاريت وجبيل، وجعلت العاجيات في البوابة لأغراض الزينة، وكانت العاجيات تتألف من صفائح مستطيلة محفورة بالنافر، وموضوعاتها الصبيان ـ البنات ـ النساء ـ الحيوانات ـ وغيرها.

وعرفوا كذلك الأكواب والزبادي المعدنية المزينة، بعضها مصنوع من الذهب والفضة والبرونز، وبعضها كان ذا سطح مزخرف كلياً، إلا أنها كانت خالية من الترصيع، وبعضها يحتوي على أفاريز مختلفة، رسم عليها مشاهد حربية. وعرفوا فن النقش على الأختام على هيئة شبيهة بالجعلان، حيث غلب الختم المسطح على الختم الأسطواني، وعرفوا الفخاريات، والخزف، والحلي، وفنوناً أخرى.

الزراعة:

استثمر الفينيقيون كل المساحات الصالحة للزراعة أفضل استثمار، واستفادوا من المياه المتوفرة في أغراض الري، ففي الأراضي الزراعية السهلية انتشرت زراعة الحبوب، وتوسعت زراعة الكرمة، والتين والزيتون والنخيل، وعرفوا زراعة الرمان، وخاصة في قرطاجة، واعتمد الفينيقيون في الفلاحة المحراث البسيط، الذي يجره ثور، واستخدموا حجر الرحى في طحن الحبوب، لكن كما هو

معلوم كان أهم عامل في الاقتصاد الفينيقي استثمار غابات الأرز، تلك الغابات التي كانت تمد البلدان المجاورة بالخشب الثمين. إذاً كان الاقتصاد الفينيقي اقتصاداً زراعياً[1]، قائماً على خدمة الصناعة والتجارة الخارجية، فمثلاً كانت الأنهار (كالليطاني، والنهر الكبير، ونهر إبراهيم، ونهر الكلب، ونهر الدامور) تروي الأراضي المحاذية لها، كما تمكن الفلاح الفينيقي من ري الأراضي، حيث امتاز المهندسون الفينيقيون بمهارة عالية في بناء السدود والجسور.

الثروة النباتية:

تقسم الثروة النباتية في المنطقة الفينيقية إلى قسمين رئيسيين، **الأول**: يشمل السهول الساحلية، وساد في هذا القسم الأشجار، التي تنبت في سواحل المتوسط كالكرمة والزيتون والتين والحبوب والقمح والشعير، ومختلف أنواع الأزهار الربيعية والتوت والعفص، يضاف لما ورد اللوز والسفرجل والتوت. **الثاني**: المرتفعات الجبلية، ويشمل الثروة النباتية كأشجار الأرز والشوح والسنديان، وكانت أخشاب الأرز[2] من أهم المواد التجارية الهامة، التي كانت تتبادلها المدن الفينقيية مع منتجات شعوب العالم القديم.

أما الحيوانات الفينيقية فمنها البرية: كالدببه والنمور والسباع والثعالب والأرانب والذئاب، ومنها الأهلية: مثل الحمير والثيران والماعز، إضافة إلى الثروة السمكية. كما اشتملت أرض البلاد على معادن كثيرة مثل الرخام والحديد والرمل الناعم، الذي كان يستعمل في صناعة الزجاج.

الصناعة:

كانت الصناعات مزدهرة بشكل عام رغم الحروب، وكانت متنوعة منها: الصناعات المستخرجة من الإنتاج الزراعي كالخمور والزيت، وصناعة الأقمشة ذات اللون الأرجواني، وصناعة الأنسجة الصوفية والقطنية[3]، ثم الحرير كما سنلاحظ فيما بعد. واشتهر الفينيقيون الصناعات الخزفية، وصناعة المراكب البحرية للصيد، وصناعة السفن التجارية منها والحربية، وصناعة تحويل المعادن، وصناعة العطور.

يقول فيليب حتي: « كانت أقدم وأفضل صناعة كنعانية صناعة الخزف (السيراميك)،

---

[1] فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنا ـ طبع لبنان ١٩٧٢ ـ ص٥٥.

[2] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ ص٢٥.

[3] يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ـ بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص٦٣.

التي بلغت ذروتها في التقدم قبل سنة (١٥٠٠ ق.م) [١] ». وقال عن صناعة النسيج الأرجواني: «إن اسم الفينيقين ذاع في أنحاء العالم بفضل النسيج، الذي كانوا يصنعونه، لاسيما النسيج، الذي كان يصبغ باللون الأرجواني، وكانت صور مركز هذه الصناعة » [٢].

عرف الفينيقيون صناعة المجوهرات والحلي، وكانوا أسيادها [٣]، ومنها العقود والأساور والأقراط والدبابيس والصدريات التي يزين بها الصدور، وقد كشف عنها في المدن الفينيقية. كما كشف عن رصائع مصنوعة من الذهب ذات تزيين نافر.

ومن المعروف أن اكتشاف الزجاج كان قد ارتبط بالكنعانيين، وينسب الاكتشاف التلقائي لمادة الزجاج إلى تجار مادة النطرون، الذين نزلوا الشاطىء السوري قرب عكا. ففي أثناء قيامهم بما يلزم لإعداد طعامهم، لم يعثروا إلا على أحجار، استخدموها كمساند للقدر، ولكن نترات البوتاس ما لبثت أن انصهرت بتأثير النار، وامتزجت برمل الشاطىء مما أدى إلى ظهور سائل شفاف، فكان ذلك بداية فجر اكتشاف الزجاج وصناعته [٤].

وقيل: إن صناعة الزجاج كانت معروفة قبل الفينيقيين في مصر في مرحلة، تعود إلى ما قبل التاريخ، لكن هذه الصناعة ازدهرت، وتقدمت على أيدي العرب القدماء في سورية، ومنها انتقلت إلى العالم. إذاً يعتبر الزجاج [٥] صناعة فينيقية نموذجية، وهم الذين أشاعوها في أنحاء العالم القديم، فإلى جانب الزجاج الكتيم، الذي كان يستعمل في مصر، أشاع الفينيقيون الزجاج الشفاف والملون، فصنعوا من الزجاج الأكواب والقناني والقوارير وغير ذلك.

ومن الصناعات الأخرى ضرب القطع النقدية [٦] وقد عثر على بعضها في صور، ويرجع تاريخها إلى العهد الفارسي، حيث وجد على أحد وجهي العملة نقش، يمثل الدلفين والموج وقوقعة المريق، وعلى الوجه الآخر بومة. كما عثر على قطع نقدية في صور وأرواد وصيدا وجبيل. وصنع الفينيقيون الفخار، وقد عثر في المقابر على سلسلة من التماثيل الفخارية الصغيرة بعضها

---

[١] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٢١.

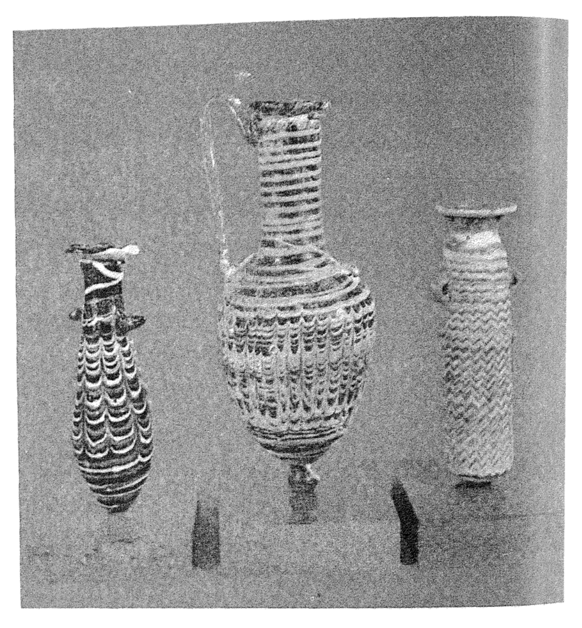
[٢] المرجع نفسه: ص١٢١.

[٣] فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي ـ ص٥٧.

[٤] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الأربعين ـ ١٩٩٠ ـ ص١١٣.

[٥] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ ص١٤٤.

[٦] المرجع نفسه: ص١٢٠.



زجاج فينيقي (القرن ٥-٣ ق.م)
متحف دمشق الوطني

ذكوري، والآخر أنثوي، كما صنعوا من الفخار التمائم.

كما صنعوا الخزف الناعم المطلي بالأحمر، حيث تم الكشف عنه في المدن الفينيقية وبكثرة. وقد كشف عن ثلاثة نماذج رئيسية من الأباريق الخزفية، الأول: ذو شفة عش الغراب، الثاني: الإبريق ذو الشفة الثلاثية (الوريقات والعنق الطويل)، الثالث: الإبريق ذو المخروط الثنائي، وأقدمها يعود إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد. وصنعوا الجرار ذات العروة الواحدة، والمصابيح النموذجية ذات الأطباق المفتوحة، والمنقار الواحد، وصنعوا الأختام[1] والأثاث، لكن أهم صناعاتهم كانت الأنسجة، وصناعة السفن، ومعاصر الزيت والعنب.

واستعمل الفينيقيون الحجر في نحت القبور، وصناعة التوابيت الحجرية، لكن كان من أهم الصناعات الفينيقية صناعة النسيج كما ذكرنا، فلقد صنعوا الأثواب المتعددة الألوان، واشتهروا بصبغهم لمنسوجاتهم بمادة، يفرزها المريق، والمريق عبارة عن حيوان بحري من الرخويات، والمريق الميت يفرز سائلاً إذا وضع فوق مادة بيضاء اصطبغت باللون البنفسجي، وهذا اللون هو الأرجواني الذي التصق باسم الفينيقيين.

وامتاز الفينيقيون باستيراد المعادن من الخارج لتطوير صناعاتهم، فمثلاً استوردوا النحاس من قبرص، والفضة والذهب من الحبشة، أو من بلاد الأناضول، والعاج من الهند.

الفينيقيون والبحر المتوسط:

أعقب غزو شعوب البحر فراغ سياسي في منطقة الساحل السوري، حيث استطاعت بعض المدن الفينيقية أن تستعيد أنفاسها وتزدهر بسرعة فائقة مثل مدينة صور وصيدا وجبيل، إذاً كانت هذه الاضطرابات السياسية الواردة الذكر من العوامل الرئيسية، التي سمحت للفينيقيين أن يستغلوا ضعف البحرية الإغريقية، وانطلقوا في البحر المتوسط، يبنون المستوطنات البحرية البعيدة عن الصراع الدائر في الشرق، من ذلك مدينة قرطاجة.

ومن العوامل الأخرى: العامل الاقتصادي، الذي يرتبط بالعامل السياسي، فقلة مساحة الأراضي القابلة للزراعة أدى إلى تحويل اتجاه السكان إلى الاعتماد على التجارة البحرية والبرية. هذا وقد ساعد على تطور التجارة عوامل عديدة أهمها: موقع مدنهم على رؤوس متوغلة داخل البحر، وعلى جزر منقطعة. كما ساعد توفر الأخشاب على احتراف صناعة السفن. إضافة لما ورد

---

[1] من أراد التوسع في معرفة الأختام فعليه بكتاب (الأختام الأسطوانية في سورية) بين (٣٣٠٠ - ٣٠٢٠ ق.م) - طبع سورية ١٩٨٠م.

نجد أن الساحل الفينيقي قد تحكم بالطرق الدولية عبر المتوسط، تلك الطرق التي كانت تربط حضارات العالم القديمة بعضها ببعض وخاصة في مصر.

بدأت العلاقات التجارية الفينيقية بمصر منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ونتيجة لتطور التجارة وتسهيل أعمالها وجدت جالية مصرية مقيمة في مدينة جبيل. ومن أهم الصادرات الفينيقية إلى مصر الأخشاب والثياب الأرجوانية والخمور والزيوت، وكان للزيوت دور مهم في استخدام هذه التجارة، لأن المصريين كانوا يستفيدون من مادة الزيت في عمليات التحنيط، التي لا غنى للمصريين عنها، بالمقابل كان الفينيقيون يستوردون من مصر الذهب والمصنوعات المعدنية، والمواد اللازمة للكتابة.

يقول الدكتور أحمد فخري[1]: إن نقوش معبد الملك (ساحورع) في (أبو صير)، تدل على مدى توطيد العلاقات التجارية بين مصر، والمدن الفينيقية في عهد الأسرة الخامسة (٢٤٨٠ ـ ٢٣٥٠ ق.م). كما عمل المصريون كوسطاء تجاريين في إيصال بضائع دول شرقي المتوسط إلى الشعوب الأخرى. وكان من نتائج الازدهار الصناعي في المدن الفينيقية أن نشطت التجارة البحرية في المتوسط، واحتكرت أطرافه واهتمت بأصول الملاحة. من أجل ذلك أسس الفينيقيون محطات تجارية على سواحل المتوسط، وفي الجزر الواقعة داخله، حتى وصلوا إلى غرب إسبانيا، وفي الشمال إلى جنوب بريطانيا، حتى ذكر البعض أنهم وصلوا أمريكا.

هذا وقد ساعدت كثرة الموانىء على ازدهار الحركة التجارية لديهم من جهة، وعلى بناء الموانىء من جهة أخرى. لذلك كانت طبيعة بناء مدنهم على رؤوس داخل البحر، أو جزر قريبة من الساحل، واعتمدوا مبدأ وجود الميناءين.

والبحر المتوسط يمتاز بشبكة مواصلات بحرية وبرية مترابطة مع بعضها بعضاً، كلها في متناول اليد طرق على طرق. في البداية لعبت الملاحة النهرية في بلاد الرافدين عبر نهري دجلة والفرات دوراً بارزاً في نماء ورخاء البلاد، وكانت في البداية تتم بواسطة أطواق، تتألف من قرب منفوخة مربوطة بعضها إلى بعض. كانت تحمل بأحمال ثقيلة، وتنزل باتجاه جريان الماء، وعند انتهاء الرحلة كانت تفرغ من حمولتها، ويعاد بها إلى نقطة البداية محمولة على ظهور الدواب، ثم أصبحت المراكب تصنع من القصب، ثم تطورت فيما بعد.

---

[1] أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص٦٢. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج١ ص١١٠.

أما المراكب المصرية[1] فعكس ذلك، صنعت في البداية من حزم البردي المربوطة بعضها إلى بعض مع وجود مقدمة ومؤخرة وقعر، ثم تطور صنع المراكب، واستبدل الأسل بألواح خشبية، وكتل من الجميز والأكاسيا أو بأخشاب من أرز لبنان. وهكذا بدأت الرحلات بين مصر، وبين مدن الساحل السوري منذ فجر التاريخ، لنقل خشب الأرز من لبنان، والقار من البحر الميت، والزيت والخمر من سورية. ثم تشكل أسطول تجاري في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد يربط جبيل بمرافىء الدلتا، علماً أن المراكب كانت من نمط مصري، وتمويل مصري. لكن من المحتمل أن تكون قد بنيت على أيدي الكنعانيين، وأن يكونوا هم الذين يقودونها.

والمراكب الشراعية من النموذج المصري كانت مرفوعة من الطرفين بزاوية تكاد تكون قائمة. وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد أخذ يظهر نموذج آخر من المراكب الخفيفة، تسير على الشراع، وعلى المجذاف، وهي مجهزة بأجهزة تجعلها تقاوم صدمات الرياح، وتغطس بالماء، فتعطيها توازناً أكبر، ومقاومة للرياح.

أما الطرق البحرية[2] : وجدت ثلاثة طرق تجتاز البحر المتوسط من أقصاه إلى أدناه في خطوط متوازية.

الطريق الأول شمالي: ملاصق للسواحل الشمالية من اليونان وجزرها إلى الساحل الإيطالي حتى مضيق مسينا، ومن هناك إلى شواطىء صقلية.

الطريق الثاني جنوبي: هو الطريق الذي يحاذي ساحل إفريقيه من مصر إلى جبل طارق.

أما الطريق الثالث: فيجري وسط البحر، يصل بين سلسلة من الجزر (كقبرص ـ كريت ـ مالطة ـ صقلية ـ سردينيا)، وهذا الطريق استغله الفينيقيون رغم خطورته إذ كان الفينيقيون الرواد الأوائل في الملاحة البحرية، يسافرون في الليل ويحددون موقعهم بواسطة النجوم (الدب الأصغر). وفي هذا المجال لا بد من الإشارة إلى الطريق الدولي البري القادم من دلتا النيل عبر سيناء وفلسطين، حيث يتفرع إلى فرعين عند جبل الكرمل، الذي يكاد ينحدر مباشرة في مياه البحر، فيواصل فرع صغير من هذا الطريق متابعة الساحل لربط المدن الساحلية الفينيقية ببعضها. بينما يتجه الفرع الثاني

---

[1] فرنان بروديل: البحر المتوسط المجال والتاريخ ـ ترجمة يوسف شلب الشام ـ طبع دمشق ١٩٩٠ ـ ص٦٧.

[2] فرنان بروديل: البحر المتوسط المجال والتاريخ ـ ص٨١. هاري بورشر: ص١٠٢.

نحو الداخل عبر سهول مجدو، وأعالي نهر الأردن.

وفي مدينة دمشق ينعطف الطريق الداخلي إلى الغرب عابراً جبال لبنان الشرقية عند ممر الزبداني، ثم يواصل سيره داخل سورية متتبعاً نهر العاصي حتى الشمال، وعند مدينة قادش ينفذ فرع منه عن طريق النهر الكبير إلى الساحل الفينيقي، ومن المعلوم أن معظم الغزاة كانوا قد سلكوا هذا الطريق، عندما كانوا يحاولون احتلال بلاد الشام. من ذلك يظهر أن الساحل السوري كان جسراً أرضياً، يربط بين عدة حضارات، مثل حضارة وادي النيل، وحضارة بلاد الرافدين، وغيرها من الحضارات.

والساحل الشرقي للبحر المتوسط الذي سكنه الفينيقيون هو شريط من المرافىء الصغيرة، تتوضع على أشباه جزر، أو جزر صغيرة. فمثلاً مدينة صور، التي ترتبط اليوم بالبر بمواد ركامية، كانت قد بنيت فوق جزيرة ضيقة وجدت فيها ما هو ضروري لها من دفاع فعال، ومرفأين الأول في الشمال: يربط المدينة بصيدا، والثاني في الجنوب: للمواصلات التي تبحر إلى مصر، بالإضافة إلى وجود نبع فاتر من الماء الصالح للشرب عثر عليه وسط المياه المالحة.

وكان لا بد للمدن الفينيقية[1] من أن تتاجر وتصدّر منتجات صناعاتها الخاصة، ففيها حرفيون وحدادون وصاغة وبناؤو سفن، وكانت منسوجاتهم الصوفية ذائعة الصيت، بالإضافة إلى ما اقتبسوه من الدول المجاورة من صناعات كالزجاج والخزف. تمكن الفينيقيون أن يصلوا بتجارتهم إلى البحر الأحمر كما شارفت على المحيط الأطلسي، وبنوا المستعمرات، ومن أهمها قرطاجة[2]، التي كانت تشكل محطة على الطريق بين صور وأسبانيا، وبعد ذلك أصبحت مدينة عالمية، حتى دمرها الرومان عام (١٤٦ ق.م).

اعتمد الفينيقيون في حياتهم الاقتصادية على البحر المتوسط، ويعود السبب إلى وجود سلاسل جبلية موازية للساحل، قللت من السهول الزراعية، علماً أن هذه الجبال وفرت لهم مادة الخشب، التي احتلت جانباً مهماً في اقتصادهم، ومن المعلوم أن البحرية التجارية عند الفينيقيين كانت قد سبقت البحرية الحربية. فمنذ البداية كانت القوارب والسفن الفينيقية معدة للحمولة الخفيفة، مثل الصيد، ونقل البضائع بين المدن الفينيقية من خلال الطرق البرية، أو كانوا يحاذون

---

(١) جرجي أفندي: تاريخ سورية ـ طبع بيروت ١٩٨٦ ـ ص٣٢.

(٢) قتيبة الشهابي: هنا بدأت الحضارة ـ ص٢٤.

الشاطىء في تجارتهم البحرية.

وتختلف السفن التجارية عن السفن البحرية، فالتجارية كانت مستديرة، ولها مقدمة ومؤخرة مرتفعتان، في الوقت الذي كانت فيه المقدمة تصنع بشكل شبه عنق، ورأس طير. كما أن السفن التجارية في البداية كانت شراعية، ثم تطورت فزودت بالمجاذيف، وأصبحت تتسع لحمل أكبر كمية ممكنة، واعتمد الفينيقيون في أسفارهم البحرية على النجم القطبي، حيث بلغ الأسطول التجاري الفينيقي أقصى ازدهاره في شرق البحر المتوسط منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وخاصة في مدينة صيدا وصور، ثم انتقل اعتباراً من السادس قبل الميلاد إلى قرطاجة، حيث حلت محل صور في سيادة القسم الغربي من البحر المتوسط.

إن العوامل التي ساعدت الفينيقيين على التوسع في البحر المتوسط كانت سياسية، تتركز حول الصراع السياسي والعسكري، اللَذين كانت تخوضهما الدول المجاورة بقصد الاستيلاء على سورية. ومن هذه الدول كما هو معروف (المصرية ـ الحثية ـ الآشورية ـ الكلدانية) وغيرها.

وقد بدأت العلاقات المصرية في الساحل الفينيقي منذ حوالي الألف الثامن قبل الميلاد، وتميزت اعتباراً من الأسرة الخامسة، وتعتبر مدينة جبيل أول مدينة، تلعب دوراً مهماً في هذه العلاقات التجارية، ثم توطدت السيادة المصرية في فينيقية في عهد الملك تحوتمس (١٤٩٠ ــ ١٤٣٦ ق.م)، و لم يضعف هذا النفوذ إلا في عهد الفرعون (أخناتون)، الذي اهتم بالأمور الدينية، وقدمها على السياسة.

في هذه المرحلة استغل الحثيون الوضع الراهن بقيادة الملك الحثي (شوبيلوليوما)، الذي حكم (١٣٨٠ ـ ١٣٥٥ ق.م)، والذي توسعت في عهده الدولة على حساب المدن الفينيقية، ورغم ذلك بقي الساحل السوري مسرحاً للصراع بين الحثيين والمصريين، حتى كانت معركة قادش (١٢٩٦ ق.م) بين الطرفين، وعقدوا أول معاهدة بينهم تنص على عدم الاعتداء، وقسموا الساحل السوري إلى منطقتين، شمالية: تحت النفوذ الحثي، وجنوبية: تحت النفوذ المصري الإسمي، وبقي الوضع على ما ورد حتى غزوات شعوب البحر، التي اندفعت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقضت على الدولة الحثية، وهدمت عاصمتها بوغازكوي (كاتوشا)، ثم تابعت الغزو نحو الساحل الفينيقي فدمرت مدنه مثل أوغاريت.

الفصل الثاني

المدن الفينيقية

المدن الفينيقية:

أوغاريت

- موقعها وتاريخها
- الأوضاع العامة
- الأدب الأوغاريتي
- ملوك أوغاريت

صــور

- ملوك صور

صيدا

- ملوك صيدا

جبيل

- ملوك جبيل

أرواد

- ملوك أرواد

عمريت

مرقبه

بانياس

تل داروك

عرب الملك

قرفيص

سوكاس

جبلة

قارته

سيميريا

طرطوس

أوغاريت

موقعها وتاريخها:

تقع أوغاريت على الشاطىء السوري على بعد (١١ كم) شمال محافظة اللاذقية على بعد (١ كم) عن المينا البيضاء، حيث توضع الميناء التجاري البحري الأوغاريتي. تبلغ مساحة أوغاريت (٢٢ هكتاراً)، وعدد سكان المدينة من أربعة إلى خمسة آلاف، وعدد سكان المملكة يتراوح ما بين (٣٠ ـ ٤٠ ألف نسمة)، وكانت القلعة مركز المدينة. يحدها من الجنوب دول صغيرة كدولة سيانو أو شناتو، ومن الشمال مملكة زلخي، وجبل السابانو إلى الشرق من منطقة جبلة، وتضم من (١٨٠ ـ ٢٠٠) قرية، وأراضيها مروية بشكل جيد مما جعلها أراضي زراعية. وكانت مسكونة منذ ما قبل التاريخ، كما كانت مركزاً تجارياً مزدهراً ونقطة التقاء القوى العالمية آنذاك (مصر ـ متيين ـ حثيين).

يقسم تاريخ أوغاريت إلى عصرين[1]:

١ـ العصر الذي سبق القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، خلال هذا العصر كانت أوغاريت على علاقات حسنة مع جيرانها. فمثلاً كشف فيها آثار مصرية من عصر الامبراطورية الوسطى (٢٠٥٢ ـ ١٦١٠ ق.م)، كما كان لها علاقة وصلات تجارية وثيقة مع حلب وفارس. وكما كان لها علاقات حسنة مع مدينة آلالاخ في سهل العمق.

٢ـ عصر أوغاريت الذهبي الذي يمتد من (١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م): خلال هذا العصر شهدت أوغاريت عدة ملوك. أقامت علاقات ودية مع الحثيين والمصريين. كما انفردت (أوغاريت) دون غيرها من المدن الكنعانية باستعمال الأبجدية في الكتابة..

امتلكت أوغاريت عدداً كبيراً من الموانىء البحرية منها المينا البيضاء، وميناء جبلة (غابالا)،

---

[1] علي أبو عساف: نصوص من أوغاريت ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٩.

وشوكس (تل سوكاس)، وميناثي أتاليفي، وخارمانوف قرب حدود سيانو، وشناتو التي لا تبعد أكثر من (٤٠ كم) عن أوغاريت.

ومن المعلوم أن أوغاريت[1] اكتشفت عام (١٩٢٨م)، وأبرزت الحفريات الأثرية فيها خمس طبقات. **الطبقة الأولى**: يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الأخير من (١٤٥٠ ـ ١٢٠٠ ق.م)، **الطبقة الثانية**: يعود تاريخها إلى العصر البرونزي المتوسط إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. في هذه المرحلة غدت مستوطنة غنية ومركزاً هاماً للتجارة الدولية، وكان لها علاقات مع مصر، وبلاد العراق القديم. **الطبقة الثالثة**: يعود تاريخها إلى العصر البرونزي المتوسط أي النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد. في هذه المرحلة غدت مستوطنة غنية، ومركزاً هاماً للتجارة الدولية وكان لها علاقات مع مصر، وبلاد العراق القديم. **الطبعة الرابعة**: ويعود تاريخها إلى العصر البرونزي المبكر أي النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد، في هذه المرحلة ظهرت الأواني الفخارية، وهي قريبة من الحضارة التي اكتشفت في تل حلف. **الطبقة الخامسة**: وهي أقدمها، ويعود تاريخها إلى العصر النيوليتي ما قبل الفخاري، وما يهمنا من هذه الطبقات هو الطبقة الأولى، التي أكدتها مكتشفات أوغاريت، وأهمها مواد الأرشيف، وأرشيف الملك. والى أوغاريت يعود الفضل في اختراع أبجدية من واحد وثلاثين حرفاً[2] مستعملة خصائص الكتابة المسمارية.

يقول **عفيف بهنسي**[3]: في عام (١٩٣٣م)، عثر في مدينة أوغاريت (رأس شمرا) قرب اللاذقية على رقيم صغير الحجم، يحوي عدداً من الصيغ المسمارية، عددها ثلاثون شكلاً، تبين بعد الدراسة والتدقيق: أن هذه الأشكال المسمارية، ما هي إلا حروف أبجدية، لم يعرف لها نظير. كما كشفوا الشؤون المالية الملكية، ومعظم هذه الوثائق كتبت باللغة الأوغاريتية، المحلية، وبعضها الآخر كتب باللغتين الحورية والأكادية. كما عثر على رسالتين إلى الملك الحثي، ووثائق تشريعية، وعلى مراسلات دبلوماسية، وعثر على مجموعة من الوثائق من الأرشيف العائد إلى راباتوم.

ويمكن تقسيم الوثائق، التي وصلتنا من أوغاريت كلها، من حيث الشكل والمحتوى إلى المجموعات التالية: آ ـ وثائق تتعلق بعمليات تجارية، وعمليات تبن، وثائق ذات صبغة تاريخية مفترضة. **ب ـ** الرسائل الدبلوماسية الخاصة. **ج ـ** القرارات القضائية الصادرة عن ملك قرقميش.

---

(١) أحمد أمين سليم: ص٤٨. الحوليات الأثرية السورية: المجلد الثامن والتاسع (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) ـ ص٢٤٠.

(٢) فرنان بروديل: ص٨٠.

(٣) عفيف بهنسي: الشام والحضارة ـ طبع دمشق ١٩٨٦ ـ ص٤٦.

د ـ المعاهدات التي أبرمت بين مملكة أوغاريت والمملكة الحثية.

يقول كلود شيفر[1]*: إنه اكتشف إناءين ذهبيين سنة (١٩٣٣م) في رأس شمرا، وهما أقدم أناءين رسمت عليهما حوادث تاريخية، وعهدهما من أول القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهما يدلان على براعة الصنّاع السوريين في هذا العصر، وأسلوب صنعتهما، يعطينا فكرة واضحة عن الفعالية الصناعية في أوغاريت، وعن مكانتها بين صنّاع العالم القديم.

وقال: إن رأس شمرا وسورية الشمالية، كانتا في أول الألف الثاني قبل الميلاد مركزاً من مراكز انتشار سكان خبيرين بالمعادن، وعارفين بطرق إذابتها، وكيفية مزجها، وكانوا يحملون في أعناقهم أطواقاً برونزية ثقيلة، لكل منها عقفتان، وقد ابتكروا عدداً من الأدوات والأسلحة النحاسية والبرونزية. وذكر: أن الفرعون المصري (سزوستريس الثاني) نحو (١٩٠٠ ـ ١٨٨٨ ق.م)، كان قد بنى هرمه ومدافنه الملكية بمساعدة فنانين وصنّاع سوريين.

وقال: ووجدنا في قاعة أمانة السر خلال أعمال سنة (١٩٤٨م) الوثيقة، التي انتشرت أخبارها في كل أقطار العالم، والتي عرفت باسم أبجدية رأس شمرا، وهي أقدم أبجدية معروفة إلى اليوم، وعهدها القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفيها ثلاثون حرفاً، تتابع كما تتابع حروف الأبجدية الفينيقية الكلاسيكية.

وفي سنة (١٩٥٠م) تم اكتشاف ذروة التل، وإظهار حي في المدينة المنخفضة تحت معبد بل، كما ظهر أن أوغاريت كانت مركزاً مهماً، يرتاده التجار الإغريقيون في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وأكد على أن مرفأ المينا البيضا الحالي، الذي كان مرفأ مدينة أوغاريت القديم، هو المرفأ المعروف باسم (لوكوس ليمن)، وفي أسفل التل عثر على حي جديد من أحياء المدينة، يرجع عهده إلى آخر الألف الثالث قبل الميلاد، وظهر أن هذا الحي كان مخصصاً للصناعات، حيث كشف عن مسكن لصائغ، يصنع الأطواق من الزجاج والعقيق، وكشف عن حجرين من الخزف الأبيض، عليهما كتابة هيروغليفية، كما عثر على ختم حجري لأحد ملوك أوغاريت، كما عثر في رأس شمرا على خاتم مشغول بعناية فائقة حفرت عليه الكتابة والرسوم بعناية، وعرف أن صاحبه هو (تابراي)، حيث كان مسؤولاً في البلاط الحثي، وكان صاحب الختم المذكور، قد أعاد إلى أوغاريت خادماً أوغاريتياً، كان يعمل عنده مقابل سبعين شاقلاً. وفي نفس العام انتهى الكشف عن المدخل

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الأول ـ الجزء الأول ـ ١٩٥١ ـ ص١١٥.

الغربي للقصر مع الباب، الذي يتقدمه، وعدداً من الغرف المحيطة بفناء داخلي. وظهر: أن هذا القصر يشبه في تخطيطه مقراً للملك آلالاخ (نقماد) في موقع تل عطشانة. إلا أن قصر أوغاريت لا يمكن مقارنته إلا بأفخم القصور المكتشفة في بلدان شرقي البحر المتوسط، بل في الشرق الأدنى بصورة عامة[1]. وتم الكشف في القصر عن ستين غرفة قائمة حول فنائين داخليين، وخمسة مداخل لكل منها رواق قائم على عامودين، وعشرة أدراج، توصل إلى الطابق الأول.

وفي العام نفسه تم الكشف عن خاتم[2] على شكل عدسة حجرية، ذات لون رمادي مائل السواد، يبلغ قطره (٥٠ مم)، وسمكه (١٣ مم)، وجهه المنقوش محدب بينما وجهه الخلفي منبسط وأملس. يشمل الإطار الخارجي لنقش الخاتم على حروف مسمارية، أما وسطه فيتألف من رموز هيروغليفية حثية مرتبة على شكل متناظر، وكأنها تدل على شعار، وأكد: أن هذا الخاتم هو حثي، يعود لمرسل الثاني ابن شوبيلوليوما، وكان يحمله رسول للملك الحثي المقيم في أوغاريت.

وقال: إن على الزائر عندما يريد ولوج القصر، كان عليه أن يعبر أولاً باب ممر مدرج مسقوف، ثم يجتاز دهليزاً منعطفاً مكشوفاً لبرج مربع في تحصينات السور. بعد ذلك يسير باتجاه المدخل الغربي للقصر، أمام هذا المدخل ساحة مفروشة ببلاط، ثم يستقبل الزائر بهواً مرصوفاً يكتنفه مقعدان حجريان مرتكزان إلى الجدار، يظلله رواق مستند إلى عمودين من الخشب، قطر الواحد منهما نصف متر، يقومان على قاعدة أسطوانية من الحجر.

ثم يخترق الزائر الباب الأول للقصر، وعرضه ثلاثة أمتار، تعترضه عتبة من حجر واحد، يبلغ سمكه متراً، يلي ذلك الإيوان الموصل يميناً إلى داخل القصر، ويساراً إلى دواوين الإدارة المالية، والمتجه عن يمين الإيوان باتجاه قلب القصر يجد باباً آخر بعرض ثلاثة أمتار ينفتح على فناء الشرف المرصوف بالصفائح الحجرية. وباتجاه الجنوب الغربي يوجد بئر القصر ذو الفم المبني من حجر واحد، وإلى جانبها جرن كبير.

ويقوم في الغرب من فناء الشُرف برج مربع التخطيط، يحتوي على عدة غرف وسلم، ويتصل الفناء من الجهة المقابلة بغرف وقاعات وممرات وأدراج تطوق في فناء داخلي آخر، وفي نهايته الشرقية يوجد موقد كبير من الحجر الكبير. كما اكتشفت المقبرة الملكية إلى جوار السور

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الثاني - ١٩٢٥ - ص١٢٥.

[2] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الأول - الجزء الثاني - ١٩٥١ - ص٢٧٥.

الشمالي، تتألف من خمسة مدافن لها عقود بارزة. كما تم الكشف عن جناح إضافي للقصر من ناحية الشرق، وماورد وتم الكشف عنه كان مخصصاً للعمل الرسمي لإدارة المملكة، وأملاك الدولة[1].

ومن الآثار التي تم الكشف عنها قطع كثيرة من آنية للزينة مصنوعة من رخام أبيض، وهي هدايا من فراعنة مصر لملوك أوغاريت. أما الأواني الفخارية، فقد كشف عن جرار كبيرة تعود إلى القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كما كشف تحت أرض القصر عن بعض آثار عمرانية وقبرين، ترجع إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، مما يدل على أن القصر كان قد أقيم فوق بناء أقدم منه.

إذاً اكتشفت سبعة مداخل للقصر، وأحد عشر درجاً تؤدي إلى الطابق الأول. ويبلغ طول أقسام القصر المكتشفة ما عدا مدخله الشرقي الحصين (١٢٠م) من الشرق إلى الغرب، و(٨٥م) من الشمال إلى الجنوب، وتمتد هذه الأقسام على مساحة، تزيد على عشرة آلاف متر مربع. وقد تم الكشف عن (٦٧) غرفة وقاعة منتظمة حول خمس باحات داخلية.

وظهر أن واجهات القصر الخارجية مبنية من الأحجار الكبيرة المنحوتة، ومجهزة بدعائم مربعة، وكشف من الجهة الجنوبية الشرقية قاعة مربعة، في مدخلها عمودان، وكشف في الجنوب عن باحة واسعة، وعن قاعات فسيحة مجموعة حول باحة صغيرة، لها مدخل محمول على عمودين في شرقها، كشف في هذا المدخل (الباحة وفي قاعة عربية) لوحات فخارية كثيرة تؤلف جزءاً من السجلات المركزية. وفي جنوب هذا القسم من القصر اكتشفت باحة في الزاوية الشمالية الشرقية، حيث يتفرع منها ممر، يؤدي إلى جناح منفصل عن القصر. ووجد في القسم الشرقي من القصر عدد من اللوحات الفخارية المسمارية، كانت محفوظة في أربع غرف ضيقة قرب مدخل القصر الشرقي، وتم الكشف عن خمسة خطوط، كانت مستعملة في أوغاريت هي (المسماري - البابلي — المسماري الأبجدي « الأوغاريتي » الهيروغليفي الحثي - الخط القبرصي).

أما عن علاقة أوغاريت بمصر، فقد عثر على عدد كبير من الأواني المصنوعة من الألباتر، يحمل بعضها رموز الفراعنة الذين حالفوا ملوك أوغاريت مثل تحوتمس الثالث (١٥٠٤ — ١٤٥٠ ق.م)، وأمينوفيس الثالث (١٤٠٨ - ١٣٧٢ ق.م)، أخناتون (امنوفيس الرابع) (١٣٧٢ — ١٣٥٤

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الثاني - ١٩٥٢ - ص١٠٦.

ق.م)، الملكة نفرتيتي، حور محب (١٣٥٤ ـ ١٣١٤ ق.م)، ورعمسيس الثاني (١٣٠١ـ١٢٢٥ أو ١٢٩٠ـ١٢٢٤ ق.م)، كما كشف في القصر عن سجلات خاصة محفوظة في غرفتين، تقعان في النهاية الجنوبية من جناح القصر الجنوبي، الذي تم الكشف عنه سنة (١٩٥٣م)، وعددها (٢٠٠) لوحة. وهذه اللوحات تؤلف الوثائق السياسية والاقتصادية والكتب المتبادلة بين أوغاريت والبلاد الشمالية والشمالية الشرقية، وخاصة مع الامبراطورية الحثية.

تؤكد هذه النصوص: أن ملوك أوغاريت كانوا مستقلين في بلادهم على الرغم من تأديتهم بعض الجزية إلى ملوك الحثيين، واعترافهم بشيء من سلطتهم السياسية والعسكرية، بدءاً من حكم الملك الحثي شوبيلوليوما. ومع ذلك لم يقبل ملوك أوغاريت التحالف مع ملوك الحثيين إلا مرغمين، رغبة في تخلصهم من تهديدهم لهم، واحتلال الجيش الحثي لبلادهم. علماً أن أوغاريت اتبعت سياسة التقرب المزدوج من الحثيين والمصريين على السواء.

كانت أوغاريت قاعدة للتجارة البحرية والبرية في سورية الشمالية، من أجل ذلك كانت مصلحتهم الاقتصادية، تقتضي تأمين الدفاع عن بلادهم. ومن أجل ذلك يجب أن لا نقلل من أهمية الوسائل الدفاعية، التي اتخذتها أوغاريت، ولا من أهمية تنظيماتها العسكرية. مع اعتبار قوائم توزيعات الأسلحة والعربات والخيول والأقواس وغيرها مما وجدت في رأس شمرا، بالإضافة إلى اهتمام ملوك أوغاريت بالحصن المكتشف في حدود القصر، والذي يملك سوراً، قطره (١٦م)، ومنحدراً مبنياً من الحجر المقطوع، وبرجاً مربعاً، تفوق أبعاده الحصون العسكرية، التي عرفها الألف الثاني قبل الميلاد.

في سنة (١٩٥٣م) بدأ التنقيب في حي، يبعد عن جدار القصر الشرقي مسافة (٤٥م)، يتألف من مساكن خاصة، يقطعه شارعان متوازيان في الاتجاه الشمالي الغربي ـ الجنوبي الشرقي. يبعدان عن بعضهما بمسافة (٢٠م)، ويبلغ عرض كل منهما (٥,٠٣م)، تقوم بينهما مساكن ذات أبعاد ضخمة، لكل منها مدفن أرضي وباحة حاوية على بئر أو حوض للاستسقاء، وتم الكشف عن ثلاث عشرة غرفة من أحد هذه المساكن، حيث عثر في إحدى هذه الغرف على اللوحة الفخارية القبرصية الميتوية. وعثر على تسع وثلاثين لوحة أخرى، كتب منها سبع باللغة الأوغاريتية، واثنتان وثلاثون باللغة المسمارية البابلية. والدلائل الأثرية تشير: أن هذا المسكن ظل مستخدماً إلى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كما كشف عن مسكن آخر واسع قرب المسكن السابق، عثر فيه على أشياء برونزية، لها أهمية تاريخية. حيث كشف في مخبأ من الباحة الداخلية عن رمح، طوله

(٦٥سم) وخنجر ذو قبضة خشبية، ورأس سهم أو رمـح وسيف، طولـه (٧٥ سـم)، وعليـه اسـم فرعون مصر(منفتاح).

يذكر **كلود شيفو**: أن أعمال الموسم الثامن عشر في رأس شمرا (١٩٥٤م)، اقتصـرت علـى اكتشاف الجناحين الشرقي والجنوبي لقصر أوغاريت، حيث ظهر عدد كبير من الغـرف، والقاعـات المرتبة حول باحتين داخليتين، وبلغت مسـاحة مـا كشـف مـن القصـر (٩,٠٠٠كـم). ويقـول: إن الباحة الداخلية في الجناح الشرقي، قياسها (٤٠×٢٥م)، في وسطها حـاجز مستطيل يحيـط بحديقـة صغيرة، بجواره مسكن صغير للبستاني، وحـول الحديقـة ممـر تطـل عليـه أبـواب الغـرف المجـاورة أو أروقتها.

وقد عثر في الزاوية الجنوبية الشرقية من القصر على بقايا مختلفة من الأثاث المذهب، وبعـض الأواني من الباستير وسبائك من الرصاص المفضض. كما عثر على أوزان متنوعـة تصـل حتـى ألـف شاقل، تدل على استخدام النظام العشري بخلاف أوزان بلاد الرافدين، التي اتبعـت النظـام الستيني. علماً أن بعض أوزان أوغاريت كانت تشبه الأوزان المستعملة في مصر. كما وجدت الحسابات على جدران الغرف المحيطة بالممر، والمتعلقة باستلام كميات من الزيت، وبتوزيـع الملابـس علـى موظفـي القصر وخدمه، وبديون مختلفة.

في الزاوية الشمالية الغربية لهذا الممر، عثر على إطـار، قياسـه (٧٥×٨٠سـم) مصنـوع مـن قطع كثيرة من العاج، وبجانبه وجد رأس جميل من العاج الكثيف، علوه (١٥سم)، يمثل أحـد ملـوك أوغاريت، وفي وسط الجناح الجنوبي كشف عن باحة محاطـة بغـرف كثيرة، كلهـا مخصصـة لحفـظ الألواح بالكتابة المسـمارية وتصنيفهـا، والجـدار الخـارجي للقصـر مبـني بالحجـارة المنحوتـة المحدبـة، والباحة الكائنة وراء هذا الجدار تضم حوضاً في وسطها، تنصب مياهه في أقنية، تتصل بأقنية القصر. أما الأقنية التي تأتي بالمياه إلى الحوض، فلا يمكن متابعتها. وعثر في هذه الباحة على بئر. وفي إحـدى زوايا الباحة جدار صغير متهدم، وجدت تحت أنقاضه أشياء مختلفة، منها سيف جميل، قبضتـه مزينـة بالفضة، يشبه السيف الذي وجد رسمه منقوشاً على لوحة عاجية،اكتشفت في القصـر نفسـه. وعـثر أيضاً على فرن مخصص لشي ألواح الخزف، وجدت داخله ألواح مختلفة في حجمها.

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الباحة نفسها، نقب في قسـم المحفوظـات الجنوبيـة للقصـر. ويختص هذا القسم بالألواح الأكادية الآتية من دواوين ملوك الحثيين في بوغازكوي، أو حلفائهم في

شمالي أوغاريت، وتمتاز هذه الألواح بلونها الأحمر أو القرميدي، والمختلفة عن ألواح أوغاريت الرمادية أو السوداء، وعليها خاتم ملوك الحثيين، أو كبار الموظفين في القصر، وقد ختمت بعض ألواح صادرة عن كركميش بالختم الأسطواني، بحسب أسلوب سورية، وبلاد الرافدين.

أما الأختام التي كان يستخدمها ملوك كركميش أو أمورو والأمراء، وكبار الموظفين الحثين، فإن المحفوظات التي وجدت في أوغاريت تشير إلى تعدد هذه الأختام وتنوعها، كما كانت الحال عند الحثيين. أما ملوك أوغاريت فلم يستخدموا شكل الختم المستدير الذي استخدمه الحثيون. إنما تمسكوا بالختم الأسطواني المستعمل في بلاد الرافدين، ووجدت في المحفوظات الوسطى بقصر أوغاريت آثار خاتمين أسطوانيين من النموذج نفسه. إلا أن ملوك أوغاريت بين أعوام (١٤٠٠ ـ ١٢٥٠ ق.م)، كانوا قد استخدموا خاتمين قديمين، كان أحدهما نسخة عن الآخر.

وفي عام (١٩٥٥م) اكتشف الجناح الجنوبي من القصر الملكي، والمنطقة المجاورة له، وتم اكتشاف بناء رسمي، أشير إليه باسم القصر الصغير، الذي يعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو بناء يرتفع جنوب القصر الكبير. كما تم الكشف عن مركز المحفوظات الجنوبي الغربي[1]، الذي كان يهتم بالشؤون الداخلية لأوغاريت. وتتألف هذه المحفوظات من رسائل، وقوائم بأسماء المدن والممتلكات والسجلات، والنصوص الدينية. إضافة إلى ثبتين هدايا من الملك (الشمس)، وصك ملكي، ولوحتين للحروف الهجائية. واكتشف أيضاً قوائم ضريبية تدفع إلى الملك الحثي، توضح كيفية تصرف ملك أوغاريت حول تأمين الضرائب، أو الهدايا المتوجبة عليه إلى سادته، أو إلى من يرغب في توطيد الصداقة معه من رؤوساء الدول المجاورة، أو لتأمين المساعدة العسكرية في حال المنازعات العسكرية. لذلك كانت تفرض وتجبي ضريبة استثنائية على كافة مدن مملكته أو على جزء منها.

كما كشف عن لوحات دينية، أو لوحات مختصة بالطقوس الدينية، وكشف عن صك ملكي هبة[2]، وعن مصانع ملكية في قصر أوغاريت، وآثار نشاط صياغي، وسلاح لضباط، أو رجال حرس ملكي، كما كشف عن وجود مصانع صغيرة، يعمل فيها عدد من الصياغ، وعن قوالب الحلي وأوزانها، والصناديق العاجية، والأحجار الخام الثمينة من الكاليسيدوان والزمرد

---

[1] يتألف من (١٤٧) وثيقة ـ (١٥) رسالة ـ (١٤) قائمة نقابات أو مدن ـ (٣٩) سجلاً ـ (٣٩) لوحة اقتصادية ـ (٢٧) نصاً أدبياً ـ وثيقتين سياسيتين.

[2] الحوليات الأثرية السورية: المجلد السابع (١٩٥٧) ـ ص٢١٧.

العتيق، وتم اكتشاف مشغل لصناعة العاج، كما كشف عن كعب بقرة، مليء من كلا جانبيه بالرصاص. وكشف عن لوحتين مدونتين بالكتابة القبرصية الميتوية، وكشف عن قاعدة لتمثال صغير دون على وجوهها الأربعة كتابات هيروغليفية، حيث يعتقد أن تمثال هذه القاعدة كان يمثل موظفاً مصرياً موفداً إلى أوغاريت بمهمة، وكشف عن لوحات منضدة في غرفة محفوظات القصر الصغير. وتم العثور على تمثالي حوريين، بالإضافة إلى خنجر متين، يعود تاريخه إلى الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. كما تم الكشف عن كمية كبيرة من المعلبات والخنافس العائدة إلى الهكسوس. وبنتيجة التنقيب تم الكشف عن ثلاثة مراكز للسجلات:

أولاً- مركز السجلات الغربي: يقع إلى جوار المدخل الرئيسي للقصر، مواجه المرفأ القديم، تنتهي عنده الطرق الهامة المؤدية إلى المدينة، ويشتمل على قوائم بأسماء المدن، وبالمعونات التي تقدمها لجيش الملك، والضرائب التي تدفعها له عيناً أو نقداً، أو أيام العمل. ويصح تسمية هذا المركز بالمحاسبة العامة للمملكة، أو بيت المال.

ثانياً ـ مركز السجلات الشرقي: الوثائق التي عثر عليها في هذا المركز الواقع عند مدخل القصر من داخل المدينة مدونة بأنواع ثلاثة من الخطوط المسمارية المختلفة، فأكثرها منقوش بالكتابة الأوغاريتية الأصلية، وثلثها مدون بالأكادية البابلية، والقليل منها مكتوب بالحورية، ويتضح من هذه الوثائق: أن زراعة الكرمة والزيتون، ومختلف الأشجار المثمرة كانت زراعتها ناجحة، والغابات نامية، وتربية الماشية مزدهرة، وبعض الوثائق تشير إلى تجارة الأصواف المصبوغة بالأرجوان. علماً أن أقمشة هذه المدينة، كانت تتمتع بشهرة ذائعة في خارج البلاد. كما أن صناعة الثياب، كانت تزركش أحياناً بالأحجار الكريمة كالياقوت والعقيق واللازورد.

كما كشفت في قاعة من الجناح الشرقي آثار مصنع الحلي، والصياغة الخاصة بالملك. كما كشف عن قوالب خاصة بصنع القلائد الأنيقة، وكشف أيضاً عن آلاف اللآلىء المستديرة الصغيرة المستخدمة في صناعة الألبسة. وذكرت بعض الألواح أنواعاً من السلاح من سهام ونبال ومقاليع وأتراس ودروع ملبسة بقطع البرونز، يستعملها محاربو أوغاريت لحماية صدور الخيّال من السهام، كما كانت فرق الصدام من جيش أوغاريت تحمّل على عجلات مزدانة بالزخارف، أو محلاة بطباق الذهب، كما وصفت الوثائق أنواع الأثاث والرياش، منها ما يختص بغرف النوم. كما وجد في مركز السجلات الشرقية عدد من التقارير المرسلة للملوك وملكات أوغاريت مدونة بالأبجدية

المسمارية، وتكون أحياناً صادرة عن بلاط ملوك أجانب. ومن الوثائق ما هو عقود بين أشخاص عاديين ينص فيها على ضمانات معينة. أي أن وثائق هذا المركز، كانت تحتوي على الصكوك الخاصة بالأفراد، وعلى بعض رسائل دبلوماسية.

وأهم الوثائق المكتشفة في هذا المركز، هي تلك الصفحة الفريدة من نوعها، وهي لوحة مزدوجة اللغة، نقش عليها ثمانية سطور من التعاليم الدينية الأكادية مترجمة كلمة كلمة إلى اللغة الحورية. فقدت الآن أهم وثيقة لمعرفة اللغة الحورية المستعصية.

ثالثاً: وفي وسط القصر كشفت مجموعة ثالثة هامة من الألواح، سميت مركز السجلات الأوسط، إلا أن محتوياتها تختلف تماماً عن موضوع الألواح بالمركزين الآخرين. ففي الأخير وثائق حقوقية، تتضمن عقود ملكية خاصة مسجلة باللغة الأكادية. توضح: أن العقود كانت تبرم إما بحضور شاهد، أو بحضرة الملك، أو من يمثل الملك حسب نوعها. وفي الحالتين الأخيرتين يستغنى عن الشاهد. والعقود مسجلة بالمسمارية، وفي صكوك التبني تذكر العقوبات المتوجبة في حال النكث بالعهد.

الأوضاع العامة في أوغاريت:

من المعروف أن تاريخ أوغاريت هو جزء من تاريخ أمتنا العربية القديم[1]، وأنقاضها تقوم على أرضنا، وحضارتها هي من جذور حضارتنا، وعادات أوغاريت وتقاليدها ما زالت موجودة في مجتمعنا العربي.

فالمرأة العربية كانت لها ملكيات شخصية، وأول مصادر هذه الملكية كان المهر، ويتجلى المهر بتقدمة مالية، أو بسلسلة هدايا العرس، التي تقدم إلى الزوجة سواءً من أهل العريس، أو من والد الزوجة أو من عائلتها، لذلك أصبح المهر مالاً أو أملاكاً تأخذها المرأة من إرث أبيها، كي تنشئ حياتها مع زوجها، ويمكنها في هذه الحالة أن تستعيد مالها في حال الطلاق.

لقد تمتعت المرأة العربية في أوغاريت بحقوقها السياسية والاقتصادية بشكل تام، فالمرأة في أوغاريت كانت ملكة، ومالكة لعقارات وأرض وعبيد، وهي سيدة، تتصرف بملكيتها بيعاً وشراءاً ورهناً، وهي شريكة اقتصادية لزوجها في الربح والخسارة والدَين والرهن. إذاً لقد لعبت المرأة في

---

[1] من أراد التوسع في الدراسات الأوغاريتية فعليه الرجوع إلى مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ المجلدان (٢٩ ـ ٣٠) طبع (١٩٧٩ - ١٩٨٠) وهما مختصان بهذا الموضوع.

أوغاريت دوراً هاماً ومركزياً في كافة الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأعطت صورة مشرفة عن دور المرأة العربية آنذاك.

والمهر يتنوع من حالة إلى أخرى، وحسب الحالة الاجتماعية للزوجين. فالمهر يكون إما عقارات، أو منافع منقولة كالطاولات والأسرّة والأقمشة والملابس، وإما أن يكون حلياً مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة الأخرى، إضافة إلى حلي التزيين والأثاث. كما اشتمل المهر على الخدم من النساء والرجال وقطعان الماشية، وللمرأة الحق في إدارة أملاكها، كونها تتمتع باستقلال اقتصادي كامل.

ومن ملكيات المرأة الأخرى كان الإرث، فالإرث أحد مصادر ملكيات النساء في أوغاريت، فالمرأة كانت ترث من أبيها وزوجها. يضاف لما ورد الهدايا، التي كانت المرأة تتلقاها من مصادر أخرى وبأشكال مختلفة، وما زالت مثل هذه الأمور في مجتمعنا حتى تاريخه. والمرأة كانت تتولى إدارة ممتلكاتها بنفسها، ودليل ذلك: أن المرأة في أوغاريت استخدمت الخاتم[1] الشخصي النسائي، ومارست بيع الممتلكات العقارية وشراءها، وعملية تبادل الأملاك العقارية. وبذلك أشرفت المرأة على إدارة ممتلكاتها بحرية.

والمرأة تختلف حسب وضعها الاجتماعي، أي أن مجتمع المرأة قسّم إلى أنواع متباينة فالملكة بما تملك، لأنها تقف على رأس السلم الاجتماعي، وبالنسبة للمرأة لها وضع خاص. إذ كان لها الحق بإدارة أملاكها واستغلالها، وبعمليات البيع والشراء والتبادل. وكان هنالك فرق بين النساء الحرات من جهة، والعبدات من جهة أخرى.

وعرف مجتمع أوغاريت[2] العتق، وهناك طقوس، يتم بموجبها العتق، والطقس الذي يرمز إلى العتق كان التعري، فمن خلعت ثوب العبدة، تسقط العبودية عنها. وعرف هذا المجتمع تعدد الزوجات[3] في الطبقات الأكثر ثراءً، بينما كان في الأغلب محرماً على الفلاحين، كما عرف المجتمع الأوغاريتي الطلاق.

أما من الناحية السياسية، فقد لعبت المرأة دوراً مهماً في السياسة العامة، فالملكة مثلاً كانت

---

[1] بلافد كيين كير فيلا ـ أيوب: النساء في أوغاريت ـ طبع دمشق ـ ١٩٩٠ ـ ص٣٢.

[2] المرجع نفسه: ص٧٤.

[3] المرجع نفسه: ص٨١.

تلعب دوراً مهماً إلى جانب الملك، وفي الوقت نفسه لعبت السيدات في البلاط موقعاً رسمياً في الحياة السياسية لأوغاريت، والملكة كانت تحمل لقب الملكة، والملكة الأم، والزوجة، وتحافظ على مكانتها طيلة حياتها إلا في حالة الطلاق.

وكانت تشارك في ممارسة السلطة، وكان لها تدخل في كثير من الأمور السياسية، ولا ننسى المهام التي كانت تمارسها مع الملك لضمان المحافظة على التماسك الاجتماعي الداخلي لمجتمع أوغاريت، وإلى جانب الملك كانت الملكة تقوم بدور الكاهنة أثناء الاحتفالات الدينية الرسمية، وعرف المجتمع الأوغاريتي الزواج بأرملة الأخ.

وعرف المجتمع الأوغاريتي التبني[1]، وحق المتبنى في ملكية والده، علماً أن المتبنى كان عليه التزامات تجاه والده، عليه أن لا يخل بها، لأنه في مثل هذه الحالة كان يجب عليه أن يدفع غرامة كان قد أخذها على عاتقه.

اعتبرت الزراعة النشاط الرئيسي، الذي مارسه سكان أوغاريت، حيث استخدموا في البداية المعزقة لحراثة الأرض. إذ يذكر: أنها كانت تستخدم عند القيام بطقوس افتتاح موسم الأعمال الزراعية، ومع الزمن تطورت أدوات الزراعة، وظهر المحراث، وتم استخدام الحيوانات كقوة جر. وقسمت الزراعة في أوغاريت إلى قطاعين[2]، **الأول**: المشاعي، وعرف هذا النوع من الملكية الخاصة للأرض، ويبدو: أن المشاعية كانت تمتلك أراضي تتصرف بها وفق ما تشاء بما في ذلك اعطاءها لأي كان، وحق مصادرتها من آخرين وبيعها. **والثاني**: الملكي الحكومي، وخضع هذا النوع لعمليات بيع وشراء، أي أن الملك هو المالك الأعلى لهذه الفئة من الأراضي.

وهناك من يقول: إن المجتمع الأوغاريتي هو مجتمع إقطاعي، إذاً الأرض في أوغاريت كانت موضوع بيع وشراء غير مقيد بأي مدة زمنية أو شروط مسبقة، أما أسعار الأراضي فقد اختلفت تبعاً لنوعيتها وموقعها، ومن حق الملك أن يهدي الأراضي التابعة له، شريطة أن يُؤَدّى إليه خدمة ما، أو مكافأة على الإخلاص والحب، الذي أبداهما الشخص المهدى إليه. كما شاع تأجير الأراضي في أوغاريت، وحالات البيع كانت تشمل الحقول وكروم الزيتون والعنب ومزارع النخيل، وغيرها كبيع البيوت والمعاصر، ولعبت تربية الحيوانات دوراً هاماً في مجتمع أوغاريت خاصة

---

[1] أ ـ ش ـ شيفمان: مجتمع أوغاريت ـ التاريخ الاقتصادي والسياسي والبنية الاجتماعية من القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص١٩ ـ ٣٤.

[2] المرجع نفسه: ص١٧.

الأغنام والماعز والأبقار.

والمطلع على تاريخ أوغاريت يلاحظ تطوراً مكثفاً للإنتاج، فقد عرفت أوغاريت منذ البداية مصنوعات صوانية وعظمية وحجرية، ونتفاً من مصنوعات فخارية، حيث يبدو: أن أرباب الحرف في هذه المرحلة جففوا مصنوعاتهم الفخارية بتعريضها لأشعة الشمس أو لنار خفيفة، ولم تكن فخاريات هذه المرحلة مزخرفة. أما في العصر، الذي يقابل الطبقة الرابعة في حفريات أوغاريت، فقد وجدت كسرات من الفخار المزخرف. أي أن هذه المرحلة اتصفت بزخرفة المصنوعات الفخارية بالتنقيط، وبخطوط مستقيمة ومتعرجة ومتموجة، تتجه إلى مختلف الاتجاهات.

تميزت الطبقة الثالثة من حفريات أوغاريت باختفاء الفخاريات المزخرفة المطلية باللونين: الأحمر والأخضر، وأخذوا يصنعون الأواني الفخارية بأشكال متشابهة من الطين الأبيض أو الرمادي، ويطلونها باللون الأحمر، كما اكتشف في هذه الطبقة أباريق، وجرار ذات قاعدة مصقولة، ووجدت بعض الأكواب، والقدور الصغيرة المطلية من الخارج باللون الأسود، ومن الداخل باللون الأحمر، ووجد في هذه الطبقة مصنوعات برونزية وفؤوس وخناجر ومزاريق ذات قبضة مستقيمة أو معقوفة، ومجوهرات للزينة كالأساور والأقراط والأطواق، كما استخدم سكان أوغاريت المصنوعات النحاسية.

ولم يقتصر الإنتاج المحلي في أوغاريت على ما ورد من مصنوعات، إنما وجد صناعات غيرها كصناعة الأقمشة والملابس والموبيليا والأواني المعدنية والعجلات وكؤوس نحاسية وبرونزية وفضية وصناعة المطاط. وانتشرت وتطورت وازدهرت التجارة البرية والبحرية، مما استدعى تنشيط صناعة السفن. إذاً كانت أوغاريت واحدة من أهم المراكز التجارية، التي عرفتها مرحلة منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وأثبتت المكتشفات وجود علاقات تجارية بين أوغاريت ودول حوض بحر إيجة، شملت الميادين الثقافية والتجارية.

ومن الدول الأخرى التي شملتها علاقاتها التجارية مصر. فالمصنوعات المصرية، التي تم الكشف عنها في أوغاريت، تدل على قيام علاقات سياسية وطيدة بين البلدين منذ الألف الثاني قبل الميلاد، ودعمت هذه العلاقات علاقات تجارية، فقد كشف في أوغاريت عقد من التمائم، يحمل رسماً لرأس سنوسرت الأول، كما كشف تمثال صغير لزوجة سنوسرت الثاني، وتمثالان لأبي الهول يحملان رسماً لرأس امنحتب الثالث. وكشف عام (١٩٧٣م) بالقرب من القصر الملكي بيت، تعود

ملكيته إلى شخص مصري، أقام في أوغاريت إقامة دائمة.

أما عن صناعة الأرجوان في أوغاريت، فقد عثر على آثار هذه الصناعة في المينا البيضا، أي في الحي القديم لحرفاء أوغاريت، حيث كشف عن مصانع ومخازن، يرجع تاريخها إلى ما بين القرن الخامس عشر، والقرن الثالث عشر قبل الميلاد، هذا ويذكر: أن الفينيقيين كانوا يفتحون ذروة المحار، ويخرجوا العصارة الصفراء، التي تملأ جيباً واقعاً في طرفها العلوي. لكن سكان أوغاريت ابتدعوا طريقة أسرع، حيث كانوا يسحقون الأصداف، ويطحنونها، ثم ينقعون العصارة بضعة أيام مع الملح. بعد ذلك يغلونها ويصفونها. وعملية تغيير اللون من الأحمر إلى البنفسجي تتم بصورة متدرجة، والصباغ المستخرج كان باهظ الثمن، وكان اللون المفضل لذوي اليسار. واستخدموا الأرجوان في صباغة الصوف أو الأقمشة المختلفة.

وكان لأوغاريت علاقات منتظمة مع قبرص والمملكة الحثية، ودول ما بين النهرين، وخاصة مع آشور في عهد الملك (امشترو الثاني)، وعلاقات أخرى مميزة مع مملكة ماري. كما أقامت علاقات تجارية مع الصوريين والأرواديين والعكاريين والأشناتو، ومع مملكة سيانو القريبة منها، التابعة لها، ومع جبيل وعكا وصيدا وغيرها كقرقميش.

كما كشفت نصوص، يعود أصلها إلى مدينة أورو، تخص تجاراً كانوا يملكون مستعمرة تجارية في أوغاريت، ويقومون بأعمال تجارية لصالح الملك الحثي، ونشاطهم كان يقتصر على تجارة الترانزيت البحرية فقط، في الوقت نفسه كان يحظر على تجار أورو حيازة ملكية غير منقولة، وعقدت (أوغاريت) مع الدول المجاورة اتفاقيات لحماية التجار والحفاظ على أملاكهم وحمايتها، حيث كان على كل طرف من طرفي الاتفاق إلقاء القبض على قاتلي التجار ومعاقبتهم وإعادة ما سلبوه، ودفع دية القتلى، كما كان التجار ملزمين بتأدية أتاوة للملك.

أما التجارة الداخلية، فكانت متطورة، وكانت تبدو مركزاً اقتصادياً تشد إليه مجموعة من القرى، أخيراً كانت تجارة أوغاريت تشمل مختلف أنواع السلع، كالمعادن من البرونز والنحاس والقصدير والحديد والمعادن الثمينة، والمصنوعات المعدنية والأخشاب والنسيج والملابس، وكانت الوحدة الحسابية[1] هي الوزنة العادية أو الثقيلة من الفضة أو الذهب مع العلم أن الأسعار كانت

---

[1] كانت ثلاث وزنات ثقيلة تساوي أربع وزنه عادية، وزنة ثقيلة واحدة تساوي وزنة وثلث الوزنة العادية ـ مثال: عشر وزنات من الذهب تساوي أربعين وزنة من الفضة.

تتغير تبعاً لنوعية السلعة، هذا ويذكر: أن الوزنة الأوغاريتية العادية كانت قد خرجت من دائرة التعامل مع بداية الألف الأول قبل الميلاد، وبقيت الوزنة الثقيلة هي الوحيدة المستعملة.

شكّل العبيد مكانة خاصة في أوغاريت[1]، وكان العبيد في مجتمع أوغاريت كغيره من المجتمعات مجرد ملكية خاصة لسادتهم، وموضوعاً لمختلف ضروب العمليات التجارية. وقد شملت المعاهدات، التي عقدتها أوغاريت العبيد، حيث نصت هذه المعاهدة: بأنه ينبغي على الملك، الذي يدخل أراضي مملكته عبد فارّ، أن يعيده إلى ملك المملكة التي هرب منها، لتتم إعادته لمالكه الشرعي. وعمل العبيد بالزراعة والتجارة. وكان للعبيد عائلات خاصة بهم، ويعترف المجتمع بها، وكان باستطاعة سيد العبد أن يتصرف به كيفما يشاء، يبيعه ويشتريه أو يستخدمه.

قسمت طبقة الأحرار إلى قطاعين هما:

١ـ المشاعة: وأجهزتها هي التي تدير شؤون هذا القطاع. ٢ـ قطاع الملك: وهو السلطة العليا في هذا القطاع التي تعود للملك. واتسم كل من هذين القطاعين بسمات خاصة، إلا أنه لم توجد حدود مغلقة بينهما، فالشخص الواحد كان بإمكانه الانتساب إلى القطاعين معاً.

أما أجهزة الإدارة في المشاعة، فقد تألفت من المجلس الشعبي، ومجلس الآباء، وماغيسترات، فالمجلس الشعبي كان المؤسسة الفعالة في أوغاريت خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. أما مجلس الآباء فكان يلعب دور الهيئة العليا، التي تفصل في المسائل القانونية، وتحافظ على عادات، وتقاليد المجتمع.

أما مهمة الماغيسترات[2]، فكانت القيام بالمهام الإدارية والقضائية[3]، وكان الماغيستر يسمى: ساكينو أي الحاكم، والساكينو كان يمثل مصالح المجتمع في العلاقات مع الدول الأخرى، وله مراسلاته الخاصة مع حكام تلك الدول، وله مهمات قضائية. يعتقد: أن صلاحيات الساكينو كانت مماثلة لصلاحيات الملك. وكان الساكينو مرتبطاً بمجلس الآباء، أي أنه كان يوجد في مجتمع أوغاريت ازدواجية في السلطة، وكان رئيس السوق يخضع خضوعاً مباشراً للساكينو. وشارك هذا القطاع مشاركة فعالة في الإجراءات القانونية الدولية، التي كانت تمس مصالح أفراد المجتمع.

---

[1] أ ـ ش ـ شيفمان: مجتمع أوغاريت ـ ص١٠٥.

[2] أ ـ ش ـ شيفمان: ثقافة أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ـ طبع دمشق ١٩٨٨ ـ ص٢٥.

[3] أ ـ ش ـ شيفمان: مجتمع أوغاريت ـ ص١٧٦.

أخيراً اعتبر الساكينو موظفي الملك المسؤولون عن إدارة القصر الملكي، وعن إدارة شؤون بيت الملكة، وشارك هؤلاء مشاركة فعالة في الحياة العملية، أي أن الساكينو كان رئيساً محلياً للمدينة ورئيس الإدارة الذاتية في المشاعية، وقام بمهمات رئيس الدولة. عندما كان الأمر يخص المشاعة المدنية. وكان الملك يفوض الساكينو برئاسة السلطة العليا على المدن أثناء غيابه عن البلاد، وإلى جانب هؤلاء وجد فئه أخرى هي رابيسو[1]، حيث شكلوا مكانة هامة في النظام الأوغاريتي، ومثّل هؤلاء مصالح المجتمع في علاقاته مع الدول الأخرى.

كان الملك، كما يعتقد، في البداية من قطاع المشاعية قاد عمل المجلس الشعبي أو مجلس الأباء أو الماغيسترات، وتم تعيينه دون انتخاب في البداية، ثم أصبحت الملكية وراثية فيما بعد، وكان الملك بالنسبة للأوغاريتيين كائناً مقدساً وكان من المفروض أن يتمتع بقوة عضلية فريدة، وصحة جسدية قادراً على الإنجاب ملزماً بإقرار العدالة.

وكان حراس الملك أهم سند للسلطة الملكية، ومع مرور الزمن نشأ من حراس الملك فئة تسمى: ناس الملك أي قطاع الملك، وكانت علاقات الملك مع هذا القطاع علاقات شخصية، استندت إلى تلقّيهم أجراً منه كالأرض مثلاً، وكان من حق الملك أن يسترد هذا الأجر متى شاء وأن يهديها لأي شخص كان، وكان الملك يتمتع بصلاحيات إدارية وبوليسية. وكان هذا القطاع (ناس الملك) ينقسم إلى شرائح مختلفة أولها:

١ـ الماجا روخي[2]: هم جنود مسلحون بالبلطات، كانوا يشكلون حرس القصر، يقود هذه الفئة قائد خاص، تسلموا راتباً نقدياً من الملك إضافة إلى مؤونتهم، وهذه الفئة كما يذكر لم يعيشوا دائماً في القصر، بل توزعوا في مختلف أماكن الدولة الأوغاريتية.

٢ ـ المارينو[3]: تمتعت هذه الفئة بوضع اجتماعي خاص، إلا أن التفاوت في امتلاك الثروة كان إحدى ميزاتها، وكانوا من قوام الملاك العامل في قصر الملك. إلا أنهم كانوا يقطنون بعض المدن، إضافة إلى مدينة أوغاريت. والعسكريون من المارينو كانوا راكبي عربات، وعملوا إلى جانب كونهم مقاتلين تجاراً. كان المارينو منظمين في فرق يتسلمون مؤونتهم من خزانة الدولة،

---

[1] أ ـ ش ـ شيفمان: مجتمع أوغاريت ـ ص١٨٠.

[2] المرجع نفسه: ص٢١٠.

[3] المرجع نفسه: ص٢١٠.

ويخضعون لقيادة رئيس أصحاب العربات.

٣ ـ **ساناتو**[1]: هم مجموعة من المقاتلين، يشاركون في الحرس الشعبي، وهم فئة كثيرة العدد من المشاة، ينتسبون إلى فئة ناس الملك.

٤ ـ **المورعو**: بعضهم كان تحت تصرف الملك مباشرة، وقيل: أنهم ضباط الجيش الأوغاريتي.

٥ ـ **مودو**: وهم أشخاص، يمارسون حرفة ما، وينتسبون إليها.

٦ ـ **شاتامو**: كانوا من ناس الملك، وحصلوا على الأرض منه، وكان يتصرف بأملاكهم، كما شاء.

٧ ـ **عشيرو**: وهم فئة، أدّوا بعض الواجبات في قصر الملك، والملك هو، الذي كان يمنح لقب، أو وظيفة عشيرو لمن يشاء. وشاركت العشيرو في تقديم قاذفي السهام والجعب إلى الملك، وتلقوا منه المؤنة والأرض، ودفعوا مبلغاً محدداً من المال لقاء السماح لهم برعي قطيعهم في المراعي التابعة للملك.

٨ ـ **نامو**: كانت هذه الفئة تخدم في أي مركز من المراكز التابعة للأوغاريتيين.

٩ ـ **أوبرو**: شكلوا في أوغاريت جماعة خاصة من السكان، لم تكن لهم مساكنهم الخاصة، لذلك كانوا يقيمون بصورة مؤقتة في مختلف البيوت. واوبرو أوغاريت كانوا مرتبطين بتنظيم التجار الأجانب، وكان لهم الحق في دخول بيوت الأوغاريتيين، ويقودهم إلى هذه البيوت قائد الجنود أو حاكم المدينة.

١٠ ـ **الخوبو**: وكلمة خوبو تدل على شريحة من المجتمع، كانت تتمتع بوضع خاص وفريد في المجتمع، وعاش الخوبو في مناطق مختلفة من أوغاريت، والخوبو كانوا يلعبون دور الجنود، الذين يشاركون في الحملة الشعبية في سبيل عروس البطل.

١١ ـ **الخبيرو**: قيل هم الهاربون من بلادهم للعيش في بلاد أخرى، وكانت الجبال المحيطة بأوغاريت، تشكل المناخ الملائم، والمناسب للهاربين من مجتمعاتهم. وقيل: هم جماعة خاصة من

---

[1] آ ـ ش ـ شيفمان: مجتمع أوغاريت ـ ص٢١٤.

السكان، مهمتهم قطع الطرق والهدم والنهب، أي أنهم كانوا جنوداً مرتزقة.

الأدب الأوغاريتي:

بقي الأدب الأوغاريتي والكنعاني بشكل عام مجهولاً، حتى تم الكشف عن وثائق أوغاريت الثمينة، والتي تناولها العلماء، فنشروا بعض محتوياتها، وترجموا بعضها. ومن ذلك تكوّنت دراسات قيّمة حول لغة أوغاريت وأدبها الكنعاني، واحتوت هذه الوثائق على معاجم وقوائم مختلفة، وأبحاث طبية وبيطرية وقانونية ووصايا ومعاهدات وغير ذلك. ويساعد موقع أوغاريت المتوسط بين العالم (الايجيين ـ بلاد ما بين النهرين ـ الحثيين ـ مصر) بالإضافة إلى تجارة أوغاريت الواسعة والاستفادة من مآثر الحضارات المجاورة. وكان العصر عصر التفاعل الحضاري، امتزجت فيه الأفكار الدينية والعلمية بحريّة.

والنصوص الدينية التي وجدت على لوحات رأس شمرا، هي من أهم النصوص المكتشفة، لأنها أعادت إلينا جانباً هاماً من الأدب الأوغاريتي القديم، الذي أخذ عنه العبرانيون الشيء الكثير. يقول جورج حداد[1]: كان الناس يجهلون العلاقة بين الأدب الكنعاني، الذي كان معروفاً، عندما دخل العبرانيون أرض كنعان، وبين كتابات العبرانيين الدينية الموجودة في التوراة العبرية. فأتت هذه اللوحات، وألقت الضوء على هذه العلاقة. وقد اتضح: أن الأدب الكنعاني، كما نجده في لوحات رأس شمرا، قد أثر ليس على الأمثال، والحكم الموجودة في سفر الأمثال في التوراة، وفي سفري المزامير، ونشيد الإنشاد فحسب، وإنما أثر أيضاً على الكتابات العبرانية الواردة في سفر التكوين، وفي اخبار الأنبياء.

ومن المعروف أن التوراة كانت قد كتبت بعد القرن الثامن قبل الميلاد، وأصبح نصها ثابتاً نحو القرن الرابع قبل الميلاد. هذا فيما يخص الأسفار الخمسة (التكوين ـ الخروج ـ اللاويين ـ عدد ـ وتثنية)، أما كتب الأنبياء والتواريخ مثل (اسفار يسوع والقضاة وصموئيل والملوك واشعياً وأرميا وحزقيال والاثني عشر). فقد أصبحت ثابتة بنصها نحو القرن الثاني قبل الميلاد، في حين كان القسم الأخير مثل كتب دانيال والمزامير والأمثال وايوب ونشيد الإنشاد وراعوث والمراثي الجامعة واستر وعزرا وتحيا وأخبار اليوم)، قد اتخذت شكلها النهائي في القرن الأول الميلادي.

يتضح مما ورد: أن التوراة العبرانية كان قد اقر نصّها النهائي مجتمع من الحاخامين

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الثاني ـ ١٩٥٢ ـ ص٢٥.

عام (١٠٠م). إذاً كانت التوراة نتيجة تطور طويل احتوت على عناصر مختلفة، منها روايات تاريخية ومجموعة قوانين وأمثال وأشعار وتنبؤات وغير ذلك. حيث أثرت على هذه العناصر مؤثرات مختلفة، كانت أصولها من مصادر أيضاً متنوعة، منها البابلي والحثي والميتاني والمصري والكنعاني.

فمثلاً هنالك تشابه كبير في اللغة والأفكار بين أدب أوغاريت وسفر أيوب، كما أن هنالك تشابهاً في المفردات والتفكير والتراكيب الأدبية، بين نصوص أوغاريت، وبين المزامير العبرانية. ويروي البعض: أن المزمور التاسع والعشرين، كان من أصل كنعاني. ويرى بعضهم الآخر: أن مجموعة الكتابات، كما وجدت في عصر التكوين مكتبة رأس شمرا (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، شكلت التوراة الكنعانية، وأن نصوص رأس شمرا الدينية بالنسبة للكتّاب الكنعانيين في رأس شمرا كانت توراة.

والوثائق الكنعانية المكتشفة في رأس شمرا موزعة على المواضيع واللوحات التالية:

١ـ نصوص قانونية عبارة عن أوامر، وأحكام مكتوبة على لوحة واحدة.

٢ـ أسطورة كيرت المكتوبة على ثلاث لوحات.

٣ـ أسطورة دانيال المكتوبة على ثلاث لوحات.

٤ـ قصة نيكال أو زواج القمر على لوحة واحدة.

٥ـ نصوص تاريخية تتعلق بحكم الملك العظيم على خمس لوحات، وأخبار حكم ملكين آخرين أحدهما نقماد على قطعتين خزفيتين.

٦ـ المزامير أو الصلوات، ومنها: أربعة نصوص على قطع خزفية.

ملوك أوغاريت[1]:

١ـ عم نثمر (عم استمري): أول ملوك أوغاريت، ذكر عنه: أنه أقام علاقات ودية مع المصريين والحثيين، في الوقت نفسه كان على خلاف مع العموريين المستقرين في السهول الممتدة بين طرطوس شمالاً، وطرابلس جنوباً، وعاصمتها سيميرا على نهر الأبرش.

---

[1] توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرباسيا القديمة ـ ص٣٨١.

٢- نقم ادد (نقم هدد): هو ابن عم نتمر وخليفته، يذكر عنه: أنه عاصر الملك الحثي شوبيلو ليوما (١٣٨٠ - ١٣٤٦ ق.م)، وعاصر أيضاً الفرعون افنوفس الرابع (١٣٧٧- ١٣٨٥ ق.م)، وعاصر الفرعون المصري توت عنخ آمون (١٣٥٨ - ١٣٤٩ ق.م)، وعاصر الملك العموري القوى آزير. حكم هذا الملك فترة طويلة من الزمن، اكتشف في دار المخطوطات الأوغاريتية الملكية وثائق سياسية واقتصادية وأدبية، تعود إلى عصر هذا الملك. وأوغاريت لم تكن دولة عسكرية، إنما كانت دولة تجارية. من أهم أعمال هذا الملك: كان التقرب من آزير وملك العموريين، ومصاهرة العموريين، وعقد معاهدة معهم، والمصاهرة، على ما اعتقد، كانت وليدة هذه المعاهدة. نصت هذه المعاهدة على: أن ملك العموريين ينجد أوغاريت حالياً في حال تعرضها للخطر، وعلى مايبدو: أن المعاهدة شملت بالإضافة إلى مملكة أوغاريت مملكة سيانو الواقعة في سهل جبلة. بالمقابل كان على ملك أوغاريت تقديم خمسة آلاف مثقال فضة للملك العموري آزيرو.

عقد الملك نقم ادد معاهدة مع الحثيين، فحواها: نجدة أوغاريت في حال تعرضها للهجوم، وبهذه المعاهدة ضمن الحثيون حق التدخل في بلاد الشام من جهة، والتوسع من جهة أخرى. وبسبب قيام هذه المعاهدة كان موقف هذا الملك موقف الحياد في الصراع الدائر بين الحثيين من جهة، وأمراء موكيش ونوخشتي الممتدين في سهل العمق إلى الشمال من أراضي الوعر غربي حمص من جهة أخرى. بعد قيام هذه المعاهدة[1]، تعرضت أوغاريت لهجوم موكيش ونوخشتي، فثار غضب الحثيين، وهاجموا هاتين المدينتين، واحتلوهما، وقدموا الغنائم لملك أوغاريت. وصف هذا الملك: بأنه كان مهتماً بالأدب والثقافة، حيث يذكر: أن أعظم وأضخم تراث فكري، قد دوّن في عهده. توفي بحدود (١٣٣٠ ق.م).

٣- آرخليا (أرخليو): ابن نقم ادد وخليفته، حكم حوالي السنتين، خلّف بعض الوثائق، ويبدو: أنه كان على خلاف مع الحثيين، وفترة حكمه القصيرة تجعلنا نتصور شيئين: إما أنه مات بشكل طبيعي، أو عزل من قبل الحثيين، وعيّن أخوه عوضاً عنه. حاول اعتماد سياسة موالية للمصريين (نقيمبا) (١٣٢٥ - ١٢٦٥ ق.م).

٤- نقم عقا: خلف اخاه آرخليا في الحكم، عاصر من الملوك الحثيين موفاتلي (١٣١٥ - ١٢٩٠ ق.م) ومورشيلي الثالث (١٢٩٠ - ١٢٨٣ ق.م) واختوشيلي الثالث (١٢٨٢ - ١٢٥٠

---

[1] صفية سعادة: أوغاريت طبع بيروت ١٩٨٢ ص٣٥.

ق.م)، توفي في السنوات الأخيرة لحكم اختوشيلي الثالث تاركاً وراءه وثائق تاريخية هامة. وصف: بأنه لم يلتزم بالمعاهدة التي أبرمها والده نقم هدد مع الحثيين. وهنا تذكر بعض المصادر: أن الملك الحثي مورشيلي كان، قد اعتقله، ونقله إلى خاتوشا، ويبدو: أنه عقد معاهدة وهو رهن الاعتقال.

ذكرت المصادر: أن هذا الملك قرر إعادة أوغاريت إلى الحثيين معتقداً: أنّ في ذلك إنقاذاً لهذه المملكة، وعزل أخاه المعادي لهذه السياسة، واستمر في ولائه للحثيين. وحصل على تعهد من الملك الحثي مرسلي الثاني: بأن تكون حدود أوغاريت في أمان. في عهده انسحبت كل من سيانو وأشناتو من تحالفهما مع أوغاريت، كما ورد، وكانتا تابعتين لها، حين ارتبطتا مع قرقميش، علماً أنهما كانتا متاخمتين لأوغاريت، في الوقت الذي كانت فيه قرقميش بعيداً في الشمال.

كتب هذا الملك إلى ملك الحثيين (مرسلي الثاني) يشكو ما حدث، فكان قرار الحثيين إعادة رسم الحدود بين البلدين، وحل جميع خلافاتهما، كما جاء في الوثيقة الحثية التالية: (لقد اعطيت دونماً ونصف الدونم من الملاحات لنقيمبا ملك أوغاريت. ولقد أعطيت دونماً ونصف الدونم من الملاحات لعبد أنتي ملك سيانو. والدونم ونصف الدونم الأخير أعطي ثلثاهما إلى ملك أوغاريت وثلث إلى ملك سيانو).

أغضب ما حدث ملك أوغاريت، وتردد في دفع الجزية المعتادة للحثيين، واقترح تخفيفها، فوافق ملك الحثيين. في الوقت نفسه فرضت معاهدة على أوغاريت، أهم ما جاء فيها: الوفاء للحثيين، وتقديم المساعدة العسكرية لهم عند الحاجة. في عهده حصل دمار جزئي في قصر أوغاريت، حيث تم العثور بين الأنقاض على ختم ملك الحثيين مورسيلي الثاني.

عاصر هذا الملك عدداً من الملوك الحثيين، آخرهم حاتوسيل الثالث، يؤكد ذلك مراسلة كانت قد جرت بينهما، تتضمن مشكلة اقتصادية، هي: أن تجار أورو المجاورة لأوغاريت كانوا قد واجهوا معارضة من تجار أوغاريت، وعندما وصلت المشكلة إلى الملك الحثي حاتوسيلي الثالث، قرر الأخير: أنه بإمكان تجار أورو المتحاربة مع أوغاريت في فصل الصيف أن يعودوا في فصل الشتاء، وبالمقابل كان غير مسموح لهم شراء أي ممتلكات في أوغاريت. كما تذكر الوثائق المكتشفة مشكلة أخرى: هي مسألة هروب عدد من الأوغاريتيين وانضمامهم إلى الخبير. حيث طلب نقيمبا من

حاتوسيلي الثالث إعادتهم، فوعده بذلك.

وأنا أعتقد: أنه استدعى ملك أوغاريت إلى خاتوشا العاصمة الحثية، عندما لاحظ تقصيراً منه في تنفيذ المعاهدات، وهناك أبرم معه معاهدة، فرضت على أوغاريت دفع الجزية، وتقديم المعونات المادية والعسكرية للحثيين، كما فرضت عدم التعاون مع أعداء الحثيين. وتعهد ملك أوغاريت بالسفر سنوياً إلى عاصمة الحثيين لتقديم فروض الطاعة والولاء، إضافة إلى ذلك، فقد قلّصوا حدود أوغاريت، وفصلوا عنها سيانو، واوشناتو الواقعتين بين نهر الروس ونهر السن، وربطوهما بنائب الملك المقيم في كركميش، وعند الحرب الحثية المصرية، التي وقعت قرب قادش، قدّم نقم عقا العون العسكري إلى الحثيين، في الوقت نفسه بقيت علاقاته التجارية مع مصر في حالة حسنة.

٥ ـ عم نثمر الثاني ـ أميشترو الثاني (١٢٦٠ ـ ١٢٣٠ ق.م): تسلّم السلطة صغير السن، إلا أنه كان متزوجاً من ابنة الملك العموري بن تثينا، عاصر الملك الحثي احتوشيلي الثالث (١٢٨٢ ـ ١٢٥٠ ق.م). في عهده ساد السلام ربوع بلاد الشام، أي بعد معركة قادش حافظ هذا الملك على جميع المعاهدات والمواثيق المبرمة مع الحثيين، وكان الحثيون هم الذين يتولون الفصل في النزاعات، التي كانت تنشب بين أوغاريت وجاراتها، وخاصة دولة سيانو...

منذ البداية، حاول بعض إخوة هذا الملك الإطاحة به والتآمر عليه، لكن المؤامرة اكتشفت، وتم إبعاد المتآمرين. عاصر، كما ذكرنا، الملك الحثي حاتوسيلي الثالث وزوجته (بودو هيبا) لأنها كانت الوصية الشرعية على ابنها توخياليا، يؤكد ذلك اكتشاف رسالة، تحمل ختم الملكة المذكورة، إلى أميشترو الثاني، تتعلق بتسوية مسائل إحدى السفن التجارية، التي غرقت داخل مياه أوغاريت معتبرين غرقها ينفع بعض رجال أوغاريت. فقرر هذا الملك طلاق زوجته، لأنها كانت ضده في المجال السياسي. وزوجته هذه هي بن تثينا بنت ملك العموريين ذوي العلاقة الحسنة مع المصريين. فوقعت مشكلة في البلاط الملكي الأوغاريتي، وتدخلت المدن المجاورة، لاسيما الحثيين، الذين وافقوا على هذا الطلاق. رست المشكلة بعد الطلاق، لاسيما مشكلة ولاية العهد، حيث خيّر أبناؤها في اختيار أحد الوالدين. وفي حال اختيار الأم كان عليهم التخلي عن ولاية العرش. وبالنتيجة اختار الأبناء الأم. وبعد ذلك استمرت الزوجة في عدائها لزوجها، فتم اختطافها، وقتلها.

في عهده طلبت أوغاريت من الحثيين إعفاءها من واجباتها العسكرية، التي كانت مفروضة عليها بعد انسلاخ سيانو عنها، وجاء هذا الطلب بعد قيام معاهدة بين المصريين والحثيين، حيث

أصبحت أوغاريت أكثر استقلالاً وقوة. في مقابل ذلك كان على أوغاريت دفع أربعة أضعاف المبلغ، الذي كانت تدفعه لملك الحثيين شوبيلو ليوما في عهد نقمند الثاني.

٦ ـ أبي راتو (ايبيراتو): خلف والده (عم نثمر الثاني) في الحكم، كان عهده في الحكم قصيراً، ترك بعض الوثائق، وصف: بأنه لم يكن كأسلافه من ملوك أوغاريت، إذ لم يتمسك بالمعاهدات والمواثيق التي ربطته كملك بالحثيين، من ذلك لم يقم بزيارة لعاصمة الحثيين، ليقدم الولاء، والطاعة، كما هو معتاد[1].

يظهر من خلال الوثائق المكتشفة: أن عهده كان عهد رخاء اقتصادي. وانه امتنع هذا الملك عن إرسال الهدايا إلى الملك الحثي (بيجا ولولي)، عندما تولّى الأخير السلطة، فأغضب هذا التصرف الحثيين، لأنه خروج عن المألوف، كما أغضب هذا الملك أمير كركميش الموالي للحثيين، لأنه لم يرسل قوات للحثيين، كما رفض استقبال أمير حثي، كان يرغب بالإقامة في أوغاريت، مما ورد، يظهر مدى استقلال أوغاريت بقراراتها.

٧ ـ نقم ادد الثالث: تسلم السلطة بعد أبي راتو، وصف حكمه: بأنه كان قصيراً، لم يترك سوى بعض الوثائق، التي تعالج بعض الأمور القانونية من قبل ملك كركميش.

٨ ـ عمورافي (عمو رابي): حكم عام (١٢٢٠ ق.م)، كان آخر ملوك أوغاريت، في عهده غزا أوغاريت شعوب البحر، وأحرقوها، وخربوها كما حدثت في عهده مجاعة في بلاد الحثيين. فأرسل الفرعون المصري شحنة عاجلة من الحبوب كمساعدة، وطلب من هذا الملك تسهيل نقلها إلى الحثيين. وتذكر المصادر: أن أحد أبنائه كان قد طلق زوجته، وهي أميرة حثية، وتدخل الحثيون في ذلك، وفرضوا إقامتها في قصر. وعثر من خلال التنقيب في أوغاريت على خنجر برونزي، يحمل صورة الفرعون المصري مرنبيتاح، يعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يعتقد: أنه من صنع أوغاريت. وهذه قائمة ثانية تشمل، مااستطعنا على جمعه من ملوك أوغاريت:

ـ باكاروم الأول: بن نقمند، أسس أسرة، وصلت إلى السلطة في أوغاريت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، واستمرت هذه الأسرة، تحكم البلاد حتى هلاك المدينة.

ـ نقم ادد الثاني: أثبتت الوثائق المكتشفة: أن هذا الملك رفض المشاركة في حرب ملكي

---

[1] أ ـ ش ـ شغمان: ثقافة أوغاريت ـ ص١٠.

توخاشيه وموكاش ضد ملك الحثيين، فما كان من ملكي هاتين المملكتين، إلا أن احتلا أوغاريت، وقسمت بينهما. لكن الحثيين تمكنوا فيما بعد من القضاء على المملكتين، ومكافأة ملك أوغاريت لولائه لهم. في عهده بدأت تبعية أوغاريت للسيطرة الحثية، حيث كبلت أوغاريت بشبكة من المعاهدات، ربطتها بالحثيين.

ـ نقم ادد الثالث ـ امشترو الأول ـ امشترو الثاني ـ اخلبو...

ويذكر أن آخر ملوكهم كان يحمل اسم حمور[1]، حيث خربت أوغاريت في عهده أثناء إغارة شعوب البحر على المنطقة، وتمكنوا من اسقاط الدولة الحثية. لكن الدولة المصرية، تمكنت من هزيمتهم. وقيل: من المرجح[2] أن أوغاريت قد هدمتها الزلازل قبل وقت من وصول شعوب البحر إليها، وهجرها أهلها لعدم قدرتهم الاقتصادية على إعادة البناء.

صور:

تذكر الأساطير القديمة: أن مدينة صور كانت قد سكنت في أول الأمر من طرف الآلهة، الذين سلموها فيما بعد إلى الجبابرة، وقيل: بنيت صور[3] حوالي (٢٧٥٠ ق.م)، وكانت من أكبر المدن الفينيقية، وازدادت أهميتها، وأصبحت من القوة، بما يكفي، وساعدها على ذلك موقعها داخل البحر، ومناعة أسوارها، وقوة اسطولها التجاري والحربي، بالإضافة إلى تبعية قرطاجة لصور. ومن المعروف: أن الصوريين هم الذين بنوا قرطاجة في الربع الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد[4].

امتاز الصوريون بالمهارة كتجار وبحّارة، حيث تحكموا بالتجارة الدولية مدة ثلاثة قرون، ابتداءً من القرن التاسع حتى القرن السادس قبل الميلاد، ودخلت صور تحت سلطة الآشوريين اعتباراً من (٨٧٦ ق.م) في عهد الملك آشور ناصر بال، كما خضعت بعد ذلك للكلدانيين خلال القرن السادس قبل الميلاد، إلا أن هذه التبعية كانت في بعض مراحلها اسمية. « وفي مطلع القرن السادس قبل الميلاد وقعت صور، كما نعلم تحت سيطرة بابل، ورغم محافظتها على حكمها الذاتي الداخلي، فقد تقهقر دورها السياسي والاقتصادي »[5].

---

[1] أحمد سليم: ص٥١.

[2] فراس سواح: آرام دمشق واسرائيل ـ ص١٨٨.

[3] محمد الصغير غانم: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط ـ طبع بيروت ١٩٨٢ ص٢٨.

[4] يولي بركو فيتش تسير كين: الحضارة الفينيقية في أسبانية ـ طبع بيروت ١٩٨٨م ـ ص٩.

[5] المرجع نفسه: ص١١.

في عهد حيرام الثالث، استبدلت صور النظام الملكي بالنظام الجمهوري[1]، ثم انتقل هذا النظام إلى قرطاجة. أما في العهد الفارسي، فقد كانت صور تابعة اسمياً للفرس، تدفع الجزية لهم.

وأظهرت التنقيبات أسوار مدينة صور، وجملة من البيوت المرفوعة اصطناعياً فوق الأسوار نفسها. وللبيوت أعمدة على كلا جانبي الباب الأمامي. كما كشف عن البيوت ذات الطابقين، العلوي منها أضيق من السفلي، في الطابق العلوي، وجدت شبابيك ذات درابزينات مدعومة بأعمدة لها أشكال النخيل، وامتاز المهندسون الفينيقيون بمهارة عالية في بناء السدود والجسور، يؤكد ذلك بقاياها في كل من صور وصيدا، وامتازوا أيضاً بتشييد الموانىء المصنعة.

أما أهم ملوكها الذين سمحت لنا المصادر بمعرفتهم فهم:

١ـ حيرام[2]: حكم صور مابين (٩٦٩ ـ ٩٣٦ ق.م) حوالي (٣٣ سنة)، عاصر النبي سليمان بن داوود عليه الصلاة والسلام، وكان على علاقة طيبة معه. عمل على توسيع مدينة صور، ونصب عاموداً من ذهب في هيكل زيوس أولمبوس (الإله بعل شميم)، ووصل الجزيرة، التي يقوم عليها هيكل ملقارت بجزيرة صور الكبرى، كما شيّد هياكل جديدة أخرى، جهز حملته لتأديب أهالي كتبوت الواقعة في قبرص، لأنهم امتنعوا عن دفع الجزية.

٢ـ بعليازر[3]: عاش ثلاثاً وأربعين سنة، حكم منها سبعَ عشرة سنة (٩٣٥ـ٩١٩ ق.م).

٣ـ عبد استراتوس: عاش تسعاً وعشرين سنة، حكم منها تسع سنوات من (٩١٨ ـ ٩١٠ ق.م)، قتل على أيدي أولاد مربيته.

٤ـ ماتيواستراتوس: عاش أربعاً وخمسين سنة، حكم منها اثنتي عشرة سنة من (٩٠٩ ـ ٨٩٨ ق.م).

٥ـ استاريموس: عاش ثمان وخمسين سنة، حكم منها تسع سنوات من (٨٩٧ ـ ٨٨٩ ق.م).

---

[1] حاطوم ـ عاقل ـ طربين مدني: موجز تاريخ الحضارة ج١ ـ طبع دمشق ١٩٦٥ ـ ص٢٤١.

[2] أحمد أمين سليم: ص٥٥.

[3] هارلي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم ـ ص٩٩.

٦ـ فيليس[1]: عاش خمسين سنة، حكم ثمانية أشهر فقط عام (٨٨٨ ق.م)، عرف عنه بأنه قتل أخاه. تميزت المرحلة، التي حكم أثناءها بالفتن والحروب الأهلية.

٧ـ ايتوبعل: كاهن ثار على الملك السابق فيليس، وحل محله، عاش ثماني وستين سنة، حكم منها اثنتين وثلاثين سنة من (٨٨٧ ـ ٨٥٦ ق.م)، مبتدئاً بذلك عهد أسرة جديدة، قُدّر لها أن تدوم قرناً على الأقل. في هذه المرحلة بلغت صور قوة، لا يستهان بها. ففي عهد الملك ايتوبعل توحدت صور وصيدا، قام هذا الملك كما يذكر بتأسيس مدينة برتريس (البترون) إلى الشمال من مدينة جبيل، وقيل: إن هذا الملك أعاد بناء البترون، أو حصّنها، لأنها كانت أقدم من عهده، كما أقام مستعمرة (اوزا) في ليبيا.

٨ـ بعلزوروس: خلف ايتو بعل في حكم صور، عاش خمساً وأربعين سنة، حكم ست سنوات من (٨٥٥ ـ ٨٥٠ ق.م)،عاش في عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م).

٩ـ بعلي منزر: حكم صور سنة (٨٤٠ ق.م).

١٠ـ متبتوس: عاش ستاً وخمسين سنة، حكم (٤٧ سنة) من (٨٢٠ ـ ٧٧٤ ق.م).

١١ـ بجماليوم[2]: حكم سبعاً وثلاثين سنة، من (٨٧١ ـ ٨٣٤ ق.م)، في السنة السابعة من حكمه نشب في صور صراع على السلطة بينه وبين اخته أليسا بعد وفاة والدهم، في هذا الصراع قتل بجماليوم زوج أخته بقصد الاستيلاء على ثروته، فبقيت اخته أليسا عاجزة عن الوقوف في وجه أخيها، ففضلت الانسحاب من هذا الصراع، والابتعاد إلى موطن جديد متوجهة إلى شمال افريقيا، وعملت على بناء قرطاجة.

١٢ـ حيرام الثاني: حكم صور في عهد تجلات بلاصر الثالث (٧٥٤ ـ ٧٢٧ ق.م).

١٣ـ ميتينا: حكم في عهد تجلات بلاصر الثالث، ودفع الجزية.

١٤ـ بعلو: حكم في عهد الملك الآشوري اسر حدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق.م)، من قبله

---

[1] هاري بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم ـ ص٩٩.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٠٠......

وزوده بالمواد اللازمة لبناء قصره في نينوى.

١٥- بعل الصوري: حكم في عهد آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م). تمرد على الحكم الآشوري.

١٦- ايتوبعل الثاني: عاش في عهد نبوخذ نصر البابلي (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م).

١٧- بعل: خلف ايتوبعل في السلطة، ونصبه الملك البابلي نبوخذ نصر، دام حكمه عشر سنوات (٥٧٤ - ٥٦٤ ق.م).

تلي هذه المرحلة في حكم صور مرحلة، سميت بمرحلة القضاة، تعاقب عليها كل من: **اكتيبال خلبيس:** حكم عشرة أشهر ـ **ابّار:** حكم ثلاثة أشهر ـ **مثين ـ جراستبراتوس:** دام حكمهما نحو سبع سنوات ـ **بالاتور:** دام حكمه سنة واحدة ـ **مربال:** حكم أربع سنوات، (٥٥٦ - ٥٥٢ ق.م)، عيّن من قبل حكام بابل، وأرسل إلى صور من بابل سنة (٥٥٦ ق.م) ـ **حيرام الثالث:** هو أخ مربال، خلفه في الحكم، حكم عشرين سنة من (٥٥٢ ـ ٥٣٢ ق.م). في السنة الرابعة عشرة من ملكه افتتح كورش بابل، واستقل هذا الملك بصور.

صيدا:

يعود تأسيس هذه المدينة على الساحل السوري إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد تزعمت مدينة صيدا المدن الفينيقية في الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وسيطر الصيداويون على جزيرة قبرص الغنية بالنحاس، وكونوا فيها مستوطنات. امتدت سيادتهم منها إلى رودوس ثم جزء بحر إيجه، حتى وصلوا إلى الساحل اليوناني.

ملوك صيدا:

١- لولي: حكم صيدا في عهد سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) وقتل في عهده.

٢- توبعلو: ولّي على صيدا من قبل الملك الآشوري سنحاريب.

٣- ايتوبعل: حكم صيدا في عهد الملك الآشوري اسرحدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق.م).

٤- عيدي ملكوتي: خلف ايتوبعل، أعدمه الملك الآشوري اسر حدون سنة (٦٧٦ ق.م)

٥- بعل (بعلي): حكم صيدا في عهد اسر حدون ومن قبله أيضاً.

ثم حكم صيدا ثلاثة أسر ملكية.

(أ- أسرة باسم تبنيت، ب - أسرة باسم أشمونصو، جـ - أسرة باسم بوداشتارت).

٦- اشمونصو: أصبح ملكاً بعد وفاة والده، وكان صغيراً. وقد تولت الحكم والدته أبيا شتارت.

٧- بودا شتارت: حفيد اشمونصو.

٨- ياطول ملك: قد يكون ولي عهد الملك بودا شتارت.

٩- اشمو نصو الثاني: حكم حوالي (٤٥٠ ق.م).

١٠- اشفتي بعل.

١١- أوز بعل.

١٢- استرابون: كان ملكاً لصيدا عام (٣٦٢ ق.م).

١٣- تنيس: حكم صيدا من (٣٥٤ - ٣٤٤ ق.م).

١٤- استرابون: ولعله الثاني، خلف تنس. في عهده تم استسلام المدينة للاسكندر المقدوني.

جبيل:

أطلق عليها المصريون[1] كبنة، كبن، كبنى، وسماها اليونان بيبلوس، وأطلقت عليها التوراة (جبال). تحتل جبيل مكانة هامة على الساحل الفينيقي، وتعد من أقدم المدن التي سكنت في العالم، اشتهرت بمينائها الهام، الذي كانت تصدر منه خشب الأرز إلى العالم، وخاصة مصر، التي أقامت علاقات معها منذ عهد الدولة القديمة. ولم تضعف هذه العلاقة مع مصر، إلا في أعقاب غزوات شعوب البحر المدمرة، التي اجتاحت الساحل السوري، ودمرت الكثير من المدن الفينيقية.

---

[1] **توفيق سليمان:** دراسات في حضارة غرب آسيا القديمة - ص٣٥٩.

وقد أظهرت التنقيبات الأثرية: أن مدينة جبيل، كانت قد تعرضت لحريق هائل في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، كما تم فيها الكشف على الأبجدية الفينيقية، حيث وجدت مكتوبة على صخرة، عليها اسماء بعض ملوك جبيل الذين سبقوا الملك حيرام مثل سعف بعل، وايلي بعل، وغيرهم.

وظهرت في مدينة جبيل معابد، يعود تاريخها إلى عصر أقدم بقليل من تاريخ قصر (باريليم). وهي برهان على ازدهار اقتصاد هذه المدينة في تلك العصور[1]. وإلى مدينة جبيل يعود الفضل في اختراع الأبجدية الخطية[2] المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً، تلك الأبجدية التي أصبحت الأبجدية الفينيقية. ومنهم اقتبس الإغريق في القرن الثامن قبل الميلاد. يقول عفيف بهنسي: « وكان قد عثر عام (١٩٢٢م) على أبجدية أخرى في جبيل منقوشة على ضريح احيرام »[3].

ملوك جبيل:

ذكرت النقوش المكتشفة في مدينة جبيل (الفينيقية) والعائدة إلى القرن العاشر قبل الميلاد أسماء الحكام، الذين تعاقبوا على حكم المدينة وهم: ١ـ **حيرام:** اسمه محفور على تابوته، حكم حوالي (١٠٠٠ ق.م). ٢ـ **اتوبعل:** حكم حدود (٩٨٠ ق.م). **٣ـ ابو بعل:** حكم بحدود (٩٥٠ ق.م). **٤ـ يحميليك:** حكم حوالي (٩٢٠ ق.م). **٥ـ ايلي بعل:** حكم حوالي (٩٠٠ ق.م) **٦ـ شيفيتعل:** حكم حوالي (٨٨٠ ق.م).

كان هؤلاء الحكام يلقبون بملوك جبيل، وقد اتصف حكمهم بالاستقلال، وكانوا على علاقة طيبة مع جيرانهم الأقوياء، تجلى ذلك مع المصريين أكثر من غيرهم. حيث تذكر الوثائق حكاية الاستقبال غير اللائق[4]، الذي استقبل به حاكم جبيل رسول حاكم مصر، الذي أرسله الأخير للحصول على خشب الأرز[5]، حيث تذكر النصوص قول حاكم جبيل للرسول المصري «ولا أنا خادم لمن أرسلك ». وفي عهد الملك اسر حدون الآشوري يذكر ملك لجبيل اسمه ملكيا

---

[1]) فرنان بروديل: البحر المتوسط المجال والتاريخ ـ ص٨٠.

[2] باولوماتيني ـ الفونسواركي ـ جوفاني بيتيتاتو ـ بيليو فرانزوالي ـ ادمود ثوليرجر ـ دانسك أوتسارد ـ قاسم طوير ـ إيلا عيلا الصخرة البيضا ـ ص٣٥.

[3] عفيف بهنسي: الشام والحضارة ـ ص٤٦.

[4] كانت الغاية من استيراد الخشب في هذه المرحلة صنع القارب المقدس للإله امون.

[5] يعتقد أن اسم الحاكم زاكر بعل.

شافا في القرن السابع قبل الميلاد.

أما ملوك جبيل في العهد الفارسي فهم:

١ـ آل بعل: حكم حوالي (٣٦٠ ق.م). **٢ـ ادرا ملك:** حكم حوالي (٣٥٠ ق.م).
٣ـ اوز بعل: حكم حوالي (٣٤٠ ق.م). **٤ـ عين ايل:** حكم حوالي (٣٣٥ ق.م).

جزيرة أرواد[١]:

إن ما نحصل عليه من معلوماتنا التاريخية عن مدينة أرواد هو من مصادر غير فينيقية، لذلك فهي ماتزال ضئيلة، ولقد كانت أرواد من بين المدن السورية، التي تعرضت لتخريب شعوب البحر[٢]. لعبت أرواد دوراً فعالاً، قد يكون في المستوى، الذي قامت به كل من جبيل وصيدا وصور[٣] في الحقل الدولي. وقيل: إن جزيرة أرواد اصطناعية، ليست جزيرة واحدة، تكونت من ثلاث جزر، ربطت مع بعضها بطريقة البناء الحجري، لتشكل جزيرة واحدة. إذاً جزيرة أرواد ليست طبيعية. تتألف أرواد من الأقسام الرئيسية التالية[٤]:

أـ الصخرة الرئيسية: وهي طبيعية، وتعتبر في الأساس الجزيرة الرئيسية، طولها (٤٤٠م) من الشمال إلى الجنوب، وعرضها (٢٦٠م) من الغرب إلى الشرق، وارتفاعها (١٤م) فوق سطح الماء.

٢ـ بنت أرواد (المحارة): عبارة عن جزيرة صغيرة، وكانت متصلة مع الصخرة الرئيسية. تبعد عن الصخرة الرئيسية حوالي (٦٥م) إلى الشمال، طولها (٥٠م)، وعرضها (٢٥م)، وارتفاعها (٣,٣م) فوق سطح الماء.

٣ـ صخرة البنات: وتبعد حوالي (٦٠م) عن بنات أرواد شمالاً، طولها (٥٠م)، وعرضها غير محدد. ارتفاعها كسابقتها (٣,٣م)، ووصلت بالصخرة الرئيسية بواسطة الميناء البحري الاصطناعي. أما عن سور أرواد، فيبلغ طوله، كما هو حالياً (١٥٣٤م)، مبني من الحجارة الرملية

---

(١) أحمد داوود: العرب الساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود ـ طبع دمشق ١٩٩١ ـ ص١٧٤.

(٢) أحمد أمين سليم: ص٥٢.

(٣) محمد الصغير غانم: ص٢٢.

(٤) حسين حجازي: جزيرة أرواد والجذور الفينيقية ـ دراسة تجربة جيولوجية أثرية تاريخية على ضوء الاستكشافات الجديدة ـ طبع سورية ١٩٨٩ ـ ص٣٣.

المنحوتة الضخمة، وكان يؤمن حماية حصينة، ويقف سداً منيعاً بوجه الأعداء، وكان من الصعب تسلقه، وصمم بحيث يسهل الدفاع عنه. تضم مرفأين اصطناعيين منفصلين، أحدهما في الجنوب وكان مرفأ صغيراً للصيد، وملجأ آمناً للسفن الصغيرة في حالة الظروف الجوية السيئة، الثاني: مرفأ شمالي، كان يستخدم لرفع وانزال السفن من وإلى البحر.

وجزيرة أرواد قديمة، يؤكد ذلك: أن اسم أرواد يرد في النصوص المسمارية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. بلغت أوج عظمتها في القرن الثامن قبل الميلاد، واشتهرت بتعدد طوابقها. حيث يذكر: أن عددها بلغ في العصر الهلنستي خمسة طوابق، وذكر: أن عدد سكانها كان يصل في بعض الأحوال (٤٠,٠٠٠) نسمة. ولأرواد سور، الغاية منه الدفاع ضد البحر[1]، ولها ثلاثة أبواب، وهناك احتمال وجود باب رابع لرسو الزوارق عند بنت أرواد.

ملوك أرواد:

١ـ عبدي بعتي: عاصر الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م). **٢ـ منان بعل:** عاصر الملك الآشوري اسر حدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق.م)، وزوّده بالمواد اللازمة لبناء قصره في نينوى. **٣ـ باكيلو:** عاصر آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م). **٤ـ عازي بعل:** اختاره الملك الآشوري آشور بانيبال حاكماً لأرواد خلفاً لأبيه باكيلو.

عمريت:

ورد اسم عمريت في حملات تحوتمس الثالث باسم موقع (قرط عمروط)، و تعني كلمة قرط مدينة أي مدينة عمريت، وعثر في زمن حملات الاسكندر على ذكر عمريت تحت اسم يوناني، هو (ماراتدمر).

وذكرت عمريت في زمن حملات الاسكندر تحت اسم يوناني، هو (ماراتوس)، مما يدل على: أنها كانت مدينة كبيرة وجميلة، كما ويذكر: أن الاسكندر، وداريوس، كانا قد تبادلا رسائل مفاوضاتهما الدبلوماسية فيها على أثر غزو المكدونيين لسورية الشمالية، وفيها أطلع الاسكندر على الغنائم التي نهبها جيشه من دمشق، هذا ويذكر: أن عمريت كانت قد صكت النقود.

وقد كشف عن تماثيل يونانية سنة (١٩٢٦م) غرب المعبد، حيث تدل على: أن ديانة هذا

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الرابع عشر، ـ ص١٩٦٤ ـ ص٢٥٢.

المعبد كانت قائمة خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، واكتشف فيها أيضاً نصبٌ من الحجر الكلسي، يمثل الهاً قائماً على أسدٍ وماسكاً هراوة بيده اليمنى، وإلى جانبه كتابة فينيقية من القرن الرابع قبل الميلاد.

تقع عمريت إلى الجانب الشرقي للمعبد المنحوت في الصخر قرب وادي النهر الكبير الشمالي. مخطط المدينة مستطيل، ابعاده (١٠٠م) في المحور الشمالي الجنوبي و(١٤٠م) في المحور الشرقي الغربي. بدئ التنقيب فيها ١٠ / ٤/ ١٩٥٤م. كشف فيها أول بناء مع أرضه، ثم كشفت ثلاث غرف مبلطة بأحجار غير منحوته، كما كشفت ثمانية قبور بشكل بئر مستديرة شبه مطمورة على سطح الأرض. وتعتبر هذه القبور تجديداً للطرق الجنائزية، التي نعرفها في سورية الطبيعية، ووجد قبران: أحدهما في جرة، وآخر بين قطع الفخار. والقبور المكتشفة، لها أشكال مختلفة، منها ماعرف: باسم المدفن العلوي ذي البناء المقبب، والمدفن ذي الهرم، المدفن ذي البناء العلوي الموشوري، المدفن ذي البناء العلوي المحفور في الصخر. كما تم الكشف عن مدرج عمريت، حيث يبدو: أنه كان قد تم انشاؤه في القرن الثالث.

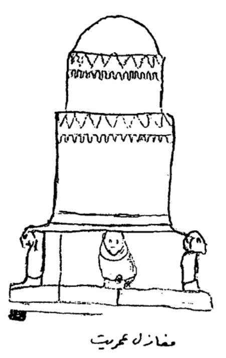
وفي حفريات (١٩٥٥م)، عثر في عمريت على بقايا زبادي مزينة بخطوط أفقية سوداء، رسمت فوق سطح حديدي اللون أملس ومجهزة بأذنين مائلتين، وعن جرة ذات قاع مدبب، قوامها اسطواني الشكل، أطراف فوهتها منخفضة ومستقيمة، وأذناها مستديرتان وصغيرتان، وهذا النوع من الجرار هو من خصائص القرن السادس. كما كشف عن معبد، وشبكة مياه. **أخيراً**: إن التنقيب في عمريت أظهر بأنها يجب أن تكون في عداد المعابد المرتبطة بالينابيع المقدسة[1].

وكشف عن معبد في عمريت، ذكره سباتينو موسكاتي في كتابه الحضارة الفينيقية: (يتألف من باحة واسعة، تحتوي على حوض مقدس، كان أصلاً يُملأ بالماء، وطوله (٤٨ متراً) وعرضه (٣٨م). على ثلاثة جوانب من السياج مدخل ذو أعمدة مستطيلة، وفي وسط الحوض مصلى مكعب الشكل مفتوح من الأمام، وربما كانت الغاية منه: أن يحتوي على الشيء المعبود. قائماً على قاعدة مساحتها (٥ أمتار مربعة)، تعلوها مفروشات مصرية الطابع، أما المصلى، فيقع قريباً من الجانبين الشرقي والغربي، وقد وجدت قاعدتا العمودين، وهناك احتمال قوي أن يرجع تاريخ عمريت إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

---

(1) الحوليات الأثرية السورية: المجلد السادس ١٩٥٦ ـ ص٩٣.

وكشف في عمريت عن قلعة، تعود إلى العصر الفارسي، ذات سراديب تظهر فوقها نصب جنائزية رائعة، تعرف بالمغازل، إحداها: أسطوانية الشكل ذات مستويين، يحيط أُسود بقاعدتها، وفي أعلاها قبة، وأخرى: أشبه بمخروط، يعلوها هرم ذو خمسة أضلاع، وثالثة: ذات قاعدة مربعة، يعلوها هرم أيضاً.



مغازل عمريت

أما معبد عمريت فهو محفور في الصخر، يتألف من حوض، شكله رباعي، تملؤه المياه، وتتوسطه كتلة صخرية، يعلوها الهيكل المركزي، ويدور بالحوض رصيف عريض، فوق هذا الرصيف رواق من الشمال والغرب والشرق، كانت سقوفه محمولة على عضادات، عددها ثمانية عشرة عضادة في الرواق الجنوبي وخمس عشرة في كل من الرواقين الشرقي والغربي. يعلو كل منهما حجر واحد، طوله ثلاثة أمتار، وعرضه متر، وواجهتا الرواقين الشرقي والغربي مزينتان بالشراريق (المبرلونات).

في الجهة الشمالية يقوم جدار، يتوسطه المدخل، تتقدمه عتبة صخرية من ثلاثة أمتار ونصف داخل الحوض المقدس، وتنحدر تدريجياً نحو الماء، في وسط العتبة مذبح مكون من قاعدة ونصب موشوري منحدر. أما الحوض المقدس، فمقاييسه (٣٨ × ٤٨م) [1] وعمقه (٣م) قعره من الصخر

[1] سباتينو موسكاتي: الحضارة الفينيقية ـ ص٩١.

الطبيعي، ليس له درج للنزول إليه، في مركزه كتلة حجرية أقيم فوقها كتلة الهيكل المركزي المؤلف من مداميك ثلاثة.

أمام الهيكل وفي الحوض نفسه كتلتان صخريتان، كان يعلو كلاً منهما عامود، والنبع المقدس هو عنصر رئيسي في الطقوس، تتدفق مياهه من كهف في جدار الرواق الشرقي، تحجز مياهه بحاجز. تتفرع منه قناتان، الأولى: عميقة، تجري في أرض الرواقين الشرقي والجنوبي، وتستخدم للتطهر، والثانية: تمر في جدران هذين الرواقين، وهي معدة للشرب، كما يعتقد.

عثر في قاع الحوض على أجزاء تماثيل، تعود إلى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد. وعثر أيضاً على كسر فخارية روديسية من القرن السادس قبل الميلاد. وأقدم الآثار التي عثر عليها في قاع الحوض هي: كسر الجرار المرفوعة الآذان، مع كسر أوانٍ أتيكية من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، وكشف عن أباريق، لونها رمادي أو آجري، في عنقها القصير مصفاة بعدة ثقوب، وتعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، كما كشف عن نقود من عملة أرواد، أو عملة عمريت، تعود إلى مابعد عام (٢٥٩ ق.م).

إن عمارة المعابد الأساسية ليس فيها تأثيرات يونانية، إنما هي خاضعة لتأثيرات سورية ومصرية وفارسية، ومخطط البناء بهيكله مطابق للمفهوم العمراني للمعبد، الذي لدى الساميين، حيث نجده في مدينة جبيل منذ حوالي (٣٠٠٠ ق.م).

أخيراً: إن أهل عمريت أنشؤوا معبداً منحوتاً في الصخر، وبنوا الملعب، الذي نقّب عن درجاته على شاطىء نهر عمريت. وتدل التماثيل اليونانية المكتشفة غربي المعبد على: أن ديانة هذا المعبد كانت قائمة خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[1]. كما كشف عن نصب وهو أقدم هذه التماثيل، وهو من الحجر الكلسي، يمثّل إلهاً قائماً على أسد ماسكاً هراوة بيده اليمنى، وإلى جانبه كتابة فينيقية من القرن الرابع قبل الميلاد.

إذاً تدل التنقيبات الأثرية، التي أجريت في عمريت على: أنها تأسست في العصر الأموري، حيث عثر على كسر فخارية، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تلك الفترة، التي قام بها الأموريون بإنشاء بعض الموانىء على السواحل في الفترة الواقعة مابين (٢١٥٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م)، وكانت عمريت ضاحية برية من ضواحي جزيرة أرواد، وجزءاً، لا يتجزأ عنها.

---

[1] مجلة الحوليات الأثرية السورية: المجلد الثالث ـ ١٩٥٣ ـ ص١٤٨.

ازدهرت عمريت في عصر الحديد، وبلغت القمة والاتساع في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، ثم تحررت من السيطرة الأروادية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، لكن سرعان ماسيطرت أرواد عليها ثانية، ودمروها عام (١٤٠ ق.م). بعد ذلك فقدت عمريت أهميتها خلال العصر الروماني. كانت تربط عمريت بجزيرة أرواد روابط متينة، حيث كان يظهر: أنهما كانتا تكملان بعضهما بعضاً، ففي عمريت معبد أرواد المقدس ومغازلها، وفي القرن الخامس قبل الميلاد كانت مقابر ملوك عمريت وأرواد وكبار الأغنياء فيها.

ذكرت صحيفة تشرين[1]: أنه عثر في ملعب عمريت الأولمبي على أساسات لمنشآت سكنية خدمية للملعب، وثلاثة مدافن محفورة في الصخر على شكل آبار، وعلى معاصر عنب وزيتون وخزّاناتها. كما كشف عن المكسر الجنوبي للمرفأ، والمنشآت المرفئية، التي تعود للقرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وعثر على بعض القطع النقدية، وأجزاء لوحات فسيفساء، وأقنية للمياه العذبة، وأخرى للمالحة، وتم الكشف عن القناة المائية الممتدة من المعبد (نبع الحياة) إلى المرفأ بطول (٢٦٨م)، وهي بحالة حسنة، ومبطنة بالحجارة الرملية المسوّاة، ومسقوفة بشطائح حجرية. علماً أن بعض أقنية المياه العذبة مسقوفة بشطائح فخارية، وعثر على تيجان وقواعد وتوابيت رخامية، وأخرى فخارية فينيقية.

وقالت صحيفة البعث[2]: يبلغ الطول المتبقي من الملعب (٢٣٢م) بعرض (٣٠م)، ويتوصل إليه بسبع درجات محفورة في الصخر من كل جانب، وله مدخلان في الجهة الشرقية، ومدخل من الجهة الجنوبية بشكل نفق محفور في الصخر، وكانت تقام فيه ألعاب الجري، وسباق العربات ويتسع لـ (١١٢٠٠) متفرج. يعود تاريخه إلى العهد الفينيقي.

وكتبت صحيفة البعث[3] السورية « عثر في مقابر عازار في منطقة عمريت بطرطوس على مدفن كنعاني فينيقي، يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد محفور في الصخر، ومسقوف بحجارة ضخمة، وينزل إليه بدرج، يؤدي إلى باحة داخلية، ودواوين، فيها أربعة توابيت من الفخار بشكل إنساني ».

وأوضح المصدر: أن التوابيت تظهر عليها تأثيرات التوابيت المصرية، مما يدل على الصلات

---

[1] صحيفة تشرين السورية: رقم (٦٥٩١) تاريخ ١ / ٨ / ١٩٩٦.

[2] صحيفة البعث السورية: رقم (١٠٠٩٤) تاريخ ١ / ٨ / ١٩٩٦.

[3] صحيفة البعث السورية: تاريخ ١٣ / ٣ / ١٩٩٦.

الحضارية الوثيقة بين مصر، وبلاد الشام منذ القدم. وأوضح المصدر: أن عمريت (ماراتوس) القديمة، والتي تقع جنوبي طرطوس، هي موقع أثري متميز، تعود أشهر أوابده إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد عثر في السنوات السابقة على معالم جديدة، أهمها القنوات المائية، والمنشآت المرفئية من العصر الهلنستي ومابعده. كما وجدت مدافن نادرة من القرن الخامس قبل الميلاد، اكتشف فيها عدد كبير من التوابيت الرخامية المنحوتة بالشكل الإنساني، وهي معروضة الآن في متحف طرطوس.

وكتبت صحيفة البعث[1] السورية: « بدأت دائرة آثار طرطوس مؤخراً بالتعاون مع مجلس المدينة عمليات الكشف، والترميم في موقع عمريت الأثري، وتشمل المعبد، والملعب الأولمبي، وكان قد عثر بالصدفة في هذا الموقع خلال الشهر الماضي على مدفن جماعي فينيقي، يضم خمسة توابيت مصنوعة من الفخار أغطيتها بصورة انسان، وعليها زخارف رائعة، وهي فريدة من نوعها في العالم، ويعود تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وتشير المكتشفات الأثرية في حاضرة مدينة عمريت الأثرية من التماثيل الكاملة، وأجزاء منها، والقطع النقدية، وقناة المياه العذبة، وأثاثات الأبنية، وأجزاء من المرفأ وغيرها، إلى المكانة الحضارية التي كانت عليها سورية في العالم القديم ».

مرقيه:

تعتبر مرقية من ممتلكات جزيرة أرواد، وميناؤها القريب تصدّر منه الحبوب في القرن الثامن قبل الميلاد.

بالاته (بانياس):

أيضاً كانت من ممتلكات جزيرة أرواد في القرن الثامن قبل الميلاد، ولها مرسى طبيعي، وكان هذا المرسى يمثل خليجاً أكثر أمناً.

تل داروك:

يقع تل داروك على الضفة اليسرى لنهر السن، ويحتوي هذا التل على آثار حاضرة مملكة أوسناتو القديمة، وكشف في هذا التل على كسر فخارية متنوعة، تعود إلى العصر الحديدي استمراراً إلى بداية الاسلام. كما عثر على الخزف اليوناني. وكشف في الطبقات السفلى على خزف شبيه بخزف تل العبيد وتل حلف، مما يؤكد: أن هذا التل كان مسكوناً منذ أواخر الألف الرابع قبل

[1] البعث السورية: تاريخ ٢٤ / ٤ / ١٩٩٦.

الميلاد، وقيل: إن تل داروك كان يعرف باسم اوسناتو، وهي عاصمة مملكة قديمة صغيرة، انتهى دورها، عندما هاجم شعوب البحر مملكة أوغاريت، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تابعة لجزيرة أرواد، وكانت أوسناتو في العهد الحثي تابعة لملك سيانو.

عرب الملك:

يذكر: أن قرية عرب الملك هي مدينة بالتوس القديمة، كانت تابعة لجزيرة أرواد، يعتقد: أن مدينة بالتوس هذه أسست في عرب الملك في القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد تقريباً، وكانت تسمى (بليتا)، وكشف هناك عن كسر فخارية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد.

كورفيص (قريفيص):

أيضاً كانت تابعة لجزيرة أرواد، يعتقد أنها تعود إلى الفترة، التي وجدت فيها مدينة بالتوس (عرب الملك).

سوكاس:

يذكر هنري ـ س ـ عبودي[1] سوكاس: بأنها موقع أثري فينيقي، تقع بالقرب من مدينة جبلة على الساحل السوري، اكتشف فيها أحجار صوانية، تعود إلى عصور ماقبل التاريخ، كما كشف في التل عن حي سكني يعود إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، يستمر إلى العصر الهلنستي، كما كشف في التل معبد، يعود إلى حوالي (٤٠٠ ق.م)، وكشف أيضاً مستودعات مهمة، يعتقد: أنها استعملت لخزن الحبوب، وكشف فيه خاتم أسطواني، يمثل تمثالاً واقفاً على عربة، تجرها خيول، وكشف العديد من الكسر واللقى المحلية والمصرية والقبرصية واليونانية، ونقد من أرواد.

وعثر في تل سوكاس عام (١٩٦٠م) على حبوب، كلها من الحنطة النشوية[2]، كما تم الكشف عام (١٩٦١م) في نفس التل عن بقايا قليلة للمباني الواقعة إلى الجنوب الشرقي من التل شمال النهر مباشرة. وعثر على أحجار السيليكس، تعود إلى عصور ماقبل التاريخ، وكشف عن بناء ضخم، يرجع إلى عام (٤٠٠ ق.م)، يتألف من فسحة مرتفعة فيها بناء على شكل مذبح، وإناء

---

[1] هنري ـ س ـ عبودي: معجم الحضارات السامية.

[2] الحوليات الأثرية السورية: المجلد (١٣) ـ ١٩٩٣ ـ ص٢٧٨.

لتقديم الخمر للآلهة، وكشف أيضاً عن أدوات حليب قبرصية[1]، وكسر معيشية، وقطعة حلي من الذهب، وخاتم أسطواني جميل ذي أسلوب أوغاريتي، كما يبدو.

وكشف عن الحياة العمرانية في تل سوكاس، تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد، ويحتوي هذا التاريخ على آثار، تعود إلى عصر الهكسوس، وعثر على مستودعات، يعود تاريخها إلى حوالي (١٢٠٠ ق.م) العصر الحديدي، كما كشف فيها عن معبد أغريقي. صُدّر عن طريق مرفأ تل سوكاس العاج المصنّع في حماه، وفي تل سوكاس وجد ميناء شمالي وآخر جنوبي.

جبلة:

عرفت قديماً بمدينة كابالا، ورد اسمها في النصوص المكتشفة في أوغاريت، وكانت جبلة تابعة لها في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وتبعت بعد سقوط أوغاريت لمملكة سيانو، ثم أصبحت تابعة لجزيرة أرواد في مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، واسمها الحالي مازالت محتفظة به منذ حوالي أربعة آلاف عام.

أشناتو:

مدينة كنعانية قديمة[2]، تقع إلى الجنوب من مدينة جبلة السورية الحالية. كانت تابعة لأوغاريت، ثم تخلت لسيانو عنها في عهد الملك الأوغاريتي نقيمبا، ثم رسمت حدود بين الطرفين بمعرفة الحثيين. دمرت مع غيرها من المدن الفينيقية خلال هجمات شعوب البحر على المنطقة.

كارنة:

تعتبر من ممتلكات جزيرة أرواد في القرن الثامن قبل الميلاد، ومن الصعوبة فصل مرافىء كارنة من مرافىء طرطوس، لأنها مكملة بعضها لبعض، إذن كانت وحدة متكاملة تحت أمره وحدة.

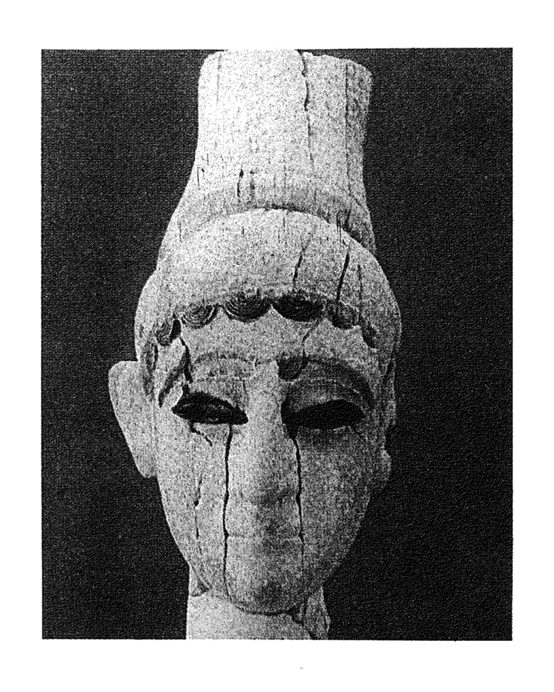
سميريا:

مدينة كنعانية قديمة، تقع على الساحل قرب ميناء طرطوس السوري، على الضفة اليمنى لنهر الأبرش. وقيل: تقع هذه المدينة، كما يعتقد، في الأراضي الواقعة بين ضواحي مدينة عمريت في

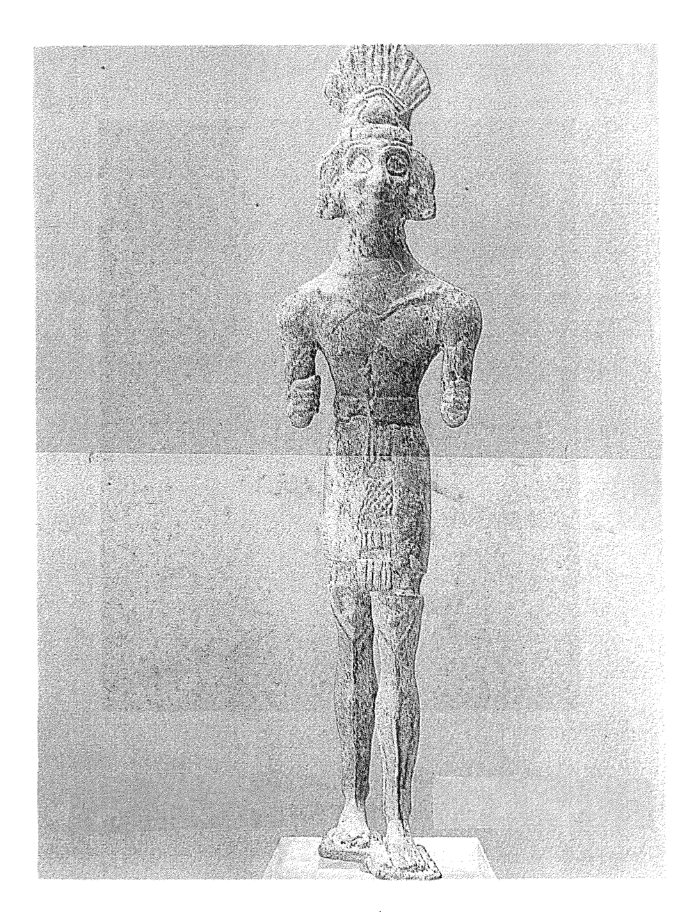
---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلدان (١١ ـ ١٢) ـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ـ ص١٥٩.

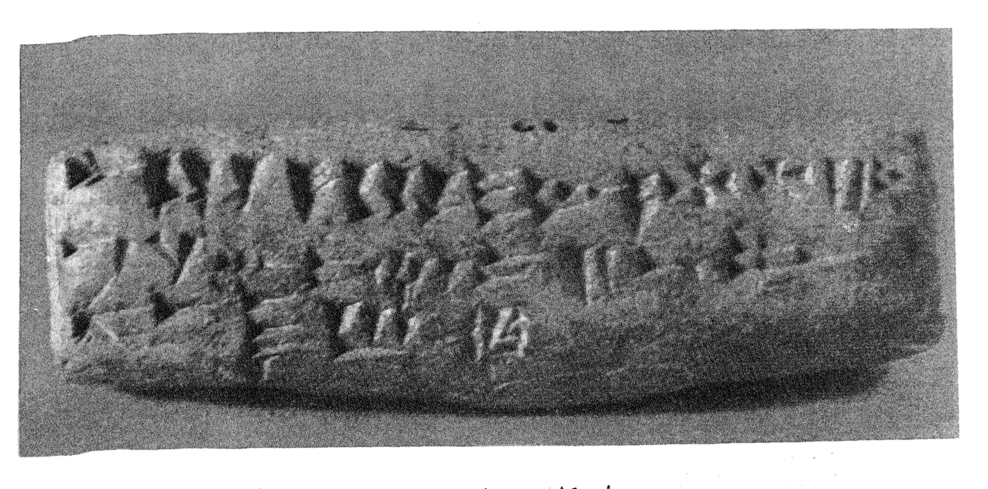
[2] حسن نعمة: من ذاكرة التاريخ ـ مدن الشرق الأدنى القديم ـ ص٣٠.



تمثال عاجي لأميرة من أوغاريت
Une princesse d;Ugarit



أوغاريت



أبجدية أوغاريت (رأس الشمرة)



ختم رسالة مورسيللي الحثي إلى ملك أوغاريت

Chiffre cuneiforme-Civilisation d,Ugarit 1500 av.J.C.

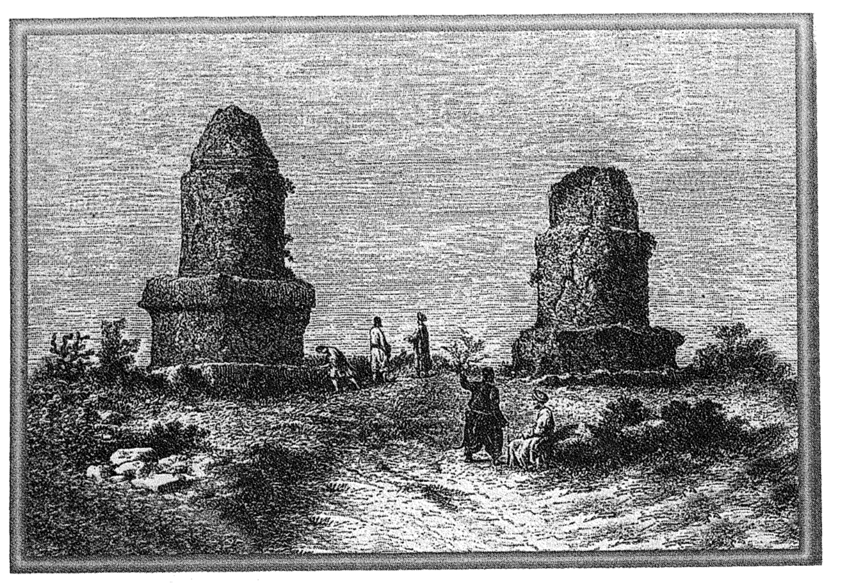


Amrit, Tartous

عمريت، طرطوس



مدرج (جبلة)



هياكل لقبور فينيقية في طرطوس للفنان الكسندر دي بار (القرن ١٩ م)

منطقة النهر الكبير الجنوبي، وشمالي منحدرات جبال لبنان[1] أي في سهل عكار، ويعتقد: أن تل الكزل هو موقع[2] مدينة سميريا القديمة. وقيل: إنها كانت واقعة على البحر الأبيض المتوسط بين النهر الكبير المسمى قديماً (اولوتير)، وبين ماراتوس (عمريت)[3]. هذا ولقد ذكرت مدينة سميريا في ألواح تل العمارنة، وذكر: أنها كانت مرتبطة مع جبيل بعلاقات مختلفة. وقيل: كانت عاصمة لمملكة أمورو، وكانت موالية للحثيين، ومن أشهر ملوكها الملك عازيرو ابن الملك حدد عشيرتة.

نتيجة التنقيب في تل الكزل، تبين: أنه يمكن أن يكون هو موقع مدينة سميريا. يقع تل الكزل على الشاطىء الأيمن لنهر الأبرش. طول هذا التل (٣٢٥ - ٣٥٠م)، وعرضه (٢٠٠م). يحيط التل سور قديم، وهذا التل يؤلف نقطة استراتيجية، تراقب منه الطرق الساحلية، يبعد عن طرطوس (٢٨ كم)، وكانت سميريا مزدهرة في العصرين الهلنستي والفارسي، والظاهر أن العصر الروماني قضى على سميريا، كما قضى على كثير من المرافىء الموزعة على الشاطىء الفينيقي، كما كشف عن مخلفات العهد الآشوري في تل الكزل. وقد ورد ذكر مدينة سميريا في كتب المؤرخين القدامى[4]، كما ورد ذكرها في التوراة، وتذكر حوليات تحوتمس الثالث خلال حملته السادسة: أنه بلغ قادش، ثم مدينة سميريا، فأرواد. كما ورد اسمها في نص آشوري من معبد اتوحدد، يتحدث عن حملة، قام بها تغلات بلاصر الأول على الساحل السوري، حيث سافر على مراكب أرواد إلى سميريا، واصطاد هناك حصاناً بحرياً.

وكشفت نتيجة التنقيب في تل الكزل كُسرٌ فخارية متنوعة، تعود إلى العصر الهلنستي. كما كشف عن أوانٍ فخارية، ورأس تمثال فخاري، يعود إلى عصر الحديد. وعثر على كسر فخارية مزينة بزخارف خطية حمراء وسوداء وزرقاء، وكسر أخرى ذات مناطق حمراء وبرتقالية أو سوداء.

وكشف في تل الكزل عن عدد من القباب، تعود إلى العصر البرونزي الحديث، اثنتان منها كرويتان بقعرين ضيقين، وقبتان مستقيمتان، وأخرى عدسية الشكل بعروتين، وصحنين كبيرين مستويين جداً، وكشف أيضاً عن أجزاء إناء كبير جميل، له ساق مرتفعة، وبطن ضخم محزز ومزين بزخارف مستطيلة.

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: العدد ٧ - ١٩٥٨ - ص١٩٥.

[2] أحمد داوود: العرب الساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود - ص١٧٦.

[3] الحوليات الأثرية السورية: المجلد (٣) - ١٩٥٣ - ص١٤٨.

[4] الحوليات الأثرية السورية: المجلد (٧) - ١٩٥٧ - ص١٩٥.

طرطوس:

ذكرت صحيفة البعث[1] مايلي: « أعـدت لجنـة حمايـة مدينـة طرطـوس القديمـة الكثـير مـن الدراسات والمخطوطات لتوثيـق الأبنيـة الأثريـة للمدينـة، ورممـت العديـد مـن الجـدران والسـقوف المتصدعة للحفاظ عليها. والجدير بالذكر: أن مدينة طرطوس القديمة كانت تعد من أهم مدن البحـر الأبيض المتوسط في العالم القديم، وتحيط بها ثلاثة أسـوار مبنيـة بالحجـارة الضخمـة، أهمهـا السـور الداخلي، الذي يعتبر من أعلى الأسوار في العالم، ويحتوي علـى أوابـد هامـة: منهـا قاعـة الفرسـان، والتي ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والحصن الكبير المطـل علـى الواجهـة البحريـة بطـول (٤٠م)، يحصّنه برجان طولهما (١٠م)، والمعبد والبرج الذي يحتوي على نوافذ ومرامي السهام.

وقالت الصحيفة: إن المدينة تضم كاتدرائية، وهي كنيسة فخمة، تضم أقدم مذبح مسـيحي، أقام عليه القديس بطرس ذبيحته الأولى. كما توجد فيها أيقونة السـيدة العـذراء مـن رسـم القديـس لوقا. أصاب المدينة زلزال عام (٣٨٧ ق.م)، دمّر القسم الأكبر منها، وفتحهـا العـرب المسـلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد حاكم حمص عبادة الأنصاري ».

عـثر في موقـع عـازار علـى شـاطئ البحـر الجنوبـي طرطـوس علـى مدفـن جمـاعي، يضـم (٣٣) معزباً[2]، يعود تاريخه إلى القرن الثاني الميـلادي. وعـثر في المدفـن علـى لقـى وقـالب فخـاري بشكل وجه ذي لحية وسراج فخارى وجرار مخروطية ووريقـات ذهبيـة للزينـة وقطـع نقـد برونزيـة أروادية.

والمدفن غرفة بشكل بهو مربع الشكل محفورة بالصخر، يدخل إليهـا عبر مدّرج مؤلـف مـن ثلاث درجات في الأعلى بعدها مساحة مستوية، ثم ثلاث درجات في الأسفل، ويحيـط بـالبهو مـن جهاته الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية معازب متعاقبة ومنظمة ضمن ثلاثـة طوابـق، كـل طـابق يتألف من ثلاثة معازب متجاورة، بينما يتألف الجانب الغربي من ثلاثة طوابق في كل طابق معزبـان، بينهما المدخل، ويفصل بين المعازب حواجز من الحجر الرملي المنحوت. وذكـر: أن المعـازب كلهـا مغلقة بإحكام بواسطـة حجرة واحدة بإستثناء معـازب الطـابق الأعلـى وبـاب المدفـن مصنـوع مـن حجرة واحـدة كبيرة. وطريقـة الدفن في هذه المعازب كانت تتم بواسطة توابيت رصاصية خشبية،

---

(1) صحيفة البعث السورية: رقم (١٠٠٦٥) - تاريخ ٧ / ٧ / ١٩٩٦.

(2) البعث: العدد (١٠٢٢٧) تاريخ ١٦ / ١ / ١٩٩٧.

حيث توضع جثة المتوفي، وهي مغلّفة بطبقة من الجبس، ثم يغلق التابوت بالجبس، وقد وجدت ثنايا الثوب، الذي يرتديه المتوفي على قطع الجبس.

وفي المنطقة الحرة في مدخل طرطوس الشمالي[1]، تم الكشف عن هذا المدفن الجماعي[2] المنحوت في الصخر الطبيعي. وذكر: أن هذا المدفن يتألف من غرفة أولى، تعتبر كموزع لغرف أخرى مستخدمة في المدفن، يمكن الوصول إليها بواسطة درج عريض مؤلف من ست عشرة درجة. وكشف في الغرفة الأولى وفي الجانب الأيمن من البوابة ثلاثة معازب طابقية، وفي الجهة اليسرى معزبٌ واحدٌ وأربعة أبواب. وكشف في أرضية الغرفة معزبٌ واحد أيضاً.

كما كشف في الجدار الغربي باب، يؤدي إلى الغرفة الثانية، التي تضم خمسة معازب وآخر أرضي، وفي الجدار الشمالي باب، يؤدي إلى الغرفة الثالثة، وباب في الجدار الشرقي، يؤدي إلى فجوة جدرانية، حيث جرت محاولة لإحداث غرفة، إلا أن المحاولة فشلت نتيجة قساوة الصخر.

وعثر في هذا المدفن على فص خاتم زجاجي ومرآة برونزية وعدد من المسامير البرونزية والحديدية وخرزة مغزل، وبقايا الهياكل العظمية وبعض الكسر الفخارية، التي يعود تاريخها إلى العصر اليوناني.

تل سيانو:

في القطاع الشرقي من التل تم كشف[3] معبد عائد إلى القرن السادس قبل الميلاد، ويعتبر فريداً من نوعه، ويضم المعبد باحة سماوية مبلطة بالأحجار البيضاء والملساء، وفي قسمها الجنوبي عثر على مذبح هام مبني من حجارة، يحيط بالمعبد غرف ذات جدران كبيرة، عثر فيها على جزء من قالب لصب الحلي الذهبية، إضافة إلى مدقات بازلتية، كما عثر على فخار ملون بالأسود والبني اللماع، ويسمى الفخار الاتيكي المستورد.

وذكر أن هذا المعبد[4] المكتشف هو معبد ضخم، يعود إلى فترة عصر الحديد الثاني (٨٠٠ ق.م) ويحتوي على باحة مربعة الشكل (٢٠ × ٢٠م) مبلطة بالأحجار، بشكل لا

---

[1] جريدة البعث: العدد رقم (١٠٤٤١) تاريخ ١٢ / ١٠ / ١٩٩٧.

[2] تم الكشف عن هذا المدفن في ـ ٢٦ / ٨ / ١٩٩٧.

[3] جريدة البعث: العدد رقم (١٠٤١٠) تاريخ ـ ٣ / ٩ / ١٩٩٧.

[4] جريدة الثورة: العدد رقم (١٠٩٣٩) تاريخ ـ ٢٠ / ٩ / ١٩٩٧.

مثيل له. أما أحد الجدران، فيبلغ طوله حوالي ثلاثين متراً، بعرض (١,٤٠م)، وعثر فيه على بعض المغازل، التي استخدمت لغزل الصوف، وفخار ملون، يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وأجزاء من الجرار الكنعانية الضخمة الخاصة بالتخزين وبعض الأدوات البرونزية وأدوات الطحن والأجران البازلتية.

الفصل الثالث

تدمر

- موقع تدمر وأهميتها التاريخية.
- الفن التدمري.
- معابد تدمر.
- منشآت تدمر.
- المدافن التدمرية.
- النقود التدمرية.
- حكام تدمر.
- تاريخ الزباء السياسي.

تـدمـر

موقع تدمر وأهميتها:

تقع تدمر في قلب بادية الشام، حيث تحتل مسافة شبه متساوية بين المدن السورية، أي على بعد (١٦٠ كم) جنوب شرق حمص على بعد (٢٥٠ كم) شمال شرق دمشق، وعلى بعد (٣٥٣ كم) عن حلب، وعن حماه (٢٠٧ كم)، وعن دير الزور (٢٠٠ كم). والأساس الجغرافي كبداية هو نبع ماء، حيث خلف هذا النبع واحة خضراء، أصبحت مكانة استراحة ومحطة القوافل بين العراق والشام، وما يتصل بينهما من العراق إلى الهند وإيران والخليج العربي والمتوسط. حيث يعتقد: أن الألف السابع قبل الميلاد كان قد شهد أول إقامة للإنسان في هذه الواحة قرب النبع المذكور، وازدادت أهميتها فيما بين القرن الأول قبل الميلاد حتى عام (٢٧٣م).

يذكر هنري ـ س ـ عبوي[1]: بأنها كانت عاصمة البادية (بادية تدمر)، تقع في واحة بين دمشق والفرات. ويرقى تاريخ تدمر إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وظهر اسم تدمر في الألف الثاني قبل الميلاد في وثائق مدينة ماري، وذلك إبان حكم حمورابي، كما ورد ذكرها في وثائق آشورية، وفي سجلات تجلات بلاصر الأول (١١١٧ ــ ١٠٧٧ ق.م). بعد دمار صور عام (٣٣١ ق.م) على يد الاسكندر[1] عادت تدمر، تستقطب مجدداً القوافل، التي أصبحت تتجه إلى أنطاكية بدلا من صور.

تدمر اسم عربي آرامي، ومعناها المدينة، التي يكثر فيها النخيل[2]. هذا وقد ورد (حوالي القرن العشرين قبل الميلاد) ذكْر أحد التدمريين في أحد الرقم الآشورية القديمة المكتشفة في منطقة كبادوكيا في الأناضول، والنص يذكر بوزرعشتار التدمري (تدمر يم). وذكرت تدمر بعد ذلك في رقيمين من مدينة ماري، يعودان إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وفيهما

---

[1] هنري ـ س ـ عبودي: معجم الحضارات السامية ـ ص٢٦٨.

[2] حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ـ طبع الاسكندرية ١٩٧١م ـ ص١١٥.

أول طبعة ختم تدمرية معروفة حتى الآن[1].

أما الاسم اليوناني للمدينة فهو بالميرا، وتذكر المصادر العبرية: أن بناءها ينسب إلى النبي سليمان بن داؤود، الذي أمر الجن ببنائها. الحقيقة إنَّ هذا الزعم مستبعد، لأن تدمر ترجع في وجودها وسكنها كما ذكرنا إلى قرون بعيدة جداً عن عهد سليمان[2]، وما هذا النسب الملفق إلا محاولة عبرية خاطئة، الغاية منها تعظيم شأن مملكة سليمان بن داؤود، وما هذه الرواية إلا كغيرها سابقاً ولاحقاً. كما حدث عند اكتشاف إيبلا ومكتبتها، ومما يضحك في الرواية: أن النبي سليمان كان قد أمر الجن ببنائها و لم يظهروا. فمن سكنها؟ هل سكنها، حسب زعمهم، الجن؟ وهذا ما يدل على خرافة هذه الأسطورة، ووضعها لغاية، أرادوها. ووصف بليني أول الكتاب الكلاسيكيين تدمر: بأنها مدينة شهيرة ذات موقع ممتاز، وأرض خصبة، وأن بها عيوناً وينابيع. تقع بين الامبراطورية الرومانية والفارسية.

وذكرها الألوسي البغدادي[3]: بأنها من أعمال حمص، فيها شجر ونخيل وزيتون، وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور، وكان لها سور وقلعة. وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام. وقال: واختلف في بانيها. فقال بعض المؤرخين: إنه سليمان عليه السلام وإنّ الجن، قد بنتها له. وفي ذلك يقول النابغة الذبياني[4] في مدح النعمان بن المنذر:

لا أرى فاعلاً في الناس يشبهه	وما أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاصددها عن الفند
وخيّس الجن أنى قد أذنت لهم	ينون تدمر بالصفاح والغمد

وقال بعضهم: إن تدمر من أبنية العرب القدامى، فتدمر هي بنت حسان بن أذينة، بها سميت، وهذا المعوّل عليه.

هذا وقد اكتشفت البعثة الأثرية السورية الفرنسية؛ التي تتابع أعمال التنقيب في قرية الكوم في بادية تدمر في موقع (أم تليل) [*] بين تسربات المواقع أدوات صوانية، تدل على استمرار سكنى

---

[1] عدنان البني ـ خالد الأسعد: تدمر أثرياً ـ تاريخياً ـ سياحياً ـ طبع دمشق ـ ص١٥.

[2] فؤاد قازان: لبنان ـ ص١٠١.

[3] محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ طبعة ثانية ـ بيروت بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص٢٠٩.

[4] النابغة الذبياني: ديوانه.

[*] يبعد حوالي (١٢٠ كم) عن مدينة تدمر منتصف الطريق بين تدمر والفرات.

هذه الحوضة لأكثر من مئة ألف سنة مستمرة، وكانت أشبه بالخزان البشري، الذي فاضت جداوله في كافة أنحاء المعمورة، فمنها اتجه الإنسان نحو الشمال والشرق والغرب والجنوب، وتدل الأدوات الصوانية المكتشفة: أنها من عصور مختلفة منذ العصر الآشولي، وهو عصر الإنسان التندرتال ثم العصور الأخرى: الأورغيناس، الكوبيرين، والفيلوازين، هذه العصور، التي اشتهرت بصناعات مميزة، التقطت في الطبقات والردميات. وعلى الأخص في موقع أم الهمل[1] كما استطاعت البعثة أن تحدد أكثر من (٢٥) طبقة استيطان فوق بعضها، عمرها أكثر من مئة ألف سنة، وعثرت البعثة على بقايا عظمية، تعود لحيوانات منقرضة، بينها أجزاء من عظام خرطوم فيل، واستمرت الحياة في هذه المنطقة منذ الألف السادس قبل الميلاد.

وذكرت صحيفة البعث في عددها رقم (١٠١٨٠) تاريخ ١٩ / ١ / ١٩٩٦: أنه اكتشف في منطقة الكوم بموقع أم تليل في بادية تدمر جمجمة طفل، تبين من الدراسة والتحليل: أن تاريخها يعود إلى (٤٠٠) ألف سنة من العصر الآشولي القديم، وهو العصر الذي عاش فيه الإنسان المعروف باسم (هوموار أكتوس)، الذي يعرف أيضاً بالإنسان المنتصب، كما عثر أيضاً على أدوات صوانية، صنعها هذا الإنسان.

وسكان تدمر عرب، مثلهم مثل الأنباط مثل الغساسنة والمناذرة، مثل عرب سورية والعراق ومصر، فأسماء الآلهة عربية، وأسماء الأشخاص عربية. ففي البداية استخدم التدمريون الآرامية[2]، وهي لا تختلف عن لغة الأنباط[3]، وطوّر التدمريون الكتابة الآرامية، وعنهم انتقلت إلى السريان في الرها. أما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والآرامية واليونانية. وكان المجتمع التدمري يتألف من طبقات اجتماعية، طبقة خاصة، وطبقة عامة، ثم طبقة العبيد، وكان يضم عدداً من الجاليات الأجنبية[4]، ولا سيما الرومان.

كانت تدمر قبل عهد أذينة تتمتع بحكم شورى، يشرف عليه مجلس شيوخ، ولكل عشيرة مجلس يسمى (ديموس)، يضم كل أفرادها البالغين، وكان للمدينة حاكم (أراخون)، وموظفون إداريون، مثل موظف للمالية، وآخر للأسواق، وقائد جيش، وقائد حامية وقوة بوليسية لحماية

---

[1] صحيفة البعث: رقم (١٠١٢١) ـ تاريخ ١ / ٩ / ١٩٩٦.

[2] عبد الهادي نصري: ص٣٦.

[3] محمد بيومي مهران: حركات التحرر في مصر القديمة ـ طبع القاهرة ١٩٧٦م ـ ص٣٤٢ ـ ٣٤٣.

[4] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ـ طبع بيروت ـ ج٣ ـ ص٨٤.

القوافل، ولكن حكماً وراثياً قام بهـا مـن عهـد أذينـة الثـاني، يجمـع كـل السـلطات. إذاً اسـتعمل التدمريون إحدى اللهجات العربية، وكتبوا بالخط الآرامي، وطـوروه إلى الخـط التدمـري، وكـانت أسماؤهم وسائر أحوالهم تؤكد عروبتهم.

في نهايـة القـرن الرابـع قبـل الميـلاد، وفي الوقـت، الـذي كـان فيـه سـلوقس نيكـاتور يؤسـس في سـورية مدينـة أنطاكيـة، والمـدن الأخـرى كاللاذقيـة وأفاميـا وسـلوقية (السـويدية)، كانت تدمر مدينة مزدهرة، وفـي القـرن الثانـي قبـل الميلاد كانت تدمر قد استقرت إمـارة عربيـة، مثلها مثل حمص والبتراء وإمارة الآتوريين في لبنان[1].

بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول مـن القـرن الأول قبـل الميـلاد، وأصبحـت تحتوي شواهد مادية وأدبية بسبب الأهمية التجاريـة والدبلوماسية لموقعهـا الاسـتراتيجي الهـام بـين الامبراطوريتين الفارسية والرومية، هاتان الامبراطوريتان اللتان ظلّتا على تناقض مستمر ودائم، ومـع عدم توفر الجيش والقوة داخل تدمر، كان من المحال أن تبقى تدمر في مأمن من هاتين القوتين.

من ذلك نرى: أن تدمر كانت قد خضعت للرومان، اعتباراً من (٦٤ ق.م). وكـان لتدمـر قبل تبعيتها للرومان نظام حكم، يقوم على وجـود مجلـس للشـيوخ، ومجلـس للشـعب، في الوقـت، الذي كان فيه للعشيرة دور مهم في حياة تدمـر، وبعـد إلحـاق تدمـر برومـا أخـذت تدفـع الجزيـة، ويتحكم في مؤسساتها الوالي الروماني.

في العهد الروماني أصبحت الطرق البرية السورية بالغة الأهمية كالطرق، التي تصل كلاً من حمص ودمشق وبصرى، وبقيت تدمر دون حماية رومانية أو غيرها حتى النصـف الثـاني مـن القـرن الأول الميلادي، أي أنها كانت تحمي نفسها بنفسها. وأول من أقام فيها حامية رومانية الامـبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧م)، ووضع فيها ممثلاً، يساهم في اتخاذ القرارات الهامة، وبذل جهده لضم تدمر إلى المقاطعة العربية، التي أنشأها عام (١٠٦م)، واتخذ من بصرى[2] مقراً لها.

حصلت تدمر على لقـب المدينـة الحـرة في عهـد الامـبراطور[3] هادريـان (١١٧ ــ ١٣٨م)، وكان ذلك عندما مر بها حوالي سنة (١٢٩م) واستقبل استقبالاً حافلاً، وهذا اللقب خولهـا سـلب

---

[1] عدنان البني ـ خالد الأسعد: تدمر أثرياً ـ تاريخياً ـ سياحياً ـ ص١٦.

[2] المرجع نفسه.

[3] محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ـ طبع مصر ١٩٩٤م ـ ج٢ ـ ص٤١٠.

الضرائب، وجباية الأموال بنفسها مع الاحتفاظ فيها بمندوب امبراطوري، يراقب سير عمل الخزانة، مثلها في ذلك مثل سائر المدن الحرة اليونانية، كما وضع في تدمر فوجاً من الخيالة، كان يعسكر خارج المدينة، الهدف منه مراقبة الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية. في هذه المرحلة أصبحت تدمر تسيطر عملياً على كل الطرق التجارية في الشرق بين مصر، وجزيرة العرب وأوروبا من جهة، وبلاد فارس والهند والصين من جهة أخرى. كما كان دورها هاماً في طريق الحرير، الذي يصل بين الصين والعالم الروماني.

ثم تطورت تدمر، وخاصة في عهد الامبراطور سبتيموس سيفروس (١٩٣ ـ ٢١١م)، الذي كان متزوجاً من أميرة حمصية هي (جوليا دومنا) ابنة كاهن الشمس في حمص، ورزق منها الامبراطور المقبل كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م)، وعندما تسلم كركلا السلطة[1]، منح تدمر عام (٢١٢م) لقب المعمورة، ذلك اللقب، الذي يعفي تدمر من الضرائب، ويساويها بأعظم المدن الرومانية، وعلى رأسها روما. وبذلك أكسب تدمر حق الملكية، والإعفاء من الخراج، فضلاً عن الحرية التامة في إدارة شؤونها.

وإلى تدمر ينسب قانون التعرفة الجمركية[2]، الذي يعتبر من أهم الكتابات التدمرية المنقوشة على الحجر، وهو أطول نص تدمري معروف حتى الآن، وقد ورد في هذا النص بنود القانون المالي التدمري، الذي حدد جميع الموكوس (الضرائب)، التي كانت تجبى في تدمر ومنطقتها لصندوق البلدية.

وأرّخ هذا القانون في (١٨) نيسان (٤٤٨) سلوقي، أي (١٨) نيسان (١٣٧م)، ويبلغ ارتفاع الحجر، الذي نقشت عليه الكتابة قرابة (١,٧٥م)، وعرضه (٤,٨٠م)، عثر عليه عام (١٨٨١م)، وهو موجود في متحف الأرميتاج في لينينغراد. ساعد على اتساع حركة التجارة وتنوعها، وعندما وصلت السلالة الساسانية إلى الحكم في بلاد فارس عام (٢٢٨م)، حاولت التأثير على تجارة تدمر، وبذلك أخذت تدمر تفقد تدريجياً طرقها التجارية.

وعثر في تدمر أثناء التنقيب[3] على ساعتين شمسيتين من الحجر بشكل نصف قبة. الساعة

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان ـ طبع لبنان ـ ص٤٣٥.

[2] عن جريدة البعث: رقم (١٠١٢٠) تاريخ ١٠ / ٩ / ١٩٩٦.

[3] جريدة البعث: العدد رقم (١٠١٤٧) تاريخ ١٣ / ١٠ / ١٩٩٦.

الأولى: مثبتة في عمود تذكاري[1] وجد في الحي الغربي أمام معبد اللات. وهـذا العمـود التذكـاري أقامته قبيلة بني معزين (من أشهر قبـائل تدمـر) لشيخها سـلام الـلات عـام (٦٤م). كمـا كشـف حديثاً: عن ساعة شمسية ثانية معـاد استعمالها في أحـد البيـوت التدمريـة في الحـي الشـمالي، يعـود تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، في فترة ازدهار تدمر (نقلت إلى متحف تدمر).

إن هذا الاختراع يدل على ما وصلت إليه الحضارة العربية من تقدم في مجال العلـوم. حيـث اهتُديَ من خلال هذا الابتكار إلى تقسيم ساعات النهار ضمن نصف دائرة حجرية مقسمة إلى اثني عشر حقلاً، ومرقمة من شروق الشمس حتى غروبها. فتحدد أشـعة الشـمس المواجهـة لهـا الظـل بواسـطة قضيب برونـزي مثبـت في مـركـز الدائـرة. فعندمـا تشرق الشمس، يقع ظـل أشعتها من خلال القضيب على الساعة في الأعلى، وعندما تصل وقت الزوال يصبح الظل على الخط الأوسط، أو الساعة السادسة، وعندما يتجاوز الزوال اتجاه الغرب يسـقط الظـل فـوق الخط السابع ثم الثامن وهكذا.

بالإضافة إلى ما ورد فقد استخدم العرب منذ القديم خلال الليل النجوم للاهتداء بهـا أثنـاء ترحالهم وتجوالهم لتحديد الاتجاهات. من هذه النجوم نجمة المساء، وقد عبدهـا العـرب التدمريـون، وغيرهم باسم الربة العزى، وعبدها اليونان والرومـان. ومـن النجـوم الأخـرى نجـم القطـب، الثريـا والميزان (الدب الأصغر + الدب الأكبر)، ودرب التبانة.

نتيجـة الأعمـال والمسح الأثـري الـذي قـامت بـه بعثـة سـورية ألمانيـة مشـتركة بتـاريخ ــا ١٨ / ٣ / ١٩٩٧، واستمرت لغايـة ــا ٢٨ / ٣ / ١٩٩٧، وخـلال دراسـتها لمسـاحة ثمانيـة هكتارات من المدينة الأثرية إلى الشمال الغربي من الطريق، الذي يؤدي إلى وادي القبور[2]، بهـدف وضع مخطط للمنطقة الأثرية، التي تغمرها الرمال. حصلت هـذه البعثـة علـى نتـائج مذهلـة. حيـث كشفت عن وجود أبنية أثرية مغمورة تحت الأرض على عمـق مـترين. بعـض هـذه الأبنيـة ضخـم. لكن لم يعرف بعد نوعية هذه الأبنية وإلى أي فترة تعود؟ وسيتم التأكد من تاريخ هـذه الأبنيـة بعـد إكمال المسح الأثري في موسم ثانٍ من أجل إجراء عملية التنقيب اللازمة. حيث من المتوقع وجـود مدينـة أثرية أخرى، تقع تحت المدينة الأثرية الحالية. وخاصة أن الإنسان سكن هذه المنطقة في عصر

---

[1] كان هذا العمود منهاراً، أعيد تثبيت الساعة الشمسية في موقعهـا الأصلي، وتم وضـع قضيـب مـن البرونز يحدد مـن خلالـه ظـلال وأوقات الساعة خلال النهار.

[2] البعث: العدد رقم (١٠٣٠١) ـ تاريخ ٢٢ / ٦ / ١٩٩٧.

ما قبل التاريخ، بعد أن نزل من الكهوف، واستوطن حول نبع أفقا[1] التاريخي.

بعد أن قامت البعثة بتقسيم مساحة الأرض المراد كشفها إلى مربعات، مساحة كل مربع ٤٠ × ٤٠ متراً، اعتمدت في أعمال الكشف على أساليب تكنولوجية حديثة ومتطورة جداً، حيث تم استخدام جهاز مغناطيسي وآخر كهربائي، يتصلان بجهاز حاسوب، يرسم الموقع، ليظهر على الشاشة بشكل خطوط، تشير إلى مسار الجدران والشوارع، والجدير ذكره: أن هذا الأسلوب الحديث يفيد كثيراً في معرفة مخطط المنطقة الأثرية وفي تحديد الأماكن الهامة فيها.

وفي يوم الثلاثاء ١٥ / ٤ / ١٩٩٧، عثر أمام السور الشمالي الدفاعي القريب من المتحف على: قطعتين منحوتتين الأولى: هي أجزاء من مشهد جنائزي، يمثل كأس التقديمات، وكف إنسان، وهذه الأجزاء هي من مشهد الوليمة الجنائزية، التي تمثل عادة في المقابر التدمرية، كما عثرت البعثة أيضاً وبنفس المكان على قطعة أثرية أخرى: تمثل جزءاً من صدر تمثال سيدة وهذه القطع المكتشفة تعود في أسلوب نحتها إلى بداية القرن الثاني الميلادي. والجدير ذكره: أن السور الدفاعي بتدمر، والذي رمم من قبل العرب الغساسنة، قد استخدم في ترميمه العديد من المنحوتات التدمرية، التي تعود إلى فترة ازدهار المدينة في القرون الثلاثة الميلادية الأولى.

وعثر في تدمر على ثلاثة رؤوس حجرية[2] كاملة ونادرة لفرسان تدمر أثناء عملية التنقيب في مدفن برجي، يقع في منطقة المدافن الغربية، وهذه الرؤوس منتزعة من تماثيل أخرى كاملة، وهي جزء من مشاهد جنائزية. والرؤوس المكتشفة منحوتة بشكل دقيق، أصحابها ملثمون، فوق رأس كل منهم إكليل من الغار، ويعود تاريخها إلى أواخر القرن الثاني الميلادي، وهذه الرؤوس موجودة الآن في متحف تدمر الوطني. تبين وجود غرفة تحت الأرض في هذا المدفن، يتم الصعود منها إلى الطوابق العلوية المنهارة. كما اكتشفت داخل المدفن مجموعة منحوتات محطمة بين الأنقاض، بينها تمثال لرجل واقف منحوت من حجر الكلس، ينقصه القسم السفلي من الساقين.

وكشف أيضاً عن كنيسة بجانب القصر، الذي بناه ديوجين آخر حاكم لتدمر منذ بداية القرن الرابع الميلادي بعد سقوط تدمر، والذي حوّل أيضاً إلى كنيسة، كانت تستخدم لأداء

[1] البعث: العدد رقم (١٠٣٠١) ـ تاريخ ٢٢ / ٦ / ١٩٩٧.

[2] البعث: العدد رقم (٥ ـ ٢ ـ ١) تاريخ ١٩ / ١٢ / ١٩٩٦.

الشعائر الدينية حتى القرن العاشر الميلادي. كانت مبنية بالبازليك، وهو النموذج الرئيسي المتبع في الكنائس السورية. وذكر: أن عدداً من الأبنية، كانت تستخدم أماكن لتوثيق المعاملات التجارية، وتسمى مقرات الكاتب بالعدل، قد حولت إلى كنائس باسم (ماورته)، وهو أول أسقف معروف في تدمر.

وعثر في تدمر على مدفن هام[1]، يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي في عهد الغسانيين وبداية الإسلام، وذلك في منطقة المنظمة ببادية تدمر قرب قصر الحير الشرقي، حيث كانت قبيلة تغلب تعيش في هذه المنطقة الممتدة حتى ضفاف الفرات بما فيها جبل البشري، وقد دفن فيه بعض رجال الدين المسيحي، يتألف هذا المدفن المكتشف من برج بهو خارجي، ثم يدخل ضمن كهف محفور في الصخر، عثر بداخله على ثلاثة محاريب، ولكل واحد منها قبر، وفوق كل قبر نحت الصليب البيزنطي، الذي تنتهي أطرافه بشكل هلال. وتبين: أن القبور مليئة بالعظام التالفة. هذا ويعتقد: أن هذه القبور كانت للكهنة المسيحيين، الذين كانوا يعلّمون عشيرة تغلب العربية الدين المسيحي.

وفي موسم أعمال التنقيب، الذي قامت به البعثة السورية اليابانية المشتركة لعام / ١٩٩٧ /، والذي استمر ثلاثة أشهر في مدفن أسرة بولجا وبورفا أبناء مالك بن عجيل التدمري. عثر على مجموعة من الهياكل العظمية وسرج فخارية وميل كحل من العاج، وعقد من العقيق والخرز والعظم، بينها وريقات من الذهب الخالص، تعود جميعها إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي. كما قامت البعثة بدراسة نهائية للمدفن وأثاثه ومنحوتاته الجنائزية، وهذا المدفن من أجمل وأغنى المدافن الأرضية المكتشفة حديثاً بتدمر.

وعثر أثناء التنقيب بتاريخ ـ ٢٤ / ٦ / ١٩٩٧ تحت السور الدفاعي الشمالي للمدينة وبين أنقاض هذا السور على رؤوس كهنة[2] وتماثيل لسيدات مثقلات بالحلي والقلائد. كما تم العثور على تمثال لربة النصر موضوع على قوس، بالإضافة لاكتشاف العديد من العناصر المعمارية المنقولة من مدافن المدينة وأقبيتها وعلى الكثير من المنحوتات واللقى المنتزعة من الأبنية القديمة، معظمها يعود إلى فترة ازدهار تدمر خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى.

---

[1] البعث: العدد رقم (١٠٤١٩) تاريخ ـ ١٥ / ٩ / ١٩٩٧.

[2] البعث: العدد رقم (١٠٣٥٥) تاريخ ـ ٣٠ / ٦ / ١٩٩٧.

الفن التدمري:

كان الفن التدمري محلياً في بدايته، ثم تأثر مع الزمن وأخذ عن الفنون البابلية والآشورية، واستقى من الفن اليوناني، الذي تأثر بفنون الحضارة، سواءً في مصر أو في بلاد الرافدين، إلا أن تأثره بالفن المصري كان هو الأهم، علماً أن الآثار الفنية كالزخارف والتماثيل والمنحوتات الدينية والصور الجدارية، بقيت إلى حد كبير خاضعة أساساً للقواعد الشرقية.

أما النحت فكان من أبرز آثار الفن التدمري، وقد كشفت التنقيبات، التي أجريت في عامي (١٩٣٨ - ١٩٣٩م) في باحة معبد بل عن أقدم المنحوتات، التي وجدت حتى الآن في تدمر، والتماثيل، التي اكتشفت في حفريات معبد (بلعشمين)، تعطينا فكرة عن النحت المدني، هذه التماثيل، التي كانت في شوارع المدينة ومعبدها وميدانها، وفوق أعمدتها التذكارية، وأسلوب هذه التماثيل تقليدي رسمي، وهي تماثيل شبه كاملة.

ويدل لباس الرأس على مهنتهم في أكثر الأحيان، وتدل على: أن الثياب كانت طويلة، تصل حتى القدمين، وهي كثيرة الثنيات، وهم في الغالب ينتعلون صنادل أو أخفاف أو جزمات، ورؤوس التماثيل تكون قطعة واحدة مع التماثيل، أو تركب تركيباً، وفي بعض الحالات كان التمثال ينحت في العمود نفسه، أما النحت الديني فكان مشهد أرباب، إما منفردة أو مجتمعة، أو منقوشة في جدران المعابد أو سقوفها، وبعضها الآخر منقوش على مذابح نذرية، تهدى للمعابد، أو عن مشاهد للتقدمات الدينية، يظهر فيها شخص أو شخصان، يؤججان محرقة بخور، وفي المشهد صف من الأرباب. وكشف عن لوحات نذرية كثيرة[1].

أما النحت الجنائزي، فمصدره المدافن، وتتقدم القبور بمثابة شواهد، فمنها تماثيل نصفية، ومنها الألواح، وعليها مشاهد جنائزية، ومنها الشواهد، وهي صغيرة الحجم مقوسة أو مثلثة أو مستقيمة، ومنها واجهات التوابيت، والأسرّة الجنائزية، وعليها مشاهد من الولائم الجنائزية.

أما الصور الجدارية الملونة، فهي قليلة بالقياس للمنحوتات، ونفّذ هذه الصور الجدارية فنّانون محلّيون على طبقة من الجير ملساء جافة، واستخدموا في ذلك ألواناً مركبة من الأكاسيد المعدنية المحلولة بالمياه الخالية من المواد العضوية، وكان اللون الغالب الأحمر، يليه الأخضر ثم البني

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الأول - الجزء الأول - ١٩٥١م - ص٢٦٥.

والأزرق فالأسود. وبنتيجة التنقيب، الذي بقي مستمراً فترة طويلة، فقد اكتشف في عامي (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م) على مقربة من نبع أفقا، الذي يروي واحة تدمر، مجموعة من المذابح الصغيرة للإله المجهول[1]، وعلى بعضها كتابات، تعود في تاريخها إلى العصر الروماني.

معابد تدمر:

عبد التدمريون آلهة، ترمز إلى مظاهر الطبيعة مثلهم مثل بقية الساميين، وكان لهم أكثر من أربعين إلهاً، أعظمها شأناً بعل (بل)، وهو إله وطني، يمثل الشمس، كما عبدوا آلهة أخرى. ومن أهم المعابد:

معبد بل: من أهم المعابد التدمرية، وهو كبير الأرباب التدمريين، مهمته السموات والأرض، شيد هذا المعبد فوق تل ركامي على أنقاض معبد، يعود للعهد الهلنستي في جوف التل، ويعود بناؤه للقرن الأول الميلادي، وهو مكرس للرب بل، وللثالوث، الذي يضم(بل) و (رب الشمس) و (رب القمر)، وكان يعتبر أيضاً مقراً لمجمع الأرباب التدمريين، استعمل في بنائه (٤٠٠) عمود[2].

يتألف هذا المعبد من: ساحة مربعة مسورة، طولها (٢١٠م)، وعرضها (٢٠٥م)، يتوسطها الحرم، الذي يضم تمثال الرب الرئيسي، والأرباب التابعة له، ولا يدخل هذا الحرم إلا الكهنة. وكان للمعبد بوابة، تقع في الجدار الغربي، ويحتوي الحرم على غرفة المائدة والمذبح والبركة المقدسة، وللحرم محرابان، حيث تسكن الأرباب، وتوضع أصنامها، وخصص المحراب الجنوبي للرب بل، والمحراب الشمالي لباقي الأرباب. يحيط بالحرم رواق، تحمله أعمدة محددة، وتيجان، زخارفها من البرونز والذهب. وسقف الرواق يحمل على جسور ضخمة من الحجر المنحوت، نقشت عليها مشاهد دينية وأسطورية، وزخارف حيوانية، ونباتية وهندسية. تحول هذا الحرم إلى كنيسة خلال العهد البيزنطي.

معبد نبّو: يقع غربي قوس الشارع الطويل (قوس النصر)، والرب نبو هو ابن الرب بل مردوخ، وأمين سر مجمع الأرباب، وكان موكلاً بمصائر البشر. بني هذا المعبد في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، أخذ في التوسع والتطور حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، يتألف

---

[1] من أراد التوسع في هذا الموضوع فعليه الرجوع إلى مجلة الحوليات السورية ـ المجلد الثالث (١٩٥٣) ص١٤٤ وما بعدها.

[2] توفيق برو: تاريخ العرب القديم ـ طبع دمشق ١٩٨٤م ـ ص١٢١.

هذا المعبد من: سور خارجي، داخله باحة، وفي منتصفه حرم. والحرم هو أهم الأجزاء، يتجاوز طوله عشرين متراً، وعرضه يفوق تسعة أمتار، ويحيط بالحرم رواق محمول باثنين وثلاثين عموداً.

معبد بلعشمين: يقع هذا المعبد في الحي الشمالي، ويعود إلى القرن الثاني الميلادي، أمام مدخل الحرم مذبح، يتألف المعبد من حرم وباحتين شمالية وجنوبية، لهما أروقة، وأمام الحرم عتبة، تحمل ستة أعمدة.

معبد اللات[1]: كشفت عنه بعثة بولونية خلال الأعوام (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧م). يقع في الحي الغربي من المدينة، يتألف هذا المعبد من باحة مستطيلة، طولها (٧٢م)، وعرضها (٢٨م)، يتوسطها الحرم، طوله (١٩م)، وعرضه (١٠م)، يتقدمه رواق من ستة أعمدة، ويحيط بالحرم رواق بأعمدة، وأمام الحرم يقع المدخل الرئيسي، واللات هي الربة الأم عند العرب، وربة الحرب، ورمزها الأسد. في عام (١٩٧٥م) تم الكشف عن أسد اللات، وهو رمز اللات ورسولها إلى البشرية.

معبد بلحمون ومناة: كشفت عن هذا المعبد بعثة فرنسية عام (١٩٦٥م)، ويقع في قمة الجبل الغربي، بني هذا المعبد عام (٨٨م)، وبلحمون رب كنعاني، ومناة ربة عربية معروفة، وبقي معبداً حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

منشآت المدينة:

السور: يحيط بالمدينة سور قديم يسمى: سور الجمارك، وضمن هذا السور تقع المدينة ومعابدها وبيوتها وأسواقها ومنشآتها المعمارية وغيرها مما يخص المدينة. وسور الجمارك هذا بني بعد عام (٤١م)، أساسه من الحجر، وأقسامه العلوية من اللبن والطين. أقيم بعد ذلك سور دفاعي أصغر من سور الجمارك، طول محيطه (٦ كم)، أخذ شكله النهائي في عهد الملك أذينة والملكة زنوبيا، بني بأحجار منحوتة، مدعم بأبراج مربعة، بين كل برجين (٣٧م)، رمم هذا السور في عهد جوستنيان بإضافة أبراج نصف مستديرة.

المسرح: بني هذا المسرح بشكل نصف دائرة، قطرها (٢٠م). يوضحه الشكل المرفق.

الشارع الطويل: يمتد من المدخل الرئيسي لمعبد بل إلى بوابة دمشق، يبدأ من الجهة

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٣٤) ـ الجزء الأول ١٩٨٣م ـ ص٢٠٩.

الجنوبية بقوس نصر كبير، ويسير نحو الشمال الغربي بطول (١١٠م)، وعرض (١١م)، وعلى جانبيه رواقان مسقوفان، ولا يزال عدد من الأعمدة قائماً إلى الآن، وكان عدد الأعمدة (٣٧٥) عموداً، طول كل منها (١٠م)، وقطر الواحد منها يقارب متراً، وهي مصنوعة من المرمر الأبيض، والغرانيت السماني، وكلها ذات تيجان كورنثية.

الحمامات: لها مدخل، تتقدمه أربعة أعمدة، وتتألف الحمامات من الماء البارد، والدافئ الحار، ولها قاعة مثمنة الشكل، تتوسطها فستقية مثمنة، ويلحق بها باحة للرياضة والاجتماعات، طولها (٢٢م)، عرضها (٢٠م) وهي ذات أروقة، ويلحق بالحمامات قسم المراحيض. تم اكتشافها من قبل بعثة سورية في الفترة الواقعة ما بين (١٩٧٠ - ١٩٧٦م).

السوق (الميدان): يتألف من باحة مربعة مغلقة، طولها (٨٤م)، وعرضها (٧١م)، تحيط به الأروقة الداخلية، ولهذا الميدان أحد عشر مدخلاً، وفي الزاوية الغربية قاعة للولائم، وله ملحق، كانت تعقد فيه الاجتماعات العامة في السلام والحرب.

ومن المنشآت الأخرى: هيكل الموتى، ومعسكر روماني (معسكر ويوقلسيان)، الأعمدة التذكارية والكنائس. أما البيوت التدمرية فتتألف من: مدخل رئيسي، وباحة سماوية، يحيط بكل باحة أروقة، تفتح إليها أبواب الغرف الداخلية، وتحتوي البيوت على بئر للسقاية، وليس لها نوافذ، جدرانها من الحجر واللبن.

وكشف أخيراً من قبل البعثة السورية البولونية المشتركة العاملة في تدمر عن بيت تدمري، يعود للقرن الثاني الميلادي. وهو يتألف من مدخل رئيسي، يؤدي إلى باحة معمدة برواق، يدور في الساحة، يتألف من عشرين قاعدة عامود، يحيط به من الداخل رواق مسقوف، بداخله عشر غرف. وأكد أن هذا البيت مستخدم لأغراض دينية منذ القرن الخامس الميلادي.

وذكر: أن البناء المجاور لهذا البيت، والذي كان يعتبر مركزاً لتوثيق المعاملات التجارية أيام ازدهار المدينة خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى. كان قد تحول ليصبح منذ القرن الخامس الميلادي كنيسة، وقد تم الكشف عن أجزاء هامة في هذه الكنيسة مثل الإيوان والمصطبة ومنصة الخطابة، وغرف العبادة. وقد أطلق في سورية عن مثل هذا النوع من الكنائس ذات المخطط لمستطيل اسم (بازيليكا). وهذه الكنيسة قامت على أنقاض البازيليكا القديمة، حيث أصبحت

نموذجاً لمعظم الكنائس الموجودة في سورية. منذ القرنين الخامس والسادس الميلادي[1].

المدافن التدمرية:

أطلق التدمريون على مدافنهم: اسم بيت الأبدية، وكانت عنايتهم بها فائقة، وتم الكشف في تدمر عن ثلاثة أنواع من المدافن[2]، الأولى: هي المدافن البرجية، وهي أقدمها، ومن مدافن هذا النوع مدفن إيلابل، الذي بني عام (١٠٣م)، ويتألف من أربعة طوابق. النوع الثاني: المدافن الأرضية حيث اكتشف منها حتى الآن أكثر من خمسين مدفناً، من مدافن هذا النوع (مدفن الإخوان الثلاثة). النوع الثالث: المدافن البيتية، كما كشف عن قبور فردية.

ذكرت صحيفة البعث في عددها رقم (١٠٠٣٧) الصادر بتاريخ ٣ / ٦ / ١٩٩٦: «اكتشف رواق من أعمدة المعبد الأقدم في تدمر، والذي تقع أنقاضه تحت سوية حرم معبد بل الحالي العائد تاريخه إلى القرون الأولى قبل الميلاد، وأفاد مصدر البعثة السورية، التي اكتشفت الرواق: أن اللقى والمكتشفات المعمارية والمصنوعات الفخارية تدل على أهمية الأسباب في دراسة تدمر في السنوات الأولى، وقبل وصولها إلى الدرجة المتقدمة عمرانياً في القرون الأولى بعد الميلاد».

وذكر الدكتور **خالد الأسعد** مدير آثار ومتاحف تدمر: أنه اكتشف تلاً قرب معبد بل الحالي، وذكر: أنه تل صناعي، يحوي ركام مجمل الحضارات، التي ظهرت في تدمر، فهو مركز المدينة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وفي حفريات عام (١٩٦١م) بدئ الكشف عن مدفن (زيد عنّه) التدمري[3]، الذي يبلغ طوله ابتداءً من أول الدرج حتى صدر الجناح الغربي (٢١,٧٢م)، وعرضه بين صدري الجناحين الشمالي والجنوبي (١٧,٦٠م).

يضم المدفن بهواً داخلياً، سقفه على شكل قبة نصف كروية، وعلى يمين المدخل بئر أسطوانية، قطرها (٦٥ سم)، يتفرع عن البهو ثلاثة أجنحة متصالبة، الجناح الرئيسي نحو الغرب على محور الباب، ويقسم هذا الجناح إلى قسمين **الأول:** طوله (٨٥٠ سم)، وعرضه (٢٩٥ سم)، عثر في أرضه على أربعة قبور صغيرة، **الثاني:** طوله (٤٢٤ سم)، وعرضه (٤١٠ سم)، يحتوي على (١٢) معزبة محفورة في جدرانه، خمس منها في الجدار الشمالي، وخمس في الجدار

[1] جريدة البعث السورية: رقم (١٠١٥٠) الصادرة بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٩٦.

[2] عدنان البني ـ خالد الأسعد: تدمر أثرياً ـ تاريخياً ـ سياحياً ـ ص١٠٤.

[3] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (١٥) ـ ج١ ـ ص٣١.

الجنوبي، واثنتان في الزاوية الجنوبية الغربية. وفي الزاوية الشمالية الغربية حفر محـراب، طولـه (٤٢٥ سم)، وعرضه عند المدخـل (١٨٠ سم)، وعند الصـدر (٢٢٠ سم)، وجد في أرضيتـه ثلاثة قبور، والمعازب تضم كل منها ستة قبور، ارتفاع كل معزبة (٢٩٠ سم)، وعرضها (٣٤ سم).

أما الجناح الجنوبي فهو غرفة مستطيلة، أطوالها (٧٠٥ × ٤٠٠ سم)، سقفها مستدير، يشبه القبة، ارتفاعها (٣٩٧ سم) يحتوي هذا الجناح على عشرة معازب. خمس منهـا في الجـدار الغربـي، وأربع في الجدار الجنوبي، وواحـدة في زاويـة الجـدار الشـرقي. عـثر في أنقاضـه علـى عشـرة تمـاثيل نصفية. والجناح الشمالي يقابل الجنوبـي، وهـو غرفـة مستطيلة، مقاييسـها (٦٤٨ × ٣٤٣ سـم)، وسقفها على شكل قبة منخفضة. يضم هذا الجناح ثماني عشرة معزبة، وله محـراب، عـثر فيـه علـى سرير جنائزي، وحوض من الفخار، وعدد من السرج الفخارية. وعثر على تمثـالين، الأول: لسـيدة تدمرية، والآخر: لرجل ملتح.

ذكرت صحيفة البعث في عددها الصادر رقم (١٠٠٦٥) تاريخ ٧ / ٧ / ١٩٩٦: باشـرت البعثة الأثرية اليابانية أعمالها بتاريخ ٢٤ / ٦ / ١٩٩٦، في المدفن المكتشف حديثاً في منطقة المدافـن الجنوبية الشرقية من تدمر، وهو من أهم وأجمل وأغنى المدافـن المكتشـفة بمنحوتاتـه المـميزة وطـرازه المعماري الغني بالزخارف النباتية، والهندسية في جدرانـه، وأقواسـه ومعازبـه، وسـوف تقـوم البعثـة المذكورة بالاشتراك مع مديرية آثار تدمر في موسم هذا العام بكشف المقـابر المطمـورة والمنهـارة في هذا المدفن، الذي بناه الأخوان بولجا وبورفا ابنا مالك التدمري عام (٢٠٨م)، إذ كان المدفن منهاراً ومغموراً بالأتربة والرمال على عمق ستة أمتار، فيه (٢٤) معزبة، لكل منها ستة قبور فـوق بعضهـا مغمورة بالأنقاض. صرح بذلك الأستاذ خالد الأسعد مدير آثار ومتاحف تدمر وأضـاف: وسـوف تتابع البعثة المذكورة مع مديرية آثار تدمر الكشف عن المعازب، التي يتوقـع أن تحتـوي علـى أثـاث جنائزي ومومياءات أجسام محنطة، حيث سيستمر موسمها لغاية شهر آب القادم.

هذا وقد قالت البعث: إنـه إضافـة لمكتشـفات محتويـات هـذا المدفن في العام الماضي، والتي نشرتها صحيفتنا الغراء، وجد أثناء الحفريات داخل المدفـن تمثـال نصفـي نـادر جـداً، عليـه صـورة إنسان أسطوري، وله شكل إنسان، له قرنان، والمقصود من وجـوده منع العيـن الشـريـرة والحاسدة من أن تؤثر على البناء، أو أصحاب المدافن، حيث يتدلى لسانه بصورة، توحـي بـازدراء لكـل عـين حاسدة، ويعود قدم هذه الصورة لتاريخ تأسيس المدفن، إذ نقـش علـى الجـزء الأسـفل مـن اللوحـة

النص، الذي يذكر إشادة البناء من قبل الأخويـن المذكورين على شرف والدهمـا مـالك. وهـذه القطعة الفريدة والنادرة، والتي أبعادها (٦٥ × ٥٥ سم)، ستكون من أجمل معروضات المتحف الوطني في تدمر. والجدير ذكره: أن المديرية العامة للآثار والمتاحف تنوي إعادة بناء هذا المدفن، بالاشتراك مع البعثة اليابانية، التي يقوم مهندسوها بدراسة هذا المدفن، الذي كان مغطى ومسقوفاً من الداخل بألواح من الحجر المنحوت.

أخيراً تمثل المشاهد المنحوتة في المدافن التدمرية غالباً امرأة، تقوم بحركة عزاء رمزية، بأن تضع ذراعها حول عنق الميت الممثل، وكشف عن ألواح، تمثل صورة نصفية لامرأتين، تضع إحداهما ذراعها حول كتفي الثانية، وتحمل بيدها كأساً مملوءةً بمادة، ترتفع على شكل القبة، وهذه المادة، وهي بلا ريب طعام جنائزي، كان أقارب الميت يضعونه في المدفن.

ومن الثابت أن الولائم الدينية كانت شائعة في تدمر، يؤكد على ذلك الأماكن الخاصة لها في معابد المدينة، وصورها المرسومة على قطع الفخار الصغيرة، وأخبارها التي تذكرها الكتابات التدمرية، وبالنتيجة إن الوليمة الجنائزية التدمرية هي صورة أرضية وعائلية، يبدو فيها رب العائلة والأم والأولاد في عمل محبب وأليف ورسمي يدل على حياة الأسرة المشتركة، أما الوليمة الجنائزية، فحوادثها كانت تجري في الحياة الأخرى، لأن جميع مظاهرها مرتبة.

النقود التدمرية:

اكتشفت في تدمر نقود كثيرة، أطلق عليها اسم نقود أمراء تدمر، وقد صنفت إلى أنواع منها: ١ـ نقود تدمرية محلية مجردة من الكتابات: رسم على وجهيها صور، فعلى الوجه صورة للآلهة، وعلى القفا صور حيوانات أو أشجار أو ما شابه ذلك، ٢ـ نقود تدمرية محلية، عليها حرف أو أكثر من حروف اسم تدمر (بالميرا أو ادربانا)، وعلى وجهيها أيضاً صور لأحد الآلهة، ٣ـ نقود ملك تدمر وهب اللات والملكة زنوبيا، وهذه على أنواع، بعضها: صوّر على الوجه صورة ملك تدمر، تحيط به كتابة اسمه وألقابه، وعلى القفا صورة نصفية للامبراطور أورليان، أيضاً تحيط به كتابة اسمه وألقابه. وبعضها صورة لملك تدمر على الوجه كما في الأولى، وعلى القفا صورة أحد الآلهة، تحيط به كتابة. وأخيراً منها نقود، صوّر عليها ملك تدمر، وأمه زنوبيا. هذا وتوجد مجموعات نقدية تدمرية في العالم. منها المجموعة النقدية المحفوظة في المتحف الوطني بدمشق، التي

تتألف من (٩٣) قطعة، وهي مصنفة، كمايلي[1]:

أولاً: نقـود تدمرية محلية برونزية مجردة من الكتابة، وعددها (٦١) قطعة، وهذه المجموعة رسم على وجهها صورة أحد الآلهة، وعلى القفا صورة لبعض الحيوانات أو رسم لنبات أو شجر أو لأحد الآلهة.

ثانياً: نقود تدمرية برونزية، عليها بعض الحروف من اسم تدمر أو ادربانا. أي كما هي في المجموعة الأولى، إنما يضاف إلى صورة أحد الآلهة حرفان من اسم تدمر. ولهذه النقود أهمية في دراسة حياة تدمر الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد صكت نقود تدمر خلال القرن الثاني الميلادي، كما صكت نقود في عهد (وهب اللات) في أنطاكية في عهد الملك الروماني أورليان.

حكام تدمر:

في منتصف القرن الثالث الميلادي ارتفعت أسرة تدمرية إلى الزعامة في تدمر هي أسرة أذينة، وكان يتصدر اسمها كلمة سبتيموس، حيث يذكر: أن جد أذينة[2] الكبير كان يدعى ناصر (نعرو) والد (وهب اللات) و (هيلان)، والأخير هو والد حيران أبي أذينة.

أصبح أذينة حاكماً لولاية سورية الفينيقية، ولقب بالحاكم الرفيع في عهد الامبراطور فاليريان، وبعد أن سقط هذا الامبراطور أسيراً في يد الفرس الساسانيين، الذين استولوا على آسيا الصغرى وشمالي سورية، وأسروا ستين ألفاً من جنود الرومان، أثناء ذلك حاول أذينة التودد إلى سابور ملك الفرس، فأرسل إليه هدايا، وطلب منه الصداقة، لكن سابور احتقر العرض التدمري. خلال هذه المرحلة أخذ أذينة يجمع القوات، فالقبائل، التي هي بظاهر تدمر وضعها تحت قيادة ولده هيرودوس، والفرسان تحت قيادة زبدا، والقواسة ورماة السهام تحت قيادة مرباي، بالإضافة إلى القوات الرومانية. ثم زحف بهذه القوات إلى المدائن عاصمة الفرس، وغايته الانتقام من سابور من جهة، وإنقاذ ملك الروم المأسور من جهة أخرى.

وعلى ضفاف الفرات دارت معركة بين أذينة وقواته وجيش الفرس، انتهت بهزيمة

---

[1] الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد (٢٣) ـ ١٩٧٣ ـ ص١١٤.

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ـ ج٣ ـ ص (٩٠ ـ ٩١).

الفرس، واستولى أذينة على الكرخ ونصيبين وغيرهما[1]. بعد ذلك أعلم أذينة ملك الروم (جالينو) (٢٦٠- ٢٦٨م) بما حدث، فطلب ملك الروم منه الاستمرار بالحرب حتى إنقاذ والده (فاليران)، وفي الوقت نفسه أنعم عليه عام (٢٦٢م) بلقب زعيم الشرق. في عام (٢٦٤م) توجه أذينة بقواته إلى طيسفون، فضرب عليها الحصار، خلال هذه المرحلة أعلن أحد القادة الروم، واسمه (مكريانوس)، الثورة على الامبراطور جالينو، ونصّب نفسه امبراطوراً على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (آسيا الصغرى والشام ومصر).

في هذا الوضع الصعب انسحب أذينة، وعاد بقواته لإخماد هذه الفتنة، أثناء ذلك قتل (مكريانوس) زعيم هذا التمرد، فاضطر أذينة إلى التوجه إلى حمص للقضاء على ولده (كيانوس)، وعند محاصرة حمص تمكن كالينوس من قتل سيده كيانوس، وفتحت أبواب مدينة حمص، ثم تمرد كالينوس، فقتل، وعاد الهدوء إلى الدولة الرومانية بفضل تدمر وقائدها[2].

بعد هذه الخدمات الجليلة، التي قدمها أذينة للامبراطور الروماني جالينو، قرر الامبراطور عام (٢٤٦م)، أن يمنح أذينة لقب (امبراطور جميع بلاد الشرق)، وعهد إليه بالإشراف على جميع القوات الرومية في الشرق، ثم لقب أذينة نفسه ملك الملوك، وأمر أن تنقش صورته إلى جانب صورة الامبراطور الروماني على النقود، يضاف إلى ما ورد: أن مجلس الشيوخ الروماني كان قد منحه لقب أغسطس.

في عام (٢٦٥م) قاد أذينة قواته لمحاربة الفرس، وترك ابنه سبتيموس هيرودوس نائباً عنه في تدمر، ثم حاصر أذينة طيسفون، أثناء ذلك طلب أذينة من ملك الفرس فك أسر ملك الروم كشرط لإجراء المفاوضات وفك الحصار[3]. في هذه المرحلة تدخل القوط بعد عبورهم البحر الأسود ونزلوا بميناء هيرقلية، وتوجهوا نحو قبادوقيا. فلما علم أذينة بذلك، فك الحصار، وعاد لمقاومة الغزاة الجدد، الذين رحلوا قبل قدومه، وعادوا إلى بلادهم.

في هذه الظروف الغامضة والحرجة قتل أذينة وولي عهده (ابنه هيروديان) عام (٢٦٦-٢٦٧م)، واستغل مقتله ابن أخيه معن، فاستلم السلطة عوضاً عنه. وقد اختلف في سبب قتله وابنه، فقد تكون الزباء وراء هذا، لأنها، كما يذكر، كانت تكره أن يذهب العرش إلى ابن ضرتها، ويحرم

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان - ص٤٣٧.

[2] جواد علي: ج٣ - ص (٩٠ - ٩١).

[3] المرجع نفسه: ص٩٨.

منه ابنها، وربما يكون الرومان هم الذين دبروا مقتله، لأنهم أدركوا خطورتــه على امبراطوريتهم، وقيل: إن الذي قتله هم أبناء تدمر، لأنهم ظنوا أن أذينة أصبح أداة طيّعة في يد الرومـان، ولما يمض وقت طويل على الحاكم الجديد لتدمر (معن بن حيران).

أهم ملوك تدمـر:

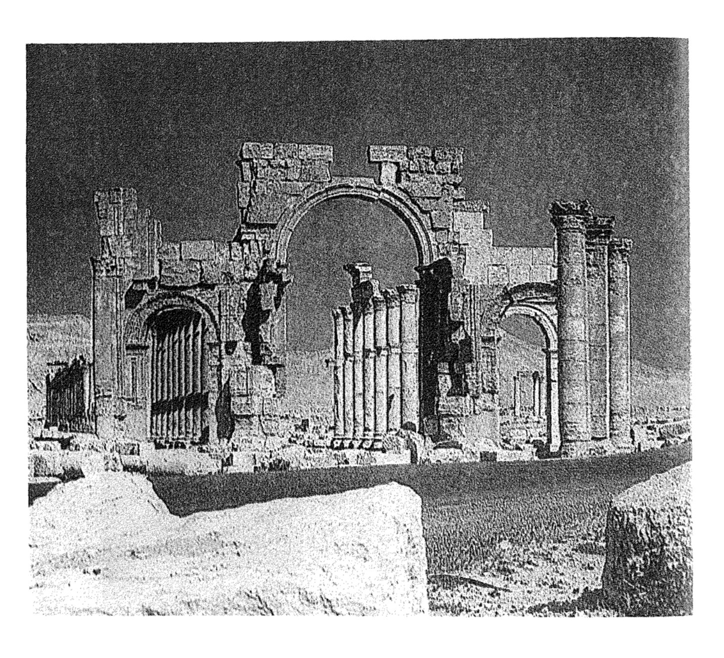
حيران الأول (سبتيموس): حكم عام (٢٠م)، هو أمير تدمري، ابــن وهــب الـلات ابن ناصور (أوناسور)، ووالد أذينة الأول، تزعم القبائل الرحّل في المنطقة المجـاورة، واعتنى بتقديم الحماية للقوافل والتجار والمسافرين خلالَ عبورهـم الصحـراء. عيّـن رئيسـاً للقضـاة في تدمـر أثنـاء حرب روما مع الباريثيين عام (١٩٩م)، ثم كوفـئ مـن الامـبراطور الرومـاني بإعطـاء مدينـة تدمـر حقوق المدينة الرومانية، ومنحه حق اتخاذ اسم سبتيموس. أنشأ سلالة ملكية، حكمت ما بين أعوام (٢٠٠ - ٢٧٢م).

أذينة الأول: ابن حيران الأول، كانت نهاية حكمه سنة (٢٥٠م)، اتخـذ اسـم سـبتيموس وراثة عن أبيه. ذكر عنه: أنه كان صديقاً للامبراطور فليبوس العربي، ومستشاره على صعيـد أمـور الشرق، حصل من الامبراطور المذكور على لقب شيخ روماني. اتهم بمحاولة التقرب مـن الفـرس، وتدبير ثورة في سورية، فأعدم سنة (٢٥٠م) بأمر من المفوض الروماني الحاكم في سورية.

حيران الثاني: (٢٥٠ ـ ٢٥٨م) ابن أذينة الأول، كان يحمل لقب شيخ روماني، اتخذ في عـام (٢٥١م) لقـب رأس تدمـر. في عهـده حصلـت تدمـر علـى اسـتقلال نسـبي نتيجـة الفوضــى العسكرية، التي حلت في الامبراطورية الرومانية.

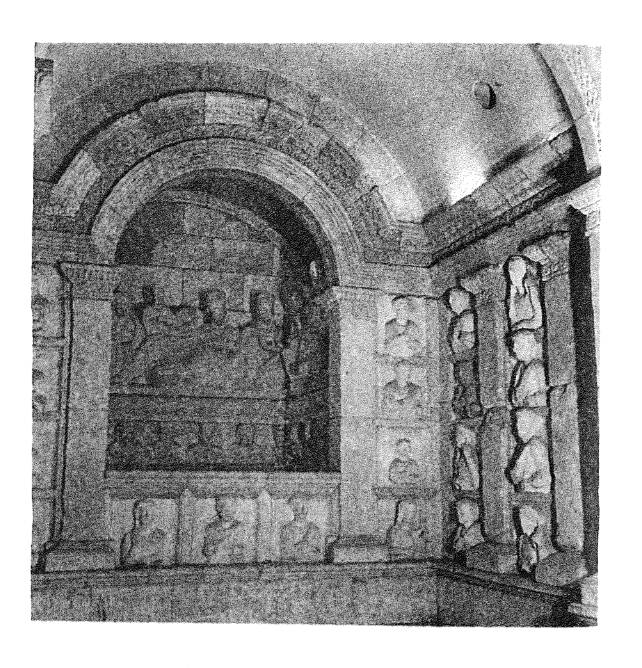
أذينة الثاني: هو ابن حيران الثـاني، وقيـل: أخـوه. حكـم مـن (٢٥٨ ــ ٢٦٦م). عينـه الامبراطور الروماني فاليريانوس (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) حاكماً علـى ولايـة فينيقيـة، وعاصمتهـا حمـص، وكانت تابعة لها. في عهده بدأت تدمر تتخذ شكل الملكية، وله الفضل في ازدهار تدمـر السياسـي، لقب سيد تدمر، وإضافة إلى لقبه هذا لـقّب قنصلاً (٢٥٨م).

في عهده انتصر الفرس على الرومان، فطُلب منه التصدي للفرس، فوافـق علـى ذلـك، كمـا ورد، بعد ذلك اتخذ أذينة لقب ملك، وساعد في انقضاء على الفتن والثورات الداخلية، التي نشبت في روما. حصل على لقب أغسطس، بعد ذاك وجّـه اهتمامـه للسياسـة الداخليـة، وخاصـة الأمـور



Arcs a Palmyra

Tadmor (Palmyra)



مدفن برجاي التدمري (القرن ٢-٣ م)

متحف دمشق الوطني

الدينية. أخيراً اغتاله أحد أقربائه، واسمه (ماتيوس) هو وابنه البكر هيرودوس.

وهب اللات: هو ابن أذينة الثاني، أمه زنوبيا ملكة تدمر من (٢٦٧ ــ ٢٧٣م)، كانت تعرف باسم (بت زباي)، وأطلق عليها اسم الزباء، ونسجت حول شخصيتها أساطير وخرافات بعد تسلمها مقاليد الأمور. منحت ابنها وهب اللات لقب ملك الملوك، وحاكم جميع الشرق. حاربت روما، وانتصرت عليها، واحتلت أنطاكية وسورية ومصر. قضى على المملكة التدمرية الامبراطور الروماني أوريليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥م).

وصلت الزباء إلى السلطة كوصية على ولدها القاصر وهب اللات، ويروى: أن عمرو ابن الظرب كان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام، هذا ويذكر اليعقوبي وغيره من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وغيرهم قصة قتل جزيمة الأبرش ملك الحيرة لوالد الزباء عمرو بن الظرب، وثأر الزباء لأبيها باعتمادها الحيلة، حيث استدعت جزيمة إلى تدمر، فقتلته.

يقول **اليعقوبي** على لسان جذيمة الأبرش[1]: «إني قد عزمت على أن أرسل إلى الزباء فأتزوجها، وأجمع ملكها إلى ملكي، فقال غلام له يقال له قصير: إن الزباء لو كانت ممن تنكح الرجال لسبقت إليها، فكتبت إليه أن أقبل إلي أزوجك نفسي، فأركل إليها. فقال له قصير: لم أرَ رجلاً، يزف إلى امرأة قبلك، وهذه فرسك العصا، قد صنعتها، فاركبها، وانج بنفسك، فلم يفعل. فلما دخل إليها، كشفت عن فخذها، فقالت أدأب عروس ترى، قال: دأب فاجرة بظراء غادرة، فقطعته الزباء، وركب قصير الفرس، ونجا».

بعد مقتل جزيمة، حل مكانه ابن أخته عمرو بن عدي، فقال قصير لعمرو بن عدي حسب رواية اليعقوبي: لا تعصني أنت، قال: قل ما بدا لك. قال: أجدع أنفي، وأقطع أذني وخلني. ففعل ذلك، فصار إلى الزباء، وقال: «إني كنت من النصح لجزيمة على ما رأيت، ولعمرو ابن أخته، حتى ملكته، فكان جزائي عنده أن فعل بي ما ترينه، فجئتك لأكون في خدمتك ولعله يجري قتل عمرو على يدك، ولم يزل يحتال لها، حتى وجهته في تجارة فأتاها بأموال كثيرة مرة بعد مرة، فأعجبها ذلك فوثقت به». فلما استحكمت ثقتها به، سار إلى عمرو، فقال أقعد الرجال في الصناديق، فحمل أربعة آلاف رجل على ألفي جمل، ومعهم السيوف، ثم أدخلهم

---

[1] أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضع الكتاب العباسي المعروف باليعقوبي تاريخ اليعقوبي ــ طبع دار صادر بيروت ــ دون تاريخ - ج١ - ص٢٠٨ وبعدها.

مدينتها، وفيهم عمرو، وفرّق الصناديق في منازل أصحابها، وأدخل عدداً منها دارها، فلما كان الليل، خرجوا، فقتلوا الزباء، وخلقاً من أهل مملكتها.

وقيل في قتلها: إنها هربت في نفق، كانت قد حفرته في قصرها، لكن عمرو بن عدي كان في طريقها، وكان قد علم بسر هذا النفق عن طريق قصير، فلما رأته الزباء، والسيف في يده، سممت نفسها بخاتم مسموم، قائلة: بيدي لا بيد عمرو، ومع ذلك قطع عمرو رأسها بسيفه.

وصفت الزباء بأنها كانت راجحة العقل شديدة الطموح، واعية للوضع السياسي العالمي، ووصفت بالشجاعة، ذات جمال، وشخصية جذابة، متفتحة العقل، تتكلم بطلاقة التدمرية واليونانية إضافة إلى المصرية. يصفها مؤرخو الرومان: بأنها كانت سمراء، لوّحتها الشمس، سوداء العينين، يشع منهما بريق رائع، أسنانها كاللآلئ، وتتكلم بصوت رنان قوي، وتخطب بجنودها معتمرة الخوذة، وكانت تركب العربة الحربية، وقلما تعتلي السرير المحمول، ولكنها تمتطي الجواد غالب الأحيان، وذكروا: أنها كثيراً ما كانت تحتمل الشمس والغبار، وتصطاد مع أذينة في الأحراش والجبال، وأنها أنبل نساء الشرق، وأكثرهن جمالاً، وكانت مضرباً في العفة[1].

وهناك روايات، تزعم: أن الزباء سمحت لجالية يهودية بالإقامة في تدمر، وقدمت هذه الجالية بعد تدمير بيت المقدس عام (٧٠م) على يد تيتوس، وتذهب الأساطير إلى: أن الزباء كانت قد اعتنقت اليهودية على يد الأسقف بولوس السمياطي، وتحمل هذه الرواية دحضها وافتراءها، لأنه كان على الأسقف أن ينصّرها بدلاً من تهويدها، ثم أن الزباء خلال حكمها لتدمر لم تسمح بإقامة معابد يهودية في تدمر[2]. وذكرت روايات أخرى: أن الزباء كانت قد تنصرت، وبعض الروايات ذكرت: بأنها مصرية، وبعضها الآخر نسبها إلى الروم. وفي بعض الروايات الأخرى نسبت إلى العماليق، وقيل: هي أدومية، والحقيقة التاريخية: أنها عربية الأصل، لا مجال للشك في أصلها العربي، وكانت منذ استلامها السلطة، تعمل على تكوين دولة عربية تحت زعامتها.

---

[1] عدنان البني ـ خالد الأسعد: تدمر أثرياً ـ تاريخياً ـ سياحياً ـ ص٢٦

[2] جواد علي: ج٣ ـ ص١٠٩.

تاريخ الزباء السياسي:

كانت الزباء تدرك منذ البداية: أن أعداءها الحقيقيين هم الرومان، لأنهم لا يفكرون إلا بمصلحة روما، لذلك أخذت تعمل على تعميق حكمها في تدمر وما حولها سياسياً وعسكرياً، فلما رأى الروم قوة تدمر وأطماع أذينة، أرسل الأمبراطور جيشاً رومانياً لاحتلالها، والقضاء على ملكتها.

وقد أظهر الروم في حركتهم هذه نيّتهم في محاربة الفرس، إلا أن هذه الحيلة لم تنطلِ على الملكة المحنكة، وعرفت المغزى من توجيه هذا الجيش، لذلك عبأت قواتها، وقابلت الجيش الروماني. فدارت معركة بين الطرفين كانت نتيجتها انتصار الزباء وقواتها. بعد ذلك حصنت تدمر ضد الفرس خوفاً من هجوم مباغت، وأنشأت حصناً على الفرات، سمته زنوبيا باسمها.

بعد استقرار تدمر سياسياً وعسكرياً واستقلالها اقتصادياً، أخذت تتطلع إلى مصر. خلال هذه المرحلة قتل الامبراطور الروماني جالينو عام (٢٦٨م)، وتولى الحكم بعده كلاوديوس (٢٦٨ - ٢٧٠م) أثناء ذلك وخلال تخبط روما بأحداث وثورات داخلية، هاجمها الألمان والقوط من الجبهة الغربية، وقد طلب من الحاكم الروماني كلوديوس في مصر الخروج بقواته البحرية لمطاردة القوط.

في هذا الجو، حرّض بعض الزعماء المصريين الزباء على فتح مصر فقررت الزباء إرسال جيش عربي تدمري بقيادة (زبدا)، قوامه سبعون ألف مقاتل إلى مصر، وفي مصر دارت معركة بين القوات العربية التدمرية والقوات الرومانية المحتلة، انتهت بانتصار الجيش التدمري. وبذلك ضمت مصر لحكومة تدمر.

وبعد أن وطد زبدا سلطته في مصر، سلم مقاليد الأمور فيها إلى تيماجنيس المصري، وعاد إلى تدمر، بعد أن ترك حامية في مصر، يقدر عددها بخمسة آلاف مقاتل. عندما علم (بروبوس) حاكم مصر الروماني بما حدث في مصر، رجع إليها، وأخذ يتعقب الحامية التدمرية. فلما علمت الزباء بذلك، أرسلت (زبدا) قائد قوات تدمر إلى مصر مرة أخرى، بدأت الاشتباكات بين العرب التدمريين، وبين القوات الرومانية، وكان أكثرها ضراوة تلك، التي حدثت حول حصن بابليون.

لعب المصريون العرب بقيادة (تيماجنيس) دوراً مهماً في مساعدة عرب تدمر في هذه

الحرب، وفي النهاية اصطلح الفريقان على أن يكون حكم مصر مشتركاً بين الروم وتدمر. ويؤكد ذلك وجود عملات تدمرية، نقشت في الاسكندرية في هذه المرحلة، على وجهها صورة القيصر أورليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) جانب صور وهب اللات. مما يؤكد الحكم المشترك. بعد ذلك أخذت الزباء تفكر بالتوسع في الشام وآسيا الصغرى.

أما الامبراطور الروماني أورليان، فعندما قضى على المنازعات والاضطرابات في روما ودحر الغزاة، أخذ يفكر، بإعداد العدة للقضاء على الدولة العربية التدمرية. فلما علمت الزباء بنيّة الامبراطور الروماني، ألغت الاتفاقيات المبرمة مع الروم، وصكت نقوداً في الاسكندرية، خلت من صورة الامبراطور الروماني، واقتصرت على صورة وهب اللات، الذي اتخذ لقب أغسطس.

في هذه الظروف الحرجة تذكر بعض الأخبار: أن الملكة زنوبيا كانت قد اتصلت بالملكة فكتوريا ملكة إقليم الغار، وأخذت جيوشها تتوغل في آسيا الصغرى مكونة امبراطورية قوية، واضطرت إلى سحب بعض قواتها من مصر.

إن سحب القوات التدمرية من مصر شجع الروم على طرد التدمريين منها عام (٢٧١م) وبذلك تكون مصر قد خرجت من سلطة تدمر وملكتها. بعد ذلك تقدمت الجيوش الرومانية بقيادة الامبراطور الروماني، فعبرت البوسفور، وحررت المناطق، التي وجد فيها التدمريون ضمن آسيا الصغرى، وتابع الامبراطور الروماني زحفه إلى سورية[1].

حاولت القوات التدمرية وقف الزحف الروماني، في هذا الوقت كان الرومان يحاولون بث الرعب والخوف والأكاذيب في المناطق، التي يحتلونها كحرب نفسية ضد خصومهم، الذين تأثروا بمثل هذه الأعمال. عند ذلك خرجت الزباء بنفسها على رأس قواتها، وكانت في أنطاكية، لعلها تعيد إليها روحها المعنوية، واستطاعت في البداية تحقيق بعض النصر، حيث حققت عنصري المفاجأة والنصر.

اضطرت الزباء أمام هذا الموقف الجديد إلى ترك أنطاكية، والانسحاب من حمص، وهناك نظمت قواتها ورتبتها، وحدثت معركة مع الروم، كانت بدايتها لصالح الزباء، لكن الروم عاودوا القتال، فكانت النتيجة لصالحهم، وهزمت الزباء وعادت إلى تدمر، فدخل الامبراطور الروماني حمص. ثم جمع الامبراطور الروماني قواته، وكانت قد قدمت إليه قوات جديدة من سورية ومصر،

---

[1] فيليب حتي: ص٤١٠.

ثم حاصر تدمر.وخلال هذا الحصار عرض القيصر على الزباء التسليم بشروط معتدلة، فرفضت آملة أن تأتيها نجدة من الفرس أو غيرهم. إلا أن ذلك لم يحدث، فقررت التوجه إلى ملك الفرس، فخرجت ليلاً قاصدة حصنها، الذي سمي باسمها (زنوبيا) على الفرات، وهناك أدركتها الخيالة الرومانية، وهي تعد عدتها لعبور الفرات في زورق صغير، وقبض عليها.

أما تدمر، فقد بقيت تقاوم الحصار بقيادة وهب اللات، إلا أن شدة الحصار أرغمت المدينة على الاستسلام، ففتحت أبوابها أوائل عام (٢٧٢م)، فدخلها الروم بقيادة الامبراطور أورليان[1]، وعين حاكماً عليها مع عدد من الجنود، وبذلك تكون تدمر قد سقطت بيد الرومان.

أما الزباء، فأخذت إلى حمص، وحوكمت، وقتل بعض قادتها، وتختلف الروايات في بقية حياتها، فبعضهم يذكر: أنها قتلت بعد أسرها، وقيل: إنها عاشت بقية حياتها في روما، وقد تزوجت أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني، وقيل: إنها ماتت وهي في طريقها إلى روما نتيجة امتناعها عن تناول الطعام والشراب.

بعد ذلك وبينما كان القيصر الروماني في طريقه، جاءته الأخبار بقيام ثورة في تدمر بقيادة أيسوس، وقد قتل الحاكم الروماني وبعض جنوده، في الوقت نفسه ثارت مصر أيضاً ضد الامبراطور الروماني، فلما علم الامبراطور بثورة تدمر، عاد فوراً إليها، وقضى على التمرد في ربيع (٢٧٣م)، حيث سلط عليها جنوده يسلبون، ويدمرون، وينهبون، ويقتلون، وأصبحت تدمر تابعة لروما، كما كانت.

في عهد الامبراطور الروماني ديوقلسيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)، وبعد توقيعه الصلح مع الفرس عام (٢٩٧م)، أصبحت تدمر مركزاً هاماً ومحطة على الطرق التجارية. ولما تولى الامبراطور جوستنيان السلطة (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، قام بترميم أسوار المدينة، وأضاف إليها برجاً مستديراً بين كل ثلاثة أبراج مربعة، ورمم بعض الأبنية.

في القرن الرابع الميلادي أصبحت تدمر مركزاً لأسقفية، في هذه المرحلة أيضاً تحولت معابد تدمر (بل ـ بعل شمسين ـ اللات) إلى كنائس لتأدية الشعائر المسيحية، علماً أن بعض ملوك غسان كانوا قد استقروا فيها مؤخراً، وأصبحت بذلك ممراً لهم إلى الرصافة. وبقيت تدمر على وضعها الراهن، حتى حررها العرب.

---

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٨٠.

الفصل الرابع

الأنباط

- أهمية الأنباط وتاريخهم.
- التجارة النبطية.
- ملوك الأنباط.

الأنبـــاط[1]

أهمية الأنباط وتاريخهم:

يذكر هنري ـ س ـ عبودي البتراء[2]: بأنها كانت مدينة في الجنوب من البحر الميت، كانت عاصمة للأدوميين، ثم عاصمة النبط في القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي، ضمت إلى روما عام (١٠٦م) في عهد تراجان، وقد حصلت على أخبارهم من كتابات الإغريق، ومن النتائج والكشوف الأثرية، وخاصة في البتراء وحوران[3].

إذن حوالي (٥٠٠ ق.م)، قَدِمَ الأنباط إلى البتراء من شمال الحجاز، أو من وسط الجزيرة العربية، وسيطروا على المنطقة، دامت دولتهم أكثر من خمسة قرون، مارسوا في البداية حياة الترحال، وتجنبوا الزراعة والصناعة، لكنهم مع الزمن تلازموا مع الحياة، وأقاموا دولة منظمة، وحكموا على أساس النظام الملكي، وضربوا النقود، واستوزروا الوزراء[4]، ووصلت دولتهم في عهد ملكها الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ ق.م) إلى أقصى اتساعها، حيث شملت البلاد الواقعة بين دمشق، وبين مدائن صالح في شمال الحجاز، بما في ذلك سواحل البحر الأحمر وسيناء وحوران والأردن. هذا ويعتبر الأنباط من أقدم الشعوب العربية، التي استقرت في جنوب فلسطين.

كل الآراء الحديثة تتجه إلى: أن الأنباط عرب[*] آراميون، وهناك أدلة كثيرة تؤكد عروبتهم منها: ١ـ أن أسماءهم هي أسماء عربية. ٢ـ آلهتهم كانت متشابهة منها (اللات، العزى، مناة) وغيرها. ٣ـ إن أكثر المؤرخين القدامى كانوا يطلقون على النبط كلمة العرب. ٤ـ إن لغتهم الأصلية

---

(١) توفيق برو: تاريخ العرب القديم ـ ص٩٩.

(٢) هنري ـ س ـ عبودي: معجم الحضارات السامية ـ ص٢١٤. عبد الهادي نصري ـ ص٣٥.

(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ـ طبع بيروت ١٩٧١ ـ ص١٨٤.

(٤) جواد علي: ج٣ ـ ص١٦.

(*) توفيق برو: تاريخ العرب القديم ـ ص٩٩.

كانت عربية. ويرى الدكتور جواد علي[1]: أن الأنباط عرب، وهم أقرب إلى قريش من العرب الجنوبيين.

وقيل: هم من جبل شمر، نزحوا من هناك إلى العراق، ثم انتقلوا إلى البتراء، وقيل: هم من شواطئ الخليج[2]، وقيل: هم قبائل بدوية، نزحت في القرن السادس قبل الميلاد حوالي (٥٨٧ ق.م) إلى شرق الأردن، فنزلت أرض الأدوميين، ويقول ابن خلدون في مقدمته: إن النبط وملوكها ترجع إلى (نبيط بن مامش)، ومنهم كل العرب البائدة.

وقد ورد في لسان العرب[3] على لسان ابن عباس قوله: نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثاريا. (قيل: إن ابراهيم ولد بها)، وكان النبط سكانها. ويرى العقاد[4]: أن مباحث اللغة إنما تقدم لنا البينة الكبرى عن قرابة النبطيين لأهل الحجاز، لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القريشية.

إذن لقد أخذ الأنباط الأبجدية من الآراميين عن الفينيقيين، ثم طوروها، وحولوها من كتابة منفصلة الحرف إلى كتابة متصلة الحروف، واعتمد الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية، والخط النبطي خط متطور من الخط الآرامي، واللغة الآرامية كانت لغة شائعة في ذلك العصر، وهي لغة المراسلات الدولية في العالم القديم، وهي فيما بعد لغة السيد المسيح.

وتعرف البتراء في المصادر العربية باسم الرقيم[5]، وتعرف البتراء اليوم باسم وادي موسى، وباسم البتراء، وتقع على سطح هضبة قاحلة، يصل ارتفاعها إلى (٣٠٠٠ قدم) تقريباً، تحيط بها الجبال من سائر جهاتها. تتصف بلاد الأنباط بأنها جبلية قليلة المياه وعرة المسالك.

كوّن الأنباط حضارة عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، مركبة في حضارتها، إلا أنها في أساسها عربية[6]، واختلف في الموطن الأصلي للأنباط، فمنهم من يقول: إنهم من أهل العراق، وهاجروا من العراق إلى أدوم، وقيل: هم عراقيون، قدم بهم نبوخذ نصر في القرن

---

(1) جرجي زيدان: ج٣ ـ ص٣٤.

(2) المرجع نفسه: ص٨٦.

(3) ابن منظور: لسان العرب ـ طبع بيروت ـ ج٧ ـ ص٤١١.

(4) عباس محمود العقاد: ابراهيم أبو الأنبياء ـ طبع القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص١٣٦.

(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان ـ مجلد (٣) ـ طبع بيروت ـ ص٦٠.

(6) فيليب حتي: سورية ولبنان ـ ص٤٢٦.

القلم العربي القديم　　　　　　　　القلم النبطي المتأخر

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)
ا				
ب				
ج				
د				
هـ				
و				
ز				
ح				
ط				
ى				
ك				
ل				
م				
ن				
سامخ				
ع				
ف				
ص				
ق				
ر				
ش				
ت				
لا				

(١) نماذج من القلم النبطي المتأخر في القرون: الأول والثاني والثالث ب. م مستخلصة من نقوش بطرا والحجر.

(٢) نماذج من حروف نقش نمارة من القرن الرابع ب. م.

(٣) نماذج من حروف نقشي زبد وحران من القرن السادس ب. م.

(٤) نماذج من حروف عربية مستخلصة من نقوش عربية في القرن الأول للهجرة.

السادس قبل الميلاد، عندما احتل فلسطين، فأسكنهم البتراء، وما جاورها. ترك الأنباط كتابات كثيرة في مواقع متفرقة، أهمها البتراء والحجر وتيماء، وفي صيدا ودمشق وفي حوران والجوف واليمن وسيناء ومصر.

ذكرنا: أن الأنباط كان أول ظهور لهم في القرن السادس قبل الميلاد كبدو في الصحراء الواقعة شرقي الأردن، واستمروا على وضعهم رحّلاً حتى القرن الرابع قبل الميلاد، ثم تركوا الرعي والتنقل، واستقروا يعملون في الزراعة والتجارة. ثم تحولوا في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى مجتمع منظم، أوجد حضارة متقدمة، واتصفت بالتطور والتقدم، وكان موقعهم الجغرافي المميز هو، الذي حولهم إلى مزارعين ثم تجار قوافل[1].

وأقدم ما وصلنا عن الأنباط من أخبار يرجع إلى عام (٣١٢ ق.م) عند انتصار الأنباط على قوات أنتيجونوس، الذي خلف الاسكندر المقدوني في سورية[2]. وفي عام (٣١٢ ق.م) جهز أنتيجونوس حملة لمهاجمة البتراء، لأنهم كانوا يوالون بطليموس الأول (٣٢٢ ـ٢٨٣ ق.م)، وأوكل قيادة هذه الحملة إلى أتنيوس، وقوام هذه الحملة أربعة آلاف من المشاة وستمائة فارس، حيث تمكنت هذه الحملة من مباغتة البتراء ليلاً وتحقيق النصر في بداية الأمر.

لكن الأنباط حشدوا قواتهم، ونظموها، وهاجموا أعداءهم ليلاً، وحققوا النصر[3] عليهم، وأرسلوا رسالة إلى أنتيجونوس يعلمونه بما حدث، فردّ عليهم: إن ما حدث كان بدون علمه. في الوقت نفسه أخذ يعد العدة لتجهيز حملة جديدة للقضاء على النبط، وجعلهم تحت سيطرته. كان قوام الحملة في هذه المرة أربعة آلاف من الفرسان، ومثلهم من المشاة. تحركت الحملة بقيادة ابنه ديمتريوس باتجاه البتراء، التي كانت على حذر من مباغتة جديدة، فلما علموا بهذه الحملة أمّنوا أموالهم، وتفرقوا في الصحراء، فلما هاجمها ديمتريوس، لم يجد فيها أحداً وعاد دون أي نتيجة.

استمرت علاقة الأنباط بالبطالمة حتى كان عهد بطليموس الثاني (٢٨٤ ـ ٢٤٦ ق.م)، حيث بدأت هذه العلاقة تتدهور، لأن البطالمة في هذه المرحلة فكروا في احتكار التجارة البحرية، والسيطرة عليها حتى داخل البحر الأحمر، ولتحقيق ذلك فتحت القناة القديمة، التي كانت تصل

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ـ ص٤١٧.

[2] ابراهيم نصحي: تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر اليوناني والروماني ـ ص٤ وما بعدها. تاريخ مصر في عهد البطالمة ـ ج٢ ـ ص٤٥.

[3] توفيق برو: تاريخ العرب القديم ـ ص١٠١.

النيل بالبحر الأحمر[1]، وأمر بطليموس الثاني بإنشاء موانئ على سواحل البحر الأحمر، وعمل على توسيع التبادل التجاري، بين مصر والهند وبلاد الشام، غايته تصريف الإنتاج المصري المتمثل بالمنسوجات والزيوت. والأواني الزجاجية وغيرها، واستيراد العطور والبهار والعاج والأرز والقطن والحرير[2]، وبذلك تكون مصر قد سيطرت على التجارة البحرية.

إن الإجراءات التجارية، التي قام بها البطالمة، سببت ضرراً بالغاً للأنباط، الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل، التي كانت تمر ببلادهم. في هذه المرحلة استغل الأنباط الصراع الدائر بين البطالمة والسلوقيين، وأخذوا يشنون الغارات على السفن التي كانت تخرج من مصر، بعرض البحر الأحمر، والتي كانت تعود إليها[3]. فما كان من بطليموس، إلا أن أمر بإنشاء قوة بحرية لحماية السفن التجارية.

تعد البتراء من أشهر مدن العالم القديم، يقول الدكتور محمد بيومي[4]: إنها كانت عاصمة لأدوم، ثم صارت لمؤاب، ومن بعدهم أصبحت عاصمة للأنباط، وتقع إلى الشرق من وادي عربة، وتعني البتراء في اليونانية: الصخر، وتعني أيضاً: الشق في الصخر، وتعني سلع، وذكرها ياقوت الحموي[5]، فقال: هي حصن في وادي موسى قرب بيت المقدس. وعرفت البتراء عند العرب أيضاً باسم: الرقيم كاسم ثانٍ، واسمها الحديث: وادي موسى.

وأهم آثار البتراء: الخزانة[6] المنحوتة في الصخر، وعرفت بخزانة فرعون، ومن الآثار الأخرى: المسرح، الذي يُفضي، كما يذكر الدكتور عبد العزيز سالم، إلى سهل فسيح، تتناثر فيه الكهوف الطبيعية، أو المحفورة في الصخر، ولبعض هذه الكهوف واجهات منقوشة.

ومنها الدير، وهو بناء ضخم، يبلغ عرضه نحو خمسين متراً، وارتفاعه (٤٥م)، وبداخله غرفة واسعة، أقيم فيها نصب حجري، يمثل الإله (ذا شرى)، يعود تاريخه إلى القرن الثالث الميلادي، ويدعى إله الكرمة، وكذلك آثار بناء، يعرف: بقصر البنت، أو قصر بنت فرعون، بالإضافة إلى

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية: ج٦ - ص٤٨٠. ابراهيم نصحي: دراسات في تاريخ مصر - ص١٢٤.

[2] ابراهيم نصحي: تاريخ الحضارة المصرية - العصر اليوناني والروماني - ص٤٥.

[3] جواد علي: ج٣ - ص٢٠.

[4] محمد مهران بيومي: إسرائيل - ص٢٤٢ وما بعدها.

[5] محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - ج٢ - ص٣٤٢.

[6] نعمت اسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط في الفترات الهليستينية والمسيحية والساسانية طبع مصر ١٩٩١ ص٤٨.

ضريح، عرف بضريح الجرة، وهو ذو طابع هلنستي، بالإضافة إلى أضرحة أخرى. في النتيجة تدل آثار الأنباط على تأثر فن البناء النبطي بالفن الهلنستي.

الري عند الأنباط:

فمن المعروف أن الأنباط أحاطوا مدينتهم (البتراء)، بسياج من الزارعة، دفعوا به إلى داخل الصحراء، وخاصة بعد أن تحولوا إلى مجتمع زراعي، إلى جانب تعاطيهم التجارة. ولتطوير الزراعة، أقيمت الخزانات والصهاريج الأرضية لتخزين المياه، والإفادة منها عند الحاجة. كما أقاموا المنشآت المائية، كالسدود في الوديان، والغدران، وعملوا على توزيع شبكة قنوات لري مختلف المناطق النبطية. ولقد اقترن فن استخراج المياه واستنباطها بالعرب الأنباط، فالمتجه من عين موسى، إلى وادي موسى، يجد أن المياه القديمة كانت تصرّف من خلال هذا الوادي، بواسطة قناة اصطناعية، وما زالت جدرانها قائمة حتى الآن.

والأنباط لم يكتفوا بينابيعهم، بل برعوا في فن استخراجها[1]، وفي استخدام مياه الأمطار القليلة وحفظها. فالمياه كانوا يؤمنوها بواسطة صهاريج سرية، شكلها مربع، منقورة في الصخر تحت الأرض، ولها فوهات ظاهرها ضيق، وباطنها واسع يحكم سدها، ولهم على فوهاتها علامات ترشدهم إليها. وأحسن ما ذكر عن الأنباط وعنايتهم بالماء، ما قاله ديودروس الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد:

«الأنباط يعيشون في البادية الجرداء، التي لا نهر فيها ولا سيول، ولا ينابيع. وهم ضنينون بحريتهم، فإن داهمهم عدو يخافونه، فرّوا إلى الصحراء، وهي أمنع حصن لهم، لأنها خالية من الماء، فلا يدخلها سواهم إلا مات عطشاً. أما هم فيشربون من صهاريج...»[2].

التجارة النبطية:

لقد أظهر الأنباط براعة ومقدرة في مجال التجارة، ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي، وكانت بدايتهم بعد انتقالهم من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار على شكل وسطاء، يقومون بنقل السلع والبضائع كالبخور والطيب إلى مصر من موانئ ومدن سورية. بعد ذلك تطوروا تجارياً، وأصبحوا سادة في نقل التجارة فيما بين الشرق والغرب.

---

(1) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ طبع بيروت ـ ص٤٢٣.

(2) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص٧٩ ـ ٨٠.

وكانت قوافل تجار الأنباط تعبر الجزيرة العربية عن طريقين رئيسيين[1]، الأول: يأتي من شرق الجزيرة العربية، والثاني: من جنوبها، وكلاهما يلتقيان في الحجر، ومن المحطة الأخيرة تتشعب الطرق. وهناك طريق آخر، يصل قوافل الأنباط بسورية، وكانت البتراء المركز التجاري والاقتصادي للطرق التجارية ما بين غزة وبصرى، وما بين دمشق وإيبلا.

وبذلك كانت التجارة أهم موارد الثروة الاقتصادية عند الأنباط، وعليها قامت حضارتهم، يقول الدكتور محمد بيومي مهران: إن الأنباط عملوا على نشر الأمان على الطرق التجارية، فأقاموا الحصون والقلاع والمخافر والأبراج للمراقبة على طول الطرق التجارية لحماية القوافل عند الضرورة. هذا فضلاً عن إرسال بعض وحدات الجيش مع القوافل لحمايتها، حتى غدت قوافلهم وكأنها جيش، يتجه إلى ميدان الحرب، وفي مقابل ذلك كانت القوافل التجارية تدفع للدولة مكوساً عالية، بل إن نفوذ الدولة وسلطتها غَدَوا وكأنهما يعتمدان أساساً على التجارة.

ملوك الأنباط:

الحارث الأول: هو أول ملوك الأنباط (١٦٩ ـ ١٤٦ ق.م)، كان معاصراً لأنطيوخوس السلوقي، وبطليموس فيلوماتر ملك مصر، ومعاصراً لمؤسس الأسرة المكابية يهوذا المكابي، الذي قام بثورة عام (١٦٨ ق.م) ضد الارستقراطية اليهودية[2]. كان هذا الملك (الحارث) يدعى عند اليهود اريناس (ملك العرب). يذكر عن الحارث الأول: أنه كان قد طرد الحاخام اليهودي (جاسون) من بيت المقدس، وفي الوقت نفسه كان يقف إلى جانب المكابيين في ثورتهم ضد السلوقيين[3].

زبدايل: خلف الحارث الأول (١٤٦ ـ ١١٠ ق.م).

الحارث الثاني: هو من أشهر ملوك الأنباط، حكم في الفترة الواقعة بين عامي (١١٠ ـ ٩٦ ق.م)، وقيل: ما بين (١٢٠ ـ ٩٦ ق.م)، وكان يعرف باسم (ايردتيموس)، كانت علاقاته حسنة في البداية مع المكابيين، إلا أن هذه السياسة، كما يذكر الدكتور عبد العزيز سالم، لم تلبث أن تبدلت إلى سياسة عداء. يقول: فقد تبين للأنباط أنهم بسياستهم السابقة، أضرّوا بمصالحهم الخاصة، فلم تكن سياسة المكابيين مقتصرة على طلب الاستقلال التام، والخلاص من الحكم

---

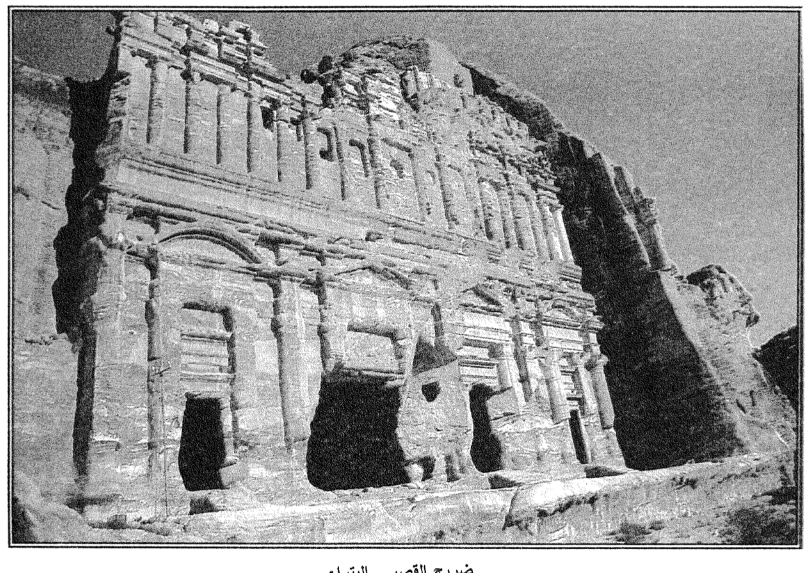
(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ـ ج٢ ـ ص٣٤٢.

(٢) فيليب حتي: تاريخ سورية ـ ص٢٦٧.

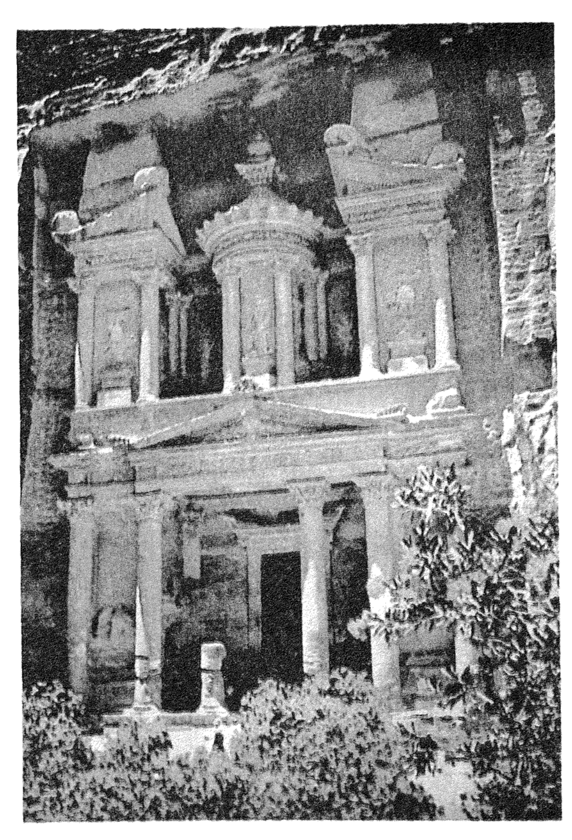
(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ـ ص١٨٩.

البتراء ـ الدير

PETRA - THE MONASTERY - JORDAN



ضريح القصر ـ البتراء
PALACE TOMB - PETRA



الخزنة ـ البتراء

البتراء - المحكمة

الأجنبي، بل كانت تستهدف الاستيلاء على الأردن، والتوغل في مناطق النبط نفسها، وإنشاء حكومة قوية، قد تزاحم حكومتهم[1].

عبادة الأول: في عهده اشتد العداء بين الأنباط والمكابيين، حيث نجح الأنباط في إلحاق الهزيمة بالاسكندر جالينوس، وجيشه المؤلف من المرتزقة (سنة ٩٠ ق.م) في معركة وقعت على الضفة الشرقية من الأردن، وكان انتصاره هذا سبباً لاحتلال جنوب سورية (منطقة حوران). في هذه المرحلة أصبح موقف الاسكندر حرجاً، إذ اقترن وصوله إلى بيت المقدس بقيام فتنة في دولته، لذلك قرر كسب ود الأنباط، وتنازل لهم عن مؤاب وجلعاد، لكي يأمن السلطة[2].

الحارث الثالث: كان الحارث الثالث أشهر ملوك الأنباط[3]، ويعدّ أيضاً المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط[4]. اقترن عهده بفتوحات وانتصارات. وفي عهده هاجم أنطيوخوس السلوقي بلاد الأنباط (سنة ٨٦ ق.م)، فقابله الحارث الثالث هذا، واصطدم معه في معركة بالقرب من يافا، كانت نتيجتها انتصار الأنباط، وهزيمة السلوقيين وقتل ملكهم.

في سنة (٨٥ ق.م) تمكن من السيطرة على دمشق والأقاليم الملحقة بها. وذلك بناء على دعوة، تلقاها من سكان دمشق، ليقيم نفسه حاكماً عليها، وكانت هذه الدعوة من سكان دمشق إنقاذاً لأنفسهم من هجوم الأتيوريين، الذين كانوا يطمعون في الاستيلاء على دمشق، بعد ذلك أخذ يوطد حكمه في الداخل، وأخذ يعمل على تكوين جيش قوي، وخاصة بعد أن انضم إليه فريق من رجال الحرب اليونان. فاستفاد منهم في تنظيم وتدريب هذا الجيش، وبذلك كوّن جيشاً نظامياً مدرباً.

وفي عهده اضطربت الأمور في أسرة يهوذا، فأخذ يتدخل في شؤون هذه الأسرة. حيث بدأ يهاجمها، وخاض معها معركة قرب اللد، حقق فيها انتصاراً ساحقاً، وفرض شروطه عليها[5]. بعد ذلك انقسمت الأسرة اليهودية بين ابني (اسكندر جنابوس)، فريق مع ولده أرسطوبولس، عرفوا: بالصدّيقين، وفريق ثان، يؤيد هركانوس، وعرفوا: بالفرسيين. نتيجة هذا الانشقاق فرّ الابن

---

[1] عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية : ص١٩٠.

[2] فيليب حتي: تاريخ سورية ص٤١٩. جواد علي: ج٣ - ص٢٧.

[3] عبد العزيز سالم: تاريخ العرب - ص١٩٠. محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - ج٢ - ص٣٢٣.

[4] فيليب حتي: تاريخ سورية - ج١ - ص٤١٩.

[5] جواد علي: الجزء الثالث - ص٣١.

الثاني، والذي يقود الفرسيين إلى عاصمة الأنباط، لعله يحظى بتأييد الحارث الثالث، ويعيده إلى حكم أسرة يهوذا، ووعده الحارث مقابل أن يعيد له القرى الاثنتي عشرة، التي احتلها أبوه، وضمها إلى سلطته.

جهز الحارث جيشاً قوياً، قوامه خمسون ألف رجل، ووجّهه إلى أسرة يهوذا، التي كان يتزعمها أرسطوبولس، فلما هاجم الجيش أرسطو وأتباعه، فرّ إلى القدس، وخسرت قواته المعركة. في هذه المرحلة تدخل الرومان، وهاجموا دمشق، وفي الوقت نفسه وجّهوا حملة إلى القدس، حيث تمكن الرومان، ومعهم أرسطو من مهاجمة الأنباط، والانتصار عليهم، وقتل الكثير منهم، أما الحملة الرومانية، التي كان يقودها بومبي (سنة ٦٤ ق.م). فقد تمكنت من احتلال دمشق، وسورية بكاملها، وجعلها ولاية واحدة، وجعل أنطاكية عاصمتها[1]. **أخيراً** كان الحارث الثالث أول من صك نقوداً نبطية، وفي (عام ٦٢ ق.م) خضع الحارث الثالث للرومان.

عبادة الثاني: خلف والده الحارث الثالث في الحكم إذ حكم من (٦٢ ــ ٧٤ ق.م)، وكانت سياسة الأنباط في عهده مقصورة على المحافظة على استقلالهم، والارتباط بروابط الحلف والولاء، إلا أن الرومان لم يتركوا للأنباط حرية الاستقلال السياسي.

مالك الأول: (٤٧ - ٣٠ ق.م) في عهده تمكن الرومان، ويمثلهم مارك انطونيوس، الذي عهدوا إليه بشؤون الشرق من إسقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس، ووضعوا مكانها الأسرة اليهودية الموالية لهم، ويقودها هيرودتس.

خلال هذه الأحداث تدهورت العلاقات الرومانية النبطية، وامتنع الأنباط عن دفع الجزية للرومان، إلا أنهم تمكنوا من إجبارهم على ذلك عام (٤٠ ق.م)، كما أن مارك انطونيوس منح جزءاً كبيراً من سورية وسواحلها والأنباط إلى كليوبترا ملكة مصر، بهذا الإجراء أصبح من حق ملكة مصر أخذ الجزية من الأنباط.

كانت كليوبترا ترغب في التخلص من الأنباط واليهود على السواء، لذلك شجعت هيرودس على محاربة الأنباط بمساعدة بعض جنود الروم، فتحقق بعض النصر، إلا أن الأنباط غيّروا ميزان القوى، وتمكنوا من دحر هيرودوس وهزيمته وفراره إلى القدس[2]، وأخذوا يهاجمون مدينته. لم يركن

---

[1] فيليب حتي: ص٣٠٩. جواد علي: الجزء الثاني - ص٢٩.

[2] فيليب حتي: ص٣٢١.

هيرودوس، ويستسلم، إنما أخذ يعد العدة لمحاربة الأنباط، وبدأت معاركه معهم، وكانت نتيجتها لصالحه في النهاية بسبب الدعم، الذي كان يقدمه له الرومان.

عبادة الثالث: (٣٠ - ٩ ق.م)، في عهده وجهت حملة رومانية (سنة ٢٤ ق.م) إلى اليمن بقيادة اليوس جاليلوس، وقد اشترك اليهود والأنباط في هذه الحملة، وكان الدليل وزير عبادة الثالث، واسمه صالح، وكانت نهاية هذه الحملة حين اتهم الوزير المذكور بأنه كان السبب في هذا الفشل، لأنه سار بالحملة عن طريق، يعد من أكثر مناطق العرب وعورة وأشدها جفافاً[1].

الحارث الرابع: (٩ ــ ٤٠م) بلغت الأنباط في عهده ذروة عظمتها، وكان يلقب: (رحم عم) أي: المحبّ لأمته، وصف عهده: بأنه كان عهد رخاء وأمن، وكانت علاقاته مع جيرانه حسنة، تزوج هيرودوس حاكم اليهود من ابنته، ثم طلقها فيما بعد، ليتزوج هيروديا زوجة أخيه، لكن يوحنا المعمدان رفض أن يتم هذا الزواج، فما كان من هيرودوس إلا أن ألقى بيوحنا المعمدان في السجن، وفي عيد ميلاد هيرودوس، قررت هيروديا مع ابنتها (سالومي) على أن ترقص شبه عارية لعمها هيرودوس، وفي هذه المناسبة طلبت هذه الراقصة من عمها أن يعطيها رأس يوحنا المعمدان، وقد تم ذلك.

وكان طلاق هيرودوس لابنه الحارث سبباً مباشراً في صراع اليهود مع الأنباط، وكان النصر فيها من نصيب الأنباط. بعد ذلك استنجد هيرودوس بالقيصر الروماني (تيبيريوس) (١٤ــ ٣٧م)، فأمر الامبراطور عميله في سورية بالقضاء على الأنباط، لكن وفاة القيصر الروماني أوقفت هذه الحملة.

مالك الثاني: خلف أباه في حكم الأنباط: (٤٠ - ٧١م)، في عهده فقد الأنباط دمشق، وقد اشترك هذا الملك بفرقة من جيشه، قوامها ألف فارس، وخمسة آلاف من المشاة، في سنة (٦٧م) في الحملة، التي سيرها الامبراطور الروماني طيطس لمهاجمة بيت المقدس، حيث دمرها، وأنهى اليهود كتجمع سياسي[2]. وقد تم الكشف عن عملة فضية وبرونزية، تعود إلى عهده، نقشت

---

[1] فيليب حتي: تاريخ العرب - ص٥٦.

[2] محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - ج٢ - ص٣٣٢.

عليها صورته وصورة زوجته وأخته في آن واحد[1]. علماً أن ملوك الأنباط كانوا يقلدون الفراعنة المصريين، حيث كانوا يتزوجون من شقيقاتهم.

رب إيل: عرف (بسوتر) حكم من (٧٠ ـ ١٠٦م)، ويروى: أنه حكم تحت وصاية والدته، وأن أخاه أنيس (انشو) كان يشارك أيضاً في الحكم، عندما بلغ الرشد تزوج من أخته جميلة. وكشف عن نقود، تعود إلى عهده، تحمل صورته وصورة زوجته وشقيقته جميلة، ثم استقل بالحكم بعد ذلك، وصف: بأنه جلب الحياة والإخلاص لشعبه[2].

في عهده أمر الامبراطور الروماني تراجان (٧٨ ـ ١١٧م) نائبه في سورية (كورنبليوس بالما) عام (١٠٦م)، بأن يقود قواته، ويتوجه إلى البتراء[3]، وأن يضم دولة الأنباط إلى الامبراطورية الرومانية، وعرفت منذ ذلك الحين بالمقاطعة العربية، وأصبحت بصرى عاصمة لها، واضمحل دور البتراء، ومع سقوط دولة الأنباط بقيت البتراء مزدهرة، فأصبحت مركزاً اقتصادياً هاماً، ومع الزمن أهملت، وحلت محلها تدمر، ولكن البتراء أصبحت مركزاً أسقفياً.

---

[1] عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ـ ص١٩٥.

[2] فيليب حتي: تاريخ سورية ـ ص٤٢٤.

[3] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٧٨.

الفصل الخامس

الصفويون

- أهمية الصفويين وتاريخهم.
- الكتابة الصفوية.
- أعمال الصفويين.
- آلهة الصفويين.

الصفويون

أهمية الصفويين وتاريخهم:

ينسب الصفويون إلى المنطقة الجغرافية، التي كانوا يسكنونها، وهي الصفا وما حولها، والتي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق عند مدخل بادية الشام، ولغتهم عربية. والصفويون لم يكونوا أول القادمين إلى بلاد الشام ولا آخرهم. استوطن الصفويون السفح الشرقي لجبل حوران، بينما سكن الأنباط إقليم حوران بما فيه بصرى وغيرها من المدن مثل السويداء وأذرعات، وكان الأيتوريون قبل ميلاد السيد المسيح يسيطرون على مملكة، تقع في لبنان الداخلي، وعاصمتها شلكيش (عنجر) في البقاع، وامتد نفوذهم حتى الساحل الفينيقي، وكانوا يقلقون بيروت وجبيل إلى أن تدخل بومبي ليضع حداً لتعسفهم، ومن المعلوم أن العرب كانوا في لبنان والساحل السوري في الوقت، الذي نزل فيه الاسكندر سورية، وكان الأيتوريون يقيمون في لبنان الداخلي، وكانوا يعرفون: بأنهم عرب سوريون.

سكن الصفويون في كل من ديرة التلول والصفا، وجبل حوران، ووادي النقرة، وفي حرة وادي جبيل (الموطن الحقيقي للصفويين)، وفي هذا الوادي بعض الآبار، وبعض مجاري المياه، التي تنبع من السفح الشرقي لجبل حوران، لكن مياهها تجف صيفاً، وفي العهد الروماني أنشئ في الرحبة مركز حصين كان على جانب من الأهمية. أطلق العرب على إطلالة القصر الأبيض (القلعة البيضاء). وأهم الحصون، التي أقيمت في الفترة الرومانية في منطقة الصفا، هي نقطة جبل سيس — القصر الأبيض ـ المنارة ـ دير الكهف وقلعة الأزرق، وكانت تتبع القيادة الحربية في بصرى.

جبل سيس: إن الأطلال، التي توجد عند قاعدة المخروط البركاني، الذي يسمى: جبل سيس، تعد ذات أهمية خاصة، فالحصن يشكل قاعة مربعة، تقدر بخمسة وثلاثين متراً مربعاً، وفيه أبراج مستديرة، وجدار مبني بسمك مترين تقريباً، ويحجبه خندق صغير[1].

---

[1] رينيه ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام ـ طبع ١٩٥٩ ـ ص٢٩.

القصر الأبيض: بني على شكل مربع، وله أبراج ذات زوايا، وفي سطحه استحكامات، وجدار السور مكون من واجهتين، ملئ ما بينهما بالأحجار والملاط، وهناك برج عال يتصل بجدار السور، وهذا البرج يشرف على البناء كله.

المنارة: يقع على تل وسط وادي الشام داخل الحصن، توجد نقوش أثرية إغريقية بجوار النقوش الصفوية، وعلى مقربة من النمارة توجد أطلال قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب المتوفى في عام (٣٢٨م).

دير الكهف: ويقع في الجنوب الشرقي من جبل حوران، ويشبه تماماً نظام جبل سيس، والقصر الأبيض، ذو مدخل واحد ومبان داخلية، بامتداد جدار السور أبراج بارزة ذات زوايا في الوسط والجوانب.

قلعة الأزرق: يعتقد: أنها وجدت أواخر القرن الثالث الميلادي، وهي تختلف عن القصر الأبيض في زخرفته.

الكتابة:

استعمل الصفويون عدة طرق للتغلب على الصلابة الشديدة لتلك الصخور البركانية، التي كتبوا عليها، حيث كانوا يستعملون في حفرها منقاشاً بارداً، فكانت الحروف صغيرة، والشق ضيق عميق نسبياً، وأحياناً أخرى كانت الطبقة العليا للحجر هي التي تخدش وحدها بسن مدبب، فكانت الحروف كبيرة ذات طابع مضطرب، ودقيقة جداً لا ترى إلا بلونها الأحمر، الذي كان يحفر على الحجر البركاني الأسود، ووجد عدد كبير من النصوص، كانت قد حفرت بطريقة الدق.

والنص الواحد قد يبدأ حفره بالمنقاش، وينتهي منه بواسطة المدق، يذكر رينيه ديسو: أن ما نشر من النصوص الصفوية كان قد بلغ (١٧٥٠ نصا)، ووجد تشابه واضح بين الأبجدية الصفوية والكتابة العربية الجنوبية، واكتشفت رابطة عائلية بينهما، واكتشف أن عدد حروف الأبجدية الصفوية ثمانية وعشرون حرفاً، مثلها مثل الأبجدية العربية. من ذلك كانت الصلة وثيقة بين الأبجديتين، كما كانت الأبجدية الصفوية تتصل بالأبجدية الإيلائية والفينيقية والثمودية والحميرية أيضاً.

نقش النمارة

حل رموز نقش النمارة

(١) تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

(٢) وملك الأسدين ونزوا وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا

(٣) بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنية

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدي. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

ترجمة نقش النمارة

(١) هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج

(٢) وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم. وهزّم مزحج بقوته (عكدي: يقول العالم Lidzbarski تدل على القوة[١]).

إذن اللهجة الصفوية لهجة عربية قريبة من لغة القرآن الكريم، أي عربية المنشأ والأصل، ففي الصفوية كان يتم الإدغام، كما كان يعمل على تشديد الحرف المائع بكتابته مرتين، هذا وتمدنا النصوص المكتشفة بطائفة من أسماء الأعلام العربية والجاهلية، وأسماء الأعلام كانت تقسم إلى قسمين، **الأول**: الأسماء البسيطة، **والثانية**: الأسماء المركبة.

ذكرت صحيفة البعث السورية في عددها رقم (١٠٠٣٧) تاريخ ٣ / ٦ / ١٩٩٦: أن البعثة الأثرية المشتركة السورية الإنكليزية العاملة في شرق السويداء جنوب سورية، كانت قد اكتشفت (٤٥ موقعاً أثرياً)، تضم جميعها كتابات صفوية، تعود للقرن الأول قبل الميلاد، وحتى القرن الرابع الميلادي، وتبحث عن النسب عند العرب. وذكرت الصحيفة: أنه تم حتى الآن نسخ حوالي (٦٢٠٠) نص صفوي، وهي قيد القراءة والدراسة والتحليل، وتبحث مسألة النسب عند العرب، وعلاقاتهم مع الدول المجاورة، وقد عثر عليها منقوشة على الحجر... وتشمل أمكنة الاكتشافات منطقة العيساوي الممتدة من سد الرحبة، وحتى وادي الزلق.

أعمال الصفويين:

كان أهم الأعمال، التي مارسها الصفويون هي تربية الماشية، بالإضافة إلى حيوانات أخرى، تذكرها النصوص الصفوية المكتشفة كالجمل والحصان والفرس والماعز والحمار والبقر، وعرفوا الصيد وكان محبباً لهم، فكانوا يطاردون الغزال، أو بقر الوحش، كما اصطادوا الأسود. تدلنا النقوش المكتشفة على طريقة تسليح الصفويين، فراكب الحصان كان يحمل رمحاً طويلاً، وبعضهم الآخر يقاتلون بالقوس، ويحتمون بتروس صغيرة مستديرة.

أخيراً نجد في سورية أن الحجارة كانت من مواد البناء الأكثر استعمالاً، وهذا يعطي فن العمارة طابعه المميز، أما السقف فكان يعمل من بلاط البازلت، يتصل بعضه ببعض بدقة كبيرة، ثم توضع عقود من الحجارة، أو فوق مساند داخلة في الجدران.

آلهة الصفويين:

اللات: دخلت عبادة اللات حوران بواسطة النبطيين والصفويين، والنصوص الصفوية تدل على أهمية عبادة اللات عندهم.

(الله): عبده عرب الشمال قبل الإسلام، ووردت لفظة الله في النصوص الصفوية.

الفصل السادس

الغساسنة

- أهميتهم وتاريخهم.
- ملوكهم.
- حضارة الغساسنة.

الغساسنة

أهميتهم وتاريخهم:

ينتسب الغساسنة إلى أزد اليمن، نزحوا من جنوب الجزيرة العربية إلى بادية الشام قبل أو بعد سيل العرب، وكانوا بقيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقيا، وخلال رحلتهم إلى بادية الشام، أقاموا بعض الوقت في تهامة قرب ماء يقال له: غسان[1] فنسبوا إليه. إذاً ينتسب الغساسنة إلى آل عمرو المعروف بمزيقيا، وعمرو هذا هو ابن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزيد بن الغوث[2]، وهناك رأيان حول تسمية عمرو بمزيقيا، **أحدهما**: أن عمرو سمي بمزيقيا، لأنه كان يمزق كل يوم من سنيّ ملكه حلتين كيلا يلبسهما غيره، ومن ذلك سمي: مزيقيا، وسمي ولده: المزاقية. **والثاني**: لأن الأزد تمزقت في عهده عند هروبهم من سيل العرم، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ بسيل العرم مثلاً، فقالوا: (ذهب بنو فلان أيادي سبأ)[3].

وعرف الغساسنة: بآل جفنة، لأن أول ملوكهم كان كما هو معلوم جفنة بن عمرو مزيقيا، وعرفوا أيضاً: بآل ثعلبة نسبة إلى جد هذه الأسرة، الذي عرف بثعلبة بن مازن[4]. وقبل وجود الغساسنة في مشارق الشام، كان الضجاغمة، وهم قوم من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة[5]، وعندما قدم الغساسنة حلوا مكانهم.

---

(1) أحمد فضة: تاريخ العرب القديم ـ طبع بيروت ـ ١٩٩٢ ص١١٦.

ـ مروج الذهب ـ ج١ ص١٠٦.

ـ ابن هشام ـ السيرة ج١ ـ ص٩.

ـ اختلف في مكان ماء غسان فابن هشام يذكر أن غسان ماء بسد مأرب وقيل ماء المسلك قريباً من الجحفة وهو ما بين زبيد ورمع.

(2) حمزة الأصفهاني: تاريخ شتى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ طبع بيروت بدون تاريخ ـ ص٧٧.

(3) المرجع نفسه: ص٧٩.

(4) تيودور نولدكه: أمراء غسان ـ طبع بيروت ١٩٣٣ ـ ص٤.

(5) المسعودي: التنبيه والإشراف ـ ص١٨٦.

يقول حمزة الأصفهاني: فلما نزلت غسان في جوار سليح بن حلوان ضربوا عليهم الأتاوة، وكان الذي يتولى جبايتها سبيط بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن ضجعم بن حماطة، فقصد سبيط ثعلبة بن عمرو لأخذ الأتاوة منه، فاستنظره فقال: لتعجلنّ إلي الأتاوة أو لآخذنّ أهلك، وكان ثعلبة حكيماً، فقال: هل لك فيمن يزيح علتك في الإتاوة؟ فقال: نعم، قال: عليك بأخي جذع بن عمرو، وكان جذع فاتكاً، فأتاه سبيط، فخاطبه بما كان قد خاطب به ثعلبة، فخرج عليه، ومعه سيف مذهب، وقال: فيه عوض من حقك إلى أن أجمع لك الإتاوة، قال: نعم، قال: خذه. فتناول سبيط جفن السيف، واستل جذع نصله، وضربه به، حتى برد، فقيل: خذ من جذع ما أعطاك، فذهبتْ مثلاً. ووقعت الحرب بين سليح وغسان، فأخرجت غسان سليحاً من الشام، وصاروا ملوكاً[1].

هذا ويذكر المؤرخون: أن الضجاعمة لم يقض عليهم نهائياً، بل ظلوا مقيمين في مواضع أخرى من أرض الشام، وأن جماعة منهم كانوا قد حاربوا خالد بن الوليد في كل من دومة الجندل[2] وفي قضم[3]. إذاً بعد انتصار الغساسنة تسلموا السلطة. فكان أول أمرائهم، كما يذكر حمزة الأصفهاني، هو جفنة بن عمرو بن مزيقيا.

جفنة بن عمرو: اختلف المؤرخون في أول ملك، حكم الغساسنة[4]، فالأصفهاني يقول: وكان الذي ملّكه على عرب الشام ملكاً من ملوك الروم، يقال له نسطورس، فلما مُلّك جفنة، قتل ملوك قضاعة من سليح، الذين كانوا يدعون الضجاغمة، ودانت له قضاعة، ومَنْ بالشام من الروم، وبنى جُلّق وعدة مصانع، ثم هلك، وكان ملكه خمساً وأربعين سنة وثلاثة أشهر[5].

وقال اليعقوبي مثل ما ورد مع تغيير بسيط، هو أنه بدّل نسطورس بنوشر[6] والمقصود هو الإمبراطور الروماني أنسطاسيوس[7]، الذي حكم من (٥١٨ ـ ٤٩١ ق.م)، وقال المسعودي وابن

---

[1] حمزة الأصفهاني: تاريخ شتى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ ص٩٨، ٩٩.

[2] الطبري: ج٢ ـ ص.

[3] البلاذري: فتوح البلدان ـ ج١ ـ ص١٣٣.

[4] عبد الملك بن قريب الأصمعي: تاريخ العرب قبل الإسلام ـ طبع بغداد ١٩٥٩ ـ ص١٠٢.

[5] حمزة الأصفهاني: ص٩٩.

[6] اليعقوبي: ج١ ـ ص١٦٧.

[7] تيودور نولدكه: ص٧.

قتيبة: إن أول ملوك الغساسنة هو الحارث بن عمرو بن عامر[1].

ويذكر **الأصمعي** جفنة بن عمرو: بأنه أقبل على بنيه فقال لهم: (يا بني تنافسوا في المكارم، وتجنبوا ما يبعدكم عنها، فإني أخالكم دون الناس ملوكاً، لا يكون الملك ملكاً حتى يكون منصفاً عادلاً، ويكون للأموال باذلاً، ويكون شجاعاً مقاتلاً، عليماً حكيماً، لبيباً حليماً، رؤوفاً رحيماً لا غشوماً ولا ظلوماً، ولقد رأيت فيكم هذه الخصال التي عددتها، ثم إني - وايم الله - أعرفكم بها دون الناس، ولقد سرت بملككم قبل أن تولدوا، فيا ليت من أشهدني يومئذ من أعمامي وإخواني، كان شاهداً لي في يومي هذا[2]، ثم قال شعراً:

يا ليت ثعلبه بن عمرو لم يمت	بل ليت ثعلبة بن عمرو ينشر
ظني - بنيّ - بكم وظني ظن من	يعطيكم النبأ الصحيح ويخبر
إن سوقاً يحوي الشام منكم تسعة	بهم الأسرة والمنابر تعمر
وإليهم تجبى الأتاوات التي	من قبل كانت تجنيها حمير

عمرو بن جفنة: ثاني ملوك الغساسنة، تولّى الحكم حسب قول حمزة الأصفهاني بعد جفنة وحكم خمس سنين، وبنى أديرة (دير حالي - دير أيوب - دير هناد).

ثعلبة بن عمرو: ثالث ملوك الغساسنة، خلف والده عمرو بن جفنة في الحكم، يذكره الأصفهاني، وهو الذي بنى عقّه، وصرح الغدير في أطراف حوران، مما يلي البلقاء، حكم سبع عشرة سنة.

الحارث بن ثعلبة: رابع ملوك الغساسنة، خلف والده ثعلبة، لا يذكر عنه الأصفهاني شيئاً، إلا أنه حكم عشرين سنة، ولم يبن شيئاً.

جبلة بن الحارث: خامس ملوك الغساسنة، يذكره الأصفهاني: بأنه خلفُ أباه الحارث ابن ثعلبة، حكم عشر سنين، بني في ملكه القناطر وأدراج القسطل.

الحارث بن جبلة: يعدّه بعض المؤرخين أول أمراء غسان العظام، حكم من (٥٢٩ - ٥٦٩م)، يذكره نولدكه على: أنه كان عاملاً للروم، ويذكره حمزة الأصفهاني على: أنه

---

[1] ابن قتيبة: المعارف - ص٢١٦ - المسعودي - مروج الذهب - ج٢ - ص١٠٧.

[2] الأصمعي: تاريخ العرب قبل الإسلام - ص١٠١.

ابن مارية ذات القرطين بنت عمرو بن حفنه، وكان مسكنه بالبلقاء، وبنى فيها الحفير ومصنعة بين دعجان، وقصر أبير، ومعان، وكان ملكه عشر سنين.

وقيل: إن الحارث هذا كان قد حارب المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وانتصر عليه سنة (٥٢٨م)، وذكر: أن الحارث هذا كان معاصراً للامبراطور جوستنيان، الذي حكم من (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، وذكر: أن جوستنيان هو الذي منح الحارث لقب الملك، وعدّ بذلك أول من منح هذا اللقب، وكان ذلك حسب رأي نولدكه سنة (٥٢٩م).

وبسط سلطته على عدة قبائل عربية، وكان هدف جوستنيان من وراء ذلك، أن يجعل من الحارث بن جبلة خصماً قوياً قادراً على الوقوف بوجه المنذر ملك الحيرة، علماً أن نولدكه يشك في منح لقب ملك للحارث بن ثعلبة، وإنما منحه لقب (بطريق) حسب رأيه، أو لقب شيخ قبيلة، ومهما يكن فالمؤرخون العرب يعدونه ملك عرب الغساسنة، وأنا مع هذا الرأي.

ذكرنا: أن الحارث كان قد غزا المنذر بن النعمان ملك الحيرة، وانتصر عليه. بعد ذلك قام الفرس بغزو شمال سورية، واستولوا على الرها ومنبج وقنّسرين وأنطاكية، واستمر النزاع بين الغساسنة والمناذرة، وخاصة على الأراضي الواقعة جنوب تدمر. يقول نولدكه: في أواخر العقد الثالث من القرن المذكور، قامت بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة حرب على الأرض المعروفة (STRATA)، ويحدد بروكوبيوس هذه الأرض بقوله: إنها البادية الواقعة جنوب تدمر حتى سرجيوس، وقيل بين تدمر ودمشق ... فقد ادعى أمير الحيرة أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته، وهي تدفع له الجزية، فنازعه الأمير الغساني في هذه السلطة، فنشب القتال بينهما[1].

وذكر نولدكه أيضاً: أنه في سنة (٥٤١م)، حارب الحارث في العراق إلى جانب الروم ضد الفرس تحت قيادة (بليزاريوس)، إلا أن الحارث ارتد بعد عبوره دجلة إلى مواقعه، وقد أثار تصرفه هذا الشك في إخلاصه للروم. هذا ويذكر: أن سبب انسحابه هو أنه قد أنف من الاشتراك في حملة تحت قيادة قائد بيزنطي، وقيل: لعله انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين القائد البيزنطي.

وفي سنة (٥٤٤م)، حارب الحارث المنذر بن النعمان بن ماء السماء، وكانت نتيجة هذه

---

[1] نولدكه : ص١٨.

الموقعة هزيمة الحارث، وأسر ابنه في يد المنذر، فقدمه الأخير ضحية للآلهة العزى[1]. بعد هذه الهزيمة، جمع الحارث قواته، واشتبك مع المنذر في موقعة، انتهت بهزيمة المنذر، وفراره من المعركة وأسر ولديه.

وهكذا استمر النزاع بين الغساسنة والمناذرة رغم الهدنة، التي عقدت بين الروم والفرس سنة (٥٤٦م)، إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً على خصمه في حزيران (٥٥٤م) في معركة، دارت بينهما قرب قنّسرين، تلك المعركة، التي قتل الملك المنذر نفسه بها، في الوقت نفسه خسر الملك الحارث ابنه في هذه المعركة[2]، وقد قيل: إن هذه المعركة كانت قد حدثت بالقرب من الحيار، ويعتقد: أن ذات الحيار ويوم حليمة[3] موقعة واحدة، هي الموقعة نفسها، التي قُتل فيها المنذر بن النعمان ملك الحيرة[4]. ويستبعد أن تكون هذه الموقعة هي موقعة أباغ، التي وقعت قرب الحيرة، يؤكد ذلك قول النابغة[5]:

يوماً حليمة كان من قديمهم وعين باغ فكان الأمر ما ائتمرا

يا قوم إن ابن هند غير تارككم فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا

بعد ذلك وفي سنة (٥٦٣م) قرر الحارث أن يرحل إلى القسطنطينية، لكي يقرر مع السلطة الرومانية كيفية اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ملك المناذرة عمرو بن المنذر، وهناك وفي سنة (٥٤٢ ـ ٥٤٣م) تمكّن من تحقيق مطلبه لدى الامبراطورة (تيودورة)، بتعيين يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة اليعقوبية القائلة بالطبيعة الواحدة، ورفيقه تيودوروس، أساقفة في المقاطعات السورية العربية، وبذلك ظل الحارث طوال سني حكمه حامياً للكنيسة المونوفيزية (اليعقوبية). توفي الحارث بن جبلة سنة (٥٦٩م) أو أوائل سنة (٥٧٠م)، بعد أن حكم ما لا يقل عن أربعين سنة، واحتل الحارث هذا في مخيلة العرب مركزاً سامياً، وكان أشهر أمراء ابن جفنة على الإطلاق.

المنذر بن الحارث: يذكره الأصفهاني[6]: هو ابن الحارث بن جبلة، يسميه المنذر

---

(1) جواد علي: التاريخ المفصل - ص٦.

(2) ابن العبري: ص٨٥.

(3) أن حليمة اسم مكان لاسم امرأة كما يذكر الأخباريون.

(4) نولدكه: ص٢٠.

(5) ديوان النابغة ص٣٧.

(6) الأصفهاني: ص١٠٠.

الأكبر: ابن الحارث بن مارية، بنى حربا وزرقا قريباً من الغدير، وكان ملكه ثلاث سنين. يذكر ابن الأثير[1]: أن المنذر الأكبر هذا هو بطل موقعة (عين اباغ)، التي ذكرها الإخباريون خطأً، أي أنها حدثت في سورية، والواقع أن عين اباغ حدثت في موضع بعيد عن سورية، وفي هذه الموقعة، التي حدثت سنة (٥٧٠م) في أوائل حكم المنذر بن الحارث، انهزم جيش المناذرة اللخميين هزيمة نكراء، وذكر: أن ملك الحيرة قتل في هذه الموقعة[2]. والذي قتل، كما يذكر، ابن الأثير، هو المنذر بن ماء السماء في موقعة مرج حليمة، ويذكر: أن عمرو بن المنذر (عمرو بن هند) هو عمرو بن كلثوم التغلبي.

هذا ويذكر: أن علاقة المنذر بن الحارث لم تكن حسنة مع الامبراطور البيزنطي جستين (٥٦٥ ـ ٥٧٨م)، بل كانت سيئة، حيث يذكر: أن الامبراطور الروماني كان قد أوعز إلى البطرياك (مرقيانوس) بأن يعمل على قتل المنذر بن الحارث، في الوقت، الذي كان فيه المنذر على حذر من خصمه، ويذكر: أن سبب هذا الخلاف كان في تعصب المنذر للمذهب اليعقوبي الوارد الذكر، ففرَّ إلى البادية، وشق عصا الطاعة مدة ثلاث سنوات. خلال هذه المرحلة انتهز المناذرة اللخميون الفرصة، وأخذوا يشنون الغارات على سورية، وأفسدوا فيها. كل ذلك فرض على الروم استرضاء المنذر بن الحارث[3]، وتم الصلح بينهما في بلدة الرصافة.

بعد ذلك قام المنذر بن الحارث بزيارة الإمبراطور الجديد طيباريوس الثاني، الذي حكم في (٨ آذار ٥٨٠م)، وبرفقته ابنان له، وهناك استقبل استقبالاً حاراً، وأنعم عليهم كما يذكر نولدكه[4] بالتاج بدلاً من الإكليل.

ثم إن الخلافات عادت بين الملك المنذر بن الحارث والروم، عندما عزم الروم على غزو إحدى ولايات فارس سنة (٥٨٠م) بالاشتراك مع المنذر، وفي طريقهم وجدوا الجسر الكبير المقام على نهر الفرات مهدماً، فاضطر الجميع إلى العودة، ورأى البيزنطيون أن في الأمر تواطؤاً، لكن الملك المنذر حتى يثبت براءته قاد قواته، وأغار على بلاد اللخميين، وأحرق الحيرة، فأطلق عليه لقب المحرق، فعدّ الروم هذا العمل تحدياً لهم، فقرروا الانتقام منه، فصدرت الأوامر إلى حاكم

---

[1] ابن الأثير: ج١ ـ ص٢٢٦.

[2] ابن قتيبة: المعارف ص٢١٨.

[3] نولدكه: ص٢٥، ٢٦.

[4] المرجع نفسه: ص٢٦.

سورية الروماني (ماجنوس) بالقبض عليه، مع ابنين له وزوجته، وأرسلوا إلى القسطنطينية.

عندما تولى السلطة الرومانية (موريق)، الذي حكم من (٥٨٢ ـ ٦٠٢م)، وكان على خلاف مع المنذر بن الحارث، أمر بنفي المنذر إلى جزيرة صقلية، وفي الوقت نفسه أمر بقطع المعونة السنوية، التي كان يتم إرسالها إلى ملوك الغساسنة[1]، كان ما ورد من أسباب غضب الغساسنة، فخرج أولاد المنذر عن سلطة الرومان في سورية، فتركوا ديارهم، وتحصنوا بالبادية، واتخذوها مركزاً لشن الغارات على حدود سورية، حتى تعرضت بصرى لغاراتهم، فأثار هذا التصرف غضب الإمبراطور موريق، وأعد حملة، غايتها تأديب الغساسنة، وجعل قيادتها لحاكم سورية ماجينوس، وسيّر مع الحملة أحد أبناء المنذر، لكي يخلفه على حكم الغساسنة، لكن مهام هذه الحملة فشلت.

النعمان بن الحارث: يذكره الأصفهاني بأنه مُلِّكَ بعد أخيه الحارث، ثم هلك، وكان ملكه خمس عشرة سنة وستة أشهر، هذا ويذكر: أن الروم كانوا قد قبضوا عليه بالمكر والخدعة والدهاء، أرسل إلى القسطنطينية سنة (٥٨٣م)، وهنا يذكر نولدكه: أن الغساسنة بعد القبض على النعمان هذا، كانوا قد تفرقوا وانقسموا إلى خمس عشرة فرقة، لكل منها رئيس، ويذكر: أن الإخباريين كانوا قد اختلفوا في ذكر أسماء حكام الدولة الغسانية بعد المنذر، ومما لا شك فيه أن دخول الفرس لبلاد الشام سنة (٦١٣م)، وما يليها، كان قد أدى إلى القضاء على ملوك الغساسنة وتفرقهم.

يؤكد ذلك الأصفهاني بقوله عن الحارث بن جبلة: بأن مسكنه كان بالبلقاء[2]، ويقول عن جبلة بن الحارث: أن منزله كان بحارب[3]، وعن عمرو بن الحارث أنه نزل السدير[4]، وعن جبلة بن النعمان بأن منزله كان بصفين[5]، وعن الحارث بن جبلة أنه سكن الجابية[6]، وعن الأيهم بن جبلة بأنه صاحب تدمر وقصر بركة[7]، وهذا ما يؤكد تفرق الغساسنة وتشتتهم.

---

[1] أسد رستم : الروم في سبا نسبهم وحضارتهم ودرسهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ طبع لبنان ـ ج١ ـ ص٢٠٥.

[2] الأصفهاني: ص ١٠٠.

[3] المرجع نفسه: ص ١٠٠.

[4] المرجع نفسه: ص ١٠١.

[5] المرجع نفسه: ص ١٠٢.

[6] المرجع نفسه: ص ١٠٣.

[7] المرجع نفسه: ص ١٠٣.

أما الأصفهاني، فيتابع سرد بقية ملوك الغساسنة على النحو التالي، حيث يذكر الملك المنذر ابن الحارث، أو المنذر الأصغر أبا شمر بن الحارث، ثم مات بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، حكم بعده جبلة بن الحارث، حيث كان منزله بحارب، وهناك بنى قصر حارب ومحاربا ومنيعه، ثم مات بعد أن حكم أربعاً وثلاثين سنة، وما أورده الأصفهاني يؤكد تشتت الغساسنة وضعف نفوذهم. حكم بعده حسب أخبار الأصفهاني الأيهم بن الحارث، وقد حكم ثلاث سنوات، وبنى الأديار، حكم بعده أخوه عمرو بن الحارث بن مارية، حيث نزل السدير، وبنى قصر منار وقصوراً أخرى، ثم مات بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة وشهرين.

حكم بعده جفنة الأصغر بن المنذر بن الحارث، حيث يذكره الأصفهاني: بأنه هو الذي أحرق الحيرة، وبه سموا آل محرق، وقد ذكر ذلك فيما ورد، حكم ثلاثين سنة. حكم بعده النعمان ابن المنذر الأصغر بن المنذر الأكبر، حكم سنة. حكم بعده النعمان بن عمرو بن المنذر، ويذكره الأصفهاني، وقد بنى قصر السويداء، وقصر حارم، حكم سبعاً وعشرين سنة. حكم بعده جبلة بن النعمان، وكان منزله بصفين، وذكره الأصفهاني: بأنه هو صاحب عين اباغ، وقاتل المنذر بن ماء السماء، حكم ست عشرة سنة. حكم بعده النعمان بن الأيهم بن الحارث إحدى وعشرين سنة. حكم بعده الحارث بن الأيهم مدة اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر. حكم بعده النعمان بن الحارث ثماني عشرة سنة، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة.

حكم بعده المنذر بن النعمان مدة تسع عشرة سنة. حكم بعده أخوه عمرو بن النعمان مدة ثلاث وثلاثين سنة وأربعة أشهر. حكم بعده أخوه حجر بن النعمان مدة اثنتي عشرة سنة. حكم بعده الحارث بن الحجر مدة ست وعشرين سنة. حكم بعده جبلة بن الحارث مدة سبع عشرة سنة وشهر، حكم بعده الحارث بن جبلة (الحارث بن أبي شمر). كما ذكره الأصفهاني وقال عنه: بأنه هو الذي أوقع ببني كنانة، وكان يسكن الجابية، حكم مدة إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر.

حكم بعده النعمان بن الحارث، وكنيته أبو كرب مدة سبع وثلاثين سنة وشهرين. حكم بعده المنذر بن جبلة مدة ثلاث عشرة سنة. حكم بعده أخوه شراحيل بن جبلة مدة خمس وعشرين سنة وثلاثة أشهر. حكم بعده أخوه عمرو بن جبلة مدة عشر سنين وشهرين. حكم بعده جبلة بن الحارث مدة أربع سنين، ثم جبلة بن الأيهم بن الحارث بن مارية، وهو آخر ملوك غسان، حكم مدة ثلاثين سنة، وروي عنه إسلامه وارتداده. أخيراً يذكر الأصفهاني: أن جميع ملوك بني جفنة من آل غسان اثنان وثلاثون ملكاً، حكموا (مدة ٦١٦ سنة).

أما ملوك الشام من آل غسان عند اليعقوبي[1] فهم: ١ـ جفنة بن علية بن عمرو بن عامر. ٢ـ الحارث بن مالك بن الحارث بن غضب بن جسم الأزدي. ٣ـ الحارث الأكبر كعب بن علية وهو ابن مارية بنت عاديا بن عامر. ٤ـ الحارث الأعرج نزل الجولان. ٥ـ الحارث الأصغر. ٦ـ جبلة بن المنذر. ٧ـ الحارث بن جبلة، ٨ـ الأيهم بن جبلة. ٩ـ جبلة بن الأيهم. إذاً يختلف اليعقوبي عن حمزة الأصفهاني في عدد الملوك وبكثير. علماً أن اليعقوبي يعتبر أقرب إلى الحقيقة من الأصفهاني.

حضارة الغساسنة :

يذكر المسعودي: أن ديار الغساسنة كانت تمتد ما بين الجولان واليرموك، كما كانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجلّق، وكانت الجولان قاعدة للغساسنة ومعسكراً لهم في بلاد الشام، واتخذ الغساسنة الجابية مركزاً لإمارتهم. إذاً كانت للغساسنة حضارة مزدهرة، ففي مجال الزراعة اشتغل الغساسنة بالزراعة، حيث استغلوا مياه حوران، التي تدفقت من أعالي الجبال، فغمرت القرى والضياع. وكان اهتمامهم بالبنيان أعظم، فعلى الرغم من إقامتهم في البوادي، فإنهم أقاموا الكثير من الأبنية من قصور وقناطر وأبراج وغيرها. هذا وينسب الأصفهاني إلى ثلاثة عشر أميراً منهم تشييد القصور والأبنية العامة، وهم على التوالي: جفنة بن عمرو: بنى جلق وعدة مصانع. ثعلبة بن عمرو: بنى عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء. جبلة بن الحارث: بنى في فترة ملكه القناطر وأدرج القسطل. الحارث بن جبلة: كان مسكنه في البلقاء، بنى فيها الحفير ومصنعه بين دعجان وقصر أبير ومعان. المنذر بن الحارث: بنى حوبا وزرقا قريباً من الغدير. جبلة بن الحارث: كان منزله بحارب، بنى قصر حارب ومحاربا ومنيعه. الأيهم بن الحارث: بنى الأديار (دير ضخم - دير النبوة وسعف). عمرو بن الحارث: نزل السدير، وبنى قصر الفضا، وصفات العجلات وقصر منار. النعمان بن عمرو: بنى قصر السويداء وقصر حارب. النعمان بن الحارث: أصلح صهاريج الرصافة. الأيهم بن جبلة: هو صاحب تدمر وقصر بركة وذات انمار والموقع بين القبرين جسر وعامله. ومن الأبنية الأخرى، التي أنشأها الغساسنة، ولم يذكرها إلا الأصفهاني، قصر المشتى، الذي ذكر: أنه كان بناءً متأثراً إلى حد كبير بفن العمارة الساسانية، وقلعة القسطل المجاورة لهذا القصر. هذا ويذكر: أن بقايا آثار الغساسنة في الشام

---

[1] اليعقوبي : ج١ - ص٢٠٧.

كانت أكثر تأثراً بالفنون الساسانية منها بالفنون البيزنطية.

هذا وقد وصف الشاعر حسان بن ثابت، وهو شاعر مخضرم مجلساً من مجالس آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الأيهم، فقال: لقد رأيت عشر قيان، خمس روميات، يغنين بالرومية بالبرابط، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة، أهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب، فرش تحته الآس والياسمين، وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأوقد له العود المندى، إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بطن بالثلج، أتى هو وأصحابه بكساء صيفي يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه، لا والله ما جلست معه يوماً إلا خلع على ثيابه، التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حلمٍ عمن جهل، وضحك وبذل من غير مسألة، مع حسن وجه وحسن حديث[1].

---

[1] أحمد أمين : فجر الإسلام - ص٢١.

الفصل السابع

القدس

القدس

أقيمت مدينة القدس، التي يبلغ ارتفاعها (٨٩٢م)، على أربعة جبال، **الأول:** جبل موريا (المختار) القائم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، **والثاني:** جبل صهيون (جبل النبي داوود)، ويعني جبل المشمش، ارتفاعه (٧٧٠م)، **والثالث:** جبل أكرا، حيث توجد فيه كنيسة القيامة، **والرابع:** جبل بزيتا. ويحيط بالقدس عدة جبال، أهمها:

ـ جبل رأس أبو عمار، ارتفاعه (٧٢٢م) ـ جبل الزيتون (الطور) ارتفاعه (٨٢٦م). كما ويحيط بها عدة تلال أهمها: تل القول ارتفاعه (٨٣٩م)، تل الكابوس، وتل القرين، تل صرعة، تل شلتا. أما أهم الأودية الموجودة حولها، فهي وادي جهنم، وادي الجوز، وادي القلط، الوادي الكبير، وادي فلك ـ وادي الملوك ـ وادي النار ـ وادي زيتا، وغير ذلك من الوديان. أما موارد المياه في هذه المدينة فكانت نادرة، حيث وجدت عيون وينابيع قليلة منها: عين سلوان ـ عين أم الدرج.

عندما احتلها الرومانيون، فكروا في إمدادها بماء العروب، لذلك أنشؤوا القناة الرومانية. ونظراً لأهميتها التجارية، كان لها طريقان[1] من أهم طرق التجارة، **الأول:** يربط البحر بالصحراء، **والثاني:** يربط حبرون (الخليل) ببيت آيل، ومن بيت آيل يسير في اتجاهين، أحدهما: نحو شكيم (نابلس)، والآخر: إلى أريحا ووادي الأردن. أخيراً يذكر: أن اليبوسيين كانوا قد سكنوا مدينة القدس منذ أقدم العصور، وذكر أيضاً: أنهم من أصل كنعاني، وذكر: أن يبوس كان لها أهمية دينية قبل وجود اليهود بزمن طويل.

واليبوسيون هم أول من بنى مدينة القدس في عهد الملك (ملكي صادق)، وأول اسم أطلق عليها كان: يبوس، وقيل: إن أول من بناها هو إيلياء بن ارم بن سام بن نوح، وهو أخو دمشق وحمص والأردن وفلسطين، وسميت هذه المدينة باسم إيلياء، ومعنى أيل (بيت الله). وسميت القدس

---

[1] عارف العارف: تاريخ القدس ـ طبع دار المعارف بمصر ـ ص١٢.

باسم أورشليم. يقول الدكتور فيليب حتي[1] : بأن أصل الاسم من الكنعانية بأورشالم، بمعنى دع شالم يؤسس، وكان شالم إله السلام عند الكنعانيين، ما ورد يؤكد أن اسم أورشليم كان معروفاً وموجوداً قبل الإسرائيليين، وأطلق عليها اليهود اسم: صهيون[2].

وسماها الامبراطور الروماني أدريانوس سنة (١٣٩م) باسم (إيليا كابتو لينا)، وعرفت باسم: إيلياء بيت الله حتى التحرير العربي الإسلامي، وفي ذلك الحين عرفت باسم بيت المقدس، واقتصر اسمها على القدس، وفي النهاية إن هذه المدينة موغلة في القدم، وليس من السهل معرفة أصل بانيها، وقد هدمت خلال تاريخها كثيراً، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة في التاريخ، وهي مقدسة عند جميع الشعوب ذات الديانات السماوية الثلاثة.

إذن المعروف أن اليبوسيين هم بناة القدس، واليبوسيون عرب نشؤوا في قلب الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية، واستوطنوا أرض فلسطين قُرابة عام (٣٠٠٠ ق.م)، وبنوا مدينة القدس، وأسسوا حضارة في فلسطين، وكانت يبوس (القدس) عنوان تلك الحضارة، ومن ملوك اليبوسيين الملك (سالم اليبوسي) المعروف باسم (ملكي صادق)، حيث بذل جهداً كبيراً في سعة عمران هذه المدينة، وأقام هذا الملك على جبل صهيون، أحد الجبال الثلاثة، التي أقيمت عليها مدينة القدس، برجاً للدفاع عن المدينة في حال مهاجمتها، وفي عهده كان لليبوسيين في القدس حكومة ذات نظام اجتماعي وصناعي وتجاري.

ولغة اليبوسيين كنعانية، إلى أن سيطر البابليون على المنطقة، فأصبحت اللغة البابلية هي السائدة، إلى أن دخلها الفرس، وسيطروا عليها. أما عبادتهم فكانت الأصنام، أهمها: (بعل)، الذي كان يعني عندهم الرب. في هذه المرحلة وجد العبرانيون، وأخذوا يغزون القدس، فاستنجد اليبوسيون بفراعنة مصر، وبذلك دخل اليبوسيون تحت سلطة الفراعنة، وتأثروا بالحضارة الفرعونية، ولم يأتِ الإسرائيليون إلى القدس إلا بعد مئات القرون من إنشائها على يد اليبوسيين.

عند الحديث عن تاريخ بلاد الشام، نرجع بشكل مباشر إلى الهجرات العربية، التي انطلقت من الجزيرة العربية إلى المنطقة، علماً أن الآثار المكتشفة في هذه الأرض تعود في بعضها إلى مرحلة ما قبل التاريخ بزمن بعيد وبعيد جداً، أما عند الحديث عن الإسرائيليين من وجهة نظر التوراة

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية - طبع بيروت - ج١ - ص٧٣.

[2] مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل - ج١ - ص٧٠٦.

فنرجع إلى عهد النبي إبراهيم الخليل.

مع العلم أن هناك أسماء كثيرة لهذه الشعوب، التي سكنت بلاد الشام، ومع أن أصلها واحد، فنحن نتساءل: لماذا أحدثت مثل هذه التسميات؟ كان هناك أسباب لمثل ذلك، إما أنها تسمت بأسماء زعماء هذه الهجرات كالآشوريين مثلاً نسبة إلى آشور، أو الكنعانيين نسبة إلى كنعان أو غير ذلك. أو أنها سميت بأسماء المناطق، التي سكنوها، كالحماتيين نسبة إلى حماة أو الأروادين نسبة إلى أرواد، أو الأوغاريتيين نسبة إلى أوغاريت، أو الإيبلائيين نسبة إلى إيبلا، أو البابليين نسبة إلى بابل، وغير ذلك. وقد يكون الاثنان معاً اسم العلم مع اسم المكان، هو اسم الشعب، مثل الآشوريين اسم علم واسم مكان، وغير ذلك كالكنعانيين وغيرهم. علماً أن أصل هذه الشعوب منذ البداية واحد، وبما أن بلاد الشام لم تشكل في الماضي السحيق دولة موحدة لها مقوماتها، لذلك بقيت فيها دولة المدينة، مما ساعد الدول المجاورة لاجتياحها من حين لآخر.

وبقيت بلاد الشام مسرحاً لصراع هذه الدول المجاورة لفترة طويلة، فمن كان يملك المقومات الأساسية كان يحتل هذه البلاد، فيستفيد منها، ومن حضارتها، بالمقابل كانت هذه البلاد تخضع لحضارة هذه الشعوب، وقد تصبغها بصبغتها لبعض الوقت، فمثلاً: إن علماء الآثار كشفوا عن قصر (أحاب)، الذي بناه في السامرة، والمعروف أن الآشوريين كانوا قد دمروا مدينة السامرة سنة (٧٢١ ق.م)، وأن النيران التهمت القصر. ونتيجة البحث والتنقيب يقول فراس السواح: « تبين من الدراسة الغنية لعاجيات السامرة أنها كانت تنتمي إلى المدرسة الفينيقية، وتربطها صلات قربى واضحة مع منحوتات مماثلة، عثر عليها في أنحاء متفرقة من سورية، وخصوصاً في موقع (أرسلان طاش) أي حداتو القديمة في الشمال السوري »[1].

وقال: وعاجيات السامرة تنتمي إلى تقليد فني سوري مغرق في القدم، كان شائعاً في كل المراكز الحضرية في بلاد الشام، وأقدم أمثلة عليه جاءتنا من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من جبيل ومن إيبلا ومن الآلاخ، وفيما بعد أفاضت تنقيبات أوغاريت بمجموعة ضخمة من هذه العاجيات. لنعد الآن إلى تاريخ الإسرائيليين. فإبراهيم الخليل هو إبراهيم بن تاريخ (آزر) ابن ناحور بن قالج بن عابر الكلداني، ينتمي نسبه إلى سام بن نوح، ولد، كما يروى سنة (١٩٦٨ ق.م) في أواخر عهد الملك الآشوري نينوس بن يالوس، الذي بنى مدينة نينوى، والذي

---

[1] فراس السواح: الحديث التوراتي والشرق الأدنى القديم - ص١٦٣.

كانت زوجته تدعى سميراميس. وعندما تولى الملك زاميس بن نينوس (أشمعرام) السلطة، نشأ النبي إبراهيم الخليل في عهده، وفي هذا العهد كانت قصة النبي إبراهيم، التي وردت في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عابدون إلى قوله تعالى: ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها العالمين »[1].

في هذه الآيات يخاطب النبي إبراهيم أباه وقومه سائلاً سؤال العارف عن الأصنام، التي يعبدونها، فكان الرد: أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها، فحاول أن يظهر لهم حقيقة هذه التماثيل، وأنهم على ضلال، وأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وعندما لجوا في طغيانهم، قرر تحطيم هذه الأصنام، وفعلاً فعل ذلك، إلا أنه ترك كبير هذه الأصنام، وعندما عرف قومه بما حدث، حاكموه على أعين الناس.

وقال لهم بعد أن سألوه: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟! فأجاب: اسألوا أكبرهم، فهو يجيبكم، إن كانوا ينطقون، فقالوا له: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، فأجابهم: كيف تعبدون ما لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون، وبعد أخذٍ وردٍ قرروا معاقبته، فقالوا: أحرقوه، وانصروا آلهتكم، فكان الله لهم بالمرصاد وكانت النار برداً وسلاماً. ثم بعد ذلك هاجر، ومعه لوط إلى أرض مباركة، فيها أمانة وسلامة، حيث توفي، كما يروى سنة (١٧٩٢ ق.م) عن عمر يناهز (١٧٥) سنة، ودفن في مغارة المكفيلية، أي أنه كان معاصراً للملك الآشوري شمس ادد الأول، الذي حكم من (١٨١٤ ـ ١٧٨٢ ق.م)، كما كان معاصراً لحمورابي البابلي (١٩٧٣ ـ ١٧٥٠ ق.م).

ويعتقد: أنه عاش في عصر سلالة أور[2]، وهي سلالة أكادية، حكمت ما بين (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق.م) أو (٢١١٠ ـ ٢٠٠٣ ق.م) وقيل: (٢٠٥١ ـ ١٩٤٥ ق.م) حكموا أكثر من قرن. وملوكهم هم: **أورنمو**: حكم ثماني عشرة سنة (٢٠٥١ – ١٨ = ٢٠٣٣ ق.م)، **شلكي**: حكم ٤٧ سنة) (٢٠٣٣ – ٤٧ = ١٩٨٦ ق.م)، **أمرسونا**: حكم (٩ سنوات) وقيل: (٨ سنوات) (١٩٨٦ – ٩ = ١٩٧٧ ق.م)، **شوسن**: (جميل سن) حكم (٩ سنوات) وقيل: (٨ سنوات) (١٩٧٧ – ٩ = ١٩٦٨ ق.م)، **آبي سن**: حكم (٢٥ سنة) (١٩٨٦ – ٢٥ = ١٩٤٣ ق.م).

بنـاءً على هذا يكون إبراهيم الخليل معاصراً لآخر ملوك هذه الأسرة، وقد تكون ولادته في

---

[1] القرآن الكريم: سورة الأنبياء ـ الآيات من ٥٢ ـ ٧١.

[2] وديع بشور: سورية وقصة الحضارة ـ ص٢٠٢.

عهد شوسن (جميل سن). وأنا أميل للاعتقاد أن ولادة إبراهيم الخليل وحياته كانت في عصر أورنمو مؤسس هذه الأسرة، الذي امتاز بقدرة عسكرية وعمرانية واسعة، حيث ارتبط اسمه عند علماء الآثار ببناء الزقورات، والأبراج المدورة. (الزقورات بناء صلب من اللبن يتألف من عدة طبقات، يعلوها معبد صغير، يسمى المعبد العلوي، وبجانب سلم الزقورة معبد آخر، يسمى المعبد السفلي، ويحيط الكل فناء واسع، حوله سور، فيه حجرات).

وكانت هذه الزقورات تستعمل كمراصد للفلكيين، وأبراج، يقضي فيها الكهنة كل لياليهم بعيداً عن الحرارة والبعوض، وذكر عنها: أنها كانت جسراً، يصل بين المعبد السفلي، والمعبد العلوي، الذي يقع ما بين الأرض والسماء، حيث يلتقي البشر مع الآلهة في مناسبات خاصة، وقيل: إن الغاية منها كان رفع إله المدينة الرئيسي إلى مكان أعلى من أمكنة الآلهة الأخرى، وقيل: إنها بنيت على أشكال جبال اصطناعية، لأن الشعب هناك اعتاد على عبادة آلهته من فوق قمم الجبال، ثم إن ملوك هذه السلالة تلقبوا بالآلهة، وأبرز دليل على ذلك هو اقتران الشارة الإلهية بأسمائهم، وكان الملك في عصر هذه السلالة هو الإله الحامي لشعبه.

والذي يدفعني لهذا الاعتقاد أن معالم آشور التاريخية تحددت في عصر سلالة أور الثالثة، وتحديداً في عهد الملك أمرسونا، الذي حكم تسع سنوات، كما ذكرنا. في هذه المرحلة (العصر الآشوري القديم) كان الملك (زاريقوم) (أكيا) كاهناً آشورياً، وملكاً في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، في عهده برزت معالم آشور، وقيل: كان هذا الملك معاصراً للملك أمرسونا ثالث ملوك سلالة أور الثالثة، و(زاريقوم) هذا يذكر عنه: أنه كان أقدم ملك آشوري، ورد ذكره في أثر مكتوب، جاء بعده الملك (بزر آشور الأول)، الذي حكم نحو (١٩٥٠ ق.م). ومن هذا يذكر: أن جدول الملوك الآشوريين يطرد حتى نهايتهم، والمعلومات عن الآشوريين في هذه المرحلة قليلة. على هذا يكون إبراهيم الخليل معاصراً للملك الآشوري (زاريقوم و بزر آشور الأول)، الذي حكم حوالي (١٩٥٠ ق.م)، ومعلوماتنا عنه قليلة.

مهما يكن فقصة إبراهيم الخليل قصة حقيقية، إلا أنها في التوراة صورت، ورسمت، ومثلت بشكل مغاير للحقيقة التاريخية، التي تثبتها المكتشفات الأثرية يوماً بعد يوم.... [هكذا القدر أراد لهذا الكتاب المقدس أن ينتشر في غمرة ظلام الشرق الأوسط، إلى أن انبجست الدفائن الأثرية كالينابيع الحية بعد رقاد آلاف السنين. فانجلت الحقائق في كثير منها، ولا تزال. ومن جملتها ما تضمنه كتاب التوراة اليهودي من تراث، اختلس اليهود معظمه، لا بل قاعدته الفكرية الأساسية عن

التراث الكنعاني، وتبنوه وكأنه تراثهم الأصيل، إن العالم الأثري (ديل ميديكو)، الذي أعاد ترجمة ودراسة أدب أوغاريت الكنعاني، عبر نصوص أوغاريت المكتشفة، أزاح حجاب الغموض عن كتاب التوراة، لا بل فسّر المعجزة بقوله: إن التراث اليهودي مأخوذ في قسم منه عن التوراة الكنعاني، وفي قسم آخر عن تراث بلاد ما بين النهرين مختصاً بحيز يسير من التراث اليهودي][1].

تروي التوراة بما معناه: أن إبراهيم الخليل بعد أن ترك أور الكلدانية، ذهب إلى حاران بين النهرين واستقر هناك، لكن بعد أن مات أبوه، تذكر التوراة: أن الرب تراءى له، وأمره بقوله: اذهب من أرضك ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض، التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظّم اسمك. في هذا الكلام تأكيد على: أن إبراهيم، ومن معه، كانوا من بلاد الرافدين وتحديداً من أور الكلدانية، أي أنهم كلدانيون، وعند هجرتهم من حاران بعد أن سكنوها، كما يروى، لمدة تزيد على أربع عشرة سنة، أخذ إبراهيم سارة امرأته ولوطاً ابن أخيه، وكل مقتنياتهم، التي اقتنوها، والنفوس، التي امتلكوها في حاران.

إذاً كان برفقة إبراهيم زوجته (ساراي) ولوطاً أي ثلاثة. وما امتلكوا. ثم أضيف إلى ذلك النفوس، التي امتلكوها، فالنفوس هنا لا تعني البشر، كما أرى، وإنما تعني ما امتلكوا من حيوانات أثناء إقامتهم في حاران، لأنهم عندما فرّوا من أور كانوا لا يمتلكون شيئاً، على هذا يكون عددهم ثلاثة، كما ورد. وفي اعتقادي أنهم لو كانوا عدداً كبيراً، لكانوا تعرضوا إلى مضايقات كثيرة خلال هجرتهم، مثل القتل والسلب والنهب والتشتت. إلا أن عددهم القليل كان عاملاً مهماً ومساعداً لهجرتهم، ووصولهم إلى أرض الكنعانيين.

وفي طريق إبراهيم الخليل إلى أرض كنعان مرّ بمكان اسمه: (شكيم)، وشكيم هذه بلدة قديمة، كانت تقع بجوار نابلس الآن شمالي القدس. ومنها إلى بلوطة مورة. في هذا الوقت كان الكنعانيون هم أصحاب أرض فلسطين، وحكامها، كما تذكر التوراة في هذه المنطقة أنه بنى مذبحاً للرب، بعد أن تجلى الرب له، ووعده بقوله: (لنسلك أعطي هذه الأرض)، أي أن الله وعده، كما تروي التوراة، أن نسله سوف يسحق الشعب الكنعاني، ويدمره ليحل محله، كيف يكون هذا؟ وكيف يقبله أي إنسان يؤمن بالعدالة الإلهية؟ والأحرى برواة التوراة أن يقولوا: إن نسلك سوف يعيش بأمان في هذه الأرض، وإن بعض أحفادك سيتفاعلون مع شعب هذه الأرض، وينفعلون بها، وقد

---

[1] تأليف رئيس كهنة أوغاريت: إيلي ميلكو عن التوراة الكنعانية للعالم ـ هـ ـ ي ـ ديل ميديكو ـ اللاّكيّ ـ من الأدب الأوغاريتي ـ طبع لبنان ١٩٨٠ ـ م المقدمة ـ ص٨.

يصبح بعض أحفادك حكاماً لهذه الأرض وقد يصبح شعبها، الذي أصبح نسلك، جزءاً منهم. وهذا أقرب إلى الواقع والحقيقة.

وبعد إجراءات، أقامها إبراهيم الخليل في المنطقة، كنصب خيمة في بيت أيل (بالقدس)، وأعمال أخرى، ارتحل نحو الجنوب. خلال هذه المرحلة حدث جوع وقحط في الأرض، مما اضطر إبراهيم إلى مغادرة أرض كنعان، والتوجه إلى مصر، وفي طريقه إلى مصر قال لزوجته (سارة)، كما تروي التوراة: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، ولو رآك المصريون لقالوا: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي، ليحدث لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك. وحدث، كما تروي التوراة: أن الفرعون سنوسرت الثاني (١٩٠٦ ـ ١٨٨٣ ق.م) أخذ (سارة) نظراً لجمالها، وأعطى إبراهيم الغنم والبعير والحمير والعبيد والإماء والجمال مقابل هذا الزواج. لكن عندما عاد إلى القدس، ومعه لوط، ومن معه، كان غنياً جداً بالمواشي والفضة والذهب.

لو عدنا، لما ورد مع معرفتنا بالنبي إبراهيم الخليل، وكيف كان بأور الكلدانية؟ وكيف دمر آلهة أور؟ وكيف حاورهم؟ بأن هناك إلهاً واحداً، بعد تساؤلات عديدة، كان قد رآها كالكواكب والقمر، ورفضه لعبادتها، وقوله أخيراً: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، وغير ذلك، ومحاولة إحراقه بالنار، والتي كانت برداً وسلاماً عليه، ومغادرته المنطقة، وارتحاله، كما ورد إلى أرض كنعان.

كيف نقبل لنبي الله إبراهيم الخليل قوله لزوجته (سارة) أن تكذب على المصريين، وتقول لهم إنها أخته؟ وهو يعلم أنها ستتزوج من غيره، وهو يعبد الله الواحد القهار[1]؟! وكيف يسمح لها بذلك؟ لا بل يأمرها، وهي أيضاً المؤمنة بدين إبراهيم الخليل أن تتزوج بأعداء هذا الدين، كيف خاف على حياته من المصريين بهذا الشكل؟ واسترخص الموت في أور الكلدانية، في سبيل إثبات أن هناك إلهاً واحداً! وأن أصنامهم، التي كسرها، وأعابها، لا تغني، ولا تفيد؟ كيف بقي يدافع عن عقيدته؟ وهو يعلم أن عدوه سيقتله بالنار، كيف كانت هناك حياته رخيصة في سبيل إثبات معتقداته؟ وكيف انعكس الوضع عند المصريين، حين استرخص القيم الاجتماعية من جهة، وخالف بعض معتقداته حباً بالحياة، من جهة ثانية، إن هذا لن يكون، ولن يقبل به العقل.

ويذكر: أن هجرة إبراهيم الخليل إلى مصر كانت سنة (١٨٩٢ ق.م) أي في عهد الملك

---

(١) سليم حسن: مصر الفرعونية ـ العصر الذهبي ج٣ ـ طبع مصر ١٩٩٢ ـ ص٢٦٩.

الفرعوني سنوسرت الثاني (١٨٩٨ ـ ١٨٧٩ ق.م)، والتاريخ المصري لا القديم، وما نتج عنـه، ولا الحديث، يذكر هذه الهجرة حتى هذا الوقت، مما يجعلنا نعتقد: أن هذه الهجرة لم تتجاوز سيناء. وفي هذا المجال يذكر السيد سليم حسن منظر العامو (يقصد بهم المهـاجرين الساميين من الصحـراء إلى مصر) الوافدين إلى مصر بالجزية في عهد الفرعون سنوسرت الثاني، يقـول: « نشـاهد ختـوم حتـب يستقبل جماعة من العامـو سكان الصحـراء الشرقية، ويبلغ عددهم سبعة وثلاثـين محملـين بالجزيـة من الكحل، وأشكال هـؤلاء الأجـانب وزيّهـم على جـانب عظيـم من الأهميـة... وقـال: كـان يتقدمهم رئيسهم ومعه غزال، واسم هذا الرئيس (أباشا)، ويحمل لقب (حاكم البلاد الأجنبية) »[1].

وذكر: أن هؤلاء هم من الهكسوس، الذين غزوا مصر، فيما بعد، ومن الوصف لهؤلاء ولباسهم، واستقبال السلطات المصرية لهم رسمياً، وما يحملون من الجزية، لا يتفق في شيء مع هجرة إبراهيم الخليل إلى مصر مع لوط و(سارة) وأمتعتهم فقط. كما كـان (العـامو) يرتـدون زيـاً اتصـف بالرسمي والحضاري آنذاك، على خلاف سيدنا إبراهيم الخليـل، الذي كانـت هجرته نتيجة القحـط والفقر.

ومهما يكن، فلا ننكر هذه الهجرة، وقد تكون حدثت إلى العاصمة المصرية، حيـث السـلطة المركزية، أو أي جهة أخرى تابعة للدولـة الفرعونيـة، وأقصـد سيناء، إلا أننـا نستنتج عـدم صحـة أحداثها نتيجة عدم انطباقها لا مع الحقيقة، التي تعتمد العقل، ولا مع الواقع.

إذن عاد إبراهيم إلى القدس، وعاد أيضاً لوط، وكان له غنم وبقـر وخيـام، وكـان لإبراهيـم المواشي والفضة والذهب. لو حكّمنا العقل في رحلة إبراهيم، كما تروي التوراة، للاحظنا أن الرحلة إلى مصر كانت نتيجة القحـط، وأيضـاً كانـت هجرتـه ومـن معه أو فـرارهم مـن أور أو طردهـم من هناك نتيجة الخوف من السلطات الكلدانية.

من هذا نستنتج: أنهم كانوا فقراء من الناحية المادية، لا يملكون إلا العقيدة الربانية الراسخة، وفي حرّان بقوا فترة زمنية، قيل عنها إنها كانت أربع عشرة سنة، وإن إبراهيم وزوجته كانا في سـن متقدمة من العمر، لا يسمح لهم بالعمل المتواصل، فمعنى هذا أن ممتلكاتهم المادية كانت عادية، ولم يكن همّ النبي إبراهيم إلا إثبات عقيدته ونشرها بين النـاس، أمـا المادة، كما أرى، فلـم تكـن همّـه، ولا همّ من آمن به.

---

[1] سليم حسن: مصر الفرعونية ـ العصر الذهبي ج٣ ـ طبع مصر ١٩٩٢ ـ ص٢٦٩.

من هذا كيف تذكر التوراة: و لم (تحتمل الأرض أن يسكنا معاً) إذا كانت أملاكهما كثيرة؟ فلم يقدر إبراهيم ولوط أن يسكنا معاً. فانفصل لوط عن إبراهيم الخليل نتيجة لذلك، واتجه إلى الأردن، بينما بقي إبراهيم في أرض الكنعانيين، نلاحظ أن التوراة في سفر التكوين قليلاً ما تذكر إبراهيم كنبيّ، له شريعة، همه تحقيقها وإيمان البشر بها، وأيضاً لوط، كلنا نعلم: أن ا لله أرسله إلى قومه رسولاً، ومعروفة قصته ورغم تأديته رسالته، نلاحظ: أنه لم يكن في قومه من آمن به، حتى أن امرأته كانت معادية له، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم.

إن بيت لوط هو الوحيد، الذي أنجاه ا لله من تدمير هذا الشعب، وحتى من بيت لوط لم تستثن امرأته، أي أن كل ما تبغيه التوراة مُركّز على النواحي المادية البحتة، وزرع بعض المفاهيم، التي تجعل من إبراهيم رجلاً، همّه السيطرة على الأرض، وطرد الشعب الكنعاني، والبحث عن المادة، وهذا يناقض كونه نبياً مرسلاً من ا لله، جاء لزرع رسالته في النفوس البشرية والسمو بها، والابتعاد عن المادة، وما تسببه للنفس من الانغماس في ملذات الدنيا، وقليلاً ما يرد عكس ذلك، والغريب أن التوراة تجعل له نسلاً من أهل بيته، قبل أن تلد زوجته هاجر وزوجته (سارة)، كما سيرد، حيث تذكر التوراة أنه استطاع جمع (٣١٨) رجلاً متمرنين. هذا ما تقوله التوراة عندما سبي لوط في سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر.

فلما سمع إبراهيم أن أخاه سبي، جرّ غلمانه المتمرنين وولدان بيته ثلاث المئة والثمانية عشر، بأي منطق يصبح أهل بيت إبراهيم (٣١٨) رجلاً، علماً أن إبراهيم حتى ذلك الوقت لم يكن قد ولد له ولد، لأن التوراة تذكر ولادة إسماعيل من هاجر، تذكرها في الإصحاح السادس عشر، حيث يولد له إسماعيل من هاجر وإسحاق من ساراي. وقبل أن يولد لإبراهيم أي ولد كان الرب قد قطع مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً (لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات).

الحقيقة الصعبة تكمن، فيما ورد، لماذا هذا الإلحاح من الرب العظيم على نبيه إبراهيم الخليل بأن هذه الأرض ستكون لنسله، إنّ هذا الإلحاح من رواة التاريخ التوراتي، وليس كما يدعون من أنها وعد رباني. أليس إبراهيم أبا الأنبياء؟ فموسى وعيسى ومحمد وغيرهم، أليس هؤلاء الأنبياء أصحاب الرسالات السماوية هم من نسل إبراهيم؟ لماذا رواة التوراة خصوا بني إسرائيل (اليهود الصهاينة) بهذه الأرض دون غيرهم.

وإذا كان هذا وعد الرب حقاً، فلماذا استبعد اليهود عنها من السبي إلى منتصف القرن العشرين؟ هل قال الله تعالى شيئاً دون أن يتحقق؟ وهو الواحد القهار، الذي إذا قال للشيء كن فيكون، إذن ما تذكره التوراة من إعطاء نسل إبراهيم هذه الأرض، وتأكيد ذلك في التوراة على لسان الله تعالى مغالطة وتزييف للحقيقة.

فالحقيقة إلى (نسلك أعطي هذه الأرض) هي حقيقة، إذا قلنا إلى العرب كل العرب (مسلمين، مسيحيين ويهود) أعطي هذه الأرض، وهكذا يتحقق قول الله تعالى، ونسل إبراهيم الخليل هم شعب هذه الأرض، هم العرب، وهم سكانها قبل إبراهيم الخليل، وبقوا سكانها إلى الآن وإلى الأبد رغم العنصرية الصهيونية، ومن يدعمها من العالم، والحقيقة التاريخية، والآثار المكتشفة، والنصوص المدونة عليها، والتي وجدت على هذه الأرض تؤكد يوماً بعد يوم زيف المزاعم الصهيونية من جهة، كما تؤكد على أن تاريخ الإسرائيليات في التوراة ما هو إلا محض افتراء وكذب.

هذا وتذكر التوراة: أن (ملكي صادق) كان حاكماً للقدس، وملكي هذا هو الملك اليبوسي، الذي وصف: بأنه كان صادقاً محباً للأمن والسلام والمحبة، ومن خلال صفاته الواردة الذكر، كانت الدولة اليبوسية تستوعب المهاجرين بالحب والصدق، تتعامل معهم، يندمجون معها يتعاملون معها، وينفعلون بها، كل شعوب المنطقة اندمجت مع بعضها بعضاً، إلا رواة تاريخ التوراة رفضوا وبتخطيط مسبق اندماج الإسرائيليين الصهاينة في الشعب اليبوسي، أو الكنعاني، رفضوا أن يدونوا في تاريخهم إلا العنصرية، وتزييف الحقائق، ونسج أساطير وهمية، وهذا واضح في تاريخهم وحياتهم اليومية إلى الآن.

وهنا تذكر رواية التوراة عن النبي لوط: فبعد أن دمر الله قومه، وبقي مع ابنتين له، تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر ما معناه: إن ابنة لوط البكر قالت لأختها: هلمّ نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، وتم لها ذلك، هذه الرواية تدل على الفسق والفجور، وهذا ما لا يجوز أن يلطخ به النبي لوط، وهو أسمى من أن ننسب له هذه الأعمال غير الإنسانية، لكن رواة التوراة، وما جبلوا عليه من غدر ومكر ورذيلة، لم يتورعوا عن مثل هذه الأعمال حتى لأنبيائهم. وهم المعروفون بقتلهم الأنبياء، عندما كانت شرائعهم تعترض سياستهم الماكرة، وقصة المسيح خير دليل على ذلك.

وتروي التوراة انتقال إبراهيم الخليل إلى منطقة جرار[1] في سفر التكوين الإصحاح العشرين، وتتكرر قصته مع زوجته (سارة)، وقوله لها: قولي لهم أنت أختي، تحيا نفسي بسببك، وتتكرر مع ابنة إسحاق وزوجته. ومات[2] إبراهيم الخليل سنة (١٧٩٢ ق.م)، ودفن بمغارة المكفيلية في مدينة أربع، التي سميت حبرون، وتعرف الآن باسم الخليل. في هذه المرحلة كان غزو الهكسوس لمصر سنة (١٧٥٦ ـ ١٥٦٨ ق.م). وحكموا (١٨٨ سنة)، وفي عهد الجناس (أبي خنس ـ تب خيش رع) (١٧١٥ ـ ١٦٨٨ ق.م)، نزل يوسف إلى مصر، وقيل: إن عزيز مصر اشتراه سنة (١٦٩٩ ق.م).

تزوج إسحاق رفقة بنت بتونيل الآرامي العربي، وولد له ولدان، الأول: اسمه عيسو (أدوم[3])، والثاني: يعقوب، فولد له اثنا عشر ولداً، ومن الزوجة الثانية، واسمها: (ليئه) ستة أبناء، ومن الزوجة الثالثة (بلهة) اثنان، ومن الزوجة الرابعة (زلفة) اثنان. ومن راحيل وهي الزوجة الأولى اثنان، وهما: يوسف وبنيامين، وهما أصغر أولاده. وقصة يوسف في القرآن الكريم واضحة، ولد سنة (١٧١٦ ق.م)، وكان أبوه يعرف بحبه له، ثم رأى أحلاماً، لا داعي لذكرها، لأنها أشهر من أن تعرف، وهي مذكورة في القرآن الكريم، وفي كتب التاريخ، كما وردت في التوراة، وكيف رماه إخوته في البئر؟ وكيف انتشل؟ وكيف بيع إلى عزيز مصر؟

كان يوسف حسن الصورة والمنظر، وقصته مع امرأة العزيز أيضاً معروفة، وكيف أدخل السجن، ورؤيا رئيس سقاة الملك، ورئيس الخبازين، وهما في السجن وتفسيرها، ثم رؤيا فرعون المصري (ابوفيس الأول) والمعروف باسم (عاقنن رع)، الذي حكم من (١٦٨٨ ــ ١٦٤٧ ق.م) وتفسيرها، وتم إخراجه من السجن وتسلمه مقاليد الأمور في مصر نحو (١٦٨٦ ق.م) وعمره ثلاثون سنة تقريباً، ثم تزوج يوسف، ورزق ولدان، وقصته مع إخوته أيضاً معروفة.

وكان نزول يعقوب (إسرائيل) وبنيه إلى مصر (سنة ١٦٧٨ ق.م)، والمقصود بني إسرائيل أولاد يعقوب الأسباط الاثنا عشر، ثم توفي يعقوب حوالي سنة (١٦٦٢ ق.م) في مصر، ثم توفي يوسف في سنة (١٦٠٦ ق.م) في أواخر عهد الملك الفرعون (خيان)، الذي يسميه المؤرخون العرب (الريان بن الوليد)، الذي حكم ما بين (١٦٤٦ ـ ١٦٠٦ ق.م)، وهو خامس ملوك الهكسوس،

---

[1] جرار: تقع جنوب فلسطين إلى الجنوب من غزة.

[2] في سفر التكوين: الإصحاح السادس والعشرون.

[3] أدوم: أرض الأردن وصحراء سيناء.

ووضع جثمان يوسف في تابوت.

أما الأحداث، التي وردت في التوراة والمتعلقة بالنبي يعقوب (إسرائيل)، فهي تتحدث عن قصة يعقوب ولابان والخديعة، تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح الحادي والثلاثين تقول: [قال لابان ليعقوب: ماذا فعلت؟ وقد خدعت قلبي، وسقت بناتي كسبايا السيف، لماذا هربت خفية مني؟ وخدعتني؟ و لم تخبرني حتى أشيعك بالفرح والأغاني بالدف والعود]. وقالت على لسان لابان: الآن بغباوة فعلت، وقالت أيضاً على لسان لابان: لماذا سرقت مني آلهتي. وقالت التوراة: إن رأوه ذهب، واضطجع مع بلهة سرية أبيها).

كما ذكرت التوراة قصة شاحار مع يهوذا بن يعقوب، وكانت زوجة لابنه، قد دخل بها. وكل هذا يجعلنا نشك بصدق التوراة في مثل هذه الأحداث، وما شابهها، كما هي الأحداث الواردة عن قصة الأرض وادعائهم: أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب قالوا على لسان الرب: « إلى نسلك أعطي هذه الأرض »، وادعوا كذباً وبهتاناً: أنهم المقصودون بذلك، وهذا ينافي ما ورد في التوراة، وفي كل المصادر التاريخية القديمة والحديثة.

أخيراً يذكر الإخباريون: أن يوسف أثناء وجوده في مصر كان أول من أوجد علم الهندسة، وهو أول من قاس النيل، ووضع له مقياساً محكماً، وهو الذي حفر خليج المنتهي بالفيوم، وهو أول من خصّ بتعبير الرؤيا، وأول من خزّن القمح بسنبله، وأول من أظهر القراطيس (الورق البلدي)، وهو الذي بنى مدينة الفيوم في سبعين يوماً. من هذا نستنتج أن يوسف كان مصرياً، وأفعاله الواردة الذكر تدل على ذلك.

وتمر الأحداث سراعاً، فبعد (١٣٨ سنة) من وفاة يوسف، يخرج بنو إسرائيل من مصر على يد موسى، ولد موسى حوالي سنة (١٥٤٨ ق.م) في عهد الفرعون المصري أميتوفيس الأول (زوسر كارع امنحتب الأول)، حكم ما بين سني (١٥٤٨ ـ ١٥٢٦ ق.م) وقصة ولادته والتقاط آل فرعون له وتربيته في بيته معروفة، وأيضاً هروبه من مصر إلى مدين معروف، وأعتقد: أن هروبه إلى مدين كان في عهد الفرعون تحوتمس الأول (١٥٢٦ ــ ١٤٩٩ ق.م)، وأيضاً عودته إلى مصر في ذلك الوقت، أما خروجه من مصر[1] فيذكر بعض رواة الأخبار: أنه كان في عهد الملكة حتشبسوت (١٤٨٦ ـ ١٤٦٨ ق.م).

---

[1] يذكر بعض الأخباريين أ ن خروجهم من مصر كان في عهد رعمسيس الثاني (١٢٨٨ ـ ١٢٢٢ ق.م).

في هذه المرحلة كان السحر وعبادة الأوثان، وما شابههما، منتشرين في مصر، وكانت عبادة الفرعون تقليداً فرعونياً أيضاً، وهذا معروف، لذلك نلاحظ أن عودة موسى من مدين إلى مصر حصلت بأمر ا الله، لينشر رسالة سماوية في الأرض، وليس كما تدعي الصهيونية من أنه جاء لتكوين قومية.

فعندما أظهر موسى أول آياته المتمثلة بالعصا، وظهرت كحية، أخافت مَنْ حولها، قررالفرعون (تحوتمس الأول) وحاشيته جمع السحرة من أرض مصر، وتم ذلك فالسحرة مصريو الأصل والجنس، وعندما حدث ما حدث، آمن السحرة بموسى كرسول مرسل من ا الله، أرسله من أجل البشرية، ونشر دينه في الدنيا كلها من أجل إنقاذها من الضلال، ولتأكيد ذلك يكفي أن نلاحظ ما فعله بقارون، وهو المنتمي له جنساً، ولم يرأف به لا لروابط الدم والقرابة والنسل، التي تدعيها الصهيونية.

إذاً كان السحرة مصريين في الأصل والجنس، إلا أنهم انتمو إلى موسى ديناً لا هوية، ولم يكن الانتماء عرقياً أو قومياً. أي أن الصراع، الذي حدث حول موسى، لم يكن صراعاً من أجل دولة أو أرض أو سلطة، إنما كان ما بين الحق، الذي مثله موسى بآياته التسع المرسلة من ا الله، وبين فرعون مصر وحاشيته، الذين رفضوا هذا الدين شكلاً ومضموناً.

لنتصور أن الفرعون وحاشيته آمنوا بالدين، الذي أتى به موسى، هل كانت التوراة رويت على ما هي عليه؟ هل كانت مصر أصبحت دولة يهودية؟ أو بقيت على ما هي عليه في الحكم والسياسة؟ وكل شيء إلا الدين، فالمتغير الوحيد في الدولة سيكون في الدين فقط، ولنا من قصة يوسف أكبر دليل، فلقد وجد يوسف، وكان حاكماً في مصر، وله سلطة واسعة، وكان يعقوب في مصر، ولم يقيما دولة عبرانية، ولم تكن تعاليمهما إلا لصالح البشرية، ولصالح مصر، كما ورد. أي أنهما كانا يعملان لصالح الشعب والدولة اللتين يعملان بها بكل صدق وأمانة وإخلاص، ويعقوب ويوسف نبيان مرسلان من ا الله كموسى.

إذاً من آمن بدين موسى بمصر كان السحرة، والسحرة أصلهم مصريون، إنّما آمنوا برسالة موسى، ولم يكونوا من نسل إبراهيم، إلا بانتمائهم إلى دينه، فمن أين بالصهيونية سواءً القديمة أم الحديثة أن تعطيهم صفة الإسرائيليين كجنس وقومية؟ ولو كان ما تدّعيه الصهيونية صحيحاً لكان لكل دين من الأديان السماوية دولة واحدة، وهذا لا يمكن أن يكون. ثم إن هجرة موسى، ومن

آمن برسالته إلى جنوب سورية وتسهيل أموره من رب العالمين، وغرق فرعون وما شابه ذلك، كل ذلك تم بمعجزات إلهية، تفوق القدرة البشرية.

ولو كان موسى يرغب بدولة أو سلطة أو ما شابه ذلك، لما حدث ما حدث في رحلته من مصر إلى جنوب سورية، فمثلاً التيه، الذي كان لقيه أصحابه، ما هي أسبابه؟ إن أسباب التيه، كما يروي الإخباريون، هو رفض أكثر أتباعه الامتثال لأوامره، يؤكد ذلك قولهم له، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم، « وإنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » وقول موسى « ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » عند ذلك حدث التيه والضياع.

إذاً كانت رحلة موسى بأمر الله، لإنقاذ كلمة الله، بما تعنيه من معانٍ، والمحافظة عليها، ومحاولته دخول أريحا بمن معه كان المقصود به الاستقرار مع أتباعه هناك، وفي ذلك دلالة على قبول العرب الكنعانيين في جنوب سوريا لأي هجرة، كانت: مصرية أم عراقية، لأنهم، كما هو معلوم عنهم، قادرون على استيعاب هذه الهجرات وأقلمتها ضمن بوتقتها وصهرها في حضارتهم.

ثم إن موسى لو كان يريد تكوين دولة أو الحرب مع الكنعانيين آنذاك، لما حارب قارون وهو من أقربائه، وقيل: إنه ابن عمه، فلماذا حاربه؟ وهو يعلم أنه كان ثرياً جداً، والدولة تحتاج إلى مال؟ إذاً كان موسى بحاجة لمال قارون لتثبيت دعائم ملكه، ورغم ذلك فعل موسى العكس، وقال الله تعالى عن قارون « آتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ». إذاً كان بإمكان موسى أن يشتري أرضاً، ويعمرها بهذا المال، ولو كان هدفه مادياً لكان العكس، إنما كان ما أراده الله بناء على طلب موسى، يقول الله تعالى: « فخسفنا به وبداره الأرض ». ولم يراعِ فيه موسى حق القرابة، وقصص موسى في الكتب السماوية أثبتت: بأنه كان رسولاً من الله تعالى، همّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، همّه العلم والمعرفة، وما قصته مع الخضر (العبد الصالح) إلا دليل على ذلك.

تذكر الكتب السماوية: أن النبي شمعون[1] هو الذي أمره الله أن يجعل طالوت ملكاً، وأمر الناس أن يطيعوه وقال: « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت »، ثم حكم طالوت، واستطاع إحضار التابوت، وكان عند الكنعانيين منذ أكثر من عشرين سنة. ثم حدثت حرب بين أنصار طالوت،

---

[1] ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ طبع حلب بدون تاريخ ـ ص١٣٧.

وخصمه جالوت، كانت الغلبة في البداية لجالوت. يقول الله تعالى على لسان أصحاب طالوت: « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ».

ثم إن داؤود تمكن من قتل جالوت، وحكم عوضاً عنه، وأعتقد: أن حكم داؤود كان في عهد الأسرة الحادية والعشرين الفرعونية (١٠٧٤ ــ ٩٤٤ ق.م)، وأن حكمه كان في عهد (أمنوبي) أحد ملوك هذه الأسرة، وقد حكم مابين سني (١٠٠٣ ــ ٩٩٤ ق.م) وكانت الدولة المصرية آنذاك تسيطر على جنوب سورية، وداؤود خلقه الله خليفة في الأرض، يقول تعالى: « يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض »، وكان حكيماً قال تعالى: « وأتيناه الحكم وفصل الخطاب ». إذاً كان داؤود نبياً من أنبياء الله، وخليفة الله على أرضه، وملكه ليس لفئة دون أخرى من الخلق.

حكم داؤود سبع سنوات قبل أن يتمكن من احتلال القدس[1]، ففي سنة (٩٩٦ ق.م) في عهد الملك الفرعوني (أمنوبي)، الذي حكم ما بين (١٠٠٣ ــ ٩٤٤ ق.م)، هاجم داؤود القدس وكان أصحابها اليبوسيون واثقين من مناعة حصونهم، وقوة دفاعهم. وكانت الأسوار قوية، وكان الهجوم المباشر عليها، يكاد يكون مستحيلاً، لكن داؤود تمكن من الاستيلاء عليها بخدعة. عندما استولى داؤود على القدس، جعلها عاصمته، وأقام فيها حصن صهيون، وسماه مدينة داؤود. إذاً لقد دخل اليهود فلسطين رعاة، ثم تدفقوا في المدن، والقرى الكنعانية، واستوطنوا هناك نتيجة تسامح العرب اليبوسيين، والكنعانيين، واندمجوا في الثقافة الكنعانية.

بعد داؤود تسلم السلطة الدينية والسياسية ابنه سليمان، وكان رجل إدارة، اهتم بتنشيط الاقتصاد، وعاصر ملك صور حيرام، وصفت العلاقة بينهما: بأنها كانت حسنة، أقامت على حسن الجوار والتعاون. وكانت علاقته مع المصريين حسنة، عاصر النبي سليمان الفرعون المصري (بوسنس الثاني) (٩٧٩ ــ ٩٤٤ ق.م)، تزوج من ابنة الفرعون[2] في أول حكمه حوالي (٩٧٢ ق.م). وقسّم مملكته إلى اثنتي عشرة ولاية، وفي السنة الحادية والعشرين من ملكه (٩٥١ ق.م) جاءت ملكة سبأ بلقيس إلى القدس، وقصتها واردة في الكتب السماوية، لا داعي لذكرها. توفي سليمان بن داؤود سنة (٩٣٢ ق.م)، كما يعتقد.

---

[1] عبد الحميد زايد: القدس الخالدة ـ طبع مصر ١٩٧٤ ـ ص٤٥.

[2] غطاس عبد الملك الخشبة: رحلة بني اسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ـ طبع مصر ـ ١٩٩٠ ص٦١.

تسلم السلطة بعد سليمان ابنه رحبعام سـنة (٩٣٢ ق.م)، في عهـده وفي سنة (٩٢٧ ق.م) أي بعد خمس سنوات من استلامه السـلطة، تمكـن أحـد فراعنـة الأسـرة الثانيـة والعشـرين شاشـانو الأول، الذي حكم (٢١) سنة (٩٤٤ ـ ٩٢٣ ق.م) من احتلال القدس، كما استولى علـى أموالهـا. بعد ذلك تعرضت القدس لغزو (بتهدد الأول) ملـك دمشـق (٨٧٩ ــ ٨٤٣ ق.م)، وجعلهـا تحـت سيطرته، كما سيطر على جلعاد في شرقي الأردن.

وفي عصر الأسرة الفرعونية السادسة عشرة (٦٦٣ ـ ٥٢٥ ق.م)، وفي عهـد الفرعـون نخـاو الثاني (٦١٠ ـ ٥٩٤ ق.م)، غزا هذا الفرعون أرض الآشوريين، فاعترضته في طريقه شـرذمة قليلـة، يقودها (يوشيا) سنة (٦٠٧ ق.م)، فقتل، فحلّ بعده ابنه بواجازين يوشـيا، فـأظهر العصيـان أيضـاً، فاعتقله نخاو الثاني، وأرسله إلى مصر أسيراً، وأقام بدلاً عنه أخـاه اليـاقيم (يهويـاقيم)، وخسـر هـذا الفرعون المعركة مع نبوخذ نصر سنة (٦٠٦ و ٦٠٥ ق.م). ونبوخذ نصر هو، الذي سـبى اليهـود، وأحرق القدس، وذلك سنة (٥٨٦ ق.م)، وأثناء ذلك هرب الكثير منهم إلى مصر في عهد الفرعون (واح ـ اق ـ رع) (٥٨٩ ـ ٥٧٠ ق.م).

وفي عهد الآشوريين: حاول شلمنصر الخامس القضاء على يهود السامرة، إلا أنه مات قبل أن تسقط تحت يده، حيث تابع الغزو من بعده سرجون الآشوري واستولى عليها وأنهى وجـود أي سلطة لليهود في فلسطين بحدود (٧٤١ ق.م)، وأصبحت هذه الدولة تدفـع الجزيـة للآشـوريين، لكن حزقيا اتبع سياسة معادية للآشوريين، مما أدى إلى قيام سـرجون، وخلفـه سـنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م) بسلسلة من الحملات العسكرية ضدهم.

في عهد البـابليين: قـام بختنصر (نبوخـذ نصـر) بحملتـين علـى يهـوذا، واسـتولى علـى أورشليم، وسبى اليهود وشردهم، ومزق جموعهم، فالحملة الأولى: كـان سببها عـدم تأديـة يهـوذا الجزية للكلدانيين، حيث قام بختنصر بعدة حمـلات في الفـترة الواقعـة مـا بـين (٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م) حيث سقطت أورشـليم عـام (٥٩٦ ق.م)، وأسـر مـن أهلهـا سبعة آلاف مقـاتل، وعلـى رأسـهم يهوياقيم. ثم ثار اليهود، فعاجلهم بختنصر، وحاصرهم سنة (٥٨٧ ق.م)، واحتل القـدس ودمرهـا، وأحرق الهيكل، وسلب الخزائن والكنوز، ونقلها إلى بلاده، وقتل من سكانها الكثير، وأخـذ أربعـين ألف أسير إلى بابل، وبذلك قضى على بني إسرائيل في منتصف القرن العشرين.

في العهد الفارسي يخلى سبيل اليهود من الأسر، ويعود بعضهم إلى فلسـطين، فتبقـى المنطقـة

تحت النفوذ الفارسي حتى قدوم الاسكندر، يقول سليمان ناجي: [بعد أن تخلص اليهود من الأسر، انقلبوا على الفرس يتآمرون عليهم مع البابليين، فشعر بمكائدهم الوزير هامان، وأمر رجاله بمراقبتهم، واعتقال كل يهودي يشتبه به، فجزع اليهود من تصدي هامان لهم، فسارعوا إلى تدبير مكيدة له على يد أميرة البلاط (أستير) اليهودية ذات الجمال البارع، فأوعزوا إليها: أن توغر صدر الملك على وزيره، فكان لهم ما أرادوا بفضل مساعي المخلصة (استير)، التي أسرت قلب الملك بحسنها وبهائها. قام الملك بقتل وزيره هامان، ومن يلوذ به، وكلف اليهود بتنفيذ هذا الأمر، فما كان منهم، إلا أن صبوا جام غضبهم على الشعب البابلي، فاقتادوا سبعين ألفاً من الأبرياء إلى ساحات الموت الجماعية دون أي ذنب اللهم إلا إرواءً لتعطش اليهود لسفك الدماء[1]].

ويذكر عبد الله التل الحادثة نفسها ويقول: ومن يقرأ سفر (استير) في التوراة، وهو سابق لعهد الرومان في فلسطين، يجد: كيف أن اليهود قد ذبحوا (٧٥) ألف نسمة في يوم واحد بإيعاز من هذه اليهودية الجميلة، التي استغلت جمالها عند الملك الفارسي، وأذن لها أن توعز إلى بني قومها بحمل السلاح، والدفاع عن أنفسهم أمام مؤامرة وهمية، اخترعتها، فما كان من اليهود إلا أن هبوا يفتكون بالناس الآمنين، ويذبحون منهم هذا العدد، الذي يذكره اليهود أنفسهم ويعتزون بذلك اليوم (١٤ آذار)، ويتخذونه عيداً قومياً لهم[2].

وكان اليهود قبل عودتهم إلى فلسطين، قد أوهموا الحكام الفرس: بأنهم سيكونون بجانب جيوشهم ضد عدوهم الفراعنة والموالين لهم، وبذلك دخلت العناصر اليهودية إلى فلسطين تحت حماية فارسية، وحققوا في ظلهم بعض المكاسب. في هذه المرحلة كانت اللغة الآرامية قد حلت محل اللغات القديمة، ومنها العبرية، التي بقيت لغة دين فقط، فاستعمل اليهود اللغة الآرامية في مراسلاتهم الرسمية[3].

في العهد اليوناني: بعد أن تغلب الاسكندر على الفرس دخلت المنطقة تحت نفوذ اليونان، فأحدث اليونانيون منصب ولاة منهم على اليهود، لكن اليهود في القدس بعد الاسكندر أصبحوا تارة للسلوقيين، وتارة أخرى للبطالمة، وعادت البلاد مسرحاً للاضطرابات. فالمؤرخ المسعودي[4] يذكر: أن بطليموس الثاني بعد الاسكندر، غزا بني إسرائيل في بلاد فلسطين وإيلياء من

---

[1] سليمان ناجي: المفسدون في الأرض. جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ ـ طبع بيروت١٩٩٤ ص٧٨.

[2] عبد الله التل : خطر اليهودية العالميةعلى الإسلام والمسيحية ـ ص٢٦.

[3] فيليب حتي: تاريخ سورية ـ لبنان ـ فلسطين في ص٢٤٥.

[4] المسعودي: مروج الذهب ـ ج١ ص٣٣٤.

أرض الشام، فسباهم، وقتل منهم الكثير. أما القاضي مجير الدين الحنبلي[1]، فيذكر: أن بطليموس الثاني وجد جماعة من الأسرى، منهم نحو ثلاثين ألفاً من اليهود، فأعتقهم، كلهم وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم، ففرحوا بذلك، وأكثروا له الدعاء والشكر.

وقال: ولما تولي بطليموس الثاني تخت أخيه المسمى عند اليهود تلماي، أرسل رسولاً وهدايا إلى بني إسرائيل المقيمين بالقدس الشريف، وذلك بعدما رد إليهم سبيتهم، وطلب منهم أن يرسلوا له عدداً من علماء بني إسرائيل لنقل التوراة وغيرها إلى اللغة اليونانية، فسارعوا إلى الامتثال لأمره، وأرسلوا إليه اثنين وسبعين رجلاَ. من كل سبط (٦) رجال (٦ × ١٢ سبطاً = ٧٢ رجلاً) فصيرهم (٣٦) فرقة، وخالف بين أسباطهم، ثم أمرهم أن يترجموا له (٦٣) نسخة من التوراة فطابقها، فوجدها شبه متشابهة، فوزعها في بلاده.

من المعروف أن اليونان كانوا يعاملون اليهود على قدم المساواة مع أبناء جنسهم، فاليونان هم الذين منحو اليهود كل الميزات، يؤسسون المستعمرات في المدن اليونانية، وينشؤن المعابد الخاصة بهم، ويدعون الناس إلى مذاهبهم، وأقاموا مجتمعاً خاصاً بهم في كل بلد، وأوجدوا في ذلك الوقت سبل الارتباط والاتصال بين بعضهم بعضاً، مثلاً: كان اليهود النازلون في أنطاكية منظمين في جالية من هذا النوع، ولا شك أنه كان بوسع من يشاء أن يصبح أهلاً للحصول على حقوق المواطنة كاملة، إذا ما تخلى عن عقيدته، وقام بعبادة آلهة المدينة[2].

في عهد أنطيوخس الثالث، نقل من اليهود ألفي عائلة إلى منطقة فريجي وليدي، لحمايتها كما يروي من عبث الغزاة. أما الامبراطور ديمتريوس الأول، فالتمس من الكاهن الأول أن يمده بثلاثين ألف رجل، ليجعل منهم حراساً له، يكونوا موضع ثقة. أما أنطيوخس الرابع: فقد خشي من غدر اليهود وخيانتهم كعادتهم، فقرر صهرهم في بوتقة الحضارة اليونانية، فرفض اليهود هذا القرار، وثارت ثائرتهم وتمردوا، فقرر أنطيوخس الرابع تأديبهم.

يقول جلانفيل داوني[3]: [عندما ارتقى العرش انطيوخس الرابع، ألغى نفسه وقد اكتنفته سلسلة من الاضطرابات الطائفية بين اليهود، ترجع في منشئها إلى عهد سابق، وكان الموقف في فلسطين، يقيم عقبات من نوع خاص في سبيل البرنامج، الذي وضعه انطيوخس لتوحيد صفوف

---

(١) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل.

(٢) جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ ص٦٩.

(٣) جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ ص٦٩.

رعاياه. ولما كان الصراع الطائفي بين اليهود، قد أعقبه نشوب ثورة، فقد وجد انطيوخس نفسه في النهاية مرغماً على أن يكيل ضربة عاجلة للديانة اليهودية، فكان أن نهب معبدهم في بيت المقدس، وحمل ما فيه من الأواني والأشياء المقدسة إلى أنطاكية، وأعاد تكريسه واهباً إياه لزيوس الأولمبي، وقد استمر القتال دائراً بين القوات الحكومية، والعصابات اليهودية بقيادة يهوذا مكابيوس إلى ما بعد وفاة انطيوخس. وبالنتيجة فشلت محاولة انطيوخس الرابع في إدماج اليهود في دولة يونانية واحدة].

أما سليمان ناجي فيقول: إن انطيوخس قرر صهرهم في بوتقة الحضارة اليونانية، فرفضوا، وتمردوا، فكان لا بد من تأديبهم، وإعادة الأمن إلى نصابه، فزحف على منطقتهم، وأخمد ثورتهم، وقتل كل من ثار في وجهه، وتمرّد، وأمر بنهب محتويات هيكلهم، وأقام على مدخله تمثالاً لزيوس، وأرغم يهود القدس على تقديم الذبائح له إمعاناً في إذلالهم جزاء خيانتهم وتمردهم.

في هذه المرحلة وقف بعض اليهود موقفاً إيجابياً، فلم يتعرض لهم انطيوخس بسوء. أي أن اليهود كانوا منقسمين على أنفسهم إلى قسمين، بعضهم: كان مناصراً لليونان، وبعضهم الآخر: متمرد، فالمتمردون كان يقودهم الكاهن أونياس الثالث كبير كهنة اليهود، فعمد اليونان إلى إرهابه، فلاذ بالفرار، وعين مكانه الكاهن ميتالوس. ورغم ذلك تجمع اليهود في عصابات مسلحة، اعتصمت في الجبال، وأعلنت العصيان، يقودهم الكاهن ماناتياس، وبعد موته تسلم زعامتهم ابنه يهوذا، الذي لقب بالمكابي، ثم قتل، فتسلم بعده شقيقه جوناثان.

أما عن اليهود في أنطاكية، فكانوا يعيشون في حي خاص بهم بالقرب من الطرف الجنوبي للمدينة، حيث كان يوجد معبد لهم، كما أنه كان يوجد مركز لاستقرار اليهود على مقربة من دفنة، وكان يقيم هناك أونياس الثالث كبير كهنة اليهود السابق، وأثناء نزاع احتدم بين أونياس وبين مبيلاوس (أحد أفراد الطائفة المعارضة)، لجأ أونياس إلى معبد أبولو طلباً للأمان، ولكنه حمل بالخديعة على مغادرة المعبد، وقتل.

بعد وفاة أنطيوخس الرابع سنة (١٦٣ ق.م) أخذت الدولة اليونانية بالتدهور، ففي عهد ديمتريوس يقول جلانفيل دواني: استغاث ديمتريوس بالزعيم اليهودي بونثان (جوناثان) لنجدته، فأرسل إلى أنطاكية ثلاثة آلاف من مرتزقة اليهود المنتخبين لشد أزر الملك، وعندما علم أهل أنطاكية بوصول النجدات الأجنبية، هبوا إلى حمل السلاح ما استطاعوا الحصول عليه،

وحاصروا القصر محاولين أن يضعوا أيديهم على الملك، فأرسل إليهم ديمتريوس جنده المرتزقة والجنود اليهود.

أرغم الجنود اليهود على الارتداد، والانسحاب إلى سقوف القصر، وأخذوا يرشقون الشعب بالقذائف، وأشعلوا النيران في المنازل المجاورة للقصر. في هذه المرحلة تراجع أبناء المدينة أمام النيران، التي كانت تمتد بسرعة، وفي الوقت نفسه كان اليهود يتعقبونهم، فكثر القتل والنهب بين أبناء المدينة، فكان لذلك أكبر الأثر في اشتداد الشعور المتزايد بالنفور من اليهود المرتزقة، ومن ساعدهم من أبناء جنسهم في المدينة.

ذكرنا: أن جوناثان تسلم قيادة اليهود بعد شقيقه يهوذا المكابي، خلال هذه المرحلة حدثت اضطرابات داخل الدولة اليونانية، مما اضطرها لمهادنة العصاة اليهود ومنحهم ما يشبه الحكم الذاتي في يهوذا. هذه الظروف ساعدت جوناثان وعصابته على طرد اليونان نهائياً من مقاطعته، فتصدى له الجيش اليوناني في سورية فقتل جوناثان، وتسلم القيادة بعده شقيقه سيمون، فقتل أيضاً عام (١٣٥ ق.م)، فتسلم القيادة بعده ابنه (جان هيركان) الأخير، الذي طلب الهدنة، ثم خضع لليونان.

لكن بعد مقتل الملك اليوناني أنطوخيس سيديتس، أعلن جان هيركان الاستقلال بمقاطعته، وأعلن نفسه ملكاً باسم أريستوبول عام (١٠٤ ق.م)، لكن الحقيقة: أنه كان زعيم عصابة خارجة عن القانون. وبعد موت أريستوبول انهارت هذه العصابة، وانقسمت إلى قسمين، الأولى: يقودها هيركان الثاني، والثانية: أريستوبول الثاني، وريثا أريستوبول الأول، استنجدا بروما، فدخلت الجيوش الرومانية منطقة يهوذا، وسوّت النزاع بين الورثة، فعينت هيركان الثاني كاهناً لمدينة القدس، ونفت خصمه إلى روما، وبذلك ابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ اليهود اعتباراً من دخول بومبي إلى سورية وسيطرته عليها.

اليهود في العصر الروماني:

عندما سيطر الرومان على المنطقة، كانوا يعرفون حقيقة العقلية اليهودية المعروفة بتدبير المؤامرات، والنزوع إلى الغدر والخيانة، لذلك عمدوا إلى تولية أمور المنطقة لغريب عنها، ورغم ذلك لم يسلبوا اليهود ما كان لهم من ميزات سابقة، بل عمدوا إلى تحسين وضعهم، وعاملوهم بشكل خاص، وها نحن نذكر ما عرف عن الرومان في تعاملهم مع الشعوب التي يسيطرون عليها، من ذلك:

١- تركوا لليهود ما كان لهم من استقلال ذاتي، وحرية التنقل والعمل والإعفـاء مـن الخدمـة العسكرية.

٢- حرّم المس باليهود في أيام السبت، حتى أن المحـاكم كـانت تقفـل في هـذه الأيـام احتراماً لمشاعرهم. أبقي على محاكمهم الخاصة.

٣- سمح لليهود بإيجاد التعاونيات، وتشكيل الجمعيات والنقابات الحرفية وإجـراء الانتخابـات العمالية والدينية.

٤- سمح لهم بتشكيل الجمعيات وإجراء انتخابات بلدية، وإقامة المؤسسـات. وأطلقـت أيـدي زعمائهم في الإدارة المحلية.

٥- سمح لهم ببيع وشراء الملكيات سواءً للأفراد أم الجماعات.

٦- ترك لمعابدهم حرية تلقّي الهبات المالية والعينيـة، وجبايـة الأمـوال لأغـراض خاصـة بهـم، وسمح لهم ببناء معابد خاصة بهم. وممارسة طقوسهم الدينية.

٧- سمح لهم بحق إيفاد الوفود والرسل إلى روما لعرض قضاياهم.

أي أنهم كانوا أشبه بدولة ضمن دولة، ولم يكن للرومان من حـق علـى اليهـود سـوى دفـع الجزية المتفق عليها، فالسلطة الرومانية لم تجـبر اليهـود علـى الاعـتراف بالامـبراطور والقسَـم باسمـه، فاليهودي كان حراً. وكان اليهود أحراراً بإقامة التقاليد الرومانية أو عدم تنفيذهـا. وهـذه الحريـات الواسعة مكّنت اليهود من تنظيم شـؤونهم، وتوثيـق صلاتهـم بـين المستعمرات الرومانيـة الواسـعة، وكانت القدس بمنزلة العاصمة المقدسة لهم، كما كانت روما تعترف رسمياً بسلطة المجلس الكهنوتـي على كل اليهود القاطنين في امبراطوريتها.

وكان لليهود صندوق قومي، يشرف عليه المجلس الكهنوتي الأعلى، وأمواله كانت تجنى من اليهود في كل أنحاء الامبراطورية، حتى أن الجباة الرومان كانوا مكلفين رسمياً بإيصال هـذه الأمـوال من المستعمرات إلى مقر المجلس الكهنوتي، وكانت هذه الأموال تسمى بالأموال المقدسة حتـى عنـد الرومان أنفسهم.

بعد سيطرة بومبي على الدولة الرومانية، أصدر قراراً بـأن يحكـم سـورية ضمـن إطـار ولايـة سورية. ففي عهد غـابينيوس (٥٧ ــ ٥٥ ق.م) مبعوث بومـبي أنقـص مـن سـلطة اليهـود، وذلـك

بتجريد الكاهن الأعظم هيركانوس الثاني من سلطاته، وأعاد بنفسه بناء عدد من المدن السورية مثل السامرة وبيسان وغزة.

ثم أهمل الرومان في عهد أنطونيو الأسرة المكابية، ووضع مكانها الأسرة الهيرودية، فبرز منها هيرود الكبير، حيث وطد سلطته بالقدس، وجدد بناءها، ثم توفي هيرود عام (٤ ق.م) وابنه هيرود الثاني هو الذي قتل يوحنا المعمدان، الذي عمّد السيد المسيح، وبشّر به.

تعرضت القدس خلال الحكم الروماني لأحداث خطيرة، أثارها اليهود، جلبت الخراب والدمار لمدينة القدس ولليهود أنفسهم.

بعد مقتل قيصر سنة (٤٤ ق.م)، وصل أنطاكية ـ ك ـ كاسيوس، الذي أفلح في اكتساب ثقة أهل سورية، وجنود حاميتها وتأييدهم. أثناء ذلك عمد إلى الإستيلاء على ممتلكات اليهود في أنطاكية.

وعندما آلت السلطة إلى الحكومة الثلاثية (أنطيونيوس ــ ليبدوس ــ اوكتافيوس)، خرج أنطونيوس إلى الشرق (٤١ ق.م)، لكي يدير الأموال لدفع مرتبات الجنود، فنزل بأنطاكية، وهناك أعاد إلى اليهود في أنطاكية وغيرها من المدن ممتلكاتهم، التي كان كاسيوس قد استولى عليها. كما استقبل في دفنة وفداً من اليهود ذوي المكانة، وكانوا يرغبون في الحصول على مؤازرة للوقوف في وجه مطامع هيرود في فلسطين.

وقف هيرود إلى جانب أنطونيوس في صراعه على السلطة، لأنه هو، الذي أقامه حاكماً على اليهود، وكان يساعده، ويمده بالقوات، متى دعت الحاجة.

في هذه المرحلة، هاجر أمير يهودي بابلي إلى أنطاكية، ومعه حاشية مؤلفة من مئة من الأهل والأقارب، وخمسمائة من الفرسان رماة النبال، وفي أنطاكية كان يوجد جالية يهودية ذات شأن، فنزل هذا الأمير أول الأمر في دفنة، لكنه كان غير مرغوب به، فغادر أنطالية إثر دعوة، تلقاها من هيرود إلى منطقة شرق الأردن، واستقر في باتانيا.

وفي الوقت، الذي كان فيه بترونيوس والياً على سورية (٣٩ ــ ٤٢م)، حدثت في أنطاكية فتنة، أسفرت عن مذبحة بين اليهود، وفي سنة (٦٦ م) حدث في بيت المقدس، ومناطق تواجدهم الأخرى مذابح، حدت باليهود إلى القيام بثورة شاملة، في الوقت نفسه وقعت ضدهم حوادث هياج في مدن أخرى.

في عهد نيرون (٥٤ ـ٦٨م)، حدثت بوادر لثورة يهودية، كان سببها مركز اليهود والممتلكات ضمن الدولة الرومانية، كما ذكرنا، وكان اليهود جالية دينية أكثر منها سياسية، وداخل هذه الجالية وجد انقسام خطير بين طائفة الصدوقيين المتعاونيين مع السلطة الرومانية، وطائفة الفارسيين المعادين للرومان.

في عام (٦٦ ـ ٦٧) عين نيرون قائده (فيسباسيانوس) حاكماً لجنوب سورية، ووضع تحت قيادته جيشاً لإخماد أي ثورة أو تمرد. عندما وصل فيسباسيانوس إلى أنطاكية، انتهز يهودي صابئ يدعى أنطيوخس (ابن كبير اليهود في أنطاكية) الفرصة، وقام بإثارة الناس لمهاجمة بني جلدته، واتهم اليهود بتدبير مكيدة لإحراق المدينة بأسرها بليلة واحدة، واستطاع أن يسلم بعض اليهود الأجانب بوصفهم شركاء في مشروع المكيدة. وليس ما ورد بغريب على اليهود بل هذا طبعهم قديماً وحديثاً.

خلال هذه المرحلة اشتد هياج الشعور العام بين أهل أنطاكية، بالحقد والكراهية ضد اليهود، لذلك قام الشعب على الفور بإحراق الأشخاص، الذين سلموا إليهم، ثم شرعوا في الهجوم على الجالية اليهودية، وحدثت فتنة، وخوّل أنطيوخس بعض السلطة، فشرع في إرغام اليهود علي التخلي عن مراعاة عدم العمل في اليوم السابع من الأسبوع.

أما في فلسطين فكان اليهود يعدون أنفسهم، فقام فيسباسبانوس بحملة إلى فلسطين، وفي عام (٦٨م) عزل أورشليم عن فلسطين، وتمكن من إخماد ثورة اليهود، ولما عين (فيسباسيانوس) امبرطوراً، أقام ولده نيطس قائداً لجيوش المنطقة. اتجه (نيطس) إلى مدينة القدس عام (٧٠م)، وقوام قواته أربع فرق، إضافة إلى المرتزقة، كما دعمته بعض الفرق الرومانية، فحاصروا أورشليم. في هذا الوقت كان يقود اليهود (سيمون بارجيورا)، ومعه (بومانان)، الذي كان يعرف (بجون جيشولا).

وبعد حصار استمر (١٧ يوماً)، دخلت جيوش (نيطس) المعبد الداخلي، وأشعلت النار في قدس الأقداس والمدينة كلها، وأمر (نيطس) بإبادة المدينة كلها، فقتل الكثير، وأخذ من بقي منهم عبيداً، ثم عاد (نيطس) إلى روما، وخيّم على القدس الدمار والخراب.

إذن فقد اليهود الكثير عام (٧٠م)، وقتل منهم الكثير، وأقام الحاكم الروماني في (قيساريه) لمراقبة القدس. في الوقت نفسه كان له حامية قي القدس، علماً أن اليهود، الذين بقوا

كانوا يعيشون في الضواحي.

وعندما زار (نيطس) أنطاكية، استقبل استقبالاً حافلاً، وطلب منه: طرد اليهود من أنطاكية، إلا أنه رفض، ثم طلب منه: إلغاء امتيازات اليهود، وحقوق المواطنة الخاصة بهم، فرفض أيضاً، إلا أنه قدم لأهل أنطاكية جزءاً من غنائمه من اليهود، وأقام تماثيل عدة في أنطاكية كانت تنطوي على إهانة لليهود، وأقام مسرحاً في دفنة على موقع معبد لليهود، هدم من أجل ذلك.

في عام (١٣٠م) قام (هادريان) بزيارة القدس، فلما وصلها، وعلم بمدى تعلق اليهود بها وشعورهم نحوها، أصدر عدة قرارات ضد اليهود من ذلك:

ـ أمر بهدم مدينة القدس. ـ تحريم تقديس السبت. ـ حرم عادة الختان ـ قرر تحويل أورشليم إلى مستعمرة رومانية وتغيير اسمها.

أثارت هذه القرارات اليهود الموجودين في الضواحي، وقاموا بثورة، واستولوا على بعض معاقل الرومان، وسيطروا على القدس، وضربوا عملة باسم قائدهم (سيمون باركوخيا).

اضطر هادريان للقدوم إلى المنطقة، وبرفقته جيش كبير، يقوده (يوليوس سيفيرس) حيث تمكن الرومان من طرد اليهود من القدس، وفر المتمردون إلى المرتفعات المجاورة. وفي عام (١٣٥م) انتهت ثورة اليهود بالقضاء عليها، وقبض على باركوخيا، وقتل، وهكذا قضي على اليهود.

وهكذا من عهد هادريان، حكم على اليهود بالتشتت، لأنهم ارتكبوا جرماً كبيراً في حق الامبراطورية الرومانية، وحتى يقضي هادريان على اليهود، بنى معبد (جوبيتر) على أنقاض المعبد اليهودي القديم، وأقام لنفسه تمثالاً أمام المعبد، وأقام معبداً لفينوس، وبنيت أسوارٌ جديدة للمدينة.

وفي عهد الامبراطور الروماني(قسطنطين) الذي اعتنق المسيحية، أصبحت القدس مقدسة عند المسيحيين، واتخذ المسيحيون عادة الحج إلى القدس، كما كان يفعل اليهود، وعندما زارت الامبراطورة (هيلانة) القدس، وكان بحوزتها مال كثير، أقامت كنيسة القيامة، ثم بنيت كنائس كثيرة في القدس، وخاصة أيام الامبراطورة (ايودكسا) (٤٤١ـ٤٦٠م)، وبذلك أضحت القدس مدينة مسيحية.

وفي عام (٦١٤م)، تمكن (كسرى الثاني) امبرطور الفرس من احتلال بلاد الشام، ومن ضمنها القدس، حيث ساعد اليهود الفرس في الجليل، فقتل الكثير من المسيحيين، وهدمت الكنائس،

وأخذ الصليب إلى فارس، لكن الروم أعادوا المنطقة إلى سـلطتهم، وأعـادوا بنـاء الكنـائس المهدمـة، وأعيد الصليب، وانتقم الرومان من اليهود. بعد ذلك ظهـر الاسـلام، وتكونـت دولـة عربيـة قويـة، أعادت الحق إلى نصابه، فحررت الأرض العربية من مغتصبيها، كما سـنرى في الكتـاب الثـاني عنـد الحديث عن إقامة الدولة العربية والتحرير.

الباب الثالث

الفصل الأول : سوريا في عصر اليونان.

الفصل الثاني : سوريا في عصر الرومان.

الفصل الأول

سوريا في عصر اليونان

بلاد الشام والإغريق

الاسكندر:

الاسكندر هو ابن فيليب المقدوني الثاني، ولد عام (٣٥٦ ق.م)، وتربى تربية خاصة، حيث تولى تعليمه العالم الكبير (أرسطو)، فكان لتعاليم أستاذه بالغ الأثر في نضوج تفكيره، واتساع أفقه. تسلم السلطة بعد وفاة والده، وهو في العشرين من عمره، ثم توجّه في عام (٣٣٦ ق.م) نحو الجنوب، فاسترد سلطته على (تساليه)، واختير رئيساً لحلفها مدى الحياة. كما دانت له مدن حلف (كورنته)، واختارته قائداً لهذا الحلف، وكلفته بغزو آسيا، وفي عام (٣٣٥ ق.م) اتجه نحو الشمال، حيث تمكن من إرغام بعض الشعوب البلقانية على تقديم فروض الطاعة، ثم عمل على استقرار سلطته، وأخذ يعمل لغزو آسيا الصغرى، فجهز قواته، وقادها بعد أن ترك أحد قواده على رأس حوالي (٩٠٠٠) من المشاة و (٦٠٠٠) من الفرسان لتصريف أمور الدولة.

وفي عام (٣٣٤ ق.م) توجه الاسكندر بجيشه[1] المؤلف من (٣٠,٠٠٠) من المشاة، وما يزيد عن خمسة آلاف من الفرسان نحو آسيا. وفي منطقة (جراتيكوس) عند مصب نهر (غرانيغوس)، الذي يصب في بحر مرمرة، حدثت معركته مع الفرس، وكانت نتيجتها لصالحه، وتم له الاستيلاء على المواقع المتبقية، التي فيها حاميات فارسية. بعد ذلك أعلن الاسكندر: أن غرضه من هذه الحروب هو إعادة الديمقراطية من جهة، والسماح لكل مدينة باسترداد حريتها، والتمتع بقوانينها من جهة أخرى، وكان لذلك أثره الأكبر في سيطرة الديمقراطيين على المدن، وطرد الحكام الفرس منها.

بعد ذلك قرر الاسكندر الاستيلاء على القواعد البرية في كل من آسيا الصغرى وسورية ومصر، وغايته منع تقديم أي مساعدة للأسطول الفارسي القوي. ثم اتجه من (جورديوم) نحو (أنقرة)، ومنها إلى كليكية (مدخل سورية من الشمال)، فاحتلها. ثم توجه إلى طرسوس، وهناك مرض، إلا أنه شفي، بعد ذلك وقعت معركة أسوس في تشرين الأول (٣٣٣ ق.م)، حيث انتصر

---

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - المجلد الثاني - ص١٤١.

الاسكندر[1]، وكانت هذه المعركة حاسمة، وعدها المؤرخون من أعظم معارك التاريخ أهمية.

كان الاسكندر قد أبقى معظم النظم الإدارية الفارسية على ما هي عليه، واكتفى بإقامة مشرفين ماليين مستقلين، وأقام ولاة من أصل مقدوني، تجمع في أيديهم السلطتين: السياسية والعسكرية، وحرص الاسكندر على التودد للمدن الإغريقية ضماناً لاستقرارها، وأعفاها من الضرائب، التي كانت تدفعها للفرس. بعد انتصار الاسكندر في معركة أسوس[2]، اتجه صوب الساحل السوري، وغايته القضاء على الأسطول الفارسي، فأعاد تأسيس (مرياندروس) الفينيقية القديمة، وأسماها الاسكندرية (الاسكندورنة)، بعد ذلك تقدم نحو مراثوس (عمريت)، حيث استقبله (استراتون) نائب ملك أرواد والساحل المقابل معلناً الطاعة له.

ومن مدينة مراثوس (عمريت) كلف أحد قواده (بارمنيون) بالاستيلاء على دمشق المدينة الرئيسية في سورية، وتم لـه الاستيلاء عليها دون قتال، واستولى على مهمات الجيش الفارسي وعتاده، فكانت عوناً للاسكندر وقواته في تجاوز المتاعب المالية، ومن المدينة نفسها (مراثوس)، تسلم الاسكندر رسالة من (دارا) يطلب فيها التحالف، بالطبع رفض الاسكندر هذا العرض، ثم غادر مقره في (مراثوس) نحو الجنوب، حيث تم استسلام جبيل وصيدا، فدخلها الاسكندر، وأعاد إليها ممتلكاتها ودستورها، وأبقى الملكية فيها[3]، فآلت إليه زعامة الساحل السوري، ثم تابع زحفه جنوباً.

وفي طريقه استقبل الاسكندر وفداً من سكان صور عارضاً عليه استسلامها، فطلب الاسكندر السماح له بالدخول إلى المدينة لتأدية بعض الشعائر. إلا أن أهل صور رفضوا ذلك، فما كان من الاسكندر إلا أن حاصرها سبعة أشهر، حيث استطاع في تموز عام (٣٣٢ ق.م) من اختراق أسوار المدينة والاستيلاء عليها، وجعلها مركزاً لحامية مقدونية. أثناء حصار الاسكندر لصور تسلم رسالة ثانية من دارا، يعرض فيها محالفته لـه، والنزول لـه عن كل امبراطوريته غربي الفرات، فكرر رفضه لهذا العرض، وتابع تحركه نحو مصر[4]، بعد أن ترك أحد قواده (بارمنيون) في دمشق لتنظيم أمور سورية.

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد (٣٣) ـ الجزء الأول ـ ١٩٨٣ ـ ص١٥.

[2] أسد رستم: تاريخ اليونان ـ طبع بيروت ـ ١٩٩١ ـ ص٢٥.

[3] مفيد العابد: دراسات في تاريخ الاغريق ـ طبع دمشق ـ ١٩٩٠ ـ ص١٥٩.

[4] نبيل راغب: عصر الاسكندر الذهبي ـ (رؤية مصرية علمية) ـ طبع مصر ١٩٩٣ ـ ص٢٠.

وفي طريقه اعترضته غزة معتمدة على مناعة أسوارها، فقاومت شهرين، وفي صيف (٣٣٢ ق.م) استطاع فتحها، ثم تابع زحفه إلى مصر، فوصلها في تشرين الأول عام (٣٣٢ ق.م)، فاستولى عليها، ونظمها، ومنحها استقلالاً داخلياً، وأمر الجميع بمراعاة التقاليد المصرية. وبعد فراغ الاسكندر من مصر، غادرها في ربيع عام (٣٣١ ق.م) نحو بابل لمواجهة الجيش الفارسي، ذلك الجيش، الذي أعاد تنظيم قواته الملك دارا، وتولى بنفسه قيادته، وفي طريقه عرّج إلى سورية، وأقام أحد قادته (لاومدون) والياً على بلاد الشام.

وخلال هذه المرحلة كان الاسكندر قد أرسل أحد قادته (بارمنيون) بقوات استطلاعية، لكي يقيم له جسراً على نهر الفرات، في الوقت الذي، كان والي سورية الفارسي، يرابط بقواته على الضفة الغربية لنهر الفرات، ثم لحق به الاسكندر نحو عام (٣٣١ ق.م)، ثم عبر الفرات ودجلة دون مقاومة، واتجه نحو قرية تدعى (جاوجميلا) الواقعة شمال اربيل، والتي كان يعسكر فيها دارا.

وهناك حدثت المعركة الفاصلة، حيث حقق الاسكندر النصر الساحق على خصمه. ثم زحف بقواته نحو بابل، فدخلها دون مقاومة، لأن قائد القوات الفارسية (مازايوس)، كان قد سلمها له دون حرب، فأكرمه الاسكندر، وعينه والياً على بابل، وبذلك يكون أول فارسي يتولى مثل هذا المنصب في عهد الاسكندر، وأعطاه حق صك النقود، ثم تابع زحف نحو سوسة، وعيّن عليها والياً، ثم زحف نحو (برسيوليس)، واستولى عليها، وغنم منها. خلال هذه الأحداث قتل دارا من قبل قادته، وبقتله تكون نهاية الدولة الفارسية، وبداية حكم جديد للمنطقة.

إلا أن الاسكندر تابع زحفه وحروبه، حتى استسلمت له (بلخ واربة)، وأسس على مقربة من (ارتاكوانا) أول مدينة، حملت اسمه، ثم احتل ولايات الهند الشمالية، والشمالية الغربية، وتمكن من فرض سيطرته على كل المناطق، التي كانت خاضعة للدولة الفارسية، وما جاورها من المتمردين، واتخذ من مدينة (بالترا) مقراً مؤقتاً لقيادته، ثم تابع زحفه، واستكمل فتوحاته في الشرق.

في هذه الظروف تمرّد جيش الاسكندر، وقد أنهكه التعب، ومعاناة الحرارة، والحنين إلى الوطن. أمام هذا الموقف المتشكل، قرر الاسكندر العودة، فوصل سوسة في ربيع عام (٣٢٤ ق.م)، وهناك أقام الاسكندر وليمة كبرى احتفالاً بإتمام الانتصار على الإمبراطورية الفارسية، وفي هذه الحفلة عقد قرانه وثمانية[1] من ضباطه على نبيلات فارسيات، كما عقد قران

---

[1] نبيل راغب: عصر الاسكندر الذهبي- ص٢١.

عشرة آلاف من جنوده أيضاً على فارسيات، وكان هدفه تمتين أواصر الارتباط بين الشرق والغرب، كما كان الاسكندر قد عمل على التشبه بملوك الفرس في المناسبات العامة.

بعد ذلك حدث خلاف بين الاسكندر وبعض قواته، حول سياسته في الشرق، إلا أنه تم الوفاق بينهم، وأقام صلاة من أجل السلام، متمنياً أن يدوم الوئام والتعاون في العالم كله، ثم تابع الاسكندر زحفه إلى بابل، وهناك مرض، وتوفي في ليلة العاشر (أو الحادي عشر) من تموز عام (٣٢٣ ق.م)، وعمره ثلاث وثلاثون سنة[١]. يقول (آوروسيوس): عندما كان في بابل « أسقاه بعض أعوانه سماً، مما أدخله فيه بعض أعدائه فمات...، وحمل جسده إلى الاسكندرية، وبها دفن، وترك سلطان الدنيا مقسوماً بين قواده »[٢].

بعد موت الاسكندر عقدت قواته مؤتمراً في بابل[٣] للفصل في مشكلة ولاية العرش، والنظم الواجب إتباعها في حكم الإمبراطورية. فتم تعيين ولي للعرش، وقائد عام للجيش، كما تقرر في المؤتمر توزيع ولايات الإمبراطورية على قواده، ليحكموها بصفتهم ولاة من قبل العرش المقدوني. وفي عام (٣٢١ ق.م) اجتمع قادة الجيش في جو مضطرب، وعقدوا مؤتمر (ترييا راديسوس)، فقرر المؤتمر مجموعة من القرارات أهمها: ـ الاعتراف بمنصب بطليموس في مصر ـ تعيين سلوقس والياً على بابل ـ تنصيب قائد عام للجيش.

السلوقيون:

ولد سلوقس الأول عام (٣٥٨ ق.م)، في مدينة (يورويوس) في مقدونية، وكان من النبلاء، وصف بصفاء ذهنه وقوة إرادته ودهائه وحنكته، كما وصف بالطموح والعزيمة والذكاء، ووصف أيضاً: بأنه كان من أخلص قادة الاسكندر، وأكثرهم وقاراً. بعد موت الاسكندر اقتسم قواده إمبراطوريته، فكانت سوريا[٤] وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى للقائد سلوقس نيكاتور.

عند السيطرة اليونانية على سورية احتفظت الوحدة الإدارية باسمها الفارسي، وهي: المرزبانة. يروي يوسيدونيوس: أنه كان في سورية ثماني مرزبانات: أربع في الشمال الكثيف السكان

---

[١] نبيل راغب: عصر الاسكندر الذهبي ـ ص٢٣.

[٢] أوروسيوس ـ تاريخ العالم ـ تحقيق عبد الرحمن بدوي ـ طبع بيروت ١٩٩٢ ـ ص٢٣٧.

[٣] لطفي عبد الوهاب يحيى: دراسات العصر الهلنستي ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ ـ ص٨٦.

[٤] فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي في التكوين الجيولوجي حتى أيامنا ـ ص٥٠.

ـ وأربع في الجنوب (سورية المجوفة). « تجمعت الولايات الشمالية حول المدن التالية: أنطاكية ـ سلوقية ـ أفاميا ـ اللاذقية، ويظهر: أن دمشق ولبنان بالإضافة إلى فينيقيا شكلت أول مرزبانة في سورية الجنوبية، وشكلت السامرة والجليل مع الساحل المرزبانة الثانية، وتألفت الاثنتان الباقيتان من شرق الأردن وايدومية »[1].

بنى سلوقس ما يزيد عن ستين مدينة، منها أنطاكية على العاصي، وكانت أهمها على الإطلاق، وبنى مدينة سلوقيا على نهر دجلة، واللاذقية على الشاطىء السوري، وأفاميا (قلعة المضيق)، التي كانت مركزاً للجيش، ومستودعاً لغنائم الحرب وأسلابها، وإسطبلاً لتربية الجياد، وزريبة كبيرة للفيلة، التي كانوا يستخدمونها في الحرب[2]. تزوج مرتين، الأولى: من (أياما) الفارسية، والثانية: من أميرة مقدونية اسمها: (استراتونيكي) ابنة (ديمتريوس)، وزوجته الأولى كانت هي أصل السلالة السلوقية.

بعد موت الاسكندر أسندت إلى سلوقس قيادة فرقة الفرسان الرفقاء، حيث لم يستمر طويلاً، وعين والياً على بابل، كما ذكرنا في مؤتمر (تريباراديسوس)، ونظراً لبعض الخلافات مع (انتيجونوس)، فرّ سلوقس إلى مصر سنة (٣١٦ ق.م)، وتحالف مع بطليموس، وبهذا أصبحت سورية ضمن أملاك انتيجونوس، وأسهم سلوقس، وهو في مصر، في مجموعة من العمليات، كان أهمها معركة غزة.

ففي عام (٣١٢ ق.م) كان (انتيجونوس) يتابع زحفه لإخضاع مقدونية، بعد أن أرسل ابنه ديمتريوس على رأس بعض قواته للقضاء على بقية الحاميات البطليمية، التي طردت من سورية، فدانت له كافة المقاطعات الفينيقية، وجنوب سورية، وأغراه ذلك بالزحف نحو مصر.

أثناء ذلك قرر المجلس الاستشاري لبطليموس بتشجيع من سلوقس مهاجمة قوات ديمتريوس، فجهز الجيش، وكان على رأسه بطليموس وسلوقس، وبالقرب من غزة التقى الطرفان، وقد هزم ديمتريوس، واستغل سلوقس نتائج معركة غزة بتأييد من بطليموس، وقاد بعض القوات، وغايته استعادة ولايته السابقة بابل، وفي طريقه انضمت إليه بعض الحاميات المقدونية الساخطة على (انتيجونوس)، وتابع زحفه، وحاصر بابل، وتمكّن من فتحها في أول اكتوبر عام (٣١٢ ق.م)،

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ج١ ـ ص٢٩٤.

[2] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ مجلد أول ـ ص١٤٥.

حيث عدّ هذا اليوم عاماً لميلاد الإمبراطورية السلوقية وبداية التقويم السلوقي.

أغضب ما حدث انتيجونوس، وقرر أن يرسل حملة، غايتها غزو بابل، وعهد إلى ابنه ديمتريوس بقيادتها، وبعد أن تم حشد القوات في دمشق، وقوامها خمسة عشر ألفاً من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، تحرك من دمشق نحو بابل، أما سلوقس فنظراً لضعف قدرته العسكرية، فقد أخلى بابل، فدخلها ديمتريوس دون مقاومة، ثم قرر العودة دون نتيجة. في عام (٣١١ ق.م) عقد الصلح بين قادة الدولة المقدونية، وهم: (انتيجونوس وكاساندروس ولوسيماخوس وبطليموس). وقد حقق (انتيجونوس) نصراً، أكسبه نفوذاً كبيراً في بلاد الإغريق، إضافة إلى نفوذه بجوف سورية وكاريه، والاعتراف له بكل الولايات الشرقية، بما فيها ولايات سلوقس.

عند ذلك حاول (انتيجونوس) استعادة الولايات الشرقية عسكرياً من سلوقس، إلا أنه فشل، مما اضطره إلى عقد صلح مع سلوقس في بداية عام (٣٠٧ ق.م). ثم أخذ سلوقس يعمل على إخضاع المقاطعات الشرقية بكاملها لصالحه، وغزا المقاطعات الهندية لتأمين حدوده الشرقية، فعقد معاهدة صلح مع (تشاندرا جوبتا)، تضمنت هذه المعاهدة عقد مصاهرة بين الأسرتين المالكتين، وحصول سلوقس على (٥٠٠) فيل، وتأمين حدوده الشرقية مقابل التنازل لتشاندرا عن بعض المقاطعات الشرقية. في هذه المرحلة اتخذ خلفاء الاسكندر لقب (ملك).

بعد ذلك ازدادت أطماع (انتيجونوس)، لكن بعض قواد الاسكندر، وعلى رأسهم سلوقس وبطليموس وغيرهم، شكلوا حلفاً ضد هذه الأطماع، وتم لهم القضاء على انتيجونوس، وكانت كبرى الغنائم من نصيب سلوقس، حيث ربح سوريا من الفرات إلى البحر، بالإضافة إلى فروجيه، وما بين النهرين وأرمينية، وبذلك أصبحت المملكة السلوقية تمتد من أقاصي الهضبة الإيرانية إلى فروجيه. ثم نشب خلاف بين سلوقس وبطليموس حول امتلاك جوف سورية، التي كانت القوات البطليمية، قد احتلتها.

ومنذ عام (٣٢١ ق.م) أصبحت امبراطورية الاسكندر مقسمة بين ثلاثة من قواده، هم: سلوقس وبطليموس ولوسيماخوس. لكن الصراع استمر بين الثلاثة، لأن أطماع سلوقس كانت تتجلى في استيلائه على معظم امبراطورية الاسكندر. ففي عام (٢٨٢ ق.م) قاد سلوقس قواته نحو آسيا الصغرى، فاستولى على المدن الرئيسية فيها، ولم يحل عام (٢٨١ ق.م) حتى كانت معظم آسيا

الصغرى في قبضته، وعند (كوروبديون) في (لودية)، نشبت معركة فاصلة بين سلوقس وخصمه لوسيماخوس، انتهت بقتل الأخير. وبذلك يكون سلوقس قد سيطر على كامل امبراطورية الاسكندر، عدا مصر وممتلكاتها.

بعد هذه المعارك الحاسمة، قرر سلوقس السيطرة على سلوقية عاصمة الدولة المقدونية، مقر غريمه المقتول لوسيماخوس، لكن سلوقس وتحقيقاً لما ورد، وبعد أن عبر الدردنيل اغتيل، وذلك في مطلع عام (٢٨٠ ق.م.) ودفن في سلوقية بيريه (قرب مصب نهر العاصي)، وهناك بني له معبد، وأطلق عليه اسم (نيكاتوريون)، وتسلم سلطة السلوقيين أنطيوخس الأول ابن سلوقس.

أنطيوخس الأول (سوتر): استلم السلطة بعد والده سلوقس، حكم من (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م)، وكان بعيداً عن عاصمة الإمبراطورية، إلا أن سيطرته كانت محكمة لعوامل متعددة، منها: تمرسه في شؤون الحكم والحرب، وموالاة العنصر الفارسي له، وغنى هذه المنطقة كان كافياً لاستمراره، واستعادة أمجاد الدولة، بعد أن حررها من خصمه لوسيماخوس. في هذه المرحلة ثارت بعض دول آسيا الصغرى وسورية ضد أنطيوخس الأول، فقاد قواته نحو المدن السورية، وأخمد ثورتها، إلا أنه لم ينجح بنفس المستوى في إخضاع كافة مدن آسيا الصغرى.

في هذه المرحلة أضحى العالم الهلنستي مقسماً إلى ثلاث ممالك كبرى: السلوقية، البطليمية، الإغريقية. إلا أن الصراع، الذي دار بين أنطيوخس الأول والبطالمة، كان سببه استيلاء بطليموس الثاني على دمشق والساحل حتى أرواد، كما احتل ملطية أيضاً، ثم انشغل بحملة ضد الأنباط، ورغم ذلك تم صلح بين الطرفين عام (٢٧٩ ق.م)، لأن أنطيوخس كان مشغولاً في حروبه ضد بلاد الغال.

لقد قام بطليموس الثاني بتكريس احتلال جوف سورية، وكان السبب، الذي دفع البطالمة لمثل هذه الحرب، كما يذكر: هو أن أنطيوخس كان قد عقد زواج ابنته على ماجاس أخي بطليموس، وكان نائباً لأخيه، وحاكماً لإقليم (قورينائية)، وأجرى حلفاً معه ضد أخيه بطليموس في حال مطالبته بالسلطة.

أما أنطيوخس فبعد أن تمكّن من دحر الغال بعد موقعة الفيلة (٢٧٥ ـ ٢٧٤ ق.م)، توجه إلى سورية، وفي الوقت نفسه حرّك قواته باتجاه آسيا الصغرى لاسترداد مافقدته امبراطوريته عند مقتل أبيه. تمكنت القوات، التي قادها أنطيوخس إلى سورية من استرداد دمشق، وهزيمة البطالمة هذا

من جانب، وفي الجانب الآخر حدثت خسارتهم لكيكلية، وتوقفت الحرب بينهما في عام (٢٧٢ ق.م)، ثم توفي أنطيوخس الأول في (٢٦١ ق.م)، وخلفه على عرش الدولة السلوقية ابنه الأصغر باسم أنطيوخس الثاني.

أنطيوخس الثاني: تولى السلطة، وحكم في الفترة الواقعة ما بين أعوام (٢٦١ — ٢٤٦ ق.م)، وعمره أربعة وعشرون عاماً، وصف: بأنه كان ملكاً عابثاً، إلا أنه في الوقت نفسه جاد، حيث استطاع في عهده استعادة معظم مقاطعات الدولة السلوقية، ويذكر: أن فترة حكمه تعدّ من أعمق فترات تاريخ سورية. جرت بينه وبين بطليموس حاكم مصر حرب، وتمكن من الاستيلاء على معظم الساحل الغربي لآسيا الصغرى وجزيرة ساموس، كما حرر مدن الساحل السوري شمال صيدا من سيطرة البطالمة، ولما حدث تقارب بين السلوقيين والبطالمة، كانت النتيجة عقد معاهدة بينهما.

كان أنطيوخس متزوجاً من ابنة عمه لاوديكي، أنجبت له ولدين وابنتين، وعندما تزوج من برنيكي البطليمية، هجرته الأولى مع أولادها، وأقامت في مدينة أفسوس في آسيا الصغرى. وفي سنة (٢٤٦ ق.م) قرر الملك أنطيوخس زيارة زوجته الأولى، إلا أنه توفي بعد وصوله إلى أفسوس، فحدث صراع على السلطة، حيث رشحت كل زوجة من زوجاته ابنها لولاية العرش، فالزوجة الأولى أمرت: بأن ينادى بابنها ملكاً باسم سلوقس الثاني. أما زوجته الثانية البطليمية، فكان مركزها قوياً، وهي في عاصمة الدولة أنطاكية، وبيدها القادة، إضافة إلى المدن السورية الأخرى: كاللاذقية وأفامية وسلوقية بيريه، وكانت قد رأت: أن ابنها هو الوريث الشرعي، يضاف لما ورد مساعدة البطالمة للزوجة الثانية في مطالبها، ونتيجة هذه الانقسامات حدث صراع بين أنصار الطرفين.

كانت الزوجة الأولى في آسيا الصغرى في وضع قوي، لذلك قررت إعادة سلطتها على مركز الدولة السلوقية (أنطاكية)، لكن الزوجة الثانية استدعت الجيش البطليمي، وبعد وصوله إلى أنطاكية تم اغتيال الزوجة الثانية برنيكي، وقيل: اغتيلت قبل وصول هذا الجيش، وكان اغتيالها وقتل ابنها بتدبير من الزوجة الأولى لاوديكي.

تمكّن الجيش البطليمي من السيطرة على مقاطعات تراقية وشمال سورية، وتم لهم عبور الفرات والوصول حتى (باكتريانا) في الهضبة الإيرانية، وبعد أن فرض البطالمة سيطرتهم على معظم

الدول السلوقية، اضطر ملك البطالمة إلى العودة إلى مصر، بعد أن تفاقمت أزمة داخلية ضمن مصر، وفوّض بعض قواده في إدارة دفّة الحكم في آسيا الصغرى. في هذه المرحلة كان سلوقس الثاني ابن لاوديكي يحشد قواته في منطقة طوروس، وبعد أن اكتسب ولاء معظم المدن الإغريقية في آسيا الصغرى، قام بإجراءات، كانت أهمها: إجراء مصاهرات مع بعض حكامها من جهة، ومنح بعض هذه المدن بعض الامتيازات: كإعفائها من الضرائب الملكية لقاء إخلاصها للعرش.

في سنة (٢٤٤ ق.م) تمكن سلوقس الثاني من استعادة الولايات الوسطى والشرقية، وجانب من كليكيا، وكل سورية السلوقية عدا سلوقية بيريه، ثم حاول دفع خطر البطالمة إلى أبعد منطقة، إلا أنه ـ بحرياً ـ فشل. أما ـ برّياً ـ فقد قاد حملة على جوف سورية، فقابله البطالمة، وخسر هذه المعركة، ورجع إلى أنطاكية.

في هذا الوقت هاجم البطالمة دمشق، إلا أنه استردها، بعد أن ساعده أخوه أنطيوخس بقوات من آسيا الصغرى. بعد ذلك عقدت هدنة بين بطليموس الثالث وسلوقس الثاني، مدتها عشر سنوات، وقبل ذلك كان الأخوان سلوقس الثاني وأنطيوخس، قد اتفقا على أن يعترف سلوقس لأخيه أنطيوخس بآسيا الصغرى. فحدث صراع على السلطة بين الأخوين بالقرب من أنقرة، كانت نتائجها لصالح أنطيوخس، إلا أنه لقي حتفه أخيراً، وهو يحاول استعادة ملكه، وتوفي أخوه سلوقس الثاني سنة (٢٢٦ ق.م).

تسلم السلطة سلوقس الثالث (كيراونوس)، وهو ابن سلوقس الثاني الأكبر، الحكم من (٢٢٦ ـ ٢٢٣ ق.م)، وبعد تسلمه السلطة مباشرة، عهد إلى أخيه أنطيوخس بولاية العهد، وإدارة مقاطعات شرقي الامبراطورية، ولم يدم حكمه طويلاً، حيث قتل مسموماً من قبل أتباعه سنة (٢٢٣ ق.م)، وبعد مقتله نودي بأنطيوخس ملكاً على البلاد.

أنطيوخس الثالث (الكبير): تسلم السلطة بعد مقتل أخيه سلوقس الثالث، فحكم من (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م)، وعمره لا يتجاوز الثامنة عشرة، حيث اتخذ عدة إجراءات، منها تعيين أحد قادته، وأمره بإدارة أمور آسيا الصغرى، والعمل على استرداد المغتصب منها[1]، كما عهد إلى قادة آخرين بحكم مقاطعات ماوراء دجلة، وعين قائداً للجيش.

بعد ذلك عمل على استخلاص جوف سورية من البطالمة، فقاد قواته، واحتل بعلبك على

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٤٧.

طريق دمشق بيروت. وجد أنطيوخس نفسه أمام خط دفاع قوي، عند ذلك وضع الخطط الحربية لاختراق الدفاعات البطليمية. في هذا الوقت وصلته أنباء عن هزيمة قواته في الشرق، وسقوط سلوقية دجلة، فقرر وقف حملته والعودة إلى أنطاكية لتدارك هذا الخطر. فلما وصل إلى أنطاكية، عقد مجلساً حربياً، حضره أعوانه، فتقرر القضاء على التمرد، الذي حدث ضده في ولاياته الشرقية، لذلك قاد قواته بنفسه، وفي منطقة سهل الغاب (في قاعدة أفامية العسكرية)، ظهر تمرد داخل قواته، إلا أنه تمكّن من سحقه.

وفي ربيع عام (٢٢١ ق.م) زحف أنطيوخس بقواته شرقاً وعبر الفرات، حيث اضطر أمام الظروف الجوية القاسية إلى البقاء مدة من الزمن في (ميسوبوتامية)، وفي ربيع السنة التالية (٢٢٠ ق.م) تابع تقدمه نحو دجلة، وصدرت أوامره بعبور هذا النهر، ثم تقدم جنوباً، حيث استطاع تحرير مدينة دورا، وأقام فيها فترة من الزمن، يعدّ العدّة.

ثم التقى مع خصمه (مولون) المتمرد عليه، وتمكن من القضاء عليه، وبعد إعادة تنظيم الولاية تحت إشرافه، تحرك بقواته نحو سلوقية دجلة، ثم عاد إلى أنطاكية. في هذه المرحلة، وفي سنة (٢٢٠ ق.م) حاول أحد قادته (اخايوس) اغتصاب السلطة، حيث قاد قواته مستغلاً وجود أنطيوخس في الشرق، وفي طريقه باتجاه أنطاكية، وفي مدينة اللاذقية (في فروجية) أعلن نفسه ملكاً، ولما سمع أنطيوخس بذلك، لم يحرّك ساكناً ضده.

بعد ذلك قرر أنطيوخس استخلاص جوف سورية من البطالمة، لذلك عقد مجلساً حربياً، حيث وافق المجلس على قرار الملك. ثم جهز قواته، وتوجه بها إلى سلوقية (على نهر العاصي) لتحريرها من البطالمة. في الوقت نفسه أمر قواته البحرية بمحاصرتها بحرياً، بينما حاصرها هو برياً، كما وجه قواته لتحرير جوف سورية. بعد مقاومة قليلة في سلوقية، تمكن أنطيوخس من تحريرها. أثناء ذلك دخل في طاعته حاكم البقاع البطليمي (تيودونوس)، وتمكن من احتلال معظم حصون البقاع، وبعد احتلاله صور وعكا تقدم باتجاه فلسطين. وعندما علم بطليموس الرابع بذلك، عزل قائده تيودونوس، وعين بديلاً عنه (نيكولاوس)، وجهزه بقوات، وعندما وصل هذا القائد إلى بلده دورا (في فلسطين)، أدرك عجزه عن المقاومة.

أثناء ذلك عرض عليه بطليموس إجراء هدنة لمدة أربعة شهور، تجري خلالها مفاوضات لتقرير وضع جوف سورية، وفي سنة (٢١٨ ق.م) وصلت إلى أنطاكية وفود مصرية للتفاوض،

وكانت الوفود المصرية تبغي إطالة الوقت، كي يتسنى للبطالمة إعداد جيش قوي، يستطيع به مقاومة أنطيوخس وردعه. كانت الوفود المصرية خلال مفاوضاتها تؤكد أحقيتها في جوف سورية مع مرور الزمن، حيث لم ينقطع الحكم البطليمي لها منذ عهد الاسكندر المقدوني، أي ما يقارب من ثلاث وثمانين سنة.

عندما علمت الوفود المصرية في أنطاكية، أن الجيش المصري قد تم تشكيله، وأكمل استعداده، قطعت المفاوضات بأمر من بطليموس الرابع سنة (٢١٨ ق.م)، فأدرك أنطيوخس نيّة البطالمة، فقاد قواته من سلوقية على نهر العاصي إلى عمريت (ماراتوس). وإلى القلمون (كالاموس)، فأحرقها نتيجة امتناع حاميتها عن تسليمها، ثم احتل البترون (بورنوس)، واحتل بيروت، وعند نهر الدامور التقى أنطيوخس بأسطوله.

في هذا الوقت كان الجيش البطليمي يحصن قواته عند ممر (بلاتانوس) شمال صيدا، تساعده قوة بحرية، قوامها ثلاثون سفينة حربية، وعدد من سفن التموين، وهناك جرت معركة برية وبحرية، انتصر فيها أنطيوخس، واضطرت القوات البطليمية إلى الالتجاء إلى داخل أسوار صيدا. عند ذلك أمر أنطيوخس أسطوله بالتحرك إلى صور، وتحرك هو بقواته البرية نحو فلسطين ماراً بصفد، فاحتل في طريقه كلاً من (فيلوتريه ـ سكوتوبوليس ـ بيسان ـــ واتابوريون)، واستسلمت جرش. في هذا الوقت آيّد سكان المنطقة من العرب أنطيوخس، فعين منهم حوالي عشرة آلاف مقاتل، ووضع على رأسهم القائد العربي (زبدي بعل).

عندما علمت السلطات البطليمية في عمان (فيلادلفيه) بخروج العرب سكان المنطقة، وانضمامهم إلى أنطيوخس، أرسلت بعض القوات لمهاجمتهم، وعندما علم أنطيوخس بذلك، هاجم عمان نفسها، واستولى عليها، ومنها أرسل قوة مؤلفة من خمسة آلاف من قواته لإخضاع السامرة، وعاد مع معظم قواته إلى عكا لقضاء فصل الشتاء. في هذه المرحلة، وصلت أخبار إلى أنطيوخس من آسيا الصغرى، تعلمه بسيطرة قواته هناك على الموقف، مما رفع من معنوياته، ومعنويات قواته في الاستمرار في القتال.

في سنة (٢١٧ ق.م) تحرك أنطيوخس بجيشه من عكا، وكان قوام جيشه يتألف من اثنين وستين ألفاً من المشاة، وستة آلاف من الفرسان، وعشرة آلاف من العرب سكان المنطقة، بالإضافة إلى مئة واثنين من الفيلة الهندية، ثم قاد قواته، فاجتاز رفح باتجاه الجيش البطليمي، الذي كان

يعسكر على بعد ستة كيلومترات جنوبي رفح. كان الجيش البطليمي يتألف من خمسين ألفاً من المشاة، وخمسة آلاف فارس، وثلاثة وسبعين فيلاً، وفي (٢٢) حزيران من سنة (٢١٧ ق.م)، التقى الجيشان بترتيب قتال (قلب وميمنة وميسرة)، فكان ترتيب الجيش المصري على الشكل التالي: بطليموس يقود الجناح الأيسر، وأمامه أربعون فيلاً، أما أنطيوخس، فكان في الميمنة وأمامه ستون فيلاً.

وبدأت المعركة بين الطرفين، حيث تمكن أنطيوخس وهو في الميمنة، من الانتصار على خصمه، بواسطة فيلته، التي استطاعت التغلب على فيلة الخصم، وتمكن من الإجهاز على ميسرة خصمه، ومطاردة الفرسان البطالمة، وترك جيشه دون قائد. أما بطليموس فقد تمكن من قيادة القوات البطليمية، واستطاع بذلك أن يدحر قوات أنطيوخس، فلما عاد أنطيوخس من مطاردة البطالمة، وعلم بما حدث، جمع بعض قواته، وعاد بها إلى رفح، وقد خسر في هذه المعركة عشرة آلاف من المشاة، وثلاثمائة فارس، وأربعة آلاف أسير. أما خسائر بطليموس، فكانت ألفاً وسبعمائة من المشاة، وسبع مائة من الفرسان، وجميع فيلته.

بعد ذلك قرر أنطيوخس العودة إلى أنطاكية، كما قرر إرسال رسول إلى بطليموس، يعرض عليه عقد صلح لمدة سنة، فوافق، وتم عقد صلح في أنطاكية، حيث تم بموجبه تنازل أنطيوخس عن حقوقه في سورية المجوفة، واحتفاظه بسلوقية. بعد ذلك تمكن أنطيوخس من القضاء على المتمردين في دولته، وقاد حملة إلى الشرق، فلما وصل (ميدية) ضرب فيها نقوداً ذهبية باسمه، ثم احتل العاصمة البارثية (هكاتومبولوس)، وتحرك باتجاه (باكترية)، وحاصر بلخ، حتى استسلمت صلحاً، ثم تابع سيره، حتى وصل إلى حوض نهر السند. وبعد أن استتبت أمور دولته الشرقية، عاد إلى عاصمته الشرقية سلوقية على نهر دجلة، فوصلها (٢٠٥ ق.م)، واتخذ منذ ذلك التاريخ لقب الملك الأكبر.

فكر أنطيوخس في ولاء القبائل، التي كانت تمارس بنجاح التجارة مع الهند، علماً أن الطريق البري للتجارة، كان يقع تحت سيطرة سلطة دولة عربية، تقع على الساحل الغربي للخليج العربي، تدعى (جرها)، وجرها هي اسم عاصمة هذه الدولة، وكان لهذه الدولة علاقة تجارية واسعة مع البتراء عاصمة الأنباط، ومكة والمدينة واليمن وبابل وجنوب سورية.

قرر أنطيوخس الثالث مهاجمة هذه الدولة، فأبحر من دجلة نحو الخليج العربي، فلما وصل

سواحل البحرين، تلقى رسالة من حكام هذه الدولة، يعلنون له فيها عن ولائهم لـه وتنفيـذ أوامره، وأرسلوا له كمية من الفضة، فعاد إلى سلوقية دجلة، ومنها إلى أنطاكية عاصمته الغربية، وهناك أخذ يعد العدة لاسترداد ممتلكاته في سورية وآسيا الصغرى. في هذه المرحلة كـان العـالم يقسـم إلى ثلاثـة قوى هي: روما، سوريا، مقدونية. خـلال هـذه المرحلـة عقـدت تحالفـات بـين هـذه القـوى، منهـا معاهدة بين أنطيوخس الثالث وفيليب المقدوني، وكان من بنودها: اقتسام الممتلكات البطليمية.

بعد ذلك جهز أنطيوخس الثالث حملة سنة (٢٠١ ق.م)، احتل بموجبها معظم مـدن جـوف سورية، في هذه المرحلة وفد على الاسكندرية عاصمـة البطالمة وفـد رومـاني، غايتـه إظهـار التـأييد للبطالمة، فلما علم أنطيوخس الثالث بنوايا هذه الزيارة، توجهت قواته سـنة (١٩٩ ق.م) نحـو آسيا الصغرى، وغايته تقديم العون لحليفه فيليب المقدوني.

عند ذلك تحـرك البطالمـة بقواتهـم باتجـاه سـورية، فتمكنـوا مـن طـرد الحاميـة السـلوقية مـن فلسطين، فلما علم أنطيوخس بذلك، توجه بقواته سنة (١٩٨ ق.م) عبر طوروس إلى منطقة البقـاع في سورية، حيث أنزل ضربة قاسية بالجيش البطليمي، وتمكن مـن تحريـر كـامل جـوف سـورية مـن البطالمة لأول مرة. في هذه المرحلة جرت حروب بـين رومـا وفيليـب المقدونـي، تمكنـت رومـا مـن الانتصار، وحولت فيليب المقدوني إلى تابع لروما، إثر معركة تسالية سنة (١٩٧ ق.م).

أما أنطيوخس فقـد رأى في الصـراع مـابين رومـا وفيليـب المقدونـي فرصـة لـه لاسـترداد ممتلكاته الوراثية في آسيا الصغرى وتراقية. وفي عـام (١٩٧ ق.م) كـان أنطيوخـس قـد أعـد حملـة، تمكن بواسـطتها مـن احتـلال الممتلكـات البطليميـة في كليكيـا ولوكيـة وكاريـة، وحـاصر مقاطعـة (بامقوليـه). في هـذا الوقـت أدرك الرومـان، وهـم في حالـة حـرب مـع المقدونيين، خطـر زحـف السلوقيين، فأوعزت روما إلى حليفتها رودوس بإرسال وفد إلى أنطيوخس، يطلب فيه احترام المـدن الإغريقيـة واستقلالها، فدخـل أنطيوخـس في مفاوضـات حـول هـذا الموضـوع، وكـانت نتيجـة المفاوضات: احترام حريـة الممتلكـات القاريـة لـرودوس وبرجامـة، علـى أن تتعهـد رودوس بدعمـه سياسياً لاسترداد ممتلكاته، علماً أن أكثر هـذه المفاوضـات والمعـاهدات والعلاقـات، لم تكـن تمليهـا الظروف السياسية، وهذا ناتج عن عدم الاستقرار السياسي.

بعد ذلك بوقت قصير، قام أنطيوخس باحتلال (افسوس)، وحاصر(ازمـير ولاميسـاكوس)، فاستنجدت بروما، ولم يحن عام (١٩٦ ق.م) حتى كان أنطيوخس قد استولى على بعض ممتلكات

حليفه فيليب المقدوني، الذي خسر الحرب أمام روما، ووصل إلى أقصى شمال الساحل الغربي لآسيا الصغرى، كما استولى على إقليم تراقية، وبذلك يكون أنطيوخس قد حقق حلمه في استعادة امبراطوريته. بالطبع تلقت روما طلب النجدة الوارد الذكر، ووجهت إنذاراً إلى أنطيوخس بوجوب التخلي عن المدن الإغريقية المستقلة، كما رد أنطيوخس على الوفد الروماني، الذي يحمل الإنذار، بأنه لا يسمح لروما بالتدخل في شؤون آسيا، مقابل عدم تدخله في إيطاليا ومدنها.

عندما علم أنطيوخس بنبأ وفاة بطليموس، قطع المفاوضات، وأبحر نحو مصر، وفي طريقه علم أن هذا النبأ عارٍ عن الصحة، فنزل سلوقية العاصي، ثم عاد إلى أنطاكية، وهناك عمل على تقوية نفسه عن طريق إجراء مصاهرات من جهة، وكسب ود جيرانه من جهة أخرى، بالإضافة إلى عقد معاهدة تحالف مع بلاد الغال، وبذلك تمكن في عام (١٩٥ ق.م) من أن يضمن مودة جيرانه، ويحقق الأمان والاستقرار لامبراطوريته.

قرر أنطيوخس إرسال وفد إلى روما، وهناك عرض الوفد صداقة أنطيوخس لروما، وطلب الاعتراف بسيطرة أنطيوخس على أصقاع أوروبة، فوافق الرومان على الطلب الأول، فيما رُفض الطلب الثاني. بعد ذلك أرسلت روما وفداً إلى أنطاكية لإتمام المفاوضات. بدأت المفاوضات سنة (١٩٣ ق.م)، إلا أنها توقفت نتيجة خلاف بين الطرفين، وعاد الوفد الروماني إلى روما، وبدأت بوادر الحرب في الأفق بين الطرفين دون الإعلان عنها.

وكنتيجة لهذا الموقف الجديد، عقد أنطيوخس اجتماعاً مع القادة، تقرر فيه الحرب ضد روما مع عدم رغبته في ذلك، إلا أنها هي التي فرضت نفسها على الطرفين. فأصدر تعليماته إلى قادة جيشه بالاستعداد في كافة الميادين البرية والبحرية. ثم قاد قواته البالغ قوامها عشرة آلاف مقاتل، وخمسمائة فارس، وستة أفيال، وثلاثمائة سفينة متنوعة، يقودها (هانيبال القرطاجي)، الذي تمكن من اجتياز بحر ايجة إلى البر الأوروبي، وتمكن من السيطرة على بعض الدويلات الإغريقية في بلاد اليونان الوسطى. وكان الرومان قد أعدوا جيشاً قوياً، قوامه عشرون ألفاً من المشاة، وألفان من الفرسان، وخمسة عشر فيلاً، وفي الوقت نفسه وجه هذا الجيش إلى بلاد اليونان، عندما علم أنطيوخس بهذا الجيش القوي المتفوق، أرسل بطلب إمدادات من سورية.

في عام (١٩٠ ق.م) بدأ الرومان هجومهم على السلوقيين، فحققوا انتصاراً ساحقاً، وهرب أنطيوخس إلى أفسوس، حيث أخذ يعمل على إعادة تجميع قواته، وتكوين جيش قوي، في هذا

الوقت كانت روما قد أعدت جيشاً جديداً. تمكن الرومان في النهاية من تحقيق الانتصار، فاضطر أنطيوخس أمام عجزه عن الاستمرار بالقتال إلى إرسال وفد إلى روما، يعرض عليها شروط صلح، تمليها روما، التي تضمن بالدرجة الأولى جلاء قوات أنطيوخس عن آسيا الصغرى إلى ماوراء جبال طوروس.

خلال هذه المرحلة كان أنطيوخس يعد جيشاً، بلغ قوامه خمسة وسبعين ألفاً، وفي عام (١٨٩ ق.م) التقى مع الرومان في معركة، كانت نهايتها لصالح روما، وبذلك اضطر إلى عقد معاهدة صلح معها، دعيت معاهدة أفاميا، تعهد أنطيوخس فيها بإخلاء جميع مدن أوربا، وآسيا الصغرى حتى جبال طوروس. كما وافق على دفع غرامة، وعلى تسليم جميع فيلته، وسفنه الحربية، ومجموعة الرهائن. وفي النتيجة كانت نهاية أنطيوخس بشكل غامض عام (١٨٧ ق.م)، فتسلم العرش ابنه الأصغر سلوقس. الذي حمل اسم سلوقس الرابع (فيلوباتور)، حكم من (١٨٧ ـ ١٧٥ ق.م)، وصف بأنه كان ضعيف الشخصية، ولا توجد أحداث مهمة في عهده، اغتيل عام (١٧٥ ق.م)، وتسلم السلطة بعده ابنه أنطيوخس.

أنطيوخس الرابع (أيتانس): حكم باسم أنطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م)، وصف بأنه كان ملكاً ذكياً نشيطاً مقتدراً. في عهده، قرر البطالمة استعادة جوف سورية من السلوقيين. « كان أنطيوخس الرابع يمني نفسه بأمنيتين: الأولى: مهاجمة مصر وإنزال الهزيمة بها، والثانية: نشر الثقافة الهلينية والفكر الهليني في منطقة الشرق الأدنى، وهي السياسة، التي اتبعها الاسكندر الكبير وخلفاؤه من بعده »[1].

تحركت قواته نحو جوف سورية باتجاه مصر، بعد أن أعلم روما بما حدث، وفي سيناء التقى السلوقيون بقيادة ملكهم أنطيوخس الرابع بالبطالمة، فانتصر عليهم، وتقدم باتجاه (ممفيس)، ثم حاصر الاسكندرية العاصمة المصرية، وجرت مفاوضات بين الطرفين، ثم انسحب أنطيوخس، وعاد إلى عاصمته في ظروف غامضة.

وفي عام (١٦٨ ق.م) قاد حملة ثانية إلى مصر، وأرسل أسطولاً إلى قبرص للاستيلاء عليها، وحاصر الاسكندرية. في هذا الوقت كان البطالمة قد طلبوا المساعدة من روما، التي أرسلت بدورها سفيراً إلى أنطيوخس، يطلب منه الانسحاب من مصر، وتم انسحابه فعلاً.

---

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٤٨.

في عام (١٦٧ ق.م) أجرى أنطيوخس احتفالات في دفنة قرب أنطا ًكية، وبعدها حاول صبغ الطوائف والشعوب التابعة له بالصبغة الإغريقية. ولتنفيذ ذلك أجرى بعض الإجراءات في هذا المجال، فاعترض اليهود عليها، وكانوا أمام ذلك الموقف قد انقسموا مابين مؤيد ومعارض لسياسته.

كان أنطيوخس الرابع قد قرر إكراه اليهود المناهضين لسياسته على التخلي عن معتقداتهم، وذلك بالقضاء على نفوذهم الديني والسياسي، ولتنفيذ ذلك أرسل عام (١٦٧ ق.م) أحد قادته بأوامر، طلب منه تنفيذها بالقوة، واتخذ هذا القائد إجراءات، منها: إلغاء إقامة الطقوس الدينية اليهودية، واستبدال الإله يهوه اليهودي بالإله زيوس، وإقامة مذبح على النمط الإغريقي، حول معبد يهوه على جبل طور يتبع إلى معبد الإله زيوس، وحرم الختان، وأوجب أكل لحم الخنزير.

انقسم اليهود كما ذكرنا إلى قسمين، مؤيدين: أقاموا في أورشليم، وهرب الرافضون إلى الجبال، مشكلين حركة معارضة يقودها يهوذا المكابي، حيث تمكنت المعارضة في النتيجة من فرض شروطها، وإلغاء الإجراءات السابقة في عام (١٦٤ ق.م). في هذه المرحلة توفي أنطيوخس الرابع، وتسلم السلطة أنطيوخس الخامس، الذي حكم من (١٦٤ ـ ١٦٢ ق.م)، وكان طفلاً صغيراً، فعهد إلى أحد القادة بالوصاية عليه، وهو (لوسيان). في هذه المرحلة قاد لوسيان قواته إلى فلسطين، وحارب المكابيين اليهود، وهدم قلاعهم، وأبقى حامية في أورشليم، ثم عاد إلى أنطاكية. عندما علمت روما بالأحداث، أرسلت وفداً إلى سورية للتحقيق فيما وصل إلى روما من مخالفة السلوقيين بنود اتفاقية أفامية، وعندما وصل إلى اللاذقية، قُتل رئيس الوفد، فقرر الرومان التخلص من لوسيان، وفي عام (١٦٢ ق.م) مات أنطيوخس الخامس.

ديمتريوس الأول (سوتر)[1]: هو ابن سلوقس الرابع البكر، كان رهينة عند روما، حكم من (١٦٢ ـ ١٥٠ ق.م)، هرب من روما، فوصل عام (١٦٢ ق.م)، واستطاع استعادة العرش الذي اغتصب، وقضى على مغتصبي السلطة، وأعدمهم. أغضب تصرف ديمتريوس روما، فأثارت ضده اليهود، ووقّعت معهم معاهدة، ووعدتهم بالمساعدة في حال تعرضهم لأي خطر، وبذلك أخذ اليهود يوحّدون صفوفهم، وكوّنوا إمارة صغيرة. اعترفت روما بديمتريوس ملكاً عام (١٦١ ق.م). بعد ذلك قضى على تمرد، حدث في الدولة، إلا أنها كانت تعمل للإطاحة به، وتمكنت من ذلك عام (١٥٠ ق.م). وتولى عرش الدولة السلوقية اسكندر بالاس.

(1) مفيد العابد: دراسات في تاريخ الإغريق ـ ص٢٤٧.

حكم اسكندر بالاس من (١٥٠ ـ ١٤٦ ق.م)، وبعد استلامه السلطة قتل خصومه من أبناء ديمتريوس الأول، وتزوج من ابنة بطليموس السادس، وكان زواجه هذا أحد أسباب تبعيته للبطالمة، وأكد ذلك فيما بعد اتخاذه صورة النسر البطليمي والمعيار الفينيقي في صك نقوده، عوضاً عما كان سائداً لدى الدولة السلوقية، وكانت إقامته في عكا، وترك شؤون الدولة إلى أحد أعوانه، فعادت بمجمل تصرفاته عليه بالكراهية والرغبة في الانتقام منه.

أخذ ديمتريوس بن ديمتريوس الأول، يعد العدة لاستعادة عرش أبيه، الذي اغتصب، لذلك قام بإعداد حملة، وقادها، فنزل في كليكية شمال سورية. عندما علم اسكندر بالاس بذلك تحرك من عكا، وتوجه إلى أنطاكية، في هذه المرحلة أعلن حاكم جوف سورية تأييده لديمتريوس نيابة عن المدن الفلسطينية، فكلف اسكندر بالاس الحاكم اليهودي (يوناثان) بالتصدي لحاكم جوف سورية، وجرت معركة بين الطرفين في اشدود، انتصر فيها يوناثان. أما بطليموس السادس، فاستغل الظروف، وقاد قواته في عام (١٤٧ ق.م)، ودخل فلسطين، فرحبت به المدن الفلسطينية، واعتبرت وجوده درعاً، يحميها من تعديات اليهود، وتابع بطليموس زحفه إلى يافا، وهناك اجتمع به حاكم اليهود يوناثان، ورافقه إلى النهر الكبير الشمالي، نهاية حدود جوف سورية.

عندما علم (اسكندر بالاس) بما أقدم عليه البطالمة، أزعجه تصرفهم، فدبر مؤامرة لاغتيال بطليموس إلا أنها فشلت، أثناء ذلك طلب بطليموس من اسكندر بالاس مدبري المؤامرة، فرفض تسليمهم له، فأرسل بطليموس إلى ديمتريوس، يعرض عليه محالفته، فوافق الأخير، وبذلك أصبح اسكندر بالاس في موقف شائك يصعب الاستمرار به، فعهد اسكندر بالاس بابنه أنطيوخس (من كليوباتره) إلى أحد أمراء العرب، وفر إلى تلال كيليكية، لعله يتمكن من إعداد قوات، تساعده على استمرار القتال. أما في أنطاكية، فقد عرض العرش على بطليموس، فرفض خشية إغضاب روما، وحث الأهالي على قبول ديمتريوس ملكاً.

ديمتريوس الثاني (نيكاتور): استجاب أهالي أنطاكية وقادتها لنصيحة بطليموس، واستدعي ديمتريوس إلى عاصمته، وعقد قرانه على كليوباتره الثانية، حكم من (١٤٦ ــ ١٣٨ ق.م)، وكان (اسكندر بالاس) قد أعد بعض القوات لاسترجاع عرشه، إلا أنه هزم، وقتل من قبل أتباعه مقابل عفو ديمتريوس عنهم، فتم ذلك. في عهده ازدادت أهمية اليهود في فلسطين بزعامة يوناثان المكابي، الذي استولى على بعض المراكز الإدارية في شمالي فلسطين.

أما في أنطاكية فقد تعرض سكانها لأشد أنواع القهر والظلم والقتل، فكان ذلك سبباً في قيام ثورة في أنطاكية، فاستنجد ديمتريوس بيوناثان المكابي اليهودي، فأرسل الأخير قوة من المرتزقة الحاقدين، فلما وصلوا إلى أنطاكية قتلوا، وسلبوا، ونهبوا، فكان سلوكهم الحاقد هذا سبباً في إعلان الثورة، التي قادها أنطيوخس بن اسكندر بالاس، الذي كان ملقباً عند أحد أمراء العرب باسم (أنطيوخس السادس)، وكان مقر قيادته في أفاميا السورية.

وجرت معركة بين الطرفين، هزم فيها ديمتريوس، وفرّ إلى سلوقية العاصي. في الوقت نفسه دخل أنطيوخس أنطاكية منتصراً، وبذلك كانت سورية مقسمة إلى قسمين: ديمتريوس في سلوقية العاصي، وأنطيوخس في أنطاكية، ودانت له سورية الداخلية، في حين دانت سورية الشمالية وماوراء الفرات لحكم ديمتريوس الثاني. وقف اليهود في هذا الصراع إلى جانب أنطيوخس السادس، فمنح الأخير أحد قادتها، وهو أخ يوناثان كل سورية المجوفة، باستثناء فينيقية، التي كانت لا تزال خاضعة لديمتريوس، ولطبيعة اليهود في التفاعل، أخذ يوناثان يتوسع لحسابه، واتصل بروما من أجل الاعتراف به. أغضبت هذه التصرفات أنطيوخس السادس، مما جعل (تريفون) وزير أنطيوخس، يقود مجموعة من قواده، ويتجه نحو بيسان، وهناك استقبل (تريفون) يوناثان، وطلب إليه إعادة الجيش، الذي برفقته إلى أورشليم، واتجه برفقة يوناثان إلى عكا، وفي داخل عكا أُسر يوناثان، وقتل بعض رجاله.

عندما علم اليهود بذلك، انتخبوا سمعان الأخ الأصغر ليوناثان كاهناً أعظمياً، وأخذوا يحصنون مواقعهم، وخاصة أورشليم ويافا. أما تريفون فاتجه شمالاً، واغتصب الملك، وأعلن اغتيال أنطيوخس.

وكنتيجة لذلك أخذ اليهود يدعمون ديمتريوس، الذي اتخذ، كما ذكرنا، سلوقية العاصي مقراً له، فأرسل ديمتريوس إلى زعيمهم سمعان كتاباً، يعفي فيه اليهود من كافة أنواع الضرائب، وتخلى لهم عن الحصون، وكان ذلك في يوم (٢٣ أيار عام ١٤١ ق.م). فأصبح هذا اليوم عند اليهود عيداً وطنياً، واعتمدوه اعتباراً من هذا التاريخ كتقويم جديد.

في هذا الوقت تمكن البارائيون بقيادة ملكهم، من احتلال إقليم بابل، واستولوا على سلوقية دجلة، العاصمة الشرقية للدولة السلوقية، علماً أن هذه المنطقة كانت تابعة لديمتريوس الموجودة في مدينة سلوقية العاصي، فجهز ديمتريوس قواته، وانطلق شرقاً، إلا أنه فشل وأسر، وتفرق جيشه،

وبذلك انفرد (تريفون) المغتصب للعرش بالحكم.

قاد المعارضة في هذه المرحلة أنطيوخس السابع ابن ديمتريوس الأول، وشقيق ديمتريوس الثاني، فدعي إلى سلوقية العاصي، وتزوج من كليوباترة زوجة أخيه، وتسلم السلطة.أما تريفون فأصبح موقفه حرجاً وضعيفاً، فغادر أنطاكية، وتحصن في مدينة دورا، وغايته كسب ود اليهود، وتأييد البطالمة، وهناك حاصره أنطيوخس، فهرب إلى عكا، ومنها إلى أفامية، وفيها انتحر.

وعندما خلا الجو لأنطيوخس، وبعد توحيد سورية عام (١٣٧ ق.م)، أرسل إلى حاكم اليهود سمعان يطلب منه دفع الجزية، فرفض هذا الطلب، فكلف أنطيوخس السابع أحد قواده حاكم الشاطىء الفلسطيني بالتصدي، وجرت معركة بين الطرفين، خسرها أنصار أنطيوخس السابع. في عام (١٣٤ ق.م) قاد أنطيوخس السابع حملة باتجاه فلسطين، في هذه المرحلة اغتيل سمعان من قبل أحد أقربائه، إلا أن يوحنا بن سمعان سرعان ما استعاد السلطة، ونصّب نفسه كاهناً أكبر. في هذه المرحلة حاصر أنطيوخس السابع أورشليم، فاستسلمت بعد مقاومة، دامت حوالي سنة كاملة، ففرض غرامة وجزية على المدن والأقاليم، التي يسيطر عليها اليهود، ثم عاد إلى أنطاكية عام (١٣٢ ق.م).

بعد ذلك جهز أنطيوخس جيشاً قوياً، بلغ قوامه حوالي (٨٠ ألفاً)، وعبر بهم الفرات، واشتبك مع البارثيين، وهزمهم في ثلاث معارك، وفي عام (١٣٠ ق.م) كانت معظم إيران القريبة من سورية، قد أصبحت تحت سلطة أنطيوخس السابع، لكن استمرار القتال فيما بعد أودى بحياة أنطيوخس السابع، وأطلق سراح ديمتريوس الثاني.

عاد ديمتريوس إلى أنطاكية، وتسلم السلطة، ثم حاول تكوين جيش، وقاده إلى مصر، إلا أنه فشل، وعاد بعد أن وصل إلى سيناء. خلال هذه المرحلة ظهرت معارضة جديدة لديمتريوس، تقودها زوجته كليوباترة، وكانت قد انتقلت إلى عكا، وتحصنت بها. كما تمكن البطالمة في مصر من إظهار منافس جديد لديمتريوس هو اسكندر زابيناس، وبمساعدة المصريين تمكن من الوصول إلى السلطة، وانتصر على ديمتريوس، الذي لقي حتفه. أما كليوباترة فاستمرت بالمعارضة من عكا للحاكم الجديد.

يبدو أن البطالمة المصريين، خشوا الملك الجديد، الذي أيدوه في الوصول إلى السلطة، لذلك انقلبوا ضده، وأيدوا كليوباترة المتحصنة في عكا، التي أعلنت ابنها ملكاً شرعياً باسم أنطيوخس

الثامن (جرويوس). أرسل البطالمة بعض قواتهم لمساعدة الملك الجديد (ابن كليوباترة) لاستعادة حقه المغتصب، وفي عام (١٢٢ ق.م) جرت معركة بين (اسكندر زابيناس) والقوات البطليمية، هزم فيها الاسكندر، وهرب إلى أنطاكية، وهناك قبض عليه، وسلم إلى أنطيوخس الثامن، فأمر بقتله.

بعد ذلك اختلف أنطيوخس الثامن مع والدته كليوباترة المتسلطة، وفي النتيجة تخلص من أمه، بعد أن سقاها السم عام (١٢٠ ق.م). عندما سمع أنطيوخس ابن كليوباترة وشقيق أنطيوخس بمقتل أمه، أعلن الحرب على أخيه، ولقب أنطيوخس التاسع، وحدثت صراعات أسرية حادة، تدخلت فيها عوامل خارجية، فزادتها مرارة، كتدخل البطالمة. وبذلك انقسمت الدولة بين الأخوين، وازداد نفوذ اليهود بدعم روما، وازداد تسلط اليهود وظلمهم وتعديهم، حيث استنجدت المدن بالبطالمة، وخاصة مدينة عكا عام (١٠٤ ق.م)، وأوقع البطالمة الهزيمة باليهود.

خلال هذه المرحلة كان الأنباط في المنطقة قوة، يحسب لها حساب، وخاصة في عهد الملك الحارث الثاني، الذي تمكن من التغلب على كل المناطق المتاخمة للصحراء على حدود سورية ومصر. وفي غمرة هذه الأحداث تمكن (هراكليون)، وهو من حلب من قتل أنطيوخس الثامن، وحاول السيطرة على الدولة، إلا أنه فشل، وعاد إلى حلب، وأسس فيها مملكة مستقلة، ضمت منبج وهرقلية، وبعد ذلك قتل أنطيوخس التاسع (الكوزيكي) من قبل أحد أولاد أنطيوخس الثامن (جريوس).

بعد هذه الأحداث، حكم سلوقس السادس ابن أنطيوخس الثامن من أنطاكية، وادعى أنطيوخس العاشر أحقيته بالعرش في جزيرة أرواد، حيث تمكن من الاستيلاء، فيما بعد على أنطاكية، بينما فرّ سلوقس السادس إلى كيليكية، وأنشأ مملكة، إلا أنه قتل من الشعب هناك لسلوكه السيء في معاملته لهم. بعد سلوقس تسلم السلطة في كيليكية، أخواه: أنطيوخس الحادي عشر وفيليب، وحاولا احتلال أنطاكية، إلا أن أنطيوخس العاشر تمكن من هزيمتهما، فقتل أنطيوخس الحادي عشر، بينما فر فيليب إلى عاصمته كيليكية.

ثم ظهر على المسرح دیمتریوس السادس، وهو ابن أنطيوخس جريوس، وطلب العون والمساندة من حكام قبرص، فأمدوه بالقوات، فتمكن بواسطتها من استخلاص سورية الجنوبية، واتخذ دمشق عاصمة له، وبذلك أصبحت سورية ثلاث ممالك: واحدة في كيليكيا، والثانية في أنطاكية، والثالثة في دمشق.

تمكن ديمتريوس من احتلال أنطاكية عاصمة أخيه أنطيوخس العاشر في عام (٨٧ ق.م)، ثم هاجم حلب، وكان أخوه فيليب في زيارة لها، فاستنجد بأمير عربي يدعى: عزيز، يقيم في شمال سورية، كما استنجد بحاكم بلاد ما بين النهرين، ففك الحصار، وأسر ديمتريوس وانتهى أمره. أما فيليب فعاد إلى مقر عاصمته أنطاكية.

بعد أسر ديمتريوس، تسلم السلطة بدمشق بدلاً عنه أخوه أنطيوخس الثاني عشر عام (٨٦ ق.م)، وعندما كان أنطيوخس الثاني عشر يقاتل الأنباط، انقض أخوه فيليب على دمشق، وتمكن من السيطرة عليها، لأن حاكم المدينة بالنيابة، كان قد ساعده في احتلالها، إلا أنه تمكن من الانقلاب على سيده الجديد فيليب، وأغلق أبواب المدينة ضده، وأعلن تأييده لأنطيوخس الثاني عشر، فتراجع فيليب إلى أنطاكية. أما أنطيوخس الثاني عشر، فقد أنزل به الأنباط هزيمة، أدت إلى مقتله عام (٨٤ ق.م).

في هذه المرحلة المتدهورة سياسياً، أخذت المدن السورية تعلن استقلالها الاسمي والفعلي، مثل مدينة صور وصيدا وعسقلان وسلوقية وطرابلس. في الوقت نفسه ازدادت أهمية وقوة الأنباط. وفي حوالي عام (٨٣ ق.م) وجه ملك الأرمن (تيجرانيس) جيشاً باتجاه سورية، وتمكن من الاستيلاء على عاصمتها أنطاكية، ومعظم سورية الشمالية، وكيليكية دون مقاومة. بعد ذلك وفي عام (٧٣ ق.م) وجهت حملة رومانية باتجاه أرمينية، وعندما علم (تيجرانس) بذلك، سحب قواته من سورية باتجاه الشمال لمقاومة الخطر الروماني.

أما في أنطاكية فقد ظهر أنطيوخس الثالث عشر، فرحب به أهل أنطاكية، وبعد أن استلم السلطة، أعلن الحرب على الأمير العربي المدعو (عزيز) الموجود في شمال سورية، إلا أنه فشل، ولم يحقق أي انتصار، وحدثت في هذه المرحلة ثورة داخلية في أنطاكية، تمكن أنطيوخس الثالث عشر من قمعها عام (٦٥ ق.م).

ظهر في هذا الوقت أحد المطالبين بالسلطة، واسمه فيليب، فأعلن الأمير العربي تأييده لفيليب. في الوقت نفسه تحالف أنطيوخس الثالث عشر مع أمير حمص والرستن شمش جرم، واستدعي الأخير إلى أنطاكية للتباحث في شؤون الحرب. كان عزيز وشمش جرم متفقين على أن يتخلص كل منهما من مرشحه، وأن يقتسما الغنائم، حيث تمكن شمش جرم من أسر أنطيوخس، بينما أفلت فيليب من قبضة عزيز، وعاد إلى أنطاكية. في عام

(٦٤ ق.م) كان القائد الروماني بومبي قد عاد إلى سورية منتصراً، حيث تلقى نداء أنطيوخس الثالث عشر يطلب منه أن يعيده إلى العرش، فرفض بومبي هذا العرض، وبدخول بومبي سورية عام (٦٤ ق.م) تكون قد دخلت تحت نفوذ روما، وانتهت الدولة السلوقية.

الفصل الثاني

سوريا في عصر الرومان

- بلاد الشام والرومان.
- بومبي.
- بلاد الشام في ظل الرومان.

بلاد الشام والرومان

بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق.م):

ينتمي بومبي إلى عصر حافل بالأحداث الجسام، وبومبي هو (جنابوس بومبيوس)، كان أبوه قنصلاً عام (٨٩ ق.م)، ومنذ بداية عهده أدرك قيمة القيادة المنقذة للحصول على السلطة، حقق عدداً من الخدمات والانتصارات. ففي عام (٨٠ ق.م)، وبعد انتصاره على خصوم خصمه (سلا) في عامي (٨٣ - ٨٢ ق.م)، أسندت إليه القيادة لمحاربة أنصار ماريوس، وحقق انتصاراً باهراً، حيث لقبه أنصاره الجنود عقب هذا الانتصار بلقب الإمبراطور (المظفر)، وهذا اللقب يعطي صاحبه الحق في دخول روما في موكب نصر[1]. خلال هذه المرحلة كان بومبي إضافة إلى لقبه الجديد، يقود ست فرق وأسطولاً رهن إشارته، بالإضافة إلى تحالفات جديدة.

وعند عودته إلى روما عام (٨٠ ق.م)، طالب بتنظيم موكب رسمي احتفالاً بانتصاره، لكن (سلا) عارض مطالبه، ثم وافق أمام إلحاحه، وقد تكون موافقته خوفاً من قوة بومبي، ومن قيام حرب أهلية. ومهما يكن فقد دخل بومبي روما في موكب نصر يوم (١٢) مارس من عام (٨٠ ق.م) أو أوائل (٧٩ ق.م). وفي عام (٧٨ ق.م) وبعد اعتزال (سلا الحكم وانتخاب كل من كاتولوس ولبيدوس قنصلين، حاول لبيدوس القيام بحركة انقلابية على دستور، كان قد وضعه (سلا). وطلب أثناءها من بومبي القضاء على التمرد، وأخمدت الثورة، وقتل لبيدوس، فنصب بعدها قائداً لقسم من قوات الحكومة مع الاحتفاظ بها وعدم تسريحها. بعد ذلك حدثت ثورة في أسبانيا، فقرر: أن يكون بومبي هو القائد، الذي يتولى القضاء على هذه الثورة، ومنح سلطة (الامبريوم) البروقنصلية، وتولى حكم ولاية إسبانيا، وقيادة الجيش فيها، واستطاع بومبي إخماد الثورة هناك عام (٧٢ ق.م)، ورجع إلى إيطاليا عام (٧١ ق.م).

خلال هذه المرحلة كانت الحرب في آسيا الصغرى ما تزال مستمرة، وكان الجانب المهم

[1] عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني - عصر الثورة - طبع بيروت ١٩٧٣ - ص١٠٢.

فيها هو (مترادانيس) ملك بنطوس، وكان طموحاً يحلم ببناء إمبراطورية في الأناضول، كما كان تجرانيس الأول ملك أرمينية يوسع رقعة أملاكه، حيث استطاع أن يمد نفوذه، ويستولي على معظم سورية، وكان (تجرانيس) صهراً (للمترادانيس).

في عام (٧٣ ق.م) قامت ثورة خطيرة بين العبيد في إيطاليا، يقودهم اسبرتاكوس، واستفحل خطره، حيث بلغ عدد المتمردين حوالي سبعين ألف عبد، فكلف كراسوس بقيادة جيش، قوامه ست فرق للقضاء على التمرد، وكلف بومبي، وهو عائد من إسبانيا بالانضمام إلى كراسوس لسحق التمرد، وتم له ذلك، وعاد بومبي وكراسوس إلى العاصمة. بعد الانتصارات التي حققها كل من بومبي وكراسوس، طالبين بترشيح نفسيهما قنصلين لعام (٧٠ ق.م)، وطالبين بإقامة موكب احتفالاً بانتصارهما، وتم ذلك، وبذلك أصبح بومبي قنصلاً لأول مرة عام (٧٠ ق.م).

بعد ذلك كلف بومبي بقيادة حملة للقضاء على قراصنة البحر المتوسط، لا سيما قراصنة كيليكية، والقضاء على مركزهم في جزيرة كريت، وأعطي صلاحيات واسعة[1]. خرج بومبي بهذه الحملة، التي تبلغ قوامها (١٢٠,٠٠٠) ألف مقاتل، وفي مدة ثلاثة أشهر أنهى الحرب ضد القراصنة، وفي عام (٦٦ ق.م) أسند إلى بومبي قيادة الجيوش الرومانية البرية والبحرية في آسيا الصغرى، والقيام بحرب ضد (مترادانيس وتجرانيس)، وبعد تحقيق هدفه زحف بومبي عام (٦٤ ق.م) إلى سورية، وكانت في حالة فوضى، بعد أن تركها تجرانيس، وبذلك تكون سورية قد دخلت ضمن النفوذ الروماني[2].

أما في فلسطين فكان هناك صراع ضمن الأسرة المكابية اليهودية[3]، يقوده كل هركانوس، وأرسطو بولوس ابني الاسكندر يانابوس. خلال هذا الصراع حاول ملك الحارث الثالث الاستفادة منه، ووقف إلى جانب هركانوس، وساعده في حصاره لأخيه المعتصم أورشليم.

خلال هذه المرحلة تقدمت القوات الرومانية القادمة من دمشق محاولة حسم الموقف مؤقتاً، ورفع الحصار عن أورشليم، وحكم أرسطو بولوس، وعاد ملك الأنباط إلى بلاده.

---

[1] ر ـ هـ ـ بارو: الرومان ـ ترجمة ـ طبع مصر ـ ص٩٦٨ ـ ص٣٣.

[2] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٦٥.

[3] عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني ـ عصر الثورة ـ ص١٢٩.

بقي بومبي في سورية بقية عام (٦٤ ق.م) وأوائل عام (٦٣ ق.م) يعمل على إعادة النظام إلى سورية، وكان مقر قيادته أنطاكية، وعندما انتقل إلى دمشق اجتمع بالأخوين المتصارعين على السلطة اليهودية دون أن يتخذ قراراً بهذا الموضوع، إلا أنه اقتنع بأحقية هركانوس بالسلطة. ثم أخذ بومبي يفكر بالقضاء على البتراء عاصمة الأنباط، لما لها من أهمية تجارية، وبينما كان في طريقه إلى البتراء عند أريحا، وصلته أخبار تفيد أن أرسطو بولوس قد عاد إلى القدس، وأخذ يتأهب للقتال، ومن هناك استدعى أرسطو بولوس، وأرغمه على أن يتعهد بقبول مرابطة حامية رومانية في القدس، ودفع غرامة حربية، إلا أنه كان عاجزاً عن تأدية الغرامة. في الوقت نفسه منعت القوات الرومانية من دخول القدس، فتحول بومبي إلى القدس، واستولى عليها، بعد أن حاصرها مدة ثلاثة أشهر، وكان هذا الحدث بداية المتاعب اليهودية للإمبراطورية الرومانية، كما سنلاحظ.

أثناء ذلك تخلى بومبي عن فكرة احتلال البتراء عاصمة الأنباط[1]، عندما وصلته أخبار موت مثرادانيس منتحراً. بعد أن قاد ابنه ثورة ضده، فقرر التوجه إلى بنطوس، حيث عمل على تنظيم شؤون آسيا الصغرى، وعمل على توحيد وحماية النفوذ الروماني، وتوطيد الأمن في البر والبحر.

وعلى حدود ولاية سورية أعاد بومبي بعض الأمراء إلى سلطاتهم السابقة، مثل أمير حمص وبعلبك وقنسرين، وأعاد دمشق إلى الأنباط، واعترف بهركانوس كاهناً أعلى، وحاكماً على اليهود. ثم أسس في آسيا الصغرى وسوريا حوالي (٣٩) مدينة، ومدناً أخرى في مناطق أخرى، ومنحها قسطاً كاملاً من الحكم السياسي، واحترم استقلال المدن القديمة كأنطاكية وسلوقية العاصمة، ثم عاد بومبي إلى إيطاليا عام (٦٢ ق.م)، وقد سرح جيشه، وبدأ مرحلة صراع على السلطة الرومانية، وكان الرابح فيه هو (يوليوس قيصر)[2].

انتخب (يوليوس قيصر) كريستوراً عام (٦٩ ق.م)، وتولى منصب الايديل (المحتسب) عام (٦٥ ق.م). تسلم يوليوس قيصر منصب الكاهن الأعظم سنة (٦٣ ق.م)، وانتخب (بريتورا) عام (٦٢ ق.م) ثم عين حاكماً على إسبانيا البعيدة عام (٦١ ق.م)، وعند عودته إلى روما طالب بموكب رسمي احتفالاً بانتصاره في إسبانيا، وبترشيح نفسه قنصلاً لعام (٥٩ ق.م)، وتولى مباشرة أعماله في هذا المنصب عام (٥٩ ق.م).

---

[1] عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني ـ عصر الثورة ـ ص١٣٢.

[2] ر ـ هـ ـ بارو: الرومان ـ ص٥١.

استعان يوليوس قيصر بالقائد بومبي لتحقيق مطامحه، وفي نهاية عام (٥٩ ق.م) كان يوليوس قيصر يتمتع بالقيادة البروقنصلية والقنصلية معاً، واحتفظ بالقوات الحربية في أي مكان بإيطاليا خارج سور مدينة روما، وبذلك سيطر على الموقف في روما. خلال هذه المرحلة تم ائتلاف حكومي، شمل كلاً من بومبي وقيصر وكراسوس، فكان هذا الائتلاف أقوى من أي جهاز حكومي آخر، أي أن السلطة الرومانية كانت في قبضة الحكام الثلاثة المذكورين، إلا أنه في البداية كانت السيطرة لبومبي. ولمّا حدث خلاف ما بين بومبي وكراسوس، تمكن يوليوس قيصر من التوفيق بينهما.

وفي إبريل من عام (٥٦ ق.م)، اجتمع أقطاب الائتلاف الثلاثي في بلدة لوكا[1]، وعقدوا مؤتمراً سمي باسم المدينة، التي عقدوه فيها، فرسموا سياسة المستقبل، وتم الاتفاق في هذا المؤتمر على: أن يرشح بومبي وكراسوس نفسيهما قنصلين عام (٥٥ ق.م)، وأعطيا بعد انتهاء خدمتهما حق إعلان الحرب، وإبرام الصلح وجمع القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية، وأن يعهد إلى بومبي بعد انتهاء قنصليته حكم ولاية إسبانيا لمدة خمس سنوات، وإلى الثاني حكم ولاية سورية للمدة نفسها، وأن تطول مدة قيادة قيصر في بلاد الغال خمس سنوات أخرى، ورحل كراسوس إلى سورية، أما بومبي فلم يذهب إلى إسبانيا، بل بقي في إيطاليا بحجة الإشراف على تموين روما بالغلال، وقد أرسل بعض مساعديه إلى اسبانيا نواباً عنه.

قبل ذلك كان جابينيوس (مساعد بومبي) وقنصلاً عام (٥٨ ق.م) قد عاد إلى الشرق في عام (٥٧ ق.م) كحاكم على ولاية سورية بدلاً من كيليكية بسلطة غير محدودة، فقام بتنظيم مملكة يهوذا، ونصب عليها (انتيبار)، وتمكن من التوجه إلى مصر، فغزاها في ربيع عام (٥٥ ق.م)، وعاد إلى سورية. في عهد جابينوس اختل الأمن في سورية، ونشبت الاضطرابات، وخاصة أثناء غيابه في مصر. بعد أن تسلم كراسوس سورية أخذ يعمل على توحيد وتوسيع ولايته في الشرق ضد البارثيين، إلا أنه خسر في معركة عرفت بمعركة كرهاي، ولقي مصرعه في ظروف غامضة، وبقيت سورية تابعة لروما، ولم يهاجمها البارثيون بعد هذا الانتصار الحاسم.

بعد موت كراسوس اختلف يوليوس قيصر وبومبي، وانتهى الائتلاف الثلاثي، ثم انتخب

---

[1] عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني - ص٢٠٨.

بومبي قنصلاً بمفرده، وأعطي سلطات استثنائية، فأسندت إليه مهمة إعادة النظام، واستئصال الفساد، وإصلاح شؤون الدولة، وبذلك يكون بومبي من هذا الوقت، قد بلغ ذروة مجده السياسي، حيث أصبح يمثل السلطة الرئيسية في الدولة. أدرك يوليوس قيصر الوضع الراهن، ووضع نصب عينيه الفوز بالقنصلية، وهو ما يزال في بلاد الغال، وحدث صراع مرير بين يوليوس قيصر وبومبي، انتهى لصالح يوليوس قيصر في أغسطس عام (٤٨ ق.م)، وتمكن يوليوس بعد مقتل بومبي من احتلال مصر.

في هذه الظروف الحرجة ظهر للرومان عدو جديد، تمثل في (فرناكيس الثاني) بن مثرادينس، الذي حقق بعض الانتصارات على الرومان. أما قيصر فتوجه من مصر إلى عكا، وهناك كافأ يوليوس قيصر اليهود على ولائهم له، وسمح لهم بإعادة بناء أسوار مدينة القدس، وإعادة ميناء يافا لليهود، وأعفاهم من عبء القوات الرومانية في الشتاء، ثم انتقل إلى أنطاكية، وعمل على تنظيم سورية، وعهد بالولاية فيها إلى سكتوس يوليوس قيصر.

عندما نشبت الحرب الأهلية الرومانية سنة (٤٩ ق.م) تورطت المدن السورية في هذا الصراع، وفي أثناء مرور (يوليوس قيصر) في سورية قادماً من مصر، كما ورد، توقف في المدن السورية لتوزيع الهبات والمكافآت على أهلها، لأنها وقفت إلى جانبه في صراعه مع بومبي وأنصاره، وتوقف في أنطاكية لمدة تسعة أيام، قرر فيها إصدار مرسوم. يتضمن منحها الحرية، وعمل على تشييد مجموعة من الأبنية فيها، وأقام والياً على سورية من أقربائه، هو سكتوس يوليوس قيصر، وبعد مغادرة (يوليوس قيصر) لأنطاكية حدث صراع ما بين أنصار بومبي بقيادة باسوس، ووالي سورية الجديد، قتل بموجبه الوالي، وظل الصراع مستمراً، وانسحبت جنود حامية سورية الموالين ليوليوس قيصر إلى كيليكية. في هذه المرحلة وصل إلى سورية حاكم جديد، استطاع أن يشق طريقه عبر سورية، ويضرب الحصار على أفاميا (العاصي)، التي اعتصم فيها باسوس وأعوانه.

استنجد باسوس بالبارثيين، فقاموا بهجوم على سورية. في هذه المرحلة وصل إلى سورية والٍ جديد عام (٤٤ ق.م)، وتحت أمرته ثلاث فرق رومانية، ثم ألحقت به ثلاث فرق أخرى، فتمكن من تصفية الموقف خلال عام (٤٤ ق.م)، وفي العام نفسه عين (دولابلا) حاكماً لسورية[1]. ثم أبحر يوليوس قيصر من سلوقية طرسوس إلى الشمال حيث حدود بنطوس، ودارت معركة، سميت معركة

[1] عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني ـ عصر الثورة ـ طبع بيروت ١٩٧٣ ـ ص٣١٠.

(زيلا) بين يوليوس قيصر وبين خصمه فرانـاكيس. استمرت خمسة أيام، انتهت بانتصار ساحق ليوليوس قيصر، وعـاد إلى رومـا عـام (٤٧ ق.م)، وبعد القضاء على كل الخصومات في الدولة الرومانية، أصبح إمبراطوراً بكل معنى الكلمة، وأخذ يعمل على إصلاح الدولة، فتم له ذلك.
أخيراً اغتيل يوليوس قيصر[1] بمؤامرة في (١٥) مارس عام (٤٤ ق.م)، على يد (جـايوس كاسيوس)، أحد أنصار بومبي القدامى، واشترك في المؤامرة ستون رجلاً من أعضاء السناتو، ومن بينهم ماركوس بروتوس.

بلاد الشام في ظل الرومان:

بعد استيلاء بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق.م) على بلاد الشام، أصبحت سورية ولاية رومانية، واستمرت أنطاكية عاصمة لهذه الولاية، وكان بومبي عند احتلاله لأنطاكية، قد منحها الحرية، كما فعل مثل ذلك بسلوقية بيريه، والحرية بهذا المعنى كانت تعني أن يسمح للمدينة بإدارة بعض شؤونها الداخلية، وفي الوقت نفسه تكون الأمور الهامة تحت إشراف الحكام الرومان.

ومنذ الاحتلال الروماني، بدأ الرومان المشتغلون بالتجارة بتوطيد أقدامهم في المدن السورية. إذن وضعت سورية في عداد الولايات، التي كان يحكمها قناصل سابقون، وأول قنصل سابق، تـولى حكم سورية هو (اولوس جابينيوس)، وكان من أهم أعماله في سورية اتخاذ تدابير لكبح جماح تصرفات ملتزمي جباية الضرائب. وفي عهد حاكم سورية (ليكينيوس كراسوس): اشتبك الرومان مع الفارطيين، حيث قام الفارطيون عام (٥١ ق.م) بغزو سورية، وبلغوا أنطاكية. في هذه المرحلة كان والي سورية (كاسيوس) متحصناً في أنطاكية، ولم يستطع الفارطيون احتلالها.

أما في عهد (كاليورينوس بيبولوس) فقد عاشت سورية بأمان، وانتعش الاقتصاد، وعم الرخاء البلاد، مما حدا بأهل أنطاكية لتقديم هدية إلى الشعب الروماني، تمثلت في تمثال أثينا وزيوس الرعاد (أقامها سلوقس الأول في أنطاكية). وفي عام (٤٩ ق.م) نشبت حرب أهلية في روما بين يوليوس قيصر، وخصومه ممثلين ببومبي، ومجلس الشيوخ، وتورطت بلاد الشام في هذا لصالح يوليوس قيصر، لذلك عندما قدم يوليوس قيصر إلى سورية، وقف في مدن كثيرة منها الهبات مكافأة لأهلها على مناصرتهم له.

في أيار من العام (٤٧ ق.م)، وصل يوليوس قيصر إلى أنطاكية، في نفس اليوم الذي أنشئت

---

[1] تاريخ العالم - أوروسيوس - طبع بيروت ١٩٨٢ - ص٤١٢.

فيه المدينة على يد سلوقس، فمكث فيها تسعة أيام، وهناك أصدر مرسوماً، يمنح بموجبه أنطاكية الحرية[1]، بالإضافة لذلك عمل يوليوس قيصر على إنشاء مجموعة من المباني الشهيرة في أنطاكية، وعندما اختتم القيصر زيارته لها، عين على سوريا والياً من أقربائه يدعى: (سكتوس يوليوس قيصر)، وكان في ريعان شبابه. وفي عام (٤٦ ق.م) حدثت فتنة في سورية، قادها أحد أنصار بومبي (كايكيليوس باسوس)، قتل فيها والي سورية (سكتوس)، وظل الصراع مستمراً إلى أن قتل يوليوس قيصر سنة (٤٤ ق.م).

بعد مقتل يوليوس قيصر وصل إلى سورية (كاسيوس) قادماً من إيطاليا، فأفلح في اكتساب وتأييد أهالي سورية من جهة، والحاميات الرومانية فيها من جهة أخرى، وأخذ يجمع الأموال، ومن أجل ذلك عمد إلى الاستيلاء على أموال الطائفة اليهودية في أنطاكية. خلال هذه المرحلة وصل إلى سورية والٍ جديد من قبل السلطة المركزية في روما هو (كورنيليوس دولا بيلا)، وحدث صراع بين الطرفين، تمكن كاسيوس من طرد الوالي من سورية، ورغم محاولاته استعادة قبضته، إلا أنه فشل، واستمرت سورية تشارك في الصراع بعد ذلك، إلى أن تولت السلطة الرومانية حكومة ثلاثية مؤلفة من (أنطونيوس ـ لبيدوس ـ واكتافيوس).

وفي عام (٤١ ق.م) تسلم الشرق أنطونيوس (أحد الحكام الثلاثة)، حيث توجه إلى عمله الجديد، وغايته جمع الأموال لدفع مرتبات الجند الروماني، وفي مرحلته هذه زار مدينة أنطاكية، وهناك اتخذ إجراءات منها: إعادة الممتلكات، التي كان كاسيوس قد استولى عليها إلى اليهود. كما استقبل في دفنة وفداً من اليهود، عرضوا عليه مساعدتهم في الصراع الدائر فيما بينهم في فلسطين، وعمل على تنظيم ولاية سورية بما يخدم مصالحه المستقبلية، التي تعينه في حكم روما. حيث كانت هذه التدابير سبباً في وقوع اضطرابات كثيرة، وعين والياً على سورية هو (ديكيديوس ساكسا)، وبالنتيجة لم يكن الشعب السوري راضياً عن تدابير أنطونيوس، مما سبب في سخطه، وغضبه، وكراهيته له. بعد ذلك انتقل أنطونيوس إلى مصر، وتورط في علاقة مع كليوباترة، شغلته عن مسؤولياته.

في هذه المرحلة وفي عام (٤٠ ق.م) غزا الفارطيون سورية، مستغلين فرصة انشغال أنطونيوس عن الشؤون العامة، وغضب السوريين على أنطونيوس، وتمكن الفارطيون من احتلال

---

[1] حلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ طبع مصر ١٩٦٧ ـ ص١٠٣.

سورية وفينيقية، عدا مدينة صور. كما اكتسبوا محبة الشعب السوري، لما امتازوا به خلال حكمهم من الدعة والعدالة، واستمروا يحكمون سورية حتى عام (٣٩ ق.م). حيث تمكنت قوات أنطونيوس من طردهم من سورية. بعد ذلك وفي سنة (٣٨ ق.م) وصل إلى سورية أنطونيوس (أحد حكام روما الثلاثة)، وحاصر سمياط، فقابله هيرود حاكم اليهود في القدس، فولاه سلطتها، وبعد طرد الفارطيين من سمياط، عهد بولاية سورية إلى (جايوس سوسيوس).

اجتمع (جايوس سوسيوس وهيرود) في أنطاكية، وتوجهوا إلى القدس لحرب (انتيجونوس الهاسموني ماتاتياس)، الذي اغتصب الملك من هيرود، وأعيد هيرود، وقبض على الغاصب المذكور، وأرسل إلى أنطونيوس (أحد الحكام الثلاثة) في روما، وكان لا يزال في أنطاكية، فأعدمه. وفي عام (٣٧ ق.م) عاد أنطونيوس إلى سورية لحرب الفارطيين، وأرسل في طلب كليوباترة إلى سورية، فعقد قرانه عليها، فأهدى إليها أقاليم في سورية وفلسطين[1]، واعترف بأبوّته للطفلين التوأم اللذين حملتهما منه عام (٤٠ ق.م) عندما زار مصر، كما ورد.

في عام (٣٦ ق.م) أعد أنطونيوس قواته لغزو فارطية، إلا أنه فشل، ومني بخسائر فادحة، وأرغم على الارتداد إلى أنطاكية، التي جعلها المركز الرئيسي لقيادته. في هذا الوقت كانت قوة (أكتافيوس) تزداد، خلال هذه المرحلة تمكن حاكم سورية (ك ـ ديديوس) بمساعدة هيرود حاكم اليهود من السيطرة على الأمور في سورية لصالح (أكتافيوس). ثم حدث صراع بينه وبين أنطونيوس، حيث انتصر أكتافيوس في معركة اكتيوم عام (٣١ ق.م)، وانتحر أنطونيوس في الإسكندرية.

بعد ذلك خلع على أكتافيوس لقب أغسطس، واستقر العالم الروماني، وفي عهده وضعت سورية بسبب أهميتها الاستراتيجية في أرقى مرتبة، وهي مرتبة ولاية تحت إشراف الإمبراطور، يتولى حكمها مبعوث من مرتبة قنصل سابق، يعين لفترة غير محدودة، وللوالي مساعد من طبقة الفرسان، يتولى الإشراف على الشؤون المالية، يعين من قبل الإمبراطور، وليس للمبعوث أي سلطة على المساعد، ووضع تحت إمرة المبعوث أربع فرق من القوات الرومانية، وأحياناً فرقتان، وكانت هذه القوات تقيم في سورية بصورة مستديمة، علماً أن مقر المبعوث والمساعد في أنطاكية. خلال هذه الأحداث تقرر أن يقام حفل ألعاب في أنطاكية كل خمس سنوات، يدوم ثلاثين يوماً، وكان يقام

---

[1] محمد محفل: دراسات في تاريخ الرومان ـ طبع دمشق ١٩٩٥ ـ ص٢٤.

بانتظام

في عهد (ك سنتيوس ساتور نينوس)، الذي كان والياً على سورية (٩ ـ ٦ ق.م)، قدم إلى سورية (زاماريس) اليهودي من بابل، ومعه حاشيته، وهي مؤلفة من مائة من أهله وأقاربه، وخمسمائة من الفرسان. وعندما وصل إلى دفنة قرب أنطاكية، اعترضه والي سورية، و لم يسمح له بالإقامة هناك، وعين له مكاناً قرب أنطاكية، حيث كانت توجد طائفة يهودية. بعد ذلك ترك (زاماريس) منطقة أنطاكية بدعوة من هيرود، وأقام في باتانيا في شرق الأردن. يبدو أن سورية خلال هذه المرحلة كانت قد نعمت بالاستقرار، الذي ساد الإمبراطورية الرومانية.

وفي عام (١٧م) ظهرت اضطرابات وسخط عام في بلاد الشام، بسبب مقدار الجزية المفروضة. فأرسل إلى الشرق (جيرمانيسكون) في مهمة خاصة، وخوّل سلطات واسعة. في هذه المرحلة أرسل (تيبريوس) والياً على سورية، هو (جنايوس بيزو)، وكانت مهمته الأساسية كبح جماح (جيرمانيسكون)، الذي استطاع اكتساب محبة الناس، وحدث خلاف بينه وبين والي سورية، فاضطر إلى عزل والي سورية، بعد ذلك مات (جيرمانيسكون) سنة (١٩م)، وقيل: إن بيزو هو الذي أرسل له السم فمات.

في عهد تيبريوس[1] (١٤ ـ ٣٧م) وفي عام (٢٣ أو ٢٤م)، وقع حريق في أنطاكية، كانت آثاره التدميرية عنيفة، حيث أتت النار على الشطر الأكبر من الاجورا في حي ابيقانيا، ودار المجلس، ومعبد ربات الفنون والمكتبة وغيرها. وحكم سورية أيضاً (كريتيكوس سيلانوس)، في عهده التجأ إلى أنطاكية ملك الفارطيين (فونوس) مع احتفاظه بلقبه الملكي.

وفي عهد كاليجولا (جايوس)، الذي حكم من (٣٧ ـ ٤١م)، وقع شمال سورية زلزال شديد عام (٣٧م)، تضررت المدن به، وأهمها ضرراً كان بمدينة أنطاكية. في عهده كان والي سورية بترونيس (٣٩ ـ ٤٢م) حدثت في بلاد الشام فتنة، أسفرت عن مذبحة بين اليهود، لأن الشعب في بلاد الشام كان يضمر العداء لليهود بسبب مركزهم الممتاز، من حيث الإعفاء من الخدمة العسكرية، أي أن اليهود كانت لهم امتيازات، تفوق غيرهم.

في عهد كلوديوس (٤١ ـ ٥٤م) حدث في سورية زلزال، كان سبباً في إنزال الأضرار، وقدم الإمبراطور الهبات لإعانة المدن المنكوبة. كما أعيد في عهده تنظيم الألعاب، التي كانت تقام

---

(١) أوروسيوس ـ تاريخ العالم ـ ص٤٢٠.

كل خمس سنوات، وتحول إلى حفل الألعاب الأولمبية، وفي عهده أيضاً حدثت مجاعة في سورية وفلسطين ومصر. فكان لذلك أبعد الأثر في ارتفاع سعر الغلال خلال سني (٤٦ - ٤٧م).

وفي عام (٦٦م) حدثت في فلسطين مذابح، حدت باليهود إلى القيام بثورة شاملة، وفي الوقت نفسه وقعت حوادث هياج ضدهم في كل أماكن وجودهم في بلاد الشام، فاضطر الإمبراطور (نيرون) (٥٤ - ٦٨م)[1]، أمام هذا الموقف إلى أن يعين أحد قادته (فيسبا سيانوس)، حاكماً لبلاد اليهود، ووضع تحت قيادته بعض القوات الرومانية لإخماد ثورتهم.

عندما وصل القائد الروماني إلى أنطاكية جمع قواته. أثناء ذلك حدثت فتنة بين اليهود في المدن السورية كأنطاكية والقدس. خلال هذه المرحلة مات نيرون، ونشب في روما صراع على السلطة، انتهى بوصول (فيسبا سيانوس) إلى قمة السلطة الرومانية، بمساعدة الشرق، ومن ضمنه بلاد الشام، حيث قامت سورية بدور كبير في هذا الصراع، فصكت عملة ذهبية وفضية في دار الصك بأنطاكية، وأقامت فيها مصانع للأسلحة، وجندت الجنود.

في عهد فيسباسيانوس (٦٩ - ٧٩م)[2]، بدأ تيتوس عملياته الحربية ضد بيت المقدس عام (٧٠م)، وقضى على التمرد، حيث دمر المدينة، وفي العام نفسه شب حريق في أنطاكية، كانت نتائجه التدميرية كبيرة، واتهم اليهود به، فبادر أهل أنطاكية إلى الهجوم عليهم، حيث تمكن القائم بأعمال حاكم سورية (حنابوس بومبيوس كوليجا) من إيقاف الفتنة. وفي عهد حاكم سورية أوليبوس ترابانوس، الذي حكم من (٧٦ - ٧٩م)، استمرت الفتنة والاضطرابات.

وفي عهد تراجان (٩٨ ـ ١١٧م)، قامت بلاد الشام بدور فعال في الحرب الرومانية، الفارطية، حيث يذكر: أن الدولة الرومانية بلغت في عهده أقصى ما بلغته على الإطلاق، حيث كان حاكم سورية خلال هذه الحرب هوهادريان، وعند مرور تراجان في سورية، وهو في طريقه لحرب الفارطيين، توقف في سلوقية بيريه، حيث تضر ع إلى زيوس في معبده على جبل كاسيوس أن يهبه النجاح، وقدم هدايا كقرابين.

وكان تراجان قد دخل أنطاكية في موكب رسمي سنة (١١٤م)، وعبأ قواته متخذاً أهبته لحملة، حيث أقام عدة منشآت داخل المدينة، ورمم بعض الأبنية، ثم توجه بقواته

---

[1] تاريخ العالم ـ أوروسيوس ـ ص٤٣٠.

[2] مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية ـ طبع بيروت ١٩٨١ ـ ص١٣٤.

إلى أرمينية للقضاء على أعدائه، وعاد إلى أنطاكية سنة (١١٥م)، وخلال وجوده فيها وقع زلزال في سورية في (١٣) ديسمبر من العام نفسه، فكانت الأضرار جسيمة في كل من أنطاكية ودفنة، بعد ذلك وفي سنة (١١٧م) عاد (تراجان) إلى روما من سلوقية بيريه وفي العام نفسه توفي.

عندما مات تراجان، كما ذكرنا، كان (هادريان) والياً على سورية، ومقيماً في أنطاكية، فلما علم بما حدث، رحل متوجهاً إلى روما، بعد أن أمر بأن يشاد معبد في أنطاكية تكريماً لتراجان، الذي رفع إلى مرتبة الإله، وتسلم السلطة (١١٧ ـ ١٣٨م)، ونظراً لاستقرار الأمن في الإمبراطورية، فقد وجه نشاطه إلى الإشراف على شؤون الحكم، والنهوض بمدن الإمبراطورية، ومن ضمنها بلاد الشام. سنلاحظ ذلك عند حديثنا عن بعض مدن بلاد الشام في بحث خاص. وفي عهد ماركوس أورليوس (١٧٥ ـ ١٧٦م) أبطلت الألعاب الأولمبية في سورية، وعلى رأسها مدينة أنطاكية عقاباً لها لوقوفها ضده.

أ ـ كومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢م): في عهده استؤنفت الألعاب الأولمبية ومهرجانات أخرى في سورية، وعلى الأخص في مدينة أنطاكية، حيث التمس أهلها من الإمبراطور استئناف هذه الألعاب، وفعلاً استؤنفت سنة (١٨١م)، وأصبح يتعين إقامتها في موسمها لمدة خمسة وأربعين يوماً خلال يوليو أغسطس، وكان الموظف الرئيسي المسؤول عن إقامة هذه الألعاب يحمل لقب (الورتاخ) (ضابط شرطة كبير). ولهذا الموظف طقوس معينة، حيث كان يعدّ ممثلاً لزيوس، وكان يقيم في العراء، في فناء الباسيليكا (قيصرون)، وكان يلبس رداءً أبيض موشحاً بالذهب، وتاجاً محلى بالياقوت واللؤلؤ، ويلبس نعلاً أبيض، وفي يده عصا من الأبنوس، ويختار إلى جانبه سكرتيراً مساعداً من قبل مجلس الشيوخ وأهل المدينة وموظفاً ثالثاً غيره.

ولاستئناف هذه الألعاب، أقيمت مبانٍ جديدة في المدن السورية، التي كانت تجري فيها، فمثلاً في أنطاكية يقول (حلا نفيل) في كتابة أنطاكية القديمة ودلالة على استئناف إقامة الألعاب الأولمبية: أنشئت مبانٍ جديدة لاستخدامها في الحفل، وكان من أهم المباني (الاكسوستوس)، وكان مضماراً مسقوفاً للعَدو من الطراز الإغريقي، وكانت تحف فيه البوائك والمقاعد، ليتسنى استخدامه في وقت المطر أو عندما يكون الحر شديداً. وقال: وفي ذلك الوقت أعيد تنظيم حفلات ووسائل أخرى للترفيه في أنطاكية.

وفي المرسوم، الذي أعيدت بموجبه الألعاب الأولمبية، قرر كومودوس كذلك: أن تخصص

اعتمادات من أموال الدولة للإنفاق منها على ألوان كثيرة من ضروب الترفيه، وكان من أشهرها (المايوما) وهي من مخلفات عبادة سورية قديمة، كانت في عهد كومودوس قد أصبحت مهرجاناً ليلياً. ومهرجان آخر يقام تكريماً لديونيسوس وأفروديتي.

وقال: وإذا كان يقام مرة واحدة في شهر (مايو) كل ثلاث سنوات، فقد ذاعت شهرته بما كان يجري فيه من ضروب الإباحية، وكل من ألوان الترفيه الأخرى، التي أصبحت من أعباء الدولة. كقيام سلسلة من مسابقات الخيل، التي كانت طبقاً لما يرويه (مالالاس) تقام أسبوعياً في يوم الشمس، وقد خصص اعتماد ثالث لحفلات صيد الحيوانات الوحشية، وكانت تقام في مناسبة أعياد - آرس - وارتميس... وقال: وأخيراً نص مرسوم الإمبراطور على أن تتحمل الدولة إعالة أرباب التمثيل الصامت والرقص، وذكر أنه كان يحتفل في أنطاكية بعيد، أطلق عليه اسم الإمبراطور (كومودوس). توفي الإمبراطور (كومودوس) دون وريث[1].

بعد وفاة الامبراطور (كومودوس)، حدث صراع في الدولة الرومانية على السلطة، اشتركت فيه سورية، خلال هذه المرحلة تسلم السلطة الرومانية (برتيناكس). كان هذا الإمبراطور قبل ذلك قد بدأ حياته العسكرية في سورية، ثم تسلم السلطة فيما بعد حاكم هذه الولاية، وكنتيجة عدم الاستقرار في عهده كثرت الصراعات. وقد قتل سنة (١٩٣م).

تسلم بعده الإمبراطور (ديديوس يوليانوس) مباشرة، علماً أن حكمه لم يستقر بسبب المعارضة الشديدة له في روما، ثم قتل بعد ذلك. في هذه المرحلة كان والي سورية (بسكينيوس نيجر) قد اتخذ من أنطاكية قاعدة له، واستخدم دار الصك فيها لإصدار عملة باسمه، واستقبل هناك وفود المهنئين من حكام الدولة الشرقية المجاورة له. وفي الوقت نفسه نودي (سبتيموس سفروس) حاكم باتونيا العليا إمبراطوراً على الدولة الرومانية.

كان الإمبراطور (سبتيموس سفروس) (١٩٣ - ٢١١م) قد قرر مواجهة الإمبراطور الجديد (بسكينيوس نيجر)، الذي كان يحشد قواته، ويسعى للحصول على مساعدة الدول الشرقية، وكان يتمتع بقدر أكبر من محبة الرومان بالنسبة لخصمه (سفروس)، حيث قاد الإمبراطور سفروس قواته باتجاه خصمه. فانقسمت مدن سورية على بعضها، فأنطاكية مع نيجر، وفي الوقت نفسه أعلنت اللاذقية مناصرتها لسفروس، ومع ذلك التقى الطرفان سنة (١٩٤م) عند ايسوس، فهرب نيجر إلى

---

[1] محمود محمد الحريري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية - ص١٠١.

أنطاكية، ثم هرب منها إلى ضواحيها، حيث قبض عليه، وقتل. واستسلمت سورية، وما جاورها، ودخل سفروس أنطاكية.

بعد ذلك قسم الإمبراطور سورية إلى قسمين: الأول جوف سورية، والثاني سورية الفينيقية، ثم عاقب مدينة أنطاكية بسبب مواقفها العدائية منه، وخفض من مكانتها من الناحية الإدارية إلى مرتبة قرية، وجعل من مدينة اللاذقية العاصمة، وتتبع لها أنطاكية، واللاذقية كانت تعادل أنطاكية حتى قبل هذا الإجراء في المرتبة، وكان لها الكثير من المزايا، التي تفخر بها، وأغدق سفروس على مدينة اللاذقية الكثير من الهبات والمنشآت العامة، كما نقل الملاعب الأولمبية من أنطاكية إلى ايسوس. إلا أن هذه الإجراءات لم تدم طويلاً، فسرعان ما استخدمت أنطاكية كمركز للقيادة في حرب الروم مع الفارطيين سنة (١٩٨م)، ومن ثم استردت مكانتها. زار سفروس أنطاكية في عام (٢٠١م)، وصك فيها عملة عام (٢٠٢م)، ونقشت عليها صورة توخي أنطاكية، وبنى فيها حمامين عامين كرد اعتبار لها.

كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م): هو ابن الإمبراطور سفروس، وأمه (يوليه دومنة) الموصوفة بالذكاء والقوة، كانت سورية، ومن أسرة ملكية محلية من حمص، أعاد حفل الألعاب الأولمبية إلى أنطاكية سنة (٢١٢م)، وأعاد إلى أنطاكية اعتزازها، فحررها من إشراف اللاذقية، ومنحها لقب مستعمرة، وكان يزورها، ويقيم فيها من وقت لآخر.

عندما مرض (كركلا) وأصبح عاجزاً عن تدبير أمور الدولة، تولت أمه السورية الأصل تدبير شؤون الدولة. ثم قتل كركلا في سورية في إبريل عام (٢١٧م). ونودي ــ بماكرينوس ــ (رئيس الحرس الإمبراطوري) إمبراطوراً، وأقام بأنطاكية للإشراف على الحرب الرومانية الفارطية. خلال هذه المرحلة قامت دار صك للنقود بأنطاكية بدور دار صك العملة للإمبراطورية، وغدت هذه المدينة في هذه المرحلة شبه عاصمة للدولة.

لكن الصراع على السلطة لم ينتهِ، فهزم ماكرينوس على يد قوات (يوليه مايسة) أخت (يوليه دومنة)، وأقامت على العرش حفيدها (ايلاجابالوس)، الذي حكم من (٢١٨ ــ ٢٢٢م)، وكان شاباً، وعمره لا يتجاوز الرابعة والعشرين، كان قبل ذلك يعمل كاهناً في المعبد السوري في حمص، وبعد أن استقر أمره، ترك أنطاكية، وتوجه إلى روما، فقتل هناك، وولي سفروس اسكندر.

(سفروس اسكندر ٢٢٢ ـ ٢٣٥م): عندما تسلم السلطة كان عمره لا يتجاوز

الرابعة عشرة، وهو ابن خالة الإمبراطور، الذي سبقه، وصف: بأنه كان مستقيماً وعفيفاً، كان في بداية حكمه تحت وصاية أمه (يوليه مامايا) السورية الأصل، وفي عهده ظهرت قوة الساسانيين في الشرق، حيث أصبحت تهدد الإمبراطورية الرومانية، وكان دور سورية كمسرح للصراع بين هاتين القوتين.

بعد موت سفروس اسكندر سنة (٢٣٥م) حدث صراع على السلطة الرومانية، وفي الوقت نفسه كان الخطر الساساني يزداد، فالملك الفارسي سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م) كان يعد العدة، ويعمل لغزو سورية وآسيا الصغرى، ونتيجة الاتصالات بين الطرفين، حدث صلح بينهما عام (٢٤٩م)، وكنتيجة ضعف الرومان وصراعهم على السلطة وعدم قدرتهم على حماية ممتلكاتهم، وخاصة سورية، كان الشعور العام فيها يميل لصالح الساسانيين. في عام (٢٥٣م) غزا (سابور) سورية، وأحرق أنطاكية، ودمرها، وعند انسحابهم أخذوا معهم عدداً من الأسرى، وأبعد أسقف أنطاكية (ديمتريانوس). خلال هذه الأحداث، وفي عام (٢٥٣م) تولى السلطة الرومانية الإمبراطور — فالريانوس - (٢٥٣ - ٢٦٠م).

بعد تسلمه السلطة حشد قواته، وتوجه بها إلى الشرق، وهناك أعدّ حملته، وأعاد بناء أنطاكية بعد أن أحرقها الساسانيون، ودمروها، وعسكر في سورية، وجعل مقر قيادته أنطاكية. في هذه المرحلة واصل الفرس هجماتهم على سورية، واستولوا على دورا سنة (٢٥٦م). في عام (٢٦٠م) قرر الإمبراطور إجراء هجوم مضاد على الفرس، إلا أنه فشل، ووقع أسيراً لدى الفرس، ثم اجتاح سابور سورية، واحتل أنطاكية، وخلال هذه المرحلة كانت تدمر دولة قوية، قوام اقتصادها التجارة.

جالينوس (٢٦٠ ـ ٢٦٨م): في عهد (جالينوس) تمكنت تدمر من طرد الفرس الساسانيين، والوقوف في وجههم ودحرت قواتهم إلى نهر الفرات.

(بروبوس ٢٧٦ ـ ٢٨٢م): وفي عهد الإمبراطور بروبوس تلقت بعض المدن السورية معونة خاصة لإنعاشها، من ضمنها توزيع القمح بلا مقابل على حساب الدولة. وعمل على تعمير ما خرب، ودمر، وأحرق، وخاصة أنطاكية. بعد موت هذا الإمبراطور حدث صراع على السلطة الرومانية، انتهى بوصول (دقلديانوس) إليها.

(دقلديانوس ٢٨٤ ـ ٣٠٥): في عهده تحولت الدولة الرومانية إلى نظام ملكي مطلق

التصرف، إذ عمل على استتباب الأمن والنظام في الدولة، وأعاد تنظيم الإدارة المدنية[1]، وعمل على إصلاح نظام الضرائب والعملة وتثبيتها، وتأمين الحدود، وقدم خدمات للمدن السورية، وخاصة مدينة أنطاكية، حيث أنشأ فيها قصراً إمبراطورياً للإقامة فيه عند زياراته المتكررة لسورية[2].

يذكر (جلا نفيل داوني) القصر في كتابه أنطاكية القديمة بقوله: « وضع تصميم القصر على نمط التخطيط القياسي، الذي كان يستخدم عند إقامة معسكر حصين للجيش الروماني، وإقامة مثل هذا القصر في إحدى مدن سورية هو دليل واضح على أهمية هذه الولاية من الناحيتين: العسكرية والإدارية». وكان القصر يشكل الحيز الواقع بين وسط الجزيرة، والفرع الأقصى للنهر، وأنه عند الطابق الثاني، كان يعلو السور على طول امتداده، وإلى جانب النهر رواق مسقوف، حيث كان يتسنى للإمبراطور أن يروح عن نفسه، وعند طرفي هذا الرواق كانت توجد أبراج، وبين القصر والنهر كان يمتد طريق، يؤدي عبر قنطرة من المدينة إلى الضواحي، وكان القصر مجاوراً لمضمار سباق الخيل.

وأقيمت في سورية وسائل الدفاع على الحدود، وبنيت في المدن السورية مصانع للأسلحة، كأنطاكية ودمشق وأديسا، منها مصنعان في أنطاكية، خصص أحدهما لصناعة الدروع والأسلحة، والآخر لصنع أردية من الزرد، كما بنى في سورية مخازن للغلال، وغايتها توفير الإمدادات لسد حاجات المدنيين والعسكريين عند الحاجة. ومن الأعمال الأخرى، التي تمت في سورية: إعادة تنظيم أنطاكية، وأقيمت أيضاً المنشآت العامة، وأعيد بناء مضمار الألعاب الأولمبية في دفنة، كما كانت سورية بحكم موقعها مهيأة لتقبل الرسالة المسيحية، والقيام بدور فعال في انتشارها.

ففي أنطاكية وجدت مجموعة من الرسل والمعلمين، نظموا أنفسهم في رابطة الإخاء فيها، ووضعوا خطة لحملات التبشير المنظمة، وأنشئت الكنائس في المدن السورية، حيث أسس بطرس أول كنيسة في أنطاكية، وكان أول أسقف لها، كما أنشئت كنيسة في القدس، ثم في باقي المدن السورية. ووصف عهده باضطهاد المسيحيين منذ بدايته، وشمل اضطهاده مصر وسورية وفلسطين[3].

(قسطنطين الأكبر ٣٠٦ ـ ٣٣٧م): في عهد (قسطنطين الأكبر) كان انتصار

---

[1] سامي اليافي: الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب ـ طبع مصر ١٩٦٢ ـ ص٢٧.

[2] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ـ ص١٤.

[3] المرجع نفسه: ص٦.

المسيحية ورسوخها[1]، وتم إنشاء عاصمة جديدة للإمبراطورية هي: القسطنطينية[2]. من أهم أعماله العمرانية في سورية: الكنيسة الكبرى المثمنة الأضلاع، حيث أتمها ابنه قسطنطيوس، كان يطلق عليها الكنيسة الكبرى الذهبية، وإليه يعود عهد افتتاح عصر المجالس الكنسية الكبرى، ومنها مجلس نيقية[3]، الذي عقد سنة (٣٢٥م)، وكانت قد اتخذت تدابير انعقاده في أنطاكية، وأهم ما خرج به هذا المجلس: هو الموافقة على حل أو دمج أمور في العقيدة النصرانية كوحدة الأب والابن مادة وجوهراً، بالإضافة إلى تسوية وضع جماعة المنشقين المدعوين بالبوليسيين، وقرر إعادة تعميد البولصيين، ورسامة قسهم من جديد، وهذا المجلس كان أول المجامع المسكونية، التي تتولى تقرير ما تجري عليه الكنيسة من عقيدة ونظام.

في عهده تداخلت حدود الدولة الرومانية والساسانية، وكل منهما سعت لضم حلفاء في المنطقة، وتعرضت الولايات الرومانية في سورية وفلسطين ومصر لكثير من المتاعب نتيجة لهذا الصراع. في المرحلة الأخيرة من حكم قسطنطين، اضطربت العلاقات الفارسية الرومانية، وازدادت الحالة توتراً، وخاصة بعد أن ارتقى سابور الفارسي العرش الفارسي سنة (٣١٠م)، وأخذ يوطد العزم على استعادة أجزاء الإمبراطورية، التي كانت قد ضاعت باستيلاء الرومان عليها قبل ذلك.

وفي عهده أيضاً وفي عام (٣٣٣م) نزل قحط شديد بجميع أنحاء الشرق من الإمبراطورية، وكان شديد الوطأة بوجه خاص في سورية. وشدته كانت بسبب تعبئة القوات ووجودها في سورية، خلال هذه الأحداث وفي سنة (٣٣٣م) قرر الإمبراطور قسطنطين تعيين أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية في سورية، ومقره أنطاكية، فأرسل أحد أبنائه وهو قسطنطيوس. في الوقت نفسه أخذ الرومان يجدون في استعداداتهم الحربية، وأحدث منصب جديد هو (كونت الشرق) لقيادة وحدات الشرق الإدارية، التي كانت تشمل كلاً من سورية، وبلاد ما بين النهرين ومصر، ومهمته الإشراف على حكام الولايات، ومنح سلطات واسعة للقيام بالاستعدادات الجارية للحرب الفارسية، وأول (كونت) عيّن للشرق هو (فيلقيانوس) عام (٣٣٥م)، الذي اتخذ من معبد ربات الفنون في أنطاكية مقراً له، بعد ذلك توفي قسطنطين عام (٣٣٧م). في سنة (٣٣٤م) كشف الفرس عن نواياهم، وبدؤوا عملياتهم الحربية باحتلال أرمينية، واستعدوا استعداداً كاملاً للزحف باتجاه سورية.

---

[1] سيد أحمد علي الناصري: الروم تاريخهم حضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربي ـ طبع مصر ١٩٩٣ ـ ص١٥.

[2] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى انستاسيوس ـ دار الفكر العربي ـ بدون تاريخ ـ ص١١٥.

[3] السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ـ طبع بيروت ١٩٨٢ ـ ص٣٢.

بعد وفاة قسطنطين، قسمت الإمبراطورية الرومانية بين أبنائه الثلاثة (قسطنطين ـ قسطنطيوس ـ قسطانز)، ومنح كل منهم لقب قيصر، وكان قسطنطيوس أول من وصل إلى العاصمة بعد وفاة أبيه، فعمل مذبحة في عائلته، حيث تخلص من جميع أقربائه الذكور، فقتل أعمامه وأولادهم، وكانوا سبعة، وزوج شقيقته.

بعد ذلك حدث صراع ما بين قسطنطيوس، وأخيه قسطنطين، انتهى لصالح الأول. ثم حدثت صراعات أخرى، كانت نتيجتها لصالح قسطنطيوس، حتى أصبح السيد الأوحد للإمبراطورية[1]. في هذه المرحلة كان الفرس يمثلون العدو الدائم لبيزنطة، وبدأت الحرب بين الطرفين عام (٣٣٧م)، وفي العام الثاني حدثت المعركة الفاصلة بين الطرفين، حيث انتصر الروم، وفرّ سابور الثاني إلى تبريز.

وفي عام (٣٤١م) تم تشييد كنيسة قسطنطين الكبرى في أنطاكية، وجرى احتفال في هذه المناسبة حضره تسعون أسقفاً، حيث أهدى قسطنطيوس إلى الكنيسة أواني نفيسة لإقامة الطقوس الدينية، وفي عام (٣٤٦م) تم إنشاء ميناء في سلوقية بيريه، فكان له أكبر الأثر في تيسير حركة الإمدادات العسكرية، بالإضافة لما له من أهمية اقتصادية وسياحية. في عام (٣٥١م) عهد الإمبراطور قسطنطيوس إلى ابن أخيه جالوس، بعد أن رفعه إلى رتبة قيصر بالإشراف على الشرق، إلا أن تصرفاته وسوء سلوكه قضتا عليه سنة (٣٥٤م)، ثم عين يوليانوس بمرتبة قيصر.

وفي عام (٣٥٢م) تجدد صراع الروم مع الفرس رغم توقيع معاهدة صلح عام (٣٥٠م)[2]، حيث تقدم سابور إلى الأراضي السورية، واستولى على أمد، ونهب أراضيها، إلا أنه عاد إلى بلاده. في هذه المرحلة قرر الإمبراطور الروماني الخروج لحرب الفرس بنفسه، فلما بلغه انسحاب سابور، دعم تحصيناته في سورية والشرق، وعاد إلى عاصمته، لكي يقضي على تمرد الغرب ضده. خلال هذه الأحداث اتخذت التدابير لمواجهة القحط، الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار.

واستمر الإمبراطور في قتاله مع الفرس، حيث خرج عام (٣٦٠م) لحربهم[3]، فعلم بما كان يدبر له في الغرب، فاضطر لمغادرة سورية والعودة إلى العاصمة، وفي طريق عودته مات سنة

---

[1] أسد رستم: الروم ـ الجزء الثاني ـ ص٧٤.

[2] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية ـ ص١٤٦.

[3] أسد رستم: الروم ـ الجزء الأول ـ ص٧٦.

(٣٦١م)، وعيّن يوليانوس (جوليان) (٣٦١ ـ ٣٦٤م) خليفة له، حيث دخل العاصمة دخول الظافرين.

بعد أن استتب له الأمر، عمل على تنظيم الحكومة، ثم توجه إلى سورية عام (٣٦٢م)، وكان قد عين عمه يوليانوس في منصب كونت الشرق، وأوفده إليها، فوصلها قبل الإمبراطور، وكانت زيارته لأنطاكية تنطوي على أمور كثيرة[1]: منها إحياء الديانة الهلينية، إعلان الحرب ضد الفرس، ومحاولة كسب تأييد اليهود في سوريا. مما سبّب وجوده في سورية استمراراً لمشكلة اقتصادية، كانت قائمة، إلا أنها استفحلت بوجود الإمبراطور وحاشيته، ثم عقد اجتماع دعا إليه ذوي المكانة من أبناء أنطاكية، وحاول إقناعهم بخفض الأسعار، وتفرغ للعناية بمشاغله الأخرى، حيث أسرع لِزيارة المعابد والهياكل الوثنية في جميع المناسبات، إلا أن هدفه في إحياء الديانة الهيلينية لم يتحقق.

في عهده نشبت النار في معبد أبولو في دفنة، فكان ذلك من أسباب اضطهاده للمسيحيين، حيث أغلقت الكنيسة الكبرى في أنطاكية. كل هذا والأزمة الاقتصادية في سورية تزداد سوءاً، فعمل على استيراد الحبوب من مصر، وأصبحت الأسعار خاضعة للرقابة، وخفضت الضرائب، ووزعت الأراضي على السكان، وعمل على إصلاح العملة، وأصدر عملة جديدة. أما عن الحرب الفارسية فقد ظلت الاستعدادات لها ماضية في طريقها. ففي عام (٣٦٢م) أرسل الملك الفارسي يطلب عقد اجتماع مع الإمبراطور الروماني لتسوية الخلافات بينهما، إلا أن هذا الطلب رفض.

في عام (٣٦٣م) عين الإمبراطور (اسكندر من هليوبوليس) حاكماً على سورية، وكان موصوفاً بسوء الطبع والقسوة، وغير جدير بالمنصب، إلا أن الغرض من تعيينه كان القضاء على التمرد والفتنة فيها، وكان هذا الحاكم وثنياً متعصباً، حيث استطاع حكم سورية بعنف شديد، لا مثيل له. أما الإمبراطور (يوليانوس) فتوفي في حملته ضد الفرس عام (٣٦٣م)، وتسلم السلطة بعده يوفانيوس (جوفيان)، إلا أن حكمه لم يدم أكثر من تسعة أشهر، حيث خلفه (فالنتنيانوس فالنتنيان) مع أخيه (والنس).

اقتسم الإمبراطورية الرومانية كل من (فالنتيانوس) (٣٦٤ ـ ٣٧٨م)، الذي اتخذ الغرب مقراً

---

[1] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية ـ ص١٥٣.

له، بينما اتخذ والتس (فالتس) الشرق[1]. وفي عهدهما أعلنت حرية العبادة. في عهده وفي عام (٣٧٥م) حدثت معركة بين الروم والفرس تم عقد سلام بينهما، وعاد كلا الطرفين إلى بلاده. في عهده حرم مزاولة السحر، وعدّ مزاولته جريمة، يعاقب عليها بالموت. كما وصف عهده: بأنه كان عهد إرهاب، وخاصة في سورية. بعد ذلك قتل والتس في موقعة أدرنة ضد القوط سنة (٣٧٨م). وخلفه ابنه جيرائيان.

كان (والتس) قبل موته قد وجه عنايته إلى المدن، التي تخضع له، وأهم آثاره في هذا المجال تجلت في أنطاكية، وأعظمها ساحة جديدة للسوق، وأعاد بناء قاعة القيصرون، وأحيطت الساحة المكشوفة في السوق بأربعة أروقة، وأقام سوقاً للمواد الغذائية، وثلاثة تماثيل لفالنتنيانوس الأول، وأعاد بناء مدرجٍ لصيد وذبح الحيوانات.

في عهد الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول ٣٧٩ ـ ٣٩٥م): بنيت في أنطاكية كنيسة على هيئة صليب، مقابل المدينة على الجانب الآخر من نهر العاصي، وذلك بمناسبة عودة الأرثوذكسية بقيادة (ميليتوس)، وهو الذي أصدر المرسوم الشهير عام (٣٨٠م)، والذي قضى باعتبار العقيدة الأرثوذكسية ديانة الإمبراطورية[2]. في عهده حلت المجاعة في سورية من جراء سوء الأحوال الجوية، وسوء التدبير. يقول (جلا نفبل) في كتابه تاريخ أنطاكية مؤكداً ذلك بقوله:

أما المزارعون وأبناء الطبقات الدنيا، الذين لم يتذوقوا قط طعم اليسر في الحياة، في ظل النظام الاقتصادي السائد، فإنهم ظلوا يعانون وبخاصة من جرّاء عبء الضرائب. وقال: كان سكان المدن السورية الأخرى يقدمون على أنطاكية على أمل أن يجدوا فيها طعاماً، فلا يلقون إلا خيبة الأمل، كما أن المزارعين الذين ساء محصولهم في سورية، قد تقاطروا أيضاً إلى أنطاكية للغوث... ووضع حراس على باب مدينة أنطاكية لمنع المسافرين من أن يحملوا معهم أكثر من رغيفين من الخبز في المرة الواحدة، وعمد الخبازون إلى الفرار من المدينة خوفاً من أن تلقى عليهم تبعة هذا الموقف، أما المزارعون فكانوا كذلك في محنة.

وقد انتقد حكام سورية الرومان خلال هذه المرحلة، لعدم تقديمهم الحلول المساعدة، ومن هؤلاء الحكام: (يومولبيوس) ذلك الحاكم، الذي حاول قدر استطاعته

---

[1] أسد رستم: الروم ـ الجزء الأول ـ ص٨٧. زبيدة عطا: ص١٦٠.

[2] المرجع نفسه ـ ص٩٢.

التخفيض من ويلات المجاعة، أما الحاكم (نيسامينوس ٣٨٦م) فإنه اتهم بالتعسف والإهمال في واجباته، وأما (تيموكراتس) فقد انتقد أيضاً، و لم يقدم أي شيء. بينما امتاز حاكم سورية كاسوس (٣٨٧م) بأن مسلكه كان أفضل، وأما (لوكيانوس ٣٨٨م)، فإنه انتقد بمرارة، وكان الاستياء من الحالة الاقتصادية لا يقتصر على سورية وحدها، بل القسم الشرقي من الإمبراطورية.

في عام (٣٨٧م) وصل إلى أنطاكية عاصمة سورية والشرق مرسوم إمبراطوري، يقضي بفرض ضريبة ثقيلة الوطأة، فقوبل هذا المرسوم بالرفض، وحاول بعضهم التوسط إلى حاكم سوريا لتخفيضها، إلا أن ذلك لم يحدث رغم محاولات عديدة.

أثناء ذلك قامت ثورة بأنطاكية، قادها الغوغاء، فدمروا ما قدروا عليه، وأهمها على صور وتماثيل أفراد الأسرة الحاكمة، وأشعلوا النيران في بعض المنازل، عند ذلك تدخل الشرق، وألقى القبض على زعماء هذه الثورة، وعوملوا بقسوة فائقة، وعندما علم الإمبراطور الشغب أوفد مندوبين إلى أنطاكية للتحقيق في هذا الموضوع. كما أصدر مرسوماً، يتضمن شاملاً لمدينة أنطاكية[1]، جردت بموجبه من مرتبتها بوصفها عاصمة، وجعلت تابعة لمدينة اللاذقية وحرمت من مكانتها الحربية، وأغلقت مدرجاتها، ومسارحها وحماماتها. إلا أن ذلك لم طويلاً، حيث تدخلت الوساطة لدى الإمبراطورية، فأعيدت الامتيازات لأنطاكية، كما كانت من قبل.

قيل: إن عام (٣٩٥م) كان يحمل بداية مرحلة جديدة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية[2] ففي هذا العام انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين منفصلين بعد وفاة الإمبراطور الأول. عام (٣٩٥م) ثم تسلم السلطة ولداه (أركاديوس ٣٩٥ ـ٤٠٨م) ووضع حاكماً للشرق[3] بينما جعل الغرب لابنه الآخر (هنريوس). في هذه المرحلة اجتاح الأيسوريون آسيا الصغرى وسوريا[4]، وأخذوا سلوقية، وعبروا لقبرص، وتمكنت أودكسيا زوجة الإمبراطور (أركاديوس) تكون صاحبة النفوذ في الدولة، و لم يكن هناك من يستطيع أن يجرؤ على معارضتها لسيطرتها

---

[1] أسد رستم: الروم ـ الجزء الأول ـ ص٩٨.

[2] محمود محمد الحريري: رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية ـ ص١٥٥.

[3] ج ـ م ـ هسي: العالم البيزنطي ـ طبع مصر ١٩٨٢ ـ ص٩٧.

[4] زبيدة عطا: تاريخ بيزنطة.

زوجها، والوحيد الذي تصدى لها (حنافم الذهب)[1]، الذي كان قسيساً في أنطاكية. ثم أصبح بطريرك القسطنطينية عام (٣٩٨م)، وهاجم الأغنياء والحكام وسيدات البلاط، ويقال: إنه سبّ الإمبراطورة (أودكسية)، وهاجمها، ووصفها بسوء السلوك والخبث، فاستعانت الإمبراطورة بأسقف الإسكندرية، وعدد من رجاله في مصر وسورية، وعقدوا مجمعاً تحت رعاية الإمبراطور وزوجته سنة (٤٠٣م). رفض (حنافم الذهب) المثول أمام المجمع[2]، فقبض عليه، وعندما علم الشعب، انفجرت ثورة شعبية، اضطرت الإمبراطور وزوجته لإعادته.

(ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨م): تولى السلطة في السابعة من عمره[3]، فأوكلت الوصاية عليه إلى والي الشرق، وبعد وفاة انثيميوس سنة (٤١٤م)، تولت أخته بوليكريا الإشراف على أخيها، وصف: بأنه لم يكن من رجال السياسة الموهوبين، وعدّ ضعيفاً سيء الحظ. في هذا الوقت اضطربت أمور الدولة وأعيد الاضطهاد وبيع الوظائف، وثارت الفتن في الولايات.

وفي هذه المرحلة أيضاً، صدر قانون في عام (٤٠٨م)، يمنع الوثنيين من تولي الوظائف العليا في الجيش، وثار الكونت (Plintha) في فلسطين سنة (٤٠٨م). ثم تزوج الإمبراطور (باودكسيا)، فسيطرت على الموقف، وأصبحت كلمتها هي العليا، إلا أن (بوليكريا) استعادت وضعها، واتهمت الإمبراطورة (باودكسيا) بأنها على علاقة مع بعض القادة الرومان، فاضطرتها إلى مغادرة العاصمة[4]، والتوجه إلى القدس سنة (٤٤٢م)، حيث عاشت هناك إلى حين وفاتها عام (٤٦٠م).

وفي سنة (٤٣٨م) قامت الإمبراطورة بودوكيا بزيارة سورية وفاءً لنذر، حيث قامت برحلة شاقة من القسطنطينية إلى القدس، وخلال رحلتها هذه ألقت خطاباً في أنطاكية، عبرت عن انتمائها إلى العنصر الأثيني، وأكدت على صلة القربى مع أهل أنطاكية، وخلال وجودها فيها أقيم لها تمثال من البرونز والذهب في القاعة، التي ألقت فيها الخطاب، وتمثال آخر خارج دار المتحف، وكانت الإمبراطورة قد أغدقت الكثير من الهبات هناك، وأمرت بمد نطاق سور مدينتها.

---

[1] أسد رستم: الروم - الجزء الأول - ص١١٣.

[2] المرجع نفسه: ص١١٤.

[3] المرجع نفسه: ص١١٦.

[4] سيد أحمد علي الناصري: الروم تاريخهم حضارتهم علاقاتهم بالمشرق العربي - ص٦٨.

وفي عهد ثيودسيوس تحطم السلام مع فارس، حيث بدأت في عهد (بهرام الخامس) سلسلة من المذابح ضد المسيحيين. فأرسلت بيزنطة جيشاً، يقوده (اردبايروس) لحرب الفرس[1]، فحاصر نصيبين، حيث توجه ملك الفرس (بهرام) نفسه لرفع الحصار. في الوقت نفسه أرسل المنذر ملك الحيرة لمهاجمة أراض سورية، إلا أن المنذر لم يحقق أي هدف فيها، وفشل، وخسر الكثير من قواته. أما ملك الفرس فحين تقدمه إلى نصيبين تراجع القائد الروماني، إلا أن القتال استمر. ثم قرر الطرفان وقف الحرب، وعقدوا صلحاً سنة (٤٢٤م)[2]، من أهم بنوده: إيقاف الاضطهاد، وعقدوا صلحاً مدته مائة سنة، ونصّ على عدم استغلال العرب الخاضعين لكلا الطرفين في العدوان.

إلا أن هذا الصلح لم يدم طويلاً، فلما تولى (يزد جرد الثاني) السلطة، قرر استغلال أوضاع الإمبراطورية السيئة في الغرب، فقاد قواته، وعبر الحدود عند نصيبين، وهاجم سورية. وفي الوقت نفسه هاجمت قواته أرمينية سنة (٤٤١م)، وفي النتيجة حدث صلح بين الطرفين لمدة عام مقابل مبلغ من المال، يدفعه الرومان مقابل تسليم بعض المسيحيين الهاربين واللاجئين إلى بيزنطة، واتفقا على أن يقيم كلا الطرفين قلاعاً بالقرب من الحدود.

ماكيانوس (مرقيانوس) وقيل مارقيان (٤٥٠ ــ ٤٥٧م): في عهد (اكيانوس) نعم الشطر الشرقي من الإمبراطورية بالأمن والسلام والهدوء[3]، وفي عهده عقد مجمع ديني في خلقدونية سنة (٤٥١م)، حضره ستمائة وثلاثون من الأساقفة ومندوبون عن البابا والإمبراطور، تقرر فيه تحديد العقيدة الدينية المتعلقة بطبيعة المسيح، وبذلك تكون الكنيسة القسطنطينية قد خرجت منتصرة[4]. كما اعترف مؤتمر (خلقدونية) بالسيادة الشرقية للبابوية، ولكنه وضعها على قدم المساواة مع كنيسة روما.

وتكرس بذلك ازدياد الخلاف بينهما، وبين الكنائس الواقعة في الجهات الشرقية من الدولة البيزنطية، إذ نتجت مشكلة عانت منها الدولة البيزنطية الكثير، لأن المونوفيزتية ليست إلا تعبيراً عما كان بمصر والشام، لذلك أعلنت مصر وسورية اعتراضهما على مجمع خلقدونية، ونظراً لمحاولة تنفيذ القرارات بالقوة، فقد حدثت ثورات وقلاقل دينية في بيت المقدس وأنطاكية

---

[1] زبيدة عطا: ص١٨٥.

[2] السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ـ ص٤٨.

[3] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية ـ ص١٩٨

[4] السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ـ ص٥٤.

والإسكندرية، وأعلن المصريون استقلال الكنيسة القبطية، ورفضهم لقرارات مجمع خلقدونية، وحدث في سورية الأمر نفسه، وأجبر أسقف بيت المقدس على الهرب.

ليو الأول - لاوون (٤٥٧ - ٤٧٤م): هو أول إمبراطور، يتسلم عرشه من يد البطريرك، أي من عهده أصبحت الكنيسة تشترك في التتويج، وقد حدث في سورية زلزال عنيف عام (٤٥٨م)، في فترة حكمه. وكذلك تم تسليم جزيرة جوتابا شمال البحر الأحمر إلى امرئ القيس، الذي كان قد قدم من الأراضي الفارسية، ومعه أتباعه، واحتل الجزيرة[1]، وفي النهاية تسلم القبائل العربية في ولاية فلسطين الثالثة، وتمت موافقة الإمبراطور على ذلك عام (٤٧٣م).

زينون (٤٧٤ - ٤٩١م): تسلم السلطة صغيراً، وكان أبوه وصياً عليه، ثم انفرد بالحكم بعد وفاة والده، في عهده عقد في مدينة اللاذقية مجمع ديني، وعيّن ايلوس قائداً للجيش في وحدة الشرق الإدارية، فوصل إلى سورية عام (٤٨٢م) وكان مقر قيادته أنطاكية. ثم حدث صراع بين زينون وايلوس، وتم تتويج (ليونتيوس) إمبراطوراً، وعندما علم (زينون) بما حدث في الشرق، أرسل قواته، وتمكن من إخماد أعدائه سنة (٤٨٨م).

في عهده حدثت اضطرابات طائفية في سورية مصحوبة بحركة هياج ضد اليهود، وبدء هذه الاضطرابات كان بين أصحاب اللون الأخضر، وأصحاب اللون الأزرق، وتكونت هاتان الطائفتان أصلاً لتشجيع المتنافسين من سائقي عربات السباق، لكنهما تطورتا فيما بعد إلى أحزاب سياسية ودينية، فأصحاب اللون الأخضر كانوا يمثلون المونوفيسيين، والعنصر السوري بين السكان، بينما كان أصحاب اللون الأزرق يؤلفون الحزب المحافظ، وكانوا يناصرون الأرثوذكسية. نشب صراع بين الطائفتين في ساحة السباق، وتكررت هذه الاضطرابات، حيث شملت اليهود، الذين تضامنوا مع أصحاب اللون الأزرق، حيث تمكن أصحاب اللون الأخضر من مهاجمة خصومهم، ونهبوا، وأحرقوا المعبد مرة أخرى، وأخرجوا جثث اليهود، وأحرقوها.

أناستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨م): اشتهر بكفاءته الإدارية وإصلاحاته المالية، في عهده تأثرت جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية بسياسته الدينية، حيث كان يؤيد المونوفيسيين، وسياسته المالية إصلاح شأن موارد الدولة، التي كانت استنزفت إلى حد خطير في عهد (زينون)، وكانت سبباً في كراهية الشعب له، إلا أنه كان يتمتع بشخصية، تدعو إلى الإعجاب، حيث كان رجلاً عميق

---

[1] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية - ص٢٠٨.

التدبير، ورغم ذلك كانت إجراءاته سبباً في اضطرابات ومصادمات طوال مدة حكمه.

يذكر نولدكه[1]: أنه تم تعيين أول أمير جفني من قبل القيصر (اناستاسيوس) في فترة حكمه. كما احتاج النعمان بن المنذر ملك الحيرة حليف الفرس الولايات الشرقية عام (٤٩٨م)، لكنه لقي هزيمة في الفرات على يد القائد الروماني (ايجيتيوس) حاكم مالطية، وفي الوقت نفسه سارت الغساسنة بقيادة حجر بن جبلة[2]، فهزمهم رمانوس حاكم فلسطين، وأجبرهم على دفع الجزية.

يقول نولدكه : في عهده وفي سنة (٥٠٣م) تقدم الفرس إلى مالطية، ثم إلى اميديا، وكان الإمبراطور البيزنطي (اناستاسيوس) قد أرسل عدداً من الفرق إلى الشرق، حيث تمكن الروم من تحقيق بعض الانتصارات، ثم جرت مفاوضات، انتهت بالاتفاق على التخلص من بعض القادة العرب عند كلا الطرفين[3]. مما اضطر الإمبراطور الروماني إلى منح إعفاءات للمدن، التي قاست من الحصار الفارسي لها.

ففي سنة (٥٠٥م) حدث شغب في بعض مدن سورية، وخاصة أنطاكية، وعندما وصلها أشهر سائقي عربات السباق في عصره (بورفوريوس كاليوباس)، وكان شخصية محبوبة وتكريماً له، كان قد أقيم له سنة (٥٠٠م) نصب تذكاري، وبعد أن أحرز عدة انتصارات في مضمار السباق في أنطاكية، ثارت حوادث العنف خلال الاحتفال بإقامة الألعاب الأولمبية، وقد بدأت بالاعتداء على اليهود بوصفهم حلفاء لأصحاب اللون الأزرق، وكان (بورفوريوس) من أصحاب اللون الأخضر.

كانت الدولة الرومانية هي التي تعين زعماء هذين الحزبين، وكان الحزبان يؤديان أعمالاً هامة، فكان منهما حرس المدينة، الذين انتظموا ليقوموا بعمل الشرطة فيها، حيث انقسم سكان المدينة بين هذين الحزبين، يناصر أحدهما الآخر، وكان الزعماء الخضر من أرباب الحرف والصنائع ومن موظفي البلاد أو الإدارة المالية، الذين ينتمون إلى الجهات الشرقية من الإمبراطورية، في حين كان زعماء الزرق من طبقة كبار الملاّك، ومن الأرستقراطية اليونانية والرومانية.

عندما علم الإمبراطور بهذا الشغب، عزل كونت الشرق (باسيليوس الاديسي)، وعين

---

[1] تيودور نولدكه: أمراء غسان ـ ص٧.

[2] يقول نولدكه: ليس في نظري بعيداً أن يكون أنه غزا فلسطين في حوالي سنة (٥٠٠) نولدكه ـ ص٨.

[3] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية ـ ص٢٢١.

عوضاً عنه (بروكوبيوس) الأنطاكي، وفي الوقت نفسه عيّن رئيساً جديداً للشرطة يدعى: (ميناس) البيزنطي، وعندما تكررت حوادث الشغب، قبض (ميناس) على بعض المشاغبين، وقتل أحدهم في الكنيسة، وفصل رأسه عن جسده.

عندئذ أخذ أصحاب اللون الأخضر جثة زميلهم من الكنيسة، ووضعوها فوق محفة وحملوها إلى أنطاكية، حيث التقوا بأصحاب اللون الأزرق، ومعهم الشرطة، فحدثت معركة بين الطرفين، انتصر فيها أصحاب اللون الأخضر، ودمروا المقر الرئيسي لكونت الشرق، وفرّ (بروكوبيوس) الأنطاكي (كونت الشرق) من المدينة، أما (ميناس) قائد الشرطة، فقد قبض عليه أصحاب اللون الأخضر، وقتلوه، ومثّلوا به.

عندما بلغ الإمبراطور أنباء الشغب، عين في منصب كونت الشرق (ايرينابوس بنتاديا ستيس)، وهو من أهل أنطاكية، ولأنه من أبناء المدينة، كان على علم بحوادث الشغب ومدبريها، فاتخذ إجراءات قاسية، وأعاد الأمن، وأعاد بناء المنشآت، التي أحرقت، ودمرت خلال حوادث الشغب. أما الموقف الديني في سورية، فكان شعور العداء واضحاً بين الأرثوذكسيين والمونوفيسيين، وأخذ هذا الشعور يزداد وبشكل مستمر، وكانت قضية المذهب المونوفيسي قد أصبحت تقترن آنذاك بالعواطف الوطنية للعنصر السوري من السكان، وكان لابد من أن ينشأ عن اتحاد العاطفة الدينية مع النزعة الوطنية المحلية قوة كبيرة. وخلال عهد (اناستاسيوس) كان الميل إلى آراء المونوفيسيين، في سورية قد أخذ في الانتشار، حتى وصل الإمبراطور نفسه، فصار يعطف عليهم كلما سنحت له الفرصة.

كان بطريرك أنطاكية في ذلك الوقت أرثوذكسياً، ويشعر على الدوام بأنه عرضة لاعتداء المونوفيسيين عليه، وأن جماعة الرهبان المونوفيسيين، الذين كانوا يعيشون خارج أنطاكية، كانوا قد تجمعوا، وزحفوا على أنطاكية بزعامة أحد الأساقفة، وقاموا بمظاهرات منظمة معادية للبطريرك. بالطبع قاوم أهل أنطاكية المتظاهرين، وقتلوا عدداً منهم، ومثلوا بهم، ثم ترك البطريرك أنطاكية، وعزل من منصبه، وعين بطريرك جديد من المونوفيسيين.

وعقد مجمع في صور سنة (٥١٣م) ألغى قرارات خلقدونية، وأكد قرار التوفيق بعد تحويره في صبغة متوفزتية، وأمر الإمبراطور والي فينيقيا بعدم استعمال مسائل العنف، لكن العنف والاضطرابات لم تتوقف، وقامت ثورة ضد الإمبراطور في تراقية، لكن الإمبراطور قضى عليها سنة

(٥١٥م). بعد ذلك توفي الإمبراطور (أناستاسيوس) سنة (٥١٨م) وتولى بدلاً عنه (يوستينيوس الأول).

يوستينيوس الأول (جوستين) (٥١٨ ـ ٥٢٧م): عندما استلم السلطة كان قد ناهز السادسة والستين، وكان أمياً لا يتقن سوى المسائل العسكرية[1]، مذهبه أرثوذوكسي. في عهده أوقفت الألعاب الأولمبية بموجب مرسوم إمبراطوري، صدر عام (٥٢٠م)، ويعتقد: أن إلغاء الألعاب كانت الغاية منه عدم إثارة الشغب بين أصحاب اللونين الأزرق والأخضر، وبعد ذلك اتخذ قراراً بحصر إقامة حفلات التمثيل والرقص في جميع أنحاء الإمبراطورية، وكانت هذه إجراءات الغاية منها الأمن العام.

شبّ في أنطاكية حريق عام (٥٢٥م)، قضى على المباني الرئيسية في المدينة ومبانٍ عامة، ووقعت خسائر في الأرواح. فقدم الإمبراطور مساعدات مالية لإعادتها إلى وضعها السابق. وفي عام (٥٢٦م) وقع في سورية زلزال، أنزل بالمدن السورية الشمالية، وخاصة أنطاكية ودفنة، أضراراً جسيمة مادية وبشرية، حيث دمرت المدينة بأسرها، وخسرت كما تروي المصادر خمسين ألفاً من السكان، ودفن تحت الأنقاض عدد كبير، وأحدث الزلزال حرائق، أتت على ما تبقى في المدينة، وعندما علم الإمبراطور بهذا الزلزال وما أحدثه، أرسل أحد قادته، وزوده بأموال كثيرة لإعادة بناء المدينة. بعد هذا الزلزال حدثت فتنة بين الأرثوذكسيين والمونوفيسيين كانت لصالح الأرثوذكسيين لأن البطريرك أرثوذكسي.

جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م): يعدّ من أعظم رجال عصره ثقافة، وتتمثل عظمته في القضاء على الوثنية[2]، وفي اتساع أغراضه السياسية، وتعدد ميوله ونزعاته، وارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً بزوجته تيودورا، والتي كانت من أشهر نساء بيزنطة، وأكثرهن حصافة وذكاء. حيث اشتهرت بالجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر. بعد زواجها ازداد اهتمامها بشؤون إدارة الحكم، واشتهرت ببصيرتها النافذة، وشدة تأثيرها على (جوستنيان) في أكثر أموره، وعرف عنها عطفها على المونوفيسيين. في عهده وفي سنة (٥٢٨م) حدثت زلازل في شمال سورية، وفي بعض المدن الأخرى كاللاذقية وسلوقية وبيريه فكانت آثارها التدميرية قوية.

---

[1] محمد فتحي الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي (عصر جوستنيان) طبع مصر ١٩٨٩ ـ ص٦٣.

[2] السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ـ ص٩٩.

ومن الناحية التجارية رأى الإمبراطور جوستنيان أن يتخذ من البحر الأحمر وسيلة للاتصال المباشر بين الدولة البيزنطية والهند، فأقام حامية عسكرية بالعقبة (أيله)، ومن أيله يجري نقل التجارة براً إلى البحر المتوسط عن طريق فلسطين وسورية. كما شيّد مراكز للمكوس في جزيرة تيران الواقعة في مدخل خليج العقبة، حيث جرت جباية المكوس من السفن، التي تجتازها. وفي عهده تم تهريب دودة القز من سيريندا، وبذلك أسست صناعة الحرير فجرى التوسع في زراعة شجرة التوت، التي تعيش عليها دودة القز، وقامت المصانع بنسج الحرير في مدن سورية كبيروت وأنطاكية، وبذلك أصبحت صناعة الحرير احتكاراً حكومياً، يدر على الدولة الرومانية ربحاً طائلاً.

اصطدم الإمبراطور باليهود والوثنيين والهراطقة، وبسبب حرص الإمبراطور على توحيد العقيدة الدينية، أظهر عدم تسامحه مع زعماء الأديان الأخرى، فتعرضوا زمن حكمه لاضطهاد عنيف، اشتركت فيه السلطات المدنية الرومانية، علماً أن الاقتناع بتوحيد الكنيسة بين الشرق والغرب، كان قد أصبح مستحيلاً. ففي عهده مثلاً قام اليهود في فلسطين بثورات ضد الحكومة، فأخمدتها السلطات الرومانية، ودمرت الكثير من المعابد اليهودية، وانتقصت من حقوق اليهود، وفرضت عليهم تلاوة الترجمة اليونانية للتوراة في المعابد[1].

إذاً اهتم الإمبراطور (جوستنيان)، كما ذكرنا، بالقضاء على الوثنية. ففي سورية قضى على معبد هيليوبوليس (بعلبك)، وأحرق الكتب الوثنية، ونقل أوثانهم إلى القسطنطينية، وألقى القبض على كهنتهم، إلا أن سياسته الدينية الرامية إلى تنصير شعب الإمبراطورية أدت إلى الاصطدام باليهود السامريين في فلسطين، وخاصة عندما أصدر قانوناً سنة (٥٢٧م)، حرم فيه على اليهود الدعوة لمعتقداتهم الدينية، والشهادة في ساحة القضاء ضد المسيحيين الأرثوذوكس.

خلال الحرب الفارسية الرومانية سنة (٥٢٩م)، أعلن اليهود في السامرة عدة إجراءات، وقتلوا الكثير من المسيحيين وخاصة في مدينتي (بيسان ـ ونابلس)، وقضوا على القوات الرومانية هناك، لكن الرومان تمكنوا بمعاونة الحارث بن جبلة ملك الغساسنة من توجيه ضربة قاصمة إلى يهود السامرة. بعد ذلك أصدر مرسوماً سنة (٥٤٢م) استهدف تخفيف حدة القيود المفروضة عليهم، وغايته درء خطرهم في حالة قيام حرب مع الفرس. إلا أنهم أشعلوا نيران الثورة سنة (٥٥٦م)، وقتلوا الكثير من المسيحيين، وأحرقوا الكثير من الكنائس، أما (جوستنيان) فاتبع معهم

[1] محمد فتحي الشاعر: ص١٠٠

حرب إبادة، وأعدم زعماء الثورة، وأصدر مرسوماً تضمن حرمانهم من الكثير من الحقوق المدنية والدينية، من ذلك أنه قد حرم عليهم ممارسة شعائرهم الدينية، فكان لذلك أكبر الأثر في تقليل هجمتهم حتى نهاية عصره. أما مع المونوفيزتيين في الأقاليم الشرقية كسورية وفلسطين ومصر، فقد عمل على استرضائهم نظراً لتأييد (تيودورا) زوجته المسيطرة عليه، وأقام علاقة سليمة معهم.

في عهده أيضاً استؤنفت الحرب ضد الفرس، حيث كانت سورية ممثلة بعاصمتها أنطاكية، مقراً عسكرياً للقيادة الرومانية. كما كانت مركزاً مهماً للمواصلات، ففي عام (٥٢٨م) نشب القتال بين الروم والفرس، كما قام المناذرة بقيادة ملكهم المنذر، وكان تابعاً للفرس، بغارة سريعة على سورية، ووصل إلى أنطاكية، حيث عجز قائد الجيش الروماني (هوياتيوس) عن معالجة وحماية البلاد ضد أعدائها.

في هذه المرحلة عين (يلي ساريوس) قائداً للجيش الروماني، ومقره أنطاكية، وأرسل أيضاً وفداً إلى الفرس للتفاوض، إلا أنه فشل في ذلك، وسارت الحرب الفارسية على منوال إرسال الحملات سنوياً ضد سوريا التابعة للحكم الروماني، وتمكن الفرس من أسر عدد من الرومان، وأطلق سراحهم بعد تقديم فدية مقابل ذلك. في سنة (٥٣٢م) عقد جوستنيان معاهدة صلح إلى أجل غير مسمى مع الفرس، حيث تضمنت المعاهدة شروطاً مهينة، حيث تعهدت الإمبراطورية البيزنطية: بأن تدفع جزية سنوية ضخمة لملك الفرس. وفي سنة (٥٤٠م) تمكن الفرس بهجومهم على سورية من احتلال أنطاكية[1]، وأنزلوا أضراراً جسيمة بالمدن السورية، وغنموا، وسلبوا، وعادوا إلى بلادهم.

في هذه الظروف أرسل الإمبراطور مبعوثَين للتفاوض مع ملك الفرس، بهدف إنقاذ أهل سورية ومدنها عن طريق تسوية مالية. وفي الوقت نفسه صدرت أوامر من القسطنطينية باستدعاء ستة آلاف جندي من لبنان لتعزيز حامية أنطاكية، إلا أن المفاوضات لم تأتِ بأي نتيجة. وهاجم الفرس سورية، وضربوا خيامهم على شاطئ العاصي، وهاجموا أنطاكية من عدة مواقع، وكان جبل كاسيوس هو نقطة الضعف الذي تسهل مهاجمته، حيث دافع الرومان بعناد عن المدينة، إلا أنهم فشلوا، وفرّ قسم منهم إلى دفنة، فقتل الفرس ودمروا، وسبوا كل ما صادفوه، وأسروا الكثير من السكان، وأحرقوا المدينة وضواحيها، وعادوا إلى بلادهم.

---

[1] الباز العريني: الدولة البيزنطية: ص٧٥.

بعد هذا الخراب، الذي أصاب مدن سورية، شرع في إعادة بنائها، وخاصة أنطاكية. يقول جلانفيل في كتابه أنطاكية القديمة: إن أنطاكية الجديدة، التي نهضت من بين أنقاض التدمير، كانت أقل حجماً بكثير، مما كانت عليه فيما سبق، فالشارع الرئيسي الجديد مثلاً كان لا يشكل سوى اتساع عرض أحد الطورين الممتدين على جانبي الشارع الأقدم عهداً ذي البوائك، وكانت مناطق بأكملها في المساحة الواقعة داخل القسم الأسفل من السور المحيط بالمدينة خالية من السكان، وانقص طول السور، إنما مد خطه على استقامة، ليكون ملائماً أكثر للدفاع. وأدخلت تحصينات على السور القائم على جبل سيلبيوس، وأنشئت حمامات وخزانات للماء داخل التحصينات الدفاعية، كما زوّد كل برج في السور بصهريج لتخزين ماء المطر. وأعيد بناء كنيسة العذراء الكبرى، وبنيت كنيسة أخرى باسم كنيسة كبير الملائكة ميكائيل، وأنشئت مشافٍ للمرضى، وزودت المدينة بدور الضيافة وغير ذلك.

ولم تكن أنطاكية هي المدينة الوحيدة، التي حظيت بعنايته، إنما اهتم بمدينة الرصافة، فعمل على تجميلها، وبنى فيها الكثير من المساكن والأروقة وخزانات المياه. كما أعاد بناء تدمر، وأمدها بالمياه وبحامية عسكرية. كما بنى في بيت المقدس كنيسة العذراء، وأقام داراً لضيافة الغرباء، ومشفى للفقراء مجاناً، وأعاد بناء خمس كنائس كان اليهود السامريون قد دمروها. وجدد بناء الأديرة العشر في المدينة، وأقام خزانات للمياه، وحفر الآبار بها. وأصلح الطريق، الذي كان يربط أنطاكية بمدينة كيليكية، حيث عمل على تحسينه لأنه كان محصوراً بين جبلين، وأصبح صالحاً لمرور العربات، كما أقام كنيسة وقلعة في سيناء بالقرب من جبل موسى، وزوّد القلعة بحامية، وفي مجال السياسة المالية، فقد ألزم أصحاب المصانع المنتجة للثياب الحريرية في بيروت وصيدا بدفع الضرائب كاملة، لأنهم كانوا يتهربون منها. وفي سنة (٥٤٢م) حدثت في سورية ويلات من جرّاء وباء الطاعون، وفي سنة (٥٥١م) حدث زلزال في شمال سورية، هدم مدينة أنطاكية، كما حدث زلزال آخر سنة (٥٥٧م)، هدمها أيضاً. وفي سنة (٥٦١م أو ٥٦٢م) عقد جوستنيان هدنة مع الفرس لمدة خمس سنوات، وتم الاتفاق بينهما: أن يدفع الإمبراطور جوستنيان مبلغاً كبيراً من المال. في الوقت نفسه وعد ملك الفرس بسياسة التسامح الديني، وتقرر على تجار الدولتين: ألا يباشروا تبادل تجارتهم، إلا في مواقع معينة، حيث يجري تحصيل الرسوم.

جوستنيان الثاني (يوسيتيوس) (٥٦٥ - ٥٧٨م): وصف عهده: بأنه كان من أشد العهود كآبة في التاريخ البيزنطي، واستمرت هذه الحالة، إلى حين ارتقاء هرقليس سنة

(٦١٠م). في سنة (٥٧٣م) نشبت الحرب من جديد مع الفرس نتيجة رفض الإمبراطور دفع الجزية السنوية، فساعدهم المناذرة بشن غارة على سورية، واستولوا على سلوقية بيرية.

في سنة (٥٧٧م) حدث زلزال مدمر دمر دفنة بأكملها، وكانت له أضرار طفيفة في أنطاكية. ونقض جوستنيان الهدنة، التي عقدها جوستنيان الأول مع الفرس سنة (٥٦١م)، وجعل أجلها سنتين، ورفض دفع الجزية السنوية المقررة، في هذه المرحلة أقيم تحالف تركي بيزنطي ضد الفرس، وعقدت معاهدة بين الطرفين، تضمنت الأمور العسكرية بينهما، إلا أن تنفيذها لم يتحقق.

موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢م): في عهده أصبح الأسقف أو البطريرك هو الرئيس الحقيقي للشعب في الشؤون الدينية والدنيوية، وكان نفوذه يفوق رجال الحكومة المحليين، فحدثت نتيجة ذلك: صراعات بين السلطتين الدينية والدنيوية. وفي سنة (٥٨٨م) حدثت زلازل في شمال سورية، فارتجت أنطاكية بأكملها، ودمرت أبنية كثيرة في معظم أحياء المدينة. كما هدمت جميع أبراج سور المدينة، فقدمت الإمبراطورية المعونة لأعمال الإغاثة. وفي عهده تمردت بعض الفرق الإمبراطورية المرابطة في سورية، ثم تمت التسوية في النهاية. وفي سنة (٦٠٢م) قتل الإمبراطور موريس وأولاده[1].

فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠م): وصف عهده بأنه كان عهد إرهاب، حيث ازدادت الإمبراطورية في عهده ضعفاً، وازدادت الاضطرابات في جميع أنحائها، وفي عهده أيضاً وفي سنة (٦٠٧م) احتل الفرس سوريا[2]، وحدثت صراعات بين اليهود والمسيحيين في سورية، وقتلوا بطريرك أنطاكية، ومثلوا بجثته، وأحرقوها، وقتلوا الكثير من المسيحيين، فأرسل الإمبراطور فوكاس أمراً بمعاقبة المذنبين، بعد ذلك دبر اليهود مكيدة للقيام بمذبحة بين المسيحيين في سورية وتدنيس كنائسهم. فكشف أمر المكيدة، وعوقب مدبروها. بعد ذلك فرض الإمبراطور فوكاس ضرائب على اليهود المقيمين في سورية. بالإضافة لما اشتهر به عهد فوكاس من ضعف الإمبراطورية، فقد اشتهر أيضاً بالإرهاب والاضطهاد، وخاصة للمونوفيزتيين من جهة، واليهود من جهة أخرى.

هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م): في عهده أخذ الفرس يتوغلون في الشرق الأدنى عام (٦١١م)، واستولوا على أنطاكية، التي كانت تعدّ أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، بالإضافة لما كانت تحتله من صفة سياسية، فهي تمثل عاصمة سورية الشمالية، كما احتلوا دمشق.

---

[1] أسد رستم: الروم ـ الجزء الأول ـ ص٢٠٩.

[2] المرجع نفسه: ص٢١٠.

واستولوا على حصن طرسوس، وطردوا البيزنطيين من أرمينيا. كما استولوا على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع، فجعلوا المدينة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام. حيث يذكر: أن اليهود اشتركوا مع الفرس فيما جرى من المذابح والنهب[1]، وأسروا الكثير، ومن بينهم كان بطريرك بيت المقدس. من المعروف أن معظم سكان بلاد الشام المسيحيين، كانوا قد تعرضوا للاضطهاد من قبل الحكومة الرومانية، حيث ساعد ذلك الفرس لاحتلال بلاد الشام.

إن احتلال الفرس لسورية في هذه المرحلة قضى على معالم الدولة اليونانية والرومانية فيها، أضف إلى ذلك الخراب والدمار، وفساد الاقتصاد وخاصة الزراعة والتجارة. بعد ذلك احتل الفرس مصر سنة (٦١٩م)، وبذلك أصبحوا يسيطرون على معظم أرجاء الشرق، وفي سنة (٦٢٢م) قاد هرقل قواته، وعبر بها البوسفور إلى آسيا الصغرى، وتقابل مع الجيش الفارسي على أراضي أرمينية، انتصر فيها هرقل وقواته، وتتالت انتصاراته ضد الفرس، الذين عقدوا معاهدة مع الآفار ضد هرقل وقواته. وفي سنة (٦٢٦م) تعرضت القسطنطنية لهجوم الآفار، إلا أنهم هزموا أمام أسوارها، أما الفرس فاحتلوا خلقدونية، واحتشدوا أمام البوسفور، وعندما علموا بهزيمة الآفار، ارتدّوا إلى بلاد الشام.

وفي سنة (٦٢٧م) زحف هرقل بقواته نحو عدوه الفرس، وعند الموصل حدثت معركة حاسمة، انتصر البيزنطيون بقيادة هرقل، وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة، وواصل هرقل تقدمه، في هذه المرحلة قتل ملك الفرس بعد عزله، وتولى الحكم ابنه (قباذ شيرويه). بعد تسلم قباذ السلطة الفارسية سعى إلى عقد صلح مع هرقل، وبموجب هذه المعاهدة استردت بيزنطة كل ما خسرته، ومن ضمنها بلاد الشام، ثم عاد هرقل إلى بلاده. بعد ذلك توجه هرقل وبصحبته زوجته سنة (٦٣٠م)، قاصداً بيت المقدس[2]، حيث أعاد الصليب المقدس إلى موقعه.

في هذه المرحلة وجدت الدولة العربية الإسلامية، حيث لم يمض وقت طويل، حتى استطاع القادة العرب الاستيلاء على كل فتوح هرقل في الشرق، وذلك بعد تحريرهم الأراضي العربية. ففي سنة (٦٣٤م) حرر العرب بصرى ودمشق في سنة (٦٣٥م)، واستسلمت بيت المقدس سنة (٦٣٨م). وهكذا انتهت أكبر إمبراطورية في الشرق، وهي إمبراطورية الفرس، كما انهارت الإمبراطورية البيزنطية أمام قوة العرب المسلمين.

---

[1] السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ـ ص١١٨.

[2] أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الجزء الأول ـ ص٢٢٨.

الباب الرابع

الفصل الأول : النظم السياسية.

الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية.

الفصل الثالث : الحالة الاقتصادية.

الفصل الرابع : حالة بلاد الشام

الفصل الأول

النظم السياسية

النظم السياسية

قامت النظم السياسية اليونانية على:

الملكية: فالملك هو رأس السلطة اليونانية، وسلطته مطلقة، وهو الذي يعين الموظفين، ويسرّحهم، وحكمه يرتكز على حق الفتح والوراثة، والملك يضع على رأسه تاجاً كرمز للملكية وخاصة في المناسبات الرسمية، وكان التاج يظهر على النقود، واتخذ الملك الخاتم شعاراً للملكية، أما اللباس الملكي اليوناني فكان الرداء (المكدوني). وتميزت الحياة الاجتماعية للملك بالأبهة، حيث ظهر ذلك في الولائم، فالصحون كانت ذهبية وفضية، والخمور الأصيلة المعتقة والعطور الشرقية، والطعام كان لحم الحيوانات البرية والبحرية، والحلوى المعمولة بالعسل، وغير ذلك.

أما حاشية الملك فأفضلها وأولها كان وظيفة وزير القضايا، حيث ذكر: أن هذا المنصب كان استمراراً لمنصب الوزير عند الفرس. والوظيفة الثانية رئيس الديوان الملكي، ووظائف أخرى مثل وزير المالية، والكاتب المالي، وقائد الحرس، والطبيب الرئيس. أما الموظفون في الولايات فهم الوالي، وحكام المقاطعات الصغرى والكتاب ومراقبو الضرائب.

وكانت نساء القصر يتصارعن، ويدبرن المكائد للوصول إلى السلطة في حالات معينة كما رأينا. وبعض الأسر الملكية وخاصة خلفاء الإسكندر كانوا يتزوجون بامرأة واحدة، إلا أنهم كانوا يحتفظون بمحظيات، وبعض هؤلاء المحظيات، كان يسند لهن سلطة ملكية على بعض المقاطعات. كما مارس بعض الملوك عادة الزواج بالشقيقات.

أما في إدارة المقاطعات فقد ورثت الإمبراطورية السلوقية القسم الأكبر منها من الفرس، حيث احتفظت الوحدة الإدارية باسمها الفارسي (المرزبانة)، ويذكر: أنه كان يوجد (٧٢) مرزبانة في عهد سلوقس الأول. أما سورية فكانت تضم (٨) مرزبانات، أربع في الشمال، وأربع في الجنوب، وقسمت المرزبانة إلى مقاطعات صغيرة، واحتفظت أنطاكية بدار صك النقود الرئيسية للدولة. إلا أنه وجد دار صك في مدن أخرى في سورية مثل صيدا وصور وتدمر وغيرها. وكانت

الضرائب تفرض على الجماعة، وقسم منهـا يدفـع عيناً باسـم المدينـة، ووجـدت ضرائـب، عرفـت بضرائب ملكية، تشمل ضريبة الرأس، وضريبة التاج، وضريبة الملح.

أما عند الرومان فقد قسم المؤرخون التاريخ الروماني قبل الميلاد إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً ـ عهد الملوك:

في الوقت، الذي أنشئت فيه روما سنة (٧٥٣ ق.م)، كان نظام الملكية هو النظـام السـائد، واستمر هذا النظـام حتـى حـوالي عـام (٥٠٩ ق.م)، حيـث استمر النظـام الملكـي أكثـر مـن قـرن ونصف، ويعتقد: أنه حكم فيها ستة ملوك[1]. ثلاثة منهم: من أهلها الرومان اللاتينيين، ثـم حكمهـا ملك واحد أتروسقيوني، ثم تمكن الرومـان مـن استعادة السـلطة. بعـد ذلـك اسـترد الاتروسـقيون السلطة، واسـتمروا فيهـا إلى أن تمكـن الرومـان بقيـادة بروتـس مـن القضـاء علـى الملكيـة الفاسـدة وجورها، وذلك سنة (٥٠٩ ق.م). حيث طرد منها آخر الملوك[2] سنة (٥١٠ ق.م).

أما النظم السياسية في هذه المرحلة، فقد كان جميع سكان روما الأحرار ينتظمون في قبـائل، تنقسم إلى وحدات، تسمى كور، وعدد هذه القبائل في العهد الملكي كان ثلاثة، حيث كـانت كـل قبيلة تؤدي نصيبها مما تحتاج إليه الدولة من مال وجنود. يقـوم بجمعـه نقيب من كـل قبيلـة، وكـان النقيب يدعى: تربيونا، وهو الذي يقود القوات، التي تقدمها قبيلته.

وعدد الكور لم يكن ثابتاً، بل ازداد تبعاً لازدياد عدد السكان. حيـث أصبحـت فيمـا بعـد ثلاثين كورة مقسمة بالتساوي على القبائل الثـلاث، ولكـل كـورة طقوسـها الدينيـة الخاصـة بهـا، ومكان لعقد اجتماعاتها. وجمعيـة الكـور كـانت أولى الجمعيـات الدسـتورية، الـتي عرفهـا الشـعب الروماني، إلا أنها لم تكن جمعية تشريعية، بل كانت وظيفتها الرئيسـية: هـي المصادقـة علـى أحكـام الملك، وعقد هذه الجمعية كان رهناً بإشارة الملك.

أما مجلس السناتو، فقد كان له وزن ونفوذ واسع، وكان يـتألف من طبقة النبـلاء. ومجلـس السناتو هيئة استشارية، آراؤها غير ملزمة للملك، لكن مع الزمن ازدادت أهمية هـذا المجلـس. فعنـد وفاة الملك كانت سلطته تنتقل إلى السناتو، فيعين أحـد أعضائـه حاكمـاً مؤقتـاً لحـين اختيـار الملـك

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م) ـ طبع مصر ١٩٨٣ ـ ج١ ـ ص٨٥.

[2] ر ـ هـ ـ بارو: الرومان ـ طبع مصر ١٩٦٨ ـ ص٢٠.

الجديد، حيث تصادق عليه جمعية الكور.

والملك في هذه المرحلة لا يرتقي العرش بحق لإرث وحده، أي لا يشترط فيه أن يكون أحد أفراد الأسرة المالكة فحسب، بل أن تتوافر فيه الشجاعة والجرأة، والقدرة على ممارسة المهام الخطرة من عسكرية وقضائية ودينية. أما سلطته بعد علائه سدة الحكم[1]، فكانت مطلقة، لم يحد منها إلا العرف ومراعاته في كسب ود أبناء الشعب، وكان الملك يرتدي ثياباً قرمزية، ويجلس على كرسي من العاج، وله مرافقة، قوامها اثنا عشر رجلاً، يحمل كل منهم حزمة من العصي وبلطة لاستخدامها من قبل الملك في إنزال عقوبتي الجلد والإعدام بحق من يستحق ذلك.

أما واجبات الملك فهي كثيرة، منها رعاية الشؤون الدينية. إلا أن هذا الواجب كان واسعاً ومتعدد الجوانب، لذلك كان الملك لا يقوم إلا ببعض جوانبه مثل تحديد أيام الأعياد، وتقديم القرابين. وأما الواجبات الأخرى في هذا المجال، فكانت منوطة بهيئات دينية لتنفيذ بقية الواجبات الأخرى، فمثلاً كان يسند إلى هيئة كبار لكهنة أمر تفسير الشرائع الدينية، والحفاظ على تقاليدها. وإلى هيئة العراف أمر استطلاع رغبات الإله، وإلى الكاهنات العذارى السهر على بقاء النار المقدسة مشتعلة باستمرار في مقر العبادات الرومانية.

والملك هو القانون أي: هو الذي يصدر القوانين، ويعلنها، ويطبقها. علماً أن العرف كان هو، الذي ينظم العلاقات بين الناس في الدولة أكثر من القانون، ومن جهة أخرى كان تدخل الملك في حالات النزاع بين المواطنين مقصوراً على تعيين محكمين لبحث النزاع وإصدار الأحكام باسم الملك.

وكان الملك يمارس سلطات جنائية واسعة، خاصة ضد جرائم الجناية والقتل دون مبرر، أما فيما عدا ذلك فكان الملك يعين هيئة قضائية، مهمتها تحديد نوع الجريمة المرتكبة، وكان القضاة يصدرون أحكاماً: إما الغرامة، وإما الجلد، وإما النفي، وإما الإعدام، ومن حق الملك تخفيفها. ومن واجبات الملك الأمر بجباية الأموال من أجل شن الحروب، أو إقامة المنشآت العامة، وماعدا ذلك لم يفرض على الرومان أي التزامات مالية. علماً أن مصادر دخل الدولة كانت من الإيجارات والمكوس، وحق استخراج الملح، وبيعه والغرامات التي تفرض على المجرمين. وكان دخل الدولة يودع في خزينة الدولة العامة.

---

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة الرومانية ـ ص٦٣.

ثانياً - الجمهورية:

الفترة الثانية هي فترة الجمهورية، والتي تبدأ من عام (٥٠٩ ق.م)، واستمرت إلى عـام (٢٧ ق.م). في هذه المرحلة وطدت روما سيطرتها ومركزها، واكتسبت عن طريق الحروب تجاربها السياسية والإدارية، كما استفادت من حضارة الشعوب الأخرى.

عندما حل النظام الجمهوري لم يلغ سلطة الملك[1]، إنما وضع ضوابط للحيلولة دون استبداده في استخدامها، لذلك كانوا يسندونها سنوياً بالانتخاب إلى شخصين، كان كـل منهما يتمتع بها كاملة طوال عام واحد فقط، وكل منهما كان له حق الاعتراض (الفيتو)، وكل منهما كـان يجلس على كرسي من العاج، وله أتباع. عرف هذان الحاكمان في بداية أمرهما باسم (برايتوس)، ثم بعد ذلك باسم القنصلين، حيث اقترن لقب قنصل بمنصب الحاكم الأول في الجمهورية الرومانية.

وبانتقال سلطة الملك والشارات الدالة عليها أصبح القناصل هم الذين يرعون استتباب الأمن والنظام في الدولة، وكان القناصل ينيبون عنهم حكاماً للفصل في المنازعات، كما كانوا يتولون قيادة الجيش، وفي حال وجودهما معاً في مسرح واحد للقتال، كانا يتبادلان القيادة بشكل دوري يومي. وورث القناصل حق استطلاع رغبات الآلهة لمعرفة رضائها أو سخطها قبل الإقدام على عمل ما.

وكان للكهنة اختصاصات: منها الخاص كتقديم القرابين، ويتولاه كاهن، يسمى ملك القرابين، أما الاختصاصات الخاصة بالعلاقات الرسمية بين المجتمع الروماني والكهنة، فكانت تتولاه جماعة من الكهنة، يقوم على رأسها الكاهن الأكبر، كما وجدت عدة جماعات من الكهنة، تختص كل منها بإقامة شعائر وطقوس دينية، وأهمها جماعتان اختصت الأولى: بجمع التنبوءات والحفاظ عليها، أما الثانية: فهي جماعة العراف، وهي التي كانت تشرف على استطلاع رغبات الآلهة إزاء الشؤون العامة.

والكهنة لم يؤلفوا فئة خاصة من فئات المجتمع، إلا أنهم في بداية عهد الجمهورية كانوا جميعاً من البطاركة، وكان كل كاهن في الوقت نفسه عضواً في السناتو، ويتولى أحد المناصب. وكان للكهنة نفوذ واسع في الدولة، فهم حراس القانون الديني، وكبير الكهنة هو الوحيد الذي كان يحدد سنوياً أيام كافة الأعياد العامة.

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام (١٣٣ ق.م) - ج١ - ص١٥١.

استمرت جمعية الكور (الجمعية الشعبية) في العهد الجمهوري، وفي بداية هذا العهد كانت هذه الجمعية هي التي تنتخب القنصلين سوياً[1]، وتمنحهما سلطتهما التنفيذية العليا، وتوافق على المقترحات، التي يعرضها عليها القناصل، أو ترفض الموافقة، وليس لها حق المناقشة أو تعديل المقترحات، وظلت هذه الجمعية مدة تقوم بدور المحكمة، واحتفظت حتى نهاية عهد الجمهورية بحق الإشهاد على الوصايا، وحالات التبني، وبحق الفصل في شرعية البنوة. وعملية التصويت في هذه الجمعية، إما شفاهاً أو برفع اليد، ولكل كورة صوت واحد يمثلها، علماً أن هذه الجمعيات كانت تخضع لسلطة البطاركة.

ثالثاً - الدكتاتورية:

في بداية عهد الجمهورية، وضع الرومان ثلاثة مبادئ، أصبحت سمات مميزة لمناصب الرومان. الأول: مبدأ الزمالة في ممارسة السلطة على قدم المساواة، الثاني: مبدأ قصر تولي المنصب على عام واحد، والثالث: مبدأ حق الاعتراض. أما في أوقات الأزمات فكان القنصلان بناء على استشارة السناتو يعينان حاكماً مطلقاً، يمارس سلطته بمفرده لمدة أقصاها ستة أشهر، وكان هذا الحاكم يطلق عليه في البداية حاكم الشعب، ثم عرف، فيما بعد (في القرن الخامس قبل الميلاد): بالدكتاتور، وكان هذا الحاكم يتخذ مساعداً له يدعى: قائد الفرسان. ومن المعروف أن البطاركة هم الذين تزعموا الثورة، التي أطاحت بالملكية، وأحلت الجمهورية، لذلك فقد احتكر البطاركة عضوية الجماعات الدينية وتولي المناصب الكهنوتية، كما تولوا مناصب القنصلية والدكتاتورية بالإضافة إلى قيادة الفرسان.

يتألف مجلس السناتو، من صفوف البطاركة، وقد ازدادت سلطته ونفوذه، وكثر عدد أعضائه، فمثلاً في القرن الثالث قبل الميلاد كان السناتو يتألف من ثلاثمائة عضو، وعضوية السناتو كانت مدى الحياة، إلا إذا ارتكب العضو عملاً مشيناً في سلوكه العام والخاص. أي أن السناتو كان هيئة دائمة ذات تجارب طويلة. وكان السناتو في العهد الجمهوري يمارس على القناصل نفوذاً أكبر مما كان يمارسه على الملوك، ومع الزمن اكتسب السناتو حق إبرام أو نقض قرارات الجمعية الشعبية.

تنظيم الإدارة في بلاد الشام خلال العهد الروماني:

بعد عام (٦٤ ق.م) وسيطرة الرومان على بلاد الشام، تحولت سورية إلى مستعمرة

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام (١٣٣ ق.م) - ج١ - ص١٥٦.

رومانية، وألغي حكم الملوك فيها، علماً أن الصراع على السلطة بين الملوك السلوقيين كان ما يزال مستمراً، فأدى هذا الوضع إلى تخريب الاقتصاد، وتفسخ النظام الاجتماعي السوري. في هذه المرحلة شكل اتحاد فيدرالي من بعض المدن السورية كأنطاكية وسلوقية وبيرية واللاذقية، وأصدر عملة نقدية موحدة. ويعتقد أن المدن الواقعة في جوف سورية كانت هي الأخرى قد شكلت فيما بينها اتحاداً اعتباراً من بداية ظهور الجيوش الرومانية على أطراف بلاد الشام.

في مثل هذه الظروف كانت توجد في سورية استراتيجيتان. الأولى: تسعى لضم البلاد إلى الدولة النبطية. أما الأخرى: فكان هدفها ضم البلاد إلى البطالمة، إلا أن ذلك لم يتم. في هذه المرحلة سيطر تيجران ملك أرمينية على بلاد الشام بالقوة من (٨٣ ــ ٦٩ ق.م) لمدة أربعة عشر عاماً، وكانت فترة هدوء وسلم، وفي عام (٦٩ ق.م) عادت سيطرة السلوقيين على البلاد، ثم دخلت ضمن نفوذ الرومان فيما بعد، كما ورد. وبعد دخول سورية تحت النفوذ الروماني فرض عليها تأدية أتاوات لصالح خزينة روما، وأسس بومبي المدن، وحرر بعضها، وبذلك أصبحت هذه المدن تابعة له مباشرة، وأخذ يعمل على تحويل بلاد الشام إلى قاعدة قوية من جهة، وترسيخ وتشجيع التقاليد الهلنستية في تنظيم المجتمع من جهة أخرى.

وعانت سورية إبان الحرب الأهلية الرومانية، والصراع على السلطة من فرض ضرائب باهظة على السكان دون وجود أي نظام محدود لفرضها أو جمعها، وعندما نشب صراع بين قيصر وبومبي وقفت سورية في صف بومبي، وكان السوريون ضمن تعداد جيشه، وكانت سورية مصدراً هاماً لتزويده بالمال والمواد التموينية، ورغم انتصار قيصر بقيت سورية مسرحاً لانتفاضات. بعد ذلك حصل البطالمة على قسم كبير من سورية في عهد كليوبترا، ثم دخل سورية البارفانيون، ثم أعيدت إلى الرومان.

في عهد اكتافيان أغسطس، أدخلت بعض التغييرات الهامة على تنظيم وإدارة سورية، بحيث أصبحت تحت سلطة الإمبراطور مباشرة، وأشرف عليها مفوض من قبل الإمبراطور برتبة نائب قنصل.

وفي بداية القرن الأول قبل الميلاد أسست بيروت على أنقاض مدينة فينيقية، وجرى توطين محاربين من الفيلق المقدوني الخامس وفيلق أغسطس الثالث فيها. كما بنيت بعلبك بالتاريخ نفسه مكان قرية، وكان لهما دور خاص في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سورية، ولعبت

هذه المدن مع غيرها دوراً ملحوظاً في ترسيخ تبعية الحكام السوريين المحليين لروما، وتم تعيين ملوك لهذه المستعمرات بهدف تقويتها من جهة، وحمايتها من غارات السكان الأصليين من جهة ثانية، وغير ذلك من الأخطار، وبذلك حدث الاستقرار، وأدى إلى تطور البلاد وازدهارها، ورفع المستوى المعيشي لسكان هذه المستعمرات.

كانت البوليسات أهم وحدة سياسية إدارية للمجتمع السوري في العهد الروماني، وكانت سلطة هذه البوليسات تمتد على حدود واسعة. فمثلاً كانت أفاميا تملك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، كما كانت مدينة اللاذقية منطقة مهمة لزراعة الكرمة. وفي أنطاكية عدد من القرى داخل حدودها، ومن أشهرها دفنة، والمنطقة التابعة لها. إذ كانت تشكل الجزء الأكبر من شمال سورية، وأما المنطقة المرتبطة بها اقتصادياً فقد كانت ذات أهمية واسعة. أما تدمر فقد كانت منطقة واسعة من الأراضي تتبع لها، حيث كان قصر الحير هو الحد الفاصل بينها وبين حمص، وفي تدمر وجدت قبائل، مارست مهنة الرعي، ثم تحولت، وتحضرت، كما كانت تتبع مدينة جرش منطقة ريفية واسعة جداً، وتتبع أيضاً مدينة دورايوروديوس منطقة ريفية واسعة. وكانت المناطق الريفية حول المدن تزود المدن بالمواد الغذائية، أما الملكية الوراثية للأرض فكان يمنع بيعها أو إهداؤها أو هبتها إلا بشروط حق شرائها مستقبلاً. فالملكية كانت في البداية ملكية جماعية، ثم أخذ التملك الشخصي يظهر، لكن في إطار هذه الملكية الجماعية، ثم وجدت الملكية الخاصة للأرض.

وخضعت الأراضي في المدن السورية لعمليات البيع والشراء. أخيراً يمكننا القول: إن الملكية الخاصة للأرض كانت هي السائدة في بلاد الشام خلال القرون الأولى لنفوذ الدولة الرومانية. والقانون كان يسمح بسحب الأرض من مالكها إذا لم يستخدمها لمدة سنتين، وتصبح ملكاً قانونياً لصاحبها الجديد، وكانت المدينة هي صاحبة الحق المطلق في التصرف بأراضيها. وكان في سورية كغيرها نوعان من الملكية الخاصة للأرض، الأول: ملكية كبيرة، تتركز في أيدي قلة، والثاني، ملكية صغيرة، تتركز بيد عدد كبير، يملكها أشخاص.

أخيراً بعد سيطرة الرومان على سورية ظهرت مساحة واسعة من الأراضي التابعة مباشرة للسلطات الرومانية أي التابعة للإمبراطور، لكن هذا كله لم يمنع من تشكيل ملكيات خاصة، فقد ظهرت مجموعة من المزارع في كل مدينة وكل مزرعة مكونة من مجموعة من المنشآت والأبنية وأماكن لتخزين المؤونة، وجاء مثل هذا النظام نتيجة لتوزيع أراضي الإمبراطورية على المحاربين القدماء والموظفين.

كما كانت المعابد لكبار ملاكي الأراضي والقرى في سورية، وشاركت هذه المعابد في مختلف العمليات المتعلقة بالأرض، بما في ذلك عملية البيع والشراء، وكانت ملكية المعبد للأرض تشمل الأراضي التابعة للملك بالإضافة إلى أراضي المدينة.

يعود استمرار الدولة الرومانية إلى النظام الإداري من جهة، ودستورها من جهة أخرى، فالحكم كان أتوقراطياً مطلقاً، والحكم الثنائي، الذي أوجده أغسطس جاعلاً من السناتو شريكاً له، لم يدم طويلاً، والحقيقة أن الإمبراطور ظل يحكم البلاد بمفرده منذ أيام دقلديانوس.

كان الإمبراطور هو السلطة العليا في البلاد، يعين من أراد في المناصب الإدارية العليا، وله حق عزلهم، متى شاء، وبيده مقاليد الأمور، وله السلطة المطلقة في التصرف بشؤون المال، وله حق التشريع، وهو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية، ورئيس الكنيسة، والقسيس الأعلى للدولة، ولقبه الإمبراطور أوغسطس. ومنذ عهد هرقل صار يطلق على الإمبراطور: اسم باسيليوس. يقول ستيفن رنسيمان (ومماله دلالته أن لقب باسيليوس يظهر مقترناً باسم الإمبراطور لأول مرة في عام (٦٢٩م) بعد هزيمة الفرس النهائية مباشرة[1]). وكانت سلطته غير محدودة أي استبدادية.

وكان حق انتخاب الإمبراطور مقتصراً على: مجلس السناتو والشعب من جهة، والجيش من جهة ثانية، وإذا خلا منصب الإمبراطور، وخاصة زمن السلم، فإن مجلس الشيوخ هو الذي كان يتولى الإعلان عن تنصيب الإمبراطور، لكن السناتو في مثل هذه الحالة كان أداة طيعة في يد أحد القادة أو أحد الأحزاب. وأحياناً في حال بقاء منصب الإمبراطور فارغاً كان بإمكان الإمبراطورة أن تتصرف بشؤون الملك.

وكان لا بد للإمبراطور بعد وصوله إلى السلطة من أن يتوج، وكان هذا التتويج يضفي على سلطته إقراراً دينياً، حيث يستطيع أن يؤدي عمله بوصفه نائب الإله في هذه الدنيا، وانتقلت فكرة التتويج إلى الرومان عن طريق الفرس، وكان الكاهن هو الذي يتولى عملية التتويج، ثم أصبح البطريرك (في العاصمة) هو الذي يتولى عملية التتويج، والإمبراطور فوقاس هو أول إمبراطور، توج بإحدى الكنائس، والتتويج بهذه الطريقة يمنح الإمبراطور مكانة تشبه إلهاً أو نائباً، وكان الإمبراطور بعد التتويج يشعر أنه رأس الكنيسة.

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ـ طبع مصر ١٩٩٤ ـ ص٦٤.

وكان من الضروري أن تتوج الإمبراطورة تتويجاً خاصاً، وكان الاحتفال بتتويجها يتم بالقصر، وليس بالكنيسة، ما لم تتوج مع الإمبراطور، وكانت زوجة الإمبراطور ترفع دون أي استثناء إلى منصب الإمبراطورة عند زواجها، أو عند ارتقاء زوجها إلى العرش. فكان التتويج يخول الإمبراطورة نصيباً من الولاية والسعادة، بل كانت تقوم بنصيب في الحكم. وكانت الإمبراطورة الأم تعين وصية، إن كانت على قيد الحياة، تحدد فيها مدة وضع ابنها الإمبراطور الطفل تحت الوصاية بكاملها، أو في جزء منها.

السناتو (مجلس الشيوخ):

كان أعضاء السناتو يختارون من بين أبناء رؤساء العشائر، وعدد أعضائه يزداد، كلما ازداد عدد العشائر، حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثمائة. ويعدّ المجلس الاستشاري للملك، إذ كان يستشيره في الأمور الهامة، إلا أنه لم يكن ملزماً للملك. وكان يتولى التصديق على قرارات مجلس الشعب، التي لم تكن ملزمة، إلا بعد مصادقة مجلس الشيوخ عليها.

كانت السلطات الفعلية للسناتو غير محدودة [1]، وكان أعضاء رجال السناتو يتمتعون بحقوق ومزايا معينة، ينص عليها القانون الروماني. يقول ستيفن رنسيمان في كتابه الحضارة البيزنطية «رغبة في المحافظة على منزلتهم، وما لهم من احترام، حرم عليهم الزواج من الممثلات» ثم أبطلت تلك السنة في عهد يوستينوس الأول. وكانت طبقة أعضاء السناتو وراثية، اتخذت صفة الإجبار، وكانت لها الصلاحيات، إلا أنها أصبحت فيما بعد واجهة ديمقراطية في نظام استبدادي، اتخذت الحكام ستاراً لتغطية جرائمهم، وأصبحت هيئة دستورية، تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها.

وكانت وظائف السناتو تنقسم إلى قسمين: الأول: يختص بالمجالس البلدية، والثاني: يختص بالإمبراطورية. وكان والي المدينة يتخذ كرئيس للسناتو، وهو الصلة بينه وبين الإمبراطور، وأي قانون قبل إصداره كان يجب أن يناقش في السناتو، وكذلك القرارات التشريعية الهامة، والخاصة بالسياسة العامة، كان على الإمبراطور ألا يتخذها منفرداً. أي أن السناتو كان يعدّ شريكاً في المسؤولية [2].

---

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ـ ص٧٧.

[2] زبيدة عطا: الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى انستاسيوس ـ ص٥٥.

أما مجلس الشعب الروماني فكان يتكون من: سكان المدينة الأحرار القادرين على حمل السلاح، أي الأشراف، ولم يكن لمجالس الشعب حق التعديل، فيما يعرضه عليها الملك، كما لم يكن لها الحق في الاقتراح، ولم يكن لها أي سلطة في تعيين الملك، وليس لها أي اختصاص تشريعي.

والنظام السياسي عند الرومان قام على الوظائف الرئيسية التالية:

أولاً ـ القنصل: كان مجلس السناتو ينتخب قنصلين كل عام، وكان لهما في الظاهر ما كان للملك من سلطات، وإن كانت هذه السلطات أقل بكثير مما كان للملك، من حيث الواقع. فسلطة القناصل كانت مقيدة نظراً لمسؤولياتهم أمام الشعب ومجالسه. ومن ناحية أخرى كان لكل قنصل حق الاعتراض على الآخر بأي قرار، وبعض الأحيان كانت سلطة القناصل توقف، إذا ما طرأت ظروف خطيرة.

ثانياً ـ الترابنة: بين سني (٤١٤ ـ ٣٦٧ ق.م) استبدل الرومان بالقنصلين مراراً كثيرة، وفي فترات منتظمة هيئة من الحكام، كان عددهم يزداد بإطراد، ويدعون: الترابنة العسكريين، ذوي السلطة القنصلية. ففي الفترة الواقعة بين عامي (٤٤٤ ـ ٤٢٧ ق.م) انتخبت عشر هيئات من هؤلاء الترابنة، وكان عدد كل هيئة ثلاثة فقط، وبين عامي (٤٢٦ ـ ٤٠٦ ق.م) انتخب عشر هيئات من هؤلاء الترابنة، كانت ثلاثٌ منها ثلاثية العدد وسبع منها رباعية العدد، وفيما بين (٤٠٥ ـ ٣٦٧ ق.م) انتخبت ثلاث وثلاثون هيئة.

والتريبون في العهد الملكي كانوا بمنصب نقباء القبيلة وقوّاد الجنود، يبلغ عددهم ألفاً، وعندما أصبح الجيش الروماني يقوم على أساس الفئات المئينية أصبح، لقب (تريبون)، يطلق على ضباط الوحدات الرئيسية في الجيش الروماني، وكانوا يتمتعون بالسلطة التنفيذية، التي كان القناصل يتمتعون بها، وجمعية المئينات هي التي كانت تنتخبهم.

في عام (٣٦٧ ق.م) تقرر العدول نهائياً عن تجربة انتخاب الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية، والعودة إلى نظام القنصلية وانتخاب قنصلين سنوياً لتولي السلطة العليا المدنية والعسكرية، واعتباراً من عام (٣٦٦ ق.م) أصبح الترابنة العسكريون ضباط وحدات في الجيش تحت إمرة القائد العام.

ثالثاً ـ البرايتورس: بعد أن أعيدت القنصلية إلى مكانتها، كما ورد، تقرر أن تنتخب

جمعية المئينات سنوياً حاكماً جديداً يدعى: برايتور لمساعدة القنصلين، لذلك كان يمنح سلطة عليا، مثل مهمة تصريف العدالة بدلاً من القنصلين، لكي يتسع لهما التفرغ إلى باقي مهامها، وبخاصة الشؤون العسكرية. وكان باستطاعته تولي أحد قيادة الجيوش، وله الحق بدعوة السناتو، أو إحدى الجمعيات الشعبية للإجتماع. وحتى عام (٣٣٧ ق.م) كانت البرايتورية مقصورة على البطاركة.

في عام (٢٤٢ ق.م) تقرر أن ينتخب سنوياً برايتور ثانٍ ليشرف على الفصل في القضايا، التي يكون أحد طرفيها، أو كلاهما من الأجانب، وللتفريق بينهما عرف الأول: برايتور المدينة، والثاني: برايتور الأجانب. ومن أهم واجبات البرايتور أن يصدر بمجرد توليه منصبه قراراً، يبين فيه القواعد، التي سيفصل بمقتضاها في القضايا المنطوية على نقاط، لا تعطي فيها القوانين القائمة، أو العرف السائد أحكاماً قاطعة. وبذلك كان لهم دور مهم في تطور القانون. وبعد ذلك أصبح يسند إليهم حكم بعض الولايات.

رابعاً - القنسورس: أنشئت هذه الوظيفة من أجل ضبط عملية إحصاء المواطنين الرومان وممتلكاتهم، ووجدت هذه الوظيفة حوالي عام (٤٤٣ ق.م)، في الوقت الذي أنشئت فيه وظيفة (التربيون)، أو بعدها بقليل. وهذه الوظيفة كانت جمعية المئينات هي التي تنتخبها في بداية كل فترة إحصائية (كل خمس سنوات)، ومدة هذه الوظيفة ثمانية عشر شهراً فقط، ولا تتمتع الجمعيتان بسلطة تنفيذية، وكان أعضاؤها ينتخبون ممن سبق لهم تولي وظيفة القنصلية. وكانت هذه الوظيفة وقفاً على البطاركة حتى عام (٣٥١ ق.م)، ثم تأكد هذا الحق للعامة عام (٣٣٩ ق.م). أما أهم مهامها[1] فهي:

١ـ تسجيل كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعاً لقبائلهم خلال مدة، لا تزيد على خمسة عشر شهراً.

٢- فحص قوائم الإحصاء والتدقيق.

٣- تقدير ضريبة الملكية، التي تجمع في وقت الحرب.

خامساً - الكوايستورس: أحدث القنصلان هذه الوظيفة في العهد الجمهوري، عندما كانا يعينان سنوياً كوايستورس لينوب عنهما في قضايا القتل دون مبرر، وأصبحت هذه الوظيفة رسمية، عندما تقرر عام (٤٤٩ ق.م) أن تنتخب جمعية القبائل في كل عام من كوايستورس

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص١٧٢.

إلى أربعة، اثنان منهما كانا أميني الخزانة العامة، والآخران كانا يقومان بمساعدة القنصلين، ويصحبانهما إلى ميدان الحرب، حيث كانا يتوليان مهمة توفير مؤونة الجيش، وصرف مرتبات الجند.

وفي عام (٢٦٧ ق.م) زيد عدد الكوايستورس إلى ثمانية، حيث عهد إلى أربعة منهم بتوفير المال والرجال للعاصمة الرومانية، وكانت هذه الوظيفة (بعد أن أحدثت وظيفة البرايتورية)عام (٣٦٦ ق.م) مقصورة على الشؤون المالية دون القضائية، وفيما بعد كانوا يعينون حكام ولايات، وفي النهاية عدّت هذه أدنى الوظائف العامة.

سادساً ـ الايديليس: أحدثت هذه الوظيفة لحاجة ترابنة العامة إلى موظفين، يساعدونهم في تأمين أعمالهم، وأهم اختصاصات الايديليس هي: حفظ سجلات العامة، يضاف لما ورد: القبض على المخالفين لأوامر ترابنة العامة ـ وقبل عام (٣٦٧ ق.م) لم تكن هذه الوظيفة رسمياً من وظائف الدولة، ففي هذا العام تقرر أن تنتخب جمعية القبائل سنوياً اثنين من البطاركة يدعيان: ايديليس، إلى جانب الايديليس اللذين كانت تنتخبهما سنوياً من العامة، وكانا يسميان: ايديليس العامة، وكان ايديليس العامة أدنى مرتبة من ايديلس البطاركة. لكن مع الزمن أصبح الفريقان متعادلين في المرتبة.

ومهام هذه الوظيفة رعاية شؤون المدينة، أي صيانة شوارع العاصمة، وتطبيق قواعد المرور فيها، وحفظ الأمن والنظام في الحفلات الدينية وإمدادها بالمياه، والإشراف على المعاملات التجارية في السوق، وخاصة رقابة الموازين والمكاييل. وقد توسعت مهام هذه الوظيفة لتشمل إمداد المدينة بالحبوب وتوزيعها، والإشراف على حفلات الألعاب العامة. وفي النصف الثاني من العهد الجمهوري أصبح أصحاب هذه الوظيفة يتحملون الجانب الأكبر من نفقات إقامة هذه الحفلات.

القانون:

القانون الروماني كان القوة التي تكبح السلطات الدستورية[1] للإمبراطور، وكان الإمبراطور في الحقيقة هو مصدر كل قانون، وكانت المعرفة بالقانون تعد شيئاً ضرورياً لكل موظف. ومصادر

---

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ـ ص٧٩.

القانون كانت: العرف، والقوانين الملكية. أما مصادر القانون الروماني فكانت كثيرة[1] منها التشريع كتشريعات الجمعيتين الشعبيتين (الجمعية القبلية + الجمعية المئوية)، ومجلس العامة، ومنها منشورات الحكام. ومنها توصيات السناتو، التي اكتسبت صفة التشريعات القانونية، ومنها القرارات، التي يصدرها الإمبراطور، والتي كان لها قوة القانون، وكان الإمبراطور فوق كل قانون، من ذلك: المنشورات، والفتاوي، والأحكام، والتعليمات. وكذلك اتخذت فتاوي الفقهاء مصدراً من مصادر القانون الروماني.

إن اتساع الإمبراطورية ترتب عليه زيادة في عدد القبائل، فبعد أن كان عدد القبائل في العهد الملكي ثلاثة، أصبح عددها في العهد الجمهوري، وتحديداً عام (٢٦٥ ق.م) خمساً وثلاثين قبيلة[2]، اختصت روما منها بأربعة سميت: القبائل الحضرية، والقبائل الباقية، وتعدادها إحدى وثلاثون قبيلة سميت: القبائل الريفية. وبالنتيجة أصبحت القبائل الدعامة الأساسية التي يعتمد عليها نظام التجنيد، ودفع الضرائب الملكية. في العهد الجمهوري تضاعف عدد الجيش، حيث أصبح يتألف من (٣٠٠٠) رجل أو ثلاثين مئيناً أي ثلاثين وحدة، عدد أفراد كل منها مئة، و(٦٠٠) فارس، أو ست مئينات. مع العلم أن تكوين وحدات الفرسان كان مقصوراً على البطاركة، كما كان أكثر المشاة منهم ومن أتباعهم.

ومع الزمن تزايد عدد الجيش، وأدخلت إصلاحات واسعة النطاق على نظمه، وطريقة تسليحه. وفي عام (٣٦٧ ق.م) تقرر السماح للعامة بتولي منصب القنصلية دون أي قيد أو شرط. وفي أواخر النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد قسمت الدولة مواطنيها على أساس ثروتهم العقارية، وقدرتهم على تجهيز أنفسهم إلى القتال، إلى ثلاث فئات:

الأولى: تضم (٨٠) مئيناً، نصفها من الشبان والنصف الآخر من الشيوخ. الثانية: تضم (٢٠) مئيناً. الثالثة: تضم (٢٠) مئيناً. حيث كان يوجد (١٢٠) مئيناً، نصفها للجيش المرابط، ونصفها للجيش العامل، يضاف إليها مئينان من الفرسان. ومع الزمن ارتفع عدد المئينات إلى (١٩٤) مئيناً، (١٨) من الفرسان (٨٠) فئة أولى و(٢٠) فئة ثانية و(٢٠) فئة ثالثة و(٢٠) فئة رابعة و(٣٠) فئة خامسة، وأضيفت خمس مئين على ما ورد.

كان اصطلاح مئين يعني وحدة عسكرية، إلا أنه فقد مدلوله الأصلي بالتدريج، وحل محلها

[1] عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني - طبع مصر ١٩٧٠ - ص٧٠.

[2] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان - الجزء الأول - ص١٥٨.

وحدات تكتيكية أخرى، ومع ذلك فقد ظل الرومان ينقسمون إلى الفئات الواردة الذكر، وكل فئة ظلت تتألف من عدد المئينات ذاتها، لأن المئين أصبح يؤلف وحدة انتخابية في الجمعية الشعبية.

وكانت المئينات تدعى للاجتماع في تشكيلاتها العسكرية بقيادة ضباطها، وتحت ألويتها، وكان اجتماعها يتم خارج روما، في ساحة التدريب. ولما كانت فئات المئينات تتألف من الشعب الروماني، فهذا يعني أنه أصبح لها صوت مسموع في شؤون الدولة، وترتب على ذلك قيام جمعية شعبية جديدة، كانت الأوليات فيها لمئينات الفرسان، ثم تلتها مئينات الفئة الأولى ثم الثانية وهكذا. وسميت هذه الجمعية الشعبية باسم جمعية المئينات.

ثم أصبحت هذه الجمعية هيئة سياسية أكثر منها تنظيماً عسكرياً، ومع الأيام آلت إليها بالتدريج أغلب اختصاصات جمعية الكور، وبذلك أصبحت الجمعية الرئيسية للشعب الروماني. ومن أهم مهامها: الموافقة على إعلان الحرب، وأصبحت تنتخب كبار الحكام وتعرض عليها كل التشريعات لإقرارها أو رفضها. وقبل عام (٣٥٠ ق.م) أصبحت هذه الجمعية هي التي يستأنف المواطنون أمامها الأحكام الشديدة الصادرة ضدهم[1]، إلا أنه لم يكن من حق جمعية المئينات اقتراح التشريعات أو مناقشة أو تعديل ما يعرضه عليها الحاكم، الذي يدعوها للانعقاد، ويترأس اجتماعاتها.

من المعروف أن القناصل كانوا ينتخبون لتولي الحكم عاماً واحداً فقط، وفي حوالي عام (٣٣٠ق.م) تقرر عدم انتخاب أي مواطن لتولي هذا المنصب قبل انقضاء فترة، قدرها عشر سنوات على توليه المنصب من قبل، ولما كان لهذا التشريع، وخاصة قصر مدة الحكم (سنة واحدة) قد حمل معه عيوباً كثيرة، ظهرت بوضوح خلال الحروب، لذلك اضطروا للاحتفاظ بخدمات القناصل بعد انتهاء عام حكمهم، إلى أن يفرغوا من المهام، التي كانوا يقومون بها، لذلك عمدوا إلى إطالة ممارستهم السلطة القنصلية، وسموا عند ذلك: بروقنصل، واعتباراً من العام (١٤٦ ق.م) أصبحت القاعدة هي إطالة مدة ممارسة السلطة القنصلية، وكذلك السلطة البرايتورية.

سيطر البطاركة تماماً على دفة الحكومة الرومانية، فمثلاً كانوا يحتكرون مناصب الحكم وعضوية الجماعات الدينية. فضلاً عن عضوية السناتو. وبفضل هذا الاحتكار كانوا يمارسون السلطة العليا، ويوجهون سياسة الدولة، ويتحكمون في تصريف العدالة وفي قرارات الجمعية الشعبية

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص١٦٧.

عن طريق حق السناتو في إبرام هذه القرارات أو نقضها.

إن احتكار البطاركة لتولي الوظائف العامة، أدى إلى نشوب صراع مرير بينهم وبين العامة دام قرنين من الزمن، وعارض البطاركة مطالب العامة معارضة شديدة، لكن العامة ساعدتهم على تحقيق مطالبهم لثراء بعض أفرادها، ولمشاركتهم إياهم مشاركة كاملة في تحمل أعباء الدولة. ففي عام (٤٩٤ ق.م) جمع العامة صفوفهم، وانتخبوا من بينهم نقيبين، سموا تريبوني العامة، يكون لهما حق الاعتراض على أي إجراء أو تصرف، ولم يتخذ البطاركة هذا الإجراء، وفي عام (٤٧١ ق.م) كوّن العامة مجلساً، عرف بمجلس العامة، وفي هذا المجلس كانت الوحدة الانتخابية هي القبيلة، وليست الكور ولا المئين، كما زيد عدد ترابنة العامة إلى أربعة، كان مجلس العامة هو الذي ينتخبهم سنوياً.

ونتيجة الصراع بين البطاركة والعامة، وخوفاً من وقوع صراع داخلي، اضطر البطاركة إلى الاستجابة لبعض مطالبهم، فزيد عدد ترابنة العامة إلى عشرة، واعترف بهم رسمياً بوصفهم ممثلي العامة، وبذلك أصبحوا في عداد أرباب الوظائف العامة، إلا أنه لم يكن لهم سلطة تنفيذية، وفي حوالي عام (٣٠٠ ق.م) أصبح يحق لترابنة العامة تقديم أي حاكم سابق للمحاكمة أمام جمعية القبائل، ولم يوافِ عام (٢١٦ ق.م) حتى كان قد أصبح من حق ترابنة العامة دعوة السناتو إلى الاجتماع، وأصبح فيما بعد من حق ترابنة العامة الحصول على عضوية السناتو.

أما مجلس العامة فإنه تحول في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى جمعية شعبية رسمية جديدة، تسمى جمعية القبائل، وكانت الوحدة الانتخابية في هذه الجمعية هي القبيلة، وكان ترابنة العامة هم الذين يدعون جمعية القبائل للانعقاد، ويتولون رئاسة اجتماعاتها لانتخاب ترابنة العامة، وايديليس العامة، والتعرف على وجهات نظر العامة في المسائل، التي تعنيهم، وبذلك اكتسبت جمعية القبائل اختصاصات تشريعية. كما كانت جمعية القبائل تصدر قرارات، عرفت باسم قرارات العامة، إلا أن القرارات هذه لا تكتسب قوة القانون، إلا إذا أبرمها السناتو، وبعد ذلك واعتباراً من عام (٢٧٨ ق.م)، حررت قرارات جمعية القبائل من شرط موافقة السناتو عليها.

كان البطاركة في بداية عهد الجمهورية يحتكرون الوظائف العامة وعضوية الجماعات الدينية، كما كانوا يحتكرون الإحاطة بالقوانين الرومانية وتفسيرها وتطبيقها، وبذلك كانوا يحللون، أو يحرمون، بما يتفق مع مصالحهم، وإزاء ذلك كان من الطبيعي أن يضج العامة، أو يطالبوا بسن

قوانين جديدة واضحة وجلية.

اضطر البطاركة أمام مطالب العامة، وإلحاحهم إلى الاستجابة إلى مطالبهم، ففي عام (٤٥٤ ق.م) انتخب ثلاثة أشخاص لدراسة القانون، وبعد سنتين أوصوا بانتخاب لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص لسن القوانين، وفي عام (٤٥١ ق.م) انتخبت هذه اللجنة لتولي الحكم بدلاً من القنصلين، لتقوم بسن القوانين ونشرها، وبعد أن سنت القوانين، حفرتها على اثني عشر لوحا وفي عام (٢٤٥ ق.م) صدر قانون، يعترف بشرعية التزواج بين العامة والبطاركة.

ومع ذلك ظل البطاركة يحتكرون الوظائف ذات السلطة التنفيذية العليا، إلا أنه سمح للعامة بتولي وظيفة التربيونية ذات السلطة القنصلية، وفي عام (٣٦٦ ق.م) اعترف رسمياً بحق العامة في تولي وظيفة القنصلية، إلا أن ذلك لم يكن ثابتاً، ففي عام (٣٤٢ ق.م) صدر قانون، يحظر أن يكون القنصلان من البطاركة، ويسمح بأن يكونا من العامة، ومع ذلك لم يتوّل قنصلان من العامة دفعة واحدة إلا من سنة (١٧٢ ق.م).

إن اكتساب العامة حق تولي القنصلية أتاح لهم فرصة تولي بقية وظائف العامة، ففي عام (٣٥٦ ق.م) تولى منصب الدكتاتوررية رجل من العامة، وفي عام (٣٥١ ق.م) اكتسب العامة حق تولي القنسورية، وفي عام (٣٣٧ ق.م) اكتسبوا حق البريتوارية، وكان للعامة قبل ذلك أي في سنة (٣٦٦ ق.م) حق تولي ايديلية والقوردلية.

من المعروف أن وظيفة أعضاء السناتو كانت حكراً على القناصل السابقين، والترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية والدكتاتوريين، وهيئة العشرة بالإضافة إلى البطاركة الذين كان لهم الحظ الأوفر في تولي هذا المنصب منذ بدايته. لكن ومنذ عام (٤٠٠ ق.م) فقد سمح للعامة أن يكونوا أعضاءً في السناتو، ثم أخذ عددهم يزداد مع الزمن، حتى صدر قانون، يقضي بأن يختار القنسورس أعضاء السناتو من أفضل المواطنين، مهما تكن مرتبتهم، كما اقتحم العامة عضوية الجماعات الدينية سنة (٣٦٧ ق.م)، والتي كانت حكراً على البطاركة، وفي عام (٣٠٠ ق.م) صدر قانون، يعطي المواطنين حق استئناف جميع الأحكام، التي يصدرها عليهم أي حاكم روماني.

وفي عام (٢٨٧ ق.م) صدر قانون: يقضي بأن تصبح من ذلك الوقت كل القرارات، التي تصدرها جمعية القبائل سارية المفعول، دون أن تسبقها موافقة السناتو، وبذلك أصبحت جمعية القبائل الجمعية التشريعية الرئيسية في الدولة، على حين أن جمعية المئينات أصبحت الجمعية الانتخابية

العليا أيضاً في الدولة، التي تنتخب أعلى الحكام مرتبة، وكان يتعين دائمـاً: ألا يدعـو جمعيـة المئينـات إلى الانعقاد ويرأس جماعتها إلا حاكم، يتمتع بالسلطة التنفيذيـة، أمـا جمعيـة القبـائل فإنـه مـن أجـل إصدار التشريعات، كان يستطيع دعوتها إلى الانعقاد إما حاكم، يتمتع بالسلطة التنفيذية، وإما ترابنة العامة، وبذلك لقي العامة المساواة في الحقوق مع البطاركة.

الجـيـش:

يذكر أن أول دولة نظمت الجيش هي دولة الفراعنة[1]، ثم انتشر التجنيـد في الـدول القديمـة كآشور وبابل وعند الفينيقيين والفرس واليونان والرومان. إذاً كان الفراعنـة أسبق الأمـم إلى تجنيـد الجند، ونظام الجند كان عندهم الصفوف المتعاقبة. ثم اقتبس البابليون هذا النظام.

وكان جند الفرس يقاتلون زحفاً، ويستخدمون الفيلة. ويحملون عليها أبراجاً من الخشـب مشـحونة بآلات المقاتلة والسلاح والرايات، ويدعونها وراءهم أوان الحرب، فـترفع مـن الـروح القتاليـة لـدى المقاتلي[2]، وجند الفرس كانوا أربع طبقات. **الأولـى:** طبقـة القـوّاد العظـام إلى أمـير الأمـراء (مـير نيران). **الثانية:** تلي الأولى، وتكون تحت إمرة المير جران، يقودها أربعة قـوّاد، يسـمى كـل منهـم أصفهبذ (أمير حاكم). **الثالثة:** تحت قيادة الثانية أي تحت قيـادة الأصفهبـذ (أمـير حـاكم). وكـل أصفهبذ يقود أربعة مرازبة. **والرابعة:** تحت قيادة الثالثة، يقودهـا أربعـة سـالاريه (رئيـس). وكـل سالار يقود عشرة أسادر من الفرسـان وخمسـة مـن المشـاة، يسـمونهم: البيـادة. ومـن المعـروف أن اليونان اقتبسوا نظام الجند المصري فأنشؤوا الكتائب، والكتيبة تتـألـف مـن أربعـة آلاف رجـل، ثـم جعلها الملك فيليب المقدوني ضعفي ذلك، ثم جعلها ابنه الإسكندر أربعة أضعاف.

كان الجيش السلوقي تابعـاً للملـك. ومقـر قيادتـه في أفاميـا، ولكـن معسـكره قـد أقيـم في أنطاكية للحرس الملكي. كان قوام الجيش السلوقي في عهد أنطيوخس الثالث في معركـة رافيـا عـام (٢١٧ ق.م) مؤلفاً من (٦٢٠٠٠) من المشاة وستة آلاف من الفرسان. اتسم الجيش الإغريقـي مـن حيث الطابع والتكوين بالسمة الدولية، أي كان لا يُعتمد في تكوينه علـى أفـراد مـن قوميـة واحـدة بعينها، بل كان الجنود يتألفون من قوميات مختلفة. واستمر السـلوقيون في هـذا النظـام، ومـع ذلـك كان الجيش السلوقي يتضمن العناصر الرئيسية التالية: الأول: مقدوني ـ الثـاني: إغريقـي ـ الثـالث:

---

[1] جرجي زيدان: تاريخ المدن الإسلامية ـ طبع لبنان ـ ج١ ـ ص١٣٠.

[2] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ـ طبع لبنان ـ ج١ ـ ص٤٨٣.

فارسي.

وكان الجيش السلوقي يتألف من فيالق إضافة إلى فرق من المشاة، وأطلق فيما بعد على فرقة حملة الرماح: السوريون المقدونيون، وكان سلاح رجال الفيلق رماحاً ضخمة، طولها حوالي سبعة أمتار بالإضافة إلى السيوف، ويعتمرون خوذاً، ويرتدون أغطية لسيقانهم، ويحملون دروعاً حديدية على سواعدهم، وكانوا ينتظمون في الفيلق صفوفاً، عددها ستة عشر صفاً، وقدر قوام الفيلق السلوقي ما بين (١٦ ـ ١٧) ألف رجل.

أما فرق المشاة فكانت أيضاً فرقاً نظامية خفيفة العدد، تسمى حملة الدروع، ويحمل أفرادها الدروع المقدونية، أي دروعاً معدنية مستديرة. كما اعتمد السلوقيون المشاة خفيفي العدة، وكانوا من المرتزقة. وأما الفرسان فكانوا يحتلون مرتبة أعلى شأناً من المشاة، وكانوا يؤلفون فرقاً في الجيش السلوقي، فمنهم كان الفرسان النبلاء، وكتائب الخيالة الملكيين. ووجدت فرق فرسان مدرعة مع خيولها، وهذه الفرق كانت مسلحة حسب النموذج الفارسي.

وضم تنظيم الجيش السلوقي فرقة، سميت فرقة الفيلة، حيث كانت تشكل عاملاً مهماً من عوامل قوة الجيش. ويبدو أن الهنود هم الذين كانوا يقومون بتدريب السلوقيين على استخدامه، ومركز التدريب كان في أفاميا، حيث بلغ مجموع الفيلة في المركز المذكور حوالي (٥٠٠ فيل) فمثلاً استخدم سلوقس الأول في معركة أريسوس عام (٣٠١ ق.م) (٤٨٠ فيلاً)، وكانت عاملاً حاسماً في نصره. كما استخدم أنطيوخس (١٠٢ فيل) في راقية، وفي عام (٢٧٣ ق.م) أرسل حاكم بكترية (٢٠ فيلاً) إلى أنطيوخس الثالث في حربه ضد مصر. أما عن كيفية استخدام الفيلة في القتال فكان يركب الفيل على رقبته، ويحمل الفيل برجاً خشبياً، بداخله أربعة مراقبين. وفصيلة الفيلة يقودها ضابط. ولما لها من أهمية فقد أرسل الرومان سنة (١٦٣ ق.م) بعثة إلى سورية للقضاء على الفيلة فيها، فأثار هذا التصرف أحد مواطني اللاذقية، وتمكن من طعن رئيس البعثة وقتله.

بالإضافة لما ورد وجدت فرقة العربات وفرقة الصبية الملكيين. أما ترتيب الجيش السلوقي فقد كان الفيلق يشكل قلب الجيش، في حين كانت فرق المشاة خفيفي العدة وخاصة حملة الرماح مع فرق الفرسان، تشكل الجناحين الأيمن والأيسر، بالإضافة إلى إشراك الفيلة في هذا التنظيم، والقيادة في المؤخرة.

وقيل: كانت الكتيبة هي نواة الجيش[1]، وعددها لم يكن ثابتاً، فمثلاً بلغ قوامها في معركة مغنزيا (١٩٠ ق.م) ستة عشر ألفاً، وسلاحها السيوف والرماح الضخمة، الذي يبلغ طولها (٢١ قدماً). والخوذ والتروس، ورماة القذائف (النبالة، وأصحاب المقالع) وقاذفو الرماح، ومدفعية الملوك (المنجنيق)، بالإضافة إلى الخيالة، وكان أغلبهم سوريين. كما اشتركت الجمال في الحروب، وكانت تتقدم الفرسان في ساحة المعركة.

أما الأسطول السلوقي، فقد حرص سلوقس على تكوين أسطول بحري يتناسب مع الشواطئ، التي تطل عليها الدولة السلوقية، إلا أن وفاته حالت دون تحقيق هذه الفكرة. وكان السلوقيون، يعتمدون في حروبهم البحرية على القوة البحرية الفينيقية إلى جانب ما لديهم. ذكرنا: أن الرومان كانوا قد أرسلوا بعثة للقضاء على الفيلة في سورية، بعدها أسند لها مهمة إحراق الأسطول السلوقي، علماً أن الأسطول السلوقي لم يقم بأي دور حاسم في أية معركة، وكانت مهمته الرئيسية التعاون مع الجيش وحماية النقليات العسكرية، علماً أن أكثر البحارة في الأسطول كانوا فينيقيين. وقوام الأسطول كانت السفينة ذات الصفوف الخمسة، التي حلت محل السفينة ذات الصفوف الثلاثة، والسفينة كانت تحمل الجنود من جهة، وتنقض على السفن المعادية من جهة أخرى. ويعتقد: أن الأسطول، الذي كان يستخدمه السلوقيون كان فينيقياً محضاً.

يذكر: أن عدد القوات المسلحة العاملة كان محدوداً جداً، وتم توزيع الجيش إلى مجموعات كبيرة، تنتشر في كل مكان وفي المقاطعات. وهذا الجيش لم يشارك في العمليات العسكرية أثناء وقوع الحرب. أما الجيش العامل فقد كانت له مهمة واحدة هي الحفاظ على السلطة السلوقية. ومن المعلوم أن السلوقيين كانوا قد بنوا تحصينات جبارة للدفاع عن حدود الدولة والوقوف في وجه أي هجوم مباغت، والجيش العامل كان يتألف من حرس القطعات المعبأة، التي تخضع للسلطة المركزية وللحاميات الموزعة على القلاع.

وكانت القطاعات[2]، التي تحمي الملك في الحرب مؤلفة جزئياً من الفرسان والمشاة، حيث كانت كتيبة الخيالة الملكية هي الأولى، من حيث المرتبة. وبلغ عدد أفراد هذه الكتيبة في إحدى مراحلها (٢٠٠) خيال، علماً أن الملك كان يقف على رأس مثل هذه الوحدات في حال الضرورة، وشارك السوريون في هذه القطاعات، ومن ضمنها مشاة الحرس الملكي.

---

[1] فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ج١ - ص٢٩٠.

[2] بيكرمان: الدولة السلوقية، ملوك سوريا السلوقيين - طبع دمشق ١٩٩٣ - ص٤٨.

أما حفظ النظام في المقاطعات فكان منوطاً بحاميات مقيمة فيها، وكانت مثل هذه المقاطعات تشغل القلاع، التي تسيطر على المدن، وفي بعض الأحيان كانت النقاط العسكرية تقع خارج المدن في موقع ذي أهمية استراتيجية، ومهمة مثل هذه الحاميات كانت مقاومة العصيان في المقاطعات، كما ساعدت وساهمت في الدفاع عن الدولة ضد أي عدو خارجي.

يذكر أن أكبر جيش سلوقي وصل في تعداده (٧٢) ألف مقاتل، وكان الجيش يضم في تكوينه:

١ـ سلاح المشاة. ٢ـ الوحدات المحلية المسلحة تسليحاً خفيفاً. ٣ـ الخيالة. ٤ـ القوات الخاصة.

وينقسم سلاح المشاة، من حيث التسليح إلى قوات خطوط المشاة الخفيفة، وتعد الكتائب القوة الرئيسية في سلاح المشاة، وعدد أفرادها لم يكن ثابتاً، لأنها كانت تتغير من معركة إلى أخرى، فمثلاً كان تعداد المشاة سنة (٢١٧ ق.م) (٦٤) ألفاً منهم (٢٠) ألف مقاتل للكتائب، وفي سنة (١٩٠ ق.م) كان قوام المشاة (٢٤) ألفاً منها (١٧٠٠٠) للكتائب. والكتائب كانت متنوعة منها الأساسية الكتائب المكدونية. في الوقت نفسه وجدت الكتائب المحلية أي سكان البلاد المحليين، وشكلت قطعات ضمن الجيش السلوقي مسلحة وفق النموذج الروماني، وعددها خمسة آلاف.

ضمن الجيش السلوقي قطعات نظامية لمشاة الخطوط، تألفت من وحدات من المرتزقة، بلغ عددها عام (٢١٧ ق.م) خمسة آلاف مقاتل، حافظت هذه القطعات على سلاحها التقليدي الخفيف، أي مسلحون بتروس طويلة وأحياناً بالسيوف، يضاف لما ورد الوحدات المحلية أيضاً المسلحة تسليحاً خفيفاً فمثلاً في عام (٢١٧ ق.م) شارك عشرة آلاف عربي في المعارك، التي دارت قرب رافية. فما ضم الجيش السلوقي من وحدات الخيّالة، سميت باسم: أجيما، وقوامها ألف عنصر، وهذه الوحدات هي نخبة قوات الخيالة. كان السوريون يخدمون ضمن هذه الوحدات، يضاف لما ورد الشرطة الخيالة (في أنطاكية) ووحدات خاصة مع الفرسان، تضم خيالة محليين ـ رماة سهام ـ خيالة رماحية ـ الخيالة الإغريق ـ رماة المزاريق، أما الخيالة الثقيلة فقد تمثلت في لابسي الدروع، وفرقة الفيلة كانت تشكل القوة الرئيسية في سلاح الخيالة، يضاف لما ورد أنهم كانوا يركبون الجمال.

أما القوات الخاصة فكانت تشمل العربات ذات المناجل والفيلة، حيث كان الفيل يحمل فوق

ظهره برجاً، يضم أربعة رماة سهام ومطارد، والفيلة السلوقية كان أصلها هندياً، وكـان السـلوقيون يسقون الخمر للفيلة، لكي يثيروا جنونها. فمثلاً كان عـدد الفيلـة في جيـش سـلوقس الأول (٥٠٠) فيل مقاتل. وكانت أفاميا السورية المعسكر، الذي يضم فرقة الفيلة، وللفيلة قائد، يسمى قائد الفيلة. وضم الجيش، إضافة لما ورد، المدفعية أي الآلات، التي تقذف النار أو الحجارة أو العقـارب وغيرهـا من آلات الحصار وأدواته، كما كان للهندسة العسكرية دور في الجيش السلوقي.

وعن تعداد الجيش السلوقي، فقـد مـر بتطـورات عـدة. فمثـلاً كـان تعـداد الجيـش في عهـد سلوقس الأول (٢٠) ألف جندي من المشاة و (١٢) ألف فـارس و (٤٨٠) فيـلاً و (١٠٠) عربـة، أما في عام (٢١٧ ق.م) فقد بلغ عدد الجيش الذي زحف إلى برافية (٦٢) ألف جندي مشاة و (٦) آلاف فارس. أما في عام (١٩٣ ق.م) فكان قوام الجيش السلوقي عند مفتيسيا (٧٢) ألف جنـدي، (٦٠) ألف مشاة، وبلغ قوام الجيش في العرض العسكري الذي أقامه أنطـوخ الرابـع في دافنـا (٥٠) ألف جندي، أما أنطوخ السابع فقد استطاع، أن يجند جيشاً قوامه (٨٠) ألف ضد برافيا.

أما عن نظام التعبئة فكان متعدد الجوانـب، إلا أن المـوارد الماليـة، الـتي كـان يملكهـا الملـك[1] وحدها كانت تحدد عدد الجنود، والسلوقيون لم يجدوا أية صعوبة في تأمين الفرسان والمشاة خفيفـي العدة أو حتى المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وكانت الكتائب هي صاحبة الدور الفعال في المجـرى القتـالي نظراً لما تمتاز به من التدريب المنظم والتسليح العالي.

وكانت التعبئة العامة تعنى بالبلاد، كلما دعت الحاجة لذلك، فمثلاً أنطيوخس الرابـع أعلـن التعبئة العامة، وحشد كل جيوش مملكته، وصرف إلى هذه الجيوش ما تسـتحقه عـن سنة، وأمرهـم بالاستعداد والتأهب لكل طارئ. ولكي يبقى الجنود أوفيـاء لقـادتهم، كـان يدفـع لهـم زمـن السـلم بعض مستحقاتهم، وهـذه حقيقـة، كان لا بـد منهـا، لأن الجيـش السـلوقي متعـدد الجنسـيات، وكان الجندي يتلقى جعالة عينية ومبلغاً من المـال لقـاء خدمتـه، كمـا كـان بعضهـم يتلقـى دفعـات شهرية إبان تأديته الخدمة. وعند الحاجة للتعبئة العامة كان الملك يصدر أمراً لسوق جديد، وبموجب هذا الأمر كان المواطن السلوقي يستدعى إلى الجيش لأنه مواطن، ولا ينسى أن تموين الجيش في كثير من الحالات كان يرتبط إلى درجة كبيرة بالإرادة الطيبة للمدن.

وبالإضافـة إلى الجيـش السـلوقي، الذي كان يعد قبـل كل حملة، لا بد لنا من أن نوضح أن

---

[1] بيكرمان: الدولة السلوقية، ملوك سوريا السلوقيين ـ ص٦٥.

هذا الجيش كانت ترفده القوات المحلية سواء من المدن السلوقية أم المستوطنات التابعة لهذه المدن. فمثلاً كانت المدن السورية ترفد الجيش السلوقي بقوة، لا يستهان بها في كل حرب، سواء أكانت خارجية أم داخلية، فمثلاً كان الجيش المتجمع في أفاميا سنة (٢٢١ ق.م) والمعد للحملة الشرقية يضم وحده ستة آلاف جندي من منطقة واحدة، وهي منطقة كريستي الواقعة بين عمان والفرات. وفي معركة رافيا كان تعداد الجيش ستين ألف جندي سوري.

وعند تحرك الجيش يدار من هيئة أركان الاشتراك بالقتال ويبقون في المؤخرة، تضم الطباخين والمشوهين. وحاملي أسلحة الحرب وعائلاتهم وغير ذلك. أما الزي العسكري السلوقي فيمكن أن نصفه على الشكل التالي: درع هلنستي تحت رداء قصير، ينتعل صاحبه جزمة عسكرية عالية الساق، ويحمل في أذنيه قرطين كبيرين وسيفاً، وكان الطعام يتألف من أرغفة كبيرة من الخبز وقطعة من اللحم وخمر ممزوجة بماء عذب، ويجب أن نعلم أن الجنود كانوا يعدون طعامهم اليومي من مؤنهم الخاصة كل منهم في مسكنه، وقبل القيام بأي حملة كانوا يتلقون جعالتهم مسبقاً بالإضافة إلى الولائم، التي كان الملك يقيمها في الحملات العسكرية، والتي كانت تتكرر حتى قيل: إنها كانت يومية، كما كان الملك يوزع هدايا ومكافآت لقاء الإخلاص في الخدمة.

عندما قامت الدولة الرومانية اقتبست عن اليونان نظام الكتائب، وأدخلته في جندها. وكان الجيش يتألف من فرق، قوام كل منها ستة آلاف جندي، قسمت إلى ثلاث طبقات: **الأولى**: فئة الشباب، ومنهم يتألف الصف الأول، **والثانية:** الكهول في الصف الثاني، **الثالثة:** أهل الحنكة والسياسة، ومنهم يتشكل الصف الثالث، ومع كل فرقة كوكبة من الفرسان.

وقسم الرومان الفرقة إلى عشرة كراديس، والكردوس قسم إلى ثلاثة أقسام، وكل قسم ضم فصيلتين، قوام كل منها (١٠٠) جندي. واستمر هذا التنظيم إلى الفتح الإسلامي. علماً أن الإمبراطور دقليديانوس كان قد أدخل بعض التنظيمات، فمثلاً عمل على فصل السلطتين: المرتبة والعسكرية واحدة عن الأخرى، وألغى الحرس البرابنوري (الإمبراطوري)، وكوّن حرساً جديداً، يسمى (كوميتاتنسيس)، وأصبحت فرق الردفاء والفرق، التي جددت فيما بعد تسمى (بوديدو كوميتاتنسيس) أي الشبيهة بفرق الردفاء. ومنذ عهد جوستنيان أعيد تنظيم فرق المدينة المرابطة في العاصمة. أخيراً كانت نواة البيزنطيين تكمن في مخابراتهم.

كان الجيش الروماني في بداية تكوينه (العهد الملكي) يتألف من (٣٠٠٠) راجل

و(٣٠٠) فارس، ويجندون من القبائل الثلاث على قدم المساواة، وهؤلاء المحاربون كانوا من البطاركة الأثرياء وأتباعهم، الذين كان بمقدورهم تزويد أنفسهم بالسلاح، وكانوا يشتملون عادة بخوذة وزرد ودرع وسيف قصير. وسلاح الفرسان كان أهم قوة ضاربة في الجيش الروماني الباكر، ويتألف من شباب البطاركة وأتباعهم.

أدى اتساع رقعة الدولة الرومانية إلى زيادة عدد القبائل الرومانية، فبعد أن كانت ثلاثة، ارتفع عددها، فأصبح في عام (٢٦٥ ق.م) خمساً وثلاثين قبيلة، وأصبحت القبائل الدعائم الأساسية، التي يعتمد عليها نظام التجنيد في الدولة. وتطور تعداد الجيش، وارتفع إلى (٤٠٠٠) راجل و(٤٠٠) فارس، ثم إلى (٦٠٠٠) مقاتل، تتراوح أعمارهم بين (١٧ - ٤٥) سنة، والفرسان (٦٠٠) فارس. أما الذين تتراوح أعمارهم بين (٤٦ - ٦٠) سنة، فكانوا (٦٠٠٠) راجل، مهمتهم الأعمال الحراسية.

وتطور الجيش الروماني حتى بلغ (١٩٣٠٠) راجل و(١٨٠٠٠) فارس، وكان الجيش مقسماً إلى خمس فئات:

الأولى: ٨٠٠٠ رجل   الثانية: ٢٠٠٠ رجل   الثالثة: ٢٠٠٠ رجل

الرابعة: ٢٠٠٠ رجل   الخامسة: ٣٠٠٠ رجل   المجموع: ١٧٠٠٠ رجل.

يضاف لهم (١٥٠٠) رجل أضيفوا من أفقر المواطنين الرومان، المجموع (١٨٥٠٠) رجلاً.

كان الجيش مقسماً إلى مئينات، أي كل مئة مقاتل كانوا يشكلون مئيناً، ومع ازدياد رقعة الدولة ازداد عدد أفراد كل مئين. لكن بعد أن امتدت رقعة الدولة أصبح من الصعب الحفاظ على تماسك جيشها وقوته، وقد انعكس سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فيما بعد على الجيش، فبعد أن كان الجيش رمزاً لعظمة الإمبراطورية، انعدم النظام، فتحول إلى أداه حربية، لا تصلح للقيام بواجباتها، فاضطر الأباطرة إلى الاعتماد على القبائل المتبربرة في حراسة الحدود. أما القوات النظامية، فتركزت في المدن للقيام بواجبات الحراسة.

لكن معاناة الدولة الرومانية من غزوات البرابرة، جعلت أباطرتها يلجؤون إلى الاعتماد على الجند المرتزقة[1] ، فكان ذلك من العوامل، التي ساعدت على وصول بعض الانتهازيين إلى مناصب

[1] محمود محمد الحريري: رؤية في سقوط الإمبراطورية البيزنطية - طبع ١٩٨١ - ص١٩.

عسكرية عليا، وحتى إلى قيادة الجيش الإمبراطوري، ومع الزمن ظهر: أن الفرق العسكرية المرتزقة صارت عبئاً على الإمبراطورية، وظهر خطرها واضحاً اعتباراً من سنة (٢١١ ق.م)، وأدى ذلك إلى القضاء على هيبة الدولة ومجدها الحربي، وأصبح بإمكان القادة العسكريين الوصول إلى عرش الإمبراطورية إذا تمكنوا من الاحتفاظ على إخلاص الفرق العسكرية.

إن الجيش في العهد البيزنطي كان ببيزنطة البلد الوحيد الذي كانت تدرس فيه أدوات القتال، ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان [1]، فعند تأسيس بيزنطة كان الجيش الروماني يعتريه تغيير، لأن الحرس الإمبراطوري كان بإمكانه تنصيب الأباطرة. وما ذكر ما هو إلا قليل من العوامل التي أدت إلى هلهلة الجيش وضعفه.

لكن الإمبراطور قسطنطين الأول حاول إدخال بعض الإصلاحات، منها: إقامة قوة نظامية للثغور من جند، يتناولون أرضاً، وكانوا يمثلون قوة الحدود، ثم إنشاء جيش مركزي، عرف بجيش الوفاء، وكان تحت قيادة الإمبراطور، وأدخل، فيما بعد نظام جند المحالفين. وهم فرق البرابرة، لكن جند المحالفين تركوا وراءهم نظاماً سيئاً للتجنيد، انتشر في الجيش بأكمله، لأن القائد هو الذي كان يجمع جنده، ويعود إليهم وليس للحكومة. علماً أن الفرق والكتائب، التي تحمل أسماء نظامية، كانت مجهولة آنذاك، لأن كل جيش كان يسمى باسم قائده [2]. واستمر الوضع إلى أن تمكن الإمبراطور من إعادة تنظيم الجيش، تديره قيادة عامة، تقسمه إلى فرق، والفرق إلى كتائب، والكتائب إلى سرايا، والسرايا إلى فصائل، وهكذا...

أما الأسطول فلم يحظَ بالأهمية والعناية نفسها والتي كانت للجيش، وخاصة في عصر الدولة البيزنطية، و لم تبدأ البحرية البيزنطية تظهر كقوة واضحة، إلا في عهد هرقل، عندما ظهرت قوة العرب البحرية.

---

[1] ستيفن رسنمان: الحضارة البيزنطية ـ طبع مصر ١٩٩٤ ـ ص١٥٨.

[2] المرجع نفسه.

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية عند السلوقيين

من المعروف أن الدولة السلوقية كانت أكبر دولة في العصر الهلنستي، وقد قسمت إلى ولايات ثلاثة، كانت سورية إحداها. وقد ضمت الدولة السلوقية أجناساً كثيرة بعاداتهم وتقاليدهم ووضعهم الاجتماعي المتباين، وتفاوت مستوى معيشتهم، وتباين حضارتهم، ولا تربط هذه الأجناس إلا رابطة الخضوع إلى السلطة السلوقية، ومجموع السكان كان يتكون من العناصر التالية: الإغريق العرب (السوريين ـ العراقيين) ـ الفرس ـ الأتراك سكان آسيا الصغرى ـ اليهود.

أما سكان سورية فكانوا يتألفون من عنصرين: الإغريق أو المقدونيين، والعرب سكان البلاد الأصليين، والعنصر الأول ينقسم إلى قسمين حسب ظروف عملهم، عسكريين ومدنيين. أما العسكريون: فقد توطنوا في المستعمرات العسكرية، ومعظمهم من المقدونيين، والبقية من الأغريق. والمدنيون استوطنوا في المدن السورية القديمة والحديثة، ومعظمهم من الإغريق، والباقي مقدونيون. ومع ذلك: كانت الفئتان السابقتان قد احتفظتا خلال وجودهما في سورية بنظمهما وعاداتهما وتقاليدهما الإغريقية.

ووفقاً للعرف الإغريقي، كانت المرأة تعتبر قاصراً، مثلها مثل المرأة الرومانية كما سنرى. كما كان لا يجوز أن يكون للزوج أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد، وعرف الطلاق والزواج بأكثر من واحدة لكن بعد الطلاق، أي أن الجمع بأكثر من زوجة واحدة كان غير مسموح به. وكان زواج الأخ من أخته، التي هي من أمه محرماً[1]، ويعدّ عملاً فاحشاً منكراً، غير أن زواج الإخوة إذا لم يكونوا من أم واحدة كان مباحاً، ومع ذلك فقد مارست المرأة سلطة واسعة، وخاصة الملكات. فقد أقيمت لهن التماثيل، وقرنت أسماؤهن مع أسماء أزواجهن في نقوش الإهداء، كما كنا نلاحظ صورهن أيضاً مع أزواجهن على النقود السلوقية.

وفي المراكز، التي أنشأها السلوقيون، كان الإغريق والمقدونيون يشكلون القوة الأساسية

---

[1] مفيد رائق العابد: سورية في العصر السلوقي ـ ص٢٨٢.

فيها، في الوقت نفسه وجدت عناصر أخرى في هـذه المراكـز. حيث كـانت هـذه الأجنـاس، ومـن ضمنها الوضيعة، تسكن في مناطق خاصة بها، وكانوا يأتون بالدرجة الثانية لأنهم كانوا لا يتمتعـون بحقوق الإغريق في أي ميدان من ميادين الحياة.

لكن مع الزمن انصهر قسم كبير من الإغريق والمقدونيين، وامتزجوا مع السكان الأصليين، وحدث التزاوج، وانصهرت بعض العادات والتقاليد، حتى العبادات. إذاً كان السكان الأصليون في سورية يشكلون الأكثرية الساحقة، ورغم ذلك نجد فـوارق حـادة بـين العنصر الإغريقـي والعنصر العربي، مـن حيـث المستوى الحضـاري، فسـكان سـورية أصحـاب حضـارة عريقـة، كمـا كونـوا مجتمعات تجارية وكهنوتية قبل وجود الاسكندر على هـذه الأرض، لذلـك حـافظ المجتمـع في العهـد السلوقي على عاداته وتقاليده الموروثة، إلا أن ذلك في سورية كان أكثر انفعالاً وتفاعلاً من غيرهـا، لأن العاصمة السلوقية في سورية.

تكون المجتمع السلوقي في سورية من طبقات[1]. **الأولى:** هي طبقة الحكام أو الطبقة العليـا لأن سورية مقر الحكومة السلوقية الرئيسية. فهـذه الطبقـة كـانت تقسـم أيضـاً إلى قسـمين، الأول: حكومي، ويتألف مـن الملـك وأفـراد أسـرته وحاشـيته وكبـار معاونيـه، أي كبـار موظفـي الدولـة، وموظفي القصر من المدنيين والعسكريين، وكلهم من الإغريق والمقدونيين. وكان معظم أفـراد هـذه الفئة أوسع الناس نفوذاً وأكثرهم ثراءً، والفئة الثانية: غير حكومية، وتتألف من كبار التجار في المدن التجارية الكبرى مثل أنطاكية وسلوقية واللاذقيـة ودمشـق والبـتراء وغيرهـا. يضـاف لكبـار التجـار أقطاب الصناعة، وقد يضاف إليهم كبار ملاكي الأرض من خارج الفئة الأولى.

أمـا **الطبقـة الثانيـة:** فهـي الطبقـة الوسـطى، وهـذه الطبقـة أيضـاً لم تكـن في مسـتوى اجتماعي واحد، إنما يمكن تقسـيمها إلى فئـات: بعضهـا حكومـي، وبعضهـا الآخـر غـير حكومـي. فالحكومي منها كانت فئة صغار الضبـاط، الذيـن استقروا، وتمركـزوا في المـدن السـورية الرئيسـية، وخاصة أنطاكية، حيث كان أفراد هذه الفئة يتلقون إلى جانب واردات قطاعاتهم رواتب منتظمة.

وتتألف الفئة الأخرى من هذه الطبقة من صغار الموظفين، الذين انتشروا في كل مكـان مـن الدولة. وفئة ثالثة: تتألف من المستوطنين العسكريين، الذين ينتمـون إلى أصـل إغريقـي أو مقدونـي. أما الفئة الأخـيرة مـن هـذه الطبقـة، فهـم فئـة غـير حكوميـة، تتـألف مـن بقيـة العنـاصر الإغريقيـة

---
[1] أسد رستم: الروم - ج١ - ص٦٩.

والمقدونية، وهم من الأحرار، ومنهم العلماء والمدرسون والأطبـاء والمحـامون والفنـانون، ومتوسـطو الحال من رجال الصناعة والتجارة. والفئة الأخيرة من الطبقة المتوسطة كـانت اقتصاديـة أيضـاً، مـن حيث وضعها الاجتماعي.

الطبقـة الثـالثـة: هي الطبقة الدنيا، تكونت من الأهالـي والمواطنـين المسـيطر عليهـم، ورغم ذلك، فقد كان السكان المحليون في سورية أيضاً طبقات متفاوتـة في مسـتوى معيشتها قبـل الإغريق، واستمروا أيضاً رغم السيطرة الإغريقية في عصرهم.

ويمكن تقسيم المجتمع السوري، أي شعب البلاد في العصر السلوقي إلى طبقات:

أولـها: الطبقة العليا، وتتألف هذه الطبقة من كبار ملاكي الأراضـي، ومـن كبـار الكهنـة، يضاف إليهم رؤساء العشائر القبلية. ومن المعروف أن الإغريق عند احتلالهم لسورية كانوا قد تركوا السلطة السياسية في بعض المدن، كما كانت، إلا أن هذه السلطة كانت خاضعـة لسـلطة الإغريـق. وهذه الطبقة أيضاً لم تكن على وتيرة واحدة في مستوى معيشتها وحياتهـا الاجتماعيـة، إنمـا كـانت تتفاوت، فكبار الملاكين كـان وضعهـم الاجتمـاعي أفضـل مـن غـيرهم، ممـن هـم أقـل ملكيـة، أي أصحاب الملكية المتوسطة. وكبار رجال الكهنوت كانوا في حالـة اجتماعيـة تفـوق غـيرهم، وكبـار التجار كانوا في حالة أفضل من التجار الوسط وهكذا.

الطبقة الثانية: هي الطبقة الوسطى، أي طبقة متوسطي الدخل، الذيـن كـانوا يكسـبون رزقهم من ممارسة الزراعة والتجارة والصناعة، أو العمل الحكومي في المدن السورية، التي بقيت على وضعها السابق قبل الإغريق، واستمرت فيما بعد. تشمل أولاً: التجار، الذين تعاملوا مـع الإغريـق، واختلطوا معهم. ثانياً: الذين انخرطـوا في سـلك الوظـائف الحكوميـة، وهـي وظـائف كـانت نسـبياً متدنية. وثالثاً: الذين اعتمدوا الثقافة الإغريقية، لأن اللغة الإغريقية لغة الدولة الرسمية.

الطبقة الأخيرة من المجتمع السـوري: هـي الطبقـة الدنيـا، أي الطبقـة الكادحـة. وكانت هذه أكثر الطبقات عدداً، وأقلها أهمية، وأدناها، من حيث مسـتوى المعيشـة، حيـث كـان أفرادها يكسبون معيشتهم مـن العمـل في الصناعـة، أو العمـل في التجـارة، وبعضهـم الآخـر، وهـم الأكثر عدداً، كسبوا رزقهم من الزراعة، فالفلاح، كما هو معلوم، يرتبط بالأرض، التي يعمل بهـا، وكانت تنتقل ملكيته، إذا بيعت الأرض، إلى آخر سواءً بالبيع أم الشراء أم الهبة.

الديانة:

أما الديانة لدى سكان سورية، فقد أتيح لهم ممارسة أساليب حياتهم الموروثة، أي أن السلوقيين أطلقوا حرية رعاياهم الدينية، ودعموا هذه السياسة السمحة بإظهار احترامهم لأبرز آلهة الشعوب الخاضعة لحكمهم. فمثلاً سلوقس الأول أبرز في حياته اهتماماً واضحاً لأهم الآلهة في سورية، مثل بعل كبير آلهة سورية، وحدد، وغيرهما. وأعاد بناء معبد (ارتاجانيس) في منبج، كما اهتم بتشييد وإصلاح عدد من المعابد. أخيراً يمكن القول: إنه لم يكن للدولة السلوقية دين رسمي[1] إنما كان للملوك السلوقيين آلهة خاصة بهم، وهي آلهة دفنة.

عادة الدفن:

كان بعض الرومان يحرقون جثث موتاهم، وبعضهم الآخر يدفنونها. وكان الموتى يشيعون إلى مثواهم الأخير في مواكب جنائزية كبيرة، أو صغيرة حسب الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمتوفى.

الموسيقى:

كانت الموسيقا إحدى العوامل الرئيسية المساعدة على تحقيق التواصل والتفاهم بين الإنسان والمحيط، الذي يعيش به، مستخدماً بذلك كل الوسائل، التي يدركها لتحقيق ما يريد، فتراه يستخدم إما صوته أو المواد الملائمة، التي تقدمها له الطبيعة. إما على حالها أو بعد تحويلها إلى أدوات مولدة للصوت.

وعن بداية الموسيقا وممارستها عند الإنسان البدائي، فقد اختلف في ذلك. يقول هربرت سبتسر الفيلسوف الإنكليزي (١٨٢٠ - ١٩٠٣م): (إن الموسيقى هي امتداد لرغبة الإنسان البدائي في التواصل، وإعلاءً للأحاسيس العاطفية وترتبط بالمشاعر الإنسانية، وإن الإنسان توصل إليها، وعرفها من خلال تقليده المباشر للحيوانات وأصوات الطبيعة المحيطة به. لذلك اختلفت الخبرات الموسيقية بين الجماعات والقبائل ثم الشعوب. كما اختلفت في زمان وطريقة وأسلوب توصلها إلى الممارسة الموسيقية ولو بأبسط صورها)[2].

---

[1] مفيد رائق العابد: سوريا في عهد السلوقيين - ص٣١٤.

[2] هربرت ستبسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) الفيلسوف والاجتماعي الإنكليزي.

وقيل عن كارل بوشر (١٨٤٧ ـ ١٩٣٠م) الفيلسوف الألماني: إنه يرجع الموسيقى إلى وظيفتها الأصلية، حيث تقتصر على إرضاء حاجات جمالية بحتة في أعماق الإنسان. وإنها نابعة من حوافز اجتماعية هامة، برزت عن طريق العمل الجماعي، وقال: إن الموسيقى الآلية قد سبقت الموسيقى الغنائية. وأما الباحث المجري بينشه (١٨٩٩ ـ ١٩٥٧) فيؤكد: أن الأصل هو الكلمة أي أن الكلمة كانت قد سبقت النغمة إلى فم الإنسان، وأن الصوت عند الحديث يتحرك متنقلاً بين عدة نغمات، إما حادة أو غليظة.

والموسيقى في البداية لم تكن وسيلة للترفيه، ولا أداة للسماع والطرب، وقضاء وقت الفراغ. ولم تكن أداة للتعبير عما يجيش في النفس من العواطف والمشاعر والأحاسيس المختلفة إنما كان للموسيقى وظائف أخرى اجتماعية، منها أنها كانت وسيلة للاتصال ونقل الرسائل والأخبار وإرسال التعليمات عبر المسافات، وخاصة في المناطق، التي يصعب فيها التنقل كدق الطبول، والنفخ في القرون والأبواق وقرع الأجراس. أخيراً الموسيقى لدى الشعوب البدائية هي غنائية بالدرجة الأولى، وتعتمد كثيراً على الإيقاع المصاحب وتشكيلاته. أكثر من اعتمادها على القيمة اللحنية.

وبعدما عرف الإنسان البدائي كيف يستخدم صوته؟ ثم كيف يغني؟ أخذ يبحث عن وسائل وأدوات أخرى مصوتة مساعدة على الأداء الغنائي، فأوجد الأدوات الموسيقية بأنواعها كآلة الطرق وآلات النفخ والآلات الوترية.

أما الخصائص العامة للموسيقى البدائية، فتنجز بأساليب معينة في الصياغة والبناء والتراكيب اللحنية مهما كانت بساطتها، وفي كيفية الأداء، وفي ممارسة هذا اللون الهام من الإبداع الإنساني[1].

وأهم نقاط تلك الخصائص هي:

أولاً: تقوم الألحان على نموذج لحني مكون من عبارة موسيقية واحدة صغيرة، تتكرر باستمرار، وقام الإنسان تلقائياً بعمل تنويعات على الألحان، تتمثل في: ١ـ تبادل الأداء بين مجموعتين أو أكثر من المؤدين أو من مؤدٍ واحد. ٢ـ توصل الإنسان بقدرته إلى وسيلة أخرى، ساهمت بدورها في إثراء كل من الحركة اللحنية، والعبارة الموسيقية، حيث عمد إلى اتحاد عبارتين أو أكثر، لتكوين جملة واحدة.

---

[1] فتحي عبد الهادي الصنفاوي: الموسيقى البدائية وموسيقى الحضارات القديمة ـ طبع مصر ١٩٨٥ ـ ص٩٦.

ثانياً: تنمية الموسيقا البدائية بجماعية الأداء.

ثالثاً: يلاحظ في الموسيقا البدائية وجود علاقة جوهرية أساسية بين اللحن وبين نوع الأغنية ووظيفتها.

أخيراً التاريخ الموسيقي مرآة، تتجلى فيها مدنيات الشعوب ومبلغ حضارتها. ومن المعروف أن الحضارة المصرية القديمة كان لها دور هام في صناعة الموسيقا، فمنذ عهد الدولة المصرية القديمة ظهرت بمصر نوعيات من الآلات الموسيقية، كما عرفت تكوين الفرق الموسيقية المنظمة، التي تعتمد العناصر الأساسية التالية: الغناء، وآلات النفخ والآلات الوترية، كما أن اتصال الموسيقا بالرقص كان وثيقاً. وكان الرقص عند قدماء المصريين رمزاً للمسرات والأفراح، وركناً أساسياً في مظاهر العبادة. حتى أن البلاط المصري كان يحوي فرقاً أجنبية، تعزف، وتغني بلغة وموسيقى بلادها، إضافة إلى الفرقة المصرية الأصل .

وكان الآشوريون أصحاب موسيقى متطورة بعد المصريين، واستفادت منهما الحضارتان اليونانية والرومانية، علماً أن هاتين الحضارتين لم تضيفا أي جديد إلى حقل الموسيقى بشكل جوهري، إلا بعض الملامح والابتكارات التطويرية والبحوث الموسيقية النظرية.

إذاً كانت الصلة وثيقة بين الموسيقى العربية القديمة سواء أكانت مصرية أم آشورية وبين الموسيقا اليونانية، ومن المعلوم أن الحضارة اليونانية ذات طابع شرقي، ومع ذلك فلليونانيين الفضل في حفظ التراث الإنساني الفكري والفني، ولهم الفضل في نقل كنوز الفكر والإبداع، التي خلفها المصريون والعرب والفرس، ودراستها وتحليلها وتنظيمها وترجمتها لنقلها إلى الأجيال القادمة. واليونان لم ينظروا للموسيقى على أنها وسيلة للهو والتسلية فقط، بل إلى اتخاذها ركناً هاماً في التربية والثقافة، وكانوا يؤكدون على ثلاثة عناصر في بناء الإنسان هي: الحساب والعلوم والموسيقى. هذا ويعدّ القرنان الخامس والرابع قبل الميلاد العصر الذهبي للبحوث اليونانية عن الموسيقى .

من المعروف أن اليونان كانوا قد نهلوا الكثير من أساسيات علومية وفنون من مصر والشرق، ومع ذلك اشتهر اليونان بحبهم وميولهم للفنون المختلفة، وكانت لهم أساليبهم الخاصة في النقش والعمارة والتصوير والنحت، كما كان لهم مدرستهم وأسلوبهم وطابعهم الخاص في الموسيقى. ونظر اليونان إلى الموسيقى على أنها ركن هام من أركان التربية والثقافة، كما هي في

الوقت نفسه وسيلة للهو والتسلية. كانت الموسيقى تدرس إجبارياً في بعض المقاطعات اليونانية منذ سن الطفولة إلى سن الثلاثين، فيتعلمون الغناء الفردي والجماعي، والعزف على الآلات الموسيقية .

ومن أهم الآلات الموسيقية اليونانية[1]:

ـ **الليرة:** آلة وترية تشبه القيثارة المصرية والآشورية، ولها أوتار، تصنع من الأمعاء، عددها سبعة، وقد تزيد في بعض الآلات إلى أحد عشر وتراً، وكانت تضبط إما خماسياً أو سباعياً .

ـ **الأولوس:** هو نفسها آلة المزمار المزدوج المصري أو الآشوري ــ الصفارات ــ الناي ــ الأبواق .

أما الرومان فقد ورثوا الحضارة اليونانية بعد تدهورها. إذاً ورث الرومان موسيقاهم وألحانهم ممن سبقوهم. كما نزلت الموسيقى عن منزلتها العالية عند اليونان، فأصبحت مجرد أداة للهو والتسلية، كما عرف الرومان الآلات التالية الوترية والإيقاعية والنفخية.

الحياة الاجتماعية عند الرومان:

من المعروف أن سيطرة روما على شعوب كثيرة، أدى إلى زيادة هائلة في الثروة، مما ساعد على رفع مستوى المعيشة الذي كان منذ البدء في ارتفاع مستمر بالنسبة لبعضهم، لأن الثروة لم توزع توزيعاً عادلاً، مع العلم أن ثروات جديدة كانت قد تكونت. ومما يذكره دونالد ـ دولي في كتابه حضارة روما العائدات عن طريق الأعمال المصرفية وعمليات الإقراض وجباية الضرائب وإبرام عقود الحروب، والبناء والعقار، وتجار الاستيراد والتصدير. كما عادت الحروب الكبرى، التي دارت رحاها في بلاد الغال وفي الشرق بأسلاب وهبات على كل من اشترك فيها من قائد الجيش إلى الجندي العادي. أما أحكام النفي والإعدام فقد كانت بمثابة وسيلة سريعة لإثراء الرجال الدهاة، الذين نفذوا هذه الأحكام، والذين كانوا ينتمون إلى الجانب المنتصر. ولذلك فالقرن الأول قبل الميلاد كان يمتاز لأول مرة في المجتمع ا لروماني بظهور طبقة جديدة من الرجال ذوي الثراء الواسع، أمثال بومبي كراسوس، سولا، لوكلوس. وبالطبع أمثال أصحاب الملايين هؤلاء ما كانوا لينحدرون إلا من طبقة، تفوقهم عدداً من الأثرياء أو الأغنياء[2] .

---

[1] فتحي عبد الهادي الصنفاوي: الموسيقى البدائية وموسيقا الحضارات القديمة ـ طبع مصر ١٩٨٥ ـ ص١٠٩.

[2] دونالد دولي: حضارة روما ـ ترجمة وطبع القاهرة ١٩٧٧ ـ ص١٦٩ وما بعدها.

إن انتشار رقعة الإمبراطورية وتعدد شعوبها وأجناسها، لم يؤثر على ممارسة الأنظمة الاجتماعية والمعتقدات الدينية واللغات والتقاليد. حيث لم تتدخل الحكومة الرومانية في كل ذلك، طالما أن ذلك لا يتعارض مع سلامة الإمبراطورية وأمنها من ناحية، وما دام السكان يدفعون الضرائب من ناحية أخرى.

حتى أن حكام روما في بعض مراحل تاريخهم رأوا: أن سكان الولايات مواطنون رومان، وبذلك يكونون قد ألغوا الفوارق، وحاربوا العنصرية، واستعملوا الموظفين من كل الأجناس، شريطة استخدام اللغة اللاتينية في الأعمال الرسمية والإدارات الحكومية. إلا أن ذلك لم يكن دائماً بسبب ما أصاب الدولة الرومانية اعتباراً من القرن الثالث الميلادي من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. هذا وإن استمرار الانهيار الاقتصادي كانت له آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة، فكثرت الحروب والاضطرابات وغيرها، مما سبب في نهب المزارع وإحراقها وإفساد المحاصيل، وإنقاص قيمة العملة المتداولة وغير ذلك.

طبقات المجتمع الروماني:

أولاً ـ طبقة النبلاء:

كان المجتمع الروماني ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية[1] الأولى: طبقة النبلاء، التي كانت تعدّ صفوة المجتمع الروماني، ولها المكانة السامية، ويرمز إلى هذه المكانة عدد من المظاهر، مثل اللباس والمسكن والوظيفة وعدد الأتباع والثروة[2] والجاه، ودخل هذه الطبقة كان متعدد المصادر، منها: الضياع، التي كانوا يملكونها، ومنها: التجارة والرشاوي، ومن السلب والابتزاز والهبة والهدايا والاستغلال.

إذن كان المجتمع الروماني مجتمعاً طبقياً، تتفاوت فيه الفوارق الطبقية بشكل واضح، وتناقض بالغ. وهي طبقة أرستقراطية[3] تألفت من السلطة الحاكمة وحاشيتها، وكبار الموظفين والتجار، وكبار المالكين للأراضي الزراعية وغيرهم، حيث لم يكن أبناء هذه الطبقة عابئين بالنظم والقوانين، علماً أنه كان عليهم دفع الضرائب كغيرهم، لكنهم كانوا يتخلصون، أو يتهربون من

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الثاني ـ ص٧٣٣.

[2] دونالد دولي: حضارة روما ـ طبع القاهرة ١٩٧٧ ـ ص١٧٠.

[3] محمود محمد الجوري: رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية ـ طبع ١٩٨٠ ـ ص١٦.

الكثير منها.

وأبناء هذه الطبقة لم يتأثروا بالأزمات الاقتصادية، التي ألمت بالدولة في القرن الثالث الميلادي، إلا أن هذه الأزمات، التي كان سببها اضطرابات سياسية، كان لا بد من أن تؤثر في تلك الطبقة، حيث أخذت أعدادها تتناقص ونفوذها يتضاءل. هذا وقد وجدت الأرستقراطية المالية: في المدن السورية، على النحو التالي: أولاً: الأرستقراطية العقارية ـ وثانياً: التجارية، التي تملك ثروات مالية كبيرة، ثالثاً: الملاك المتوسطي الحال، وصغار الملاكين.

والزوجة كانت تتمتع بكامل الحقوق، التي يتمتع بها زوجها، وكان بإمكانها ممارسة نشاطها بشكل مستقل، أي أن المرأة تتمتع باستقلال اقتصادي، وكانت المرأة تحافظ على علاقاتها مع بيت أبيها، وعلى حقوقها المترتبة من هذه العلاقات.

أما عن قانون الوراثة في سورية، فحق الوراثة عائد إلى الأولاد من الجنسين بالتساوي، وفي حال عدم وجود الأب، وفي حال عدم وجود الإخوة والأخوات تشاركهم الأم في حال عدم وجود إخوة الأب وورثتهم، ثم أخوات الأب وورثتهم.

أما المواطنون الرومان في سورية، فقد لعبوا دوراً بارزاً في حياة المجتمع بما في ذلك داخل الوسط الأرستقراطي، وخاصة أولئك، الذين ينتسبون لفئة المحاربين القدماء، الجنود والرتب الصغيرة هم وخلفاؤهم، الذين شكلوا جماهير الأحرار في بعض المدن السورية كمدينة بعلبك، وكذلك صغار الفلاحين، والفلاحون متوسطو الملكية، ومستأجرو الأرض، والحرفيون، ومالكو الورش.

ثانياً ـ طبقة الفرسان:

كانت طبقة الفرسان أساساً أرستقراطياً تتكون من أصحاب رؤوس الأموال وكبار ملاكي الأراضي، حتى أن بعضهم تجاوز ثراء بعض النبلاء، لذلك لم يرضهم احتكار النبلاء للوظائف العامة، والسيطرة على مقاليد الحكم، والهيمنة على المحاكم، لذلك اتحدت طبقة الفرسان، وأخذت تعمل على مناهضة النبلاء، حتى دخلوا معترك السياسة، وتدرجوا فيها، ووصلوا إلى أعلى المناصب، وكانت علاقة هذه الطبقة بطبقة النبلاء متنوعة. أحياناً عدائية، وأحياناً ودية، حسب الظروف السياسية والمصالح المتبادلة.

كان نشاط هذه الطبقة واسعاً جداً[1] يشمل تزويد الحكومة باحتياجات الجيش والأسطول، وإقامة المنشآت العامة، وجباية الضرائب، والمكوس الجمركية، واستغلال المناجم والمحاجر، ومصائد الأسماك، إضافة إلى أعمالهم في الصناعة والتجارة. كما حذا الفرسان حذو النبلاء في حياة الترف والبذخ، فشيدوا القصور والأبنية، ودأبوا على إقامة المآدب الفاخرة.

ثالثاً ـ الطبقة العامة:

كانت هذه الطبقة تنقسم إلى قسمين[2] هما: عامة الريف، وعامة المدن. ومع توسع الدولة ازداد عامة الريف زيادة كبيرة، وكانوا في أصلهم ثلاث فئات رئيسية، الأولى: تتألف من صغار أرباب الأراضي والثانية: من مستأجري بعض أراضي النبلاء، ويتبعون في هذه الحالة للفرسان، أو الأثرياء، والثالثة: تتألف من الأجراء والأحرار، الذين يقومون بأعمال موسمية في الضياع الكبيرة.

أما عامة المدن، فكانوا أيضاً يشكلون ثلاث فئات، الأولى: هم النبلاء والفرسان، ويعملون إما صناعاً أو تجاراً أو موظفين، لقاء أجر محدد، والفئة الثانية: تتألف من مواطنين يكتسبون قوتهم بجهودهم المتواصلة، وضمت هذه الفئة العتقاء وأبناءهم، والفئة الثالثة: وهي الأكبر، وتتألف من العاطلين عن العمل، الذين لم يكن لهم مورد رزق منظم. ونظراً لاتساع هذه الطبقة، وإزاء تنافس المرشحين لنيل الوظائف الهامة، كانوا يستدرجون العامة لصالحهم. إما بشراء أصواتهم، أو بالمآدب، التي كانوا يقيمونها لهم، ويمنحونهم الوعود، وما شابه ذلك، ومع الزمن ازدادت أهمية هذه الطبقة، وازدادت مطاليبها.

وقد وصفت هذه الطبقة: بأنها كانت عصب المجتمع الروماني، لما كان لها من أهمية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، حيث كانت تؤلف الغالبية العظمى لصغار الملاك. لكن هذه الطبقة انهارت تحت وطأة الكوارث الاقتصادية، التي ألمت بالدولة، وانتهى مصير معظمها إلى الاضمحلال والنقصان تدريجياً، وانحدر بعض أفرادها إلى حالة من البؤس.

رابعاً ـ العبيد:

أما العبيد فكونوا طبقة واسعة الانتشار[3] . بعضهم من ولايات الدولة الرومانية، وأكثرهم

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الثاني ـ ص٧٤١.

[2] المرجع نفسه: ص٧٤٣.

[3] محمود محمد الجوبري: رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية ـ ص١٧.

من أسرى الحرب، كان العبيد يشتغلون في الأعمال المنزلية والتجارية والصناعية، وخاصة في القوة العاملة، التي يعتمد عليها المقاولون العموميون، إلا أن حالتهم لم يكن ميئوساً منها على الرغم من سوئها، فقد كان مسموحاً لهم ادخار الأموال، والحصول على ممتلكات، وشراء حريتهم عن طريق إجراء العتق.

وبعد عتقهم كان لهم الحق أن يعملوا تجاراً أو أصحاب حرف أو كتبة صغاراً، على الرغم من أن بعضهم كان يعمل في مجالات أخرى، كبنائين أو مدرسين أو أطباء، وقد حقق القليل منهم ثروات طائلة، وكان العبد المعتق يخضع لبعض القيود القانونية، غير أن أولاده كانوا يصبحون مواطنين، يتمتعون بكافة الحقوق، التي يتمتع بها المواطن الحر، أخيراً من المعلوم أن المدن السورية كانت تضم كل فئات المجتمع.

ولقد عمل العبيد في ظروف سيئة، وتعرضوا لأشد أنواع وألوان الظلم [1]، جعلت حياتهم بائسة معذبة، وكانوا يستخدمون في الزراعة، بوصفهم أرخص الآلات، وأكثرها عملاً. كان العبيد يمتازون بلباس خاص ـ فمثلاً كان العبيد، الذين يعملون في المعامل شاحبي الوجوه، علقت أجراس في أقدامهم، لباسهم رث ممزق، ظهرت على أجسادهم علامات ضرب السياط، أما عبيد المنازل فقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة في المعاملة، وغير ذلك من أنواع العذاب كالجلد.

العبيد في المجتمع الروماني لا يُعدّون جزءاً منه، ولم يكن لهم أي اعتبار، لأنهم كانوا صناعاً رهن مشيئة من يملكهم، والعبيد كانوا نوعين، الأول: يعمل في الريف لاستثمار أراضي سادتهم، حيث كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من اليد العاملة في الريف. أما عبيد المدن [2] فبالإضافة إلى أعمالهم في المنازل لتلبية طلبات سادتهم من تنظيف، وغسل ملابس، وطهي طعام، وغير ذلك، فقد كان منهم من يستخدم إما رسلاً، أو رفاقاً في السفر، كسفر الصيد مثلاً، والعبيد المتعلمون [3] كانوا يقومون بدور السكرتير والمعلم وأمين المكتبة والطبيب.

والعبيد هم الفئة من الناس، التي تخضع للاستغلال المستمر لفترة، لا تقل عن عام واحد، والعبودية: إما أن تكون دائمة أو مؤقتة، والعبيد في سورية كان منشؤهم السكان الأصليين. وتحرر

---

[1] ادوارد جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية ـ طبع دار الكتاب العربي ـ بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص٩٠.

[2] دونالد دولي: حضارة روما ـ طبع مصر ١٩٧٧ ـ ص١٧٦.

[3] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ ص٧٤٧.

العبيد أجازه القانون الروماني، والعبد المحرر كان لا يعرف أباه، لذلك فهو ينتسب إلى مالكه السابق، وبذلك حافظ القانون على العبد المحرر بسيده.

إذن كانت العبودية منتشرة في سورية، وكانت عملية استعباد المنتجين الصغار الأحرار أيضاً موجودة، ومعمولاً بها في سورية، لكن الفرق بين هؤلاء وبين العبد كان شكلياً، وفي الواقع لا فرق بينهما. كما كان باستطاعة العبد أن يملك ثروات كبيرة، ويتصرف بها، ويشارك في عمليات تجارية داخل البلاد وخارجها، ولتأكيد ذلك يذكر شيفمان الرواية التالية:

حصل شخص ما، يدعى: كاليماخ على قرض من شيخ عبد سبي للقيام برحلة تجارية بحرية من بيروت إلى بروندزي. مدة تسديد القرض (٢٠٠) يوم، وقد اتفق على أن البضائع، التي يأتي بها كاليماخ من بيروت إلى بروندزي، هي الرهن مقابل المبلغ، حتى وفي حال عدم استطاعة كاليماخ إنهاء عملياته التجارية في الوقت المحدد، عليه أن يدفع كامل القرض، وفي روما. أي أن هذا العبد، وهو من أصل سوري، كان يملك علاقات تجارية واسعة في كل منطقة البحر بما في ذلك روما.

الأسـرة:

كانت الأسرة في المجتمع الروماني هي حجر الزاوية في بناء المجتمع، وكان رب الأسرة صاحب سلطة مطلقة على أسرته، فمن حقه ضرب زوجته وأولاده أو قتلهم، أو بيعهم في سوق النخاسة، دون أن يحاسب على ذلك، أي أنه كان يمارس سلطة مطلقة، لا حدود لها. ومجموعة الأسر المنتسبة إلى الطبقات العليا، والتي تنحدر من أصل واحد، كانت تؤلف عشيرة، والعشائر كانت في الأصل تنظيمات اجتماعية أكثر منها سياسية، ومع ذلك كان لها أثر في السياسة، ومع تطور الزمن أصبح في طبقة المجتمع العامة عشائر، وخاصة بعد امتزاج الأرستقراطية سواءً من البطاركة أم من العامة.

كان المجتمع الروماني في البداية طبقتين اجتماعيتين، وهما في الوقت نفسه سياسيتان. هما: طبقة العامة، وطبقة البطاركة، ويعتقد: أن هاتين الطبقتين نشأتا بسبب العوامل الاقتصادية والاجتماعية، اللتين مر بهما المجتمع الروماني. وتتألف طبقة العامة من متوسطي الحال ومن ملاك الأرض ومن التجار وأرباب الحرف المختلفة، وكذلك الأجراء، وكان الكثيرون منهم يشتغلون بفلاحة أرض الأثرياء، وعلى الرغم من أن هؤلاء المزارعين الأجراء كانوا موظفين أحراراً، فإنه كانت تربطهم بأسيادهم رابطة خاصة، حيث ترتب على هؤلاء الأجراء عوامل، عليهم مراعاتها

كانت تربطهم بأسيادهم رابطة خاصة، حيث ترتب على هؤلاء الأجراء عوامل، عليهم مراعاتها منها:

١- أن هؤلاء الأجراء يُعدّون تابعين لولي نعمهم، حتى إلى ميدان القتال.

٢- القيام بأعمال زراعية خاصة لصاحب الأرض.

٣- تقديم المساعدة لسيده، كلما اقتضى الأمر.

واستمر نظام التّبعية عدة قرون. كانت العلاقة بين التابع وسيده علاقة مميزة، كما أن المجتمع الروماني في البداية لم يحتو إلا على عدد قليل من العبيد، كانوا مدنيين، عجزوا عن الوفاء بديونهم.

أما طبقة البطاركة، فتتألف من كبار ملاكي الأرض، وتتمتع بنفوذ واسع، وامتيازات كبيرة في الدولة، بفعل الثروة، التي كان أفرادها يتمتعون بها نظراً لإلمامهم بممارسة القتال من جهة، وكثرة أتباعهم وقدرتهم على حشد أعداد كبيرة لخوض غمار الحرب من جهة أخرى، كما أن عراقة أصلهم وثقافتهم كانت تتيح لهم أن يكونوا مستشاري الملك، ولذلك ظلت عضوية الهيئات الدينية وقفاً على هذه الطبقات، إلى أن تمكنت الطبقة العامة من القضاء على هذا الاحتكار بعد كفاح طويل ومرير، ومع مرور الزمن أصبحت هذه الطبقة مغلقة، تحرص أشد الحرص على امتيازاتها، وترفض التزاوج مع عناصر غيرها، وإذا حدث، فهذا التزاوج غير مشروع.

إذاً كان رب الأسرة يتمتع بسلطة مطلقة على أسرته، ويجب أن يكون لرب الأسرة ابن، وإذا حدث لسبب أو لآخر عدم وجوده كان من حق الأب أن يعوض ذلك بالتبني، والابن المتبنى له كامل الحقوق يخلف أباه الجديد في حال موته، ويصبح رب الأسرة.

أما من ناحية الزواج فكان الرومان يمارسون ثلاثة أنواع من الزواج[1]. ففي **النوع الأول** منه: كان الزوج يكتسب سلطة على الزوجة بخلعها عليه، وهو أقدم أنواع الزواج، وأكثرها شيوعاً بين البطاركة. ويتم بإقامة حفل ديني، وحضور عشرة شهود، واحد من كبار الكهنة لتلاوة عبارات دينية، تعدّ مقدسة.

والنوع الثاني من الزواج: كان الزوج يكتسب سلطة على الزوجة بمقتضى صفة بيع صورية، وهو أيضاً قديم وشائع، لكنه كان أكثر شيوعاً بين الطبقة العامة، ويجب حضور خمسة

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢١٦.

شهود فقط. أما **النوع الثالث:** فهو أبسط أنواع الزواج عند الرومان: وكان يتم باتفاق الزوجين على أن يعاشرا بعضهما بعضاً معاشرة الأزواج مع تمتع كل منهما بسلطة متساوية، وكان للزوج الحق في اكتساب السلطة الكاملة على زوجته، إذا عاشرته معاشرة زوجية متصلة لمدة عام كامل.

وفي بعض الحالات كانت الزوجة تستطيع التمتع بحقوق متساوية مع الزوج، وكان للزوجة حق الملكية. والحد الأدنى للزواج بالنسبة للذكور هو الرابعة عشرة، أما للإناث فهو الثانية عشرة، والزواج كان مسألة شخصية بما يصحبه من حفلات ومراسم، لم يكن لها أي طابع قانوني. وأيضاً كان الطلاق مسألة شخصية سهلة المنال، إلا أن الطلاق في النوع الأول الوارد الذكر كان نادراً ما يحدث.

كانت الزوجة تتمتع بمكانة بارزة في المجتمع الروماني، فهي أم الأسرة، وهي التي تشارك زوجها مكانته الاجتماعية، ولم تكن المرأة الرومانية منغلقة، على العكس كانت المرأة تشارك في الحفلات الدينية وفي المآدب، ولم يكن لها في البيوت أجنحة منعزلة، فالمرأة كانت تشرف على شؤون بيتها من قاعتها، التي كانت تمارس بها أعمالها كغزل الصوف مثلاً، وكانت تشرف مباشرة على تربية أطفالها.

وكان الأب رب الأسرة يرعى شؤون الأسرة الخارجية سواء الاقتصادية أم الدينية، كما كان يؤدي الواجبات المفروضة عليه أيضاً تجاه الدولة. أما الأم فكانت تدير شؤون البيت. في الوقت نفسه كان العبيد يقومون على خدمة سيدة الأسرة.

كان للرومي، الذي هو من سلالة إغريقية، وحتى القرن السادس الميلادي اسم واحد، بعد ذلك أضيف إليه اسم العائلة. أي أن اسم المولود كان يتبع الأب، أما إذا كان المولود من أصل روماني فتستخدم الطريقة الرومانية في التسمية، وهي: إعطاء الطفل اسماً ثلاثياً، يتكون من اسمه، يليه اسم العشيرة، ثم لقب العائلة.

كانت الأسرة تختار لابنها الخطيبة منذ الطفولة، ومراسيم الخطبة تتم في البيت باحتفال عظيم، وبإشراف كاهن الأسرة. أما مراسيم الزواج بالنسبة للمسيحيين، فكانت تتم في الكنيسة وسط قداس خاص.

وأما فرص الترفيه عن النفس، فكانت متاحة لكلا الجنسين، لكن ليس بقدر متساوٍ، فمثلاً كان الرجال يمارسون حياة اجتماعية متنوعة خارج البيت، فكانوا يلتقون في الأسواق، أو يتسامرون

في الحدائق العامة والساحة، ويذهبون إلى الحمامات العامة، التي كانت تفتح لهم طوال الليل.

وأما النساء فلم يكن مستحباً خروجهن من بيوتهن بمفردهن[1] إلا في حالات. منها خروجهن إلى دور العبادة، أو لزيارة الأقارب، أو الذهاب إلى الحمام العام، الذي كان يفتح لهن نهاراً فقط، أما فيما عدا ذلك فكانت النساء يقضين أوقاتهن في أعمال تطريز الثياب. والأسرة المتوسطة الحال كانت قادرة على اقتناء الرقيق للتخديم، حيث كانت الخادمة تقوم بشراء ما تطلبه ربة البيت من الأسواق، وتساعد في العمل اليومي داخل البيت.

كانت المرأة، كما ذكرنا، تتمتع بمكانة محترمة في المجتمع الروماني[2] (فهي متحررة من قيود العزلة، مشاركة للرجل في استقبال الضيوف، ومصاحبة الزوج لها في المآدب والحفلات. وتحلت المرأة بقدرة فائقة في إدارة شؤون الأسرة وممتلكاتها، وعنيت بالدراسة والإطلاع، كما كانت تمارس نفوذاً كبيراً في تكييف مجرى الشؤون العامة، إذا كانت تنتمي إلى طبقة النبلاء، وكانت الجميلات الرومانيات أيضاً يتمتعن بنفوذ واسع لدى عشاقهن.

وكانت المصاهرة من الوسائل الدبلوماسية المألوفة في المجتمع الروماني، كما كان حب المال دافعاً من دوافع الزواج. لكن مع ازدياد رقعة الدولة، وزيادة الثروة والبذخ، ظهر في المجتمع الروماني التفكك في الروابط الأسرية، وكان ذلك نتيجة حتمية للحياة المترفة، وللانحلال الخلقي، ولتحرر الزوجة من سيطرة الزوج، ففي مثل هذه الظروف شاعت العلاقات غير المشروعة كالطلاق والرذيلة والفساد، فأدى ذلك إلى تعدد الزواج، ولم تكن حياة الرذيلة وقفاً على نوعية معينة، فقد شملت الثريات وغيرهن من مختلف الطبقات، ووجدت الغواني وبائعات الهوى المرخص لهن بذلك، وما شابه ذلك.

أما الأولاد فكان الذكور أوفر حظاً من البنات حتى في امتلاك أدوات اللعب. فالذكور كان لديهم دمى تمثل الخيول والعربات، ومنازل صغيرة مصنوعة من الفخار أو الحجر أو الطين المحروق، وكان لديهم صفارات ومزامير. أما البنات فكان لهن عرائس مصنوعة من الشمع أو الفخار أو الجص، ومرحلة الطفولة كانت تنتهي بمجرد بلوغ السن القانوني.

---

[1] سيد أحمد علي الناصري: الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربي - طبع القاهرة ١٩٩٣ - ص١٣٤.

[2] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان - الجزء الثاني - ص٧٤٧.

المساكن:

كانت مساكن الرومان في البداية تتألف من نوعين: أحدهما: للأثرياء، ويتألف من طابق واحد، والجدران تبنى بقوالب من اللبن، وتغطى بسقوف من الخشب، ويتكون هذا البيت من قاعة كبيرة، تتوسطه، تؤدي إلى عدد من الغرف الصغيرة الأخرى، والقاعة الكبيرة كانت تستخدم للأكل والجلوس واستقبال الضيوف. في الوقت نفسه كانت توضع فيها تماثيل الآلهة، التي ترعى الأسرة، ويوضع فيها أيضاً مدفأة كبيرة. أما مساكن الفقراء[1]، فكان بعضها، وبخاصة في الريف أكواخاً بسيطة، تقام من أعواد البوص أو الأغصان الرقيقة، وتغطى بطبقة من اللبن، وبعض مساكن الفقراء كانت غرفة أو غرفتين، وتبنى من اللبن أو الخشب.

أما أكثر العامة، فكانوا يعيشون في وحدات سكنية كبيرة، تبنى من اللبن، وكل وحدة تتألف من عدة طوابق، كل منها يتكون من عدد من المساكن، وأقيمت هذه الوحدات في أحياء مكتظة كثيرة الضوضاء، عديمة الهواء النقي، كريهة الرائحة، موبوءة بالأمراض.

كان المجتمع في العصر الروماني يعج بالفقراء، الذين يسكنون أكواخاً صغيرة. ومع تطور الحياة وجدت الأبنية ذات الطوابق، وكل طابق مقسم إلى وحدات سكنية، إلا أن وضعها الاجتماعي كان في حالة سيئة، وأغلب بيوت الفقراء لم يكن لها نوافذ، تطل على الخارج، بل كانت تطل على صحن الدار أو الحظائر، وكانت منازل أبناء الريف مكونة من حجرتين ذات شكل مربع أو مستطيل، وتبنى من الحجر أو الخشب أو الطوب، حسب الذوق والمقدرة الاجتماعية، والدور الأرضي من البيت كان يستخدم للخيول والماشية والدجاج والطيور ومخازن للغلال والأعلاف، والطابق الثاني كان يستخدم لإقامة الأسرة. وكانت منازل هذه الطبقة رديئة، إذ كان يمتلكها إقطاعيون لا يهتمون إلا بتحقيق الأرباح، وأصبحت الأكثر فقراً، قذرة وغاصة بالسكان، ولاسيما الضواحي. أما أبناء الطبقات الوسطى فكانوا يقيمون في بيوت مناسبة ذات طابقين، لها نوافذ وخدمات عامة، والفلاحون يحتفظون بمنازلهم بحديقة صغيرة.

كان رعي الأغنام يلي الزراعة في الأهمية، وكان الفلاحون، ومن كان في مستواهم يعيشون على ما تنبته الأرض، وعلى ما يحصلون عليه من الدواجن والبقر والماعز والغنم كاللبن والبيض والجبن، وكانت ويلات الحروب دائماً يدفع ثمنها أهل الريف مثل تسخيرهم وتجنيدهم، وما

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢٣٢.

تسببه الحرب من تدمير لمحاصيلهم. وأحياء هذه الطبقة أفضل حالاً، إلا أنها كانت تفتقر إلى الكثير من الخدمات، التي تعدّ ضرورية.

لكن مع الزمن، ومع ازدياد الفتوحات وانتشار الدولة أقبل الرومان على الترف بشكل واضح، وأخذوا يعيشون عيشة ترف وبذخ، فكانوا يتنافسون في استعراض مظاهر ثروتهم، فاستبدلوا بمساكنهم المتواضعة مساكن فسيحة أنيقة، فالطبقة الراقية الأرستقراطية أخذت تشيد لنفسها دوراً فسيحة، كانت في الواقع قصوراً[1]، بها غرف صحية كثيرة مجهزة بالحمامات، ودورات المياه، ونظام تدفئة، كما كان للأثرياء دور ريفية، إلا أنها تحتفظ بقدر من البساطة.

إذن كان الأثرياء يسكنون الفيلات، والقصور ذات الحدائق العامة، وكانت هذه المساكن تشمل إسطبلات للخيول، وحظائر للماشية والدواجن، وكلاب الحراسة، ومخازن الغلال والتموين. حيث بلغ من اتساع أحواش هذه المنازل أن أصحابها كانوا يدربون فيها خيولهم، كما احتوت هذه المنازل على بئر خاصة بها، توجد ضمن هذه الدار، كما كان يقام ضمن الدار الحمام الخاص بالأسرة.

يقول دونالد دولي[2] : فقد بنيت منازل ريفية ضخمة، كانت ما تزال تحمل الاسم الريفي (فيلا)، وبنيت هذه المنازل في الأماكن المستحبة ... والمجهزة على أحدث طراز، وكانوا يجلبون لها أغلى أنواع الرخام من جميع بقاع العالم، وكانت سقوفها مزخرفة برسوم منحوتة، ومطعمة بالذهب، وكان لها زخارف من الزجاج الملون، وأثاث ثمين، واحتفظوا فيها بالمكتبات الخاصة، وعرض فيها روائع فن النحت ... وكانت إدارة هذه المنازل تتطلب جماعات كبيرة من الخدم المدربين تدريباً ممتازاً ذوي الأجور المرتفعة، خاصة من أجل إعداد الولائم الفاخرة، التي أصبحت الوسيلة الوحيدة للترفيه والترويح عن النفس.

كما أنفقت مبالغ طائلة في الإقطاعات الريفية على إقامة الحدائق الخاصة، والحدائق العامة الكبيرة، وعلى العناية بالنباتات، والأشجار الغريبة وزراعتها، وعلى القواقع، وغيرها من المشهيات، التي تقدم على المائدة. وقد كانت الخيول العريقة، والعربات الأنيقة، واليخوت، ومضاجعات العشيقات اللائي كن يتطلبن كثيراً من النفقات من أجل الحلي والثياب وأدوات الزينة، كانت كل

---

[1] دونالد ـ ر ـ دولي: حضارة روما ـ طبع مصر ١٩٧٧ ـ ص١٧٠.

[2] المرجع نفسه: ص١٧٠.

هذه الأشياء، مما يساعد الشاب الطائش على تبديد الثروة، التي ورثها عن أبيه.

وكانت نوافذ المنازل مربعات أو مستطيلات صغيرة من الزجاج مثبتة داخل إطار من الجص، وأغلبها مزود بقضبان من الحديد، وكانت الأبواب مصنوعة من الحديد، أو من الخشب القوي. وكانت حجرات البيت تنفتح على صحن الدار المتسع، بعضها لاستقبال الضيوف والزوار، وكان الطابق الأول مخصصاً لمعيشة الأسرة، وكان يصعد إلى الطابق الثاني بواسطة درج، أما الطابق الثاني فقد قسم إلى حجرات النوم.

الملابس:

كانت الملابس في البداية بسيطة، ومادتها الأساسية الصوف[1] فربة البيت وبناتها كن يقمن بغزل الصوف ونسجه، وصنع الملابس. والعباءة كانت الرداء الخارجي، الذي يستخدمه الرجال والنساء على السواء، وكان القميص اللباس الداخلي أيضاً للرجال والنساء، وكان الرجال والنساء يرتدون نعالاً من الجلد، واستخدم الرومان الحلي رجالاً ونساء أيضاً، وكان الرجال يطلقون لحاهم وشعور رؤوسهم، كما كانت النساء يمشطّن شعورهن، ويصففنه أيضاً.

واهتمت الرومانيات بأدوات الزينة والحلي، فتعددت، كالأقراط والأساور، والخواتم، ومشابك الشعر، ومشابك الصدر. كما استعملت النساء أنواع المساحيق والدهون. ومن المعلوم أن أزياء المرأة الرومانية كانت مستمدة من الإغريقية، إلا أن الرومانية أكثرت من الزينة.

استخدم الرومان العباءة، وكانت الزي الغالب للرجال. بعد ذلك استبدل الكهنة هذه العباءة برداء طويل ضيق إلى حد ما، يقفل بأزرار من الأمام. فكانت الأزياء تتغير باستمرار، لكن ببطء شديد، ففي العهد الروماني تشابهت أزياء كل الدول، التي خضعت لسلطة الرومان. أما رجال البلاط فكانوا يرتدون زياً رسمياً خاصاً بهم، وكانت ملابسهم تختلف في ألوانها ونوعيتها وزخرفتها حسب درجة لابسها الوظيفية.

وصفت النساء بأنهنَّ كنَّ يكثرنَّ من تغيير تصفيف شعورهنَّ أكثر من تغييرهنَّ لأرديتهنَّ، فحيناً كن يفرقن شعورهن في الوسط، ثم يضفرنه على الجانبين، وحيناً كن يجمعنه فوق الرأس، واضعات فيه حلقة ذهبية لتثبيته، أو مشطاً مصنوعاً من درق السلحفاة. استخدم الرومان غطاء

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ روما ـ الجزء الأول ـ ص.٢٢٠.

الرأس في المناسبات.

أما النساء الثريات فكن يضعن حول شعرهن سلاسل رقيقة من الذهب، أو الفضة مزينة بحبات من اللؤلؤ، كما استخدمنَّ مساحيق التجميل. أما زي الملكات، فكان رداءً فضفاضاً طويلاً من الحرير، تحته قميص طويل ضيق، تنتهي أطرافه بالمشغولات المطرزة، وأحياناً يكون التطريز حول الرقبة والكتفين، ومرصعاً بالجواهر على طول أطراف الرداء.

أما نساء الطبقات الراقية فكن يرتدين أردية طويلة مليئة بأعمال التطريز، ولها ذيل عريض من الخلف، حيث يمكن طيّه، وغطاء الرأس به، ويلف هذا الذيل حول الذراع اليسرى حتى لا يعيق الحركة. أما نساء الطبقة الفقيرة فكن يرتدين لباس أزواجهن كالجلباب، الذي يلبس فوق قميص، ولهذا الجلباب ذيل طويل، يتدلى على الجانب، حيث يصبح غطاء للرأس، أما أزياء الفقراء فكانت بائسة، حيث كانوا يسيرون حفاة الأقدام، وبعضهم يرتدي جلاليب قصيرة، ليس لها أكمام مصنوعة من الصوف، ويتمنطقون بحزام عريض حول الوسط. أما سكان الريف، فلباسهم بسيط ورخيص.

أما أهم المواد، التي كان يصنع منها اللباس، فكانت: الحرير والصوف والكتان أو القطن، وأفضل الألوان المستخدمة كان اللون الأبيض، أو الدرجات الفاتحة من الألوان، وكانت النساء يعشقن الأردية الموشاة بأعمال التطريز المقصب بالذهب.

والرداء يتكون من قطعتين، الأولى: عليا وهي صدار ضيق، يضيق أكثر عند الوسط، والثانية: سفلى كانت تتسع تدريجياً، حتى تنتهي عند الفلاحين بشكل زاوية منفرجة أو شكل دائري. أما فتحة الرقبة فكانت تصمم بأشكال مختلفة، منها: المربع أو المستدير أو المثلث المتساوي الأضلاع: قاعدته إلى الأعلى، وكانت النساء يرتدين أغطية على الرأس.

أما الأحذية عندهنَّ فكانت كثيرة، إلا أنها لم تكن ذات كعب. أما أحذية الرجال فكانت: الصندل ذا الرقبة الطويلة، التي تصل إلى منتصف الساق. وكان الرجل يظهر أكثر تذوقاً لأنواع الثياب وتقاليعها، وذلك لأن الرجل أكثر انطلاقاً من المرأة. ويظهر حليق الذقن والشارب، وشعره قصير، ثم أصبح إرخاء الشوارب واللحى تقليداً عاماً. وكان شعر مقدمة الرأس قصيراً، بينما يترك، ليتدلى خلف الرقبة، وكلا الجنسين استخدما العطور، كما تزين كلاهما بالحلي، وخاصة الأثرياء منهم. وأهم أنواع الأزياء، التي استخدمها الرومان هي ما يلي:

العبـاءة[1]: وهي لباس، لا أكمام لها، تغطي ما تحتها من ثياب طويلة وفضفاضة، يرتديها الرجال والنساء، والعباءة شاع استعمالها، ولها أنواع كثيرة، منها **عباءة السلام**: وهي رداء فضفاض من الصوف الأبيض، يكاد أحد طرفيها يمس الأرض من الأمام، على حين يطرح الثاني على الكتف اليسرى. ومنه: **عباءة السادة**: تنسدل على الجسم، فتبلغ الركبتين، يطرح أحد طرفيها على الكتف اليسرى، ثم ينسدل، ليشد على الذراع اليسرى، ثم يسحب طرفه الثاني، فيطرح على الكتف اليمنى، وينسدل ليغطي الجانب الأيمن، وقد يمرر هذا الطرف من تحت الإبط اليمنى لتحرير الكتف والذراع اليمنى.

ومنها: **عباءة الانتخاب**: ويحملها المتنافسون على المناصب العامة، وقت إجراء الانتخاب، وتعرف: بالبيضاء، ومنها: **عباءة موشاة**: وهي موشاة بنجوم ذهبية، كان يلبسها القادة والحكام والقناصل والإمبراطور أيام الأعياد، ومنها: **عباءة مهدبة**: أي ذات أهداب، تزدان أطرافها بحواش أرجوانية، لبسها الكهان، وذوو المناصب العليا منهم، ولبسها أيضاً الصبية من أبناء الأحرار، حتى يرشدوا، والبنات حتى يتزوجن، ومنها: **عباءة الحزن**: وهي سوداء، كانت من لباس الفقراء، وتلبس أيام الحزن، ومنها: **عباءة الراشد**: وهي بيضاء، تلبس بعد بلوغ سن الرشد.

المعاطف: وهي متعددة الأنواع، منها: **معطف السفر**: وهو ضرب من البرنس، كان يحمل في الرحلات للوقاية من المطر، ومنها: **معطف الحرب**: وهو رداء عسكري، يتشح به الجندي، ليغطي به درعه، يصنع من الصوف الخشن، ويحبك على الكتف بتشبيك، وهو رمز للحرب، ومنها: **معطف الفرسان**: وهو أرجواني الحواشي، من أزياء طبقة الفرسان، ويلبسه القناصل، والكهنة والعرافون أيضاً، ومنها: **معطف خلق**: وهو ضرب من لباس، كان يرتديه الشباب، حين يتدربون على الحرب، وارتداه أيضاً الزهاد والفلاسفة.

السروال: وهو ضرب من السراويل، شاع استعماله في الإمبراطورية الرومانية.

رداء الصيد: وهو لباس عسكري، ويصنع من الصوف، يحكم على الكتف اليمنى، ثم

---

[1] حسين الشيخ: الرومان ـ طبع مصر ١٩٩٣ ـ ص١٩٦.

يطرح على اليسرى، ويستخدم أيضاً في الصيد والسفر.

دلماسة: ثوب من الصوف بأكمام، وهو منسوب إلى دلماسة الواقعة على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحر الأدرياتيك، لبسته الرجال والنساء، ثم أصبح جزءاً من لباس الأساقفة والشمامسة.

الخيتون: لباس دون أكمام، وأحياناً يكون بكم واحد، يظهر فيه الصدر والذراع الأيمن عاريين، وهو زي العمال والبحارة والعبيد.

الحرملة: نوع من اللباس، صنع من الصوف، فضفاض، يلبس فوق الخيتون.

شملة: نوع من أزياء الحرائر، تطرح فوق المشلح، يتدلى طرفها من الكتف اليسرى إلى الأمام، ويطرح باقيه على الظهر، ثم يشد إلى أمام، ليوضع فوق الكتف اليمنى.

مشلح: عبارة عن لباس طويل من ملابس النساء، يلبسنه فوق ثيابهن الداخلية، مفتوح جانباه من أعلى، ويحبك حول الخصر.

البرد: ثوب مخطط فضفاض من أزياء النساء، كن يلبسنه فوق الثياب الداخلية.

الصدرية: من لباس النساء، يحبكنها تحت الثديين.

الحلة: حلة فضفاضة زاهية اللون، كان يتزين بها حول المائدة وفي الأعياد.

القميص: من لباس الرجال والنساء، منها قميص عرف: بالدوري. وهو قصير يصنع من الصوف، ومنها: الأيوني: وهو قميص طويل، ويصنع من نسيج الكتان، أحد جانبيه مسرود، وبه فتحة، ينفذ منها الذراع، والجانب الثاني مفتوح، يشبك طرفه الأعلى بطرف الجانب المفتوح من فوق الكتف، ويتوسطه حزام، يشد على الخصر، وهو من لباس السادة.

التونيك: ثوب يستخدمه الرجال والنساء، يلبس تحت العباءة، وهو للرجال، يصنع من الصوف، يشد على الخصر، حيث يعلو الركبتين، والتونيك على أنواع، منها:

تونيك الفرسان: وهو قميص ذو حاشية أرجوانية ضيقة خاص بالفرسان، ومنه **تونيك**

النبلاء: أيضاً هو قميص ذو حاشية عريضة من الأرجوان، كان لباس النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ. ومنه **تونيك الظافر**: وهو عباءة مطرزة بوشي ذهبي شبيه بسعف النخل، يلبسه القائد الظافر.

زيرا: من الألبسة الواسعة الفضفاضة، يشد حول الخصر، ثم يرسل، فيبلغ القدمين، كان يلبس في السفر، وعند ركوب الخيل، وعند التدريب على الأعمال العسكرية، ويسمى عند العرب: الإزار.

النطاق: وهو حزام، يشد عند الخصر، تستخدمه الرجال والنساء، ويتخذ منه جيوب لحفظ النقود.

البرنس: لباس، يصنع من الصوف الغليظ أو الجلد، لونه فاتح، لا كم له، كان من لباس الفقراء والعبيد، وكان يرتديه الرجال والنساء في الرحلات وعند وقوع المطر.

لباس الرأس:

القلنسوة: أنواعها متعددة، منها **قلنسوة الجندي**: وهي من الجلد كان يلبسها الجنود. و**اللبدة**: وهي ضرب من القلانس المصنوعة من اللبد، كان يلبسها الشباب عند التدريب على أعمال الحرب. و**قلنسوة الصيادين**: أيضاً تصنع من اللبد، كروية الشكل، تغطي الرأس، كانت في الأصل من أزياء الصيادين والبحارة وعمال الصناعة، ثم لبسها غيرهم من أبناء الريف في السفر، والبعض يلبسها في الأعياد. واستخدم الرومان غطاء للرأس في المناسبات: **تيجاناً من الزهور**، منها **تاج النصر**: للقادة المنتصرين، و**التاج المتسح**: الذي استخدمه رجال الدين، واستخدمه الإمبراطور نيرون، ومن تلاه، كما استخدم **التاج النباتي**: ويمنح للجنود، الذين يقومون بأعمال بطولية خارقة.

لباس القدم:

لباس القدم يشمل: الجوارب والأحذية. فالجوارب كانت تصنع من الجلد أو القماش. أما الأحذية، فلها أنواع، منها **حذاء النبلاء**: وهو مصنوع من الجلد الأحمر، سميك النعل، له قفل نصف دائري، كان من لباس النبلاء وقواد الحرب عند الاحتفال بالنصر، و**حذاء الشيوخ**: وكان

خاصاً بأعضاء مجلس الشيوخ، وهو من جلد أسود، يربط حول الساق بأربطة أربعة من الجلد، وحذاء **الجند، وحذاء العدائين**: وهو ذو عنق طويل، يستخدمه العداؤون والرحالة، و حذاء الصيادين: وله نعل سميك، وعنق طويل، يغطي نصف الساق، وينعقد عليه من أمام سيور حمراء، وهو من لباس الصيادين والممثلين، ليرفع من قامتهم، ومنه **حذاء القنصل**: وهو مصنوع من الجلد الأحمر أو الأرجواني اللون، كان يلبسه ذوو المناصب الكبرى مثل القناصل والمشرفين على القضاء، ومنها **حذاء السائق**: وهو طويل العنق مصنوع من الجلد غير المدبوغ، وكان من لباس الجند وسائقي العجلات.

ومنها **الصنادل**: وهي من الخشب أو اللبد أو الجلد أو نعل سميك، يربط حول القدم، ينتعله الرجال والنساء، ومنه **النعل**:، وكان من الخشب أو اللباد أو الجلد، يلبس في المنازل، ومنه **حذاء بوديما**: وهو ضرب من الأحذية للجند، يرفع عنقه، فيغطي الساق، ثم يحبك حولها بسيور من الجلد، تبدأ من بين الأصابع ثم تلف حول القدم، وترتفع فتشمل الساق. أخيراً إن أحذية المرأة كانت تشبه أحذية الرجال.

الطعام:

عرفت حياة الرومان في بدايتها البساطة والتقشف، سواء من حيث المسكن أم المأكل أم الملبس، فالطعام كان بسيطاً[1]، قوامه اللبن وسليقة القمح والخبز والبقول والخضراوات وبعض الفاكهة، أما اللحوم فلم تكن عنصراً أساسياً في الغذاء اليومي، حيث كانت لا تؤكل إلا في المناسبات، وكان النبيذ يمزج بالماء، ويشرب، واعتبر الشراب الرئيسي عند الرومان.

أما الأسر الغنية فكانت تقيم مآدب، وتحاول أن يكون لديها اكتفاء ذاتي لسد حاجاتها من طعام وشراب، وأما ما ينقصها من حاجات، فكانت تحصل عليها من الأسواق. ومع توسع الدولة الرومانية ازداد الترف والبذخ[2]، واستبدلوا مأكولاتهم البسيطة بمآدب فخمة، تقدم فيها على صحاف من الفضة أغلى المأكولات وأندرها، بعد أن يتفنن في إعدادها أمهر الطهاة، وتحولت عادة تناول قليل من النبيذ بعد الأكل إلى ندوات شراب، يشرف عليها أحد الموظفين.

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢٢٠.

[2] دونالد ـ ر ـ دولي: حضارة روما ـ ص١٧٠.

حفلت بيوت الأثرياء والحكام بموائد كبيرة، زينت بالعاج المطعم بالذهب، لأن هؤلاء اعتادوا أن يتناولوا الطعام، وهم على الأرائك متكئون. أما عامة الناس فكانوا يتناولون طعامهم، وهم جلوس على المقاعد، وكانوا يتناولون ثلاث وجبات طعام في اليوم، كما كانت الفاكهة تشكل جزءاً هاماً من وجبات الطعام، وكانوا يفضلون اللحوم كلحم الماعز والخراف ولحم الدجاج والأسماك والطيور، وكانت الأسر تختزن في منازلها مؤونة ثلاثة أشهر لاستخدامها في حالات خاصة عند الحصار.

أما الحياة الريفية فكانت ممتعة لملاك الإقطاعات، لكنها كانت مرهقة للفلاحين الأجراء والأقنان، وكانت الأدوات الزراعية بدائية مثل المحاريث التقليدية، التي تجرها البغال أو الثيران، واستخدموا الفؤوس والشوك (المذراة)، التي تستخدم في تذرية القمح، وكذلك الجاروف والمعول والمطرقة ذات الرأسين. عموماً كان أهل الريف يحيون حياة شاقة، ويعانون من شظف العيش، فعليهم كان يقع عبء العمل، وعلى كاهلهم تقع الضرائب الباهظة، لذلك كانوا يشكلون أحد عناصر الشغب والتمرد.

التعليم:

في البداية لم توجد مدارس رومانية، لأن التعليم كان يعدّ من أخص شؤون الأسرة، والمعروف أن أول مدرسة أنشئت حوالي (٢٥٠ ق.م) ومع اتساع رقعة الدولة الرومانية ظهرت اتجاهات جديدة في التعليم، فالطبقات العليا أصبحت تعتني بتعليم لغة الإغريق، ودراسة آدابهم وفلسفتهم، وفنونهم الخطابية. كل ذلك أدى إلى ظهور مدارس كثيرة، وكانت المدارس بشكل عام خاصة. وكان اتساع رقعة الدولة الرومانية عاملاً بالغ الأثر في نمو الأدب الروماني وازدهاره.

وطغت اللغة اللاتينية على غيرها، فتطور الأدب المسرحي اللاتيني تطوراً سريعاً، وكان الشعر الخماسي يمثل مكاناً بارزاً في الأدب اللاتيني. أما التاريخ فبدأ على طراز رواة الأحداث عاماً فعام، وكانوا في البداية يكتبون التاريخ باللغة الإغريقية، لكن اللغة اللاتينية أخذت دورها في التاريخ الروماني فيما بعد. أما الفلسفة فلقد صادفت الفلسفة الإغريقية رواجاً عند الرومان، وخاصة المدرسة الرواقية.

من المعروف أن التأثير الحضاري السوري على الرومان كان شاملاً جميع نواحي الحياة، ولقد حقق السوريون تفوقاً وعراقة في ميادين التجارة والصناعة والزراعة، وبقيت سورية تحتل

المكانة الأولى في المبادلات التجارية العالمية، كما بقيت الصادرات السورية، نفسها تصدر من القمح من القمح والكتان والعطور والعقاقير والخمور والزيوت والثمار المجففة، والزجاج والبرونز، بالإضافة إلى الأقمشة الحريرية والكتانية والصوفية.

والمعروف أن اليونان والرومان لم يشيدوا مدناً سورية جديدة، بل وسعوا مدناً قائمة لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية. فالبتراء مثلاً ألحقت بالإمبراطورية الرومانية عام (١٠٥م) وتم توسيعها، لغاية حماية الطرق التجارية، وبصرى أيضاً تم تحصينها، لأنها كانت مركزاً تجارياً، وملتقى طرق القوافل التجارية، وما أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن، التي انتسبت إلى سلوقس، إلا مدن، قامت على أنقاض، كانت صغيرة أو قرى كبيرة، تم توسيعها لأهميتها الاستراتيجية.

إذاً كانت سورية العمود الفقري للإمبراطورية السلوقية، حيث كانت أنطاكية العاصمة السياسية، في الوقت نفسه كانت سلوقية مركز الدولة التجاري، وأفاميا مقر الدولة الحربي. أما بيروت، التي شيدها الكنعانيون منذ الألف الثاني قبل الميلاد، فكانت تعرف بالعصر اليوناني لاوديسة. ثم تعرضت عام (١٤٠ ق.م) للهدم من قبل تريفون المطالب بالعرش السلوقي. إلا أنها أعادت قوتها، ثم تطورت، حتى غدت في العهد الروماني (البيزنطي) كعبة رجال القانون، واستمرت كذلك، حتى دمرها الزلزال، الذي أصابها أواخر القرن الخامس الميلادي.

وكانت سورية الشمالية على مر العصور جسر اتصال بين الحضارات المحيطة بها. لذلك فتاريخ سورية الحضاري تتابعت حلقاته، واتصلت ودون انقطاع طوال عشرة آلاف عام. لكن ورغم غياب الوحدة السياسية فإن وحدة الحضارة كانت موجودة سواءً في اللغة أم الدين أم الفن أم في مجال النشاط السوري الثقافي. عقب احتلال بومبي لبلاد الشام عام (٦٤ ق.م) سلخوا كيكيكية، وجعلوها مستقلة، كما اعترفوا للأنباط بحكم دمشق، ولليهود بأجزاء من فلسطين. كما فتحوا المدن العشرة ذات الحكم الذاتي باستثناء بيسان.

واتبع الرومان سياسة، كان الهدف منها جعل سورية قاعدة عسكرية ضد خصومهم الفرس من جهة، واستثمارها اقتصادياً من جهة أخرى. لكن بلاد الشام المغلوبة على أمرها عسكرياً كانت متفوقة حضارياً، لأنها فرضت نفسها على العالم الروماني. فمثلاً برزت أسماء مدن كثيرة في بلاد الشام، كانت مشاعل حضارية، أنارت العالم الروماني والبيزنطي بثقافتها، كأنطاكية. كما لمعت

أسماء من بلاد الشام اعتبرت أساتذة الفكر الإنساني آنذاك من ذلك في مجال التاريخ: فيلو الجبيلي، ومنياندر اللاذقاني، وفي مجال الجغرافية: مارينوس الصوري، وفي الطب: أرخميلس الأفامي، وفي البلاغة: أدريانوس الفينيقي وتلميذه انتيباتر، بالإضافة إلى المعلم والفيلسوف والمحامي لوقيانوس السمسياطي (سمسياط قرب أنطاكية). ولا ننسى بمفليوس البيروتي، الذي علم في مدرسة بيروت، وكان قد درس اللاهوت في الإسكندرية، ثم استقر في قيصرية فلسطين، وأصبح أسقفها، وأسس مدرسة فيها عام (٣٠٩م).

وفي مجال الفلسفة، حافظت سورية على تقدمها الفكري الحضاري، نذكر من مفكري سورية المشهورين: انتيابر الصوري، ومكسيموس السفسطائي، الذي كان أفلاطونياً، حيث ميز بين الروح والمادة، ومنهم أيضاً تومينوس الأفامي، الذي يعدّ مؤسس الفلسفة الأفلاطونية. ومن أشهر الفقهاء السوريين كان غايوس[1] (عاش في القرن الثاني بعد الميلاد)، وبابنيان (اميلوس بابنيانوس)، ولد عام (١٠٤م) في حمص. كان حجة في التشريع والبيان. (دوميتوس البيانوس)، الذي ولد في صور، وله مؤلفات كثيرة، أهمها في القانون، ثم بولس (بوليوس بولس) وأخيراً ايريتيوموديستينوس. حافظت الأسرة في بلاد الشام على ترابطها لأنها الخلية الأولى للمجتمع والمحور الأساسي للحياة الاجتماعية. فالمرأة كانت تلعب دوراً بارزاً في الحياة اليومية.

لكن المجتمع الروماني بشكل عام لم يعط المرأة قدراً عالياً من التعليم، وهذا يختلف من طبقة لأخرى. إنما ركز التعليم على الذكور، وكان يكفي أن تلم المرأة بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. أما بنات الأسر الأرستقراطية فكن يكملن تعليمهن العالي والتخصصي عن طريق مدرسين خصوصيين. أما تعليم الذكور فكان أيضاً يختلف في المجتمع الروماني وحسب الطبقات العليا والدنيا. لكن القوانين الرومانية بشكل عام كانت ترى الإلمام بالقراءة والكتابة وأصول الدين والحساب تعليماً إجبارياً وأساسياً، ويتم ذلك في المدارس، التي تشرف عليها الدولة.

أما طبقات المجتمعات الأكثر تطوراً، فقد كانت تستقدم معلمين خصوصيين إلى الدار لتعليم أبنائها. وفي هذه الحالة كان يسمح للفتيات بالجلوس إلى الدرس مع إخوتهن. وكان تعليم الصبية في البيت يستمر حتى بلوغ الرابعة عشرة. بعدها يرسلونهم إلى المدارس العليا، وهناك حالتان، الأولى: كان بالإمكان الاستمرار بالدراسة في البيت حتى دخول الكليات الجامعية. وفي هذه الحالة كان

---

[1] عيسى اليازجي: مآثر سورية في العصر الروماني - طبع بيروت ١٩٩١ - ص٦٠.

بمقدور البنات مواصلة الدراسة والتعليم حتى مرحلة متقدمة. إلا أنه يسمح لهن فيما بعد بدخول الكليات، وأحياناً كانت بعض النساء يجبرن على متابعة دراستهن العليا في داخل بيوتهن، لكنهن كن قليلات. والثانية: كان بإمكان الذكور متابعة دراستهم بالكليات الجامعية أي المدارس العليا.

عموماً كان التعليم في العصور الرومانية دينياً. فالأطفال منذ بداية أمرهم كانوا مطالبين بدراسة فقه اللغة اليونانية في المدارس إلى جانب تعليم القراءة والكتابة وأصول الحساب. كما كان عليهم أن يدرسوا خمسين بيتاً كل يوم من أشعار هوميروس بادئين بالأوديسا، ومنها ينتقلون إلى الإلياذة.

وبعد سن الرابعة عشرة كان عليهم تعلم فن الإلقاء والخطابة، وفي السنة الأخيرة كان عليهم دراسة العلوم الرياضية والتشريح وعلم الفلك والموسيقى، بالإضافة إلى علم قياس الأرض. واعتباراً من القرن السادس الميلادي انتشرت المدارس داخل الإمبراطورية. إلا أن التعليم كان محصوراً بأبناء الرومان، ومن انتمى إلى معتقداتهم، في حين حرم منه باقي أبناء الشعب، الذين كانوا خاضعين لسلطة الرومان وخاصة في بلاد الشام، والذين بقوا على معتقداتهم القديمة.

إن الإغريق أصحاب فضل بيّن على الرومان في تطوير حضارتهم. إلا أنهم أضفوا على ما استوعبوه طابعهم الخاص، وحتى قبل الميلاد كانت حضارتهم مزيجاً، أسهمت فيه كل من الحضارتين الإغريقية والرومانية، والطبقات الأرستقراطية كانت أكثر تأثراً بالإغريقية.

كان نظم الشعر أبرز ميزات هذا العصر، وأهم ميزات هذا الشعر النقد اللاذع[1] في عبارات مازحة على شكل حديث عابر، واتخذ الشعراء من رذائل العصر ونزواته مادة للشعر الساخر. وبرع الشعراء بالشعر الغرامي. وتوخى الشعراء في قصائدهم تبديد الخوف من الآلهة ومن انتقامها، وخاصة بعد الممات، وحاربوا الكسل وحياة البذخ والفساد وطالبوا بالجد والاجتهاد.

أما أدب المسرح فكان متطوراً، وخاصة المسرحيات التراجيدية، التي كانت موضوعاتها، تميل إلى العنف وتصويرها بشكل مفجع. أما في مجال الكوميديا فكانت في البداية اقتباساً من المسرحيات الكوميدية الإغريقية، ثم ظهرت مسرحيات جديدة، عرفت بالكوميدية الشعبية، التي كانت تصور الحياة المنزلية في المدن والقرى الرومانية، كما وجدت المسرحيات الهزلية الساخرة

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الثاني ـ ص٧٦٤.

سخرية لاذعة[1] خشنة، والتي لاقت رواجاً كبيراً، واتسع نطاق هذا النوع لمعالجته موضوعات جديدة سياسية ودينية في قالب هزلي.

وانتشرت أيضاً المسرحيات الهزلية الموسيقية، حيث كانت أكثر شعبية من غيرها، وموضوعات هذا النوع كانت عن مغامرات الهوى، ويباح فيها العبارات الفاحشة، وفي مجال المسرح سأتعرض لذكر المسرحي (يوبليليوس سوروس) السوري الأصل، والذي يعتقد أنه من أنطاكية، حيث اشتهر إلى جانب المسرح بالتأليف. ففي مجال المسرح اشتهرت مسرحياته بالأقوال المأثورة التهذيبية، التي كان ينظمها شعراً، ويجريها على ألسنة شخصيات مسرحية، مما جعل شعره ينتشر في المدارس.

منذ عام (١٩١٨م) بدأ التنقيب عن المسارح في سورية، ثم اكتشف الكثير منها مثل شهبا، ومسرح أفاميا (١٩٣٨م)، ثم اكتشفت مسارح في كل من بصرى وجبلة وتدمر واللاذقية، والرستن والسويداء والقنوات، والصالحية، والنبي أوري. كما تم الكشف عن مسارح في كل من بعلبك وجبيل وبيروت والبترون ومسارح أخرى في أنطاكية وسلوقية. من أهم هذه المسارح:

- **مسرح اللاذقية:** يقع في طرف المدينة الشرقي على قمة التلة.

- **مسرح أفاميا:** يعد من أهم المسارح في العالم، قطر مدرجه (١٤٥م).

- **مسرح جبلة:** اكتشف عام (١٩٥٠م) تثبتت بعض الأبنية في أعلى مدرجه. قطره نحو تسعين متراً، عدد درجاته خمس وثلاثون، وسعته نحو سبعين ألفاً، ويقع في وسط المدينة.

- **مسرح كورش (النبي أوري):** يقع هذا المسرح وسط المدينة غربي الشارع المعمد المتجه من الشمال إلى الجنوب، ظهرت فيه ستة أدراج، يبلغ عرض المدرج نحو ثمانين متراً، وعرض المنصة مع أقسامها الجانبية (٤٨م).

- **مسرح السويداء**[2] : (ديونيسياس): لم يبق منه إلا موقع المسرح، والأروقة التي كانت تحيط به من الخارج.

- **مسرح القنوات (كناتا) الصغير:** بقيت منه بعض الدرجات والأوركسترا، والقسم

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢٢٨.

[2] غالب عامر ـ داوود ثمر: جبل العرب في العصور القديمة ـ طبع دمشق ـ ص٥٧.

الأسفل لجدران المداخل الجانبية ومقدمة المنصة قطره (٤٦م).

- **مسرح بصرى**[1] **(فيليبوبولوس):** وسط المدينة، قرب ملتقى الشارعين الرئيسيين، بجانب المعبد، الذي خصصه الإمبراطور فيليب العربي لابنه، وهو مسرح صغير، قطره (٤٠م)، لا يعيق حركة المرور. بقي منه حائط المنصة والممر الخلفي، ونهاية الرواق، الذي يحيط بالمسرح، وقسم كبير من المدرج، ودرجات مقاعد، وأقواس الواجهة الخارجية والممشى الذي يقود إليه. وله برجان مربعان، يؤديان إلى السطح الذي يعلو جانبي المنصة، يتصل بأروقة المدرج. وهذه تتصل بالأبواب، وهو أقدم من مسرح شهبا، وله ثلاث مجموعات من الأدراج أو المقاعد.

- **أما مسرح شهبا:** فإن الممشى الداخلي يقسم إلى مجموعتين من الأدراج، المجموعة السفلى تحوي تسع درجات، والمجموعة العليا يظهر أنه كان فيها ثماني درجات.

- **مسرح دورا:** مخصص للطقوس الدينية، وصغير الحجم، وقطره أقل من (١٤م)، ليس له منصة، له أربعة أدراج، وثمانية صفوف من المقاعد المغطاة بالقرميد، ليس له مداخل، سوى مدخل، يتجه نحو رواق المعبد.

- **مسرح تدمر:** مسرح حقيقي، قطره (٩٠م)، يشبه مسرح بصرى، مشاد في أرض منبسطة.

امتاز الرومان بفن الخطابة، لأن هذا الفن كان إحدى الوسائل الرئيسية لشق الطريق أمام الطامعين في تولي أرفع الوظائف العامة[2]. والخطابة كانت تكسب صاحبها مكانة بارزة في المجتمع. يبدو أن التعليم في العصر الروماني استمر على ما كان عليه عند الإغريق، واستمر يماثله. ففي مجال التأريخ يمكن تقسيم المؤرخين إلى أنواع[3] منهم: من أرّخ المدن، ومنهم: من كتب عن فترة معينة أو موضوع معين، ومنهم: من اهتم بالتراجم الخاصة بالعظماء، ومنهم من اعتمد أسلوب المذكرات.

أما في مجال الفلسفة[4] اليونانية وتأثيرها على السوريين، فيكفي أن نذكر كلاً من

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الرابع عشر - ص٥ وما بعدها.

[2] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان - الجزء الثاني - ص٧٧٨.

[3] المرجع نفسه: ص٧٩١.

[4] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية - طبع بيروت - بدون تاريخ - ص٢٩٨.

(فورفوريوس) (٢٣٣ ـ ٣٠٥م) المعروف بملخوس السوري، تلميذ أفلاطون، والذي ولد في صور. وله كتب كثيرة، مثل (الامتناع عن اللحوم)، وأخرى في أخبار الفلاسفة وغير ذلك. والفيلسوف السوري الآخر هو باميلخوس (٢٧٠ ـ ٣٣٠م)، والذي ولد في خلقيس السورية، له كتب فلسفية ورياضية ودينية، وعرف بأنه كان يمزج الدين بالفلسفة وبالرياضة.

فن العمارة:

امتاز الرومان بنواحٍ معمارية مثل المعبد المستدير، ويعتقد أنه كان تطويراً للأكواخ المستديرة، كما امتازوا في استخدام العقود، والبراعة في تصميم المنشآت. فقد أدخل الرومان على المسارح بعض التطورات، التي جعلت طابعه مميزاً بأمور منها: أن أماكن المتفرجين كانت تشاد على مجموعة من العقود، والجزء الخاص بالتمثيل وغرف الممثلين ازداد تعقيداً، وازدادت الغرف ارتفاعاً، كما امتاز بأن مختلف أجزاء المسرح أصبحت مترابطة، حيث أصبحت وحدة متماسكة.

وكان التفوق الروماني في مجال التصميم، يعود إلى أن الرومان كانوا يمتازون باتجاهات عملية في كل نواحي تفكيرهم، ثم أن المنشآت الدنيوية والاهتمام بها، كانت كالمنشآت الدينية من عوامل تطورهم. أما في فن النحت، فقد برزت الشخصية الرومانية في فرعين من فروع فن النحت، الأول: هو التماثيل الكاملة منها والنصفية، والثاني: النقوش البارزة، والنقوش نوعان: الأولى نقوش زخرفية جنائزية، والثانية نقوش تاريخية.

أما فن التصوير فقد قطع الرومان به شوطاً كبيراً، وهذا الفن أيضاً نوعان: الأول: صور حائطية، والثاني: صور أشخاص. وكانت لزخرفة الكنائس بالفسيفساء ذات المواضيع الدينية أو الهندسية والبنائية علاقة بالديانة المسيحية. وفي هذا المجال فقد عثر علماء الآثار في مدينة حماه على عدد من ألواح الفسيفساء، التي تزين أرضيات الكنائس، وتضم صوراً أو أدوات تعبير، ورموزاً دينية، منها ما يمثل طائر الفينيكس، أو بعض الصور الأخرى، التي ترمز إلى معان دينية كالطيور والأسماك، فضلاً عن أنواع من الصلبان المختلفة الأشكال، وترقى الفسيفساء المكتشفة إلى القرن الخامس الميلادي، كما تم العثور في المدينة نفسها عام (١٩٨٣م) على كاتدرائية، رصفت أرض كنيستها وملحقاتها بفسيفساء، تضم زخارف هندسية، إلى جانب رسوم الصلبان، وصور لطائر الفينيكس.

الأعـيـــاد:

بـالطبع وجـدت أعيـاد كثيرة في سـورية، إلا أن أكثرهـا كـانت أعيـاداً مسـيحية، فهنـاك **الشعانين** الذي يصادف اليوم الثاني والأربعين من الصيام، الـذي يستمر خمسين يومـاً، هـو اليـوم، الذي نزل السيد المسيح من الجبل ودخل بيت المقدس. ثم **عيد الفصح** ويأتي بعـد عيـد الشـعانين بأربعة أيام، وهو اليوم الذي خرج فيه موسى وقومه من مصر، وبعد عيـد الفصح بثلاثـة أيـام يـأتي **عيد القيامة**، وهو اليوم الذي خرج فيه السيد المسيح من القبر، وبعده بثمانية وثلاثين يومـاً يـأتي **عيد السلاق**، وهو اليوم، الذي صعد فيه السـيد المسيح إلى السـماء، ثـم **عيد الصليب**، وهـو اليوم، الذي وجدت فيه خشبة الصليب، ثم **عيد الميلاد وعيد القيامة**، وهما عيـدان رسميـان، كان يقام فيهما احتفالات رسمية، **وعيد الذبح**.

المناسبات والاستعراضات:

وجدت مناسبات سعيدة كانت تقيمها الأسـرة وتحتفـي بهـا، مـن ذلـك مناسبة الاحتفـال بالمولود الجديد، والاحتفال بمناسبة الخطوبة، والاحتفال بمناسبة الزواج وغيرها.

كان الشباب يجرون استعراضات، وهـم يرتـدون أزيـاءهم المبهـرة والمثيرة، وفي مطلـع كـل شهر قمري كان يحتفل باستقبال الهلال الجديد عن طريق إشعال نيران في الطرقات، كما كان يجرى مواكب رسمية لاستقبال السفراء والملوك الأجانب، حيث كان الناس يحرصون على مشاهدتها.

وكانت المهرجانات الرياضية السنوية تنتظر بفارغ الصبر، وأكبر المهرجانـات، الـتي كـانت تقام هي سباق العربات، والألعاب الأولمبية، حيث يجد الناس المتعة والإثـارة، مثـال ذلـك الألعـاب، التي كانت تقام في سورية وتحديداً في مدينة أنطاكية. وإليك وصف لبعض هذه الألعاب.

كان مهرجان سباق العربات محور الحياة الاجتماعية عند الروم، وكان ميدان السباق ساحة واسعة ذات شكل مستطيل، ينتهي أحد أطرافه بشكل نصف دائري، وتملؤه ما بين ثلاثين أو أربعين صفاً من المقاعد المنحوتة من كتل الرخام الفاخر، تتسع لنحو أربعين ألف متفرج، وعلى طول محـور الارتكاز يجري صف الأعمدة ذات الدرجات، حيث تقسم الملعـب تمـاثيل لبعـض البشـر، وكذلـك لبعض الحيوانات، كلها مصنوعة من النحاس الأصفر، الذي يتوهج إذا ما سـطعت عليهـا الشـمس. أما الحاجز الوسط فقد كان يزينه ثلاثة أعمدة. بالإضافة إلى عروض سباق العربات، كان يجـري في

الملعب عروض للمصارعة بين الحيوانات الضارية والطيور الجارحة.

وكان للإمبراطور دور في مثل هذه السباقات أو الاستعراضات أو الألعاب، حيث كان يشترط أخذ الأذن منه قبل يومين من إجراء السباق، وبعد موافقته تعلق إعلانات أو لوحات داخل الملعب، تظهر موعد بدء المهرجان، كما كانت تحدد الجداول الزمنية والترتيبات الخاصة بالفرق المتسابقة. وفي يوم الاستعراض كانت أبواب الملعب تفتح باكراً لاستقبال الجماهير، التي كان من حقها حضور ومشاهدة مثل هذه الاستعراضات والسباقات.

وفي ملعب السباق نفسه كانت تقام عروض مسرحية خاصة، يشترك فيها كبار الممثلين والمغنين والموسيقيين ومحترفي المصارعة للحيوانات الضارية المدربة، والطيور الجارحة المدربة أيضاً. علماً أن مثل هذه الاستعراضات كانت تقام في أي وقت من العام، احتفاءً بزيارة ضيف هام، إلا أن سباق العربات كان يحظى بإقبال جماهيري، يفوق كل ذلك.

أخيراً تذكر عاديات حلب أن الألعاب الرياضية الرائدة، التي سميت فيما بعد بالأولمبية، إنما قامت في سورية، ولا سيما في مدينة صور وفي عمريت القريبة من طرطوس، ولدى الفينيقيين قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً، لا كما هو معروف عام (٧٧٢ ق.م) في قرية ايليس من منطقة الأولمب في بلاد الإغريق[1].

[1] عاديات حلب: طبع سورية ١٩٩٧ ـ الجزء الثالث ـ ص١٠.

الفصل الثالث

الحالة الاقتصادية

- الزراعة.
- التجارة.
- الصناعة.

أولاً - الزراعة

أقيمت الفرق العسكرية في الولايات الإغريقية ومن ضمنها سورية إقامة دائمة، فعمرت هذه الولايات بعناصر هذه الفرق، وكان من عادة أفرادها سواءً تلقوا لقاء خدماتهم أرضاً أم مالاً، أن يستقروا، ويستوطنوا في الأرض المقيمين عليها مبجلين مكرمين. كما خضعت أخصب البقاع وأفضل المواقع في الولايات لإنشاء المدن والمستعمرات، التي كان لبعضها طابع ديني، ولبعضها الآخر طابع عسكري. ومنحت بعض المدن حق المواطنة، واكتسب الحكام فيها بعد انتهاء خدماتهم صفات خاصة، ولما كانت هذه المناصب سنوية، فقد تداولتها الأسر الكبيرة.

وكان أبناء الولايات، الذين يرخص لهم بحمل السلاح في الفرق العسكرية، أو في تولي أية وظيفة مدنية، أي كل من أدى خدمة عامة، أو أظهر مواهب شخصية، كان يتلقى مكافأة مقابل خدماته. ومن المعروف أن الحكم المقدوني الطويل في سورية أحدث انقلاباً فيها، حيث جمع حكام وأمراء هذه الولاية في بلاطهم كل أنواع الترف، وحذت الطبقات العليا من الرعية حذو البلاط في هذا المجال. لقد بقي الشعب السوري في العصر المقدوني على لغته، وظل محافظاً على عاداته وتقاليده، لذلك احتقر الغزاة الفاتحين.

تقدمت الزراعة في عصر الإغريق تقدماً واضحاً، وازداد الناس تفنناً وعلماً بأنواع جديدة من النباتات والأعشاب والأساليب الزراعية، وكان اهتمام الإغريق بالزراعة سبباً مباشراً لحاجتهم الملحة إلى الأموال اللازمة لبناء قوتهم، وإنشاء المدن والمستعمرات. والزراعة كانت أهم مورد للدولة.

وكانت الأرض تحرث بمحراث، تجره ثيران، يقودها أبناء الأرض الأصليين، وكانت الفلاحة هذه منتشرة في المناطق الزراعية السورية، مثل أنطاكية وسلوقية بيريه، لاوداكيا (اللاذقية) وأباميا وغيرها من المدن السورية. أي أن الفلاح السوري بقي يستخدم الأدوات الزراعية التقليدية، ويتبع الدورة الزراعية التقليدية القائمة على نظام ترك الأرض دون زراعة مرة كل عامين.

ونظرا لاهتمـام الإغريق بها، فقد عملوا على أقلمة أنواع جديدة من المزروعات غير معروفة عندهم سابقاً، بل اقتبسوها من أقاليم مجاورة، واهتموا بغرس الكروم وأشـجار الزيتون، كما عملـوا على استصلاح الأراضي، وبذلـك عملـوا علـى تطويـر الاقتصـاد. واسـتخدموا إلى جـانب المحراث الفـأس والمنجـل وبقيـة الأسـاليب الأخـرى، الـتي كـانت متبعـة في الدولـة، الـتي ضمتهـا الدولة الإغريقية، كالأدوات المستخدمة في الحصاد والبذار وجني المحاصيل وغيرها.

وأهـم المزروعـات علـى الإطـلاق كـان القمـح. ذلـك المحصـول الـذي بقـي مزدهـراً، ونظـراً للاهتمـام بـه، فقـد زاد محصولـه، وإنتـاج القمـح لم يقتصـر علـى إقليـم دون آخـر، بـل شمـل معظـم المنـاطق الخصبـة، وكـانت سـورية أحـد الأقـاليم الإغريقيـة، الـتي اشـتهرت بزراعـة الحبـوب، وعلـى رأسـها القمـح، وكـانت تنتـج أجـود أنـواع القمـــح[1]، ونظـراً لجودتـه، عمـل البطالمة علـى إدخالـه إلى مصر.

كما عرفت الدولة السلوقية زراعة الأرز، إلا أن سورية لم تشتهر به، وبالجملة يبدو أن إنتاج الأرز كان قليلاً، لذلك حصر تناوله على فئة معينة. ويعتقد أن مادة الأرز كانت تستورد من خارج الدولة. واهتموا بزراعة الكروم، علماً أن هذه الزراعة كانت منتشرة في سورية، إلا أنهم عملوا على توسيعها داخل دولتهم، واهتموا أيضاً بزراعة الزيتون، الذي كان أيضاً موجوداً في سورية، ويعدّ من أعرق الزراعات فيها. ولقيت هذه الزراعة في سورية أهمية وإقبالاً متزايداً، لأن الزيت السوري كان من أجود أنواع الزيوت. لذلك فرضت الدولة رسوماً جمركية باهظة على تصديره، ورغم ذلك فقد صدر.

ونقل السلوقيون زراعة أشجار الفستق من المناطق الشرقية إلى سورية، كما وجدت أشـجار مثمرة أخرى في سورية مثل التين والرمان. كما انتشـرت زراعـة النخيـل نظـراً لأهميتـه الاقتصاديـة المتعددة الأطـراف، كمـا انتشـرت زراعـة الخضـراوات والنباتـات ذات الاسـتخدامات الطبيـة. أما الغابات فكانت منتشرة في شمال سورية وعلى سفوح جبال لبنان. وشهرتها كانت قد ملأت العالم، لما تمتاز به من مـيزات خاصـة، سـواءً في البنـاء، أم مـن حيـث استخدامها كأسـاس للمسـاكن، أو استخدامها في بناء السفن بنوعيها: الحربية والتجارية.

اشتهرت الدولة الرومانية بالزراعة وتربية الحيوانات. ففي مجال الزراعة كانت تنتج حاصلات

[1] مفيد رائق العابد: سورية في عصر السلوقيين من الاسكندر إلى بومبيوس ـ طبع دمشق ١٩٦٣ ـ ص٢٦٢.

وفيرة من مختلف أنواع الحبوب، مثل القمح[1]، والذرة والشعير والبقول، مثل البـازلاء والفاصوليـاء. كما ازدهرت زراعة أشجار الكروم والزيتون[2]، وبعد اتساع الدولة شرقاً أدخلت أنواع أخرى مـن الفاكهة مثل التفاح والكمثرى وأشجار التين.

كما كـانت تتوافر مـراع ممتـازة للأغنـام والمـاعز والماشـية والخيـول، أي تربيـة الحيوانـات، وكانت تلي الزراعة من حيث الأهمية، وكانت أنواع الحيوانات الرئيسـية هـي: الثيـران والأبقـار والحمير والغنم والماعز والخنازير[3]، وكذلك الدجاج والإوز. فالأغنام كانت تربى أساساً مـن أجـل لحومها وألبانها وأصوافها، والأبقار من أجـل لحومهـا وألبانهـا وجلودهـا ولتكثـير نسـلها، والثيران والحمير لاستخدامها في الحراثة والنقل، وكان لحم الخنزير يحتـل مكانـة كبـيرة عنـد الرومـان، كمـا استخدموا عسل النحل.

وكانت الدولة غنية أيضاً بالغابات، حيث استخرجت منها الأخشاب، التي كانت تسـتخدم في بناء السفن والمباني والأثاث، كما كانت أشجار الصنوبر مصدراً هاماً للقطران والصمـوغ. أمـا الثروة المعدنية فكانت قليلة الأهمية، إذا ما قيست بالزراعة، ورغم قلتهـا فلقـد توفـر منهـا النحـاس والحديد والملح وأحجار البناء المختلفة الأنـواع، بالإضافـة لمـادة الصلصـال الصالحـة لصناعـة الآجـر والقرميد والآنية الفخارية.

ومـع الزمـن تطـورت مصـادر الـثروة الرومانيـة[4]، فـأصبحت تعتمـد علـى ثلاثـة مصـادر، **المصدر الأول:** هو الزراعة، كزراعة الحبوب وغرس الأشجار، حيث تطورت الزراعة، ووجدت مشاريع الري والصرف مثل السدود وقنوات الصرف. كـل ذلـك سـاهم في اتسـاع رقعـة الأرض المزروعة، وبالتالي زيادة الإنتاج. **المصدر الثاني:** هو استغلال موارد الـثروة المعدنيـة، وصـاحب ذلك ازدهار الصناعة. **المصدر الثالث:** هو التجارة، التي طورت وسـائل النقـل البريـة والبحريـة، وأدت إلى استخدام العملة.

فالمجتمـع الروماني في العهـد الملكـي كان مجتمعاً ريفياً، قوام حياته الاقتصادية الزراعة ورعي

---

[1] مفيد رائق العابد: سورية في عصر السلوقيين من الاسكندر إلى بومبيوس ـ طبع دمشق ١٩٦٣ ـ ص٢٦٣.

[2] دونالد ـ ر ـ دولي: حضارة روما ـ ص١٧١.

[3] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢٠٩.

[4] حسين الشيخ: الرومان ـ طبع مصر ١٩٩٣ ـ ص٣٦.

الماشية والأغنام، وكان طابع الملكية جماعياً، علماً أن ملكية الأرض الزراعية تتسم بطابع الملكية الفردية، وكانت الأرض تزرع بحاصلات مختلفة، أهمها الحبوب. وشهد هذا العهد نشاطاً ملموساً في مجالي الصناعة والتجارة. ففي مجال الصناعة: أحرزت صناعة الفخار والبرونز والحديد قدراً ملموساً من التقدم، وهناك احتمال أن السبب يعود إلى إنشاء نقابات للعمال الأحرار العاملين في صناعة الفخار والمعادن والجلود والأخشاب وصياغة الذهب ودباغة الجلود في هذا العهد.

في العهد الجمهوري ظل الرومان شعباً زراعياً، وساهم في ذلك اتساع رقعة الإمبراطورية، الذي ساعد في اتساع مساحة الأراضي الزراعية. ففي هذا العهد انتشرت طريقة تأجير الأراضي العامة، وكان البطاركة بحكم نفوذهم وثرائهم وأنانيتهم يحتكرون[1] ذلك، أو يعدّون ما يستأجرونه في حيازتهم.

وبسبب ازدياد رقعة الدولة الرومانية واتساعها، فقد تقرر أن تقام مستعمرات عسكرية في الأماكن الاستراتيجية، وكان يخصص للمدافعين عن الحصون مساحة كبيرة من الأرض لاستغلالها، كما جرى توزيع الأرض الصالحة للزراعة على المواطنين الراغبين في الاستقرار في تلك المستعمرات، وأن تكون هذه الأرض ملكاً حراً لأربابها فرادى. أما الفائض عن الحاجة من الأراضي الصالحة للزراعة وأراضي المراعي والغابات، فإنها كانت تؤجر، وكان البطاركة يفوزون بالنصيب الأكبر منها، ويضعونها في حيازتهم مع احتفاظ الدولة بحق ملكية هذه الأراضي.

وفي عام (٣٦٧ ق.م) صدر قانون[2]، يقضي: بأن لا يكون في حيازة أي مواطن ما يزيد على (٥٠٠)مؤجر، وألا يمتلك أكثر من (١٠٠ رأس من الماشية أو ٥٠٠ رأس من الأغنام)، لكن مع الزمن ورغم صدور مثل هذه القوانين، فقد نسي أرباب الحيازة، أو تناسوا حقوق الدولة على هذه الأرض، وأصبحوا يعدّونها ملكاً خاصاً بهم، يتصرفون فيها بالبيع والرهن والهبة. هذا وقد ساعد على اقتناء الضياع الكبيرة وانتشارها ازدياد الثروة.

لقد انعكس التدهور الاقتصادي على الزراعة، فالإمبراطورية انتابتها رياح القلق والاضطرابات الداخلية والخارجية والفوضى اعتباراً من القرن الثالث الميلادي، وكان لانتشار المعسكرات الرومانية والقلاع والحصون أن أخذت تعج بالقوات والمحاربين.

---

[1] إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان ـ الجزء الأول ـ ص٢٠٤.

[2] المرجع نفسه ـ ص٢٠٤.

كل ذلك عاد على الزراعة بأوخم العواقب، فنزل بها التلف والخراب، كما أصاب الجفاف مساحات هائلة في الأراضي الزراعية، وحل التدمير في المزارع ومبانيها ومخازنها وواردات كل المحاصيل الزراعية، الى استماتة في مواجهة الضرائب الفادحة، التي وقع عبؤها على صغار المزارعين والمستأجرين، وعندما كان المزارعون الصغار يعجزون عن الوفاء بديونهم في موعدها كانوا يضطرون إلى رهن أراضيهم إلى كبار ملاكي الأرض الزراعية، ومن ثم يحول صاحبها فيما بعد إلى عبد، أو يضطر إلى النزوح إلى المدينة.

تعدّ الزراعة أساس الصناعات، لأن منتجات الطبيعة هي المواد اللازمة للفن، لقد تطور الاقتصاد الروماني، حيث استخدم أساليباً جديدةً فيها، وأجريت تجارب زراعية، حسنت الإنتاج، وطورته، وطورت زراعة الحبوب لا سيما القمح، ووسعت مناطق إنتاجه، كما لقيت تربية الحيوانات اهتماماً رومانياً جيداً، وشجعت زراعة الأشجار المثمرة كشجر الزيتون، مما أدى إلى زيادة إنتاج الزيت، وشجعت أيضاً زراعة أشجار الكرمة، مما أدى أيضاً إلى زيادة إنتاج النبيذ. وكان الزيتون ومنتجاته من مقومات اقتصاد عالم البحر الأبيض المتوسط. فأرخص أنواع الزيوت كانت تستخدم في إضاءة المصابيح، والأنواع الأجود في الطهي، كما كانت أصناف كثيرة من الزيتون الجيد تؤكل نيئة، واحتل الاتجار بالزيت أهمية بالغة في العصر الروماني.

في مرحلة ضعف الإمبراطورية الرومانية اتخذت الدولة إجراءات متنوعة لمنع الناس من التخلي عن زراعة الأرض، فقد تقرر فرض إيجار إسمي على حيازة الأرض البور الموروثة، التي يتعهد حائزها بزراعتها زيتوناً وكرماً، وتحتّم على مالكي المزارع الضخمة أن يضيفوا الى أملاكهم قدراً معلوماً من الأرض غير المزروعة، ويؤدوا عنها ضريبة. وأخضعت التجارة والصناعة لسيطرة الدولة، ونالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها، على أن هذه الجماعات فيما عدا التجارة والقوافل السورية، لا تمتّ بأي شبه للشركات العصرية ذات الرأسمال المشترك. أما الصناعة طول تلك الفترة فكانت أساساً في أيدي الأفراد.

الحيوانات:

انتشرت في العصر الروماني سلالات عريقة من الخيول، وانتشرت أيضاً الأغنام والماشية، فجمع أصحاب المزارع الكبيرة في الولايات الرومانية ثروات طائلة من ازدياد إنتاج الصوف والجلود، كما شجع اتساع السوق الرومانية على تطور التخصص في الأعمال مثل تربية النحل

وتربية الدواجن[1] والطيور، التي كانت تستخدم في المباريات. أما الدواجن فكانت تلعب دوراً قليل الأهمية في هذا المجال، لأن قيمة الدجاج كانت فيما تضعه من بيض، كما ربي الحمام والقنابر والدجاج السوداني والطاووس للاتجار به في سوق الدواجن.

ثانياً - التجارة:

مرت المدن السورية بمرحلة، تطورت فيها التجارة في حوض المتوسط، ساعد على ذلك انتشار الصناعة الفينيقية وقوتها، كما ازدهرت تجارة الترانزيت، وخاصة تجارة الحرير الصيني وعطور الجنوب العربي. خلال هذه المرحلة كان للسوريين علاقات تجارية مع إيطاليا ومع مصر، وبعض مقاطعات آسيا. لكن التجارة السورية مع إيطاليا وخاصة مع روما كانت بارزة وواضحة، كما كان التجار السوريون يعيشون في أكبر المراكز التجارية الإسبانية.

يقول مورس[2]: « وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاد ونسيج الكتان، وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج الرخيص منه والنفيس، والجواهر والعطور وأدوات الزينة، وقال: تزايدت هجرة اليونان والمصريين والسوريين إلى الغرب، ليمارسوا مهاراتهم، أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة، وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان، إذ كانوا ينتشرون في كل أرجاء أوربا مغامرين أفراداً أو مجتمعات من التجار أو يوجدون بمدن إفريقية وإسبانية، أو يشتد تزاحمهم على امتداد طرق التجارة بوادي نهر بو أو حوض الراين».

وكانت التجارة السورية مع بلاد الرافدين والهند والصين، وكان أشهر تنظيم تجاري في تدمر، وكان لهذا التنظيم دور مهم في تطور العلاقات ما بين الإمبراطورية الرومانية وبارفيا. فقد كان التجار التدمريون ينقلون السلع الهندية والعربية، ويبيعونها في الأسواق الرومانية، وكانت تدمر مهتمة بمسألة فرض سيطرتها وترسيمها على الطرق التجارية الشرقية، كما مارست تدمر العلاقات التجارية مع مصر ومع الجزيرة العربية، واتخذ التدمريون إجراءات للمشاركة، بالإضافة لتجارة القوافل في التجارة البحرية.

---

[1] دونالد - ر - دولي: حضارة روما - ص١٧٢.

[2] - مورس: ميلاد العصور الوسطى - طبع القاهرة ١٩٦٧ - ص١٦ - ١٧.

والقافلة كانت جماعة، تستطيع أن تتخذ بكل حرية القرارات المناسبة لمختلف القضايا، التي تواجهها، واجتماع القافلة العام كان يتخذ قرارات لحل مسائلها، وإقامة علاقات مع الأشخاص، الذين يقدمون خدمات مفيدة لها، أو انتخاب قائدها، أو تحديد مسارها، وكان للقافلة مخصصات مادية عامة، كانت تتشكل من مساهمات المشاركين فيها، وفي حالات نادرة كان شخص ما واحد يأخذ على عاتقه مهمة تغطية نفقاتها.

أما مهمات قائد القافلة، فهو الذي يعمل كل ما بوسعه على أن تكون كافة أوضاعها مرضية، ومن جهة أخرى يذكر: أن قائد القافلة يمكن أن يكون مأجوراً، كما يروى: أنه يوجد بتدمر أناس متخصصون بقيادة القوافل والرحلات التجارية. أما حماية طرق تجارة القوافل فكانت من مهمة الحكومة التدمرية، وكانت العائلات الأرستقراطية تشارك في تجارة القوافل، حتى أن بعضهم كان يقود بنفسه مثل هذه القوافل، وبذلك كان لمثل تلك الأسر تأثير واضح في حياة المجتمع التدمري، ودعمت تدمر علاقاتها التجارية مع المدن، التي كانت تتعامل معها خارج أراضيها لبناء مستعمرات تجارية تابعة لها، وكذلك بناء معابد للآلهة التدمرية هناك.

كما كان للمعابد مراكز تجارية هامة في سورية. فكانت المعابد تنظم معارض تجارية دورية في أراضي المعابد، كان يشارك فيها سكان المقاطعات المجاورة وحتى البعيدة، وكان يتخلل هذه المعارض طقوس وشعائر دينية.

اكتسبت التجارة في العصر السلوقي أهمية كبيرة متزايدة، وقد أسهم في تطور الحركة التجارية آنذاك وانتعاشها التحول الهام من الاقتصاد العيني إلى الاقتصاد النقدي، ولعبت المدن في بلاد الشام دوراً هاماً في هذا التطور.

طرق التجارة:

كانت الطرق التجارية في بداية عهد السلوقيين موجودة، واستمرت، وتطورت. وأهمها ثلاثة[1] طرق:

- **الطريق الأول:** طريق الشمال، وكان يمر بمدينتي كابول وبلخ، حتى مصب نهر

---

[1] مفيد رائق العابد: سورية في عهد السلوقيين ـ ص٢٧٠.

جيحون، ثم يعبر بحر قزوين إلى البحر الأسود، إلا أن هذا الطريق، على ما يبدو كان قليل الأهمية.

- **الطريق الثاني الوسط:** كان هذا الطريق يتفرع إلى عدة طرق، وكان مائياً وبرياً، فالمائي: كان يتجه من الهند إلى الخليج العربي إلى بابل، أما البري: فكان يخرج من الهند إلى بابل، وكانت البضائع المتجمعة في بابل تجتاز أرض الجزيرة العربية إلى نصيبين إلى الرها، حيث تتجه صوب دمشق وصور عبر حلب وحمص، وكان البطالمة بحكم سيطرتهم على جوف سورية يسيطرون على أهم منافذ هذا الطريق، وكان لإنشاء المدن، ولا سيما سلوقية دجلة أهمية خاصة لهذا الطريق.

- **الطريق الثالث الجنوبي:** وهو طريق بحري، يصل الهند بالموانئ الواقعة جنوب الجزيرة العربية، ووجد طريق، عرف باسم طريق البخور، ويمر بسبأ ومعين ويثرب والعقبة والبتراء ودمشق وصور.

وكان الأنباط بفضل خبرتهم ومهارتهم التجارية وموقع عاصمتهم البتراء يتحكمون في تجارة طريق الجنوب. كما طورت الطرق التجارية، لا سيما سورية، التي كانت تشقها قوافل التجار والتجارة بشكل عام، فكانت في أيام السلوقيين على اختلاف أنواعها حرة، لم يستطع ممارستها إلا بعد أداء ضريبة مزاولة المهنة وغيرها من الضرائب، التي لها علاقة بالتجارة.

كما وجدت التجارة الداخلية، ونشطت وخاصة بين المراكز القديمة، التي كانت موجودة قبل وجود الاسكندر المقدوني والمراكز الحديثة، التي أوجدها الإغريق، وخاصة السلوقيون على أرض بلاد الشام كأنطاكية وأباميا واللاذقية وسلوقية وغيرها من المراكز العسكرية.

يقول ستيفن رنسيمان: « كان التجار السوريون يوزعون التجارة الشرقية في طول البحر المتوسط وعرضه، ولهم محطات في كل ميناء، كما كانوا في الوقت نفسه يقومون بدور رواة الأخبار »[1].

ويقول موريس[2]: « إن التجارة مع الشرق كانت تنطوي على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية، وكانت تنتهي في البحر الأحمر عدة خطوط ملاحية عظيمة... ».

---

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية - ص١٩٧.

[2] هـ - موريس: ميلاد العصور الوسطى - ص١٧ - ١٨.

التجارة الخارجية الرومانية:

والتجارة لم تقتصر على داخل حدود الدولة، بل تعدت ذلك، وكانت خارجية، حيث وجدت أسواق خارجية كانت غاصة بالسلع، حيث كانوا يقايضون إنتاجهم من جواهر ونقود وخزف وآلات زراعية مقابل جلود الحيوانات والرقيق والكهرمان.

على أن التجارة مع الشرق كانت تنتهي في البحر الأحمر. إن أحد الخطوط الملاحية العظيمة يمتد جنوباً عبر الحبشة والصومال وأوغندة، وإلى الجنوب منه كان التجار العرب يمسكون زمام احتكار التجارة، وكان الركن الغربي من بلاد العرب يصدر البخور إلى الغرب، وينقل فوق ذلك محصولات الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والأمانوس وخشب الصندل، التي تفرغها السفن في موانئ البحر الأحمر، ومنها تنقل بطريق القوافل، حتى تصل إلى الإسكندرية أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية.

وبعد ذلك تم اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتها لهم في التجارة، وبذلك استعيدت الوساطة التجارية العربية، وسرعان ما وظف فيها تجار سورية والإسكندرية أموالهم. ومع ظهور ضعف الإمبراطورية الرومانية ظهرت دولة تدمر، التي اعتمدت في حياتها على تجارة القوافل، كما احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز المدة، حتى تغلب أورليان على هذه الدولة، كما ورد.

وفي هذه المرحلة مرحلة ضعف الإمبراطورية الرومانية، ظهر فساد نظام العمل، فاختفى الذهب من التداول، ولم تعد الفضة المعروفة في الأيام الأولى، إلا مجرد عملة نحاسية، عليها طلاء رقيق من الفضة، وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة، فقد احتفظت الأسعار بشيء من الثبات، فتبع ذلك فترة تضخم مالي مفرط، حيث ارتفعت أسعار الحنطة، وأغلقت المصارف أبوابها، لكن التجارة، فيما بعد تحسنت، وأعادت للعملة الذهبية والفضية قيمتها.

وفي النهاية تمكن راهبان من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين، حيث كانوا يحافظون على سر هذه الصناعة، بأن أخفيا البيض في جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران، ولم تكن سورية قد ذخرت أراضيها بشجرة التوت، ولم تعد الدولة الرومانية تعتمد على الحرير الصيني. وكانت سورية ومصر خلايا عاملة تعمل بالصناعة الناشطة، وكان البحر المتوسط يعم بالسفن التجارية.

يذكر ادوار جيبون: إن أهم صنوف التجارة وأقلها شعبية تلك. التي كانت تجري مع بلاد العرب والهند، وقال كانت هذه التجارة الشرقية فاخرة، ولو أنها تافهة عديمة النفع، ومنها

الحرير، والذي لا تقل قيمة الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب، ومنها الأحجار الكريمة مثل اللؤلؤ. الذي كانت له المكانة الأولى بعد الماس، ثم تشكيلة العطور، التي كانت تستخدم في الطقوس الدينية.

وبينما كان العرب والهنود قانعين بمنتجات بلادهم ومصنوعاتهم، كانت الفضة هي أداة التعامل الأساسية، ومن هنا يتضح أن الفضة هي التي غدت أكثر شيوعاً واستعمالاً، إلى حد أن الصادرات العربية والهندية بالغة ما بلغت كميتها أبعد ما تكون عن أن تستنزف ثروة الرومان.

أما في مجال العملة، ففي عام (٢٨٩ ق.م)قرر الرومان استخدام العملة في التعامل، وعينوا هيئة ثلاثية للإشراف على دار صك العملة، وكانت أول مهمة لهذه الهيئة: هي إصدار سبائك متنوعة، زنة كل منها حوالي ستة أرطال، علماً أن روما لم تصك نقوداً حقيقية إلا في عام (٢٦٨ ق.م)، حيث أصدرت نوعين من النقود، أحدهما من الفضة، وكان من فئتين: الأولى: من فئة الدراخمتين، والثانية: من فئة الدراخمة الواحدة، والنوع الثاني: من البرونز ويسمى: الالس، ويتألف من فئات مختلفة، وهي فئات الرطل وأضعافه وأجزائه. وفي عام (١٨٧ ق.م)صكت نقوداً برونزية جديدة، تسمى أيضاً الالس، وتزن أوقيتين رومانيتين، وصكت عملة فضية جديدة، وزنها سدس أوقية، وسميت النقود الفضية الجديدة: (الينار). لكن نطاق التجارة اتسع فيما بعد.

الأسواق:

ونتيجة تطور الاقتصاد تمت عملية توسيع الأسواق العامة، وفرضت الرقابة على الموازين والمقاييس، ونظمت عملية المرور في الشوارع، إذ لم يكن يسمح لعربات النقل بالدخول إلى المدينة إلا ليلاً.

المواصلات الرومانية:

ارتبطت المدن الرومانية بعضها ببعض وبالعاصمة بشبكة من الطرق العامة، كانت تبدأ من روما، وتجتاز إيطاليا، ومن ثم تنتشر في الولايات، وكانت هذه الطرق العامة تقسم تقسيماً دقيقاً بشواخص المسافات أو علامات الأميال، وكانت تجرى في خطوط مستقيمة بين المدن، ولقد وحدت هذه الطرق بين الرعايا في أقصى الولايات بمواصلات ميسورة مألوفة، ولكن هدفها الأساسي كان تيسير تحركات القوات العسكرية.

وأغرق الأباطرة في إنشاء نظام دقيق للبريد في طول ممتلكاتهم الواسعة وعرضها، ولهذا الغرض بنوا استراحات، لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسمائة أو ستمائة ميل، وزودت كل منها دائماً بأربعين من الجياد. وبفضل هذه المراحل أو المحطات سهل السفر على مسافة ميل في اليوم على هذه الطرق الرومانية.

وكان استعمال البريد مرخصاً به، لمن يحمل أمراً إمبراطورياً بذلك، وكان البريد في الأصل مقصوراً على الخدمات العامة، ولكنه رغم ذلك كان يستخدم أحياناً لخدمة الناس أو قضاء حاجاتهم، ولم تكن المواصلات البحرية أقل حرية وانطلاقاً من المواصلات البرية.

وجد طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، **أحدهما:** هو الأقدم والأقصر، وهو الذي استخدمته القوافل في عبور الصحارى الكبرى كآسيا الوسطى. فبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصفد، تبلغ إلى ورد الفارسية ومنها إلى تعنين. أما **الطريق الثاني:** فهو طريق بحري. وكانت جزيرة سيلان (سرنديب)هي السوق المركزية، التي يرد إليها الحرير والقطن والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الصين الشرقية. وفي سيلان اتخذت التجارة إلى الفرس طريقين بحريين: **الأول** وهو أهمها: كان يتخذ طريق الخليج الفارسي إلى أقصى دجلة والفرات إلى الأسواق الكبيرة بالحيرة، **والطريق الثاني:** كان يدور حول بلاد العرب، ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانئ اليمن على شاطئه الشرقي، ومرافئ الحبشة أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج كالقلزم وأبله. علماً أنه لم يقم بزيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل.

ومعظم التجارة العالمية كانت في أيدي الفرس، حيث كانوا يسيطرون على أسواق سيلان، ويتمتعون بامتيازات خاصة، وكان الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر. أما تجارة الحرير بأكملها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها. واقتصر استيراد الحرير على ثلاث مدن على الحدود هي: كالينكوم، ونصيبين بالجزيرة وارتاكساتا بأرمينية، وفرضت عقوبات صارمة على تهريب الحرير، وحدد القانون ثمن الحرير الذي كان يتولى شراءه موظفون من قبل الدولة، بينما تقرر في الطرف الآخر من الرحلة وضع حدٍ أعلى على الأثمان من المنتجات المصنوعة في صور وبيروت، ومع ذلك كانت فارس ترفض البيع بالسعر المعروض، فتعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب.

ثالثاً ـ الصناعة:

من المعلوم أن أهم الصناعات السورية في عصر السلوقيين كانت صناعة الزجاج[1] والحرير والأصباغ وصناعة السفن، وصناعة التعدين، بالإضافة إلى صناعة العجلات الحربية وأدوات القتال وصناعة النسيج والأثاث والأواني والحلي والأحذية وغيرها وصناعة النبيذ.

إذاً امتازت سورية نتيجة الحروب المتواصلة للدولة السلوقية بصناعة السفن ومختلف أنواع الأسلحة (تاريخ أنطاكية).

كما كانت صناعة النبيذ من أهم الصناعات القديمة المنتشرة في سورية، نتيجة انتشار زراعة العنب، وقامت مراكز لصناعة النبيذ، لكن كان أجود أنواع النبيذ في الدولة السلوقية هو من إنتاج اللاذقية، وكان مطلوباً أكثر من غيره. وهذا يعتمد: على أن نوعية العنب وطريقة استخراجه كانا السبب في الإقبال، الذي كان يتزايد في الدولة عليه.

وكانت صناعة الزيت متطورة في سورية، نتيجة وفرة محصول الزيتون وجودة صنعه، كما ازدهرت صناعة الأواني الفخارية للحاجة الماسة لها لتعبئة النبيذ والزيوت، وامتازت سورية بصناعة الزجاج، وخاصة مدن الساحل السوري، حيث تم إنتاج أنواع كثيرة من أصناف ممتازة من المصنوعات الزجاجية مثل الكؤوس والأطباق والحلي الزجاجية، وكذلك اشتهرت مدينة صيدا، وآلت إليها الصدارة في صناعة الزجاج، وخاصة المطعّم منه بالذهب، وكانت المدن السورية تصدّر الزجاج. أما صناعة النسيج فقد انتشرت في سورية خلال العصر السلوقي، حيث مواد صناعتها كالكتان والصوف والحرير.

صناعة الحرير:

أقدم النصوص الصينية، التي وصلتنا أيضاً عن الحرير تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وكان الحرير لباس الأباطرة وأسرهم وكبار رجال بلاطهم، حتى تعدى الأسر الحاكمة في أنحاء الصين. عند ذلك انتشر استعمال الحرير في القصور ولدى الخواص، وطرأت عليه تحسينات منها: السهر على تربية الدود في جو محدد الحرارة، ومنها تغذية الدود بورق شجر التوت. وأخيراً خنق الدود في الشرنقة قبل أن يقوم بثقبها حفاظاً على سلامة خيوطها من التلف، «وكانت الخلع

---

[1] مفيد رائق العابد: سورية في عصر السلوقيين ـ ص٢٦٦.

والمكافآت في القرن الثاني قبل الميلاد تجعلان من الحرير مادة هامة، وتحل أحياناً هذه المادة النفيسة مكان العملة، يقايض الناس بها بعضهم بعضاً في أعمالهم التجارية [1]».

بعد ذلك تمكنت أسرة الهات الأولى من استعادة سلطتها في الصين، في هذه المرحلة كانت حدود الصين الشمالية تتعرض لخطر الشعوب المعروفة بالهوت. فسعى الإمبراطور الصيني لتخفيف هذا الضغط، فأرسل بعثة إلى شعوب اليونشي النازلة شمال بطاح بامير، ساعياً لخلق جبهة ثانية على الحدود لإبعاد شرهم، وعادت البعثة بعد سنين غير موفقة بمهمتها السياسية، إنما رجعت مزودة بمعلومات، عما اجتازته من أقطار وبلدان، وأهمها دولة الفرس المعروفة لدى الصينيين ببلاد نجاتي، ثم جرى اتصال بين الدولتين، وتمتنت العلاقات، وخاصة التجارية، فسارت القوافل من الصين محملة بالحرير إلى فارس.

وصراع الاسكندر مع الفرس فتح علاقات بين الشرق والغرب، وتابع سياسته كل من السلوقيين والرومان بعد بومبي، ففي سنة (٥٣ ق.م) تلاحم الفرس والرومان قرب حران، وقتل القائد الروماني كراسوس. أثناء ذلك نشر الفرس راياتهم الحريرية، فبهر الرومان. بعد ذلك تمكن يوليوس قيصر من بعث هيبة دولته في الشرق، وعاد منها بجرائر، نشرها فوق الرؤوس في حفلات النصر، التي أقامها في روما. بعد ذلك بقي استعمال الحرير نادراً. وخاصة عندما اعترى دولة الهان الصينية الوهن والضعف. وتضرر وصول الحرير إلى فارس، فندر وجوده في الغرب، وانتقلت طرق القوافل إلى وسط آسيا.

نتيجة ذلك سعت تجارة الحرير إلى إيجاد طرق أخرى، حيث كانت المراكب تجتاز الهند، ومنها تدور حول شبه الجزيرة العربية، فتلقي مراسيها في برنييس على شاطئ البحر الأحمر أو السواحل العربية، واحتكر العرب أثناء ذلك نقله في البحر الأحمر، وتولى الأنباط نقل السلع من الجزيرة العربية إلى البتراء والشواطئ السورية، وكان ينقل الحرير في عهد أغسطس قيصر من أنطاكية وصور والإسكندرية إلى روما. حيث يباع فيها بأسعار باهظة، فكان رد الفعل لدى مجلس الشيوخ قوياً، ورأى في لبس الحرير مساساً بالرجولة، فنهى الرجال عن ارتدائه بقرار، أصدره أغسطس في السنة الرابعة عشرة للميلاد، بينما سمح للنساء بذلك، واستمرت الأمور على ذلك حتى أواخر القرن الأول الميلادي.

---

[1] الأمير موريس شهاب: دور لبنان في تاريخ الحرير - طبع بيروت ١٩٦٨ - ص٩.

خلال هذه المرحلة كان العالم يسيطر عليه أربعة دول، هي: دولة الهان الثانية الصينية، دولة الرومان، دولة الملوك القاشانيين، ودولة الفرس، حيث قامت دولة الفرس بصلة وصل بين هذه الدول، هدفها احتكار تجارة الحرير، ففرض تجارها أسعارهم الباهظة.

حاول الروم التهرب من وساطة الفرس والاتصال مباشرة مع الصين والتجارة معها. في القرن الثاني الميلادي كان يوجد طريقان، الأول: بحري، والثاني: بري، ففي سنة (١٦٦م) سعى الإمبراطور الروماني للاتصال بالصين عن طريق البحر، فأرسل بعثة لمقابلة إمبراطور الصين، أما الطريق البري: فكانت القوافل تخرج من الصين مجتازة حدود الدول الكبرى، يحرسها عدد من المسلحين، مجتازة ممرات جبل بامير وهند وكوش إلى بلاد بختيار، ومنها يتجه فرع إلى الغرب عبر بلاد العجم وبلاد ما بين النهرين، وفرع آخر يعبر وادي السند نحو مرفأ بربريكوت، ومن هذا المرفأ كان الحرير ينقل إلى مصب دجلة ومنه إلى تدمر وإلى صور أو إلى أنطاكية.

كان الحرير الصيني يصل إلى الشواطئ الفينيقية بشكل خيوط أو نسائج، وكان الحرير الصيني أجود أصناف الحرير، والفينيقيون ينتجون أجمل الأرجوان لصبغه، وكان يعمل صناع ماهرون في هذه المهنة في صور وصيدا. ولعب أهل تدمر دوراً هاماً في نقل الحرير من العراق إلى الموانئ السورية. ولذلك كانت العلاقة المتميزة بين تدمر وصور، حيث ذكر: أنهما ناصرتا الإمبراطور الروماني سبتيموس سقيروس في أواخر القرن الثاني، فأنعم على كل منهما بلقب: الجالية الرومانية. وكان أكثر تجار الحرير في روما من السوريين واللبنانيين، وكان لهم سوقٌ خاصٌ. وبقي الحرير طوال القرنين الأول والثاني الميلاديين يعد من أدوات الترف.

في عهد الإمبراطور الروماني (لايوكلسيانوس)، وقع هذا الإمبراطور مع الشاه (تريس) اتفاقية، جعلت من ثغر نصيبين الجمرك الوحيد، الذي يسمح ولوج الحرير منه إلى العالم الروماني. وفرض عليه مكوساً وضرائباً. وعندما سيطر الأكاسرة على السلطة الفارسية، وسعوا دولتهم، وبذلك سيطروا على طرق تجارة الحرير، وعندما غزا الفرس سورية سنة (٣٦٠م) نُقل إلى شوشة عدد من المعلمين لصناعة الحرير، فنهضت هذه الصناعة في شوشة، حيث كانت المواد الأولية تنقل إليها من الهند.

بعد بناء القسطنطينية راج استعمال الحرير، وطغى استعماله على الأبنية الدينية، ولبست به المذابح والهياكل، وارتداه رجال الدين، كما استعمل عند أبناء الطبقة العالية أكفاناً. واستخدم

الحرير كخلع في الحفلات الرسمية. ولقد ساهم السوريون بنسج الحرير وتصديره.

في سنة (٤٠٩م) وقع اتفاق بين شاه إيران يزدجرد الأول والأباطرة الرومان (هونوريسو + تيودوسيوس الثاني)، أضيفت بموجبه إلى نصيبين ثغور الرقة، وارتكسه عند نهر الاراكس، وعقد اتفاق جديد سنة (٥٦٢م) بين الإمبراطور جوستنيان، وكسرى أنوشروان، فأضيفت مدينة دار إلى الثغور السابقة، واستأثرت السلطة الرومانية بالحرير، فأثر ذلك على مصانعه في كل من بيروت وصيدا وصور، وارتفعت أسعاره، وزادت التعرفة الجمركية، فأثر على مصانع الحرير في المراكز السابقة في سورية، وهجرها معلمو الصنعة متجهين إلى بلاد فارس.

نتيجة هذه الظروف سعى الرومان إلى إنتاج الحرير في بلادهم. في هذه المرحلة انتقلت دودة القز إلى بلاد الخوطان عن طريق أميرة صينية خطبها أمير هذه البلاد، وذلك بأن دست بين شعرها بعض بذور دودة القز، وعندما اشتدت أزمة الحرير في روما، كلف الإمبراطور جوستنيان راهبين بإحضار بعض بذور القز في سنة (٥٥٣م)، وتمكنا من إحضارها في جوف عصيهما. بعد ذلك أنتج الحرير في بيزنطة، ثم انتقلت هذه البذرة إلى سورية ولبنان، وتم تربيتها بظروف حسنة، فاستعادت بذلك مجدها وأهميتها في صناعة الحرير.

أثّر الرخاء الروماني على تطور الصناعة، حيث تطورت صناعة الآلات الزراعية ومعداتها وصناعة الأسلحة الحربية، كما شهدت صناعة الفخار تطوراً واضحاً نتيجة تطور زراعة الزيتون وأشجار الكرمة والإنتاج المتزايد من صناعة الزيت والنبيذ، وقد ساعدت الظروف على انتعاشها ورواجها. كما تطورت صناعة الأدوات الفخارية المصنوعة من الطين، والتي كانت تستخدم كأوعية لوضع جميع أنواع السوائل.

وكانت الولايات الرومانية الشرقية مناطق الإنتاج الصناعي، على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام، وكانت مصر والمدن السورية كدمشق وأنطاكية تصدّر البطاطين والبسط والسجاد ونسيج الكتان وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج الرخيص منه والنفيس والجواهر والعطور وأدوات الزينة، وأكد على تطور الصناعة ظهور المصانع ذات الحجم الضخم مثل مركز صنع الخزف والزجاج، ومع ذلك كان القرنان الأول والثاني قد شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب، وأخذت الثروات تتكدس، ورغبة في تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة، فقد تزايدت هجرة السوريين والمصريين إلى الغرب، ليمارسوا مهاراتهم كأطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين

وصاغة. وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان[1]، وكـانوا ينتشرون في كـل أرجاء أوربا مغامرين، أفراداً أو مجتمعات من التجار، أو يوجدون بمدن إفريقية أو إسبانية، ويشتد تزاحمهم على امتداد طرق التجارة، وكانوا يواصلون حركتهم المربحة، أينما أتيح لهم ذلك.

شـهدت الدولـة الرومانيـة تغـيرات في مجـال الصناعـة. فـازدهرت الحـرف المتصلـة بالبنـاء، وتطورت صناعة الآنية الفخارية والآنية البرونزية، وصناعة الأثاث والعطور، بالإضافة إلى الصناعات الغذائية.

أخيراً كانت مصر وسورية خلايا عاملة تعج بالصناعة الناشطة، وكـان البحر المتوسط من أدناه إلى أقصاه يعج بسفن التجار، التي تجلب كل غريب وعجيب... إلى موانئ أوربا[2].

الحـرفـة:

أكدت الوثائق وجود دوائـر واسـعة بمختلـف فـروع الصناعـات الحرفيـة، وصناعـة الفخـار والنسيج وصناعة الألبسة وصناعة الأحذية ومعالجة المعادن والبناء والنحت وصناعة الزجاج والخمـر وصناعة السفن وصناعة الأسلحة وغير ذلك.

فمثلاً كان للمدن الفينيقية تقاليد عريقة في عالم الصناعات الحرفية، تعود بجذورها إلى ما قبل اليونان، وحافظت هذه المدن على هذا التقليد، واستمرت كمراكـز كبـيرة لهـذه الصناعـات. فـأهل صيدا استفادوا من تجربة وشهرة أسلافهم الذين كانوا أسياداً لعدد كبـير مـن الحـرف، وذوي قـدرة على تطور مصنوعاتهم.

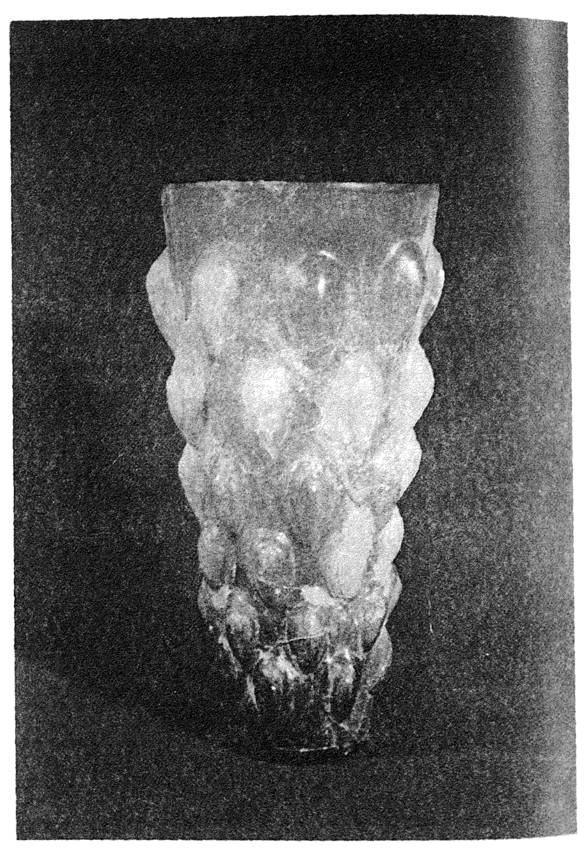
وصناعة الحرير كانت منتشـرة انتشـاراً واسـعاً في المدن الفينيقية. فمثلاً صناعة الأقمشـة الحريرية في صيـدا، واشـتهرت جبيـل وصـور بصناعـة الكتـان، واشـتهرت المـدن الفينيقيـة بصناعـة الأحذية، حيث قدر ثمن زوج الأحذيـة بسـتين دينـاراً، كمـا اشـتهرت هـذه المـدن بصناعـة الجلـود ودباغتها.

وامتازت المدن الفينيقية ـ كما هو معروف ـ في بناء السفن. تلك الصناعة العريقة والراسخة. كما اشتهرت المدن الفينيقية بصناعة الدمقس وصباغة الصـوف. فكـان دمقـس صـور مـن أجودهـا

---

(1) هـ ـ موسى: ميلاد العصور الوسطى ـ طبع القاهرة ١٩٦٧ ـ ص١٦.

(2) المرجع نفسه، ص١٦.



كأس من الزجاج من العهد الروماني (القرن ٢ ق.م)
متحف دمشق الوطني

وأغلاها ثمناً. كما امتازت هذه المدن بصناعة الزجاج والخزف، وكانت هذه الصناعات تصدر إلى كافة دول حوض المتوسط وحتى إلى خارجها في بعض الأحيان.

إذاً كان الإنتاج الحرفي في المدن الفينيقية منقسماً. إلا أن بعضه لم يكن يتطلب تجميع العمال، أي أن بعض الورش لم يكن يعمل بها سوى صاحبها. أما بعض الحرف الأخرى فكانت تحتاج إلى عدد من العمال، مثل ورشة بناء السفن مثلاً، وكانت دمشق مركزاً حرفياً هاماً لصناعة السجاد الدمشقي، الذي كانت له شهرة خاصة، وسعره لم يكن ثابتاً، بل كان يحدده وزن الصوف وحجم العمل.

وفي تدمر وجدت صناعة الأحذية ومحلات بيعها، كما وجد هناك استخراج الملح وصناعته، كما كان فن النحت في تدمر متطوراً. وجدت في تدمر صناعة الذهب والفضة والصناعات الفخارية المحلية بالإضافة إلى صناعة تقطيع الأحجار.

أخيراً: لقد شغلت الحرفة حيزاً هاماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدن السورية، حيث كانت مدينة اللاذقية مشهورة بصناعة الكتان والصناعات الحريرية والصوفية، كما كانت هذه المدينة تصدر مختلف أنواع الألبسة، كما مارس حرفيو بيروت حرفة تصنيع البرونز والتعامل مع حجر المرمر، ومارست المدن السورية الأخرى صناعة المصابيح، وحرفة دهان المصنوعات الفخارية وغير ذلك. إن ممارسة الحرف كانت تمنع صاحبها من الاشتراك في أجهزة السلطة. أي أن ممارسة المهن كانت تدل على وضع اجتماعي وضيع نسبياً. والحرفة كان يتم اختيارها على أساس ميل الشخص، الذي يستعملها، وكانت الموهبة والرغبة الضمان الأكيد لتحقيق المهمة.

وفي المدن السورية كانت توجد اتحادات حرفية، قامت على أساس ممارسة الحرفة الواحدة، وهذه الجماعات الحرفية كانت تتجمع حول إله واحد، وكان يقف على رأس كل جماعة شخص، يحمل لقب: عظيم أو رئيس، وكان اتحادهم على أساس الحرفة، التي يمارسونها، ورئيس الجماعة لا يبقى في منصبه لأكثر من سنة، وكانت واجباته التنجيم وتأمين الخمرة للكهنة، وكان لرئيس الجماعة مساعد يقوم بوظيفة السكرتير، وهناك رئيس المطبخ، ومثل هذه الجماعات الدينية كانت في مدن سورية قبل اليونان، حيث تؤكد الوثائق أنها كانت موجودة في أوغاريت.

هذا ويذكر: أن بعض هذه الجماعات قد تحول إلى قوة سياسية هامة، على سبيل المثال جماعة كهنة إيبلا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. حيث حاولت عائلة أذينة وزبيدة وزنوبيا الاعتماد عليهم لتقوية نفوذها السياسي بالاعتماد على الأشخاص الملتفين حول الجماعة المذكورة.

الفصل الرابع

حالة بلاد الشام

من خلال المدن

- أولاً : مدينة أنطاكية.
- ثانياً : اللاذقية.
- ثالثاً : أفاميا.
- رابعاً : بيروت.
- خامساً: طرابلس.
- سادساً: حمص.
- سابعاً : حوران.
- ثامناً : بصرى.
- تاسعاً : الرقة.

حالة بلاد الشام العامة

من خلال المدن

كان من جراء الاستعمار المقدوني لبلاد الشام إنشاء عدد من المدن فيها. وكان السبب في ذلك الأزمة الاجتماعية، التي اجتاحت اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، والتي أدت إلى حرمان المنتجين الأحرار من ملكية الأرض، حيث نلاحظ بعد فتوحات الاسكندر الأكبر تدفق هجرات واسعة على سورية وهذا بدوره شكل القاعدة المادية، التي قامت عليها الدولة الإغريقية.

عندما كان ملوك السلوقيين يؤسسون المدن، تدخل تحت سلطتهم، فتصبح سنداً لهم في صراعهم مع خصومهم. كما أن بناء هذه المدن كان يهدف إلى ترسيخ سلطة المحتل، وبسط سيطرته على المنطقة، التي احتلها، وكان سلوقس الأول النموذج المثالي في هذا الميدان. والمدن اليونانية في بلاد الشام بنيت مكان مدن أو قرى، كانت موجودة قبلها، فأنطاكية شيدت في مكان قرية، كانت تدعى (بوتيا)، وأفاميا في مكان قرية، تدعى (فرناقة)، واللاذقية مكان قرية راميتا وقيل: مزابدة.... الخ.

ومعلوماتنا عن القرى، التي أقيمت على أنقاضها المدن الإغريقية قليلة، إلا أننا نفترض أن سكان هذه القرى كان قد تم ضمهم إلى التنظيم السكاني الجديد بعد بناء المدن، وإن البناء ضم أيضاً البناء القديم للقرية أو المدينة القديمة، ومن ثم تم توسيعها، أو أن يكون قد تم تدميرها وطرد سكانها، والرأي الأخير هو الأرجح، كما أعتقد، لأن المدن اليونانية الجديدة في بلاد الشام كانت مدناً مغلقة، وإذا وجد سكانها القدماء الأصليون، فهم يدخلون في عداد مواطنيها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أراضيهم كانت قد سلبت منهم. وبناء هذه المدن تم وفق نموذج واحد، إذا سمحت الظروف الجغرافية بذلك، أو نماذج قريبة الشبه من بعضها كما في بناء مدينة اللاذقية وأنطاكية.

وبناء المدن كان قد خطط له على مستوى شامل وواسع، وبشكل دقيق للغاية. علماً أن بناء المدن في بلاد الشام لم يكن وقفاً على اليونانيين، إنما كان هناك حركة مماثلة، قادها حكام المدن قبل ذلك، وكانت هذه المدن تقام في مواقع استراتيجية، وتحاط بأسوار، وبني بها ملاجئ، وتتضمن حامية، يقودها قائد عسكري يوناني.

أما عن العلاقات الزراعية ضمن حدود هذه المدن، فتبرز بكل وضوح سيطرة الملكية. وأن هذه المدن كانت مركزاً مهماً للإنتاج الحرفي، ومع ذلك فالمعلومات عن هذه الأمور قليلة. ومع ذلك يمكننا القول إن صناعة السفن بقيت متطورة في المدن الفينيقية، كما أن حرفة البناء كانت منتشرة في كل مكان من بلاد الشام.

فعمليات البناء كانت تقوم بها جماعات وأشخاص لصالحهم، فمثلاً كانت جماعة آلهة البحر البيروتيين، كما يذكر شيفمان، عبارة عن اتحاد حرفي في طابع ديني، يضم أشخاصاً مرتبطين بهذا الشكل أو ذاك بالتجارة البحرية. وكان يدعم هذا الاتحاد قادة من الكهنة، وكان يحق للقائد أن يبقى في منصبه عدة مرات، وكان الاتحاد يملك مخصصاته المالية، ويتخذ القرارات المناسبة. كما كان هناك اتحاد للصوريين، الذين يعظمون هرقل، وكان يدخل في عداد وظائف هذا الاتحاد وظيفتان: هما أمين الخزنة والسكرتير، وهما المسؤولان عن تنفيذ قرارات الاتحاد. كما كان يوجد اختصاصيون بفن النحت، وفي تحضير النقوش، وصناعة الفخار، وصناعة الزجاج، وغيرها من الصناعات. كما لعبت المدن الفينيقية دوراً بارزاً في التجارة الدولية.

وعن العلاقات الخارجية كان لمدن بلاد الشام علاقات قوية ووثيقة مع ديلوس، وكان للسوريين دورٌ هامٌ في ديلوس، أي أنه كان يوجد مجموعة من السوريين في ديلوس يتمتعون بحقوق المواطنة، كما كان يوجد جماعة من صيدا في أثينا خلال الفترة الأولى قبل الميلاد، كما كان لصور دور واضح في هذه العلاقات الخارجية، وخاصة مع اليونان وآسيا الصغرى، حيث كان يعترف بالصوريين على أنهم هلنستيون. كما وجدت جمعية حرفية في بيريه، تعود إلى عام (١٠٣م)، تضم بين صفوفها سبعة عشر اسماً، بعضهم من أنطاكية، وبعضهم من أفاميا، وآخرون من اللاذقية. وفي أثينا كان يقود الجماعات الحرفية رجل من أنطاكية.

كما كان لبلاد الشام علاقات تجارية تقليدية مع مصر قبل العصر اليوناني، وكان القمح في طليعة الصادرات السورية إليها، كما صدرت إليها بضائع أخرى مثل السمن والزيت والخمر

والعسل والجبن واللحوم وأنواع أخرى. كما كان يشحن إلى مصر بضائع عبر سورية، وصدرت سورية الحبوب إلى غالية.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد وجد في سورية مجموعة من الناس، أكثرهم من السكان الأصليين، كانوا لا يملكون شيئاً، مما أجبرهم على العمل لحساب الآخرين تجنباً للحاجة. أما التنظيم الداخلي للمدينة السورية في العصر اليوناني، فإن منح حق المواطنة في مدينة ما، كان يتم بموجب مرسوم، يصدره الإجماع الشعبي، وكان يوجد في المدن مجلس الشيوخ، وهو منظمة احتماعية ومجالس أخرى شعبية.

وكان الموظفون في مدن بلاد الشام يشاركون في شراء حق تعهد الضرائب وخاصة من البطالمة، عندما كانت سورية تخضع لسلطتهم. ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد بدأت هلنسة جهاز الإدارة في المدن الفينيقية. وبذلك ترافقت مع القضاء على سلطة الملك. علماً أن الغموض كان ما يزال يشوب طابع العلاقات التي كانت قائمة بين سلطة الملك والمدن، وكان يعتقد: أن هذه العلاقات لم تكن مستقرة.

لكن حال المدن كان يتحدد مباشرة من قبل الملك، كما يقول شيفمان بأمر صادر منه إلى موظفيه المختصين، إذاً كان الأمر يتعلق بأرض محتلة، وأما بعد الاتفاق مع ممثلي المدينة على التحالف مع الملك أو بعقد قائم على أساس ضمانات دولية، ففي الحالتين الأخريين تكون المدينة وحدة سياسية، لها علاقة معينة مع الملك، وليست جزءاً، لا يتجزأ من الدولة.

ومع ذلك فالمفترض أن تكون سلطة الملك مطلقة على المدينة. إلا أنه لا يستطيع أن يتصرف مباشرة بالقطاعات، التي تدخل في صلاحيات المدينة، ولكنه يستطيع أن يقترح على سلطات المدينة اتخاذ هذا القرار أو ذاك. لكن حق القرار يعود لهذه السلطات فقط. إذاً فالعلاقات بين الملك والمدينة كانت مبنية، كما يبدو، على نمط أية علاقة دبلوماسية أخرى قائمة بين طرفين مستقلين شكلياً، والمدن التي تكون خاضعة للملك تستطيع أن تعقد فيما بينها تحالفات، كما كان باستطاعتها إقامة علاقات دبلوماسية مع مدن أخرى غير خاضعة للملك نفسه ومن دون الرجوع إليه.

وكان لكل مدينة ممثل للملك. فمثلاً عندما منح حق المواطنة في مدينة، كان الاقتراح يقدم من قبل ممثل الملك، ومن أعضاء المجلس إلى الاجتماع الشعبي، ويتدخل ممثلو الملك في الأمور الضرورية والهامة، أي أن مشاركة ممثلي الملك في اتخاذ قرارات سلطات المدينة كانت ضرورية.

ولكن لم يكن بالإمكان إهمـال رأيه عنـد حـل أي مشـكلة مـن مشـاكل المدينـة، أي أنـه لم يكـن باستطاعة هؤلاء الممثلين تجاوز سلطات المدينة عند اتخاذ أي قرار خاص بها.

واقتراحات الملك للمدينة كانت تصاغ على شكل تمنيات، و لم تكن بصفة الأمر، لكن سلطة الملك على المدينة كانت تتجلى في الضرائب ومختلف أنواع الأتاوات. أما أنواع الواردات الآتية مـن الضرائب فهي من الأرض من الملكيـات الخاصـة الواقعـة ضمـن حـدود الوحـدة السياسـية الإداريـة المعينة، ومن إدخال وإخراج السلع، ومن التعريفات، ومن ضرائب القطيع. أما الأتاوة، فهي المترتبـة على كل فرد، والضرائب يدفعها الحرفيون.

إذاً تصنف الضرائب في أواخر العهـد اليونـاني إلى ضرائـب عـن الأرض، قسـم مـن البـذار، محصول المنتجات الحقلية، الضرائب المترتبـة على ممارسـة الحـرف، الضرائـب المترتبـة علـى النشـاط التجاري واستخراج الملح، وعلى استخراج الخمور. وبهذا يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات:

١ـ الضرائب المترتبة على مختلف النشاطات الإنتاجيـة. ٢ـ الضرائـب المترتبـة علـى الأربـاح التجارية. ٣ـ الضرائب الخارجة على ما ورد. وأخيراً جباية الضرائب كانت تتم بواسطة المتعهديـن، أو عن طريق موظفي الملك. إن تاريخ سورية البعيد في القدم، يضم مدناً كبيرة وصغيرة حية ومندثرة والتي لا يعرف لها تاريخ، لأنها قبل التاريخ (كدمشق).

إذاً تعدّ سورية الطبيعية مهد التجارب الأولى لتأسيس مدن وقرى، لا تنظيم فيها، وفيها نرى ما وصل إليه الفكر البشري من رقي العمران بوضع مخططات مستديرة الشكل ومخططـات منتظمـة، ومخططات ذات شارعين رئيسيين متعامدين.

وقد امتاز العصر الهلنسـتي والرومـاني بجهـود كبـيرة في تحديـد انتشـار المـدن وتنظيمهـا. إذاً شهدت سورية في هـذه المرحلـة نهضـة عمرانيـة واسـعة النطـاق، مـن تلـك المـدن: الاسـكندرونة، والسويدية، وأنطاكية، وأفاميا، واللاذقيـة، وبيروبـا (حلـب)، ودورا اوريـوس (الصالحيـة). ومدينـة زنوبيا، التي أقامتها ملكة تدمر على الفرات. والدافـع الحقيقـي. الـذي يكمـن وراء بنـاء المـدن منـذ البداية هو تحقيق السلام والقضاء على الحروب. وخلق حضارة جديدة يساهم فيها الجميع، كمـا أن من أهداف بناء المدن تمكين الحكام المسيطرين من إدارة البلاد والسيطرة عليها.

أما اختيار بناء المدن فكان يتم وفق مواصفات منهـا (المكـان). لأن اختيـار المكـان كـان لـه أهميـة كـبرى في مستقبل المدينـة وحمايتهـا. لذلـك كـانوا يختـارون الهضـاب، وضفـــاف الأنهـــار

كأنطاكية، والواحات والساحل البحري كاللاذقية والسويدية، وقرب الغابات كدفنة، وعلى الطرق التجارية كحرش وتدمر وبتراء وجوار الينابيع. وعند تخطيط المدن كان لا بد من الاهتمام بأبوابها، لأن لهذه الأبواب أهدافاً منها: أنها كانت أحد عناصر تجميل المدينة وحسن تحصينها، ويختلف عدد الأبواب من مدينة إلى أخرى. فمثلاً في اللاذقية كان الباب الشرقي الوحيد في هذه الجهة، حيث كان يؤدي إلى الشارع الرئيسي، الذي يجتاز المدينة من الشرق إلى الغرب، ولها باب آخر هو الباب الشمالي، يقع في نهايته الشارع، الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب.

وبعد إنشاء المدينة كانت تقام حفلة للتدشين، فمثلاً بعد إنشاء مدينة أنطاكية جرى حفل تدشين بحضور جمهور غفير، يتقدمه سلوقس نيكاتور ورجال الدين، وحملة السلاح، وفتاة جميلة جداً، تهيأ لتكون الأضحية، لأن العادات كانت تتطلب أضحية فتاة عذراء لضمان حماية الآلهة، وكان لكل مدينة سور، يساهم مع موقع المدينة الحصين على الصمود أمام غزو المعتدين، وكان لطبيعة الأرض أهميتها وتأثيرها على شكل السور، من ذلك كان السور يأخذ شكل مخمس الأضلاع كما في دورا (الصالحية) وشبه المنحرف في أفاميا (قلعة المضيق) واللاذقية، ومربع في بيروبا (حلب)، ومستطيل في دمشق. وتتفاوت سماكة السور بين (١,٨٠م) وأربعة وستة أمتار كما في دورا (الصالحية). أما المواد المستعملة في إشادة الأسوار فكانت الحجارة الكبيرة. ومعظم المدن كانت تضم قلعة، من مهامها الرئيسية زيادة قوة المدينة الدفاعية، فهي تحتل منطقة عالية، لها أهميتها الدفاعية، وتسمح بالإشراف والسيطرة على المدينة أو الطريق أو النهر. والقلعة غالباً ما تكون ملتصقة بالسور نفسه أو محاطة بخندق.

وعند إنشاء المدن كان الاهتمام ينصب على تأمين حركة السير في كافة أرجاء المدينة، فالشوارع كانت متوازية ومتقاطعة، تجتاز المدينة من أقصاها إلى أقصاها، بالإضافة إلى تفرعات متعددة، تتصل بالشوارع الرئيسية. أما عرض هذه الشوارع فكان يختلف من ثلاثة إلى تسعة أمتار. والشوارع الرئيسية كان يراعى في إنشائها الجهات الأصلية، وبعض الشوارع الرئيسية في المدن كانت تمتاز بالأروقة التي تقع على جانبيها، والشوارع المستقيمة الرئيسية عند تقاطعها مع بعضها بعضاً تؤلف جزراً سكنية متساوية المخططات، تفصلها الطرق والشوارع، وأبعادها مثلاً في اللاذقية تبلغ (١١٢ - ٥٧م) وفي أنطاكية (١١٢ - ٥٨م)، وفي دمشق (١٠٠ × ٤٥م)، وفي حلب (١٢٠ × ٤٦م) وفي دورا (١٠٠ × ٤٠م) وكل جزيرة مكونة من بيتين.

شهدت المدن السورية عنصراً جديداً في تنظيم المدن هو أقواس كانت توضع داخل المدينة

عند ملتقى الطرق، فمثلاً مدينة اللاذقية مازالت تحتفظ بأحد الأقواس. كما زودت المـدن بساحات عامة (الأكورا)، لأن نشاط المدينة يتمركز حول الساحة العامة. بذلك تكون الساحات العامـة هي المركز الحيوي للمدينة. وللساحات وظائف هامة منها: أنها كانت بمنزلة سوق عـام للتجـارة، كما كانت مكاناً للنزهة، يتلاقى فيها السكان. وعندما ظهرت الأروقة، حلت محل السـاحات بعمليات التجارة. فباحات المعابد والقصور لم تكن سوى ساحات عامة. فمثلاً باحة معبـد جبيـل (بيلـوس) المحاطة برواق، وساحة رأس شمرا الواقعة في حي التجار، وباحات ماري، كل ذلك خـير مثـال على ما ورد. علماً أن مساحة الساحات العامة كانت تختلف من مدينة إلى أخـرى. فمثـلاً تبلـغ مسـاحة ساحة دمشق المقابلة لمعبد حدد ثماني حزر، وساحة حلـب تبلـغ ثـلاث حـزر، وسـاحة مدينـة دورا اوريوس ثماني حزر.

والأسواق تقام بادئ الأمر في الأمكنة التي يكثر فيها تجمع الناس، أي قرب المعابد والقصـور وخاصة في الساحات العامة. لكن عندما انتشرت الأروقة أخذت تحل محـل الأسـواق كمـا ذكرنـا. كما ضمت المدن السورية المعابد التي كانت تعدّ من أهـم المبـاني، وضمـت المـدن أيضـاً المسـارح، والملاعب وأماكن السباق والقصور. واهتم عند انتشار المـدن بتزويدهـا بالميـاه، إضافـة إلى تجميلهـا بالحدائق.

وبعد عام (٦٤ ق.م) دخلت سورية تحت سلطة الرومان، في هذه المرحلة كانت سورية قـد وصلت إلى درجة مرموقة في بناء المدن وتنظيمها، حتى أن الرومان كانوا قـد اعـترفوا بعبقريـة الفـن المعماري السوري ورواده. يؤكد ذلك: أن الإمبراطور الروماني تراجـان، كـان قـد اختـار المهنـدس السوري (أبولدور الدمشقي)، عندما رغب أن يؤسـس سـاحة (فـوروم) في رومـا عاصمـة الدولـة، وكلف نفسه ببناء جسر على الدانوب.

إن النشاط العمراني في العصر الروماني يتمثل في بنـاء المعسـكرات وتأسيس أحيـاء جديـدة مجاورة للمدن القديمة. لقد بنى الرومان المعسكرات الدائمة على طول الحدود، وتختلف مساحة هذه المعسكرات بحسب أهمية موقعها. والمعسكرات الكبيرة تبعد عن بعضهـا بعضـاً مسـافة (٤٥ كـم). أما المسافة بين المعسكرات الصغيرة فتبعد عن بعضها بعضاً بحدود (١٥ كم). وبناء المعسكرات كان صورة مصغرة عن بناء المدن وتنظيمها.

وبذلك نشاهد أن بعض هذه المعسكرات مع الأيام كانت قـد تحولـت إلى مـدن، مـن ذلـك

(الضمير، الرصافة، الرقة)، ومعسكرات أخرى بنيت، لكن ليست على الحدود، مثل معسكر دورا أوروبوس، الذي يعود إلى زمن تراجان، ومعسكر بصرى، ومعسكر آخر في تدمر (معسكر ديلوكليسيان). وعند اختيار المعسكرات كان يراعى في موقعها أن تكون استراتيجية، وعند تخطيط المعسكرات كانت تخطط بشكل مربع. كما احتوت كل مدينة تقريباً على قلعة، وأسوارٍ، لها أبراج وأروقة، تحيط بالشوارع الرئيسية، وأقواس، وساحات، وسوق، ومسرح، وحمامات، ومعابد، وملاعب. وغير ذلك كما لاحظنا سابقاً.

يذكر: أن تعداد سكان أنطاكية وكذلك أفاميا لم يتجاوز في أواخر القرن الأول الميلادي مئتي ألف نسمة، وقد يكون هذا العدد الوسطي لسكان المدن السورية الكبرى، ويعتقد أن هذا العدد يشمل سكان المدن الأحرار فقط، أي أنه كان لا يشمل العبيد، الذين لا يتمتعون بحقوق المواطنة.

أما الوحدات الإدارية في المدينة فكانت القبيلة، وكانت أهم وحدة بنيوية داخل المدينة على الإطلاق، ووجدت أيضاً إلى جانب القبائل، التي يجمعها صلة القربى القبائل الإدارية (فيلات) أي الوحدات الإدارية، التي كانت تجمعها وحدة الأرض. والحكومة في المدينة لم تكن تتدخل في شؤون القبائل، بل ترك لها حل خلافاتها الداخلية، فالقبيلة كانت تتكون من خلايا قبلية، فمثلاً مدينة تدمر كانت تتألف من أربع وثلاثين خلية قبلية، ومجموع هذه الخلايا كانت موزعة على أربع فيلات، والفيلات كانت نوعين، الأولى: البوليسية، والثانية: الفيلات، التي تجمعها رابطة القربى، وهي الفيلات العربية، كما ذكر، والبنية الإدارية على أساس الفيلات لم تحظَ، بانتشار واسع في المدن السورية إبان العهد الروماني.

كان في آسيا وحدها في عهد القياصرة مدنٌ كثيرة، قدّر عددها بخمسمائة مدينة ممتلئة بالسكان، وهبتها الطبيعة كل خيراتها، وازدادت بأنواع أروع إنتاج الفن، حيث يذكر ادوار جيبون: (أن إحدى عشرة مدينة، تنافست في آسيا). على إهداء معبد إلى الإمبراطور تيبريوس، فأجرى السناتو مفاضلة بينها ليرى أيها أجدر بهذا الشرف؟ فتقرر على الفور رفض أربع منها، لأنها لا تتكافأ مع هذا العبء. وكان من بينها مدينة اللاذقية التي لا تزال خرائبها تشهد بعظمتها وبهائها، وكانت اللاذقية تجني دخلاً كبيراً من مراعي الشياه، التي اشتهرت بنعومة أصوافها، وكانت قد ورثت قبل هذه المنافسة بقليل أكثر من أربعمائة ألف جنيه، أوصى لها بها مواطن كريم. فإذا كانت هذه درجة فقر اللاذقية، فماذا كانت ثروة المدن الأخرى، التي فضلت عليها؟.

البنيـة الإداريـة للمـدينـة:

مثلاً إن البنية الإدارية لمدينة تدمر كان يديرها جهازان جماعيان من أجهزة السلطة، لعبا دوراً هاماً في الحياة السياسية للمدينـة، همـا: المجلس والاجتمـاع الشعبي، الـذي يشـير إلى ضـم مختلـف التشكيلات القبلية. وكان المجلس هو الذي يقر قانون التعرفة الجمركية، فمثلاً قـرر المجلـس في تدمر عام (٤٤٨م) التعرفة الجمركية، التي نظمت كـل الحيـاة التجاريـة في المدينـة، ولائحـة التعرفـة هـذه أشارت إلى وجود فئتين من الوظائف الحكوميـة في هـذه المدينـة، تضـم الفئـة الأولى: أولئـك الذيـن يرتبط عملهم ارتباطاً مباشراً بعمل المجلس والإجماع الشعبي، أما الفئة الثانيـة: مـن هـؤلاء الموظفـين: فهي الفئة، التي لا ترتبط أعمالهـا بنشـاط المجلـس والإجمـاع الشـعبي مباشـرة. وأشـارت التعرفـة إلى مجموعة الأرخونت، حيث ضمت صلاحيات الأرخونت وظـائف إداريـة ورقابيـة وتشـريعية، وهـي وظيفة جماعية محدودة الزمن. كما أخذ دستور تدمر بعين الاعتبار وظائف أخرى، منهـا مثـلاً مدير الشؤون الزراعية ووظيفة (استراتيجي)، الذي كان يحظى باهتمـام واسـع، وكـان يسـتخدم للدلالـة على أهم وأعلى وظيفـة في المدينـة، ووظيفـة الدومفـير ومجموعـة الآرغـيروتيين، الـتي ضمـت أربعـة أشخاص. ومجال عمل هذه المجموعة لم يتعد الإشراف على عمليات الإنفاق من خزنة الدولة.

ومن الوظائف الأخرى الجماعية وظيفـة ديكـابروتين، حيـث يقـوم الديكـابروتين سـوياً مـع الأرخونت بتحديد حجم الضرائب، وتوقيع الاتفـاق مـع متعهـد جمعهـا صياغـة وكتابـة، وكذلـك مراقبة تنفيذه، والوظيفة الجماعية الثالثة: السينديكيين، ومهمتهـا المراقبـة. ومـن الوظـائف الأخـرى: الإبيليميتين، ويقومون بدور المنفذ لقـرارات سـلطات المدينـة، وخاصـة في مجـال البنـاء. كمـا لعـب الأساقفة دوراً واضحاً في بعض المدن السورية، فقد كانوا يهتمون بشؤون تجـارة الخبز، وغـيره مـن المواد الغذائية.

يذكر: أن المستعمرات السورية، التي حصلـت على الحقـوق الرومانيـة هـي صـور، بـيروت وبعلبك وأنطاكية، وحمص وتدمر ومدن أخرى. فمثلاً منحها بومبي منذ البداية حـق الحكـم الذاتـي وكان يحق لها أن تصك عملتها النقدية. إلا أن بومبي حافظ على كامل الشخصية، التي كانت تتمتع بها هذه المدينة قبل خضوعها لرومـا. أمـا صـور فقـد حصلـت على حقـوق المسـتعمرة الإيطاليـة، وكانت قبل حصولها على هذا اللقب ميتروبولية، كما كانت قد سميت: كلافيديوليس، واسـتمرت صور في إصدار عملتها في العهد الروماني وفق النموذج الفينيقي. أمـا صيـدا فقـد بقيـت مسـتعمرة

(ميتروبولية) وحملت اللاذقية لقب مدينة يوليوس، ثم أصبحت ميتروبولية ثم مستعمرة، وصكت بها النقود المعدنية. أخيراً إن مجرد استصدار النقود كان يعني أن المدينة كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، أشارت النقود المعدنية أم لم تشر، وأمكن تحديد فئتين من المدن، التي تمتعت بالاستقلال الذاتي إبان الاستعمار الروماني، أولاً: المدن، التي حصلت على استقلال ذاتي، وأعفيت من دفع الضرائب إلى السلطات الرومانية، والثانية: تلك المدن التي حصلت على استقلال ذاتي، ولكنها كانت ملزمة بتأدية الضرائب لصالح خزينة روما.

المواطنون الرومان في سورية:

كانت القوانين الرومانية، التي صدرت قبل الميلاد (أواخر القرن الأول قبل الميلاد) تسمح للمواطنين بالحصول على حقوق المواطنية الرومانية. منذ ذلك الحين بدأت الهجرات إلى سورية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد منح بعض الرومان حق الإعفاء من دفع الضرائب، وتم إعفاؤهم من كافة الالتزامات المحلية للمدينة، ومن الالتزامات العسكرية. فمثلاً أعفي سلوقس وأفراد عائلته من كافة الضرائب المترتبة على عمليات إدخال وإخراج البضائع من وإلى أي مدينة من مدن الإمبراطورية، ومنح حق المشاركة في الاجتماع الشعبي.

كما كان للمواطنين الرومان، الذين حصلوا على حق المواطنة حق إقامة الدعاوى القانونية في وطنهم، حيث يقيمون مسترشدين بالقوانين النافذة في المدينة نفسها، إذا كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، وأي دعوى، كانت ترفع ضدهم، كان يجب أن توجه عبر السفارة إلى سينات روما أو عبر مجلس المدينة أو نائبه. وبذلك أصبح هؤلاء خارج أجهزة السلطة المحلية.

لكن أغسطس حاول الحد من هذه الامتيازات والحصانات، بأن جعل هؤلاء المواطنين، الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية، لا يعفون من الالتزامات والأتاوات المحلية، وبذلك يكون مثلهم كمثل بقية السكان، يستثنى من هؤلاء من حصل منهم على حق المواطنية، وفي الوقت نفسه حق الإعفاء.

ومع ذلك فالقوانين لم تكن ثابتة، بل كانت تتغير. حيث أجاز القانون فيما بعد إعفاء المحاربين القدماء ووالديهم وأبنائهم وزوجاتهم من كافة أشكال الضرائب والأتاوات. وبذلك يكون هذا الإعفاء قد شمل السوريين، الذين كانوا يؤدون خدماتهم في كافة أصقاع الإمبراطورية، حيث يحصلون على حقوق المواطنة الرومانية. وهناك الكثير من السوريين، الذين حصلوا على حق

المواطنة، ونالوا وظائف عامة في الدولة، كمنصب نائب قنصل، ومنصب سيناتور، حتى أن بعضهم حاول انتزاع العرش الإمبراطوري.

وأصدر كركلا مرسوماً، أعطى بموجبه حق المواطنة لكل سكان الإمبراطورية، وقد تكون غايته أو هدفه من إصدار مثل هذا المرسوم، إما توسيع دائرة دفع الضرائب، وبالتالي زيادة دخل الخزينة العامة للدولة، أو أن هدفه كان توسيع القاعدة الاجتماعية للسلطة. وبذلك يكون قد جعل سكان الإمبراطورية كتلة واحدة تابعة للإمبراطور.

أخيراً يمكن القول: إن التركيب الطبقي للمجتمع السوري كان ينقسم إلى الفئات التالية: الأولى: المستغلون، وهم المنتجون المباشرون المحرومون من ملكية وسائل الإنتاج كالعبيد والأحرار شكلياً، والعمال المأجورون، والفئة الثانية صغار الملاك وأصحاب الملكيات المتوسطة، الذين يشاركون في عملية الإنتاج، والفئة الثالثة: هم كبار الملاك الذين لا يشاركون مباشرة في عملية الإنتاج، ويعيشون على حساب عمل غيرهم.

أما أراضي الملك فهي أراضٍ منفصلة عن أرض المدينة، وتعود ملكيتها إلى الملك وحده، يقطنها أناس ملزمون بدفع الضرائب. وتضم هذه الأرض قسماً آخر، تعود ملكيته لأفراد إما عن طريق البيع أو عن طريق الهبات، ومع ذلك كان الملك يمارس سيادته على هذه الأرض، وكانت القوانين تسمح له بتغيير وضعها القانوني.

يضاف لما ورد ملكيات خاصة لأراضي الملك، حصل عليها أصحابها، إما لقاء الخدمة العسكرية في جيوش الملك، وإما لقاء تقديم خدمات. فإذا انقطع عن تأدية هذه الخدمات تسحب منه الأرض، أي أن أراضي الملك كانت تقسم إلى ثلاث فئات: الأولى: ملكية الملك نفسه، والثانية: الملكية الخاصة بالأفراد، الثالثة: حيازات مشروطة.

إذاً كان من نتيجة الاستعمار المقدوني لسورية، أن جرى انتشار عدد من المدن اليونانية، ليس في سورية وحدها، وإنما في الأردن وشرقي الأردن أيضاً. فقد ظهرت هنا بمبادرة وإشراف السلطات الهلنستية بوليسات كبرى كانتيغوني وأنطاكية، التي بنيت على أنقاضها وسلوقية بيريه، وأفاميا ولاوداكيا (اللاذقية)، ودورا يوريوس (تل الصالحية)، بيريا وبيلا وديون، وجرش، وغيرها في تلك الحقبة. وكان عدد الجاليات الإغريقية في سورية أكبر مما هو في فينيقية، كما في اللاذقية وأنطاكية.

والمعلومات حول القرى، التي أنشأ سلوقس مدناً فوقها، شبه معدومة، لكن يعتقد: أن سلوقس كان قد ضم سكان هذه القرى إلى التنظيم السكاني الجديد، أو أن سلوقس كان قد طرد السكان الأصليين لهذه القرى، ثم دمرها، وبنى فوقها هذه المدن. وهناك من يعتقد أن سلوقس كان قد عمل على توسيع القرية، التي قامت على أنقاضها مدينة اللاذقية، وحوّلها إلى مدينة. وكانت المدن السلوقية في سورية تبنى وفق نموذج واحد، وظهر ذلك واضحاً في بناء أنطاكية واللاذقية. فمثلاً مدينة اللاذقية خططت بشكل واضح وأدق من أنطاكية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

أما العلاقات الزراعية، التي كانت سائدة ضمن هذه المدن، فمعلوماتنا عنها ضئيلة. إلا أنها مع ذلك تبرز بكل وضوح سيطرة الملكية الخاصة. فمثلاً نجد ذكراً لهذه الملكيات في النقش الوارد إلينا من مدينة اللاذقية والمؤرخ في كانون الثاني عام (١٧٤ ق.م). يقول شيفمان: نرى الحالة المسجلة هنا معقدة للغاية، فقد قدم كهنة ساربيس واسيدا (هورا. بللودور. وانطوخ) الشكوى التالية إلى سلطات المدينة، حيث كانت المدينة قد اتخذت قراراً، تفرض بموجبه على كل من يطلب مكاناً، ليقيم فيه نصباً تذكارياً، أن يدفع مبلغاً من المال، وفي الوقت نفسه طلب بعضهم مثل هذا المكان في المعبد نفسه، وكانت الأراضي القريبة من المعبد، والمعبد نفسه ملكاً للأشخاص المذكورين وأقربائهم[1].

ويقول شيفمان: إن هذه التركيبة طريفة بحد ذاتها، فأمامنا قطعة أرض، تعود ملكيتها لعائلة كبيرة، يمثلها في هذه العملية ثلاثة إخوة، وبما أن قرار المدينة لم يوضح طبيعة الدفع لقاء الأرض المطلوبة لإقامة النصب التذكاري، فقد خاف هؤلاء الإخوة أن يفقدوا حقهم كمالكين.. وبناءً على ذلك اتخذ أعضاء المجلس قراراً، أكدوا فيه: أن المال المدفوع ليس ثمناً للأرض، وإنما ضريبة تدفع لقاء وضع النصب. وبذلك تكون حقوق مقدمي الشكوى قد حفظت. أي أن الملكية الخاصة للأرض وإمكانية بيعها وشرائها كانت موجودة في اللاذقية في القرن الثاني قبل الميلاد، وحافظت سلطات المدينة على قدسية هذه الملكية.

أما فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي للمدينة، فالمعلومات عنها مبعثرة وغير منسقة. فمثلاً إن منح حق المواطنية في المدينة كان يتم بموجب مرسوم، يصدره الاجتماع الشعبي العام. يقول شيفمان عن

---

[1] - ش - شيفمان: المجتمع السوري القديم - طبع دمشق ١٩٨٧ - ص١٧.

نقش يعود إلى اللاذقية تاريخ كانون الثاني عام (١٧٤ ق.م) يذكر النص: «قرر الأعضاء ـ الوجهاء عند السوريين ـ أعضاء المجلس»، نجد هذه العبارات عند استرابون، ولكن بخصوص جماعات أخرى. يسمي المولوتيون والغيسبروتيون كباراسين (Pelias) أما السوريون فيسمونهم (Peliovs) وكذلك هي الحال عند المقدونيين، الذين يسمونهم الوجهاء، وهذا شرف. وكذلك هي الحال لدى اللاكوتيين أيضاً والماساليون إذ يسمونهم شيوخاً"[1].

يتحدث النص عن مجلس شيوخ كان آنذاك منظمة اجتماعية، عاشت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، والنص يعرض قرار المجلس حول المحافظة على حق الملكية الخاصة، وكان له الحق في تقرير مثل هذه المسائل.

يقول شيفمان: «من المهم أن نشير أيضاً إلى المقدمة، التي سبقت اتخاذ القرار المذكور، والتي تظهر في بنية النقش، الذي ينقسم إلى قسمين: يبدأ القسم الأول بالصيغة التالية (حسب رأي اسكليبادوس القائد والوجهاء)، كما يحوي هذا القسم الاقتراح المقدم من قبل كبار الموظفين، وممثلي ملك اللاذقية إلى مجلس الشيوخ ـ الوجهاء لبحثه».

ويتألف القسم الثاني من القرار نفسه، إضافة إلى الصيغة الواردة أعلاه. وهكذا فإننا لا نرى أية فروقات بين عمل مجلس اللاذقية، وعمل أمثاله من المجالس الأخرى المعروفة لدينا. وقال: وهكذا نستطيع الآن أن نؤكد على وجود المجالس والاجتماع الشعبي في المدن السورية منذ القرن الثالث وإلى القرن الأول قبل الميلاد. ويجب أن نعرفك أن الإسكندر عندما اجتاح سورية، كان قد وجد عدداً من الملوك الشرقيين، فعزل بعضهم، ووضع آخرين مكانهم، وعقد معاهدات مع البقية. لكن بعد موت الإسكندر أصبحت العلاقة بين الملك والمدينة معقدة.

ومن المعروف أن كبار موظفي مدينة اللاذقية شاركوا في شراء حق تعهد الضرائب من البطالمة، عندما كانت سورية تحت سيطرة هؤلاء. أي أن بطليموس الثالث عندما دخل سورية أخضع رؤساء الأقسام الجمركية لسلطته، أي الأقسام التي تمكن من السيطرة عليها في سورية. أما باقي سورية فبقي تحت سلطة السلوقيين. والعلاقة بين الملك والمدينة السورية كانت مبنية، كما يبدو على نمط أية علاقات دبلوماسية أخرى قائمة بين طرفين مستقلين شكلياً، أي أن المدن السلوقية، ومن ضمنها المدن السورية، والتي كانت خاضعة للملك نفسه، كانت تستطيع أن تعقد فيما بينها

---

[1] أ ـ ش ـ شيفمان: المعجم السوري القديم ـ طبع دمشق ١٩٨٧ ـ ص٢٢.

تحالفات وعلاقات دبلوماسية مع مـدن أخـرى غـير خاضعـة للملـك نفسـه، ودون الرجـوع إليـه. وبالمقابل كانت علاقة المدينة تجاه الملك أكثر خصوصية، فله الحق في جمع الضرائب ومختلف أنـواع الأتاوات.

ونظراً لأهمية بلاد الشام كمنطقة حضارية وأثرها في تاريخ المرحلة المذكورة رأيت من المهم دراسة أهم مدن سورية آنذاك، وهي أنطاكية التي كـانت عاصمـة سـورية، وخاصـة خـلال العصـر اليوناني (السلوقي) ودورها الفعال في حضارة العصر الروماني، وأضفت على ذلـك مدينـة اللاذقيـة عروس الساحل السوري في الماضي والحاضر، ولما لهـا مـن أهميـة، وخاصـة منافسـتها لأنطاكيـة في مركزها السياسي في بعض مراحل تاريخها، كما سيرد، ومدنـاً أخـرى كأفاميـا، وحمـص وطرابلـس وبيروت.

أولاً ـ أنطاكية[1]:

أنطاكية هي إحدى المدن، التي بلغت فيها الحضارة القديمة أوج ازدهارهـا، وكـان لأنطاكيـة رسالة خاصة تمثلت في نقل الحضـارة الإغريقيـة إلى سـورية بعـد فتـوح الإسـكندر الأكـبر، وموقـع أنطاكية صنعه عدد من الشخصيات والأحداث، فقد عزي اختيـار أنطاكيـة إلى الإسـكندر الأكـبر. ومهما يكن فقد أنشئت أنطاكية بسبب أهميـة موقعهـا مـن الناحيـة الاسـتراتيجية والصحيـة وتوفـر الأمن والمزايا المادية.

بعد فتوح الإسكندر الأكبر، ونهاية تقسيم إمبراطوريته بين قواده، كانت سورية من نصيـب سلوقس نيكاتور، الذي قام ببناء عدة مدن، منها أنطاكيـة سنة (٣٠٠ ق.م)، وأقيمـت أنطاكيـة في الركن الجنوبي لسهل العمق عند النقطة، التي يدخل فيها نهـر العـاصي وادياً، شـقه وسـط الجبـال، ليتابع رحلته إلى البحر، وبفضل هذا الموقع كانت أنطاكية تتحكم في شبكة الطرق البريـة. بالإضافـة إلى أهمية نهر العاصي، الذي يجتاز سهل العمق.

وبنيت المدينة بأكملها تقريباً على الشاطئ الأيسر لنهر العاصي، وعلى جزيرة، تقع في وسـط مجراه عند الطريق الشمالي للمدينة، وكان الشاطئ الأيمـن إلى شمـال وغـرب المدينـة سـهلاً منبسـطاً، كانت الإفادة منه قليلة. وفي القرن الرابع بعد الميلاد استخدم جزء منه سـاحة للتدريـب العسـكري، وكان يخترق السهل صوب الغرب والشمال الطريق المؤدي إلى ممـر بيـلان والإسـكندرية وكيليكيـة وباقي الأناضول.

والجزء الرئيسي من المدينة بني على أرض مستوية بين النهر والجبل، وجبـل سـيلبيوس، الـذي يمتد بمحاذاة النهر تقريباً، يحد المدينة من جانبيها الطويلين، مثلما يحدها النهر من الجانب الآخر، ومن السور القصير الواقع عند الطرف الشمالي للمدينة كان يمتد الطريق إلى حلـب، وإلى جهـات أخـرى داخل سورية وإلى الجنوب.

ومن الطريق الجنوبي للموقـع، كـان الطريـق إلى ضاحيـة دفنـة يسـتمر إلى مـا وراءهـا فـوق الجبال، حتى يصل إلى اللاذقية الواقعة على البحـر، حيـث كـان يتصـل بـالطريق الممتـد علـى طـول

---

[1] جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ طبع القاهرة ١٩٦٧ ـ ص٢٣.

الساحل، وكان للمدينة مدخل عبر الباب الحديدي، ويقع عند الأخدود، الذي يقسم جبل سيلبيوس إلى شطرين، وهنا كانت نهاية طريق أصغر، وكان يؤدي إلى أفاميا، وإلى شرق سورية وجنوبها، وعلى الجانب المواجه للمدينة ترتفع منحدرات الجبل السفلي من السهل بالتدريج. أما على الجانب الآخر من الجبل، فإن الانحدار أقل شدة من السفح إلى القمة. فكان العيب الوحيد للموقع هو إمكان الاستيلاء عليه من ناحية الجبل. يؤكد ذلك استيلاء الفرس على أنطاكية بهذه الطريقة، وقد ترتب على موقع المدينة عند سفح جبل سيلبيوس نشوء مشكلة ذات عواقب، تتعلق بتصريف المياه.

وعلى بعد خمسة أميال جنوب مدينة أنطاكية، تقع ضاحية دفنة، (أقدم من أنطاكية) على بقعة أعلى من أنطاكية، وصفت بأنها كانت رائعة الجمال، تطل على العاصي، توفر لها الخصب والجمال بفضل ينابيع طبيعية كثيرة، لم يقتصر دورها على تزويد ما في دفنة من دور وحمامات وحدائق، بل كانت تزود أنطاكية أيضاً بالمياه، وكانت تصل إليها عن طريق مجار قائمة فوق قناطر مرتفعة. وكان هذا المورد الغزير للمياه أحد الأسباب الرئيسية، التي حدت بسلوقس إلى إنشاء أنطاكية في موقعها الحالي مكان قرية، كانت في موقعها.

أما وضع أنطاكية من الناحية الاقتصادية، فكان ما يزرع من الحبوب يكفي لسد الحاجات المحلية، والخبز المصنوع من الشعير لم يكن يتناوله إلا الفقراء، الذين لا يستطيعون شراء خبز القمح، كما كانت تنتج كميات وفيرة من الزيتون، وزيت الزيتون والنبيذ، وكما كانت تجود أرض أنطاكية بالخضار مثل الخيار، وأنواع أخرى مثل القرع والفاصولياء والبازلاء والزنبق.

وأنتجت أنطاكية الخشب الذي كان يستخدم في البناء، بالإضافة إلى استخدامه كوقود في المنازل والحمامات والمخابز، ومن أهم الأشجار الاقتصادية في أنطاكية، كانت أشجار السرو والغار. كما استخرج من المحاجر الغربية من أنطاكية أحجار البناء من نوعي حجر البازلت والحجر الجيري والرخام، وكما كانت حرفة الصباغة حرفة هامة فيها.

أما حيوانات أنطاكية، فمنها الحصان والجمل والحمار والخيول، حيث كان يُعتنى بتربية الخيول، وكان السباق من أسباب اللهو الشائع في أنطاكية، ومن الحيوانات الأخرى المفترسة المتوحشة، وجد الأسد والنمر، كما وجد فيها النعامة والثور، كل ذلك جعلها درة الشرق الجميلة، كما ذكر عنها.

وقد دلت البحوث الحديثة على أن نظام توزيع الشوارع في أنطاكية، كان يتفق بشكل دقيق مع التخطيط، الذي اتبع في مدن سورية أخرى، كاللاذقية ودمشق ودورا. وأن تماثل وحدات المباني في كل من اللاذقية وأنطاكية يوحي بالتزام تطبيق نموذج بعينه في التخطيط، فمساحة كل وحدة من وحدات المباني في أنطاكية، تبلغ أبعادها (٣٦٧ × ١٩٠) قدماً، في حين أنها في اللاذقية، تبلغ أبعادها (٣٦٧ × ١٨٦) قدماً، ولقد حددت اتجاهات الشوارع بدقة بالغة من ناحية اتجاهاتها آخذين بعين الاعتبار الشمس والرياح السائدة.

وعندما بنى سلوقس مدينة أنطاكية، أقام فيها المباني العامة، من ذلك (معبد زيوس بوتيابوس) وكانت هناك معابد أخرى، وحمامات عامة، ومنشآت إدارية، وعسكرية، ويذكر أيضاً: أن سلوقس كان قد شيد قلعة على قمة جبل سيلبيوس، كما بنيت القناطر، التي تحمل قناة لجلب المياه من دفنة. إلا أن زمن إقامة هذه القناطر مجهول، وفي عام (١٩٥ ق.م) كان يوجد في دفنة مضمار للألعاب، وتذكر بعض المصادر: أن سلوقس كان قد منح السكان الجدد عند إنشائه مدينة أنطاكية قطعة أرض لإقامة الأبنية عليها، وزودهم بمساعدات مالية لبناء منازلهم عليها.

ومن أشهر التماثيل في أنطاكية، تمثال الإلهة (توخي) آلهة حظ المدينة، عهد سلوقس بعد إنشاء المدينة إلى النحات الشهير (يوتوخيدس) بصنع تمثال حظ أنطاكية، حيث يعتقد أن هذا التمثال كان قد أقيم خلال السنوات (٢٩٦ ـ ٢٩٣ ق.م)، وأصبحت الآلهة توخي الآلهة الحامية للمدينة، وكانت تعدّ حارسة الملك، وحامية للمدينة، أي أنها كانت رمزاً للنجاح والخصب والرخاء. كان هذا التمثال مصنوعاً من البرونز، تبدو فيه الآلهة مرتدية ثوبها الطويل، وجالسة على صخرة، تمثل جبل سيلبيوس، معتمدة بيدها اليسرى على الصخرة، وممسكة بيدها اليمنى حزمة رمزية من القمح، وفوق رأسها تاج، يمثل سور المدينة، وتحت قدميها سياج، يرمز إلى نهر العاصي. أقيم هذا التمثال تحت سقيفة من الحجر، ترتكز على أربعة أعمدة، وكثيراً ما نقشت صورته على قطع العملة في أنطاكية، كما كان يصور على تحف تذكارية، تصنع خصيصاً لزوار المدينة.

وكان هناك تمثالان آخران عند إنشاء المدينة، كان أحدهما يمثل نسراً من الحجر، أقيم خارج المدينة تكريماً للطائر زيوس، الذي أرشد سلوقس إلى الموقع، الذي أقيمت عليه المدينة، وكان النسر شعاراً، نقش على عملة أنطاكية. أما التمثال الثاني: فكان تمثالاً، أقيم تكريماً للكاهن امفيون، الذي ساعد سلوقس في تقديم القرابين، وكان مكانه خارج بوابة المدينة.

كما أقام سلوقس في أنطاكية تمثالاً من البرونز لتوخي انتيجونيه، وأقيم هذا التمثال تخليداً لذكرى تدمر عاصمة العدو، وأقيم هذه التمثال تحت سقيفة، ترتكز على أربعة أعمدة، وأقيم أمامه مذبح تعبيراً عن حب الخير لأهل انتيجوتيه، الذين نقلوا إلى أنطاكية، كما أقام سلوقس تمثالاً هائلاً مصنوعاً من البرونز للإلهة اثينا، وقد ظهرت صورة هذا التمثال على العملة التي صكها سلوقس الأول في أنطاكية، وقد نقل هذا التمثال فيما بعد إلى روما، وأقام الأهالي القادمون من انتيجونيه تمثالاً من البرونز لسلوقس مع إضافة قرني ثور إلى رأسه.

وأقام سلوقس تمثالاً خارج المدينة من الناحية الأخرى من نهر العاصي، وكان يمثل رأس جواد، وبقربه خوذة مذهبة، كما تذكر الروايات: أن سلوقس كان قد شرع في إقامة حرم مقدس في دفنة، التي كان لها صلة وثيقة بأنطاكية، حيث شيد معبد (لابولوا) هناك، وغرس أشجار السرو المقدس لدى هذا الإله، وكان هذا المعبد مشاداً في أجمل مكان في دفنة على مقربة من الينابيع، يضم المعبد تمثال أبولو. كان سكان مدينة أنطاكية من أصول مختلفة، فمنهم المقدونيون، ومنهم كما يذكر كريتيون ومن قبرص وهرقليا، وبالإضافة إلى عدد من اليهود المرتزقة، يضاف لما ورد عدد من الأرقاء، ولكل منهم حي خاص بهم.

أما عدد سكان أنطاكية في عهد سلوقس، فلا تتوفر معلومات، تؤكد العدد الحقيقي للسكان. وذكر: أن عدد الاتينيين، الذين أحضرهم سلوقس من انتيجونيه (٥٣٠٠) رجل، فإذا أضفنا إلى كل منهم أسرته فالمجموع يكون تقديراً بـ (١٧٠٠٠ ـ ٢٥٠٠٠) فرداً إضافة إلى الأرقاء والنزلاء، وقيل[1]: إن عدد سكانها كان نصف مليون نسمة.

أنطاكية في ظل الملوك السلوقيين:

في عهد سلوقس، كانت سلوقية بيريه هي العاصمة السلوقية في سورية الشمالية، ولا يعرف متى أصبحت أنطاكية عاصمة الدولة. وعندما تولى أنطيوخس الأول السلطة (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) ازدادت أهمية أنطاكية، وكثيراً ما كانت مقراً للملك. علماً أن أنطاكية كان لها حاكم ملكي. وعندما أصبحت أنطاكية عاصمة الدولة السلوقية، كان يقيم فيها كبار رجال الدولة والجيش.

كان لأنطاكية كبقية المدن الإغريقية مجلس للشورى، ودار لهذا المجلس، وكان المواطنون فيها ينقسمون إلى قبائل، حيث وصل عددها في القرن الرابع بعد الميلاد إلى ثماني عشرة قبيلة. أما

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٧٤.

السكان غير الإغريق، فكانوا ينتظمون في جاليات، تقوم على أساس الجنسية. هذا ولم يسمح الوقت لأنطيوخس، والذي قضاه في الحروب للاهتمام في المدن. أما النشاط الثقافي في عهده، فلقد حافظ على مكانته، لما كان يوليه من الاهتمام بالباحثين والشعراء والعلماء. وأما في عهد أنطيوخس الثاني (٢٦١ - ٢٤٧ ق.م) فقد كانت كل من أنطاكية وأفيسوس مقراً للملك في أوقات مختلفة، وفي عهده أيضاً ازداد نفوذ مصر على أنطاكية.

في عهد سلوقس الثاني، عمد إلى إضافة حي جديد إلى أنطاكية، لكي تستوعب الزيادات في عدد السكان، وكان هذا الحي يتألف من الجزيرة الواقعة في نهر العاصي، وقد أقيم سور حول الجزيرة، وأنشئت القناطر، وخططت الشوارع، حيث قسمت المدينة إلى أربعة أجزاء، شارعين رئيسيين، كانا يتقاطعان وسط الجزيرة على شكل زاوية قائمة.

وفي عهد أنطيوخس الثالث ازداد عدد سكان أنطاكية زيادة كبيرة، وذلك بسبب الهجرة إلى أنطاكية من بلاد الإغريق خوفاً من انتقام الرومان، إضافة إلى إعالة عدد من المحاربين القدماء، الذين أمر بإنزالهم في الحي الجديد. في عهده أيضاً وقبل انتصار الرومان عليه، عم الرخاء أنطاكية مع زيادة في الموارد، وقد تجلى ذلك في نشاط دار صك العملة، التي صكت قطع عملة في عهده أكثر من أي عهد سابق. وفي عهده أيضاً أنشئت، أو تطورت دار الكتب العامة في أنطاكية. في عهد سلوقس الرابع فليوباتور (١٨٧ - ١٧٥ ق.م) صك العملة كان لا غنى له عنها من أجل إعادة الثقة. أما أنطاكية خلال حكم هذا الملك، فقد شغلت بإعادة تنظيم شؤونها الاقتصادية.

في عهد أنطيوخس الرابع بيفانس، الذي حكم (١٧٥ - ١٦٣ ق.م)، والذي يعدّ عهده فاتحة عهد أزهى الفترات في تاريخ مدينة أنطاكية، وصف بأنه كان يهتم، ويعتني بالبناء، حيث سبق في هذا المجال أسلافه. إلا مؤسس الدولة السلوقية. فجعل أنطاكية عاصمة الدولة السلوقية، وقد بلغت من الترف والفخامة ما جعلها من أرقى مدن العصور القديمة.

هذا وقد شيد في أنطاكية مباني ضخمة، وأخذ يسعى لتوحيد صفوف رعاياه عن طريق روابط سياسية ودينية وثقافية. ففي هذا المجال سعى إلى تقوية مركز الديانة الهيلينية، وعبادة الحاكم، والقضاء على النزاعات الانفصالية. من أجل ذلك صادر أملاك المعابد. وعمل على توسيع وتجميل أنطاكية، وصك عملة في أنطاكية، تحمل اسم المدينة، واسم الملك، وعمل على إضافة حي جديد في أنطاكية، أطلق عليه اسم (ابيفانيا) لمواجهة الزيادة في عدد السكان. وكان هذا التوسع على منحدر

جبل (سيلبيوس) بجوار مركز الاستقرار الأصلي، الذي أنشأه سلوقس على الأرض المستوية بالقرب من النهر. وبذلك أصبح الطريق الهلنستي، الذي كان يمتد على طول جانب منشأة سلوقس، يشطر المدينة الى قسمين، وزود هذا الحي بباحة إضافية. وبذلك أصبح للمدينة سوقان: السوق القديمة: وتقوم بوظيفة سوق التجارة. والسوق الثانية: جعلت حرة.

وأقام في الحي الجديد دار المجلس والشورى، وأنشأ معبداً لجوبيتر كابيتولينوس، كان سقفه مكسواً بالذهب، وحتى جدرانه بأكملها كانت أيضاً مغطاة بألواح مذهبة. وبنتيجة هذا التوسع في المدينة أمر بتشييد قناطر حديدة، تحمل قناة، تستمد مياهها من سيل بارمينيوس، وتنقل المياه إلى صهاريج، أقيمت على الجانب المدرج لمنحدر الجبل، وفي عهده أيضاً أقيم حفل ألعاب في دفنة حوالي سنة (١٦٧ ق.م)، وكان هذا الحفل نتيجة انتصار الرومان على المقدونيين في موقعة بيرنا سنة (١٦٨ ق.م).

في عهد أنطيوخس الرابع، حل بأنطاكية مرض الطاعون، حيث أودى بحياة عدد كبير من الناس. وفي عهده أيضاً نحت تمثال نصفي من الصخر، عرف باسم خارونيوف، وضع على الجانب المطل على المدينة، كان يعتقد بأنه يمثل أحد آلهة العالم السفلي، وهذا التمثال هو الذي أبعد مرض الطاعون عن أنطاكية كما يعتقد.

بعد وفاة أنطيوخس الرابع سنة (١٦٣ ق.م) قلت أهمية الدولة السلوقية، وقل دورها، وبالمقابل أصبحت روما القوة العظمى، وأصبحت أنطاكية مسرحاً للمؤامرات والثورات، والقتال في الشوارع بين متنافسين مطالبين بالعرش.

خلال هذه المرحلة الممتدة من (١٤٩ ـ ١٤٧ ق.م) شكلت أنطاكية وسلوقية بيريه حلفاً كمحاولة لإقامة نظام حكم شعبي، إلا أن ذلك لم يتحقق. بعد ذلك تعرضت أنطاكية لزلزال، نكبت خلاله، وتكبدت خسائر، وأضراراً فادحة، ولم يعد تاريخ أنطاكية إلا سجلاً محزناً لمظاهر الضعف والانحلال المتزايد، إلى أن كان الاحتلال الروماني لسورية عام (٦٤ ق.م).

أنطاكية في عهد الرومان:

بعد احتلال الرومان لسورية جعلوها ولاية رومانية، وبقيت أنطاكية عاصمة لسورية. فمنذ البداية منح بومبي أنطاكية الحرية، أي أنه كان يسمح لها بإدارة بعض شؤونها الداخلية. أما الأمور الهامة، فكانت تحت الإشراف الروماني، ومنذ البداية تعهد بومبي بترميم دار مجلس الشورى، وازداد

نفوذ التجار الرومان فيها.

وعندما نشبت الحرب الأهلية سنة (٤٩ ق.م) بين يوليس قيصر ومجلس الشيوخ، تورطت أنطاكية في هذا الصراع. وفي (١٦ إبريل عام ٤٧ ق.م) وصل إلى أنطاكية الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر، فبقي فيها تسعة أيام، وخلال وجوده فيها أصدر قراراً، يمنح فيه أنطاكية الحرية. كما أنشأ القيصر فيها عدداً من المباني منها (الباسيليكا)، وأطلق عليها اسمه، فسميت: قيصريون، وهي أقدم باسيليكا في الشرق، وكانت تحتوي على فناء مكشوف، وقاعاتها مستطيلة، فيها محراب كبير، وخارج القاعة أقيم تمثال قيصر، وتمثال توخي روما.

ونفذ في أنطاكية أعمال أخرى بناءً على توجيهات يوليوس قيصر، من بينها إعادة بناء البانثيون، وإقامة مسرح جديد على منحدر الجبل قبل إعادة بناء مسرح، كان موجوداً، وتشييد قناطر، تحمل قناة ماء، وحمام عام في الجزء الأعلى من الجبل، وأمر بإنشاء مدرج لإقامة الألعاب الرياضية. وقبل مغادرة يوليوس قيصر لأنطاكية، عين على سوريا والياً من قبله ومن أقربائه، يدعى (سكتوس يوليوس قيصر). بعد ذلك في عام (٤٦ ق.م) حدثت فتنة في أنطاكية، قادها أنصار بومبي ضد أنصار يوليوس قيصر، قتل فيها والي سوريا المذكور.

وبعد مقتل قيصر سنة (٤٤ ق.م) وصل إلى أنطاكية كاسيوس قادماً من إيطاليا. وبعد أن استتب أمره عمد إلى مصادرة ممتلكات اليهود في أنطاكية، واستطاع إنزال الهزيمة بوالي سورية الجديد المدعو (كورنيليوس دولا بيلا). وعندما زار أنطونيوس أحد قادة روما الثلاثة أنطاكية عام (٤١ ق.م)، عمل على تنظيم ولاية سورية، وأعاد إلى اليهود ممتلكاتهم التي استولى عليها كاسيوس، واستقبل وفداً من اليهود في دفنة، حيث طلبوا منه المؤازرة والدعم للحد من مطامع خصومهم في فلسطين، الذين يقودهم هيرود، وعين والياً على سورية هو: ديكيديوس ساكسار، وعين هيرود والياً على اليهود.

رحل أنطيونيوس من أنطاكية إلى الإسكندرية، حيث بنى علاقة مع كليوبترة، في هذه المرحلة وفي سنة (٤٠ ق.م) غزا الفارطيون سوريا، واحتلوها بأسرها إلا مدينة صور، واستمر الوضع على ما هو عليه، حتى تمكن الرومان من طرد الفارطيين سنة (٣٩ ق.م)، ثم عين على سورية حاكماً جديداً، اسمه (حايوس سوسيوس)، وفي سنة (٣٧ ق.م) عاد أنطيونيوس إلى سوريا، وعقد قرانه على كليوباترة في أنطاكية، وبمناسبة هذا الزواج أهدى إلى كليوباترة أقاليم في بلاد الشام. في هذه

المرحلة كانت أنطاكية مركزاً لقيادة الجيش الروماني في الشرق.

في عهد الإمبراطور أغسطس، الذي حكم من (٣١ ـ ١٤ ق.م) وضعت سورية نظراً لأهميتها في أرقى مرتبة، أي تحت إشراف الإمبراطور، يتولى حكمها مبعوث بمرتبة قنصل، يقيم في أنطاكية. شهدت أنطاكية في عهده إنشاء الألعاب الأولمبية المحلية، وكانت خلال هذه المرحلة تقام مرة كل خمس سنوات، تدوم ثلاثين يوماً، تقام خلال شهر أوكتوبر، وامتاز عهده بأنطاكية بإقامة المباني الجديدة، كما تم إنشاء شارع عظيم ذي بوائك وأعمدة، يبلغ طوله ميلين رومانيين، وأصبح هذا الشارع هو الشارع الرئيسي في أنطاكية، ورصف هذا الشارع، وتولى تيبريوس إنشاء البوائك المسقوفة على جانبي الشارع، وإنشاء بوابات ذات أربعة ممرات عند تقاطع هذا الشارع مع كل شارع رئيسي، وأقيمت على طول امتداد الشارع تحف برونزية وتماثيل، وربط هذا الشارع أطراف المدينة بعضها مع بعض، في الوقت الذي بلغت فيه اتساعها الأقصى تقريباً.

وأنشئ أو أعيد إنشاء ثلاثة معابد، وتم توسيع المسرح مرة ثانية بإضافة صفوف أخرى من المقاعد، وأقيمت البوابة الشرقية، حيث أقيم على قمتها تمثال من الحجر للذئبة، وهي ترضع، وذلك رمزاً للسيادة الرومانية، واعترافاً من مجلس الشيوخ في أنطاكية بفضل تيبريوس، فقد أقيم للإمبراطور تمثال من البرونز على عمود في ميدان فسيح، يقع في الشارع ذي البوائك. وخلال حكم تيبريوس أيضاً وقع في أنطاكية حريق عام (٢٣م أو ٢٤م) وكانت آثاره خطيرة على المدينة، من ذلك: حرق دار المجلس، ومعبد ربات الفنون.

وفي عهد كاليجولا (جايوس) (٣٧ ـ ٤١م) وقع في أنطاكية زلزال شديد في (٩ إبريل ٣٧م)، وقدمت للمدينة معونة من قبل الإمبراطور، حيث أنشأ فيها بعد الزلزال حمامات عامة، وقاعة للحفلات مزينة بالتماثيل. وفي عهد كلاوديوس (٤١ ـ ٥٤م) حدثت في أنطاكية مجاعة وزلزال، فأمر بإعادة تنظيم حفل الألعاب، الذي كان يقام في المدينة كل خمس سنوات، وأمر بتسميته حفل الألعاب الأولمبية.

وفي عهد نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) حدثت ثورة اليهود، وبعد نيرون حدث صراع على السلطة المركزية في روما، وأعلنت سوريا ولاءها لفيسباسيانوس، الذي نودي به إمبراطوراً عام (٦٩م)، واشتركت أنطاكية في هذا الصراع، حيث صكت فيها عملة ذهبية وفضية في دار الصك، وأنشئ فيها مصانع للأسلحة. في عام (٧٠م)، نشب في أنطاكية حريق كبير دمر الأجورا الرباعية الزوايا،

ومكاتب الإدارة الحكومية، ودار السجلات، ودار القضاء. بعد ذلك أنشأ تيتوس مسرح دفنة، وأقيم فيها تمثال لفيسباسيانوس.

وفي عهد ترايانوس (٩٨ ـ ١١٧م) دخل هذا الإمبراطور أنطاكية، ووسع دار المسرح، الحمام العام، وخلال إقامته فيها أصيبت أنطاكية بزلزال وقع في ١٣ ديسمبر (١١٥م) كانت آثاره التدميرية مرعبة، أثرت شدته في كل من أنطاكية ودفنة. فقدم الإمبراطور ترايانوس معونات مالية ومادية إلى أنطاكية. ففي هذه المرحلة تم إنشاء البوابة الوسطى، وهي قوس تذكاري ضخم، يعلوه تمثال لذئبة ترضع روميولوس، ورمم دار المسرح، ورمم معبد ارتيمس في دفنة، وقبل وفاة ترايانوس أقام هادريان في أنطاكية معبداً تكريماً لترايانوس، الذي رفع إلى مرتبة الإله.

في عهد هادريان (١١٧ ـ ١٣٨م) أدخل على موارد مياه أنطاكية تحسينات قيمة، وأقيم معبد للحوليات، وكان يحتوي على تمثال ضخم لهادريان، وقام بإعادة تشييد المنشآت في دفنة عوضاً عن أخرى، كانت قد تهدمت. وبمناسبة هذه الأعمال العمرانية الهامة أقيم في دفنة احتفال في (٢٣ يونيو ١٢٩م)، حضره الإمبراطور نفسه. وفي عهد أنطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١م) رصف الشارع الرئيسي ذو البوائك، وجميع الشوارع في أنطاكية بالحجر الجرانيتي، وفي عهده حدث حريقٌ في أنطاكية. وفي عهد ماركوس اوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠م) كانت أنطاكية مسرحاً للثورة، التي قام بها افيدبوس كاسيوس (كان حاكماً لسورية عام ١٦٥م)، وعهد إليه بالقيادة العامة العليا في جميع الشرق. إلا أن ثورته قضي عليها بعد فترة وجيزة. وعندما زار الإمبراطور سورية، أبطل حفل الألعاب المحلية، التي كانت تقام في أنطاكية سنة (١٧٥ ـ ١٧٦م)، وحظر قيام الاجتماعات العامة فيها. كل ذلك بسبب اشتراك أنطاكية في الثورة.

في عهد كومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢م) وفي سنة (١٨١م) أصدر الإمبراطور مرسوماً، استؤنفت بموجبه إقامة الألعاب في أنطاكية[1] ، وكانت تقام لمدة خمسة وأربعين يوماً في شهري يوليو وأغسطس. وتضمن المرسوم إنشاء مبان رياضية جديدة لاستخدامها في كل الظروف، وأعيد بناء معبد الإله أثينا، وشيد حمام، يحمل اسم الإمبراطور، وأقيم معبد لزيوس الأولمبي راعي الألعاب.

وفي الوقت نفسه أقيم في أنطاكية ضروب من المهرجانات، غايتها الترفيه، منها ما عرف بالمايوما، وهي مخلفات سورية قديمة، عبارة عن مهرجان ليلي، وصف بأنه كان مهرجان إباحة

---

[1] فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ـ المجلد الأول ـ ص١٧٣.

ودعارة، يقام كل ثلاث سنوات مرة واحدة في شهر مايو، وأقيم مهرجان لسباق الخيل، يقام أسبوعياً في يوم الشمس، ومهرجان ثالث لحفلات صيد الحيوانات الوحشية. ونظراً لما قدمه هذا الإمبراطور من خدمات لأنطاكية، فقد أقاموا له تمثالاً من البرونز، وبعد وفاة هذا الإمبراطور عام (١٩٢م) عادت سورية مرة أخرى مسرحاً للصراع استمر عامي (١٩٣ - ١٩٤م).

خلال هذه المرحلة التي كان فيها (بسكينيوس نيجر) حاكماً لسورية، اتخذ من مدينة أنطاكية قاعدة رئيسية للحكم، واستخدم دار الصك لإصدار العملة. وكان هذا الحاكم يناصر ديويوس يوليانوس كإمبراطور للدولة. في عهده أقيم في أنطاكية مبنى البلثريوم، لتقام فيه مباريات المصارعة في الألعاب الأولمبية.

في عهد سيتبموس سفروس (١٩٣ ـ ٢١١م) حدث صراع على السلطة أيضاً بين الإمبراطور الجديد، وحاكم سورية يسلينيوس، حيث وقفت اللاذقية إلى جانب الإمبراطور، ثم استسلمت أنطاكية للإمبراطور الجديد، وعمل على تقسيم سورية إلى قسمين: (جوف سورية)، و(سورية الفينيقية)، وعوقبت أنطاكية لأنها كانت مركزاً للثورة، وحرمها من كونها عاصمة لسورية، وخفض مكانتها إلى قرية، وجعل من اللاذقية عاصمة لسورية. ولأول مرة في تاريخ سورية تتبعها أنطاكية، ونقل منها الألعاب الأولمبية إلى ايسوس. إلا أنها استعادت مكانتها بعد ذلك سنة (٢٠٢م)، عندما زارها الإمبراطور، وصك بها عملة، نقشت عليها صورة توخي أنطاكية، وشيد بها حمامين عامين.

في عهد كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م) أعيدت الألعاب الأولمبية إلى أنطاكية، وحررت من إشراف اللاذقية عليها، بعد مقتل كركلا عام (٢١٧م) غدت أنطاكية عاصمة شرقية للإمبراطورية، وصكت فيها عملة الإمبراطورية. في سنة (٢٥٣م) غزا سابور سورية، واستولى على أنطاكية، وأحرقها. إلا أنه انسحب منها بعد إحراقها. في عهد فاليريانوس (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) أعيد بناء أنطاكية، وأنشأ فيها معسكراً حصيناً على الجزيرة، واستولى الفرس على أنطاكية مرة ثانية عام (٢٦٠م).

في عهد جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م) ظهرت الدولة التدمرية قوية، ووقعت أنطاكية مع كامل سورية تحت سيطرة هذه الدولة، وعينت لها منتدباً في أنطاكية، هو بولص السمياطي وبقيت أنطاكية تحت سيطرة تدمر حتى عهد أورليانوس، الذي قضى على الدولة التدمرية.

في عهـد دقلديـانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) أنشـئ في أنطاكيـة عـدد مـن المبـاني، منهـا: القصر الإمبراطوري، الذي شيد على الجزيرة، وبنيت فيها مصانع للأسـلحة، منهـا: مصنـع لصنـع الـدروع والأسلحة، والثاني: لصنع أردية من الزرد، وبني فيها مخازن للغلال، وأعيد تنظيم دار الصك، وأعـاد بناء مضمار الألعاب الأولمبية في دفنـة، وأنشـأ في ذلـك المضمـار معبديـن، الأول: لزيـوس الأولمبي، والثاني: للإلهة تيميسبس. في عهده عقدت بين الروم والفرس معاهدة سلام عام (٢٩٧م).

أمـا عهـد الإمـبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) فيمتـاز بـدور مهـم في تـاريخ الدولـة الرومانية، وأهم ما في ذلك رسوخ الديانة المسيحية. أما في أنطاكية فقد عمل فيها على أهـم المبـاني شهرة، منها الكنيسة الكبرى المثمنة الأضلاع (الكنيسة الذهبية)، وتتألف مـن مبنـى مثمـن الشـكل، تحفُّ به حجرات ورواقان جانبيان، يتألفان من طابقين، الطابق الثاني كان مخصصاً للنساء، ولها قبـة نصف كروية عظيمة الارتفاع مصنوعـة مـن الخشـب، وفي داخلهـا تمـاثيل وزخـارف مـن النحـاس الأصفر والذهب، كانت هذه الكنيسة تقوم في الساحة، يحوطهـا رواق وأعمـدة مسـقوفة، وأمامهـا ميدان، وكان المبنى يحتوي على فندق ومطاعم ومدارس، وأماكن لسـكن رجـال الديـن. في عهـده عقد مجلس نيقية عام (٣٢٥م). وفي أنطاكية حدث أيضاً قحط، أدى الى وفيات كثيرة مـع انتشـار المرض. وفي عهد قسطنطينوس (٣٣٧ ـ ٣٦١م) أصبحت أنطاكيـة عاصمـة الشـرق، وفي عهـده تم إنشاء المكتبة، التي بدأ والده الإمبراطور قسطنطين إنشاءها.

في عهد يوليانوس (٣٦١ ـ ٣٦٣م) احـترق معبـد ابولـو، واحـترق السـقف، وتمثـال أبولـو المصنوع من الذهب والعـاج، فـأغلقت الكنيسـة نتيجـة ذلـك، وصـودرت الأوانـي الخاصـة بإقامة الطقوس الدينية. وفي عهده أيضاً ازداد القحط، وارتفعت الأسعار، وخفضت الضرائب. وفي عهـده كـانت الطائفـة المسيحية منقسـمة إلى ثـلاث طوائـف. الأولى: طائفـة الأريوسـيين، ومنهـم تتـألف الكنيسة الرسمية، الطائفة الثانية: طائفة اليوستانيين، الطائفة الثالثة: طائفة الميليتيين.

أما في عهد فالنتيانوس وأخيه فالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨م) حيث أخـذ فـالنس الشرق، وكـانت إقامته في أنطاكية، حيث اهتم بالإعمار، ففي أنطاكية أقام ساحة جديدة للسوق، وتقع عند الطرف الشرقي للشارع القصير ذي البوائك، وأعاد بناء قاعة القيصرون، أو رممها، وأحيطت الساحة بأربعة أروقة، وأقيمت ثلاثة تماثيل لفالنتنيـاتوس الأول فـوق عمـود وسـط السـاحة، والاثنـان الآخـران في محراب القيصرون، وأعاد بناء مدرج لصيد وذبح الحيوانات.

وفي عهد ثيودوسيوس الأول الأكبر (٣٧٩ ــ ٣٩٥م) اتخذت الديانة الأرثوذكسية سنة (٣٨٠م) ديانة الإمبراطورية، وفي عهده بنى كنيسة على هيئة صليب إشعاراً بعودة الأرثوذكسية، وحلت بأنطاكية مجاعة سنة (٣٨٢م)، استمرت سنتين. وفي عهده أيضاً حدثت ثورة في أنطاكية، صدر على أثرها مرسوم إمبراطوري، يتضمن عقاباً لمدينة أنطاكية، حيث جردت من مرتبتها، بوصفها عاصمة، وجعلت تابعة لمنافستها مدينة اللاذقية، وحرمت من مكانتها الحربية، وأغلقت مدرجاتها ومسارحها وحماماتها. إلا أنه صدر مرسوم آخر ألغيت بموجبه العقوبات، والقيود المفروضة على المدينة. وفي سنة (٣٩٥ ـ ٣٩٦م) رممت أسوارها.

في عهد ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ــ ٤٥٠م) قامت الإمبراطورة بزيارة أنطاكية سنة (٤٣٨م) وفاءً لنذر، حيث قرر مجلس الشيوخ في أنطاكية إقامة تمثال لها من البرونز في القاعة التي كانت قد ألقت بها خطاب المديح لأنطاكية، وتمثال آخر من البرونز في خارج المتحف، وخلال هذه الزيارة مد نطاق سور المدينة إلى مسافة ميل جنوبي المدينة على طول الطريق المؤدي إلى دفنة، وأنشئت بوابة دفنة، وطليت بالذهب، وسميت البوابة الذهبية، وفي سنة (٤٣٩م) أمر الإمبراطور بأن تبنى باسيليكا في المدينة مزخرفة، ونقش عليها اسم الإمبراطور بالفسيفساء الذهبية. في عهد ليو الأول (٤٥٧ ــ ٤٧٤م) حدث في أنطاكية زلزال عنيف عام (٤٥٨م)، حيث أحدث أضراراً جسيمة، وأعقبه حريق.

وفي عهد زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١م) عيّن ايلوس في أوائل سنة (٤٨٢م) قائداً للجيش في وحدة الشرق الإدارية، ومقره أنطاكية، وجرى شقاق في الإمبراطورية، وتقلد ليونتيوس منصب الإمبراطور، وذلك بمساعدة ايلوس، واتخذ من أنطاكية مقراً له، لكن زينون تمكن من القضاء على هذا التمرد سنة (٤٨٨م). في هذه المرحلة حدثت في أنطاكية اضطرابات طائفية صحبتها حركة هياج ضد اليهود. في عهد زينون شيد (ماماياتوس) في دفنة مبنى، عرف باسم انتيقورروس، كما شيد في أنطاكية بهواً وأعمدة ورصيفاً بأحجار، سمي باسم ماميا توس، وأقام بينهما بوابة ذات أربعة ممرات.

في عهد أناستاسيوس (٤٩١ ــ ٥١٨م) حدث في أنطاكية شغب خلال الاحتفال بإقامة الألعاب الأولمبية، وحظر إقامة حفلات التمثيل والرقص. وفي عام (٥٢٥م) شب في أنطاكية حريق كانت آثاره التدميرية غير محدودة، حيث تهدمت كنيسة القديس ستيفانوس، ومقر قائد الجيش، ومبانٍ كثيرة أخرى، ووقعت خسائر جسيمة في الأرواح، فقدم الإمبراطور يوستينوس الأول (٥١٨

ـ ٥٢٧ م) المساعدات الكافية لأنطاكية. وفي عام (٥٢٦م) وقع في أنطاكية زلزال، كانت نتائجه التدميرية كبيرة في الأرواح والبناء، أي أن هذا الزلزال كان قد أتى على المدينة بأكملها، فعمل على إعادة المدينة من قبل الإمبراطور.

وفي عهد يوستينيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) وقع زلزال آخر عام (٥٤٨م)، انهارت به أسوار المدينة وأكثر مبانيها، فقدمت أيضاً مساعدات مالية لإعادة ما تهدم منها. وفي السنة نفسها هاجم المناذرة أنطاكية، فأحرقوا فيها ما قدروا عليه، وقتلوا عدداً من سكانها. وفي عهده احتل الفرس أنطاكية، فدمروا وقتلوا الكثير، ونهبوا المدينة وأحرقوها.

بالطبع أصدر الإمبراطور يوستينيانوس أمراً بإعادة إعمار المدينة، فوضع من جديد تخطيط الشوارع، وأروقة الأعمدة، واستصلح نظام جلب المياه وتصريفها، وأنشأ المباني العامة، والحمامات والمسارح، وأعيد بناء كنيسة العذراء، وبنيت كنيسة كبرى باسم كبير الملائكة (ميكائيل)، وشيدت مستشفيات، وزّودت المدينة بدور للضيافة، وأدخلت تحسينات على السور، لكي يكون أكثر ملاءمة للدفاع، وزود كل برج في السور بصهريج لجمع المياه. وفي سنة (٥٤٢م) حدث في أنطاكية وباءٌ وزلزال في كل من السنوات (٥٥١ ـ ٥٧٧م).

في عهد الإمبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥ ــ ٥٧٨م) وقع زلزال عام (٥٧٧م) فدمر دفنة بأكملها. وفي عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢ ــ ٦٠٢م) حدثت في أنطاكية هزات أرضية عام (٥٨٨م) هدمت جميع أبراج سور المدينة، وهدمت الكنائس والحمامات، بالإضافة إلى عدد كبير من الضحايا. وفي عهد الإمبراطور هرقليوس (٦١٠ ــ ٦٤١م) وقعت أنطاكية في قبضة الفرس. واتخذ هرقليوس أنطاكية مقراً لقيادته، حتى غادرها عام (٦٣٦م). وفي العام التالي حررها العرب.

المياه في أنطاكية:

اشتهرت أنطاكية بغزارة مياهها ونقاوتها، حيث ذكر ليباتوس خطيب مدينة أنطاكية عام (٣٦٠م) يقول: «في المدينة مياه، تجري في مختلف جنباتها... إن مياهنا تفوق المياه العذبة في سائر المدن بغزارتها، وهي تفوق المياه الغزيرة في سائر المدن بعذوبتها... وكل من يمكنه أن يبني حماماً يفعل ذلك، وهو واثق بسبب هذه الجداول... ويمكن إدراك مقدار ثروتنا المائية من عدد المنازل، طالما أنه توجد عدة سبل بعدد المنازل أو بالأحرى توجد عدة سبل في المنزل الواحد. كما أن أكثر

الحوانيت مزدانة الأسلوب نفسه»[1].

اشتهرت أنطاكية وما حولها بالينابيع، وساعدها على ذلك التكوين الطبيعي للهضبة، التي تقع عليها المدينة، وأشهر الينابيع تلك، التي تقع في دفنة على بعد ست كيلومترات من أنطاكية، حيث توجد خمسة ينابيع. حيث استعملت المياه لسقاية دفنة ولتزويد أنطاكية بمياه الشرب. وكشف عن بقايا بركة قديمة، كانت تجمع فيها المياه قرب الينابيع، ومنها تتجه في ترعة تحت الأرض، حيث يذكر: أن الأقنية، التي كانت تزود أنطاكية بالمياه كانت من تلك البركة.

وذكر: أن سلوقس الأول كان قد بنى قناة لتزويد أنطاكية بالمياه. ومن المعلوم أن المدينة زودت بالمياه من الضواحي، كما أن الكثير كانوا قد بنوا في المدينة منشأة، تحتاج إلى مياه، فمثلاً لقد اهتم الرومان بمياه الشرب. فيوليوس قيصر كان قد بنى حماماً عاماً على الاكربول، وزوده بالمياه بواسطة قناة. وفي عهد الإمبراطور كالبقولا عندما حدث زلزال عام (٣٣٧م) أمر بإصلاح ما تهدم، وأمر ببناء حمام عام قرب الجبل، وأرسل موظفاً خاصاً للإشراف على العمل، وقد بنى هذا الموظف قناة من دفنة، لتوصل المياه لهذا الحمام، وفي زلزال عام (١١٥م) أنعم الإمبراطور تراجان على أنطاكية ببناء حمام عمومي وقناة، تأتي بالمياه من ينابيع دفنة. كما بنى هادريان عندما زار أنطاكية حماماً عمومياً وقناة، سماهما باسمه، وشيد هادريان بناء عند ينابيع دفنة وحول المياه التي تجري منها إلى الأودية، وبنى هناك جدراناً قوية لتحدد مجرى المياه، وتوصلها إلى أنطاكية بواسطة القناة، وبنى هيكلاً لعرائس المياه في دفنة، وأقام فيها تمثالاً عظيماً للإله رفس، وجعل المياه التي تخرج من هذا الهيكل تجري في خمسة جداول.

بالإضافة إلى ينابيع دفنة وجدت مصادر أخرى لمياه أنطاكية، وكانت الآبار قسماً منها كما استفيد من مياه نهر صغير اسمه: (بارمبنيوس)، كان يجري وسط المدينة، ليصب في العاصي.

وكانت قوانين الإمبراطور تيودوسيوس (أواخر القرن الرابع الميلادي) تتعلق في بعض جوانبها بالمحافظة على الأقنية في أنطاكية ودفنة. وبعد زلزال (٥٢٦م) أرسل الإمبراطور جوستنيان أموالاً لترميم المدينة والأقنية والأسوار والجسور. وعندما هدم الفرس أنطاكية عام (٥٤٠م) أعاد الإمبراطور جوستنيان بناء المدينة والأقنية والسبل.

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد الأول ـ الجزء الثاني ١٩٥١ ـ ص٢٧٩

ثانياً ـ اللاذقيـة:

إن اسم راميتا أقدم ما عرف من أسماء مدينة اللاذقية، وعرفت فيما بعد بأسماء متعددة. سماها الفينيقيون في البداية: راميتا (ياريمونا)، ثم حملت في العصر الحديدي اسم (مزيدا)، وأطلق عليها اليونان: اسم (لوكيه اكتيه) أي الشاطئ الأبيض، وفي العصر الهلنستي بنى سلوقس نيكاتور عام (٣٠٠ ق.م) مدينة سماها لاوذكية، وعندما فتحها العرب سموها لاذقية ثم لاذقية العرب. ودعاها الصليبيون لاليش.

وفي العصر الهلنستي كانت لاوذكية المرفأ الرئيسي لشمال سوريا، أما في العصر الروماني فقد عانت المدن السورية من الاضطرابات، التي نشبت بين الأباطرة في روما، فمثلاً مدينة اللاذقية عام (٤٧ ق.م) منحها يوليوس قيصر امتيازات، لأنها وقفت إلى جانبه، وفي عام (٤٠ ق.م) أعلنت كمدينة حرة، وأعفيت من الضرائب، وخلال هذه المرحلة جرت إليها المياه من نبع العبدو، بقناة متينة من الحجر. امتاز مرفؤها في عام (٢٠ ق.م) بنشاط تجاري وخاصة مع الإسكندرية.

وفي القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، كانت اللاذقية تصدر نقوداً مصكوكة من الذهب أو الفضة، ومنحت في عهد سفيروس لقب: شرف المتروبولس، أي المدينة الرئيسية. وبذلك أصبحت مرفأ دولياً، وضربت النقود باسمها، ثم ضربها زلزال في (٥٢٩/١/٢م)، أخيراً حررها العرب سنة (٦٣٧م).

تقع اللاذقية على الشاطئ الشمالي الشرقي للبحر المتوسط[1]، إلى الجنوب من سلوقية بيريه، وشمالي نهر الكبير الشمالي (البوتيروس)، الذي كان الحد الفاصل لسورية المجوفة حتى عام (١٩٨ ق.م).

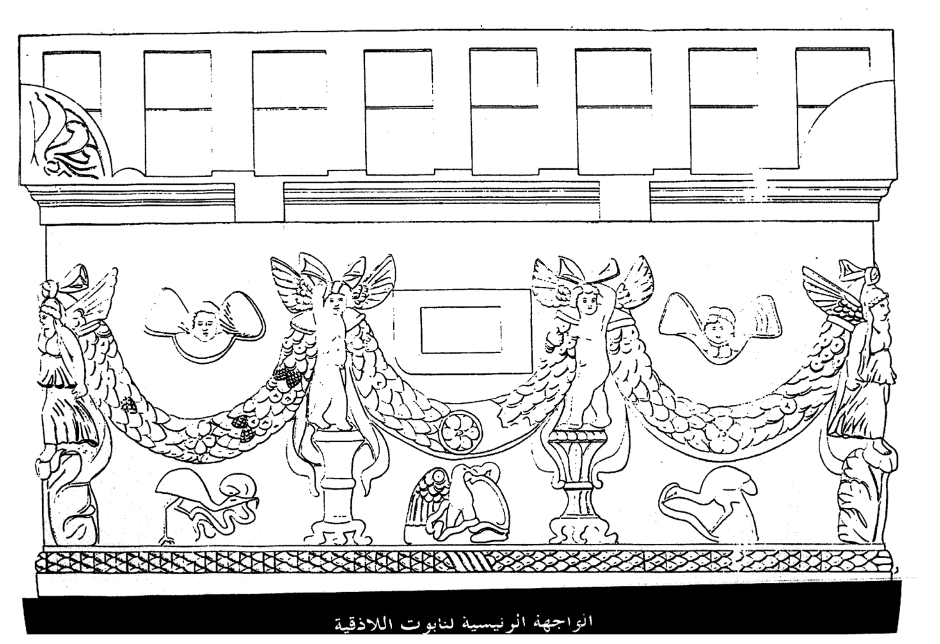
يذكر: أن سلوقس هو الذي أنشأها تكريماً لوالدته (لاودتلي)[2]. بنيت على موضع قرية فينيقية قديمة، تدعى رامانثا، وكان لها ميناء جيد، كانت حسنة البناء، جميلة الموضع، تقوم على سفوح عدد من الجبال، التي تغطيها الكروم، التي سمحت بتصدير الخمور بكثرة إلى أرجاء العالم القديم وبخاصة الإسكندرية.

والمعلومات التاريخية عن (لاودكية)، من حيث بناؤها ومنظماتها وإدارة دفة الحكم

---

[1] مفيد العابد: دراسات في تاريخ الإغريق ـ طبع دمشق ١٩٩١ ـ ص ٣٠٥.

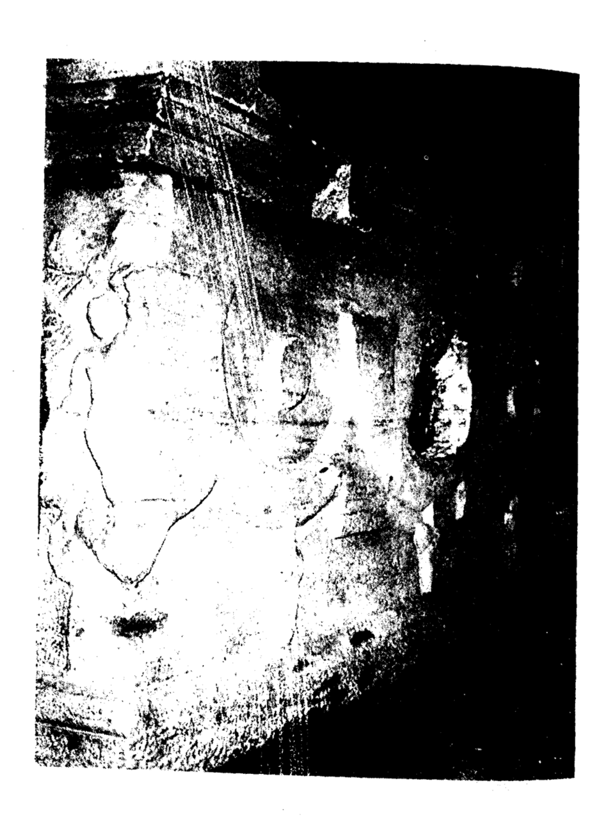
[2] أسد رستم: تاريخ اليونان ـ طبع لبنان ـ ١٩٩١ ـ ص ٧١.



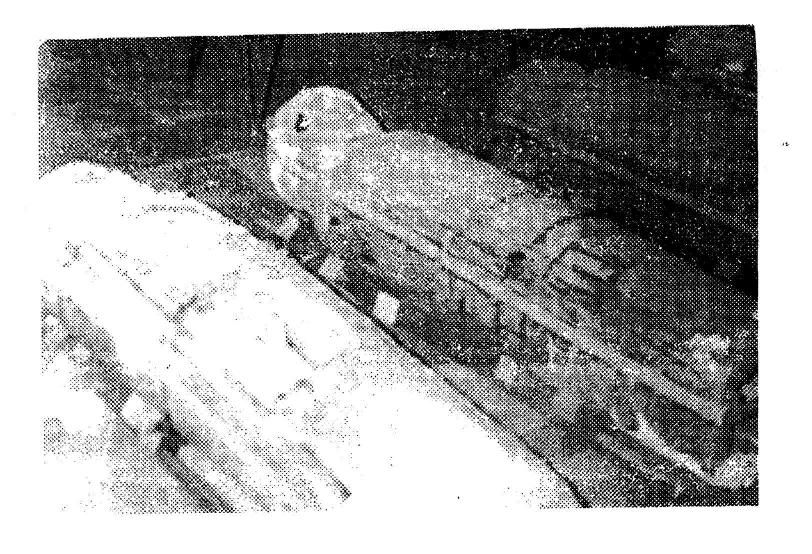
الواجهة الرئيسية لتابوت اللاذقية



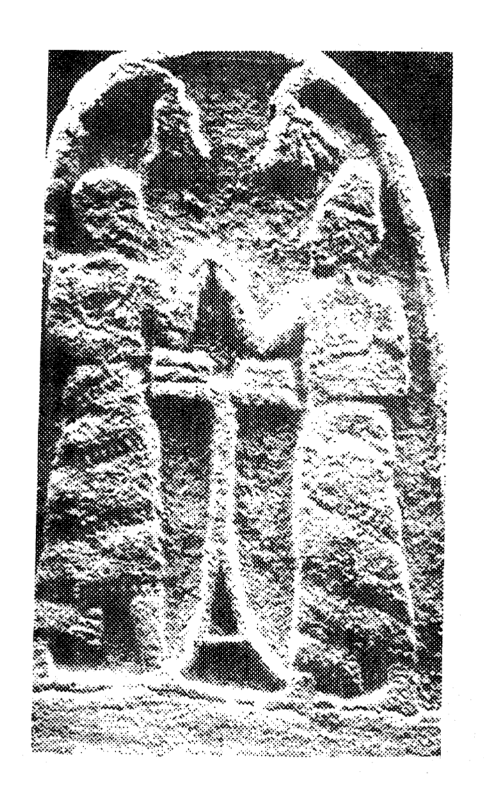
- تـل سيانـو -   البـاحـة المـرصـوفـة



الواجهة الخلفية



- طرطوس -



- طـــرطـــــوس -



الأعمدة حالياً



١ ـ تل سيلنو



الواجهة الجانبية اليمنى

فيها في العصر الهلنستي قليلة، وذلك لعدم إجراء أية حفائر منتظمة في المدينة. اشتهرت اللاذقية بالزنبق[1]، وزيت الزنبق، الذي كان يطلق عليه أيضاً الزيت السوري، وكان مطلوباً لاستخدامه طبياً، وكان يصدر.

يذكر: أن اللاذقية وأنطاكية كانتا من تصميم مهندس معماري واحد[2]، لأن شواهد الآثار تبين وجود خطة موحدة لتصميم وتخطيط الشوارع، وحجم رقع المباني تؤكد ذلك، أي أنهما كانتا تلتزمان في تخطيطهما بمواصفات عامة، وأن تماثل وحدات المباني في كل من أنطاكية واللاذقية يوحي بالتزام تطبيق نموذج واحد في التخطيط، فمساحة كل واحدة من وحدات المباني في أنطاكية تبلغ أبعادها (٣٦٧ × ١٩٠ قدماً)، على حين أنها في اللاذقية تبلغ أبعادها (٣٦٧ × ١٨٦ قدماً). ولعل الفارق كان في طول الضلع الصغير، لأن موقع اللاذقية كان في منطقة محدودة ذات شكل خاص. علماً أن مدينة اللاذقية كانت تشكل (٥٤٣ فداناً).

وكانت اللاذقية وغيرها من المدن السلوقية، تؤلف جزءً من الخطة السلوقية العملية للاستعمار من أجل أغراض حربية، وكان إنشاء هذه المدن بسكانها المقدونيين والإغريق ضماناً لسيادة الدولة على الأراضي المفتوحة. ومن المحتمل أن مدينة اللاذقية كان لها والٍ وحاكم ملكي، وكان يقيم بها بعض الموظفين اليونان مع بعض القوات.

بعد انحلال الإمبراطورية السلوقية، تحولت بلاد الشام إلى مستعمرة رومانية اعتباراً من (٦٤ ق.م) على يد بومبي. عندما دخل بومبي سورية أعلنها بلاداً، ليس فيها ملوك شرعيون إنما يعدها مستعمرة رومانية. في عام (٤٤ ق.م) تم تعيين (أنطونيو دولا بيلا) حاكماً على سورية برتبة نائب قنصل، في هذه الأثناء قدم إلى سورية كاسيوس لا كممثل رسمي للحكومة الرومانية، وإنما كرجل سياسة، كان قد قطع كل علاقة له مع إدارة القيصر، أما (دولا بيلا) فحاول احتلال أنطاكية. إلا أنه تراجع، وتحصن في اللاذقية، ومن هناك شن هجوماً على أرواد، الغاية منه نهب المدينة والاستيلاء على الأسطول. إلا أنه فشل أيضاً. وعند عودته هاجمه كاسيوس، وانتصر عليه، ثم تابع تقدمه، وحاصر اللاذقية، وأخذها بمساعدة حراسها، فانتحر دولا، وأقام كاسيوس حكومات دكتاتورية في كافة المدن السورية. عندما بدأ كاسيوس حصار اللاذقية، طلب سفناً من فينيقية. إلا أن طلبه رفض، ولم تستجب له سوى صيدا.

---

[1] جلافيل داوني: أنطاكية القديمة ـ ص٣٠.

[2] المرجع نفسه: ص٤٥.

كانت مدينة اللاذقية متعاطفة مع أتباع القيصر في الحرب الأهلية، وكانوا يكنّون له شعوراً بالصداقة، وعندما احتل كاسيوس مدينة اللاذقية، أمعن فيها تخريباً وتهديماً، دون أن تأخذه بها رحمة أو شفقة، فنهب المعابد، وخزنة المدينة، وأعدم وجهاءها، وفرض على الآخرين أتاوات مرهقة. وهكذا فإن سكان المدن السورية لم يعبروا عن عدائهم للجمهوريين. في الوقت نفسه كانت اللاذقية على خلاف مع خصوم الجمهوريين أي من أتباع قيصر، كما ذكرنا.

في عهد (ماركوس أورليوس) (١٦١ ـ ١٨٠م) كانت اللاذقية مرتعاً لمباهج لوكيوس فيروس (١٦١ ـ ١٦٩م) الذي كان قد أرسل إلى الشرق، ليتولى قيادة الحرب ضد الفارطيين، حيث انصرف بعد وصوله إلى سورية إلى حياة البذخ والترف متنقلاً بين دفنة، حيث كان يقضي فصل الصيف، واللاذقية حيث كان يقضي فصل الشتاء، وأنطاكية بقية الوقت.

في سنة (١٦١م) وصلت لجنة رومانية إلى سورية برئاسة اغتابوس اكتافيوس للبت في إخلاد أنطاكية إلى السلم والسكينة، فشق تدخلها على الأوساط الهيلينية المتطرفة، فهب أحد هؤلاء، فاغتال اغتابوس المذكور لدى وصوله إلى اللاذقية.

وفي عهد سبتيموس سفروس (١٩٣- ٢١٠م) خرجت أنطاكية عليه، وتمردت، حيث كان سبتيموس نيجر يحشد قواته في سورية، وأكثر جنوده من أنطاكية، وقيل: إنه كان يتمتع بقدر من المحبة في روما أكثر من الإمبراطور سبتيموس سفروس. وفي النهاية تمكن الإمبراطور من القضاء على هذا التمرد، فأنزل بأنطاكية نوعاً خاصاً من العقاب، خلال هذه الأحداث، وقفت اللاذقية إلى جانب الإمبراطور، فكافأها، ونقل إليها مركز العاصمة.

«وللحيطة من وقوع أية محاولة في المستقبل من جانب أحد حكام ولاية سورية القوية لتنصيب نفسه إمبراطوراً، عمد سبتيموس سفروس إلى تقسيم الولاية إلى قسمين: (جوف سورية)، (وسورية الفينيقية). وقد أنزل بأنطاكية نوعاً خاصاً من العقاب، ولم يكن ذلك بسبب مناصرتها لسبتيموس نيجر فحسب، بل لأن مواطنيها، الذين جبلت نفوسهم على الاستقلال في الرأي، كان قد راق لهم أن يسخروا من سبتيموس سفروس أثناء إقامته في المدينة سنة (١٧٩م)، عندما كان يتولى قيادة الفرقة الرابعة.

وقد كانت لدى سبتيموس وسيلة للعقاب ذات قيمة خاصة، من حيث تأثيرها الفعال، وذلك أن اللاذقية كانت في مبدأ الأمر تغار من أنطاكية، التي كانت أصلاً تعادلها في المرتبة، لكنها

سرعان ما فاقتها في المكانة»[1] علماً أنه كان لدى اللاذقية الكثير من المزايا، التي كان بوسعها أن تفخر بها.

استغل الإمبراطور هذا الموقف على أكمل وجه. إذ أن أنطاكية حرمت لقبها كحاضرة ومركزها كعاصمة لسورية، وخفضت مكانتها من الناحية الإدارية إلى مرتبة قرية تابعة للاذقية، التي جعلت العاصمة.

وأغدق سفروس على اللاذقية كثيراً من الهبات الأخرى، وحباها بمنشآت عامة، كالحمامات والمعابد والملاعب ومنشآت عامة. وإمعاناً في إذلال أنطاكية، نقل الإمبراطور منها الحفل المحلي للألعاب الأولمبية، وضمه إلى الألعاب، التي أنشأها في أيسوس تخليداً لانتصاره هناك.

إذن بعد أن انتصر الإمبراطور الروماني سبتيموس سفروس على خصمه عام (١٩٤م) قام في أواخر القرن الثاني للميلاد بإعادة تشييد مدينة اللاذقية، وتجميلها حتى أصبحت في مصافِ الحواضر الرئيسية في الإمبراطورية الرومانية. فبإيعاز من سيفر اتخذت اللاذقية فجأة هيئة أكثر جمالاً وإبداعاً بفضل إدخال نمط الأروقة المعمدة على طول الشوارع الرئيسية، التي وسعت لهذه الغاية لتتلاءم مع الخط الشائع آنذاك في الأساليب المعمارية الرومانية، كذلك في إنشاء الإدارات العامة: كالساحات وحلبات السباق والحمامات.

لكن الإمبراطور كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م) أعاد إلى أنطاكية الألعاب الأولمبية، كما أعاد لها اعتزازها بكرامتها المدنية، بأن حررها من إشراف اللاذقية، ومنحها لقب مستعمرة، وهو لقب كان موضع الطموح، ولو أنه غدا آنذاك بلا معنى ولا قيمة سياسية.

وفي عام (٢٥٣م)[2] غزا سابور سورية، واستولى على عاصمتها أنطاكية وأحرقها ودخلت اللاذقية تحت سلطة الفرس، ثم انسحب الفرس من سورية، وكرر الفرس غزوها ثم أصبحت سورية، ومن ضمنها اللاذقية تحت سلطة ملكة تدمر (زنوبيا).

وفي (١٧ حزيران ٣٦٢م) أصدر الإمبراطور يوليانوس قانوناً جديداً للتعليم، وحصر بموجبه تعيين الأساتذة بيد السلطة المركزية، ومنع المسيحيين من مزاولة هذه المهنة. فانبرى كل من

---

[1] جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ ص١٤٠ ـ ١٤١.

[2] جلانفيل داوني: تاريخ أنطاكية ـ ص١٧٣.

ابولتاريوس كاهن اللاذقية[1] وأكبر أساقفتها لنظام التاريخ المقدس في لغة يونانية قشيبة فصحى، فأخرج أربعاً وعشرين قصيدة، فتيسرت للنصارى نصوص يونانية فصحى، استعاضوا بها في تعليم أولادهم عن النصوص اليونانية الوثنية.

أعلن ثيودوسيوس عن عقد مجمع مسكوني سنة (٣٨١م) للنظر في أمور الكنيسة جمعاء، حضر هذا المجمع أسقف اللاذقية. وفي سنة (٣٨٧م) زيد في فرض الضرائب، وثارت أنطاكية، فأمر الإمبراطور ثيودوسيوس بتأليف مجلس عدلي للنظر في هذه الحوادث، واتخذ هذا المجلس مركزه في أنطاكية، وحكم وقسا على الرغم من احتجاج الرهبان الأتقياء، ونزع ثيودسيوس لقب متروبوليت عن أنطاكية، وأنعم به على اللاذقية. يقول أسد رستم[2]:

كانت الكنيسة قد عملت منذ البدء على أن المسيح إله كامل وإنسان كامل، فلما أشهر أريوس عليها هذا الاعتقاد، عقد المجمع المسكوني الأول، وأقر كمال لاهوت المخلص في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثاني. وحكمت بضلال أريوس وبطلان تعاليمه، ثم ظهر ابولينارنوس أسقف اللاذقية، الذي اشتهر بدفاعه عن النصرانية في أيام يوليانوس الجاحد، وبتمسكه بتعاليم المجمع المسكوني الأول، فعلم أن اللاهوت في المسيح، قام مقام العقل في الإنسان، وبالتالي إن المسيح كان الكلمة في الجسم الإنسان.

في عام (٣٨٧م) حدثت فتنة في أنطاكية، سببها الاستياء العام من الحالة الاقتصادية، التي كانت تسود القسم الشرقي من الإمبراطورية. في أوائل هذا العام وصل إلى أنطاكية مرسوم إمبراطوري، يفرض ضريبة ثقيلة الوطأة، فقوبل هذا المرسوم بالمعارضة وتخفيض الضريبة، ونشبت الفتنة في المدينة، فكان لها آثار سلبية عليها. وفي النتيجة قضى على هذا التمرد.

بعد ذلك أصدر الإمبراطور الروماني تيودوسيوس مرسوماً إمبراطورياً، يتضمن عقاباً مبدئياً شاملاً للمدينة بأسرها، وبموجبه جردت المدينة من حريتها بوصفها عاصمة، وجعلت تابعة لمنافستها القديمة مدينة اللاذقية، وحرمت المدينة من مكانتها الحربية، وأغلقت مدرجاتها ومسارحها وحماماتها. إلا أن الإمبراطور نفسه أصدر مرسوماً آخر، ألغيت بموجبه العقوبات والقيود المفروضة، وأعيدت الامتيازات كما كانت قبل ذلك.

---

[1] أسد رستم: تاريخ سوريا ـ الجزء الأول ـ ص٨٢.

[2] أسد رستم: روما ـ ص١٢٣.

في عام (٤٥٨م) حدث زلزال على الساحل السوري، يعتقد أن مدينة اللاذقية لقيت منه بعض الأضرار، ودعا الإمبراطور الروماني زينون إلى انعقاد مجمع ديني في اللاذقية، أثبت براءة البطريرك بطرس القصار، وأعاده إلى كرسيه في أنطاكية. في يوم (٢٩ نوفمبر ٥٢٨م) ثم حدث زلزال أحدث خسائر ودماراً في مدينة اللاذقية، حيث يذكر: أنه قتل في هذا الزلزال، الذي شمل أنطاكية واللاذقية وسلوقية حوالي (٤٨٧٠) إنساناً.

في عهد الإمبراطور زينون[1] عقد مجمع ديني في اللاذقية عام (٤٧٨م). يقول فرانتس النهايم[2]: أخيراً لقد ترك العصر الروماني بصماته على مدينة اللاذقية، حيث لا نزال نذكر الأعمدة ذات التيجان المزخرفة بنقوش فخمة والأقواس والأبنية والأخشاب المخروطية، التي تزينها.

العلاقات العامة في اللاذقية:

كانت مدينة اللاذقية تمتلك منطقة مهمة لزراعة الكرمة، فالتلال المحيطة بالمدينة كانت مغطاة تماماً بالكروم، وهذا ما أدى إلى تخصص اللاذقية في تصدير الكرمة، حيث يروى: أن القسم الأكبر من الخمور المصدرة إلى الإسكندرية، كانت تجلب من اللاذقية المنافسة لأنطاكية، التي تقع جنوبها. وكانت اللاذقية مركز مسرات محبباً يتردد عليه الوجهاء في أوائل القرن الأول الميلادي، حيث كانت، كما ذكرنا، التلال القليلة الانحدار، والتي تشرف على المدينة مغطاة كلها حتى قممها بالكرمة[3].

شغلت الحرفة حيزاً هاماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدن السورية، التي أنشأها اليونان والرومان، حيث كانت مدينة اللاذقية تعدّ مركزاً هاماً لإنتاج الكتان، وكان يوجد في هذه المدينة صناعة حريرية، وأخرى صوفية. كما كانت تصدر مختلف أنواع الألبسة، وكما ذكرنا كان اختيار الحرفة تفرضه ظروف مادية صعبة، وكان يتم اختيار الحرفة على أساس ميل الشخص، الذي سيعمل بها، كما كانت الموهبة والرغبة الضمان الأكيد لنجاح المهمة.

وتتصف السياسة الرومانية في سورية، بإعطاء الحلفاء في المدن المحلية والمستعمرات الحقوق

---

(1) حلانفيل داوني: ص٢٩٥.

(2) فرانتس النهايم: إله الشمس الحمصي، والديانات الشرقية في الإمبراطوريات الرومانية ـ طبع دمشق١٩٩٠ ص٣١.

(3) أسد رستم: تاريخ روما ـ الجزء الأول ـ ص١٢٣.

الإيطالية، ومن المدن السورية، التي حصلت على هذه الحقوق اللاذقية، وغيرها كصور وبيروت وبعلبك وحمص وتدمر. وكانت اللاذقية قد منحت لقب البوليس الحر مكافأة لها على مقاومتها لكاسيوس. وتؤكد النقود المعدنية المكتشفة في اللاذقية أن الرومان اقتفوا أثر السلوقيين في سياستهم هذه، فقد حملت إلينا النقود المعدنية، التي يعود تاريخها إلى (انطوخ الرابع) (اسكندر بلاس) (وأنطوخ الثامن) الخرافات التالية (Laodik Fam Tnros).

وإلى جانب هذا حملت اللاذقية لقب: مدينة يوليوس، ثم أصبحت في عهد أغسطس ميتروبولية، وتدل النقوش، التي صدرت في الفترة ما بين عهد سيفير وإلى فاليريان، على أنها حملت لقب: مستعمرة وكانت بعض المدن السورية كاللاذقية وأنطاكية وسلوقية بيريه ابتداءً من عهد الإسكندر (بالاسيوس)، وحتى أنطوخ السابع، قد شكلت اتحاداً فيدرالياً، أصدر عملة نقدية موحدة، نقشت عليها خرافة الشعوب الشقيقة، علماً أن النقود، التي وصلتنا من اللاذقية في العهد الروماني، لم تحمل لنا أي معطيات. هذا ويعتقد أن مجرد إصدار النقود يعني أن المدينة كانت تتمتع بحق الاستقلال الذاتي سواء أشارت النقود المعدنية إلى ذلك أم لم تشر.

هذا وتعطينا لائحة المشاركين في اجتماع المجمع المسكوني المنعقد في فينيقية عام (٣٢٥م)، تصوراً عن انتشار المسيحية في سوريا حيث مثل سورية في هذا الاجتماع أساقفة كل من اللاذقية وصور وصيدا وطرابلس وبيروت وأنطاكية وسلوقية، كما تحولت كل من بصرى وجرش إلى مراكز كبرى للمسيحية.

إن القوافل، التي كانت تغادر المدن الفينيقية، كان باستطاعتها أن تسير شمالاً في محاذاة الشاطئ إلى اللاذقية، أو أن تنحرف شرقاً شمالي طرابلس إلى حمص، وكان بإمكان القوافل المنطلقة من مصر أو البتراء أو الساحل الفلسطيني أن تتبع الطريق الساحلي، حتى تصل إلى اللاذقية، ومن هناك تتصل بسلوقية بيريه وأنطاكية.

أخيرا كانت اللاذقية إحدى المرزبانات الأربعة في سورية الشمالية، والتي قسمت إلى أربع مرزبانات، كما ذكرنا، عواصمها كما يلي (اللاذقية وأنطاكية وسلوقية وأفاميا)، وتتبع لها قرى كثيرة من حولها، وقيل: إن المرزبانات الأربعة لسورية الشمالية هي (أنطاكية - أفاميا - قرهستيقه [شرق سورية] - خلقيدينه) والقول الثاني عبارة عن فرضية[1]، اعتمدت الشك.

---

[1] أ - هـ - م - جونز: مدن بلاد الشام - حين كانت ولاية رومانية - ص٣٦.

والمدن الأخرى المدعوة يونانية لأنها جددت في عهدهم، أو أقيمت على مواقع أقدم منها، عدّ سكانها من العهد اليوناني عسكريين، كما رتبت لكي تكون ميناء، الغاية منه تجارية وحربية. ومن المعلوم أن مدينة اللاذقية قد منحت استقلالاً ذاتياً واسعاً، ومنحت أيضاً حق صك العملة، وعدّت من مدن الدرجة الأولى ذات الامتيازات. وخلال الحرب الأهلية، التي استمرت من سنة (١١٦ - ٩٦ ق.م) بين (أنطيوخس الثامن)، و(أنطيوخس التاسع)، حصلت اللاذقية على اعتراف رسمي بحريتها حوالي (٨٢ ق.م) أثناء حكم (تفراتس). وصكت اللاذقية نقوداً أثناء العهد الأول من الإمبراطورية الأولى، حيث كانت تعدّ آنذاك مدينة حرة.

يعتقد أن مدينة اللاذقية بنيت على تلّين، ثم امتدت المدينة إلى القرب من هذين التلين باتجاه البحر. وأولهما التل الشمالي: ارتفاعه عن سطح البحر (٧٠م)، ويسمى القلعة، عثر فيه (جان سوفاجيه) على تاج عمود روماني، كما جمع من الردم أجزاء سرج رومانية، وقدحاً كبيراً وإناء من الفخار المشوي وجرة، وعروة رودسية، عليها طبعة وختم، وعثر على كرة منجنيق. كما وعثر في الشمال الغربي من التل على فخار، يعود إلى العصر الهلنستي والروماني، وبعض القطع الرخامية، وفي عام (١٥٩م) ظهر كهف جنائزي في شرقي التل. وكشف أيضاً عن جذع امرأة من الرخام، ارتفاعه (٤٠سم).

أما في حي الفاروس، المعروف بتل الفاروس، فقد عثر عام (١٩٣٤م) على قطعة من عمود وجزء من الكسرات الفخارية من العصر الروماني، وبقايا تابوت بيزنطي. كما كشف عن عمود صغير من الحجر الجيري وجرن جنائزي جميل. كما كشف عام (١٩٥٠) كهفان جنائزيان منحوتان في الصخر. وفي الجهة الشمالية من التل كشف عام (١٩٧٥م) عن توابيت رصاصية، هذا ويوجد في اللاذقية مدفنان خارج الأسوار. أحدهما: في الشمال، والثاني: في شرق المدينة. ويوجد في هذه المدافن قبور وغرف جنائزية محفورة في الصخر وتوابيت من مختلف الأشكال.

كما كشف عن عدة مداخل وكهوف وجذع عمود، وعدة أحجار منحوتة وحفة فخارية، وقطعة نحاسية، لها شكل ملعقة، وعليها كتابة، وأربعة نقود برونزية رومانية. اثنتان منها باسم الإمبراطور قسطنطين، وآخر باسم روما. وفي سنة (١٩٦٧م)، وفي شارع غسان حرفوش ظهر كهف منحوت في الصخر، مدخله في الجهة الجنوبية، وجد داخله جرة، ونقد وكسرات فخارية من العصر الروماني. وفي عام (١٩٦٣م) وفي شرق شارع (٨ آذار) وجدت قبور كثيرة منحوتة في الصخر ونقد وقطعة من ميزان روماني برونزي، عليه بقايا تذهيب. وفي طريق أنطاكية

ظهر كهف جنائزي منحوت في الصخر، وفي أحد معازبه تابوت حجـري، ولـه غطـاء، وفي معزبـة أخرى وجد تابوت فخاري أسطواني الشكل.

وفي ساحة الشيخ ضاهر بالقرب من ثانوية جول جمال، كان يقوم تل، عرف: بتـل الفخـار. وأمام مبنى الثانوية كان قد اكتشف عام (١٩٢٤م) ستة توابيت، تعـود إلى القـرن الثـاني الميـلادي، وفي المنطقة نفسها وجدت أجزاء من الفسيفساء بيضاء وسوداء، وعدة سـرج رومانيـة مـن الفخـار ونقد وقطع من زجاج الباكيات.

كما كشف عن ختم مستطيل على أذن جرة من رودس، يعود للعهد الهلنستي، عليه كتابـة. وكشف عن كسرة مرمر، عليها كتابة من العهد البيزنطي. كما كشف عن قـاعدة تمثـال، وجـدت قرب (أربعة توابيت من الرصاص، عليها كتابة يونانية)، وكشف أيضاً عن كسر من المرمر، وجدت أيضاً قرب توابيت الرصاص، وفي حي مار تقلا[1]، وكشف عن ميدالية صغيرة مـن النحـاس، كتـب عليها باليونانية: (الذي يبقى في ظل الرب). وكشف عن قطعة مرمر، في حي مـار تقـلا، ارتفاعهـا (٣٧سم)، سطحها العلوي (٢١,٥ × ١٦سم)، عليها كتابة، وعثر على تابوت من حجـر الكلـس في ساحة الشيخ ضاهر، وكشف عن جزء من تابوت مصنوع من الحجر الرملي عام (١٩٥٤م) بحي الطابيات، عليه كتابة يونانية، كما كشف عن كسرة من المرمر عام (١٩٦١م) بحي الصليبية، عليها خمسة سطور يونانية. وكشف عن وزنة من الرصاص عام (١٩٥١م) شمـال المرفـأ القديـم، شـكلها يشبه المربع (٥,٤ × ٤,٩سم)، وزنها (١٢٦غ)، عليها تاريخ بالتقويم السـلوقي، يعـادل (١٥٨ ـ ١٥٧ ق.م)، ووجد مع الوزنة السابقة ختم على أذن جرة مـن الفخـار، تعـود إلى العهـد الهلنسـتي، وكشـف عن خـرزة بئـرمكسورة إلى قطعتين، ارتفاعها (٧٢سم)، وقطرها (٩٠سم)، كتب عليهـا باليونانية، وعثر على ختم على صحن فخاري، كتب عليه باليونانية: (المجد) يعـود إلى أواخـر القـرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الميلادي.

اكتشف في اللاذقية عام (١٩٥٧م) تابوت[2] في المكان المسمى (عين سانت الكسي) الواقعـة في طرف المدينة جنوب شرق المرفأ الجديد. يبلغ طول هذا التابوت (٢,٨٧م)، وارتفاعه (١,٨٢م)، وعرضه (١,٣٩م)، مسـتطيل الشـكل، لـه سـقف محـدب ذو انحداريـن، وجبهتـه مثلثـة مـن الأمـام والخلف، ويتألف من قطعتين من رخام أبيض، هما الغطاء والصندوق.

---

(١) سمي باسم القديسة مار تقلا ـ يقع في القسم الشمالي الغربي من المدينة.

(٢) الحوليات الأثرية السورية ـ المجلد السابع ١٩٥٧ ـ ص٧٣ وما بعدها.

ومن أهم المواقع الأثرية المكتشفة في اللاذقية والآثار، التي عثر عليها والتي تؤكد أهمية هذه المدينة عبر تاريخها الطويل، الذي يمتد قروناً بعيدة قبل الميلاد:

القوس المربع: يقع هذا القوس في محلة الصليبي، معروف في المدينة بالكنيسة المعلقة ويعرف أيضاً بقوس النصر. وهو بناء روماني، وهذا الطراز أول ما عرف عند الرومان. كان هذا القوس مكعباً، تعلوه من قمته الزوايا، يعلوه أربع فتحات، فوق كل فتحة عقد حجري متقن، يرتكز أسفل كل عقد على عمود، يعلوه تاج كورنيش.

الأعمدة (أعمدة باخوس): تقع الأعمدة شمال شرق القوس، وهي أربعة أعمدة فخمة مصنوعة من حجر الغرانيت، تعلوها تيجان كورنيشية مزينة بنقوش نباتية ثلاثة على شق واحد، والآخر إلى يسارها، يشكل معها زاوية قائمة. كما عثر في شارع الغافقي في مدينة اللاذقية على ثلاثة عشر عموداً بازلتياً على شق واحد، كما كشف في شارع المالكي عن ثلاثة أعمدة وفي شارع المثنى بن حارثة كشف على ثلاثة أعمدة متقاربة وعمود آخر إلى الشمال منها.

كهوف جنائزية: منحوتة في الصخر وكل من الفاروس ـ ومارتقلا والقلعة، وكشف عن قبور رخامية مزينة بنقوش نباتية وحيوانية، عثر على أهمها في عين السانت اليكسي، وعثر أيضاً على أربعة توابيت من الرصاص، تعود إلى العصر اليوناني ـ كما عثر عند بناء حول جمال الحالية على مدافن قديمة، نواويسها ضخمة من الحجر، عليها رسوم، تمثل رؤوس بقر وثيران، كما عثر في ساحة الشيخ ضاهر على سور وله صفوف من المقاعد الحجرية، كما عثر في المكان نفسه على نصب من الحجر الرملي، ارتفاعه متر، وقطره متر، عليه كتابة لاتينية، تعدّ أول كتابة لاتينية، اكتشفت في اللاذقية، وفي ساحة الشيخ ضاهر أيضاً اكتشف أسد من الرخام، ويوضحه الرسم الملحق.

ثالثاً ـ أفاميا:

أفاميا مدينة قديمة، يعود تاريخها إلى قرون عدة قبل الميلاد، اسمها القديم (فارناك)، ثم دعاها الإسكندر الكبير: (بلا). ويعدّ الرب بيل هو رب أفاميا الكبير، وكانت أفاميا ترتبط مع أنطاكية بطريق، يدخل الأخيرة عند الأخدود، الذي يقسم جبل كاسيوس إلى شطرين، ومن أفاميا كان يؤدي إلى سورية الشرقية. لكن، على ما يبدو: إن هذا الطريق لم يكن يستخدم كثيراً بسبب ضيقه فضلاً عن وعورته عند مدخل المدينة.

كانت أفاميا تشغل نحو (٢٦٠)[1] فداناً. وقد دلت البحوث الحديثة على أن نظام توزيع الشوارع في أفاميا كان ينعقد حسب نظام المدن السلوقية الأخرى كأنطاكية واللاذقية وسلوقية. وقيل: تقدر مساحة المدينة (أفاميا) بسبعة هكتارات ونصف، ويعدّ المسرح فيها من أكبر المسارح المعروفة في العالم الروماني، حيث يبلغ قطره (١٣٩م).

اكتشف أن مواقع ما قبل التاريخ[2] في أفاميا (قلعة المضيق) كانت غنية بالكهوف والملاجئ تحت الصخور. كما كشف عن وجود الصوان المقطوع خلال الحفريات، التي أجريت فيها قبل الحرب الكونية الثانية. ومن الأدوات، التي تم كشفها، والتي تعود إلى هذه المرحلة: النصال وعددها (١٤)، وكشف عن أجزاء من مناجل، عددها سبعة، وكشف عن اثنين من المخارز، وسبعة وثلاثين من المكاشط. كما كشف عن أدوات متنوعة مثل رأس سهم. ذيل رأس رمح ذي مقطع مثلث ـ أداة مركبة من طراز العصر الحجري، وكشف عن إزميل وسكين عريضة محدبة الظهر.

إذاً سكنت أفاميا منذ العهد الباليوتي الوسيط (٣٢٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م)، حيث اكتشفت مواقع متعددة، تضم الكثير من القطع الصوانية[3] المعروفة بالعهد (اللقوازي)، وفي العصر الحجري تراكمت أرض السكن، لتشكل نواة الاكريول، حيث التقط منها المكاشط، والمثاقب، والمناجل، كما اكتشفت طبقة من فخار العبيد، التي تعود إلى العصر النيولبتي والبرونز الوسيط. كما كشف عن أواني القبور، والتي تعود إلى عصر البرونز القديم (٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م) وكشف عن مخازن مستديرة وبيوت بسيطة، تنتمي إلى البرونز الوسيط.

تمتاز الصناعة الحجرية في أفاميا بغزارة نصال المناجل، والنصال المستعملة والأزاميل والحراب ذات الذيل، وشفرات من الأوبسيد، والبلطة المصقولة، والفخار المكتشف مصنوع من الطين المشوي القاتم اللون المصقول الرقيق الجدران مزين بتحزيزات مصنوعة بالظفر، يعتقد أن صناعات أفاميا الحجرية يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف السادس قبل الميلاد.

أفضل مقارنة حول الصناعة الحجرية في أفاميا هي مقارنتها مع الصناعة الحجرية في بيبلوس

---

[1] جلانفيل داوني: أنطاكية القديمة ـ ص٤٩.

[2] الحوليات الأثرية السورية: المجلد العشرون ـ ١٩٧٠ ـ ص١٥٣ وما بعدها.

[3] المرجع السابق: المجلد (٣٣) ـ الجزء الثاني ـ ١٩٨٣ ـ ص٢٩٣.

في العصر الحجري الحديث الأسفل. تظهر في بيبلوس حراب قصيرة ذات ذيل. وهي تشبه بعض الحراب، التي وجدت في أفاميا. ويوجد تشابه بين الموقعين أيضاً في عناصر المناجل وغزارة الأزاميل وقلة المكاشط وفي أسلوب صنع المخارز، وفي الآنية البيضاء.

ويظهر التقارب في أفاميا والعصر الحجري الحديث الأوسط في بيبلوس بتنوع أشكال نصال المناجل وغزارتها، وتختلف أشكال وزينة الخزف المصقول من الخارج. ويظهر التشابه بين أدوات أفاميا ورأس الشمرا بوجود خزف مصقول قاتم اللون محزز بالظفر ووجود أوانٍ من الحجر الكلسي وبلطة مصقولة.

ويمتاز تل الجديدة في (سهل أنطاكية) بغزارة الفخار القاتم اللون المصقول وبوجود بلطات مصقولة، وآنية حجرية. ويوجد حراب ذات ذيل في العصر الحجري الحديث في مرسين (كيليكية) أيضاً، كما توجد بلطات مصقولة، وخزف مصقول قاتم اللون غالباً. ويحتوي تل أسود (الجزيرة) على خزف أسود مصحوب بآنية حجرية وبعض الحراب ذات الذيل وكمية كبيرة من الأزاميل. ويحتوي تل الرماد (دمشق) على حراب ذات ذيل وآنية بيضاء وفخار مصقول قاتم اللون وعناصر مناجل.

بعد الإسكندر أصبحت أفاميا من نصيب سلوقس نيكاتور، حيث عمل على إعادة بناء أفاميا[1]، التي قامت على أنقاض مدينة أسبق منها، وجعل من أفاميا موقعاً عسكرياً مجهزاً بجميع العدة والعدد ومعامل الصناعات الحربية، وأشاد فيها مدرسة عسكرية للفرسان، وجمع في سهل الغاب قرب أفاميا مئات الأفيال وألوف الجياد.

ولم تسعد أفاميا خلال العهد السلوقي إلا في زمن أنطيوخس الثالث (٢١٣ ـ ١٨٦ ق.م)، الذي استطاع أن يفرض سلطانه على ولاياته الشرقية، وعمل على استخلاص جنوب سورية من البطالمة. لكن الرومان ظهروا في هذه المرحلة، فتعقبوه، واضطروه بعد معركة مغنيسا غرب الأناضول إلى أن يتخلى عن أملاكه في آسيا الصغرى، وأن يسلمهم سفنه الحربية وأفياله التي كانت في أفاميا بموجب معاهدة سنة (١٨٨ ق.م). بعد أنطيوخس الثالث تعاقب على عرش الدولة السلوقية عدة حكام ضعفاء، فتمكن الفرس من السيطرة على جزء من الدولة السلوقية الواقع شرق الفرات، وعمت الفوضى الدولة، وكثر القتال والحروب الداخلية والتنافس على السلطة وغير ذلك.

---

[1] سمي على اسم زوجته أباميا الفارسية الأصل.

كان لأفاميا دور مهم في سبات الدولة السلوقية، فمثلاً في سنة (١٤٠ ق.م) عندما ساءت سيرة الملك السلوقي (ديمتريوس الثاني) بسبب حدوث مذابح في أنطاكية ثار عليه الشعب بقيادة رجل من أهل أفاميا، اسمه: (ديودوتس)، وتمكن من خلع ديمتريوس المذكور وتنصيب ابنٍ صغير للملك الأسبق المسمى (اسكندر بالاس)، وعمل له حفلة تتويج في أفاميا، ولقب (بأنطيوخس السادس). علماً أن ديودوتس الأفامي بقي لمدة ثلاث سنوات الوسيط الشرعي للملك الجديد، وله كل السلطة. ثم عزله سنة (١٤٣ ق.م)، وملك ولقب باسم بتريتون، لكنه حوصر في النهاية بأفاميا، وقتل فيها. بعد ذلك نرى الدولة السلوقية تضعف، وتزول.

وعن أفاميا عاصمة لأحد المزربانات يقول (جونز): «يروي استرابو نقلاً عن بوسيدونيوس، الذي كان يعرف الحقائق، لأنه ولد في أفاميا، وعاش في الأيام الأخيرة من حكم الأسرة السلوقية: إن سلوقس قسمت لأربع مرزبانيات مماثلة للولاية الرباعية، التي تتألف من أنطاكية وسلوقيا وأفاميا واللاذقية، وهذا القول على ظاهره واضح جلي، ولكن إجراء فحص للخريطة يدل على أنه غير صحيح، لأن المدن الأربعة في تلك المجموعة محشورة في زاوية واحدة من منطقة سلوقس، ولعل التفسير الصحيح هو أن عبارة « مماثلة للولاية الرباعية » لم تقتبس من بوسيدونيوس، وإنما هي استنتاج من استرابو نفسه ـ وأن سلوقس كانت في العادة تعرف باسم الرباعية بسبب مدنها الأربعة الكبيرة. ويقول بوسيدونيوس: إنها قسمت لأربع مرزبانيات.

وكانت كل واحدة من المدن الأربع عاصمة لمرزبانية، إذن فإن كل ما نفيده من بوسيدونيوس هو: أن سورية السلوقية كانت مقسمة في أربع مرزبانيات، وهناك نقش يدل على أن أفامية كانت عاصمة لإحداها، ومن البديهي على وجه الاحتمال القوي أن أنطاكية كانت عاصمة مرزبانية أخرى، ولعل الاثنتين الأخريين كانتا تشملان القسم الشرقي من سورية، وواحدة منهما على نحو يقرب من اليقين: هي قرهستيقة، ويعود هذا الاسم إلى بدايات الحكم السلوقي، لأن فلوطارخس يذكرها في روايته عن الصراع الأخير، الذي قام به ديمتريوس بوليور قيطس (Poliorcetes) ضد سلوقس نقاطر، كما أن استرابو، ولعله يقتبس عن بوسيدونيوس مرة أخرى، يذكر الاسم ليدل على منطقة واسعة، تشمل عدة مدن. أما المرزبانية الثانية فقد تكون هي: خلقيديقة أو خلقيدينه، ويؤيد هذه الفرضية تعليق بليني على مدينة «خلقيس تجاه بيلوم» «حيث منطقة خلقيدنية» وهو يشبه تعليقه على قورهس: «حيث قرهستيقه» وهما تعليقان، قد يكونان مأخوذين

من مصـدر أقـدم»[1].

وكان سكان أفامية يتألفون من مستعمرين عسكريين، كان كثير منهم قد قطن هنالك، قبـل أن تبنى المدينة، وكان يقوم في الموقع قبل ذلك مستعمرة عسكرية، تدعى: بلاً، ويتبع أفامية عدد من المستوطنات الصغيرة منها لارسـا، وقاسيانا ومغـارا وأبولونيـا، وقـد سـكن فيهـا أيضـاً مستثمرون عسكريون، ولما كان سكان أفاميا عسكريين، فمن المتوقع أن تكون هي المستودع الرئيسي للأسلحة والذخائر في المملكة السلوقية، أنها كانت تحوي ثلاثين ألف فرس وخمسمائة فيل وأنها كانت قاعدة مدارس التدريب العسكري.

وقد جرى في حكم أنطيوخس الثاني حادثان كان لهما أثر بالغ في تاريخ سـورية، أحدهمـا: هو معركة بانيوم، لأن السلوقيين كسبوا فيها سـورية الجنوبيـة، وكـانت إحـدى نتـائج هـذا التغيير إدخال نظام المرزبانية إليها. وكان الحادث الثاني: هو معركة مغنيزيا (١٨٩ ق.م) وتأثيرهـا المباشـر في تاريخ سورية أقل، ومع ذلك فقد كانت نتائجها مهمة: إذ إنها في المقـام الأول أضعفـت الأسـرة الحاكمة في هيبتها وفي سلطتها الفعلية في آن معاً، وهكذا مهدت معركة مغنيزيا الطريق نحو تفكـك المملكة السلوقية أواخر القرن. وفي المقام الثاني فصلـت معـاهدة أفاميـا بـين السـلوقيين وبحـر إيجـه، وبذلك انقطعت نهائياً هجرة المستوطنين اليونان.

فما فعله أنطيوخس ابفانس في أنطاكية هو ما يتضمـن منـح سـلطات المدينـة استقلالاً ذاتيـاً أوسع. وأما الامتياز الوحيد، الذي منح بموجبه المدن المذكـورة، فهـو حـق صـك العملـة، وقـد أذن بذلك على درجتين: أذن لبعض المدن بإصدار نقود، لا تحمـل سـوى الصـورة الملكيـة، ولبعضهـا أن تضيف العنوان الملكي، فكان في الدرجة الأولى، وهي الأكثر امتيازاً: أنطاكية وأفامية سلوقيا ولاذقية وثلاث مدن أصلية وهي: هيرابولس وطرابلس وبطوليس.

وفي الدرجة الثانية كانت المدن الفينيقية، صور وصيدا وبيبلوس وعسقلان وبيروت، كذلـك أرواد، التي كانت مدينة حرة منذ أمد طويل، غـيرت أيضـاً طـابع عملتهـا في بدايـة حكـم ابفـانس، فنقشت اسمها كاملاً على النقد بدلاً من استعمال المونوغرام[2].

ثـارت لارسـا علـى تبعيتهـا لأفاميـا. وبـدأت تصـدر عملتهـا الخاصـة بهـا سـنة (٨٥ ق.م)

---

[1] أ ـ هـ ـ م ـ جونز: مدن بلاد الشام ـ ترجمة إحسان عباس ـ طبع الأردن ١٩٨٧ ـ ص٣٥.

[2] رمز كشخص مأخوذ من الأحرف لاسمه وينقش على نحو متشابك.

(مؤرخة بالحقبة السلوقية) ولعل المدينة الوحيدة، التي ظلت تعترف بالسلوقيين هي دمشق،حيث بقي ديمتريوس الثالث وأنطيوخس الثاني عشر يحتفظان بوجود سلطتهما فيها حتى سنة (٨٣ ق.م). وقد ضربت دمشق نقدها باسم ديمتريياس، ونقشت عليه صورة ذينك الملكي. واتخذت أفاميا لها تقويماً انطونياً سنة (٤٠ ق.م)، بينما اختارت قلعة أفاميا تقويم عام (٦٦ ق.م).

«وهكذا يظهر: أن سورية الشمالية لم تشملها كلها مقاطعات المدن، فقد كانت هناك مساحة واسعة، تشغلها قرى وجماعات قبلية وإمارات صغيرة، ولسوء الحظ ليس في مقدورنا أن نحدد بدقة، إلا مواقع القليل منها، فقد كانت غندارس قرية بين أنطاكية وقيرهس، وربما كانت ولايتا التغرانو قوميتاي هما القبيلتان العربيتان، اللتان غرسهما تغرانس على المنحدرات الشرقية من جبل اللكام. ويذكر بليني: أن مقاطعة نزاريني كانت محاذية لمقاطعة أفاميا، وإذن فالنزارينيون كانوا ولا بد أسلاف النصيريين المحدثين، الذين يسكنون الجبال خلف اللاذقية.

وأما **الغازتاي** فقد نتعرف فيهم على سكان عزاز إلى الجنوب من قيرهس، و**الهايلتاي:** هم سكان الحولة، أي المنطقة التلية إلى الغرب من ابفانية، و**الغابيني:** هم سكان الغاب، أي وادي العاصي إلى الشمال من أفاميا، وفي هذه الحال هم أهل إمارة ليسياس، وأتجرأ فأقترح: أن يكون التارديتنسس، بتحوير يسير في اللفظة، هم أهل القرية المهمة المسماة تاروتيا إلى الشرق من أفاميا. وعلى أية حال فإن بعض القرى والقبائل والولايات، بل إن عدداً كبيراً من هذه كلها، إذا صح التعرف، الذي اقترح فيما تقدم، إنما كانت موزعة بين المدن الكبرى في الجزء الغربي من السلوقية، أما معظمها فكان يقع دون ريب في القسم الشرقي الأقل تمدناً، حيث تندر المدن، وتسود حياة البداوة».

ومن اليقين أن تبلور منطقة سورية الشمالية في عدد من مقاطعات المدن الكبيرة كان قد اكتمل في النصف الأول من القرن الخامس. وحين يعد ثيودورت النساك، الذين اشتهروا في شبابه فإنه يوزعهم بين مختلف مقاطعات المدن: صحراء خلقيس، مقاطعة أفامية، مقاطعة زيوغما، مقاطعة قيرهس، مقاطعة أنطاكية، موحياً ضمناً بأن كل سورية كانت مقسمة بين المدن، ويقدم عن بلدة قيرهس شواهد أكثر تفصيلاً مؤكداً في رسالة، بعث بها إلى الوالي البريتوري: أنها أربعون ميلاً في الطول، وأربعون ميلاً في العرض، ثم يذكر أيضاً أن غندارس كانت قرية كبيرة جداً تابعة لانطاكية، مقدماً مثلاً محدداً عن كيفية ابتلاع مقاطعة المدينة، لما كان من قبل جماعة مستقلة.

ويجب أن نذكر: أن غندارس كانت أسقفية في النصف الأول من القرن الرابع، ثم لم تعد كذلك من بعد، وهذا قد يدل على أنها احتفظت باستقلالها السياسي حتى حوالي العام (٣٥٠ م)، ولكن ليس من الضروري أن يكون الأمر حقيقة، إذ القرى الكبيرة قد يكون لها أحياناً أساقفتها من غير أن تكون مستقلة سياسياً. ويقدم سوزومينوس (Sozomenus) مثالاً آخر على الاحتواء، ولكنه مثار شك أكبر، إذ يقول: إن أولون (Aulon) كانت منطقة تابعة لمقاطعة أفاميا.

فإذا كانت أولون، كما يبدو محتملاً، تعني وادي الأرنط إلى الشمال من أفامية أي الغاب الحديثة، وإذا كان الغابيين في قائمة بليني تعني سكان الغاب، فمعنى ذلك أن أفامية كانت قد احتوت الغابيين. وهناك نقش من القرن السادس يذكر: أن تاروتيا (Tarutia) إنما هي من قرى مقاطعة أفامية، فيقدم مثلاً آخر مشكوكاً فيه على الاحتواء. وإذا كنت على صواب، حين صححت تارديتنسس، وجعلتها تاروتينسس، فذلك يعني: أن أفامية ابتلعت واحدة أخرى من الجماعات، التي تحتويها قائمة بليني[1].

واكتشفت عدة كتابات يونانية هامة في أفاميا، نقش معظمها على الحجر، ورسم بعضها على الجص. وعرفت هذه الكتابات بكتابات حمامات لوقيوس جوليس أجريبا. وهذه الكتابات غنية بالمعلومات، ووحيدة في سورية باستثناء تدمر. ومن المعروف أن أسرة لوقيوس جوليس احريبا هي أسرة أمير من أفاميا، وعدد النصوص المكتشفة عشرة، هي بالترتيب كما يلي:

- **الكتابة ذات الرقم (١)**: رقم تسجيلها (ز - ١ - ٤٤٠) على حجر جيري بشكل غلق ساكف، ويحيط بالكتابة إطار بارز مزين بشكل ذيل البوم. وترجمة نص الكتابة هي: «لأجل صحة الإمبراطور نيرفا تراجان قيصر أوغست، غالب الجرمانيين، غالب الداكيين»، فإن لوقيوس جوليوس آجريبا بن كايوس من عشرية فابيا - صاحب الألقاب الشرقية الملكية ومن أحداد مسجلين في الكابتول على الألواح البرونزية كحلفاء الرومان. وله أيضاً براءة طقوس، وقام بكل جود بتمامه. وفي الوقت نفسه اشترى على نفقته الخاصة المكان، وأسس الحمامات والبازيليك، التي ضمنه، والرواق في مقدمة هذه المباني، مع كل زخرفتها ومجموعة من الأعمال البرونزية الموجودة فيها...

- **الكتابة ذات الرقم (٢)**: ترجمة نص الكتابة هي:.... له مجموعة (؟) حقوق أجداده وبراءة الطقوس الخاصة به والموثقة جهاراً مع ألقاب شرف أخرى بالألواح البرونزية في

---

[1] أ - هـ - م - جونز: مدن بلاد الشام - ص٧٢ وما بعدها.

الكابتول في روما، قام في سبيل وطنه بالقضاء، والطقوس والجود، وكان كاهناً، وكان حاكماً ـ مكلفاً بمراقبة السوق ـ بكرامة، وأشرف خلال ستة أشهر على توزيع القمح بدفع مبلغ.... من الدراهم الفضية. وقدم الزيت للدهن، وقام بعمل القناة... (مسافة) عدد من الأميال. وكان أمين سر (سكرتير) المدينة. بشكل استثنائي طالب هو نفسه بالإجازة لمدة سنة، واختار هو نفسه زملاءه في القضاء، وفي السنة نفسها كان مفوضاً للسلام وتوزيع القمح، وأسس الحمامات والرواق، الذي يتقدمها إلى الشارع، والبازيليك المرتبطة بها. وقدم هبة كل الأرض المشتراة على نفقته الخاصة، وخصص في هذه الحمامات الآثار البرونزية، بمجموعة تيزه والمينوتور، ومجموعة آبولون وأولمبوس ومارسياس والسكوزي. وتطوع بالقيام بسفارات لدى الأباطرة في روما ولدى الحكام.

وهو أيضاً ـ من جهة أبيه وأمه ـ له أجداد أماجد وكرماء، ورؤساء ولايات، وأشخاص، كان لهم نصيب بألقاب الشرف الملكية، ولا سيما ديكساندروس ـ أول من كان كبير كهنة الولاية ـ كان جده الأول. وبسبب صداقته ووفائه للشعب الروماني قد سجل كتابه على ألواح البرونز في الكابتول ـ قبل أوغسست العظيم ـ كصديق وحليف. وفي هذه الألواح وثقت أيضاً جهراً بقية ألقاب الشرف الاستثنائية الممنوحة إليه، وإلى عائلته. ومن هذه الألواح خلاصة، توجد محفوظة في الوثائق هنا عام... شهر كسانديكوس، اليوم ٢٨ من قبل مدينتنا، وبقرار من المجلس والشعب، فإنه (ديكساندروس) منح لقب شرف في شهر (بيريتيوس) في اليوم الثالث قبل نهاية الشهر. في هذا القرار...

ـ الكتابة ذات الرقم (٣): على حاملة حجرية مكسورة في أعلاها وفي جهة اليسار. ارتفاعها الكلي (٥١ سم)، وارتفاع الفاصلة البارزة العلوية، التي نقش عليها السطر الأول (٧,٢ سم) وارتفاع الفاصلة البارزة السفلى، التي نقش عليها السطر الثاني (٥ سم) وارتفاع جسم الحاملة الذي نقش عليه السطران السادس والسابع (٢٠ سم)، وعرضه (٤١ سم). ونقشت السطور من الثالث حتى الخامس على سطح منحن بين الفاصلة البارزة السفلى وجسم الحاملة الحجرية. وارتفاع حروف السطر الأول (٤,٥ سم) والسطر السابع (٣,٢ سم)، وترجمة النص هي: أن جوليوس الكسندروس (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليوس آجريبا سيده والمحسن.

ـ الكتابة ذات الرقم (٤): رقم تسجيلها (ز ١٠ ـ ١٤٨) على حاملة حجرية مكسورة في أعلاها وفي جهة اليمين. ارتفاع جسم الحاملة (٢٥,٥ سم)، نقش السطر الأول على الفاصلة

البارزة في نضد البناءة، ونقشت السطور التالية على الحاملة الحجرية. ارتفـاع الحـروف مـن السـطر الأول (٦ سم)، وفي السـطر الثـاني (٤ سـم). وترجمـة النـص هـي: لوقيـوس جوليـوس رووقيمـوس (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليوس آجرينا، المؤسس سيده والمحسن.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (٥):** رقـم تسـجيلها (ز١٠ ـ ٢١١) على حاملـة حجريـة مكسورة الزوايا العلوية في جهة اليسار وفي أسفل جهة اليسار. ارتفاع جسم الحاملة (٢٣,٥ سم)، وعرضها (٥١ سم)، وعرض نضد البناء بالنسبة للفاصلة (٦٥ سـم). وارتفـاع الحـروف في السـطر الثاني (٤ سم) وفي السطر الخامس (٥,٢ سم) وترجمة النـص هـي: لوقيـوس جوليـوس تروقيمـوس (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليوس آجريبا المؤسس، سيده والمحسن.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (٦):** رقم تسجيلها (ز١٠ ــ ٤١٢) ـ علـى حاملـة حجريـة. وترجمة النص هي: لوقيوس جوليوس (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليوس آجريبا، المؤسسة على نفقته، سيده الخاص والمحسن. شاكراً.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (٧):** رقـم سـجلها (ز١٠ ــ ٥٠٠) ـ علـى حاملـة حجريـة. ترجمة النص هي: كايوس جوليوس ثيوبومبوس (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليـوس آجريبـا، المؤسـس على نفقته، سيده الخاص المحسن. شاكراً.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (٨):** رقم تسـجيلها (ز ١ ــ ٣٧٨) ـ علـى حاملـة حجريـة. ترجمة النص هي: كوينتوس موناتيوس مارينوس، المستفيد، (خصص تمثالاً) لوقيوس جوليوس آجريبـا صاحب الألقاب الشرفية الملكية المؤسس، المحسن إليه.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (٩):** رقم سـجلها (ز ١٠ ــ ٢٦٨) ـ علـى حاملـة حجريـة. ترجمة النص هي: إن الذين من بيته (خصصـوا تمثـالاً) لوقيـوس جوليـوس آجريبـا، صـاحب ألقـاب شرف ملكية، المؤسس. ويفيد لفظ (عائلته) مجموع خدم شخص ثري.

ـ **الكتـابـة ذات الـرقم (١٠):** رقم سجلها (ز ١٠ ـ ٣٣٠) على حاملة حجرية. وأن السطور الأربعة الأخيرة المنقوشة على كأس الحاملة الحجرية قد شوهت بشظايا وجـذاذات الحجـر. ارتفاع السطر الأول (٣,٥ سم)، ويتراوح ارتفاعها في السطور التالية من (١,٧ سـم) حتـى (٢,١ سم)، كما يتراوح ما بين السطور من (٠,٣ سم) حتى (٠,٦ سم). وهنـاك بقايـا خطـوط تسـوية

مزدوجة. وترجمة النص هي: إن الرابطة المقدسة للفنانين الفائزين والمكللين في المباريات المقدسة ومنافسيهم الموضوعين برعاية ديونيزوس والإمبراطور قيصر تراجان هادريان أوغست بن تراجان وحفيد نيرفا العظيم (خصص تمثالاً) جوليوس باريس، المواطن من كلودا افاميا وانطاكية وكل مدينة. منح لقب شرف في مستعمرة بيروت، ممثل فن التعبير الإيمائي المأساوي، الذي هو لمدى الحياة وفي حدود المنطقة (؟) كبير كهنة وسبتماتيفور ابولون ارخيجيت لقيمته (؟) ولطفه. أخيراً كان في أفاميا مدرسة مشهورة للأفلاطونية الحديثة، التي كان أبرز ممثليها (نومينيوس) في القرن الثاني، و(جامبلك) في القرن الرابع.

أصيبت أفاميا بهزة سنة (١١٥م)، كانت نتائجها التدميرية قوية، حيث أعيد بناؤها في القرن الثاني الميلادي، اكتشف في أفاميا أربعة أحياء. كما كشف عن عشرة بيوت، عرفت بالأسماء التالية: البيت ذي الحوامل، بيت الكراسي، بيت الكتابات العربية، بيت التيجان والحوامل، بيت الوعول، البيت ذي الطراز الدوري، بيت الأعمدة المزدوجة، بيت الأعمدة الثلاثية، بيت القناة.

وأكدت لنا الدراسة أن هذه البيوت بنيت في القرن الثاني للميلاد على ضوء مخطط تنظيمي للمدينة، وظلت مسكونة حتى حدوث الهزة الأرضية، التي أصابت المدينة في القرون الوسطى، وأصابتها هزة ما بين عام (٥٢٦ ـ ٥٢٨ ق.م)، ثم أعيد بناؤها.

عندما استولى الرومان على سورية، جعلوا من أنطاكية قاعدة ولاية سورية الأولى وعاصمة لها، وجعلوا من أفاميا عاصمة سورية الثانية، وحدود أفاميا امتدت إلى جوار حمص، وضمت إليها حماة والرستن (اراتوسه) وغيرها. وفي العهد الروماني كانت أفاميا إحدى القواعد العسكرية الرومانية مثلها مثل أنطاكية، ومن المعلوم أن الفيلق الروماني كان يرابط في أفاميا وانطاكية، ومهمته مواجهة أي اعتداء من أي جهة، كانت.

وكانت أفاميا معقلاً من معاقل الوثنية، ثم أصبحت مع ميلاد المسيح موئل المسيحية بعد القدس، وكانت حجة لطلاب الثقافة، ولم تخلُ أفاميا من الصراع الديني ما بين الوثنية والمسيحية ثم بين كل النصرانية. اهتم الرومان بأفاميا، فرمموا ما انتفض من عمرانها السلوقي، وشقوا الشوارع، وبنوا الحمامات والمسارح والمدرج وقنوات الري، وأقيمت الاحتفالات ومواكب النصر والألعاب الأولمبية وسباق المركبات والخيول واقتتال الوحوش وغير ذلك من أسباب اللهو المعروفة عند الرومان.

بالمقابل توالت الحروب الخارجية والمؤامرات والانقلابات وعصيان الجند والمنافسات الدينية، أضف إلى ذلك المجاعات والأوبئة والحرائق والزلازل. ومن الفتن المذكورة في تاريخ أفاميا أنه كان قربها دير عظيم على ضفاف العاصي، يعتقد أنه كان يقع بين شيزر والعشارنة حيث ذكر: أن مار مارون زعيم الطائفة المارونية كان يقيم في هذا الدير أواخر القرن الرابع الميلادي، حيث ذكر[1] الدير بأنه كان كبيراً، حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة، فيها رهبان، وفيه آلات من الذهب والفضة والجواهر وغيرها.

وقيل: إن هذا الدير كان يعرف باسم (دير البلور)، وإن عدد رهبانه كانوا (٣٥٠) راهباً، اشتهروا بمناصرتهم للمجمع المسكوني الخلقدوني، الذي انعقد سنة (٤٥٢م) والذي أقر بأن للمسيح أقنوماً واحداً وطبيعتين: إلهية وإنسانية. ومن المعلوم أن نتائج هذا المجمع سببت انقساماً بين السكان، وخاصة في أفاميا. واشتد الخصام بين اليعاقبة والمارونية، فهجم اليعاقبة سنة (٥١٧م) على دير مارون، وقتلوا جميع رهبانه، ونهبوه، وهدموه، بعد ذلك أخذ أتباع مار مارون يهاجرون من وادي العاصي، ولجؤوا إلى شمال لبنان.

وبعد أن قسمت الدولة الرومانية سنة (٣٩٦م) إلى دولتين، وأصبحت بيزنطة عاصمة للدولة الشرقية. نعمت بلاد الشام ومدنها بالسكينة والطمأنينة لمدة طويلة. لكن الفرس بقوتهم وعدائهم الشديد للروم عرضوا المنطقة لحروب طويلة الأمد. فالمعروف أن الفرس كانوا قد أغاروا على بلاد الشام سنة (٥٤١م) على يد كسرى (أنشروان)، وهاجموها سنة (٥٧٩م) على يد كسرى (خسروبرويز). خلال هذه المرحلة دمرت أفاميا، وزاد في دمارها الزلازل المتكررة، التي أصابت المنطقة، ولم تستعد أفاميا عمرانها بسبب النزاع والتناحر بين سكانها المنقسمين إلى طوائف، وغارات الفرس المتكررة. واستمر وضعها إلى أن خفقت أعلام العرب المسلمين، وحرروا مدن بلاد الشام، ومن ضمنها أفاميا سنة (١٧هـ - ٦٣٨م).

أما قلعة أفاميا المعروفة بقلعة المضيق، فتقع على مرتفع تل أفاميا، حيث تشرف في الشمال على جبل الزاوية، وفي الجنوب على سهول ناحية الطار المنتهية عند قلعة شيزر، وفي الشرق على سهول ناحية خان شيخون، وفي الغرب تشرف على جبال محافظة اللاذقية وعلى سهل الغاب. ويحيط بالقلعة خندق وسور وأبراج كبيرة مربعة من كل الجهات. للقلعة باب وحيد، حوله قنطرة

---

[1] المسعودي: التنبيه والإشراف - ص٩٦.

وبرجان متقابلان لحراسته، واستمرت القلعة بعد التحرير العربي، في الوقت، الذي اندثرت فيه مدينة أفاميا، وأصبحت أنقاضاً.

كانت أفاميا تروى من عيون مدينة سلمية بواسطة قناة، عرفت باسم قناة العاشق. كانت سلمية ترتفع (٤٧٥م) عن سطح البحر، بينما كانت أفاميا ترتفع (٣٠٨م) عن سطح البحر. يذكر: أن تاريخ هذه القناة يعود إلى القرن الثاني الميلادي. وذكر: أن القناة كانت قد أصلحت سبع مرات.

مرت القناة في سلمية إلى جيرين قرب حماه ومن جيرين إلى أفاميا. أما طول القناة فهو: المسافة بين مدينتي سلمية وأفاميا تبلغ (٨٥ كم)، مع إضافة التعاريج والتلافيف، التي سارت فيها القناة، حسب طبيعة الأراضي والمرتفعات، التي تقتضي ضرورة هذا المشروع السير فيها، ولابد من إضافة (٦٥ كم) فيكون طول هذه القناة من مصدرها إلى انتهائها (١٥٠ كم)[1]. أما عرض مجراها، الذي لم يتغير، فهو (٦٠ كم) والعمق مختلف فيها بين متر وثلاثة أمتار. وأما طراز بنائها، فقد بنيت في السهول من القرميد ورقيق الحجارة المدعومة بالملاط المفوس، وفي المرتفعات الصخرية نسقت فيها نقراً بصورة منتظمة، وسقفت بالطريقة نفسها، التي أنشئت عليها في الأودية. أقيمت لها جسور، بلغ عددها اثني عشر جسراً.

أما عن المسيحية، فقد انتشرت في أفاميا في عصر مبكر[2]. إلا أنها لم تتطور، إلا بعد أن هدم معبد (زيوس) حوالي عام (٣٨٤ ــ ٣٨٥م). ثم تضاعف عدد الكنائس فيها في القرن الخامس الميلادي، حيث اكتشف منها ثماني كنائس، ولم تظهر الرهبنة في منطقة أفاميا إلا في نحو نهاية عهد فالانس (٣٧٨م). وأسس في ضاحية (ينكرتاي) التابعة لأفاميا أول ابرين، وفي (حورتة)[3] الواقعة شمال غرب أفاميا، وتبعد عنها مسافة خمسة عشر كيلومتراً، حيث شيد فيها مجموعة كنائسية في نهاية القرن الخامس، بقيت إلى ما بعد الفتح العربي. ومن المعلوم أن قطعة من الصليب الحقيقي كانت محفوظة في أفاميا، ثم نقلت إلى أنطاكية، ثم إن الإمبراطور الروماني طلب القطعة المذكورة، فشطرت قسمين في أنطاكية. أرسل أحدهما إلى أفاميا والآخر إلى العاصمة الرومانية.

---

(١) الحوليات الأثرية السورية: المجلد السابع - ١٩٥٧ - ص١٥٩.

(٢) المرجع نفسه: المجلد (٣٣) الجزء الثاني - ١٩٨٣ - ص٢٩٤.

(٣) المرجع نفسه: الجزء الأول - ١٩٨٣ - ص٢٢٥.

في سنة (١٩٦٥ - ١٩٦٦م)، وأثناء عمليات التنقيب في أفاميا، كشف بين اللقى امرأة فتية معتمرة بإكليل. اتضح من أسلوب تصفيف الشعرات المنحوتة أنها من منجزات القرن الأول الميلادي. كما كشف في الكنيسة الواسعة ذات الباحة الداخلية، التي تطل على الشارع الشمالي الجنوبي، جذع تمثال مرمري بطول (٤٠ سم)، يمثل اسكليوس[1] (إله الطب)، ويعود إلى العصر الروماني (القرن الأول أو القرن الثاني الميلادي)، وهو نسخة من نموذج، يعود للقرن الرابع قبل الميلاد.

وفي موسم التنقيبات عام (١٩٦٨م)، اكتشف في البناء المسمى: بذي الأسرى الثلاثة في أفاميا[2] لوحة فسيفساء هامة ذات موضوع هندسي دقيق، وتاريخ تخطيط موضوع هذه اللوحة يقع بين نهاية القرن الثالث ونهاية القرن الرابع، وتحمل هذه اللوحة مشاهد، منها مشهد بحري.

وتم الكشف عام (١٩٧٣م)، عن بيت، يحتوي على عدد من القاعات، أبعاد إحداها[3] من الغرب إلى الشرق بطول (١٧,٣٥ × ٣١٧,٤٢م)، ومن الشمال إلى الجنوب بعرض (٨,٥٥م)، على الواجهة يقسمها قوس إلى قسمين متساويين، يمتاز هذان القسمان على الأرض بوجود درجة بينهما، حيث يكون القسم الشرقي أعلى من القسم الآخر.

وامتاز هذا البناء بزخارف جدارية ورسوم جدارية بالدان ومواد وعناصر تصويرية. أما أرضية الغرف فكانت مبلطة بالمشققات فوق بلاط سابق بالفسيفساء، والمشققات متينة على مونه رمادية. أما مخطط البيت العام، فيعود إلى القرن الرابع، وأجريت عليه عدة تعديلات وإصلاحات كثيرة، تمت كلها بعد عام (٥٢٨م).

كما تم كشف زخرفة مصورة في رواق الشارع الكبير المعمد في أفاميا[4]، وكشف أن اختيار الألوان في أفاميا هو نفسه، الذي نصادفه في الزخارف الجدارية الرومانية من القرن الثاني الميلادي. وذكر: أن العنصر الزخرفي الوحيد المشتمل له دلالة واضحة هو الصليب الصغير، وهذا الصليب لاتيني الشكل، وظهر هذا الشكل من الصليب في علم الصور المسيحية منذ عام (٣٨٥م)، كما ظهر في القرنين الثالث والرابع نوع من الزخرفة الجدارية المسماة عادة بالطراز الخطي الأحمر

---

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد السابع عشر - ١٩٦٧ - ص١٦٠.

[2] المرجع نفسه: المجلد العشرون - ١٩٧٠ - ص١٣٩.

[3] المرجع نفسه: المجلد (٣٢) - ١٩٨٢ - ص١٥٠.

[4] المرجع نفسه: المجلد العشرون - ١٩٧٠ - ص١٥٥.

والأخضر المعروف جيداً في الدياميس الرومانية، ونجد في أفاميا تعاقباً مماثلاً. وفي عام (٣٩٥م)، أصبحت أفاميا مركز الأبرشية بيزنطة[1].

هذا وقد أنهت مؤخراً البعثة الأثرية الأمريكية عملها التنقيبي، الذي استمر شهرين كاملين من هذا العام (١٩٩٧م) في موقع تل قرقور[2] شمال مدينة أفاميا الأثرية، تمكنت البعثة من اكتشاف بعض اللقى في هذا التل، ترقى للعصرين الحديدي والبرونزي (الألف الثاني قبل الميلاد).

وعثرت البعثة البلجيكية، التي أنهت مؤخراً موسمها التنقيبي في أفاميا على نصب تذكاري[3]، على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ سورية، يعود إلى العصر الروماني، وشيد في باحة الباب الشمالي للمدينة، ويقوم على قاعدة، ارتفاعها ثلاثة أمتار.

كما كشفت عدة عناصر زخرفية فائقة العناية، تشكل الأقسام العلوية من هذا النصب، أما بقية العناصر، فما تزال تحت أنقاض جدار الباحة المستديرة، وذكر: أن من العناصر المكتشفة يمكن استعادة تركيب هذا النصب المتقن على شكل مزاب أو حنية، تحف بها عضادتان وعمودان. وذكر: أن هذا النصب مهدى لأحد مشاهير حكام الولاية السورية في القرن الأول الميلادي، وهو عضو مجلس الشيوخ (سين أموديوس دورميوس كوادر اتوس) من مدينة كاسينو في إيطاليا، وكان حاكماً لسورية في عهد الإمبراطور (كلاوديوس)، ومطلع عهد نيرون، أي من عام (٥١م) إلى عام (٦٠م)، ويبين ذلك تاريخ إشادة النصب في أفامية، ويدل على التاريخ المبكر للباب الشمالي من هذه المدينة. وذكر: أن هذا النصب التذكاري ظل قائماً حتى أواخر أيام المدينة القديمة رغم الزلازل، وخاصة زلزال عام (١١٥م)، الذي تطلب رفع منسوب الشارع الرئيسي حوالي متر، الأمر الذي يدل على تقدير هذا الرجل في الولاية، التي حكمها، ومات فيها.

رابعاً - بيروت:

اختلف المؤرخون في أصل اسم بيروت، منها أن الاسم مشتق من كلمة: (بيروتا الآرامية)[4] ومعناها: الصنوبرة. وقد يكون اسمها (بئرونا)[5]، انطلاقاً من مبدأ اشتهارها بالآبار، وورد ذكرها

---

[1] حسن نعمة: من ذاكرة التاريخ - ص٣٣.

[2] تشرين: العدد رقم (٦٩١١) تاريخ ١٥ / ٩ / ١٩٩٦.

[3] البعث: العدد رقم (١٠٤٢٣) تاريخ ١٩ / ٩ / ١٩٩٧.

[4] أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية - ص٧٦.

[5] محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية - تاريخ لبنان القديم - طبع بيروت ١٩٨٤ - ص١٨١.

وذكر بيرها (جامونيرى) في رسائل تل العمارنة باسم (بيروتا). يذكر محمد مهران (١٣٦) أمير جبيل (ربعدي) أنه كانت قد قامت ضده ثورة بقيادة أخيه، وهو في زيارة لمدينة بيروت. وفي الرسالة (١١٨) يصف أمير جبيل المذكورة مدينة بيروت ـ صور، وحكى مسهباً بأنهم أعداء الفرعون المصري، وتذكر رسالة من أمير بيروت إلى الفرعون يقول فيها: «إلى الملك مولاي، إلهي، نسمة حياتي، أقول، هكذا يقول خامونيوس، رجل بيروت، خادمك، تراب قدميك، على قدمي مولاي الملك، شمسي وإلهي ونسمة حياتي، سبع مرات، وسبع مرات أسجد، وأكثر من هذا، إنني سمعت كلمات مولاي، الملك شمسي وإلهي ونسمة حياتي، إن قلب خادمك قد فرح، وتراب قدمي الملك، سيدي وشمسي والهي ونسمة حياتي، لأن نسمة الملك، سيدي وإلهي وشمسي، قد ذهبت إلى خادمك، وتراب قدميك، وأكثر من هذا، إن الملك مولاي وشمسي قد كتب إلى خادمه، وتراب قدميه، أستعد لاستقبال حملة أقواس الملك مولاك، لقد سمعت، وحقيقة لقد استقبلتهم بخيلي وعرباتي، وكل مايتعلق بي، أنا خادم الملك، فهو لحملة أقواس مولاتي، لعل فرق مولاي الملك، سيدي وإلهي ونسمة حياتي، تحطم جباه أعدائه»[1].

ويذكر أن الإله إيل (عليون) أول ملوك جبيل كان قد تزوج الإلهة بيروت قرينته، وإكراماً لها بنى مدينة، وسميت باسمها (بيروت). أي أن بيروت كانت أول مدينة بناها الإله إيل بنفسه، وتذكر الأساطير أيضاً: أن (بروه) زوجة أوجيكس هي، التي سمتها (بيروتوس)، وشيدتها بعد أن اختار زوجها أوجيكس مكانها، لتكون مقراً لراحته بعد غزواته المتكررة[2].

إذاً تعدّ بيروت من أقدم المدن الفينيقية، ويعود تخطيطها إلى أقدم القرون، وكانت مساحتها تتسع، وتضيق حسب الدول، التي مرت عليها، واتخذ الكنعانيون بيروت مدينة مقدسة ومكرسة لعبادة (بعل بريت) وإلى عصر الكنعانيين يعود بناء سور بيروت.

يعود تاريخ بيروت إلى ماقبل التاريخ وقيل: إن بيروت وجبيل هما أقدم مدن الساحل السوري[3]. فمثلاً نهاية الألف السابع قبل الميلاد عاش فيها إنسان العصر الحجري الحديث. وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد نزح إليها شعبها من الجزيرة العربية، وسكنها الشعب الكنعاني في الفترة الواقعة مابين (٢٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م).

---

[1] محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية ـ تاريخ لبنان القديم ـ طبع بيروت ١٩٨٤: ص١٨٢.

[2] هنري غيز: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ـ ترجمة مارون عبود ـ طبع بيروت ١٩٤٩.

[3] هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ـ طبع بيروت ١٩٨٨ ـ ص٢٥٦.

المصريون:

عرف الفراعنة بيروت منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. حيث ظهرت مطامع الفراعنة منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٦ ق.م)، حيث سيطرت على الساحل الكنعاني، ومن ضمنه بيروت. وقد عثر في بيروت على تمثال[1]، يحمل صغيراً لأبي الهول، وهو أول أثر، ورد فيه اسم بيروت، وهذا الأثر وصف رحلة الأمير سنوحي[2] إلى الساحل السوري زمن الأسرة الثانية عشرة، ومن رحلته هذه تعرف أسماء وملوك وأمراء المنطقة، التي نزلها وأماكن متعددة ومنها بيروت. أما في عهد الهكسوس (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ ق.م) فقد امتازت علاقاتها مع الساحل الكنعاني بالود والصداقة. لذلك تركوا لمدن الساحل ومنها بيروت ممارسة تجارتها البحرية.

في عصر الإمبراطورية الفرعونية الحديثة (١٥٨٠ ــ ١٠٨٥ ق.م)، عندما حكمت الأسرة الثامنة عشرة طمع الفراعنة ببيروت، وغزا الفرعون احمس فينيقية، وغزا الفرعون تحوتمس الثالث بلاد الشام، واحتلها، وطلب من الأمراء التابعين له أن يرسلوا أبناءهم إلى مصر، وكانت أساطيل الفينيقيين ترد إلى مصر. ومن الآثار المصرية تمثال الوزير (سنوسرت عنج) وتمثال (امنحتب) الثالث في بيروت وشمرا، وتماثيل في منطقة بعلبك.

ورد ذكر اسم مدينة بيروت تحت اسم (بريتا) في لوحات تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهذه اللوحات (بالخط المسماري) هي رسائل، تبادلها الفرعون (امنحتب الثالث) (١٤٠٨ ـ ١٣٨٠ ق.م) ثم امنحتب الرابع (١٣٣٢ ـ ١٣٤٦ ق.م) مع ملوك بابل وآشور وأمراء الساحل السوري. إذاً هي رسائل سياسية. من هذه الرسائل رسالة، تصف بيروت بالبلدة المتبعة[3]، وتذكر سفنها الحربية، التي سارت إلى بلاد أموري، فظفرت بها. ومنها أيضاً رسالتان من حاكم بيروت إلى الفرعون، يعلمه: أنه خرج لمحاربة أعداء الدولة، وانتصر عليهم.

ثم إن الدولتين العظميين الفرعونية والحثية، اقتسمتا بلاد الشام، وكانت المدن متناثرة. ثم قام اتحاد مستقل، ضم إلى جانب مدينة جبيل كلاً من (بيروت) و(عكا) و(صور) و(صيدا). في هذه المرحلة ازداد الخطر الأموري على مدن الساحل وخاصة بيروت وجبيل وصيدا، حيث أخذ

---

[1] في المتحف البريطاني في لندن.

[2] عصام محمد شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين ـ طبع بيروت ١٩٨٧ ـ ص١٧.

[3] لجنة من الأدباء ـ لبنان مباحث علمية واجتماعية ـ ج١ ـ ص٢٦٦.

حكام هذه المدن يبعثون الرسائل إلى فرعون مصر لنجدتهم من هذا الخطر.

استطاع الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٨ ـ ١٢٣٥ ق.م) أن يقود حملة إلى بلاد الشام، ودخل بيروت، ووصل إلى نهر الكلب، حيث ترك نصباً تذكارياً في عصر الأسرة العشرين (١٢٠٠ ـ ١٠٨٥ ق.م) ثم قدمت شعوب البحر من الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط، حيث اجتاحت هذه الشعوب شواطىء تركيا الجنوبية والساحل السوري في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. في هذه المرحلة وقف الكنعانيون إلى جانب القوات المصرية، التي تصدت لهذا الغزو. ورغم ذلك فقد تمكنت هذه الشعوب من تدمير مدن الساحل السوري، ومنها بيروت.

في هذه المرحلة انعدم النفوذ المصري في الساحل السوري. إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار التبادل التجاري والثقافي مع الكنعانيين، حيث تأثرت بيروت ببناء المعابد على الطراز المصري. في الوقت نفسه تأثر المصريون بعبادة (بعل) إله بيروت. خلال هذه المرحلة كان هم المدن الفينيقية هو التوسع التجاري، وكانت بيروت تابعة لمملكة جبيل...

منذ بداية القرن التاسع قبل الميلاد تعرضت بلاد الشام للضغط الآشوري، ومن ضمنه مدن الساحل الفينيقي، حيث استطاع آشور ناصر بال سنة (٨٧٦ ق.م) فرض الجزية على الساحل السوري، بما في ذلك بيروت. وعبر الجيش الآشوري بيروت في القرن الثامن قبل الميلاد، وفرض الجزية عليها وعلى بقية المدن الفينيقية. وقد حاولت المدن الفينيقية التحرر مراراً من سلطة الآشوريين، إلا أن الآشوريين كانوا يقومون بحملات تأديبية لها، واستمر الحكم الآشوري. ففي عهد اسرحدون، الذي تمكن من الساحل الفينيقي السوري سنة (٦٧٥ ق.م)، أقام نصباً تذكارياً على صخرة نهر الكلب شمال بيروت. عندما سقطت آشور بيد الكلدانيين سنة (٦١٢ ق.م) لجأت المدن الفينيقية إلى الحماية المصرية. لكن موقعة كركميش سنة (٦٠٥ ق.م)، والتي وقعت بين الفراعنة المصريين وبين (نبوخذ نصر) جعلت الساحل السوري يتأرجح وسط هذا الصراع.

بعد استيلاء ملك الفرس (كورش) على بابل سنة (٥٣٩ ق.م) انتقلت المدن الفينيقية إلى سيطرة الفرس، فقسموا فينيقية إلى أربعة أقسام هي (صور ـ صيدا ـ أرواد ـ جبيل)، وبقيت بيروت تحت سلطة الفرس تقوم بدور ثانوي، إلى أن قدم الإسكندر المقدوني.

بعد معركة أيسوس سنة (٣٣٣ ق.م) دخلت بلاد الشام تحت نفوذ الإغريق ثم تحت حكم السلوقيين، حيث سمح السلوقيون لأهالي بيروت بإقامة شعائرهم الدينية، ومزجوا بين آلهتهم وآلهة

الفينيقيين، وكسوها بمسحة يونانية. في هذه المرحلة تمتعت بيروت باستقلال نسبي، وأنشأت مجلساً لتدبير أمورها، وصكت النقود. لكن الصراع على السلطة السلوقية بين الإسكندر بالاس سنة (١٤٦ ق.م) المغتصب للملك وبين ديمتريوس (نيكاتور) جعل بيروت تقف إلى جانب الاسكندر بالاس، فانتصر ديمتريوس، وعقاباً لوفاء بيروت، هاجمها ديمتريوس، وخربها، وأحرقها بالنار سنة (١٤٠ق.م)[1]. بعدها أعيد بناؤها، لكن إلى الجنوب من موقعها القديم على أيدي قوات (ماركوس اغريبا) في عهد الإمبراطور أغسطس. وعثر على نقد قديم لبيروت، يعود إلى سنة (١٢٨ ق.م)، عليه شعار المدينة واسم محتسبها نيقون. اتخذت بيروت سنة (١٩٧ ق.م) بداية للتاريخ، وتعلم أهلها اللغة اليونانية، وقلدت المدن اليونانية بالأعياد وفي بناء المسارح والملاعب والحمامات وغيرها.

دخلت بيروت تحت سلطة الرومان سنة (٦٤ ق.م) بعد أن احتلها الجيش الروماني. ففي عهد أغسطس قيصر ولي على بيروت القائد (ماركوس اغريبا)، فأقام في بيروت الدور الشاهقة والقصور، وأعاد بناء المدينة، لكن غرب موقعها القديم[2]. وفي عهد الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م ـ ١٤م)، وفي سنة (١٥ ق.م) رفعت إلى مستوى مستعمرة رومانية، وعرفت باسم مستعمرة جوليا (غسطار السعيدة)، وتحسن ميناء بيروت في عهد القيصر أغسطس قيصر بإضافة رصيفين على شكل هلال، لهما أبراج في كل طرف. وشيد إغريبا الأول (٤١ ـ ٤٤م) في بيروت مسرحاً ومدرجاً وحمامات وأروقة. وأقام إغريبا الثاني في بيروت عدة تماثيل، وبنى قصراً لإقامته ومسرحاً فخماً، فأقام فيه الحفلات، وعندما انتهت حروب الإمبراطور (فسباسيان) ضد اليهود، تحولت بيروت إلى مركز لتهنئة الإمبراطور بانتصاره[3].

بعد ذلك أعفيت بيروت من دفع الجزية، ومنحت استقلالها، وأقام أهلها معبداً لآلهتهم، وظهرت صورة إله البحر نبتون (بوسيدون) على النقوذ البيروتية، وكان أهل بيروت يقصدون معابدهم لتقديم القرابين والضحايا.

وبعد ظهور الديانة المسيحية اعتنق بعض سكان بيروت هذه الديانة الجديدة، إلا أنهم تعرضوا لاضطهاد من الأباطرة الرومان، وخاصة تراجان ودقيانوس وفلريان، لكن الاضطهاد الأكبر كان زمن الإمبراطور (دويومليشان) و(مكسيميان) في الفترة الواقعة

---

[1] محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية ـ ص١٨٣.

[2] المرجع نفسه.

[3] فيليب حتي: تاريخ لبنان ـ طبع بيروت ١٩٨٥ ـ ص٢٧٣.

مـا بيـن سـنـي (٣٠٣ ــ ٣١٣م) إذ هدمت الكنائس، وأحرقت الكتـب المسـيحية، وكـانت الأعمال الشاقة تصيب من كان يجهر بدينه الجديد. وبعد إعلان المسيحية دين الدولة وفي نهاية القرن الرابع الميلادي أصبحت في بيروت أبرشية، ولم يمض القرن الخامس الميلادي حتى كانت بيروت تحتوي على عدة كنائس بيزنطية، منها كنيسة القيامة وكنيسة مريم وكنيسة يهوذا[1] ، وأخذت الكتابات الإغريقية تحلى على النقود، ثم حلت اللغة الآرامية محل اللغة الفينيقية، ثم أصبحت السريانية لهجة آرامية (لغة الكنائس)، ثم انتشرت كلغة أدبية بعد القرن الثالث الميلادي، حيث ترجمت الأناجيل إلى هذه اللغة. ومما ساعد بيروت على شهرتها كانت مدرسة الحقوق الرومانية التي أنشئت في بيروت أواخر القرن الثاني للميلاد، ويعتقد: أن الإمبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣ــ٢١١م) هو الذي أسس هذه المدرسة[2] . وتحولت بيروت كمركز للدراسات اللاهوتية، حيث اشتهر من أبنائها كل من (هرميوس) البيروتي في التاريخ ــ (طورس) البيروتي في الفلسفة و(لوبركوس) البيروتي في اللغويات و(مناسياس) البيروتي في فن الخطابة و(بروبس) البيروتي، الذي عني بتنقيح كتب اللغة. واشتهرت بيروت بمنسوجاتها الصوفية والكتانية وكانت مركزاً لتجارة الحرير وصناعته، كما كانت كروم العنب تنتشر فيها وحولها، حيث اشتهرت أيضاً بصناعة الخمور، وامتازت بالأقنية لجر المياه إليها.

تعرضت بيروت كبقية مدن الساحل لكوارث طبيعية، كان أهمها: الزلازل. ففي سنة (٣٤٩م) تعرضت لزلزال، دمر الجزء الأكبر منها. وفي (٢١-٢٢ آب ــ ٥٠٢م) تعرضت لزلزال شديد، دمر بعض أبنيتها وفي (٢٦ آب ــ ٥٢٩م)، تعرضت بيروت لزلزال آخر، دمر قسماً من أبنيتها، وقضى على بعض سكانها ــ وفي سنة (٥٤٣م) خرب قسم من بيروت. وفي (٩ تموز ٥٥١م) تعرض الساحل السوري لزلزال، ومن ضمنه بيروت، حيث اشتعلت النيران فيها، ودمرت، فنقلت المدرسة إلى صيدا. ثم تعرضت لزلزال عام (٥٥٤م)، كانت نتائجه التدميرية مهولة.

وفي عهد جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م)، الذي طلب من الفقهاء وضع دستور الشرائع الجامع للقوانين الرومانية. فكان من بينهم ثلاثة من أساتذة بيروت، وهم: (أوداكسيوس البيروتي ــ

---

[1] يوسف يزبك: أوراق لبنانية ـ طبع بيروت ـ ص٢١٢.

[2] فليب حتي: تاريخ لبنان ـ ص٢٧٦ وما بعدها.

اناطوليوس ودوره تاوس)، واستمرت بيروت تابعة لبيزنطة، حتى حررها العرب سنة (١٣هـ ـ ٦٣٤م)[1] على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي كان على مقدمة جيش أخيه يزيد بن أبي سفيان.[2]

خامساً ـ طرابلس:

تعود مدينة طرابلس إلى العهد الفينيقي[3]، تقع على لسان ممتد داخل البحر، وبنيت من قبل الصوريين والعبرانيين والأروادين، حيث بنى كل منهم حياً خاصاً به، ومن هذه الأحياء الثلاثة تكونت طرابلس، وعرفت باسم: (طرابلس الشام) تمييزاً لها عن طرابلس (الغرب في ليبيا). قيل: إن طرابلس كانت قد تأسست حوالي القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد. أسسها الفينيقيون كما ذكرنا من أحياء ثلاثة، كانوا يجتمعون بها للتداول، بما يخدم الجميع.

إذاً كانت طرابلس كموقع حيادي، أسس فيه مجلس شورى، يجتمع فيه ممثلو المدن الواردة الذكر، عن كل مدينة (١٠٠) عضو، ويعود تاريخ هذا المجلس إلى القرن التاسع قبل الميلاد. إلى عهد إيتوبعل ملك صور (٨٨٧ ـ ٨٥٦ ق.م). وورد ذكر أحياء مدينة طرابلس في حملة آشور ناصر بال على المنطقة سنة (٨٧٠ ق.م)، وذكر: أن اجتماعاً للمجلس الاتحادي كان قد عقد[4] سنة (٥٢١ ق.م) في عهد دارم الفارسي، وعقد مرة أخرى حوالي (٣٥٢ أو ٣٥١ ق.م)، حيث تقرر إعلان الثورة ضد الحكم الفارسي.

وقيل: إن ثلاثة أسماء لثلاث قرى، كانت تعرف (نيوام ـ نوغس ـ هرنيكرو)، ذكرها العلاّمة الإنكليزي (برستد)، وقال: إنها كانت موجودة في النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وإن هذه القرى الثلاث كانت تتشكل منها مدينة طرابلس... وقد تكون هذه الأسماء، التي أوردها برستد هي، التي عرفت فيما بعد بأسماء جديدة هي: (محلاتا ـ مايزا ـ كايزا)... وظهرت في نقش أخباري، يتحدث عن غزوة (آشور تعربال) لفينيقية، والتي قام بها حوالي سنة (٨٧٠ ق.م)[5].

---

[1] ابن الأثير: الكامل في تاريخ ـ طبع بيروت ١٩٦٥ ـ ج٢ ـ ص٤٣١.

[2] البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ـ طبع القاهرة ١٩٥٧ ـ ج١ ـ ص١٥٠.

[3] سميح وجيه الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً ـ طبع بيروت ١٩٦٩ ـ ص٢٥ وما بعدها.

[4] يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ـ ج١ ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص٥٥.

[5] عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ـ طبع بيروت ١٩٨٤ ـ ج١ ـ ص٢٥-٢٦.

وطرابلس كانت في الأصل موجودة قبل قيام الأحياء الثلاثة، لذا رأى السيد أمين الريحاني[1]: أن من المحتمل أن يكون اسم (دربلي) هو اسم طرابلس الحقيقي، كما ورد في تل العمارنة. وذكر جواد بولس[2]: إن اسم طرابلس هو (وهليا). وفي العهد الإغريقي اتخذت طرابلس اسم تريبولي، وقيل: إن لفظ تريبل هو الاسم الفينيقي القديم لطرابلس. وقيل: إن الاسم الفينيقي القديم لطرابلس هو (أثر). ويذكر الدكتور فيليب حتي[3]: أن (أثر) أو (آثار) هي تسمية سامية جديدة، عرفت بها طرابلس، بعد أن أصبحت عاصمة لاتحاد المدن الفينيقية في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، ونرى هذه التسمية على قطع النقود المصكوكة فيها، والتي يعود تاريخها إلى سنة (١٨٩ ـ ١٨٨ ق.م).

الفرس:

حوالي عام (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م) قام تحوتمس الثالث بحملة، تمكن بواسطتها من إحلال السيادة المصرية على لبنان، ثم تمكن الفرس من احتلال الساحل السوري، وكانت صيدا في عهدهم عاصمة الإيالة الخامسة[4] (مرزبانة خامسة)، وجهز الفرس بصيدا قصراً فخماً، لكي يقيم فيه الحاكم الفارسي.

وفي العهد الفارسي شكلت كل من صور وصيدا وأرواد اتحاداً فيما بينها تحت زعامة طرابلس، واتحدت فيما بينها في السنة الأولى من حكم الملك الفارسي (ارتخشتا الثالث) (٣٥٩ ـ ٣٣٨ ق.م)، وأطلق على هذا الاتحاد اسم: (أثرا). ثم أطلق على هذا الاتحاد في العصر الإغريقي اسم: طرابلس. وفي طرابلس كانت تعقد المؤتمرات لأعضاء الاتحاد. وأشهر مؤتمر عقد كان في عام (٣٥١ ق.م)، تقرر فيه استقلال المدن الفينيقية. ثم إن طرابلس قامت بثورة[5] ضد الملك الفارسي ارتخشتا (٣٥٩ ـ ٣٣٨ ق.م) وامتدت إلى باقي المدن الفينيقية. ولقيت هذه الثورة العون من المصريين من العدد والعتاد، وقاد الثورة ملك صيدا (نتس)، وقضى على آثار الفرس في مدنه. وعندما علم الملك الفارسي المذكور، جهز جيشاً، قوامه (٢٠٠) ألف مقاتل، (٣٠) ألف فارس، (٣٠٠) مركب بحري (٥٠٠) مركب تجاري. أما الفينيقيون فقد أحرقوا مراكبهم خوفاً من فرار

---

[1] أمين الريحاني: قلب لبنان ـ طبع بيروت ١٩٦٥ ـ ص٤٤٩.

[2] جواد بولس: تاريخ لبنان ـ طبع بيروت ١٩٧٢ ـ ص١٥١.

[3] فيليب حتي: لبنان في التاريخ ـ طبع بيروت ١٩٥٩ ـ ص١٨٩.

[4] نظم صور ـ جبيل ـ أرواد ـ إضافة إلى قبرص وبعض سوريا.

[5] عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس ـ ج١ ـ ص٥٧.

بعضهم، ودخلوا بيوتهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، وتمكن الفرس من إحراق صيدا بكاملها وثم استسلامها.

الإغريق:

بعد انتصار الإسكندر على الفرس[1] عام (٣٣٣ ق.م) دخلت سورية تحت سلطته، وسار بمحاذاة الشاطئ السوري، فاحتل أرواد وجبيل وطرابلس وبيروت، وعين ملكاً على صيدا، أطلق عليه لقب: (عيد أو منس). وبعد الإسكندر كان الساحل السوري كالكرة تنتقل من يد إلى يد فمن بطليموس إلى انطبقوتيس إلى سلوقس. لكن عندما بدأ نجم السلوقيين بالأفول، تهيأت المدن الفينيقية، ومن ضمنها طرابلس لنيل استقلالها.

وفي أواخر العهد السلوقي انحازت طرابلس إلى جانب انتياخوس التاسع (١٢٢ ـ ٩٦ ق.م)، الذي قهر أخاه انتباخوس الثامن (غريقوس)، وقدمت له المساعدة. وبعد الذي تم بين الأخوين المتنافسين على السلطة، أخذ انتياخوس التاسع فينيقية وسورية المجوفة، بينما أخذ خصمه أنطاكية وسورية الشمالية. بعد ذلك منحت طرابلس الاستقلال نتيجة موقفها ومساعدتها لانتياخوس التاسع. واتخذوا لهم تاريخاً وطنياً، ثبتوه على النقود، التي صكوها سنة (١٠٥ ق.م)، واستمرت هذه النقود في التداول حتى عام (٧٤ ق.م).

في مرحلة تفسخ السلوقيين وانقسامهم استطاعت بعض القبائل العربية، التي تقيم في حوران والمعروفة باسم: الأيطوريون أن تمد نفوذها إلى الساحل الفينيقي، واتخذوا من عنجر عاصمة لهم. وسيطروا على طرابلس ضمن مركز نفوذهم[2]، ثم نزلوا عرقه، وأقاموا الحصون في البترون، وبنوا قلاعاً في كل من (زغرتا ـ وبرمانا ـ وجنين)، واستمروا في ذلك، إلى أن احتل بومبي سورية، وقتل ملك طرابلس سنة (٦٣ ق.م) نظراً لظلمة وشكاية أهل طرابلس لبومبي ضده.

الرومان:

احتل الرومان بقيادة بومبي سورية بكاملها عام (٦٤ ق.م)، ومن ضمنها طرابلس، فبقيت ستة قرون تحت النفوذ الروماني إلى أن حررها العرب. خلال سيطرة الرومان على بلاد الشام كان دور طرابلس ضعيفاً جداً على الحياة الفينيقية. وسكن المردة أعالي الجبال المحيطة بها. إلا أنها خلال

---

[1] محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية ـ تاريخ لبنان القديم ـ ص١٧٩.

[2] جواد بولس: تاريخ لبنان ـ ص١٨٧.

هذه المرحلة أصدرت نقداً، يحمل تمثالاً لكليوباترا في سني (٣٧ ــ ٣٦ ق.م) كما صدرت نقود، تحمل تاريخاً لموقعه اكتيوم سنة (٣١ ق.م). كما أن انتقونوس (أحد خلفاء الإسكندر) اهتم ببناء السفن، فكانت طرابلس من المدن، التي أنشئت فيها المصانع لبنائها.

ومن طرابلس خرج الحكيم اليوناني (ثاوذوسيوس) في القرن الأول قبل الميلاد، والذي ترك عدة مصنفات في الرياضيات والهندسة. ودخلت المسيحية طرابلس في وقت مبكر من القرن الأول الميلادي. وقدم بطرس الرسول إلى طرابلس، وهو في طريقه من صور إلى أنطاكية، وأقام فيها، والتقى بأسقفها مارون.

وفي عهد الإمبراطور هادريانوس (١١٧ - ١٣٨م) شهدت طرابلس اضطرابات دينية[١] راح ضحيتها بعض أبناء المسيحية. أما في عهد الإمبراطور كركلا (٢١١ ــ ٢١٧م) فكانت طرابلس مركزاً دينياً مهماً، يحتوي عدة معابد، من ذلك معبد عشتارت - زيوس، كما كانت مركزاً إقليمياً لصك النقود الفضية، واستمرت في صك النقود في عهد كل من ماكرين (٢١٧ ــ ٢١٨م).وفي عهد الإمبراطور ديوكليسيانوس (٢٤٥ - ٣١٣م) شهدت طرابلس حركة اضطهاد ضد المسيحية، راح ضحيتها عدد من الأساقفة. وهكذا استمرت طرابلس، إلى أن فتحها العرب سنة (٢٥هـ) (٦٣٦م) على يد سفيان بن مجيب الأزدي.

في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦ - ٣٣٧م) بني في أنطاكية عدد من المدن والقرى في ضواحي طرابلس، إلا أن هذه القرى اندرست بعد الفتح العربي. وفي عهده أيضاً أصبحت طرابلس تابعة للإمبراطورية البيزنطية، وأصبح لأنطاكية أسقف، يمثلها في مجمع نيقيا الأول[٢] ، كما شاركت طرابلس في مجمع أفسس الأول[٣] ، الذي دعا إليه الإمبراطور تيودوسيوس الثاني.

تعرضت أبنية طرابلس حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي لزلزال شديد، أدى إلى خسائر مادية جسيمة. إلا أن الإمبراطور موريقان (٤٥٠ - ٤٥٧م) عمل على إعادة بناء المدينة. وفي سنة (٤٥١م) شارك أسقف طرابلس بمجمع خلقدونية. وفي سنة (٤٩٤م) تعرضت طرابلس لزلزال، ثم توالت الزلازل على طرابلس في القرن السادس. منها زلزال في سنة (٥٣٩م)، وآخر سنة (٥٤٣م)،

---

[١] يوسف الدبس: تاريخ سورية - طبع لبنان ١٨٩٩ - ج٢ - مجلد رابع - ص٧٤.

[٢] احمد شبلي: مقارنة الأديان المسيحية - طبع القاهرة ١٩٦٥ - ج٢ - ص١٠٥.

[٣] دائرة المعارف الإسلامية: ج٥ - ص٢٦١.

وزلزال سنة (٥٥١م). وفي عهد الإمبراطور بوستينيانوس الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) أنشئت في طرابلس كنيسة، عرفت باسم: كنيسة لاونتيوس. واستمرت طرابلس على ما هي عليه إلى أن تم فتحها من قبل العرب سنة (٢٥هـ ـ ٦٤٦م) على يد سفيان بن مجيب.

آثار طرابلس:

وبنتيجة الحفريات، التي أجريت قرب طرابلس عثر على بقايا عند نهر أبي علي، تعود إلى العصر الحجري المتأخر[١]، كما كشف عن مأوى في منطقة (أبو حلقة)[٢] جنوب طرابلس كان مستعملاً في العصر الحجري الأعلى، وأول من سكن طرابلس حسب المصادر المدونة هم عشيرة، (الحويين الكنعانية)، التي قدمت إليها من فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعرفوا فيما بعد: بالطرابلسيين[٣].

عمد الفينيقيون إلى إقامة حاجز في الطرف الشمالي من الميناء في طرابلس، لحماية سفنهم من الرياح الجنوبية. أما في الجهة الجنوبية فقد أقاموا شبه حاجز. وفي الجهة الغربية الحسام المقلوب، وهو بناء صخري قديم العهد، أقيم للاتصال مع المراكب الراسية بالغرب محور الشاطئ. ولطرابلس سور، يمتد من الجهة الغربية، يتجه شمالاً، وزالت معالم هذا السور في الوقت الحاضر، ولم يبق منه سوى الأساسات، التي أقيمت عليها الأبنية، أما المرسى فلا أثر له، حيث هدم، ولم يبق فيها إلا الآثار، التي لا قيمة لها.

عثر في طرابلس على قلعة نذرية رومانية[٤] (في متحف اسطنبول)، ارتفاعها (٣٦ سم)، وعرضها (٥٤ سم)، وسمكها (١,٥٥م). على أحد جوانبها وجدت ثيران مجنحة راكعة على ركبها. كما عثر على تابوت (في متحف اسطنبول) من الرخام، كما كشفت آثار معبد روماني ومقبرة لفقراء أهل طرابلس، يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد.

سادساً ـ حمص:

المعلومات عن حمص قبل الرومان تكاد تكون معدومة، وأول من ذكر اسمها القديم (ريمزا —

---

[١] فيليب حتي: سورية والسوريون من نافذة التاريخ ـ طبع نيويورك ـ ص٢٠.

[٢] فيليب حتي: لبنان في التاريخ ـ طبع بيروت ١٩٥٩ ـ ص٥٤.

[٣] مارتن اليسوعي: تاريخ لبنان ـ ترجمة رشيد الخوري ـ الستزتوني ـ طبع بيروت ١٨٨٩ ـ ص١٥.

[٤] ج ـ كونتنينو: الحضارة الفينيقية ـ طبع القاهرة ١٩٤٨ ـ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

أو إيميزا ـ أو إيمسا) **كان المؤرخ الروماني المعروف (بلين القديم في كتابه التاريخ الطبيعي. إلا أنه** يعتقد أن مدينة حمص كانت موجودة قبل الرومان. إلا أن أهميتها على ما يبدو كانت قليلة من الناحيتين السياسية والاقتصادية. والتنقيب في المدينة أصبح مستحيلاً نظراً لإقامة منشآت بشرية متعاقبة فوق بعضها بعضاً ولاستمرار العمارة. وأقدم ذكر لحمص باسم ايميسا كان لدى استرابون في منتصف القرن الأول قبل الميلاد.

لكن ومع عدم توفر الحقائق الثابتة عن تاريخ حمص قبل الرومان كان بعض الباحثين يذكرون: أن حمص لها تاريخ، يعود إلى الأموريين. فمثلاً في كتاب حمص درة مدن الشام يقول مؤلفا الكتاب[1] «من الثابت للدارسين أن أصول سكان حمص من العموريين والكنعانيين والآراميين من العرب القدماء مع أصول عربية جديدة». وذكروا أن الهجرات العربية بدأت بالعموريين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وقد توضع قسم كبير منهم في بعض أجزاء بلاد الشام، وشكل قسم آخر دولة قطنة. ومن المفترض، بعدما ثبت الكنعانيون أقدامهم في الغرب، أن قسماً كبيراً منهم كان قد تسرب إلى حمص، وخاصة من عرف منهم (بالفينيقيين). وقال منير الخوري في كتابه تاريخ حمص: وعن ذكرها يقول امرؤ القيس، الذي عاش قبل الإسلام، وتوفي سنة (٨٠) قبل الهجرة. (الكندي):

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريح في قرى حمص أنكرة

وذكرها الأعشى الكبير، الذي عاش قبل الإسلام. إلا أنه أدركه، ولم يسلم، وتوفي سنة (٧هـ) (٦٢٩م)...

لقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأورشليم

وقال دوسو: كانت مدينة حمص بيد حكومة عربية قبل وصول القائد بومبي إلى سورية. وذكر: أن الإسكندر المقدوني عندما جاء إلى الشام كان العرب يحتلون لبنان.

وذكرت الحوليات الأثرية السورية: أن مدينة حمص نشأت في العهد السلوقي فورثت أهمية مدينتي قطنة وقادش، وخلفتهما في معرفة مصير سورية الوسطى. وذكرت الحوليات السورية المجلد العاشر: أن حمص كانت من بين المدن السورية، التي شيدها سلوقس نيكاتور، أو التي منحها اسماً يونانياً. وأنا أميل إلى الاعتقاد الثاني. إلا أن سلوقس قد طور مدينة حمص، التي تعود في جذورها إلى تاريخ أقدم. وإذا ما سمحت الظروف التنقيب عن آثار حمص في موقعها الحالي، فسوف

---

[1] منذر الحايك ـ فيصل شيخاني: حمص درة مدن الشام ـ دراسة تراثية مصورة ـ طبع حمص ١٩٩٥ ـ ص١٨.

يظهر تاريخ آخر لها، يعود إلى الآموريين. وأعتقد أن حمص مدينة آمورية قديمة، والمطلع على الجغرافيا الطبيعية لبلاد الشام، وتاريخ هجرة الأموريين، ومن تلاهم، ودورهم التاريخي في سورية الداخلية، يدرك أن حمص إحدى المدن الرئيسية، التي مرت هذه الهجرات بها من جهة، وسكنتها، وتركت طابع الحضارة الأمورية في هذه المدينة، لما لها من أهمية جغرافية بموقعها الممتاز على العاصي من جهة أخرى، ويجب ألا ننسى ما كان للعاصي من أهمية في حضارة الأموريين، ومن تلاهم كالآراميين، فيما بعد.

أيضاً يجب التركيز على الميزات الزراعية والتجارية لموقع حمص واهتمام الهجرات العربية بها. وهذا ما دفع السلوقيين للاهتمام بهذا الموقع فهم أول من أنشأ بحيرة قطينة الاصطناعية عن طريق تشييد سد، غايته تجميع مياه نهر العاصي، الغاية منه إرواء الأراضي الواقعة بين البحيرة، وبين سهل الغاب، الذي استثمروه في تربية خيول فرسانهم وأفيالهم، التي كانت ذات أهمية في تنظيم قواتهم المسلحة.

وذكر: أن القبائل العربية، التي كان معظم سكان حمص منها كانت سنة (٩٦ ق.م) أي في عهد السلوقيين قد انتزعت السلطة منهم، وتولت الحكم فيها سلالة حكام عربية، حيث وصل إلينا ثمانية حكام، أولهم: (دابل) وتلاه: (سمسيفرام)، الذي عرفت هذه السلالة باسمه، تلاه: (جمبليك ـ والإسكندر ـ وجمبليك الثاني وسميسفرام الثاني ـ وعزيز ـ وسهيم).

وحكم هؤلاء الحكام حمص بشكل متتابع من أول القرن الأول قبل الميلاد إلى النصف الثالث من القرن الأول بعد الميلاد، وألفوا حكومة وسط سورية، مركزها حمص. كما تولوا بالإضافة إلى أعمالهم كحكام سدانة معبد الشمس، وقيل: إن القائد الروماني، الذي تم على يده فتح حمص سنة (٦٤ ق.م) كان معاصراً لحاكم حمص سميسفرام.

وضرب هؤلاء الحكام العرب النقود بأسمائهم. وكان لهم دور، يذكره التاريخ، هو تدخلهم في المنازعات الرومانية الداخلية. فمثلاً تراهم يتحيزون لأنطونيوس على أوكتافيوس ـ وقد أولوا الزراعة بالعناية، ويظهر ذلك في استثمارهم لسهل العاصي.

ومما يؤكد وجود حمص في هذه المرحلة اكتشاف الصومعة، التي بنيت، لتكون مدفناً لسميسفرام وأبنائه، حسب كتابة، تشير إلى ذلك. وظهرت هذه الكتابة على لوح مستطيل في أعلى الطابق الثاني من المدفن من جهته الشمالية الغربية، والتي ذكر فيها ما يلي: « بني غايوس بوليوس

من قبيلة قابيا، سميسفرام، المسمى أيضاً سيلاس بن غابوس يوليوس اللسيون في حياته هذا المدفن لنفسه ولأسرته عام (٧٨ ق.م) »[1].

وذكرت الحوليات الأثرية السورية: بأن هذا المدفن كان برجاً، ارتفاعه (١٥م)، وطول ضلع قاعدته (١٢,٥م) وله طابقان، يعلوهما هرم مدرج، يصعد إلى الطابق الأول منهما بدرج، عدد درجاته ستة والطابق الثاني يتراجع قليلاً إلى الوراء عن الطابق الأول، وله أيضاً ثلاث درجات، أما داخل البرج فكل طابق كان يحتوي على قاعدة مستديرة، تتوزع حولها ثمانية محاريب نصف دائرية.

وذكر: أن مقبرة (الصومعة) كانت قد اكتشفت عام (١٩٣٦م) من قبل لصوص الآثار. إلا أنه استرجع ما تم سرقته منها، وأودعت المتحف الوطني بدمشق، وأعتقد أن هذه المجموعة الهامة كانت لأفراد سلالة سميسفرام. وأهمها: ١- خوذة حمص: عرفت بالخوذة ذات الوجه تألفت من قطعتين، الأولى: لتغطية الرأس والثانية: القناع لستر الوجه. ٢- قناع ذهبي يشبه وجه الخوذة. ٣- سوار ذهبي مزين بالفيروز. ٤- خاتم ذهبي، على فصه صورة لصاحبه، التي تشبه الوجه الممثل على الخوذة. ٥- خاتم ذهبي، له فص من العقيق. ٦- قلادة ذهبية لطفل. ٧- أوراق ذهبية، عليها صورة ربة الظفر (الإله ابولون). وكل ما ورد يعدّ آثاراً رومانية.

نعود لخوذة حمص حيث تتألف هذه الخوذة من قسمين أولاً: البيضة، التي تستر هامة الرأس. والثاني: النقاب، الذي يحمي الوجه. وكلاهما مصنوع من الحديد. غير أن النقاب، الذي يمثل ملامح الوجه موشى بالفضة. أما البيضة فإن قونسها (مقدمتها) وعنقها فقط مزدانان بالفضة، يربط بين القسمين مفصل، يمكن به رفع وجه الخوذة. يبلغ وزن الخوذة (٢ كغ)، ترك على وجهها شقان على مستوى العينين، وثلاثة ثقوب صغيرة عند كل من الجفنين السفليين، وفتحتان قبالة الفم والمنخرين. وذكر: أن هذه الخوذة لم توضع للزينة، إنما للحرب. وترجع هذه الخوذة إلى القرن الأول قبل الميلاد. وهذه الخوذة يعتقد أنها صنعت في أنطاكية[2].

لكن دور حمص المهم في التاريخ الروماني يظهر بشكل واضح خاصة في العشر الأخير من القرن الثاني الميلادي، عندما مر بها القائد (سبتيم سيفير) من أصل ليبرز. وتزوج من (جوليا دومنا) ابنة كاهنها، ورزق منها ولدان، أحدهما كركلا. حيث تم تسلم السلطة

[1] الحوليات الأثرية السورية: المجلد العاشر ١٩٦٠ ـ الهامش ص١١.

[2] المرجع نفسه: ص١٦٢.

الإمبراطورية سنة (١٩٧م) وإليه يعود الفضل في جعل حمص آنذاك عاصمة لسورية الفينيقية.

وتسلم ابنه كركلا السلطة (٢١١م)، فمنح حمص وصور الحق اللاتيني واسم مدينة روما. وفي عهد الإمبراطور (ابلاغابال)، الذي كان قبل توليه السلطة كاهناً لمعبد الشمس وحفيد جوليا ميزا من ابنتها (جوليا سوميا)، تم نقل الحجر الأسود من معبد الشمس في حمص إلى روما عاصمة الإمبراطورية. ونتيجة الاهتمام بمدينة حمص بلغت الزراعة فيها درجة متقدمة، فكثرت حولها الكروم وبساتين الزيتون وانتشرت في أراضيها الأرحية من العهد الروماني، وانتشرت القرى حول المدينة، واهتم بشؤون الري وتجديد سد بحيرة قطينة أواخر القرن الثالث الميلادي في عهد الإمبراطور (ديوكليسان)، وقسمت الأراضي الزراعية حولها إلى حصص متساوية، كل منها خمسون هكتاراً. وزعت هذه الحصص على صغار المزارعين أو المتقاعدين من أفراد الفرق العسكرية المقيمة في حمص.

وارتبطت مدينة حمص بما حولها من مدن وقرى بطرق، سهلت عملية النقل والتنقل. حتى أن بعض هذه الطرق رصفت بالحجارة. كل ذلك ساعد على ثراء مدينة حمص وتطور تجارتها. فمنها كانت تمر حاصلات وبضائع المرافئ الفينيقية « كالتماثيل البرونزية، والأقمشة الصوفية المصبوغة بالأرجوان، والزيوت المعطرة، والأواني الزجاجية الملونة الثمينة والأدوات والحوائج الفضية والذهبية والخمر إلى مرافئ الخليج العربي »[(١)].

كما كانت تستقبل القوافل العائدة من تلك الجهات محملة بالبضائع من الشرق كالعطور، والأحجار الكريمة (الفيروز ـ اللازورد ـ واللآلئ) والأقمشة القطنية، والقزاز والفراء والحرير حيث نقل هذه البضائع تجار حمص عبر المتوسط إلى اسبانيا وغاليا وإيطاليا. في الوقت نفسه اتخذ تجار حمص متاجر لهم في هذه الدول.

ولما امتازت به حمص، فقد تولى أبناؤها عدداً من مناصب رفيعة في الدولة الرومانية، واستمروا بعضوية مجلس الشيوخ. ومن أهم أوابد حمص: معبد إله الشمس (ايلاغابال)، الذي كان الحجر الأسود موضوعاً فيه، والذي كان يعد مقدساً، يعفى من يلجأ إليه من أي نوع من العقوبات.

يقول فرانتس التهايم[(٢)]: وأخيراً وليس أخراً بالقدرة التحويلية الخاصة بالديانة الرومانية

---

(١) الحوليات الأثرية السورية: المجلد العاشر ١٩٦٠ ـ ص١٥.

(٢) الخوري عيسى أسعد: تاريخ حمص ـ ص٣٩٠.

والسياسة الرومانية يتحول إله (ايلاغابال) (٢١٨ ــ ٢٢٢م) المرتبط بالمجهول والمعتقدات الشرقية القديمة إلى أنقى الآلهة جميعها، ليوحد الديانة الكلاسيكية مرة أخرى.

وقال: لا يزال عيد ميلاد المسيح يذكرنا بأنه يحل محل عيد ميلاد إله الشمس الروماني، الذي لم يقهر. وقال: لكن إله الشمس الحمصي لم يتخلَّ عن المرتبة الأولى، كما فعل شمش في بعلبك وتدمر. وقال: إن هيليوس الكبير الحمصي كان على مستوى واحد مع إله الشمس (رع) المصري.

وقال: وفي مدينة حمص كان الحجر المقدس مخروطي الشكل مدبب الرأس واقفاً على قاعدة مستديرة، وعليه نقش بارز لصورة نسر، وفي منقاره حية، وهي صورة معروفة كرمز للشمس، ومعنى ذلك أن هذا الحجر أيضاً لم يمثل الشمس، بل حمل صورتها فقط، ومع ذلك فقد اتحد الإله مع الحجر الأسود، الذي كان يلازمه نوعاً ما. وقال: لما انتقل طقس إله الشمس إلى روما رافقه إلى ضفة نهر التيبر حجر مدينة حمص المقدسة. أما بعد اغتيال (ايلاغابال ٢٢٢م) عندما أراد الرومان التخلص من هذا الطقس الغريب، فقد أعيد الحجر إلى وطنه سورية.

وبعد ظهور المسيح وانتشار ديانته، أسهمت مدينة حمص إلى حد ما في نشر الديانة الجديدة إذ يروى إن بطرس الرسول ويوحنا الإنجيلي كانا قد مرا بأراضيها، واستضافهما فلاح اسمه (خريسوموس)[1] في بيته ثلاثة أيام، وقد تنصّر الفلاح، وأقيمت مكان بيته كنيسة القديسة بربارة، ثم غدت حمص أبرشية، وانتشرت فيها الكنائس مثل كنيسة القديسة هيلانة، التي بنيت سنة (٣٢٦م) ومنها الكنيسة الكبرى، التي نقل إليها رأس سيدنا (يحيى) بعد اكتشافه سنة (٤٥٣م)، ثم نقل إلى القسطنطينية في منتصف القرن التاسع الميلادي. كما بنيت فيها دار (مار مارون) في عهد الإمبراطور مارسيان (٤٥١م).

وبنى فيها (دير مار توما)، ومن هذا الدير اختطف المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٤٠٠) عذراء، وقدمهن ضحايا إلى العزى. هذا وقد ذكر: أن حمص مدينة فوق مدينة. واكتشفت سنة (١٩٤٠م) ثلاثة مدافن، تعود إلى سنة (٢٧٨م) قرب محلة باب السباع. كما اكتشف سنة (١٩٥٧م) مدفن عند باب الدريب، يعود إلى القرن الخامس الميلادي واكتشف في هذه القبور الهياكل العظمية وسروج فخارية مزينة بصلبان، ووجوه قديسين، وبعض القوارير والكؤوس الزجاجية، وبعض الأعلاف البرونزية، والأقراط الذهبية، وأساور وحلي برونزية، وبعض الشكلات

---

[1] الخوري عيسى أسعد: تاريخ حمص ـ ص٣٦٠.

البرونزية وغير ذلك، واكتشف زنار في جرن ضمن كنيسة السريان الأرثوذوكسي في حمص. كانت هذه الكنيسة تسمى: كنيسة الزنار. يبلغ طول الزنار (٧٤ سم)، وعرضه (٥ سم)، وسمكه (٢مـم)، لونه أبيض سكري مصنوع من الصوف مطرز بالذهب. والزنار هذا كان على ما يبدو قد أُعطي إلى (مار توما)، عندما لحق بجنازة العذراء.

سابعاً ـ حوران:

من المعروف أن الإنسان استقر، وتنقل في المنطقة منذ العصور الحجرية، وترك الإنسـان فيها مخلفاته من الأدوات الصوانية. ومن المواقع المعروفة كومة التبنـة، كـوم الحصى، وقراضـة، وحزحز والشبكي. وقد حل بها الإنسان منذ ما قبل التاريخ بزمن طويل. وقد تمكن الإنسان خلال إقامته في هذه المواقع وغيرها من إضافـة مقومـات حضاريـة، آثارهـا باقيـة إلى الآن. كـان أهمهـا الاستقرار الحضاري. علماً أنه لم تجرِ أي تنقيبات أثرية، غايتها كشف آثار العصر البرونزي، وما سبقه.

إذن المواقع الأثرية في جبل حوران لم تجرِ بها الكثير من التنقيبات، فتاريخها يعتمـد فيـه على اللقى الأثرية السطحية من جهة، والوثائق المصرية من جهة أخرى، ومن خلال التحري يعدّ تل الدبة أهم تل أثري في السويداء. التقط الكثير من الأواني الفخارية من على سطح التل، حيث تنسب هذه القطع إلى عصر الممالك الكنعانيـة والأموريـة الأولى والثانيـة (٢١٠٠ ــ ١٢٠٠ ق.م) وإلى العصر النبطي. ومن المصادر المصرية ورد في ثبت الفرعون تحوتمس الثـالث (١٤٩٠ ــ ١٤٣٦ ق.م) ذكر لمدينة، اسمها دوبو، ويعتقد أن تـل الدبـة هـو مدينـة دوبـو الكنعانيـة الـوارد ذكرهـا في رسـائل تـل العمارنة. ويعتقد أن ملك دوبو كان متحالفاً مع المصريين ومع ملـك دمشـق. وفي الوثـائق المصرية ورد أيضاً اسم أمشان، حيث ذكرها تحوتمس الثـالث في ثبـت أسمـاء المـدن والقـرى، الـتي اجتاحها خلال حملته على سورية.

وأثبتت عمليات المسح الأثري في المنطقـة أن المواقـع التاليـة: ديـر الأسمـر (بـين نجـران ــ وأم العلف) وخربة الطوالة (بين كفر اللحف ـــ وريمـة اللحـف) وكـوم الصـوان (بـين بريكـة ــ وكفـر اللحف)، وكوم التين بين (ريمة اللحف ـ وتل الدبة)، وجدت فيها آثار، تعود إلى العصـر الـبرونزي أي: الممالك الأمورية والكنعانية. والأواني الفخارية المكتشفة، أكدت على سكن الإنسـان في هـذه المناطق خلال القرن الأول حتى الألف الثاني قبل الميلاد، وتشبه هذه الأواني تلـك الـتي انتشـرت في عهد الهكســوس. وذكر: أن قرية المتونة كانت مشـيدة فوق مقبرة. علماً أنه لم تكتشف آثار آرامية

ذات أهمية، تلقي الضوء على تاريخ حضارة المنطقة.

كانت منطقة حوران تابعة لمملكة صوبا، وعاصمتها كانت عنجر، وتضم بالإضافة إلى حوران إقليم البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية والقلمون ودمشق. وفي القرن العاشر قبل الميلاد أصبحت مملكة صوبا تابعة للمملكة آرام دمشق، وكان يتبع لها أكثر من عشرين ملكاً. وتذكر الوثائق الآشورية: أن شلمانصر كان قد هاجم سوريا، وزحف على حوران، حيث دمّر، وأحرق مدناً عدة. وفي عهد تجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) هاجم دمشق، واحتلها وحولها مع المناطق التابعة لها، ومن ضمنها حوران، وعاصمتها آنذاك عشتروت فرنين (شيخ سعد). وقسم المناطق إلى ست عشرة ولاية، منها ولاية حوران، وكان يتبع لها جبل حوران وذلك سنة (٧٣٣ ق.م).

ومن المعروف أن الأنباط كانوا قد ضموا إلى مملكتهم جنوب سوريا، حيث نجد آثارهم في بصرى وصلخد والسويداء وسبع وشهبا وغيرها. ودخولهم إلى المنطقة، كما يعتقد، كان بعد معركة (أمتان) بين الأنباط والسلوقيين عام (٨٨ ق.م)، التي انتصر فيها الأنباط بعد ذلك، فأصبحت القنوات وصلخد من المراكز التجارية الهامة. يؤكد ذلك العثور على كتابة نبطية دينية في صلخد، موجهة إلى اله الخصب (اللات). وأيضاً عثر على سفح تل القليب على هيكل نبطي للإله ذي الشرات. وأيضاً عثر على معبد الرب بعلشمين في سبع قرب القنوات.

بعد سيطرة الرومان على سورية استمرت في حوزة الأنباط حتى عام (١٦٠م)، حيث ضمت إلى الإمبراطورية الرومانية، وشكلوا في المنطقة ولاية عربية، كانت بصرى عاصمتها. ومن المعروف أن القنوات كانت ذات أهمية استراتيجية في العصر الروماني، وخاصة عندما كانت ضمن اتحاد المدن العشر، حيث يذكر: أنها صكت النقود البرونزية المحلية، وفيها أيضاً معبد، يعود تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي، وكنيسة، تعود إلى القرن السادس الميلادي، وقبل التحرير العربي الإسلامي أتبعت المنطقة إلى الغساسنة، واستمرت، حتى حررها العرب بعد معركة اليرموك. علماً أن المنطقة كانت قد خضعت لنفوذ الفرس من تاريخ (٦٠٨ ـ ٦٢٩م).

إذن على سفوح جبل حوران، بنى الإنسان القديم (ما قبل التاريخ) مواطن سكنية، من أهم هذه المواقع الهبارة والأمباشي، حيث تم اكتشافها عام (١٨٥٧م)، وقد بدأ التنقيب فيها عام (١٩٣٣م)، وفي عام (١٩٥٤م) ظهرت أول دراسة علمية أثرية عن هذين الموقعين.

خربة الأمباشي: تغطي هذه الخربة مساحة، تزيد عن (٢٠) هكتار وهي رجوم وركام من الحجر البازلتي الغشيم، ومما يؤكد على استقرار الإنسان القديم في هذه المنطقة وجود قناة وسد وسور حجري وبقايا أبراج ومساكن، والمساكن تأخذ شكلاً هندسياً، وارتفاع سقوف هذه البيوت لا يزيد عن (١٣٠سم)، والأبنية المكتشفة متراصة، عثر في هذه المواقع على قطع فخارية، تعود لعصر البرونز الوسيط، كما كشف هناك أجران محفورة بالصخر البازلتي لأغراض منزلية، كما كشف فيها عن قبور على شكل غرفة مربعة الأضلاع مبنية من الحجر البازلتي الغشيم بسماكة متر، تضم لحدين أو لحداً واحداً، لها باب ضيق، يغطي القبر ببلاطات بازلتية، والقبور المكتشفة متباينة، فمنها الكبير (٤ × ٤ م) من الخارج، ومنها ما هو أقل من ذلك، ومنها القبور المخصصة لأطفال صغار، لا يزيد طول القبر عن متر.

خربة الهبارية: تقع شرق الأمباشي بحدود سبعة كيلومترات، تقع على تلة، تحتوي مساكن، بنيت على شكل دوائر متلاصقة، معظمها بأبواب ضيقة واطئة، مادتها الحجر الغشيم، سقفها على شكل قبة غير مدببة.

شهبا: تقع على مسافة تسعين كيلومتراً جنوب دمشق تابعة لمحافظة السويداء، ذكر: أنها كانت بلد الإمبراطور الروماني فيليب (٢٤٤ ـ ٢٤٩م)، وسميت باسمه: فيليبو بوليس. وقد عني هذا الإمبراطور بهذه المدينة عناية فائقة، فنظمها على الطريقة الرومانية، وأقام فيها القصور والمعابد والأقواس والحمامات، وأقام فيها مسرحاً وسوراً، يحيط بالمدينة. وتحتوي المدينة من الآثار الرومانية على قصر الإمبراطور فيليب، ويوجد في متحفها حالياً مجموعة من اللوحات الفسيفسائية، التي ترمز إلى الأساطير الإغريقية القديمة، منها لوحة (تالاسا) ربة البحر، ولوحة الفصول الأربعة، ولوحة أورفه عازف الغيتار والشاعر الموسيقي وأسطورة ولادة فينوس (ربة الحب والجمال) أفروديت وإله الكرمة (ديونيزوس) وغيرها.

المسرح: ما زال قسم كبير منه قائماً إلى الآن.

كليبة شهبا: وهي، معبد عرض واجهته (٣٠م). يعتقد أنها كانت أصل الكنائس البيزنطية أو أصل قبابها.

حمامات شهبا: تعدّ هذه الحمامات أكبر الحمامات الرومانية المعروفة في القرن الثالث

للميلاد، حيث لا زالت بعض آثارها إلى الآن. كما يوجد في بلدة شقا الواقعة إلى الشرق من مدينة شهبا آثار، أهمها القيصرية أي مقر حاكم المقاطعة زمن الرومان، وهذا القصر من أهم ما خلفه الرومان في المنطقة.

كليبة شقا: تقع إلى يسار القصر، أصبحت فيما بعد كنيسة، سميت باسم القديس جرجس، وفي بلدة سليم المعروفة في العصر الروماني باسم (نيابوليس) يوجد معبد، ما زالت زاويته الشمالية قائمة، وأيضاً قاعدته الجنوبية. يعود هذا المعبد إلى منتصف القرن الثالث الميلادي. وفي بلدة عتيل يوجد معبدان، بني إحداهما عام (١٥١م)، طول واجهته (١٢م)، ويعرف بالجنوبي. والثاني ما زالت واجهته الجنوبية قائمة، بناها الإمبراطور الروماني كركلا.

قنوات: جمع قناة، والقنوات: العبارة، تقع على بعد (٧ كم) شرق السويداء، عرفت بأنها كانت مدينة ذات أهمية أيام الرومان، وخاصة منذ العام (٦٠ ق.م) بعد أن جعلوها واحدة من أهم المدن العشر (ديكا بوليس)، أي الائتلاف، الذي كان يجمع عدداً من المدن التجارية في المنطقة، وكانت دمشق على رأس هذا التحالف.

من أهم آثارها ثلاثة معابد، يعود بناء أهمها إلى القرن الثاني الميلادي ومن آثارها الهامة أيضاً ـ معبد إله الشمس الذي شيد في القرن الثاني الميلادي. وكان الرومان يطلقون عليه اسم: (هيلو بوليس) وله واحد وثلاثون عموداً، ما زال بعضها موجوداً في الساحة العامة للمدينة، ومن الآثار الأخرى: ـ معبد الإله ذيوس سيد السموات والأرض، له ستة أعمدة وما زالت قائمة بتيجانها الكورنيشية. ـ معبد إله المياه: يقع قرب مسرح القنوات. ـ كنيسة القنوات: والتي بنيت في القرن الرابع الميلادي.

السويداء: تقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق، تبعد عنها بحدود (٩٠ كم). جعلها الرومان في القرن الثالث الميلادي واحدة من أهم مدن ولاية الجزيرة، وأطلقوا عليها اسم: (ديونيزياس)، لأنها بلد الخبز الشهي. في متحفها مجموعة رائعة من لوحات الفسيفساء، يمثل أحدها مشاهد (أرتميس) ربة الصيد، وهي خارجة من الحمام، وقد أحاطت بها حورياتها، وتعود إلى القرن الثالث الميلادي، ومنها لوحة، تمثل مشهد (فينوس) وعرس (تيتس)، وفيها معبد روماني، يعود للقرن الثالث الميلادي.

صلخد: تقع على بعد (٣٨ كم) جنوب شرق السويداء، تسمى (صرخد) وتسمى أيضاً (سلخه)، تقع على بعد (٣٥ كم) جنوب السويداء، كانت مشهورة بالخمر، ومن أهم آثارها القلعة، التي بناها الأنباط، وجددها الأيوبيون فيما بعد.

إزرع: تقع في سهل حوران (ضمن محافظة درعا)، تبعد (٨٠ كم) جنوب دمشق. فيها كنيستان، تعودان للقرنين الرابع والخامس الميلادي، الأولى: بنيت على أنقاض معبد وثني. تعدّ من أقدم الكنائس الإيوانية، وهي بقبة مرتكزة على مثمن، عرفت باسم كنيسة القديس مار جرجس. والثانية: تماثل الأولى، وكلاهما يعودان إلى العصر الروماني.

الصنمين: (ضمن محافظة درعا) يوجد فيها معبد روماني وثني يعود تاريخه (١٩١م).

النمارة: تقع شرق جبل العرب، اكتشفت فيها كتابة باللغة العربية النبطية على شاهدة قبر امرئ القيس بن عمرو ومؤرخة في (٣٢٨م).

ثامناً - بصرى:

تقع بصرى إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق على بعد /١٤٠ كم/ عنها، كانت في إحدى مراحلها تابعة للأنباط وأحد المراكز التجارية العربية في هذه المرحلة، كما كانت عاصمة للمقاطعة العربية إبان الحكم الروماني. تعني كلمة بصرى: الحصن، اكتسبت منذ البداية أهمية كمدينة رئيسية في حوران. وبصرى مدينة عربية قديمة، عاصرت الأكاديين والأموريين والكنعانيين والآراميين والنبطيين والغساسنة، وأول ذكر لها، تم العثور عليه كان في لوحات تل العمارنة[1]، وأتت على ذكرها أيضاً ألواح تحوتمس الثالث وأخناتون في القرن (١٤ ق.م).كانت بصرى إحدى مدن الأنباط في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان اسمها: (بوحرا). أما في العصر الهلنستي فأصبحت تحمل اسم (بوسترا)، وفي العصر الروماني في عهد تراجان أصبحت عاصمة الولاية العربية المذكورة، وأطلق عليها اسم: (نياتراجانابوسترا).

إذن يرتبط اسم بصرى مع ذكر الأنباط، لأن التنقيبات الأثرية، أكدت وجود قلعة نبطية، لا تزال أساساتها قائمة تحت جدران المدرج الكبير، حيث نلاحظ: أنه في القرن الأول قبل الميلاد تركز الأنباط في بصرى وصلخد والسويداء (قنوات). والغاية كانت حماية تجارة الأنباط، وكما هو معلوم

---

[1] تل العمارنة كتب متبادلة بين حكام سورية ومصر.

أن آخر ملوك الأنباط (٧٠ ـ ١٠٦م) كان قد جعل من بصرى عاصمة له، ثم ألحقت بصرى وغيرها بالإمبراطورية الرومانية، حيث شكلوا من جنوب سورية (حوران والجولان وشرقي الأردن) ولاية، أطلقوا عليها اسم الولاية العربية، وكانت بصرى عاصمة[1] لهذه الولاية الجديدة.

في عهد القيصر اسكندر سيفيروس (٢٢٤ ـ ٢٣٥م)، فازت بصرى بمنح جديدة، لأنها أصبحت مستعمرة رومانية، وفي سنة (٢٤٥م) ارتقى أحد أهاليها فيليب إلى رتبة القيصر، فجعلها متروبوليس. شهدت بصرى خلال العصر الروماني تطوراً في كافة الميادين، فتطورت الزراعة فيها بعد قيام قنوات المياه وانتشار الخزانات والآبار، كما أقيمت فيها المعابد والشوارع المعبدة والأقواس، وأهمها كان المدرج.

في عهد الإمبراطور الروماني اسكندر سيفروس منحت بصرى العناية، وامتازت بالتمدن وتطور المواصلات التجارية. وخاصة الطريق الممتد من بصرى إلى عمان حتى الخليج العربي، ومن بصرى إلى حيفا على المتوسط ومن بصرى إلى دمشق وتدمر. أخيراً إن أسوار المدينة لم تعد لفترة واحدة، وإنما كانت قبل الرومان وقبل الأنباط بزمن طويل، أي أنها تعود إلى الكنعانيين والآراميين في بعضها، وبعضها الآخر إلى الأنباط، وبعضها الآخر روماني في العهد البيزنطي ساهم أساقفة بصرى في مجمع أنطاكية ومجمع القسطنطينية والمجمع الخلقدوني وغيره. وقد عثر فيها وبجوارها على مصكوكات كثيرة، تمثل معبوداتها، وعثر في داخل البرج الجنوبي للمدخل على قاعدة، تحمل اسم أحد ولاة الولاية العربية، كما عثر على ساحة مبلطة بحجر البازلت من الخارج. تقسم المدينة إلى الأقسام الرئيسية التالية:

الباب الرئيسي: (باب الهوى): يعود تاريخه إلى القرن الثاني بعد الميلاد، ويذكر: أنه كان قد بني في عصر متأخر عن بناء السور الغربي للمدينة. يتألف الباب من مدخل عالٍ، عرضه عند الممر (خمسة أمتار)، وعرض الواجهة (١٠,٨٥م)، الباب مسقوف من الحجر على شكل عقد، يزينه قوسان، أحدهما: أعلى من الآخر، وتضم الواجهة الخارجية عضادتين بارزتين، يتوسطهما محراب، تعلوه جبهة هرمية الشكل مزينة بزخارف.

السوق الأرضية: يقع السوق في الجانب الشمالي للشارع المستقيم، يمتد السوق على مسافة (١٠٦م) بعرض خمسة أمتار، يعود تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي، ويشبه هذا السوق

---

[1] جورج بني: تاريخ سورية ـ طبع بيروت ١٩٨٦ ص٤٠٣.

الأسواق الرومانية المعروفة. إلا أنه من أكبرها طولاً، واكتشاف السوق هو، الذي أدى إلى تعيين الساحة العامة للمدينة، وإضاءة السوق تتم بواسطة (٣٤) نافذة مبنية في الجدار الجنوبي للمبنى، أما في الجدار الشمالي فقد أقيمت ستة أبواب للدخول إلى المبنى. وهذا الجدار مزين بمحاريب مستطيلة، يبلغ ارتفاعه ما يزيد على أربعة أمتار ونصف. يستدل من خلال المكتشفات على وجود طابق علوي.

القوس المركزية: بنيت الأقواس المركزية في سائر المدن الهامة، وكانت ترمز على عودة الجيش الظافر، ومكانها كان على أطراف الساحة العامة، يعود تاريخ بناء قوس بصرى إلى القرن الثالث الميلادي، ويتألف من ثلاثة أقواس، أعلاها الوسط، الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً، ويبدو: أن القوس كان قد أقيم لذكرى انتصار جوليوس جوليانوس (قائد الفرقة البارتية الأولى المنسوبة إلى الإمبراطور الروماني فيليب (العربي)، وهذا القوس يتصل بمدرج بصرى بشارع، والقوس يوضحه الشكل المرفق.

الحمامات: كانت الحمامات مزودة بكل الوسائل، التي تؤمن المستحم كالرياضة والنظافة والماء البارد والحار بالإضافة إلى الحرارة المناسبة، ضمت بصرى ثلاثة حمامات كبيرة وحمامات خاصة في بيوت الطبقة الراقية، الحمام الأول: يقع في جنوب المدينة بين المسرح والشارع المستقيم. والثاني: حمام المعسكر، الذي يقع شمال المدينة بالقرب من النبع الثالث، ثم الحمامات المركزية، التي تمتد بقاياها إلى الجنوب الغربي من السور، وكان يدخل إليها من الشارع المستقيم بعد احتياز فناء مرتفع مزين بثمانية أعمدة من الطراز الأيوبي، وكان الحمام يتألف من: قاعة واسعة معدة لخلع الملابس، طولها (١٥م)، وعرضها (١٢,٧٥م)، وقاعة المياه الدافئة، وتحتوي هذه الصالة على أجران ومغاطس وغيرها. وكان من الممكن تعديل حرارة المياه داخل الحمام حيث كانت المياه تمر في أقنية معدة في الجدران موزعة على الغرف.

المعبد النبطي: أهم أجزائه القوس الرئيسي المزين بمحراب وأعمدة نصفية، تعلوها تيجان من طراز نبطي. يمتد المعبد نحو الشرق.

سرير بنت الملك: كان اسمه: الكليبة، وتعني باليونانية: الكوخ البسيط. ويطلق أيضاً على مساكن الرعاة وآلهة الماء، والبناء بني لابنة أحد حكام بصرى القدماء. يعتقد أنه شيد في القرن الثالث بعد الميلاد، ومثل هذا البناء منتشر في جنوب سورية.

دير الراهب بوحيرا: يعد من أقدم كنائس المدينة. يعتقد أنه بني في القرن الرابع الميلادي، وبني فوق أنقاض بناء أقدم منه. شكل البناء مستطيل، طوله (٢٣,٣م)، وعرضه (١٣,٤٠م). مسقوف بالخشب على شكل هرمي، يدخل النور إليه من تسع عشرة نافذة.

المسرح: المسرح من الأبنية القديمة، التي حافظت على شكلها، وهو المسرح الوحيد الكامل في سائر أنحاء العالم، الذي بقي محافظاً على كامل أقسامه. بني في العصر الروماني، (القرن الثاني الميلادي) من الحجر البازلتي المنحوت، ومنصة التمثيل ما زالت كاملة مزينة بمحاريب وأبواب كبيرة، وكان البناء يحتوي على رواق خاص بالنساء، هو الرواق العلوي. أقيم على شكل نصف دائرة. ترتفع جدرانه بحدود (٢٢م). محاط بأبواب أرضية ونوافذ علوية، البناء مسقوف على الطراز المعروف في الملاعب الرومانية.

يتسع المدرج لأكثر من عشرة آلاف متفرج، ويقسم إلى ثلاثة أقسام مفصولة عن بعضها بعضاً بواسطة ممر، تفتح عليه الأبواب الخاصة بدخول وخروج المتفرجين. يتألف القسم الأول: من أربع عشرة درجة. والثاني: من ثماني عشرة درجة. والثالث: (العلوي) من خمس درجات، أما عرض منصة التمثيل فيبلغ (٤٥,٥٠م) بعمق (٨م)، وكانت الواجهة مزينة بثلاثة طوابق من الأعمدة المنحوتة على الطراز الكورنثي ومزينة بمحاريب مغلقة معدة لوضع التماثيل، هذا ويقوم وراء جدار المسرح ممر مؤلف من طابقين.

المعسكر: يقع المعسكر شمال المدينة، بني هذا المعسكر في أوائل العهد الروماني عند تشكيل الولاية العربية أي في عهد الإمبراطور الروماني تراجان (١٠٦ - ١١٧م). ويتم الكشف من خلال التنقيبات الأثرية عن باب المعسكر الرئيسي، الذي يتألف من برجين جانبيين ومدخل محصن وبقايا بعض أبراج السور، يبلغ طول السور من الجهة الشرقية (٤٠٠م)، ومن الجهة الشمالية (٤٤٠م). ويعدّ هذا المعسكر من معسكرات روما في المنطقة البالغة ثلاثين معسكراً.

تاسعاً - الرقة:

الرقة في اللغة تعني: أرضاً إلى جانب واد، ينبسط عليها الماء، وقيل: هي الأرض اللينة من غير رمل. قامت الرقة موضع المدينة اليونانية القديمة كلينيكس، التي كانت من أهم مدن ما بين النهرين، وكانت تسيطر على تخوم الشام. والمدن اليونانية لم تكن مبتكرة، كما هو معلوم، إنما بنيت على أنقاض قرى أو مدن موجودة في الأصل، سيطرت الدولة الميتانية على الرقة في الألف الثاني قبل

الميلاد. دخلت تحت حكم الآشوريين في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

من المعروف أن الآراميين كانوا قد استوطنوا شرق سورية منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وشكلوا الكثير من الممالك، وأهمها: مملكة بيت عديني، التي كانت قائمة منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد وعاصمتها بريسيب (تل أحمر). خلال هذه المرحلة كانت أخبار مدينة الرقة قليلة.

بعد حملة الإسكندر حدث تغيير كبير في المنطقة، فمدن كثيرة كانت قد جددت، وبنيت بأسلوب حديث في مكانها الأصلي، ولكن بأسماء، تغيرت، ففي هذه المرحلة أصبح اسم الرقة نيسفوريوم (أي هبة النصر). وقيل: إن مؤسس الرقة هو سلوقس الأول. وقيل: سلوقس الثاني. وقيل: الإسكندر المقدوني، وعرفت في عهده باسم نيكفورم.

خضعت سورية للرومان عام (٦٤ ق.م)، فتحول اسم المدينة إلى كالينيكوم، ثم أصبحت حصناً منيعاً ومركزاً تجارياً، يمر فيها الحرير، وخاصة في عهد الإمبراطور الروماني جوليان. وكان بالرقة قلعة، بنيت في عهد القيصر تراجان (٥٣ ـ ١١٧م). في عهد الإمبراطور ليون الأول، وفي عام (٤٤٩م) سورت المدينة، ثم أصيبت بهزة أرضية. لكن الإمبراطور الروماني ليون الثاني (٤٧٣ ـ ٤٨٤م) قام بتجديدها، وسماها باسمه: (ليونتوبوليس)، وجعل فيها مطرانية. هاجم الفرس مدينة الرقة عام (٥٧٩م). لكن الرومان استعادوها من الفرس. واستمر وضعها حتى التحرير العربي.

بلغت المواقع الأثرية في محافظة الرقة نتيجة المسح الأثري (٢٠٠) موقعاً. منها ما هو قبل الإسلام، ومنها ما هو بعده، وما يهمنا هو المواقع الأثرية التي تعود إلى ما قبل الإسلام. غمر سد الفرات من هذه المواقع أربعة وثلاثين موقعاً، تعود إلى عصور مختلفة، أقدمها يعود إلى العصر الحجري القديم، من هذه المواقع:

تل البيعة:

يقع تل البيعة[1] الأثري شمال شرق مدينة الرقة، ويعتقد أن مدينة توتول القديمة تقع في باطن هذا التل[1]، ويمكن أن تكون توتول هذه هي المدينة السالفة لمدينة الرقة الحالية. قالت إيفاشترومنغر رئيسة البعثة الألمانية المشرفة على عمليات التنقيب في موقع تل البيعة الأثري[2] (بالرقة):

---

[1] نخبة من الباحثين: الرقة درة الفرات ـ ص٣٤.

[2] البعث: العدد رقم ١٠١٦٣ ـ تاريخ ١ / ١١ / ١٩٩٦.

«يقع تل البيعة على ضفاف نهرين، وبالتحديد عند التقاء نهر الفرات برافده نهر البليخ ». لكن التل يبتعد اليوم مسافة ثلاثة كيلومترات عن كلا النهرين، أما في العصور القديمة فقد كانت المدينة تلامس شواطئ الفرات والبليخ عند التقائهما، بما يتلاءم وشكل التل الحالي مع الوضع الجغرافي القديم، إذ يتخذ شكل مثلث تقريباً. علماً أن الضلع المطل على البر يأخذ مساراً متعرجاً، تبلغ مساحة التل من الشمال إلى الجنوب مقدار (٦٠٠م^{٢})، ومن الشرق إلى الغرب (٧٠٠م^{٢})، وتشير الظواهر الأثرية إلى أن السهل المحيط بالتل كان عامراً في ذلك الزمان، مما يجعلنا نعتقد بأن المدينة كانت تغص بعدد من السكان.

وأضافت: بأنه يمكن التعرف بسهولة على شكل المدينة القديمة من خلال التضاريس الحالية للتل. فسلسلة المرتفعات المتتالية حول التلة الرئيسية تحتوي على بقايا سور المدينة، ولعل الأودية، التي تخترق الأجزاء والمرتفعات الآنفة الذكر، تشير إلى شوارع المدينة وأبوابها، ويقوم وسط تلك السلسلة من المرتفعات سور المدينة. وهو سور رئيسي، يرتفع عن بقية أرجاء المدينة (١٢م) وعن مستوى السهول المحيطة بالموقع (٢٠م). وتأخذ قمة التل الرئيسية شكلاً مربعاً. مما يدل على احتمال وجود مبان رسمية أخرى في المدينة، يضاف إلى ذلك أن المدينة كانت تعمر بالدور خلال فترة ازدهارها.

عاصرت المدينة ثلاث مراحل رئيسية، سبقت اكتشاف مدينة توتول، هذه المراحل هي: المرحلة البيزنطية، التي تعود إلى عام (٦٠٠م)، فالمرحلة البابلية، التي تعود إلى (١٨٠٠ ق.م) ثم المرحلة الثالثة (الأكادية)، وترجع إلى (٢٤٠٠ ق.م).

المرحلة البيزنطية (٦٠٠م): ظهرت بوجود كنيسة، يلحق بها دير بيزنطي متعدد الفعاليات، حيث توجد أقنية (فتحات سماوية) وقاعات ومطعم وغرف خاصة بالكهنة وممرات تخديم وشارع رئيسي، يظهر المدخل الرئيسي لهذه المنشأة البيزنطية، وكنيسة، لها مدخل شرقي، يأتي من الفناء الداخلي، وآخر شمالي، وتمتاز الأبواب بعتبات رخامية بيضاء. والقاعة الرئيسية فيه تمتاز بكنيسة مرصوفة أرضيتها بفسيفساء، أبعادها (١٠ × ٢٤)، تمثل أشكالاً حيوانية متنوعة وذات كتابات يونانية قديمة بعد ترجمتها من قبل البروفسور (مانفرد كريبانيت) ظهرت لنا أسماء الكهنة، الذين شاركوا في بناء هذا الصرح البيزنطي وتأريخ المنشأة، وفي الجانب الشرقي من الكنيسة ظهرت فسيفساء ثانية مربعة الشكل مقطعة تقطيعاً شطرنجياً، وعلى

جانبيها غرفتان جانبيتان تظهران مكان التقديس للكاهن.

المرحلة البابلية (١٨٠٠ ق.م): شمشي حدد: اكتمل في هذه المرحلة المسقط المعماري للقصر بكامل معالمه، تمتاز بوجود ثلاثة أقنية، بوابتين رئيسيتين للقصر، وهذه المرحلة مؤرخة بوجود الرقم المسمارية، التابليتات، وظهور أرشيف ملكي في إحدى غرف القصر، ويمتاز القصر بجدرانه وفراغاته المعمارية، وبعد ترجمة الأرشيف الملكي ظهر على أحد الرقم بالخط المسماري مدينة توتول للملك شمشي حدد. وهذا يؤكد الاعتقاد السائد، بأن مدينة توتول في هذا الموقع الأثري الهام ملتقى الفرات مع رافده البليخ.

المرحلة الأكادية (٢٤٠٠ ق.م): في هذه المرحلة ظهر قسم من القصر القديم، يمثل مدخل قاعة رئيسية في وسط عمود من أجل السقف، والفعاليات الأساسية لهذا القصر لا تزال تحت القصر البابلي، وبحاجة إلى مواسم تنقيب أخرى ومتابعة الحفر للوصول إلى القصر القديم المعاصر لإيبلا. ومع متابعة العمل ظهرت منازل القبور المؤلفة من وحدة ذات ثلاث غرف، بينها ممر تخديمي. والقسم الشمالي لهذه الغرف مغطى بالقصر البابلي، وتحتوي هذه البيوت على هياكل عظمية وأوانٍ فخارية، وتمتاز بإتقان التنفيذ والأساسات الحجرية الضخمة للجدران اللبنية. وهذه المرحلة الأكادية، التي يعتقد بأن ما اكتشف فيها من مقابر ملكية، قد استخدمت في مراحل زمنية متغيرة، واكتشف فيها حلي ذهبية بطول (٩,٦ سم)، تعود إلى القسم الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

إن هذه المكتشفات واللقى الأثرية تلقي الضوء على مرحلة تاريخية، تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ووجود الرقم المسمارية (التابليتات) في هذا المكان، يوضح لنا الحياة الاقتصادية والإدارية السائدة في تلك الفترة. وهناك الأبنية وطريقة إنشائها بالإضافة إلى الفكر المعماري المتجسد في طريقة استخدام اللبن البيئية.

إن تنقيب تل أثري واسع الأرجاء مثل تل البيعة يتطلب سنوات طويلة، ونحن لا نزال في بداية الطريق، ومع هذا حققت تنقيباتنا حتى الآن نتائج، لا تقل في أهميتها عن أهمية الأخبار، التي حدثتنا عنها نصوص ماري. فقد كان السور يطوف المدينة من كافة جهاتها، وثمة ضاحية منتشرة خارج الأسوار دون حماية. وعندما جاء صارغون الأكادي في عام (٢٤٠٠ ق.م) إلى توتول للابتهال إلى الإله دجن وجد المدينة مطوقة بسور مشيد من اللبن، سماكته حوالي (٦,٥م)، ومعزز بأبراج خارجية، تبرز مسافة متر عن الجدار، وبدعامات داخلية، تتباعد بعضها عن بعض بمسافات

منتظمة، وكانت الدور تلتصق بالسور في الداخل. وقد كشفت تنقيباتنا خلال السنوات الماضية عن واحد منها في الفترة المعاصرة لماري أثناء حكمي (يحدون ليم، زمريليم). ثم بني سور جديد للمدينة، لكن المدينة في هذه الفترة صارت أوسع من الماضي، لذلك صار السور الجديد خلف أنقاض السور القديم. والسور الجديد مشيد من اللبن، وسماكته لا تتجاوز أربعة أمتار. ولم نعثر على أي باب من أبواب المدينة في منطقة السور. لكن الوادي الكبير في الغرب، يشير إلى وجود شارع قديم، كان ينطلق من الباب الغربي في السور، ويتجه نحو التلة المركزية.

وكانت البيوت متراصّة على السور الجديد أيضاً، ويبدو أن مظهرها يختلف عن نمط البيوت، التي كانت قائمة قبلها بأربعمائة عام. إضافة إلى ذلك، فقد عثرنا على كثير من الأدوات المنزلية، وخاصة المصنوعة من الفخار والمليئة بالمواد التموينية مثل الحبوب، فكان يتم تخزينها في جرار فخارية كبيرة (خوابٍ)، ويطلق عليها: تسمية (دن). وكانت تلك الجرار مثقوبة في قعرها ومسدودة بالكلس، وكانت هنالك أوانٍ خاصة بالشرب، وثمة أنواع أخرى من الأواني تظهر في تنقيباتنا، لكننا لا نستطيع تحديد وظيفتها على وجه الدقة، ولعل الدمى الطينية، التي تمثل أشكالاً بشرية، جلها نسائية، كانت تستخدم في أغراض السحر. أما الدمى التي تمثل عربات، لها عجلات، فلا بد أنها كانت لعباً للأطفال. وكان يجري دفن الموتى تحت أرضيات البيوت، أو في مقابر خارج المدينة.

كشفنا عن معبد في حي مكتظ بالدور في غرب التل، يأخذ المعبد شكلاً مستطيلاً، وتبلغ صالته عشرة أمتار، ويتمتع بمحراب في ضلعه القصير الخلفي، ويخترق باب ضلعه القصير الأمامي، ويتقدم الباب ردهة مفتوحة نحو الخارج، ويطلق على هذا الطراز من المعابد اسم: المعبد ذي الردهة الأمامية، وهو الطراز، الذي كان شائعاً في سورية الشمالية، وفي الجزيرة السورية في أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ظهر مثيل له في إيبلا وإيمار وممباقة وتل الخويري.

اكتشاف قصر ملكي: وعن أهم المكتشفات، التي توصلت إليها البعثة، قالت: «أزاحت التنقيبات الستار عن معالم قصر، يرجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ويشبه هذا القصر في تصميمه المعماري شكل القصر الملكي الشهير في ماري (تل الحريري). غير أن القصر في تل البيعة أصغر حجماً من قصر ماري. فهو يمتد مسافة (٤٢م) من الشرق إلى الجنوب الغربي. أما مسافة امتداده من الشمال إلى الجنوب فلا تزال مبهمة، ويتصف بناء القصر بالتخطيط المنتظم وبالمتانة، وتم بناء الجدران بعضاضات بارزة، والغرفة الرئيسية في القصر مكونة من صالة مستطيلة، يبلغ طولها

(٢٤م)، وعرضها (١٠م)، وتتصل في الجنوب بواسطة باب عريض، وحجيرة ضيقة، تشابه حجرة قدس الأقداس في المعابد البابلية، يتقدم تلك الصالة من الجهة الشمالية قاعة مستطيلة أصغر حجماً، يبلغ طولها (١٨,٥م)، وعرضها (٤,٦م)، يحف جانبي تلك القائمة مصاطب جدارية للجلوس. وهي مشيدة من اللبن ومطلية بالطين الناعم. والمصطبة الملاصقة للضلع القصير الخلفي أعرض من المصطبتين الجانبيتين، ويضاف إلى ذلك أنها متصلة بسدة جلوس مربعة الشكل، وما من شك أن السدة كانت مخصصة لجلوس الحاكم أو الملك».

تـوتـول:

مدينة توتول قلعة قديمة مشهورة، كان يحيط بها سور متين، يعود للنصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد. مواد بناء هذا السور من الآجر، سمكه (٨,٥م). ويعتقد أن السور كان معززاً بجدار خارجي. يقع خلف السور مباشرة بيوت للسكن، غرفها صغيرة. يعتقد أن هذه البيوت كانت مخصصة لسكان المدينة الأقل غنى وثراءً. كشف في الموقع عن بقايا بناء كبير بجدران عريضة، يقع بين البيوت السكنية في مكان أعلى على الهضبة. القطع الأثرية، التي عثر عليها في هذا البناء تعود إلى العصر البابلي. كما كشف عن مقبرة، تعود إلى العصر الروماني المتأخر والعصر البيزنطي.

أقدم المصادر، التي تذكر توتول، تقترن باسم سرجون الأول (شاروكين)، الذي استمد سلطته من الرب داجان (رب مدينة توتول)، والذي كان قد اختارها منطلقاً لفتوحاته، كما ذكرت مدينة توتول في وثيقة، وجدت في مدينة ماري، وهي لوحة تأسيسية، تذكر اسم توتول باسم: (باخلوكوليم) وأن عشيرة (امناتوم) نصبته ملكاً عليها.

الجرف الأحمر:

عثرت بعثة التنقيب السورية الفرنسية المشتركة في موقع الجرف[1] الأحمر على الفرات الأعلى في منطقة غمر سد تشرين في سورية من الألف التاسع قبل الميلاد على لويحات حجرية منقوشة برسوم، قد تقلب رأساً على عقب النظريات عن بدايات الكتابة الجديدة في هذا المجال، هو تكرار إشارات رمزية مبهمة، يمكن أن يمثل بعضها حيوانات مختزلة، ويمكن أن تكون نصوصاً رمزية، إذا ثبت أن هذه الأشكال هي كتابة فسوف تكون أقدم بخمسة آلاف عام تقريباً من الزمن المعروف بأقدم الكتابات التصويرية في الشرق القديم. هذا ويتعذر الآن معرفة مضمون هذه

[1] البعث ـ العدد رقم ١٠٢٢٣ تاريخ ١٢ / ٢ / ١٩٩٧.

الرسوم والعلامات.

إذاً كانت الكتابات تصويرية، ولكن من الممكن أن تكون تسجيلاً لأشياء، أو أحداث متعارف عليها لدى الجماعة الصغيرة القاطنة في ذلك الموقع، أو بمنزلة تعاويذ موضحاً: أنه لا بد من الانتظار قبل استنتاج أشياء نهائية لمزيد من الدراسة وتوقع اكتشافات مماثلة. والمعروف حتى الآن أن أولى مراحل الكتابة كانت الكتابة التصويرية، التي ظهر أول شكل لها على رقم صغيرة من الحجر، ونفذت بأسلوب الحز رسوم مبسطة مأخوذة من البيئة المحيطة بالإنسان. وقد اكتشفت هذه الرقم، التي تعرف لدى العلماء باسم البطاقات في موقع أوروك الوركاء في بلاد الرافدين جنوب العراق، وتؤرخ عادة من (٣٢٠٠ إلى ٣١٠٠ ق.م). ويشار إلى أنه في الزمن نفسه تقريباً كانت بدايات الكتابة التصويرية المعروفة باسم الهيروغليفية في مصر. والكتابة في ذلك الطور المبكر كانت رمزية، لا تسجل اللفظ المنطوق بل توحي بالمعنى فحسب.

أنهت البعثة الأثرية السورية الفرنسية المشتركة موسمها الأثري الثالث الغني بالاكتشافات الهامة في موقع الجرف الأحمر[1] باكتشافها لشكل عقرب، نقش على حجر نهري بمقاييسه الطبيعية وبدقة عالية، يعود إلى العصر الحجري الحديث (الألف التاسع قبل الميلاد). وكانت البعثة المذكورة، قد اكتشفت رأساً بشرياً منحوتاً بتفاصيله الواقعية على حجر نهري، نحت بإبداع وإتقان عاليين، ونزل بالألوان، وذلك في موقع الجرف الأحمر أيضاً المعروف بتميز وتنوع مكتشفاته، والذي عثر فيه على حوالي (٥٠) منزلاً مربع الشكل أو مثلثاً مما يشبه القرية الصغيرة المقسمة من الداخل بجدران مستقيمة مع زوايا ومواقد مطلية من الداخل، والتي تدل على التطور المعماري في تلك الفترة، إضافة لمنازل مبنية من حجارة دائرية، مما يجعل منها أقدم قرية تاريخية منظمة في الشرق الأوسط. والأهم من ذلك الإبداع في صنع أرضيات الغرف المشكلة من حصى نهرية، رصفت بشكل منتظم مع وجود عينات إضافة إلى عدة حفر، جهزت بأجران لتثبيت الأعمدة الخشبية للسقوف وعدم انزياحها في التربة.

أما الكشف الثالث فكان: ثلاثة جماجم، دفنت بشكل متقابل، وتدل على طقوس شعائرية معينة، بالإضافة إلى الأدوات الصوانية والأبسيديان والأدوات الحجرية كالنصال والمكاشط

---

[1] الثورة: العدد رقم / ١٠٤٢٥ / تاريخ ـ ٣٠ / ١٠ / ١٩٩٧.
البعث: العدد رقم / ١٠٤٥٧ / تاريخ ـ ٣٠ / ١٠ / ١٩٩٧.

والمنحوتات البازلتية، التي نقشت عليها الزخارف الحيوانية والهندسية، وما زالت دراسة المنحوتات الفنية المكتشفة، والتي تشير إلى بداية تشكيل الأشكال التصويرية قائمة.

تـل حالومـة:

اكتشفت بعثة أثرية أسبانية في موقع (حالومة) بمنطقة غمر سد تشرين أرضية بيت على أشكال أجساد بشرية ملونة. والاكتشاف الجديد على قدر كبير من الأهمية، لأنه من أقدم الرسوم البشرية المكتشفة في الشرق الأوسط، ويعود إلى ما قبل ثمانية آلاف وخمسمائة عام، وأقدم بحوالي ألف عام من مكتشفات مشابهة، وجدت في منطقة الأناضول. ومجموع ما اكتشف من هذه الأشكال أكثر من عشرين شكلاً لنساء، يقمن بالرقص والدوران حول شكل مركزي مربع، قد يمثل معبداً أو مذبحاً، والأشكال الملونة بالأحمر تغطي مساحة متر ونصف متر مربع، وقد رممت، ونقلت إلى متحف حلب.

كما بدأت البعثة الأثرية الأسبانية العاملة في الموقع (تل حالومة)[1] الواقع في منطقة غمر سد تشرين بحلب أعمالها الهامة في الموقع المذكور العائد للعصر الحجري الحديث ما قبل انفجار (ب)، ويعدّ الموقع (تل حالوما) من المواقع الهامة، لكنه قدم نتائج هامة في المواسم السابقة، وأهمها: العمارة المستطيلة الشكل والمقسمة من الداخل بجدران مستقيمة. كما عثر بداخلها وخارجها على مواقد إضافة إلى أدوات صوانية، تضم رؤوساً من السهام والشفرات والمخارز. وفي السوية الثانية تم العثور على فخار (حلف) بمنطقة الحسكة. وحالياً تجري البعثة تنقيباتها في ذروة التل، وفي السفح الشمالي الشريقي منه لاستكمال النتائج.

جعدة المغارة:

من جانب آخر باشرت البعثة الفرنسية العاملة في منطقة موقع (جعدة المغارة) بغمر سد تشرين بإدراة ايريك كوكي ينو تنقيباتها، وهو موقع هام جداً، ويعود إلى العصر الحجري الحديث (٩٠٠٠ق.م)، حيث كشفت البعثة المذكورة أيضاً منازل مستطيلة. وأهم ما فيها الدعامات المبنية من الأحجار، والتي تشكل قوة لتلك المنازل، بالإضافة إلى مخارز وسكاكين وشفرات. وفي السفح الغربي كشفت البعثة المذكورة في المواسم السابقة مدفناً، يعود إلى العصر البرونزي القديم أي الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت وضعية المدفن على شكل جانبي، وإلى جانب الرأس تم العثور على ثماني

---

[1] تشرين: العدد رقم ٦٩١٦ تاريخ ٢٠ / ٩ / ١٩٩٧.

جرار محفوظة حالياً في متحف حلب.

أخيراً اكتشفت بعثة وطنية ألمانية مشتركة (٤٦) موقعاً أثرياً جديداً[1] في **محافظة الرقة**، كانت البعثة الأثرية المشتركة (**بعثة خراب سيار**) قد قامت بأعمال المسح الأثري خلال هذا الموسم في **وادي الأحمر** (هو أحد روافد نهر البليخ، ويقع شمالي المحافظة) بالقرب من خراب سيار، وقد تم التعرف على (٤٦) موقعاً أثرياً، وتم وضع مخططات طبوغرافية أولية لمعظم هذه المواقع، كما التقطت عينات من كسر الفخار لدراستها وتوثيقها لمعرفة تاريخها وخصائصه، ويعود تاريخ هذه المواقع إلى العصور التالية:

١ ـ العصر الحجري القديم، العصر الحجري الحديث، ويعود إليه موقع واحد واسمه: (تل بجدي).

٢ ـ تأريخ حلَف الألف السادس والخامس قبل الميلاد، وتعود إليه سبعة مواقع أهمها: (تل العاجلة).

٣ ـ تأريخ عبيد ونحاس، الألف الخامس والرابع قبل الميلاد، تعود إليه ثلاثة مواقع.

٤ ـ تأريخ البرونز القديم والألف الثالث قبل الميلاد، وتعود إليه خمسة مواقع.

٥ ـ تأريخ البرونز الوسيط، ويعود إليه موقع واحد.

٦ ـ تأريخ البرونز الحديث، ويعود إليه ستة مواقع.

٧ ـ تأريخ الحديد، مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ويعود إليه أحد عشر موقعاً.

٨ ـ تأريخ هلنستي وروماني، ويعود إليه موقع واحد.

٩ـ تأريخ إسلامي، ويعود إليه ثمانية عشر موقعاً، أكثرها صغير على شكل خربة، وأغلبها ترجع في تاريخها إلى ما قبل الغزو المغولي لبلاد الشام.

ومن مجمل أعمال المسح الأثري، التي تمت في المنطقة المذكورة يلاحظ أن أغلب هذه المواقع صغيرة وقليلة الارتفاع، أما المرتفعة والكبيرة منها، فهي نادرة، وتكاد تقتصر على ثلاثة مواقع هي: **تل حرويي، تل المشيرفة، خربة عاجلة.**

---

[1] الثورة: العدد رقم ١٠٤١٨ تاريخ ١٩ / ١٠ / ١٩٩٧.

موقع حلاوة:

يقع هذا الموقع على منحدر وادي بليخ (الذي يعدّ أقدم موقع متحضر زراعياً في العالم القديم). لهذا الموقع سور، ما زالت بقاياه ظاهرة للعيان. ولهذا السور بوابات ضخمة، تؤدي إلى داخل المدينة. واعتماداً على اللقى الفخارية حدد تاريخ هذا الموقع بأواخر عصر البرونز المبكر، ونتيجة التنقيب عثر على مقبرة رومانية، تغطي طبقة عصر البرونز الوسيط. عثر بأسفلها على جدار، يعود إلى حقبة الألف الثالث قبل الميلاد. كشف في هذا الموقع عدد من الأبنية، يتألف الواحد منها من ثلاث إلى أربع غرف، عثر في إحدى غرف هذه البيوت على ثلاثين جرة، استخدمت لتخزين الحبوب.

موقع أبي هريرة:

يقع على بعد (٤٠كم) جنوبي المريبط على الجهة اليسرى للفرات (يعدّ أكبر موقع نيوليتي معروف في سورية حتى الآن)[1]. نتيجة التنقيب في هذا الموقع قبل أن يغمره سد الفرات كشف عن قرية قديمة، أبعادها (٥٠٠ × ٣٠٠م)، حيث ظهرت حضارة نطوفية، تعود أيضاً إلى الألف التاسع قبل الميلاد.

وصفت بيوت هذا الموقع في الألف السابع قبل الميلاد بأنها حجيرات صغيرة، طولها ضعف عرضها، يتوسطها موقد، يحوي على مصاطب منخفضة للجلوس، والأرض مفروشة بالملاط الأسود، وأحياناً تكون مدهونة باللون الأحمر، والبيوت متجاورة، ولها نوافذ صغيرة للتهوية، وقدر العلماء سكان هذا الموقع بحوالي (٣٠٠) نسمة في البداية. ومع تطورها وازدهارها وصل عدد سكانها عام (٧٥٠٠ ق.م) إلى (٣٠٠٠) نسمة. كشف في هذه القرية أن الصيد كان مهنة رئيسية، استمرت حوالي ألف عام، ومعظم الصيد، كما يروى، كان من الغزلان. كما عمل الإنسان في هذا الموقع على تدجين الحيوانات.

تل المريبط:

يقع هذا التل مقابل بلدة مسكنة (بالس) على الضفة اليسرى لنهر الفرات. بنتيجة التنقيب في هذا التل كشف عن قرية سكنية، تعود بتاريخها إلى سنة (٨٣٠٠ ق.م). كما عثر على بيت

---

[1] نخبة من الباحثين: الرقة درة الفرات ـ طبع سورية ١٩٩٢ ـ ص٣١.

نطوفي (٨٣٠٠ ق.م)، وصف باستدارته وانخفاض مستواه عن سطح الأرض بعمق خمسين سنتمتر، والبيوت في هذا الموقع متجاورة غير متلاصقة، وكان الموقد يتوسط المنزل، وكشف أيضاً عن أدوات صوانية ذات أشكال هندسية متنوعة منها: ما يخص العمل الزراعي كالمنجل والمكشط والمنكاش المصنوع من الخشب (الذي عنه تطور المحراث) والمخرز والمثقب والمسن، وتبين أن سكان المريبط كانوا يعتمدون على الزراعة (٧٧٠٠ ق.م)، ومن أهم اللقى، التي وجدت كانت الدمى البشرية، التي تمثل إلهة الخصب، ولعلها أقدم التماثيل لإلهة الأمومة والخصب. إذن أثبتت التنقيبات الأثرية في تل المريبط ظهور أقدم استيطان مدني في العالم، يعود إلى الألف التاسع قبل الميلاد.

مسكنة (بالس):

كشف فيها عن موقع هام، يرجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد. كما عثر فيها على عشرات اللوحات المسمارية، التي أكدت على أن هذا الموقع يحدد مكان مدينة إيمار في نصوص حمورابي ونصوص الملك ماري زمريليم، وعثر على أختام لملك قرقميس وملك ايمار وعلى تماثيل برونزية رائعة.

تل خويرة:

بدأ التنقيب في هذا التل عام: (١٩٥٩م). وصفت هذه المدينة بأنها كانت دائرية ذات سورين، قطر السور الكبير (١٥٠٠م). كما عثر في الموقع على معبد من اللبن مؤلف من حجرة أمامية وقاعة الحرم، وعثر في المعبد على أجزاء تماثيل، تعود إلى عصر ميزليم (٢٧٠٠ ـ ٢٦٠٠ ق.م).

تل أسود:

يقع هذا التل على مجرى نهر البليخ الأعلى، بدأت الحياة فيه مع موقع هريرة. عثر في هذا الموقع ومواقع أخرى قريبة منه على آثار المنجل الحجري والرحى والجرن وحجر الجرش والمثقب والنصل المزدوج الحد، كما كشفت فيه بعض الحبوب المتفحمة من نوع القمح البري والشعير السداسي الطبقات. كشف فيه مبنى صغير، أرخ نتيجة اللقى الفخارية لقصر تل حلف بخمسة آلاف قبل الميلاد، وكشف فيه أقدم فخار في العالم، والذي يعود تاريخه إلى عام (٦٦٠٠ ق.م).

موقع زلبا:

يذكر: أن زلبا هي مدينة مدفونة في تل حمام التركمان، ذكرت مدينة زلبا في رقم مسمارية، أحدها: يعود إلى (١٧٥٠ ق.م)، تذكر تنقلات مجموعة من الجنود أو الحراس من بابل جنوباً إلى إيمار (مسكنة)، والثانية: لوحة مسمارية من مملكة ماري، تؤكد أن زلبا كانت مسيطرة على وادي البليخ، كما ذكرت لوحة مسمارية، اكتشفت في الأناضول: بأن زلبا كانت في عام (١٧٥٠ ق.م) أهم مدينة في شمال سورية، وكان ملك زلبا لا يقل أهمية عن ملوك حلب إيمار إيبلا. وذكر: أن هذا الملك كان قد تزوج من إحدى أميرات ماري.

تل مفشي:

عثر فيه على فخاريات وبقايا بيوت من الألف الرابع قبل الميلاد.

تل جدلة:

وجد فيه ثماني طبقات، تعود إلى الألف الثالث امتداداً إلى أواخر الألف الثاني (١٣٥٠ ق.م)، وعثر على سور المدينة مغموراً بالفخاريات المصنوعة بطريقة ممتازة، أرّخت بعهود منتصف أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

تل صهلان:

يقع مقابل تل أسود، عثر فيه على لقى، تشبه ما كشف في تل مفشي. كما عثر على لوحة مسمارية صغيرة تعود إلى العصر البابلي القديم.

تل حمام (ابن شهاب):

يقع هذا التل مقابل تل جدلة في الضفة الأخرى من نهر بليخ، وجد فيه مجموعة من الطبقات الأثرية، تعود إلى مكتشفات تل جدلة.

موقع تل الحاج:

كشف فيه آثار، ترجع إلى العهود الكلاسيكية.

موقع تل حديدي:

كشف فيه قبور هامة من عصر البرونز.

موقع تل العبد:

كشف فيه منشآت ولقى من العهد الروماني والعصر الهلنستي ولقى من العهد الروماني وما قبله حتى عصر البرونز.

موقع عناب السفينة:

كشف فيه مدفن روماني، يشمل عشرة تماثيل، استعمل هذا المدفن في العصر البيزنطي كمقبرة، وجد فيها الكثير من الأثاث الجنائزي.

تل الشيخ حسن:

كشف في هذا الموقع بلدة بيزنطية مجهولة.

تل حبوبة الكبير:

كشف في هذا التل سويات، ترجع إلى عهد البرونز، كما كشفت أختام ولقى، ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

تل حبوبة الصغير:

كشف فيه منشآت ولقى، ترجع إلى الألف الثالث أيضاً.

تل ممباقة:

كشف فيه بلدة محصنة رئيسية، ترجع إلى الألف الأول، وبلدة أخرى، تعود إلى عهد سابق مع لقى نفيسة.

إيمار:

كانت إيمار مرفأ مملكة يمحاض في الألف الثاني قبل الميلاد.

موقع دبسي فرج:

كشف فيه قلعة حصينة من العهد الروماني، وكنيسة من العهد البيزنطي مفروشة بالفسيفساء.

الخاتمة

إن الصراع بين الشرق الممثل بالعالم العربي وأوربا قديم، بدأ مع انتشار الإسلام، لكن هذا الصراع ازداد تعقيداً في الظروف الأخيرة. حيث اعتبر: العالم الغربي (أوربا) عالم متحدد مبدع، بينما نسب إلى الشرق الاستبداد والتعصب والركود والتخلف. واعتقد الأوربيون أن الجيش الأوربي هو الجيش العظيم، وهو وحده القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الفكرية والسياسية المتطورة القائمة على الديمقراطية.

وبناءً على ما ورد يكفي أن نتذكر الأسطورة، التي أوردها المؤرخ هيرودت حول منشأ أوربا، حيث تذكر الأساطير: أن (أوربا) هي ابنة الملك الفينيقي (اجينور)، وأن (زوس العاشق) كان قد اختطفها، وتزوجها، فولدت له (ميتوس ورادامانت). إذاً فأصل أوربا فينيقي، وبعد اختطافها تحرك إخوتها الأربعة (فينوس ـ وقدموس ـ فوينكس ـ وسيليكس) للبحث عنها، وأخذوا خلال رحلتهم بتأسيس المستعمرات في طريقهم، في هذه المرحلة وما سبقها، لم يكن هناك أوربا الحالية، ولم تكن موجودة في الأصل، فمن أين لهم ادعاء السبق الحضاري؟!

من المعروف أن تأثير الإسلام على أوربا كان شاملاً ميادين الحياة ومهيمناً على جوانب متعددة. أي أن هذا التأثير عم مستويات الحياة الأوربية، وشمل أكثر المجالات، بما في ذلك النواحي المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والأدب والعلوم والفلسفة والدين. فلقد أثرت الحضارة العربية في أوربا، وخاصة في عهد نشوء الإقطاعية الأوربية، وفي مجال الأدب وفنونها لا ننسى أن تأثير دانتي وإبداعه مرتبط بالمصادر العربية، وفي حقل التاريخ الطبيعي ظهر واضحاً تأثير العلوم العربية على تطور الطب والفلك في أوربا، وفي تاريخ الفلسفة يكفي أن نتذكر تأثر فلاسفة أوربا بالفيلسوف العربي ابن رشد، وخاصة فيما يتعلق بوحدة الحقيقية النقلية (الشريعة) والحقيقة العقلية، ولا ننسى أيضاً تأثير أفكار ابن سينا على الفكر الأوربي.

الوطن العربي هو قلب العالم. وبلاد الشام قلب الوطن العربي. وكثيراً ما يتحدث الباحثون عن هجرات الشعوب وتنقلها من مكان إلى آخر، فمثلاً السومريون: افترض الباحثون عدة فرضيات

حول هجرتهم، كانت إحداها أنهم قدموا من الجزيرة العربية، أيضا الكلدانيون: الذين وجدت هذه الفرضيات أن هجرتهم كانت من الجزيرة العربية، أيضاً الأموريون أو الآراميون، وحتى الفينيقيون قالوا: إنهم نتيجة إحدى الهجرات، التي قدمت إلى بلاد الشام من الجزيرة. لماذا كل هذه الفرضيات؟ والتنقيبات الأثرية في بلاد الشام أثبتت وجود الإنسان على أرضها قبل التاريخ بآلاف السنين، فمثلاً الحضارة النطوفية، التي يمثلها الكثير من القرى، وعلى رأسها أريحا تؤكد أن أرض بلاد الشام كانت مسكونة قبل أي حضارة أخرى، تدعيها أوربا في الوقت الحاضر.

مما ورد، يتضح لنا أن أرض العرب هي منبع الهجرات، ومنها انبعثت البشرية، فمثلاً طوفان نوح أبو البشرية كان على أرض العرب، وأعتقد أن هجرة نوح بعد الطوفان كانت من العراق باتجاه بلاد الشام، ومنها كان توزيع الهجرات إلى أنحاء العالم الأقرب فالأقرب. إذاً بدأت الحضارة منذ نشأتها على أرض العرب، ومنها انتقلت إلى كافة الاتجاهات.

ولتأكيد ما ورد نلاحظ أن الأنبياء من آدم إلى نوح إلى ابراهيم الخليل إلى موسى إلى عيسى إلى آخر الأنبياء. كانوا قد وجدوا حسب الروايات التاريخية على الأرض العربية، ولا داعي لإثبات ذلك، لأن ما ورد حقيقة تاريخية، لا زعم فيها، إلا أن أرض الوطن العربي، كما ذكرنا هي قلب العالم، وبلاد الشام قلب هذا الوطن، ووجود بلاد الشام على الساحل الشرقي للمتوسط كان من العوامل المساعدة على الهجرة منها إلى غيرها في كافة الاتجاهات.

وكان الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري المبكر على أرض العرب، والذي أثبتته المكتشفات الأثرية يؤكد عراقة وقدم حضارة الإنسان البدائية وتطورها مع الزمن، حتى سادت العالم بأسره. ثم ألا تعدّ اللغة الآرامية لغة عربية عالمية انتشرت في بلاد الشام، وسادت العالم قبل وجود اليهود بزمن طويل؟! والآرامية كما هو معلوم تبناها الآشوريون، واستمرت، وما زالت حتى يومنا هذا. وعلى العالم ألا ينسى بأن لأوغاريت الفضل في اختراع أبجدية مؤلفة من واحد وثلاثين حرفاً.

ومن المعروف أن بلاد الشام هي مهد الحضارات انصبت فيها كل المؤشرات والتأثيرات الخارجية، وتفاعلت فيها، وصدر المنتوج الحضاري المتمازج إلى العالم. من ذلك نرى: أن الإنسانية بأكملها تعدّ مدينة للعرب بحضارتها، وخاصة بعد اكتشاف الأبجدية، التي أصبحت مع الزمن مصدراً أساسياً لكل الأبجديات المعروفة الآن.

والفينيقيون العرب هم أول من وضعوا حروف الهجائية في التاريخ، وهم الذين أعطوا هذه الحروف قيماً عددية حسب نظام عشري مجزأ غير مكتمل. ومن المعروف أن اليونان نقلوا الأبجدية عنهم غالباً بين أعوام (٨٥٠ ـ ٧٥٠ ق.م). وحافظ اليونان على الأسماء العربية للحروف، وعلى شكلها وترتيبها أيضاً. وكان الفينيقيون العرب أعظم المنتمين للفن التزييني.

كما كان العرب سباقين في مجمل العلوم، فلهم الفضل في اكتشاف الطب والجراحة وعلم التحنيط، وإليهم يعود علم الفلك والكيمياء والفيزياء والعلوم الإنسانية، إذاً تعدّ بلاد الشام منذ فجر البشرية مهد العطاء البشري الإنساني من جهة، وملتقى التفاعل الحضاري من جهة أخرى. ففي بلاد الشام أشرقت أول أبجدية في العالم. وفي سوريا أيضاً تم العثور على أقدم المعاجم، وذلك في إيبلا قبل ثلاثين قرناً من الميلاد.

قيل عن العرب: إنهم مقلدون لغيرهم من الشعوب، وأنا أقول: إنهم كانوا مبتكرين أكثر من مقلدين. فمثلاً كان الطب متقدماً عندهم، وإن أول ممارسة لمهنة الطب في العالم كانت في مصر القديمة، وهم أول من أوجدوا الاهتمام برعاية الطفولة، وأول من نفذوا العمليات الجراحية، وأول من اخترعوا، وابتكروا عمليات التحنيط، التي بقيت حتى هذا اليوم أحد الأسرار، التي احتفظ بها أجدادنا العرب القدماء.

ونتيجة التنقيب اكتشفت ألواح من الطين في بلاد ما بين النهرين، كتب عليها بعض الوصفات الطبية، كما تحدثنا هذه الألواح عن بعض الحقائق، التي قدمها الأطباء العرب، فيما يختص بالدورة الدموية، وعن قدرتهم على إجراء عمليات جراحية. وتذكر بعض المصادر: أن الآشوريين والبابليين كانوا أول من عرف حصاة المثانة، وأول من عرف العدوى، حتى أن بعض الباحثين اعتقد: أن الطب الآشوري كان متقدماً لدرجة أنه الأول في العالم القديم. والمطلع على شريعة حمورابي يلاحظ ما ذكره المشرع عن العلاج والممارسات الطبية في مواد شريعته.

وفي عهد الرسول (ص) يكفي الإطلاع على كتب الطب النبوي لنكشف مدى أهمية الطب عند العرب وبراعتهم فيه، وكيف سبقوا غيرهم بهذا الميدان؟ أما في العصر الأموي فقد برع الطب، وخاصة في الكشف التشخيصي، وكان إنشاء الوليد بن عبد الملك للبيمارستان في دمشق (٨٨هـ) أكبر دليل على الإهتمام بالطب وتطويره.

أما في ميدان الصيدلة، فقد اهتم العرب (المصريون) بدراستها، وأوجدوا لها مدارسٌ خاصة

(بيوت الحياة)، كانت ملحقة بالمعابد، تدرس فيها العلوم والنباتات الطبيعية، كما كان العرب (البابليون) أول من وضع القوائم والأعمدة للأعشاب الطبية، وتمكنوا من اختراع نظام خاص بالوزن والكيل.

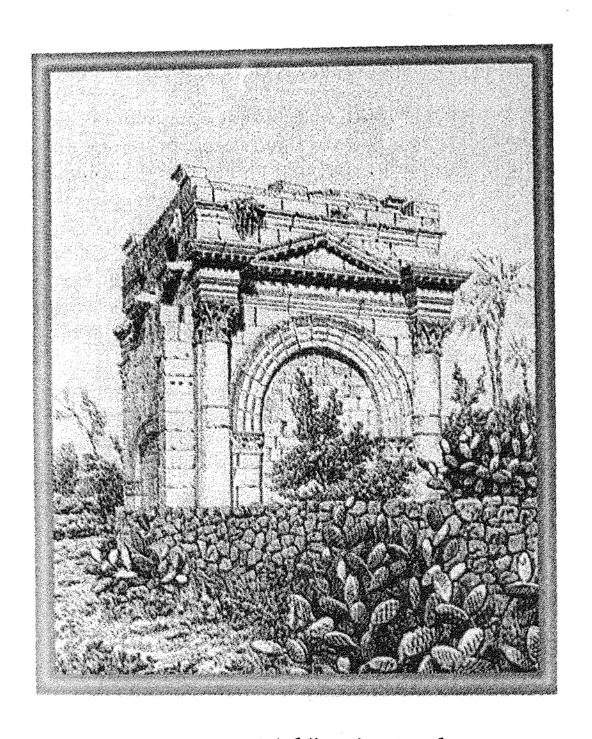
وفي مجال الرياضيات توصل المصريون إلى معرفة المعادلة من الدرجة الأولى والدرجة الثالثة، وعرفوا الجذر المربع، ووضعوا له علامات. كما وضع البابليون طريقة للتعريض والاختزال، وتوصلوا إلى حل بعض المعادلات، وخاصة التكعيبية. أما في مجال علم الهندسة، فللعرب الفضل الأول في وجود هذا العلم وتطوره، فهم الذين (البابليون) اعتمدوا على القياسات العلمية، التي عالجت إيجاد مساحة كثير من الأشكال الهندسية. وهم (البابليون) الذين اكتشفوا أن العمود النازل من رأس المثلث المتساوي الساقين ينصف القاعدة، وأن الزاوية المقابلة للقطر في الدائرة تساوي زاوية قائمة.

ومن المعلوم أن أول من فكر بعلم الكيمياء كان قدماء المصريين العرب، وهم الذين ابتكروا الكثير من الأفكار الكيميائية الثمينة، وأبدعوا نظاماً خاصاً بالموازين والمكاييل لتحديد المقادير المطلوبة. من ذلك يعدّ العرب المصريون القدماء مؤسسين لعلم الكيمياء. ومن المعروف أن معظم الابتكارات المصرية ـ وخاصة في الكيمياء ـ كانت خلال القرن الثالث الميلادي، عندما أصدر الإمبراطور ديومكشيان قراراً سنة (٢٩٠ م)، أمر فيه بتدمير جميع البحوث الكيميائية في جميع أنحاء الأمبراطورية، فكان لذلك التصرف أثره الكبير في ركود علم الكيمياء، إلى أن جاء الإسلام. ولقد ثبت أن كلمة كيمياء عربية الأصل، وأن علماء العرب هم أول من أعطى علم الصنعة اسم علم الكيمياء.

أما علم الفلك، فهو علم عربي قديم، نشأ في وادي الرافدين، وتطور في مصر، حيث استطاع المصريون القدماء بفضل دراستهم النجوم تحديد الفصول المختلفة على مدار السنة. وهم الذين قسموا السنة إلى ثلاثة فصول، كل فصل أربعة أشهر، وكل شهر ثلاثون يوماً. وفي عام (٦٠٠ ق.م) أرسل فرعون مصر (نخاو) بعض البحارة الفينيقيين برحلة للدوران حول أفريقيا، استغرقت ثلاث سنوات، حيث بدؤوا رحلتهم من البحر الأحمر، ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح. وهناك أصابتهم الدهشة، عندما شاهدوا شمس الظهيرة في اتجاه الشمال، ثم رجعوا إلى مصر عن طريق البحر المتوسط.

والعرب المصريون هم الذين قاسوا زاوية ميل الظل وقت الظهيرة في الإسكندرية، وقالوا: إن هذه الزاوية تكون مائلة عن العمود الرأسي بمقدار (٧,٥) درجة، وهم الذين اخترعوا، وابتكروا حساب محيط الأرض، وقدروه بـ (٣٩٧٠٦ كم)، وهم الذين رسموا أول خريطة للعالم. أما علم الفلك عند البابليين فكان علماً، يساعد رجال الدين على التنبؤ في مستقبل الناس ومصائرهم. ثم تطور عندهم. وهم الذين استطاعوا أن يسجلوا بدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة للشمس، وهم الذين رسموا مسارات الشمس والقمر، وحددوا تاريخ الانقلابين والاعتدالين. وقسموا دائرة فلك السماء إلى اثني عشر برجاً، والدائرة إلى (٣٦٠) درجة، والدرجة إلى ستين دقيقة. وعرفوا محيط الدائرة ومساحتها، واعتمدوا السنة القمرية، وقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً قمرياً، وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع. والعرب (البابليون) هم الذين استطاعوا بفضل مشاهداتهم الفلكية التنبؤ بظاهرتي الكسوف والخسوف.

واستخدم العرب التسيء كطريقة لحساب السنين، وتحدث البيروني عن النسئ في كتاب الآثار الباقية، كما تحدث عن الكبس. واستخدم العرب النوء، وعرفوا عدداً كبيراً من الكواكب الثابتة مع مواضع مطالعها ومغاربها، وعرفوا الكواكب السيارة ومنازل القمر، وانفردوا عن سائر الشعوب في استعمال تلك المنازل وأخذ أنوائها. أخيراً هذا غيض من فيض من عبقرية العرب في تاريخ حضارة البشرية، وهذه حقيقة تاريخية يؤكدها ماضي الأمة العربية، وأثبتتها المكتشفات الأثرية المنبعثة من أعماق التاريخ العربي الحديث.



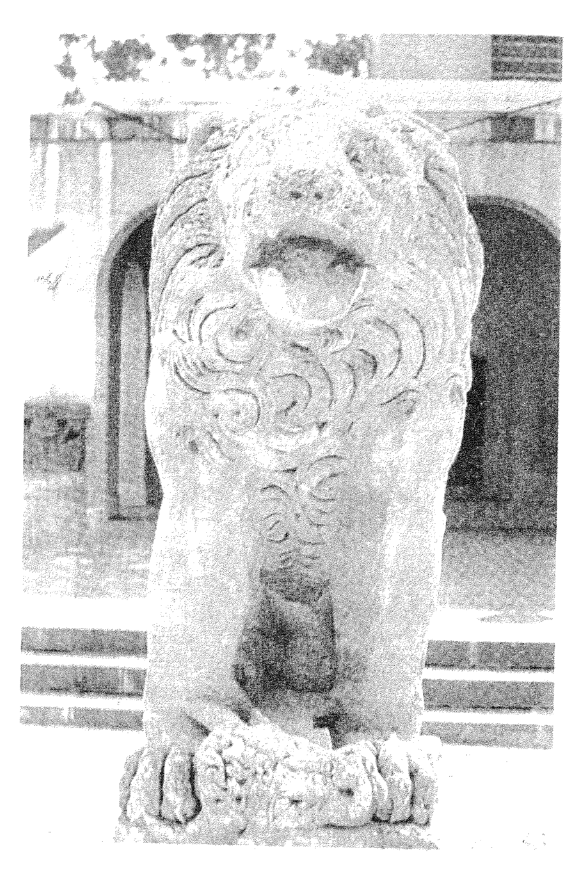
قوس النصر في اللاذقية (فوغييه ١٨٦٥م)

ARCH OF TRIUMPH. LATAKIA (VOGUE 1865)

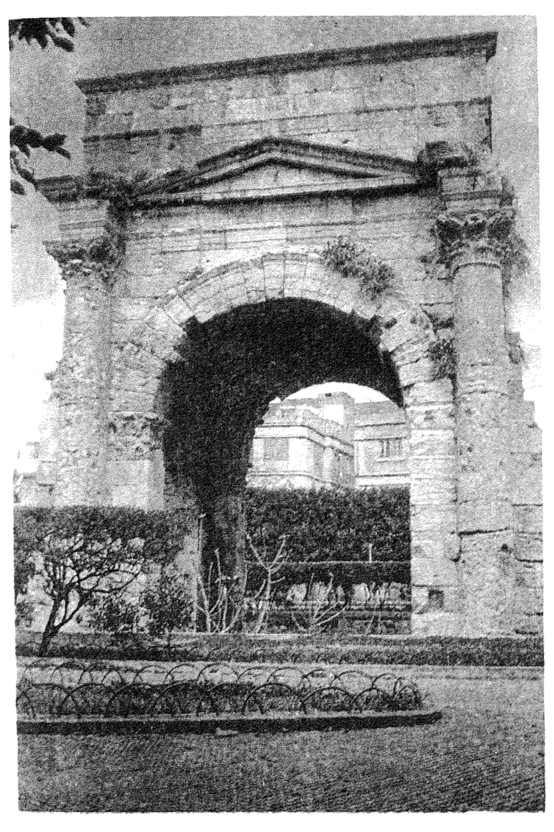


أوغاريت - القصر الملكي - اللاذقية

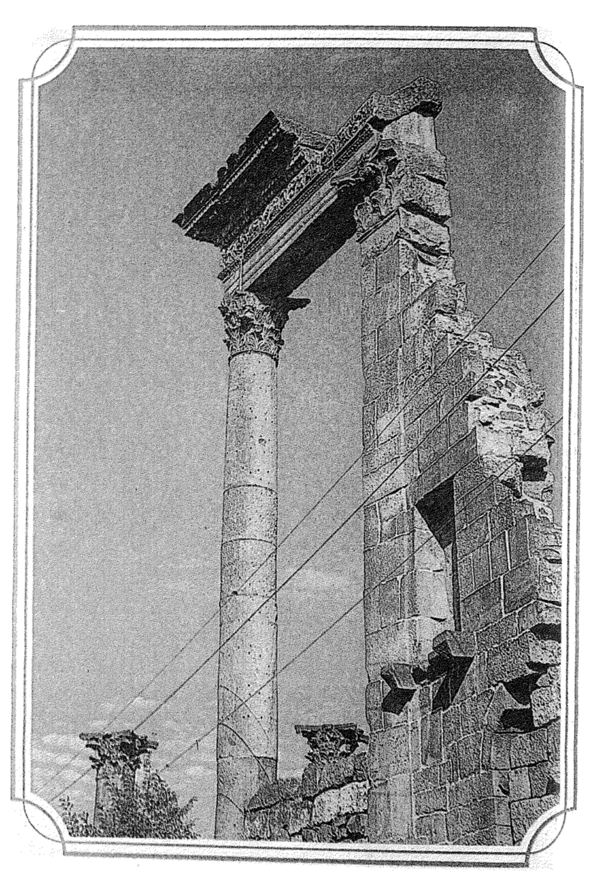
Ugarit The royal Palace Lattakia



أسد اللاذقية - (اللاذقية)



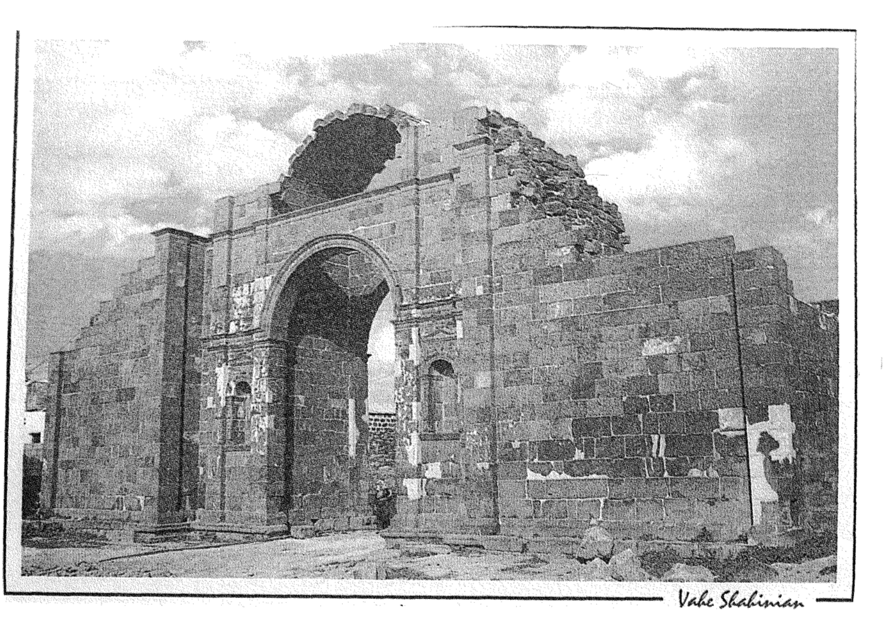
تترابيل اللاذقية (القرن ٣ م)



بصرى ـ سرير بنت الملك

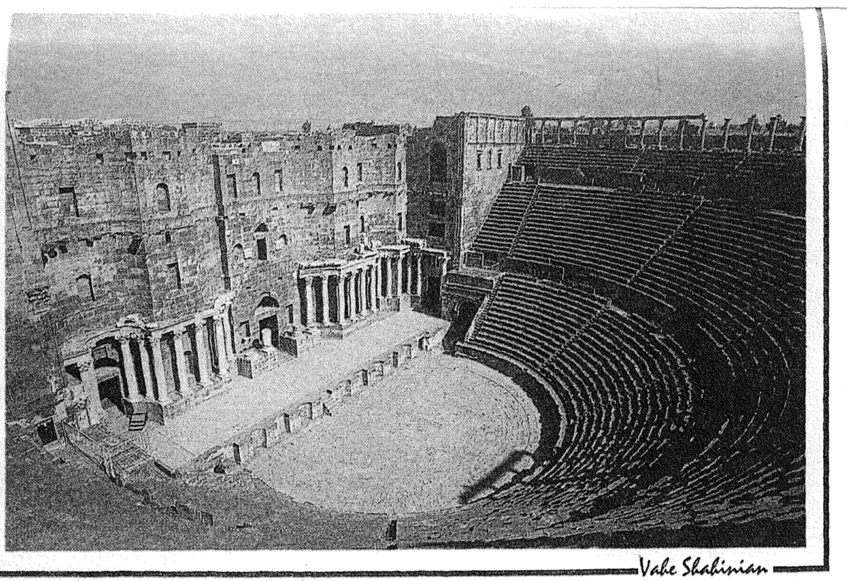
Vahe Shahinian

بصرى – الحمام الروماني



Vahe Shahinian

بصرى - بوابة المدينة



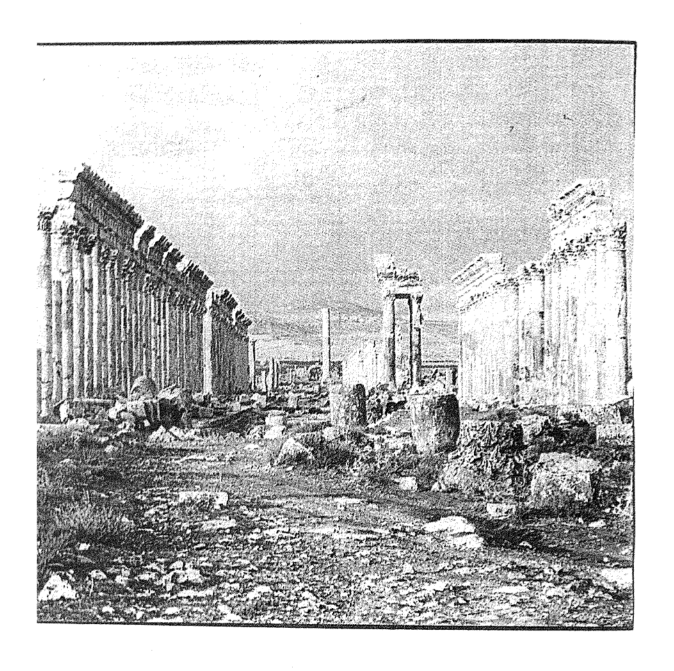
مدرج بصرى

معبد قديم في السويداء (فوغييه ـ ١٨٦٥)

AN OLD TEMPLE IN SWEIDA (VOGUE-1865)

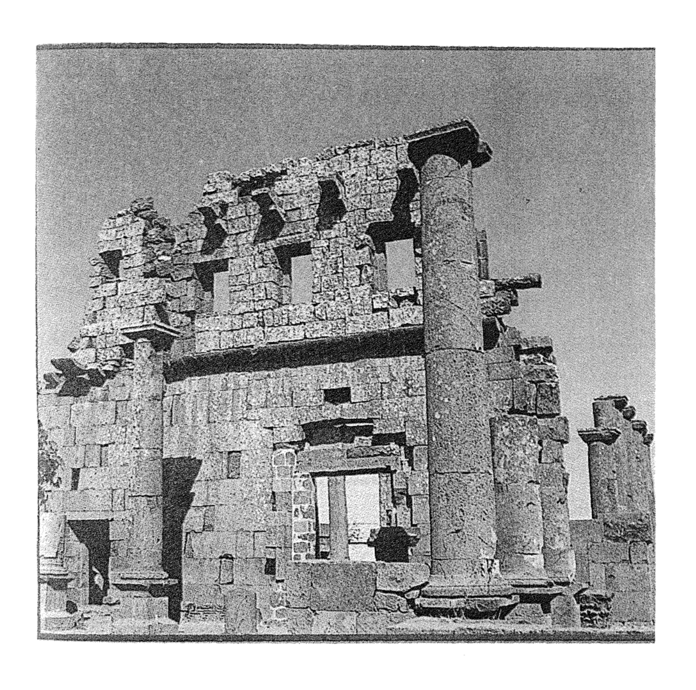


قوس النصر ـ بصرى



أفاميا، حماة

Aphamia, Hama



القنوات، شهبا

Kanawat, shahba

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- هـ -

- و -

- ي -

المصادر و المراجع

١ ـ ابراهيم نصحي:

أ ـ تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م) ـ طبع مصر (١٩٨٣م).

ب ـ تاريخ الحضارة المصرية (اليونان والرومان) ـ طبع مصر.

٢ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ طبع لبنان (١٩٦٥م).

٣ ـ ابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ.

٤ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ طبع بيروت (١٩٧٧م).

٥ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ طبع لبنان ـ بدون تاريخ.

٦ ـ ابن اياس ـ بدائع الزهور ـ طبع حلب ـ بدون تاريخ.

٧ ـ ابن خلدون:

أ ـ كتاب العبر ـ طبع (١٩٧١م).

ب ـ المقدمة ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ.

٨ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ طبع مصر.

٩ ـ أحمد أمين سليم ـ دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ طبع مصر (١٩٩١م).

١٠ـ أحمد داؤود ـ العزب الساميون والعبرانيين ـ طبع سوريا (١٩٩١م).

١١ـ أحمد شبلي ـ مقارنة الأديان ـ طبع مصر (١٩٦٥م).

١٢ـ أحمد غسان سباتو ـ اكتشافات مثيرة بتغيير تاريخ دمشق القديم ـ طبع سوريا.

١٣ـ أحمد فخري ـ دراسات في تاريخ الشرق القديم (مصر ـ العراق ـ سوريا ـ اليمن ـ إيـران) طبـع مصر (١٩٩٠م).

١٤ـ أحمد فضة ـ تاريخ العرب القديم ـ طبع بيروت (١٩٩٢م).

١٥ـ ادوارد جيبون ـ اضمحلال الامبراطورية الرومانية طبع دار الكتاب العربي ـ بدون تاريخ.

١٦ـ أسد الأشقر ـ تاريخ سوريا ـ طبع لبنان (١٩٧٨م).

١٧ـ أسد رستم:
أ ـ تاريخ اليونان ـ طبع لبنان (١٩٧٨م).
ب ـ تاريخ الرومان ـ سياستهم وحضارتهم.
١٨ـ الأمير موريس شهاب ـ دور لبنان في تاريخ الحرير ـ طبع بيروت (١٩٦٨م).
١٩ـ البعث ـ صحيفة البعث السورية.
٢٠ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ـ طبع بيروت.
٢١ـ التوراة.
٢٢ـ الخوري عيسى أسعد ـ تاريخ حمص.
٢٣ـ الحوليات الأثرية السورية.
٢٤ـ السيد الباز العريني ـ محالدولة البيزنطية ـ طبع بيروت (١٩٨٢م).
٢٥ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ طبع مصر (١٩٦٨م).
٢٦ـ الفريد روست ـ مكتشفات مغاور يبرود ـ طبع سورية (١٩٨٧م) .
الفريد هالدر ـ العموريون من هم وما هي مواطنهم ـ ترجمة شوقي شعت طبع دمشق (١٩٩٣م).
٢٧ـ القرآن الكريم .
٢٨ـ المسعودي :
أ ـ التنبيه والإشراق .
ب ـ مروج الذهب طبع بيروت (١٩٧٤م) .
٢٩ـ اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ .
٣٠ـ أمين الريحاني ـ قلب لبنان ـ طبع بيروت (١٩٦٥م) .
٣١ـ أندريه بارو ـ ماري ـ طبع سورية (١٩٧٩م) .
٣٢ـ أنيس فريحة ـ أسماء القرى والمدن اللبنانية طبع لبنان (١٩٩٦م)
٣٣ـ أور فيتوس ـ تاريخ العالم ـ طبع بيروت (١٩٩٢م) .
٣٤ـ أ ـ هـ جونز مدن بلاد الشام حيث كانت ولاية رومانية ـ طبع الأردن (١٩٨٧م) .
٣٥ـ إيلي ميكلو ـ رئيس كهنة أوغاريت ـ الأدب الأوغاريتي ـ التوراة الكنعانية ـ طبع لبنان (١٩٨٠م) .

٣٦ـ باولو ماتييه ـ إيبلا ـ طبع سورية (١٩٨٤م) .
٣٧ـ بلاند كين كير ـ فيلاد إيبون ـ النساء في أوغاريت ـ طبع سورية (١٩٩٠م) .
٣٨ـ بولي بركوفيتش كسير كين ـ الحضارة الفينيقية في إسبانيا ـ طبع لبنان (١٩٨٨م).
ــ بيكر مان ـ الدولة السلوقية ـ ملوك سورية السلوقيين .
٣٩ـ تشرين صحيفة تصدر في دمشق .
٤٠ـ توفيق سليمان ـ دراسات في حضارة غرب آسيا القديمة طبع سورية (١٩٨٥م) .
تعريب حسان إسحق طبع سورية (١٩٩٣م) .
٤١ـ تيودود نوكدله ـ امرؤ غسان ـ طبع بيروت (١٩٣٣م) .
٤٢ـ جان كوفان :
أ ـ القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع قبل الميلاد طبع سورية (١٩٩٥م).
ب ـ ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام طبع سورية (١٩٨٨م) .
جرجي زيدان ـ التمدن الإسلامي ـ طبع لبنان .
جلانفيل داوني ـ أنطاكية القديمة ـ طبع مصر (١٩٦٧م) .
جواد بولص ـ تاريخ لبنان ـ طبع لبنان (١٩٧٢م) .
جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب ـ طبع بيروت (١٩٧٦م) .
ج ـ هـ ـ هسي ـ العالم البيزنطي ـ طبع مصر (١٩٨٢م) .
جورج يني ـ تاريخ سورية طبع بيروت (١٩٨٦م) .
جيمس ميلارت أقدم الحضارات في الشرق الأدنى القديم ـ طبع سورية (١٩٩٠م)
حسن الشيخ ـ الرومان ـ طبع مصر (١٩٩٣م) .
حسن النجفي ـ معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم ـ طبع بغداد .
حسن ظاظا ـ الساميون ولغاتهم ـ طبع مصر (١٩٧٢م) .
حسين حجازي ـ جزيرة أرواد ـ طبع سورية (١٩٨٩م) .
حمزة الأصفهاني ـ تاريخ شتى ملوك الأرض ـ طبع لبنان .
حسن نعمة ـ من ذاكرة التاريخ (من الشرق الأدنى القديم) طبع بيروت (١٩٩٤م) .

خ تكسيدور ـ ب كانيفه ـ الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام (العصر الهليني والروماني) ـ ترجمة موسى ديب الخوري ـ طبع دمشق (١٩٩٦م) .
٥٤ـ دائرة المعارف الإسلامية .
٥٥ـ د. ادزارد. م. هـ. بوب. ف. رولينغ ـ قاموس الإله والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية) ـ طبع سورية (١٩٨٧م) .
٥٦ـ دونالد دولي ـ حضارة روما ـ طبع القاهرة (١٩٧٧م) .
٥٧ـ ر. هـ. بارو ـ الرومان ـ طبع مصر (١٩٦٨م) .
٥٨ـ رينيه ديسو ـ العرب في سورية قبل الإسلام ـ طبع سورية (١٩٥٩م) .
رينيه ديسو ـ الديانات السورية القديمة ـ ديانات الحثيين والحوريين والفينيقيين والسوريين (الآراميين) ـ ترجمة موسى ديب الخوري طبع دمشق (١٩٩٦م) .
٥٩ـ زبيدة عطا ـ الدولة البيزنطية ـ طبع لبنان ـ بدون تاريخ .
٦٠ـ سامي اليافي ـ الحضارة الإنسانية ـ طبع مصر (١٩٦٢م) .
٦١ـ سباتينو موسكاتي :
أ ـ الحضارة السامية القديمة ـ طبع لبنان (١٩٨٦م) .
ب ـ طبع سورية (١٩٨٨م) .
٦٢ـ ستيفن رنسيمن ـ الحضارة البيزنطية ـ طبع مصر (١٩٩٤م) .
٦٣ـ سلطان محيسن ـ عصور ما قبل التاريخ ـ طبع دمشق (١٩٩١م) .
٦٤ـ سميح وجيه الزين ـ تاريخ طرابلس ـ طبع بيروت (١٩٦٨م) .
٦٥ـ سليم حسن ـ مصر الفرعونية ـ طبع مصر (١٩٩٢م) .
٦٦ـ سليمان ناجي ـ المفسدون في الأرض ـ طبع بيروت (١٩٩٤م) .
٦٧ـ سيد أحمد علي الناصري ـ الروم ـ تاريخهم ـ حضارتهم وعلاقتهم بالمشرق ـ طبع مصر (١٩٩٣م) .
٦٨ـ أ ـ ش ـ شيفمان :
أ ـ المجتمع السوري القديم ـ طبع سورية (١٩٨٧م) .
ب ـ مجتمع أوغاريت ـ طبع سورية (١٩٨٨م) .
ج ـ ثقافة أوغاريت ـ طبع سورية (١٩٨٨م) .

٦٩ـ صبحي الصواف ـ أقدم ما عرف عن حلب من الألف الثالث حتى العصر السلوقي ـ طبع سورية (١٩٥٢م).
صفية سعادة ـ أوغاريت ـ طبع بيروت ـ (١٩٨٢م) .
٧٠ـ عاديات حلب طبع حلب .
٧١ـ عارف العارف ـ تاريخ القدس ـ طبع مصر .
٧٢ـ عباس محمود العقاد ـ إبراهيم أبو الأنبياء ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ .
٧٣ـ عبد الحميد زايد ـ القدس الخالدة ـ طبع مصر (١٩٧٤م) .
عبد الرحمن حميدة ـ محافظة حلب ـ سلسلة بلادنا ـ طبع دمشق (١٩٩٢م) .
٧٤ـ عبد السلام تدمري ـ تاريخ طرابلس ـ طبع بيروت (١٩٦٨م) .
٧٥ـ عبد العزيز صالح ـ الشرق الأدنى القديم ـ طبع مصر .
٧٦ـ عبد العزيز صالح ـ تاريخ العرب في عصر الجاهلية ـ طبع لبنان (١٩٧١م) .
٧٧ـ عبد اللطيف أحمد علي :
أ ـ التاريخ الروماني (عصر الثورة ـ طبع لبنان (١٩٧٣م)) .
ب ـ مصادر التاريخ الروماني ـ طبع مصر (١٩٧٠م) .
٧٨ـ عبد الفتاح رواس القلعه جي ـ حلب القديمة ـ طبع لبنان (١٩٨٩م) .
٧٩ـ عبد الملك بالقريب الأصمعي ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ طبع بغداد (١٩٥٩م).
عبد الهادي عباس ـ المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها ـ طبع سورية (١٩٨٧م)
٨٠ـ عبد الهادي نصري ـ شمس آرام شمس العرب ـ طبع سورية (١٩٨٩م) .
٨١ـ عبد الله التل ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية .
٨٢ـ عدنان الجندي ـ الفن العموري ـ طبع سورية (١٩٧٢م) .
٨٣ـ عدنان البني ـ خالد الأسعد ـ تدمر أثرياً وتاريخياً ـ طبع سورية .
٨٤ـ عصام محمد شبارو ـ تاريخ بيروت ـ طبع بيروت (١٩٨٦م) .
٨٥ـ عفيف بهنسي :
أ ـ وثائق إيبلا ـ طبع سورية (١٩٨٤م) .
ب ـ الشام والحضارة ـ طبع سورية (١٩٨٦م) .
٨٦ـ علي أبو عساف :

أ ـ آثار الممالك القديمة ـ طبع سورية (١٩٨٨م) .
ب ـ فنون الممالك القديمة ـ طبع سورية (١٩٩٣م) .
ج ـ الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً ـ طبع سورية (١٩٨٢م) .
د ـ نصوص من أوغاريت ـ طبع سورية (١٩٨٨م) .
٨٧ـ علي القيم :
أ ـ أضواء على الذاكرة القديمة ـ طبع سورية (١٩٨٦م) .
ب ـ امبراطورية إيبلا ـ طبع دمشق (١٩٨٩م) .
٨٨ـ عيسى اليازجي ـ مآثر سورية في العصر الروماني ـ طبع سورية (١٩٩١) .
٨٩ـ عبد مرعي ـ إيبلا ـ تاريخ وحضارة أقدم مملكة سورية ـ طبع سورية (١٩٩٦م) .
٩٠ـ غالب عامر ـ داوود نمر ـ جبل العرب ـ طبع سورية بدون تاريخ .
٩١ـ فتحي عبد الحميد الضفاوي ـ الموسيقا البدائية وموسيقا الحضارات القديمة ـ طبع مصر (١٩٨٥م) .
٩٢ـ فراس سواح :
أ ـ آرام دمشق وإسرائيل ـ طبع سورية (١٩٩٥م) .
ب ـ الحديث التوراتي والشرق الأدنى القديم .
٩٣ـ فرانتس ألتيهايم ـ إله الشمس الحمصي ـ طبع سورية (١٩٩٠م) .
٩٤ـ فرج بصمه جي ـ كنوز المتحف العراقي ـ طبع العراق (١٩٧٣م).
٩٥ـ فرنال برد ويل ـ البحر المتوسط والمجال والتاريخ ـ طبع سوريا (١٩٩٠م).
٩٦ـ فؤاد قازان ـ لبنان في محيطه العربي ـ طبع بيروت (١٩٧٢م).
٩٧ـ فيليب حتي:
أ ـ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ طبع لبنان (١٩٨٢م).
ب ـ سوريا والسوريين من نافذة التاريخ.
ج ـ لبنان في التاريخ ـ طبع بيروت (١٩٥٩).
د ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ طبع بيروت (١٩٥٨م).
٩٨ـ قتيبة الشهابي ـ هنا بدأت الحضارة ـ طبع سوريا (١٩٨٨م).
٩٩ـ كارل بروكلمات:

أ ـ تاريخ الشعوب العربية ـ طبع (١٩٤٧م).

ب ـ العرب والامبراطورية العربية ـ طبع

١٠٠ـ كونتيتو ـ الحضارة الفينيقية ـ طبع مصر (١٩٤٨م).

١٠١ـ لجنة من الأدباء ـ لبنان ـ مباحث علمية واجتماعية.

١٠٢ـ لطفي عبد الوهاب لجي:

أ ـ العرب في العصور القديمة ـ طبع مصر (١٩٩٠م).

ب ـ دراسات في العصر الهلنستي ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ.

١٠٣ـ ليونارد دولي ـ الالاخ (مملكة منسية) ـ طبع سوريا (١٩٩٢م).

١٠٤ـ مارتن اليسوعي ـ تاريخ لبنان ـ طبع لبنان (١٩٦٩م).

١٠٥ـ ماكس شابيرو ـ رودا هندوبكس ـ معجم الأساطير ـ طبع الكندي (١٩٨٩م).

١٠٦ـ مجير الدين الحنبلي ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ طبع لبنان بدون تاريخ.

١٠٧ـ مجلة دراسات تاريخية ـ طبع سوريا.

١٠٨ـ محمد أبو المحاسن عصفور ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ طبع لبنان ـ بدون تاريخ.

١٠٩ـ محمد الصغير غانم ـ التوسع الفينيقي ـ طبع لبنان (١٩٨٢م).

١١٠ـ محمد حرب فرزات ـ موجز تاريخ سورية القديم ـ طبع دمشق (١٩٨٣م).

١١١ـ محمد فتحي الشاعر ـ السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية ـ طبع مصر (١٩٨٩م)

١١٢ـ محمد محفل ـ دراسات في تاريخ الرومان ـ طبع لبنان (١٩٩٥م).

١١٣ـ محمد مهران بيومي:

أ ـ بلاد الشام ـ طبع مصر (١٩٩٠م).

ب ـ المدن الفينيقية تاريخ لبنان القديم ـ طبع بيروت (١٩٨٤م).

ج ـ حركات التحرير في مصر القديمة ـ طبع مصر (١٩٧٦م).

د ـ تاريخ العرب القديم ـ طبع مصر (١٩٩٤م).

و ـ اخناتون.

هـ ـ اسرائيل.

١١٤ـ محمود شكري الألوسي ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ طبع لبنان بدون تاريخ

١١٥ـ محمود محمد الحريري ـ رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية ـ طبع (١٩٨١م).

١١٦- مفيد رائق العابد:

أ - دراسات في تاريخ الإغريق - طبع سورية (١٩٩٠م).

ب - سورية في العصر السلوقي - طبع سورية (١٩٩٣م).

١١٧- مصطفى العبادي - الامبراطورية الرومانية - طبع لبنان (١٩٩٥م).

١١٨- منذر الحايك - فيصل شيخاني - حمص درة مدن الشام - طبع سورية (١٩٩٥م).

١١٩- مؤيد الكيلاني - محافظة حماه - طبع سورية (١٩٩٤م).

١٢٠- موريس شربل - الرياضيات في الحضارة الإسلامية - طبع لبنان (١٩٨٨م).

١٢١- نبيل راغب - عصر الإسكندر الذهبي - طبع مصر (١٩٩٣م).

١٢٢- نسيب وهيبة الخازن - من الساميين إلى العرب - طبع لبنان (١٩٧٩م).

١٢٣- نور الدين حاطوم - نبيه عاقل - أحمد طربين - صلاح مدني - موجز تاريخ الحضارة - طبع سورية ١٩٦٥م).

١٢٤- هارفي بورتر - موسوعة مختصر التاريخ القديم - طبع مصر (١٩٩١م).

١٢٥- هـ. بارو - الرومان - طبع مصر (١٩٦٨م).

١٢٦- هشام الصفدي - تاريخ الشرق القديم - طبع سورية (١٩٨٤م).

١٢٧- هنري - س - عبودي - معجم الرياضيات السامية - طبع لبنان (١٩٩١م).

١٢٨- هنري غينتر - بيروت ولبنان - طبع بيروت (١٩٤٨م).

١٢٩- هـ. موريس - ميلاد العصور الوسطى - طبع مصر (١٩٦٧م).

١٣٠- وديع بشور - سوريا وقصة الحضارة - طبع لبنان (١٩٨٩م).

١٣١- ياقوت الحموي - معجم البلدان - طبع بيروت - بدون تاريخ.

١٣٢- يوسف الدبس - تاريخ سورية - طبع لبنان (١٨٩٩م).

١٣٣- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - طبع بيروت - بدون تاريخ.

١٣٤- يوسف مزهر - تاريخ لبنان العام - طبع بيروت - بدون تاريخ.

١٣٥- يوسف يزبك - أوراق لبنانية.

المحتويات

الباب الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الباب الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

رقم الإيداع (٤١١٦١)

٣٠ / ١٠ / ١٩٩٧م

أثبتت المكتشفات الأثرية في حوض النهر الكبير الشمالي (اللاذقية) قرب قرية (ست مرخو) أن وجود الإنسان واستقراره يعود إلى مليون سنة خلت ، وتم اكتشاف أكمل تشكيلة أثرية وجيولوجية بدءاً من مليون سنة حتى خمسين ألف سنة ، ووجدت أدوات حجرية صوانية ، تمثل كل مراحل ماقبل التاريخ .

* * *

أليست اللغة العربية أكبر دليل على قدم العربية ؟ تلك اللغة ، التي تختلف عن كل لغات العالم بما تحويه من ألغاز أو معان ، تفتقدها بقية لغات العالم ، إن الخوض في أصل نشأة اللغة فضول لا أصل له ، إلا أن الكثير من الدلائل والمسلّمات تؤكد على قدم اللغة العربية من ذلك الأحاديث النبوية التالية : الأول (خمسة أنبياء من العرب اسماعيل وهود وصالح وشعيب ومحمد "ص") ، الثاني (أحب العرب لثلاث ، لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولغة أهل الجنة عربية) ، الثالث (العربية ليست بأب ولا بجد ، وإنما هي لسان ناطق ، فمن تكلم العربية فهو عربي) .

* * *

كانت سورية مهد الحضارات ، حيث انصبت فيها كل المؤثرات والتأثيرات الخارجية وتفاعلت فيها ، وقامت سورية بتصدير المنتوج الحضاري المتمازج إلى الغرب ، إذاً إن الإنسانية بأكملها تعتبر مدينة للعرب وخاصة بعد اكتشاف الأبجدية ، التي أصبحت مع الزمن مصدراً أساسياً لكل الكتابات الأبجدية المعروفة حالياً .

والفينيقيون هم أول من وضع الحروف الهجائية في التاريخ ، وهم الذين أعطوا هذه الحروف قيماً عددية حسب نظام عشري مجزأ وغير مكتمل . وأول نعمة أعطيت للبشرية كانت الأبجدية ، التي نقلها اليونان غالباً بين (٨٥٠-٧٥٠ ق.م) ، وأعظم منحة أنعمت بها الحضارة السورية على البشرية . وإلى العرب السوريين القدماء يعود الفضل في اكتشاف ديانة التوحيد . ولهم الفضل في اكتشاف المحيط الأطلسي .



دمشق ١٩٩٨